

A-PDF Image To PDF Demo. Purchase from www.A-PDF.com to remove the watermark
مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك
الإسلام
وحضارته
تأليف: أندريه ميكيل
ترجمة: الدكتورة زينب عبد العزيز
مراجعة: كمال الدين الحناوي
منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الإسلام وحضارته

تأليف: أندريه ميكيل

ترجمة: الدكتورة زينب عبد العزيز

مراجعة: كمال الدين الحناوي

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

ظهور الغلاف الأول :

القرآن ، مخطوط اندلسي من عام ٧٠٣/ ١٣٠٤ . باريس ، المكتبة العامة ، (تصوير هـ. لالانس)

ظهور الغلاف الثاني

جنوب فرنسا وايطاليا في أطلس الجغرافي الادريسي (القرن الثاني عشر) . وحيث ان الشمال ممثل إلى أسفل ، فعلينا مراعاة الآتي : ا) على الجانب الأيسر ، شكل « البوت » الذي يمثل ايطاليا (وبذلك تقع نابولي وسرينتي وأمالفي وسالرنو إلى أعلى في أقصى الشمال) ، ب) على الجانب الأيمن : خليج جنوة ونهر الرون الذي يصب فيه بعد ان مر ـ من أعلى إلى أسفل ـ بكل من جنيف وماكون وليون وفيينا وسان جيليس ومارسيليا ، وإلى اليمين أكثر نرى مكان نهري اللوار والجارون بكل أقل تأكيدا : وفي هذه المنطقة ومن أسفل إلى أعلى يمكننا قراءة أسماء ديجون ونيفير وليموج ومونلسون وكليرمون وانجلوليم وكاتور وآجاق وموتوبون وتولوز . باريس ، المكتبة القومية ، مخطوط مغربي من القرن الثامن عشر (اكتاكروم هـ. لالانس)

■ نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة « مصائر العالم » بإشراف فرناند بروديل.
■ قام سرج بونان بعمل الخرائط وميشيل كابو بتصميم الغلاف.

■ ترجم كتاب «الإسلام وحضارته» من اللغة الفرنسية إلى كل من اللغات الألمانية والاسبانية والايطالية والعربية.

■ راجعه واعد الفهارس للطبعة العربية كمال الدين الحناوي .

النـاشر: أرمـان كولان

١٠٣ ـ طريق سان ميشيل ـ باريس ٥

يطلب من

وكالة إيبيس للنشر والتوزيع ـ ٢٥ شارع عرابي ـ القاهرة

فاتحة

هذا الكتاب « الاسلام وحضارته» دراسة شاملة تمر بك عبر القرون في كل أرض طاف بها الإسلام فاستقر وأينع وأثمر، أو مر بها عابرا فترك أثرا باقيا على الزمان في لمحة فكر أو جمال فن أو روعة بناء وكلها بصمات تركها حيثما استقر أو عبر لتقول للعالم أن الإسلام مر من هنا، وليس الزمان بقادر على محو ما تركه من آثار.

وهذا العمل الكبير ظلت نفسي تراودني على إخراجه في اللغة العربية ليعلم المسلمون الناطقون بالعربية كيف يراهم الغرب عبر العصور، وكيف يقدم صورة الإسلام والمسلمين في سعيها الدائب وسيرها الحثيث وفي تطورها صعودا وهبوطا على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان.

ومؤلف « الإسلام وحضارته» غربي وغير مسلم، ولكنه عايش الاسلام والمسلمين فترة من حياته عاملا بينهم وباحثا ومعلما واستاذا، وهو مختلف - فيما أرى - عن غيره من الغربيين والمستشرقين الذين كتبوا عن تراث الإسلام ودوره الحضاري، فقد حاول جهده أن يكون موضوعيا منصفا، وقد حاول جاهدا أن يغطي الأبعاد الإسلامية الشاسعة على امتداد الأرض والزمان وأن يعطي صورة للجهد الإسلامي في مختلف فنون المعرفة والعلم والفن والأدب، ومدى اسهام ذلك كله في البناء الكبير الشاسع للحضارة الانسانية، ولعله قد وفق الى حد كبير في تقييم الجهد الحضاري الإسلامي.

إن هذا الكتاب يعطي صورة شاملة لما يقال عن الإسلام واسهامه بجهده

الانساني في دفع عجلة التقدم وإثراء الحضارة الإنسانية ويتتبع ذلك حتى السنوات الأخيرة في السبعينات.

وقد قامت الاستاذة الدكتورة زينب عبدالعزيز بجهود مرهقة ومشكورة لترجمة الكتاب إلى العربية من أسلوب فرنسي «صعب المداخل» كثير الجمل الاعتراضية لا يملك ترجمته إلا القادرون المتمكنون، وقد حاولنا في المراجعة العربية أن يجيء واضحا خاليا من الغموض أمينا في النقل والاداء حتى يبرز رأي المؤلف كما أراده أن يكون.

والكتاب يوضح وجهة نظر مؤلفه ويعبر عن رأيه في القضايا التي تناولها وقد نقلناه بأمانة ودون تعليق من جانبنا، وقد وافق بنفسه على الترجمة قبل نشرها.

بقي إيضاح واحد حول عنوان الكتاب «الإسلام وحضارته» فكلمة الإسلام الواردة في عنوان الكتاب تستعمل بمعناها الشامل،فهي تستعمل في حياتنا بأكثر من معنى ومن مفهوم، فنحن عندما نقول «الإسلام» قد نعني بذلك «الدين الإسلامي» وقد نعني بها «المسلمين» كما قد نعني بها «التاريخ الإسلامي» على امتداد العصور.

فكلمة «الإسلام» قد تستعمل لتدل على محصلة الجهد الانساني والحضاري الذي تحقق على مساحة شاسعة شاسعة تمتد من الأندلس إلى الهند والصين بواسطة أقوام كانت لغة القرآن «اللغة العربية» لغتهم الأولى أو الثانية، وكان الناس مطبوعين بطابع الثقافة المتصلة روحا وجذورا بالدين الإسلامي ومنابعه الفكرية، فالإسلام يعني الناس والأرض والعقيدة وكل ما يتصل بذلك في هذا العالم الواسع الرائع على امتداد أربعة عشر قرنا إلى اليوم.

وإننا إذ نقدم هذا العمل الكبير إلى قارىء العربية نرجو أن نكون قد أسهمنا بقسط في إلقاء الضوء على نواح من الحضارة الاسلامية والثقافة الانسانية.

ولقد أسعدني حقا أن أقوم بمراجعة الكتاب وإعداد فهارسه العربية اتماما للفائدة.

والله من وراء القصد،

القاهرة في ١٥ أغسطس ١٩٨١

كمال الدين الحناوي

تحليل موجز

٢ ـ من منتصف القرن الثالث عشر إلى فجر القرن الخامس عشر : مماليك ومغول .

٣ ـ الأزمة العثمانية .

٤ ـ موازنة عصر : انحلال أم امتدادات جديدة ؟

الباب الرابع : الإمبريالية و« عصر النهضة العربي »

(من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين)

١ ـ الأوجه الأخرى للإسلام وانتفاضات منطقة البحر الأبيض (حتى عام ١٨٨٠) .

٢ ـ تصعيد الوطنيات (من عام ١٨٨٠ إلى أعقاب الحرب العظمى) .

٣ ـ الإسلام في القرن العشرين (من أعقاب الحرب العظمى) .

إن الظروف الراهنة لهذه الطبعة والاهتمام باختصار الفترة الزمنية بين نفاذ الطبعة الأولى وإعادة طبعها قد حالت دون القيام بعمل تغيير شامل أو إجراء تعديلات حقيقية في النص الأصلي أو حتى بعض الإضافات الناجمة عن تطور البحث العلمي . وقد اضطررنا ـ دون ادعاء توخي الدقة المتناهية ـ إلى إضافة بعض التوجيهات لمزيد من الاطلاع ، ولقد قامت السيدة إيف باريه باستكمال الجداول التاريخية حتى نهاية عام ١٩٧٦ كما راجعت آخر فصل بالكتاب .

مقدمة لتاريخ سيار

الإسلام تاريخ شاسع : إذ يمتد أربعة عشر قرناً تقريباً تغطي الثمانية الأولى منها عصر الاكتشافات الكبرى أي أنها تمثل ثلث تاريخ العالم المعروف .

ترى هل سيغفر لنا القارىء تقييد مثل هذا الزمن الممتد في صفحات محدودة ؟ لقد أدرك المؤلف نفسه أكثر من أي شخص آخر ما لهذا المشروع من جسارة ومن صعوبة لتحقيقه لكن . . هل كان يمكنه أن يضن على القارىء بالخيط الرئيسي لهذا التاريخ بكل ما يتضمنه من أسماء وأحداث وتواريخ ؟ . . . لعل الإجابة بالنفي مغرية إلا أن ثراء ما يتضمنه هذا الكتاب من وقائع تجعله عرضة للمتاهات .

لذلك توصل المؤلف إلى اختيار الحل الوحيد الذي رآه لعرض هذه الأحداث وإن لم يكن أفضلها . . فدون الغوص في تفاصيل تاريخ يزخر بالأحداث الحافلة وغير المستقرة ـ وذلك لصعوبة حل المشاكل المتعددة التي يطرحها هذا التاريخ ـ فلقد آثر المؤلف الاحتفاظ بما يمكنه من تدعيم تأمل « مصير » الإسلام من خلال ذاته ومن خلال مصير العالم نفسه الذي يتبعه الإسلام ويتضمنه أو يقوده أحياناً .

١ ـ عجز وتحيز التقاليد التاريخية

إن تاريخ الإسلام ما زال غير معروف تماماً رغم جمال بعض إنجازاته ورغم ما تحمله آثاره ومخطوطاته من معطيات ، ولعل ذلك يرجع إلى التاريخ نفسه ، فقد

تلاحقت أو تضافرت الثورات الاجتماعية والحملات البربرية والتطرفات الدينية على هدم مدن بأكملها وتشتيت وثائقها وحرق مكتباتها ، وربما تساءل المؤرخ قائلاً أنه لا بد من الإستعانة بما تبقى . . ولا شك في صحة ذلك إلا أن مثل هذا الموقف له مخاطره إذ أنه سيؤدي إلى الاعتماد على ما هو معروف بالفعل أو إلى اعتباره ـ على أحسن الفروض ـ أنه أهم الأحداث ، ولنقل على سبيل المثال : لكي نتقصى أبسط محاولات اعتناق القارة السوداء للإسلام ، تلك الظاهرة الكبرى ذات الأبعاد العالمية ، فإننا لا نملك إلا بعض النصوص النادرة أو هي في الواقع ليست سوى بعض الفقرات .

مطامح الشعوب المختلفة الأعراق

ليست عوامل الصدفة وحدها في الواقع هي المسئولة عن تشكيل التاريخ ، ولا شك في أن كل شعب من الشعوب الإسلامية المختلفة كان ينظر إلى الإسلام من وجهة نظره ، مما أدى إلى خطورة الجداول الجزئية التي تجاهلت معطية أو أخرى من معطيات الإسلام في إجماله ذلك لأن أوسعها أو أكثرها طموحاً يمكنها أن تخضع للتزييف أو أن تحيد عن الهدف الأساسي للكاتب .

لنأخذ المثل النموذجي للإيرانيين : فهؤلاء يتمتعون بتراث تاريخي ووطني متين يجعل من بلاد الفرس مركزاً للعالم المأهول بالسكان كما يجعل من ماضيها فترة من أهم الفترات الأساسية لتاريخ المغامرة الإنسانية ، والإسلام بالنسبة لبعض هؤلاء ليس إلا مرحلة من مراحل هذا التاريخ العالمي والوطني في آن واحد ، كما سيرى البعض الآخر والأكثر اندماجاً في الديانة الجديدة أنها تمثل نهاية المطاف أو ذروته إلا أنهم جميعاً أو بعضهم سيرفضون بنسب متفاوتة سيطرة الشعوب العربية على الرسالة الإسلامية ، وجميعهم أو معظمهم سيطالبون إخوانهم بكل ما يخوله لهم التراث العميق بأحقية وجود إسلام متعدد الأجناس بل ومتعدد اللهجات ، ذلك هو الصراع بين العرب والآخرين الذين يطلق عليهم اسم العجم ، ومن السهل إذن أن نتخيل التحيزات المتوارية أو الصريحة لأدب قد نشأ في مثل هذا الجو من المنازعات وأحياناً في جو من الصراعات .

مدارس وأحزاب

نرجو ألا يلومنا القارىء للتحدث بإسهاب عن بعض النصوص العربية ،

ذلك لأن معظم أجزاء هذا التاريخ وكل معرفتنا به مستقاة منها ، وكثير من هذه النصوص إن لم يكن معظمها جدير بكل تقدير حتى إذا كان المناخ الذي ذكرناه فيما سلف يدفعنا إلى أن نقرأها بأقل قدر من روح النقد ، فالحرص هنا ضروري إذ أن تعبير اللغة العربية لا يعني « الكاتب العربي »فاللغة التي نشأت عن القرآن قد تحولت إلى وسيلة تعبير وثقافة لنفس هؤلاء الذين اعترضوا على احتكارها .

لكن لنترك جانباً هذه الاعتبارات إذ أن هناك ما يتعلق بمعتقدات المدارس الإسلامية المتعددة فالمضمون السياسي والديني يتداخلان بلا نهاية ، ويطغيان على الأعمال والنصوص إذن سواء كانت متحيزة أو دفاعية عن الدين أو حتى منتمية له ، رغم ما في هذا التعبير من إيحاء ، فهي تختلف عن نصوص مؤلفينا حتى في أبسط الاتجاهات ، مما يجعل الاختيار يتأرجح بين الاتفاق والاختلاف حول أبسط التفاصيل ، وإن كانت كلها غنية بما يتيح لكل منتم إلى إحدى المدارس أن يضيفه من معلومات .

ودون التمادي في هذه الخلافات المتعددة ، فالمرء سرعان ما يميل إلى الجانب الأساسي ، الجانب الذي تمثله السنة حارسة تراث النبي ، والشيعة التي تحدد هذا التراث في شخص علي وفي خلافته ، فهو رفيق النبي محمد وقريبه وصهره ، ولا شك أنه توجد بين الجانبين جماعات مهتمة بالاعتدال أو بالتقارب ، أو حتى بمحاولة الجمع بينهما ، وإجمال القول أن معظم الاختلافات المذكورة ـ ولا بد من تحديد ذلك ـ تقع داخل المعسكر الواحد من هذين المعسكرين المنقسمين بشكل حيوي إلى كتلتين في التاريخ الإسلامي ، فلا يخلو أي نص عربي من هذا التقسيم الذي يوضح في نفس الوقت المصاعب الناجمة عنه عند أي تقدير موضوعي للظواهر الإسلامية .

والمؤرخون العرب في إجمالهم ميالون إلى الشيعة ، ومن هنا فهم معارضون للخلفاء الأمويين الذين يتهمهم الشيعة باغتصاب حقوق خلافة علي ، وهكذا فإن قرناً بأكمله هو القرن الأول لتاريخ الإسلام وقرن شبابه المنتصر غير معروف لدينا سوى من خلال تراث عادة ما يكون متحفظاً أو معادياً .

عادات ثقافية

هناك عناصر أخرى تحد من معرفتنا للعالم الإسلامي معرفة أكثر عمقاً ،

ترجع إلى ظروف المجال الثقافي الذي كتبت فيه هذه الوثائق ، فالأدب العربي مثله مثل كل الآداب ، هو أدب طبقي أي أنه أدب ناجم عن طبقة معينة ، هي الطبقة المثقفة الميسرة التي تكتب الأعمال وتعكس نفسها من خلالها ، وعلى أي حال فإنها قليلاً ما تهتم بالأحداث اليومية للحياة وتغرق في القصص المثالية ، والأحداث الفريدة ، والموضوعات الفقهية الكبرى والدينية والنحوية ، والمناقشات الشعرية . أما طبقة الفلاحين والحرفيين والعمال وصغار التجار والمقايضين والعديد من هذه الطبقات الدنيا والأساسية بالنسبة للتاريخ فإن هذه النصوص تترك عطشنا بلا ارتواء .

ومن جهة أخرى ، فبما أن الشرق - والعراق في الصدارة - يعد المهد والنموذج الحضاري ، فإن بلاد المغرب كثيراً ما تبدو كالقريب الفقير في هذه النصوص ، وكأنها على هامش الإسلام أو على حد قول أحد المؤلفين : أن المغرب يبدو مثل كم الرداء بالنسبة للجلباب .

وهؤلاء الكتاب يتحدثون عن المغرب ولا شك فهو جزء من الإسلام لا يمكن إنكاره ، لكن ما يخصه من نصوص يبدو شاحباً بالنسبة لهذا العدد الهائل من المعطيات الخاصة بالشرق .

ليست هذه سوى بعض التحفظات التي غذاها التراث الأدبي إلا أنه يمكننا التنويه أيضاً - على سبيل المثال - بأن هذه النصوص تهتم بالأحداث المميزة أو الفريدة ، وإن اهتمامها لا ينصب بنفس القدر على ما يحقق وحدة هذه البلاد وإنما على ما يميزها ، فهي لا تهتم بالتبادل التجاري والمنتجات الأساسية بقدر اهتمامها بالنبات والبقول والعناصر الخاصة بمنطقة أو بأخرى ، وهكذا فإن الصورة الحقيقية يمكنها أن تختل في كل لحظة بسبب وجهة نظر تهمل معطيات الحياة اليومية في سبيل إبراز بعض الأحداث الشهيرة التي تتباهى بها ، مما ينتج عنه بعض المغالطات أحياناً ، فالحديد وبعض المعادن النافعة الأخرى أقل شهرة من الذهب والأحجار الكريمة ، والنباتات الغذائية والتقليدية تترك مكانها للنباتات الجديدة والنادرة والتجارية أو الطبية ، أما الزراعة فهي تنمحي برمتها مع الحرفيات ، وكذلك الحرفيات الأساسية في مواجهة الحرفيات الفاخرة مثل صناعة النسيج .

وهناك مثل آخر لعله الأخير ، فإن التراث العربي قائم على التمييز بين

ضرائب الشرفاء والضرائب العقارية التي يتحدث عنها المؤرخون والجغرافيون بإسهاب ، وبين الضرائب الوضيعة المتعلقة بالأعمال التجارية والضرائب غير المباشرة التي عادة ما يلقون عليها بنقاب لإخفائها أو على العكس يبالغون فيها وفي مساوئها .

ولعل القارىء يتساءل حول نفس هذا المثل : هل نعرف حقيقة وضع الضريبة العقارية ؟ في الواقع أننا نعرفها فقط حينما تكون مستقاة من معلومات أحد الكتاب الجادين الذين يرجعون مباشرة إلى أضابير عصرهم ، ولكن أمام مثل هذه الحالة المميزة كم من الكتاب لا يقعون في خطأ النقل المتتالي من بعضهم بعضاً ، مرددين نفس الأرقام أو نفس المعطيات رغم تغير التاريخ . . . فبقدر ما تعتبر هذه الوسيلة الحالة المثلى بالنسبة للباحث الاجتماعي الذي يمكنه أن يدرس العديد من الموضوعات من خلال هذه المعطيات المتكررة ليستشف منها الخطوط الفكرية أو الثقافية العريضة ، فإن نفس هذه الوسيلة تدفع بالمؤرخ إلى اليأس إذ أنه يحاول دائماً تخطي مظاهر الحقيقة ليصل إلى الحقيقة نفسها .

نقائض المستشرق التقليدي

ربما كانت صورة هذه النقائض يشوبها السواد أو تبدو تقليدية بعض الشيء في محاولة توضيحها بالنماذج المييزة سواء كانت هامشية أم لا إلا أنها تسمح لنا بتفسير ميول بعض المستشرقين الذين ينساقون بسهولة ـ وفقاً لأفضليتهم ـ للتراث القادم من الشرق .

والواقع أن تاريخ الإسلام ظل لفترة طويلة هو تاريخ الطوائف الدينية أو السلالات الحاكمة لأنه ظل لفترة طويلة يغفل التعرض للوثائق الناقصة أو إثارة بعض المشاكل الاقتصادية الهامة التي عرفها الإسلام خشية من عدم استطاعته حلها ، وعلى نفس النحو يمكننا أن نتساءل عما إذا كان تاريخ شمال افريقيا أو حتى إسبانيا قد حصل كل منهما على القدر الكافي والمكانة الحقيقية والموضوعية التي يستحقها في القرن العشرين فيما يتعلق بمستقبل الإسلام ، والإجابة قطعاً بالنفي خاصة إذا ما قارنا النتائج بكم المعطيات المتراكمة حول تاريخ المشرق والتي تحتل نصيب الأسد لدى العلماء الغربيين .

وهناك مقارنة أخرى وغرابة أخرى ، فمن الصعب أن ننكر أن مذهب الشيعة الذي ليس إلا جانباً من جوانب الإسلام ، قد حظي بمكان الصدارة في أبحاث الغرب ، في حين أن الإسلام اليوم التابع للمذهب السني بشكل عام قد انتظر فترة طويلة حتى تفسح له المكانة الحقيقية التي يحتلها في خط التطور .

ولنكتف بهذه الأمثلة ، فكون تاريخ الإسلام بشكل عام وتاريخ البلدان والمؤسسات الإدارية والقضائية والمالية وغيرها قد ظل لفترة طويلة خاضعاً لوجهة نظر جزئية أو متحيزة فإن ذلك لا يعني مطلقاً اتهام أعمال الباحثين السابقين بالإهمال إذ أن فضل هذه الأعمال في وقتها كان له مكانته بلا شك كما أننا لا ننكر أن الأعمال تتجه حالياً إلى إضافة المزيد من الوضوح والمزيد من العمق ، أي محاولة التعبير عن التاريخ بشكل متكامل ، ومن جهة أخرى فإن علم الشرق لم يعد حكراً للغرب ، فعاما بعد عام ينيب الإسلام عدداً متزايداً من أبنائه ليستكشفوا ماضيه من الداخل مما سيؤدي إلى إثراء هذا التاريخ .

ولعل النتائج التي تم التوصل إليها حتى الآن تترك كثيراً من المناطق الغارقة في الظل ، والتي لا بد لكل باحث في تاريخ الإسلام أن يتعرض لها أو يتوقاها في حرص وأياً كان الأمر ، فإذا استطاع الليل أن يحجب جزءاً من هذه القلعة الراسخة فإنه لم يعد قادراً على حجب معالمها الأساسية .

٢ ـ درجات من الإسلام

ترى هل هو إسلام واحد أم أنواع من الإسلام ؟ لقد طرح هذا السؤال نفسه على مر التاريخ وما زال يطرح نفسه فالواقع أن كلمة « الإسلام » تشمل في الحقيقة عدة مدارس وبلدان وفترات شديدة التفاوت بعضها عن بعض ، إلا أنها من جهة أخرى تشملها منذ القـدم : وتلك ظاهرة تعبر عن وحدة عميقة لا بد من محاولة استكشافها رغم الخلافات القائمة . .

إسلام جماعي وإسلام قومي

الإسلام أولاً وقبل أي شيء إسلام متعدد الأماكن : فهناك إسلام الصحراء وإسلام القرى ، وإسلام المدن ، والإسلام متعدد أيضاً في الأزمنة ، فهناك الإسلام الأساسي ، والإسلام الكلاسيكي والإسلام الإصلاحي في القرن التاسع

عشر ، وأخيراً فالإسلام متعدد في مذاهبه فهناك إسلام الخوارج وإسلام السنيين ، وإسلام الشيعيين ، وكل مذهب منها له تفرعاته الداخلية ، ويجب ألا ننسى هنا ـ كما هو بالنسبة لأي ديانة أخرى ـ التمييز الذي يجب تحديده تبعاً للأجناس المختلفة ، والفئات الاجتماعية الحرفية ، والمستويات الثقافية وصلاتها بالديانات القائمة من قبل .

وكل ذلك يكوّن في ظل المآذن الثابتة ـ قوميات مختلفة أو عهوداً متداخلة ومتميزة في آن واحد ولنذكر على سبيل المثال شمال أفريقيا الجبلي ملجأ العصيان البربري والخوارج ، والهند المتعددة حيث يتجاور الإسلام مع الديانة الأصلية ومصر التي لم يفهم الفتح العربي والإسلام ، سواء كان سنياً أو شيعياً ، مكانتها كمركز كبير للتجارة الدولية وتركيا المرتبطة بشدة بلغتها وبمذهبها السني الحنفي ، وأفريقيا السوداء ذات الإسلام المميز والمختلط بالصوفية ، وأخيراً بلاد فارس الشيعية التي لا تكف عن إغراء غزاتها والتي تعد بمثابة المستودع الذي لا ينضب من الفنانين والموظفين .

العقيدة والقانون والحياة اليومية

طوال تاريخ الإسلام وتحت لوائه ، فإن الإسلام نفسه لم ينعزل داخل أي مذهب من المذاهب سالفة الذكر ولا في أي فترة من فتراته إذ أنه من الناحية العقائدية يشمل كل شيء : فهو رسالة دينية ، ومذهب تنظيم للدولة ودعامة للعلاقات بين السلطة وكل المؤمنين به ، أو بين المؤمنين به وبعضهم بعضاً كما أنه ميثاق شرف للتبادلات التجارية ، ومنبع للإلهام ولما هو محرم في الفن ، وأخيراً فبما أن كل مؤمن مسئول عن نفسه أمام الله ودون وساطة أي فرد آخر ، فإن هذا الموقف يملي عليه قوانين حياته وتصرفاته في الحياة اليومية من خلال الصلوات الخمس التي هي تقسيمات مفروضة للزمن اليومي ، كما يملي عليه أيضاً المواقف التي يجب أن يتخذها حيال الملبس والمأكل بل وحتى حياته العاطفية .

ربما يقول القارىء أن كل ذلك يشمل القانون المثالي وأن أهمية الحياة أو الرغبة في أن يحيا المرء حياة ميسرة تتغلب هنا ـ كما في بقية الديانات الأخرى ـ على ضرورة الحياة في وفاق تام مع الجماعة ، ومن الأمثلة الشهيرة في ذلك التعامل المصرفي وتصوير الإنسان والحيوان ، فإن التراث البحت يتحفظ حيالها إذ أن البلاد

الإسلامية والمسلمين أنفسهم تباروا في هذه المجالات مع اليهود أو المسيحيين ، ما علينا ، فإن الأثر الحاسم للإسلام على المجتمع الذي يلهمه أو يشكله أقوى وأعمق وأكثر حسماً مما نراه في بقية المجتمعات الأخرى .

الإسلام وحضارته

من الواضح أن حصر الإسلام في حيز ضيق يعد من الأمور الصعبة ، وربما كان من السهل عزل رسالة دينية حتى وإن كان الأمر يتعلق بالرسالة التي بشر بها محمد ، فمن الممكن قراءة القرآن ومضاهاته أو حتى مجابهته مع الإسلام كبنيان زمني ، كما أصبح على مر التاريخ بفضل توغله في مجتمعات متطورة بحكم الواقع أو في المجتمعات الجديدة المميزة زمنياً وثقافياً التي يجتذبها دائماً إلى رسالته إلا أن مثل هذا التحديد يكون مزيفاً بما أنه لا يوجد حتى لدى المسلمين أنفسهم ما يمكنه أن ينطلق عليه مجالاً زمنياً أو مجالاً روحياً ، أي أن الإسلام لا يمكن تجزءته .

إذن لنترك جانباً تقسيماتنا التجريدية ولنأخذ الإسلام كما يأخذه المسلمون أنفسهم : ككل واحد ، وبناء على ذلك فلن نعني بكلمة الإسلام العقيدة التي كانت في الأصل فحسب ، وإنما مجمل الشعوب والبلدان التي شكلتها الحضارة الإسلامية على مر القرون ، وبشكل مباشر أو غير مباشر بانتشار هذه العقيدة ، وستتعرض بشكل مباشر أو غير مباشر إلى التحولات الدينية التي يفرضها أو يثيرها ، والمواقف السياسية التي يمليها ، والأشكال المعمارية التي يوحى بها كما ستتعرض بشكل غير مباشر إلى النتائج الناجمة عن تأسيس إمبراطورية كبرى تقع في موقع جغرافي مميز ، مفتوح لشتى طرق المبادلات التجارية والثقافية ، ومشترك في نفس الوقت في مصير العالم .

إن الإسلام وحضارته كما هو واضح من عنوان هذا الكتاب يتعرض لكل هذه الموضوعات في آن واحد ، ولا نقتصر على ما يفكر فيه العالم الإسلامي أو يقوم به فحسب وإنما نتعرض أيضاً للأسلوب الذي يعيش به والناجم عن الظروف الجديدة التي يضعه فيها الإسلام ذاته .

فالإسلام لا بد وأن يعالج من مختلف وجهات النظر الحضارية والمادية والروحية ، حتى وإن خشينا أن يفلت منا جمعه في ذلك الإطار الشاسع ، فإنه لن يفقد أبداً ما يتميز به ، فمهما اختلفت الآراء تحت لوائه وتضاربت أو حتى تمزقت

فإن حضارة الإسلام تنضم برمتها تحت وحدة ثابتة ، فاختلافات الشيعة والسنة التي ذكرناها سالفاً تمنعهم من هذه الوحدة الإسلامية ، ان المسلمين - مهما بلغت اختلافات مذهبهم - يعرفون أنهم متحدون ومتفقون حول عدة نقاط أساسية ، ومن هنا فهم يمثلون جماعة مترابطة ومختلفة عن كل ما هو خارج الإسلام .

فالإسلام بالتحديد ، وضمن أية حقائق أخرى ، هو ذلك الترابط العميق ، وذلك الشعور المتين بوحدة ثابتة ومتأصلة في الأذهان وفي المجتمعات - رغم أية اختلافات - وإن هذا الترابط قائم وباق رغم كل شيء : كالاستهلاك الحضاري والانقلابات السياسية بل وحتى رغم الضرورات التي يفرضها التقدم المادي الذي يحاول انتزاع القيادة الاجتماعية من الدين ، فالإسلام هو الدعامة الأساسية لكل مجتمعاته المختلفة .

٣ - ثوابت الحضارة

لقد حان الوقت لرسم الخطوط العريضة لهذه الحضارة . فهي خطوط تتميز عن بعضها بعضاً بشكل واضح . فالتاريخ ، والمكان والثقافة يتحدثون إلينا هنا بشكل واضح .

الكلاسيكية والعصرية .

لنحدد أولاً ، أن الإسلام يشترك مع غيره من الديانات في نوع من الحضارة التي يمكن تسميتها بالحضارة الكلاسيكية . ونعني بذلك أن جوانبه البراقة وبذخه يطفو على خلفية مكونة من الشعوب المتخلفة والتي تعتبر بمثابة الغذاء الطبيعي للأوبئة والفقر والكوارث الطبيعية . فبخلاف طبقة النخبة المميزة من حاملي السلاح ، والطبقات الثرية ، فإن الفقراء والمحتاجين يكونون خلفية إجتماعية لا نعرف عنها للأسف إلا القليل . إنه جزء مجهول من تاريخ المؤرخين ولا نعرف عنه شيئاً إلا حينما تندفع هذه الطبقات المعدمة إلى مخطوطاتهم بسبب الموت الجماعي أو الثورات .

وهكذا ، فإن العنف هنا - كما في أي مجتمع آخر ، يمثل الوجه الخلفي والإجباري للانتصارات : فكثيراً ما تكون بربرية ثورات الفقراء ، أو الحملات أو

الأسـواق والضـواحي التي تجمع بين فئات دينية أخرى ، أو القهر الاجتماعي هي ردود فعل القهر البشعة الملطخة بالدماء . كما أن هناك البربرية القادمة من الخارج ، مثل البربر أنفسهم والمتربصين دائماً للحضارة : أن إمبراطورية البدو انبثقت كثورة بدوية حول الهلال الخصيب . وما إن استقر الإسلام ، الإسلام الكلاسيكي ، حتى أصبح بدوره فريسة آسيا الوسطى تحت حكم الأتراك والمغول .

وهنا كما في أي مكان آخر ، فإن العصر الحديث سيأتي بتغييرات حاسمة : إذ أن اختلاط حضارة الإسلام المعاصر بالغرب كانت نتيجة الرغبة في إحراز التقدم : تقدم مادي وتقدم للغالبية العظمى لهذه الأمم التي نعرفها ـ وإن كان ذلك قد تم بشيء من التأخر الزمني الناجم عن الظروف التاريخية لمرحلة الاستعمار .

التاريخ : أبعاد وتحركات

لقد قلنا في بادىء الأمر أن هذا التاريخ شاسع . ولنأخذ مثلاً القرون الوسطى ونقارن : ففي الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية تتشكل ببطء ، مقاطعة تلو المقاطعة ، أو ولاية تلو الولاية ، فإننا نرى هنا ، أمام أعيننا ، إقامة الإمبراطورية بسرعة ملفتة لتستقر على المستوى الدولي خلال عدة أعقاد ، وذلك مثال الإمبراطورية الأموية التي امتدت من السند إلى الأطلنطي . ثم تلك التحركات المغولية ، التي لا تمثل في الواقع إلا جزءاً من الإسلام ، والتي شملت مساحة امتدت أبعادها من ضواحي البلطيق إلى جنوب شرق آسيا ، ومن كوريا إلى الفرات . ثم ، ما الذي يمكن قوله عن المثل الأقرب منا وهو ذلك البنيان العثماني المهيب .

ولنعد مرة أخرى إلى العصر الحديث ، عصر الوطنيات ، والحدودو الغيورة والانطواءات ، إن الذكريات الكبرى للتاريخ الإسلامي ما زالت تراود أبناءه : بدليل نغمة الوحدة العربية ، وفيما يتعلق بالإسلام في إجماله ، تلك القيمة العاطفية المتلاحقة والمتزايدة الممثلة في ذلك التجمع العالمي للمؤمنين في الحج .

أي إننا حيال اتساع شاسع في الحدود وتحركات متواصلة في الداخل . فهل

يجب علينا الإشارة إلى آراء بعض المؤرخين التي تشير إلى وهن التكوينات الإنسانية في مناخ أكثر من قحط ؟ ونعني بهذا القول المناخ الذي استقر فيه الإسلام أساساً . على كل حال فإن تاريخ الإسلام عرف التأرجح المتواصل . فعالم الآثار ما زال يكتشف لليوم آثار هذا التأرجح ، في تلك المدن التي لا يقرأ ماضيها عمودياً ـ كما في مدننا ـ ووفقاً لطبقات متراكمة ، وإنما يقرأ أفقياً ووفقاً لطريقة إنشاء هذه المدن التي تتالت في حدود نفس المنطقة أحياناً أو في نطاقها ـ وكأنها غير مستقرة أو غير راضية عن موقعها .

المكان : الأراضي والبحار

قام أحد علماء الجغرافيا في القرون الوسطى بتحديد وصفة لبلاد الإسلام ، فحددها ـ من جهة ـ حول صحاري شبه الجزيرة العربية وسوريا ، وذلك بالنسبة للمقاطعات العربية . ومن جهة أخرى ، حول صحاري بلاد الفرس بالنسبة لبقية المقاطعات . ورغم عدم دقة هذا التحديد (إذ أن صحراء بادية آسيا الوسطى وأطرافها لا تدخل في هذا التحديد الإجمالي) ، فإنه قام بتحديد سمة مكانية أساسية بالنسبة للإسلام .

فالصحراء تلعب بالفعل دوراً أساسياً ومتعدداً في الإسلام : فهناك ـ إن أمكننا القول ـ الصحراء كعقبة ، والصحراء كملجأ ، والصحراء كمرحلة انتقالية ، سواء كان ذلك في المناطق الحارة أو المعتدلة التي امتد إليها الإسلام الذي احتل موقعاً فريداً عند مفترق الطرق التجارية العالمية .

ومن جهة أخرى ، فهنالك بالطبع الموقع البحري : أن الإسلام ، بثرواته المختلفة ، قد حاول السيطرة على حدوده البحرية فقد كان سعيد الحظ في بحار الشرق ، حتى عصر البرتغاليين ، وكان أسعد حظاً أيام القرون الوسطى . في الجانب الغربي أكثر منه عند شرق البحر الأبيض المتوسط حينما أفلتت منه هذه المنطقة لصالح المسيحية . إذ لن تكون الانتفاضة العثمانية إلا ومضة قصيرة المدى .

ومن هذا البحر الحيوي ، الذي أخضعته الامبراطورية الإسلامية إلى سيطرتها ، في الإلتقاء والتبادل ، لم يحتفظ الإسلام إلا بشطآنه الجنوبية . واستمر

فيها . وما إن اتصلت الهند بأوروبا مباشرة عن طريق البحار الجنوبية ، حتى انحصر الإسلام ، بشكل ما ، إلى أن عاد إلى سيطرته بعد شق قناة السويس . وخلال هذه الأحداث المتعددة ، سواء سيطر الإسلام على البحر الأبيض أو أغلقه الآخرون في وجهه ، فإن مصير الإسلام لن ينفصم أبداً عن هذا البحر الذي لعب فيه أكثر من دور .

المكان : ثقل الصحارى .

إن الصحارى التي تتناوب أو تتساحل مع البحار حتى في تخيلات الإنسان ، ليست مواقع انتقالية مميزة فحسب . فهناك اجتذاب شبه مفروض - إن أمكن القول - يرجع إلى الموقع الجغرافي لهذه الصحارى . وهذا ، الإجتذاب له أهميته ولا شك ، لكنها ليست أهمية لا ضرورة لها بالنسبة لتحديدها . لأن الصحراء ، أولا وقبل أي شيء ، هي الوسط الطبيعي والإنساني الذي تعنيه هذه الكلمة .

إن الإسلام يبدو كظاهرة للبلاد المنبسطة في أجزاء كثيرة من أراضيه ، أو على الأقل إنها أراض بلا مواقع طبيعية كثيرة . فمن العراق إلى تونس ، ومن بلاد البادية أو البلاد الجرداء بطول امتدادها أو واحاتها ، فهي عبارة عن سهول أو أحواض نهرية شديدة الإتساع . ولا شك في أن الإسلام يبدو لنا أقل ارتباطا وأقل تماسكاً في البلاد الوعرة التي تعد بمثابة الملجأ للشعوب القديمة المختلفة الأعراق الغيورة على تراثها ولغاتها : مثل أرمينيا ولبنان . لكن ، دعنا من التمادي في مجمل الوصف . إذ أن هذا التحديد يصلح أكثر للقرون الأولى من الإسلام ويتعارض اليوم مع بلدان مثل شمال أفريقيا وأفغانستان أو كشمير ، حيث نرى الإسلام شديد الرسوخ تحت أوجه مختلفة .

إن السمة الأساسية للأرض الزراعية تختلف تماما عن طابع الصحراء الذي يفرض بصمته بالتواجد الأزلي للبدوي الرحالة ، الذي يحوم حول مشارف الحقول ، يحاول الإرتباط بما هو ثابت عن طريق صلاته القائمة على الحاجة ، والحماية ، والتبادل أو الصراع . وحتى في الفترات التي زحف خلالها البدو ، فإن الريف المنزرع لم يعرف تلك الحدود الواضحة ، التي نعرفها عنه في أماكن أخرى أن الحقول والبادية هنا في موقف دائم من المد والجزر كل تجاه الآخر .

وهذه التغيرات عبرت دائماً ، في الماضي ، عن موقف متوازن بين ظروف

الطرفين فالريف إن أفلت من التقلبات الجوية والكوارث الطبيعية وما يتعرض له من سلب ونهب أثناء الحروب أو من الضرائب ، فإنه لم يفلت من صراعه مع الصحراء المتاخمة لحدوده .

وفي أيامنا هذه ، من ذا الذي يمكنه إنكار ثقل الصحراء ، كعامل من عوامل التخلف ، في اقتصاد البلدان الإسلامية . ؟ ولا شك في أن القارىء سيذكر البترول . لكن عنصر ثرائه لا يقل ارتباطا بالصحراء عما كانت عليه أهميته التجارية في القرون الوسطى . إن الثروات التي يجلبها الذهب الأسود من خلفه ، مثل المدن التي تم إنشاؤها وكأنها تنتزع من الأرض ، والأبحاث الهيدروليكية التي تتطلبها الإنشاءات الحديثة والإستقرار الإنساني ، يمثل انتصارات على الصحارى ، وتعادل ما كان يفرض نفسه في الماضي من ضرورة إيجاد طرق للمواصلات وإعداد أماكن للراحة وآبار للمياه أو إنشاء واحات . وعلى أي حال ، فإن كل هذه الإنشاءات الحديثة لا تتعدى كونها عدة نقاط أو بقاع وسط تلك المساحات الشاسعة من الوحدة والبؤس . ولا تضارع ثقل هذه الصحارى كمساحة شاسعة .

المكان : المدن ـ المحطات .

اختصاراً للقول ، إن الصحراء تمثل مكان التوقف المؤقت ، مكان الحركة والحلم ، المكان الذي يعبره الإنسان لكنه لا يعيش فيه إلا قليلا . إن التجارة تخط طرقها ، وأحياناً تستفيد الزراعة من هذه الطرق ، لكن كل شيء يتم بعيدا عن الصحراء .

وكلمة « بعيدا » هنا تعني المدن . إن الحضارة الإسلامية قد نشأت وترعرعت في الأماكن القليلة النادرة الآهلة بالسكان في صحارى بلاد العرب . فالإسلام ، بصفته وريثا لأنواع متعددة من التراث الشرقي القديم ، سيعيد الحياة إلى أماكن كثيرة وسيخلق العديد من المدن ـ بنوع من النهم ـ وسيترك بصمته عليها .

وكل هذه المدن ، سواء كانت أماكن لتجمع القوافل ، أو مراكز عبور أو مخازن أو موانىء فقد تم إنشاؤها ببراعة وكلها مرتبطة بالتجارة . وهذه المدن تمثل

في نفس الوقت أماكن للإنتاج والإستهلاك والتبادل ، ودعائم للمال والسياسة والفنون والآداب . وإن لم يكن الإسلام قد خلق إلا القاهرة وبغداد فإن هذين الأسمين يكفيان لتكوين مجده العظيم . وما الذي يمكن أن نقوله عن مدينة فاس والقيروان والبصرة التي ولدت في ظل الإسلام ، مع العديد من المدن الأخرى ، وما الذي يمكن أن نقوله عن كل تلك المدن التي تولاها ليخلق منها العواصم مثل : قرطبة ، وتونس ، ودمشق ، وبخارى ، وسمرقند ، ودلهى ؟

وهكذا ترتسم المعالم الأساسية لخريطة الإسلام . وتحمل الخريطة معالم العالمين ، الحضر والرحل ، في شيء من التوازن وإن لم يكن شديد الثبات . فالمدينة كمركز للحضر الثابت تناقض بكتلتها ومؤسساتها وثقافتها تحرك الصحراء . والخريطة تحمل مساحات شاسعة بيضاء تحيط بها أو تخترقها أوعية التبادل الكبرى المليئة بالنقاط الصغيرة التي تمثل أماكن التوقف والمتجهة إلى المراكز الكبرى نحو البقاع الخضراء الحيوية لبلدان عريضة ، في الحضر مثل التي تمثل مساحات الهلال الخصيب ، وواحة خراسان، ووديان الجبال أو وادي النيل أو السند وسواحل أفريقيا الشمالية .

الثقافة : الدين أيضاً .

من الصعب الا ننوه ، ولو في كلمات بسيطة ،بأن الإسلام أعطى الدفعة الأولى للحضارة الإسلامية ، وظل أحد دعائمها الأساسية الثابتة ـ على الأقل حتى العصر الحديث .

ومثلها مثل غيرها من الحضارات ، فإن الحضارة الإسلامية لم تستغن عن الدعائم المادية وتأثرت بها حتى في أدق تكويناتها أو حتى الدين نفسه . لكن ، إذا افترضنا ذلك ، فلا بد من التنويه بأن هذا التأثير يبدو أقل عمقا في الإسلام منه في المجتمعات الأخرى . إذ أن الثقافة بمفهومها الحديث وبالتفافها حول الدين الإسلامي ، تمثل إمكانيات مقاومة فائقة للهجمات التحتية والخارجية ، ونعني بها القطاعات الدنيا أو الثقافات الخارجية فالإسلام يتميز بملكة مذهلة هي مقدرته على حمل بعض المبادىء الأساسية التي لا تتزحزح عبر المكان والزمان ، وهي المبادىء التي تحدد دعائمه .

٤ ـ نبضات : مراحل الإسلام الأربع .

لقد حان الوقت لنعلن عن التقسيمات الكبرى للإسلام ، وبقول آخر لتقسيم هذا الكتاب: لنقلها بشكل إجمالي ، من باب الوضوح ، وبلا تفاصيل شديدة ، حتى وإن قمنا بعمل بعض التصويب على مر الصفحات .

فمنذ بداية الإسلام ، حتى عام ٦١٠ ، أي حتى منتصف القرن الثامن ، تعتبر هذه الفترة مرحلة توسع . كان الإسلام خلالها هو دولة العرب . وكان الشرق هو الذي يقود الحركة على مستوى التاريخ العالمي .

ثم استقر الإسلام مكانا حوالي عام ١٠٥٠ . أما ثقافياً ، فعلى العكس من ذلك ، كان في حالة غليان لاتصاله بالتقاليد الخارجية . فمن بعيد نرى بلاد فارس هي التي تسيطر على هذه المرحلة . إذ انتزعت من العرب إدارة العالم الإسلامي ونازعتهم إحتكار الدفاع عن عقيدة الإسلام وثقافته ، ولغته . كان الشرق ما زال سيد مصير العالم ، لكن صحوة أوروبا بدأت ترتسم في سيطرتها على البحار .

ومن منتصف القرن الحادي عشر حتى عام ١٨٠٠ ، أي قرابة ثمانية قرون ، أصبح الإسلام هو دولة سكان آسيا الوسطى والمغول وخاصة الأتراك . وهذه تمثل مرحلة جديدة من التحرك الإسلامي إلى جانب التوسع العثماني في أوروبا ، والتقدم الإسلامي في أفريقيا ، وآسيا الوسطى والهند والملايو . وهي أيضاً مرحلة مواجهة مع الغرب الذي ازدادت سيطرته على البحار وانتهى به الأمر إلى وقف التوسع العثماني .

وأخيراً ، ففي القرنين التاسع عشر والعشرين، واللذين يعرفهما القارىء بشكل أفضل فهي تمثل مرحلة جديدة من الهياج أو القلق الداخلي . ويبدو ذلك أولا في الصراع الكبير الذي قام عند مواجهة الإسلام للحياة العصرية ثم في بداية حركة الإستقلال سياسيا . ومرة ثانية يبدو العرب كأبطال أو قادة لا منازع لهم ، للعالم الإسلامي .

وخلال الفترة الأساسية لهذه المرحلة ، فإن إنطلاقة التاريخ أتت من الغرب ، مع الإنتصارات الإستعمارية أولا ، وفي نفس الوقت مع تأثير الإستعمار على صحوة الإسلام ثقافيا وسياسياً وردود فعله مع هذه الإنتصارات . مما نتج عنه

رد الفعل الجذري هذا : إن ميزان القوى الذي ساد على الأقل طوال القرن التاسع عشر لصالح الغرب بدأ يتغير خاصة بعد الحرب العالمية الثانية التي شهدت حركات التحرير ضد الغرب ، في العالم الإسلامي الذي كان مستعمراً . وسرعان ما وقع الإثنان - الغرب والإسلام - في صراع يفوقهما ، وهو الصراع الذي يعرفه القرن العشرين الذي قارب على نهايته ، والممثل بين الدول الغنية من جهة وبلدان العالم الثالث من جهة أخرى .

وذلك الإسلام الذي سوف نتحدث عنه الآن بشيء من التفصيل يجب أن نراه ونصفه ونفهمه من الداخل ، وليس كقطعة أتت بها آفاقنا كغربيين . وانطلاقا من هذا المفهوم فلا بد من تحديد عدة نقاط هي : تاريخ الإسلام في بداياته ، وهجرة الرسول إلى المدينة ، وتواريخه التي لا يمكن اغفالها . وقد احتفظنا بهذه التواريخ ، خاصة فيما يتعلق بالقرون الوسطى ، جنبا إلى جنب مع ما يماثلها في تقويمنا . فالإسلام له مسمياته التي لا يجب تحريفها حتى وإن اضطررنا إلى الرجوع إلى أبعد الآفاق التي تتطلبها سلسلة هذا الكتاب . لذلك حاولنا الإحتفاظ بالسمات الأساسية للأسماء في تاريخ الإسلام .

كما سنحاول فهم هذا التاريخ بشكل إجمالي ، أي سننظر إلى الإسلام كوحدة لا يمكن تقسيمها إلى أي دولة من دوله أو أي مرحلة من مراحله ، مهما كانت أهميتها . وإنما الوحدة مرتبطة بمحيط أكبر ، هو العالم الذي يوجد فيه .

وقبل أن نبدأ بتاريخ شبه الجزيرة العربية ، حيث ولد الإسلام ، فإن مؤلف هذا الكتاب لا يمكنه إغفال ذكر إسم موريس لومبار الذي كان سيقوم بكتابته . فقد كانت له وجهات نظر شاسعة وخصبة حتى ليرتجف المرء عند قبول كتابة هذا الكتاب نيابة عنه ولا شك أن هذا « الإسلام » الذي ندين له بالكثير من مراجعه . كان سيكون أوضح وأكمل لو كتب بقلمه . لنبدأ إذن هذا العمل بذكراه .

الباب الأول

قرن العرب

من ايام محمد إلى القرن الثامن

الفصل الأول

مهد الاسلام اختلافات ووحدة

كانت الجزيرة العربية في القرن السابع ، حيث ولد الإسلام ، أرضا وعرة منعزلة ، وشبه مغطاة كلية بالرمال . وقد نجح إصرار سكانها . رغم كل الصعاب ، في أن يجعل منها مسرح الأحداث الأساسي للعلاقات الإقتصادية الدولية أو القارية وهو المنبع الحيوي للتطورات الإجتماعية والثقافية التي ستستفيد منها الديانة الجديدة التي سيبشر بها محمد .

١ ـ الموقع الجغرافي .

بلاد العرب الثلاثة .

إن شبه جزيرة العرب عبارة عن جزيرة والعرب هم الذين يقولون ذلك فسواء كانت محاطة بالبحر أو بالصحراء أو بالأنهار أو بالجبال حول كل جوانبها أو في أجزاء منها ، فإن الجزيرة العربية تبدو بالفعل كأرض مقطوعة عن بقية الأراضي . فإن اللفظ العربي « الجزيرة » المطلق على شبه الجزيرة العربية يوضح إلى أي مدى كان سكانها يعرفون أنهم يمتلكونهاوإنجزيرتهم لهم وحدهم . وجزيرة العرب هذه ، المنفصلة عن آسيا وأفريقيا عن طريق البحر ، تنفصل عن بلاد ما بين النهرين وعن البحر الأبيض المتوسط الشرقيعن طريق الصحراء الضارية .

أي أنها وحدة مكانية ينظر إليها كملجأ . وفي الواقع ، إذا ما تحدثنا جغرافيا ، فلا توجد بلد واحدة للعرب ، وإنما ثلاثة بلاد . ففي الغرب ، وبطول

ساحل البحر الأحمر ، يقف الحجاز كمانع جبلي من الصخور البدائية المتحولة أو البركانية ، والتي يصل ارتفاعها أحياناً إلى ٢٦٠٠ متراً وخلف هذا المنحدر يزداد الجبل وعورة ليصل ارتفاعه إلى أكثر من ٣٠٠٠ متراً أما تقسيمنا الثاني بلاد العرب السعيدة ، فتقع إلى الجنوب ، أو كما يقول العرب إذا ما نظروا شرقا إلى اليمين : بلاد اليمن . وهي أرض تمتد إلى خليج عدن في الشمال الشرقي عند المحيط الهندي ، وتعتريها قمم الجبال التي يصل ارتفاعها إلى ما بين ١٠٠٠و ٢٠٠٠ متراً في مناطق حضر موت وظفار ويصل ارتفاع هذه الجبال إلى أكثر من ٣٠٠٠ متراً عند عمان والحجاز .

وبين هذين الذراعين المتعامدين لبلاد العرب الجبلية تقع التقسيمة الثالثة المعروفة بإسم نجد . فالطبيعة هناك تصل إلى ذروة ما لا يمكن تخيله من تناقض بين الحضر والرمال وتمتد هذه الهضبة تدريجياً تجاه سوريا والعراق والخليج الفارسي . أما في اتجاه الشرق ، فتسيطر على المنظر الواسع منطقتا الدهناء والربع الخالي : وهي مساحة تماثل مساحة فرنسا مدفونة تحت الرمال . وفي اتجاه الغرب تمتد الأراضي الصخرية التي تعتريها التلال وقمم الجبال ، ثم ، إلى الشمال أكثر ، تمتد الصحراء : ففي منتصف الطريق بين خليج العقبة والكويت تفترش صحارى النفود الكبرى حوالي ٠٠٠, ٧٠ كيلو متراً مربعاً . وهكذا نرى في كل اتجاه بلاداً وعرة ومناطق قحطاء ، صحراوية ، تتناثر عليها بضعة أماكن للمياه بواحاتها . وعلى عكس ذلك القحط والجفاف ، وكأن الطبيعة توازن هذا الزهد ، ترقد بعض مخازن الذهب الأسود التي تعد من أكبر مخازن العالم لكنها هبة حميدة وخطرة في نفس الوقت كما سوف نرى .

المناخ .

ليست التضاريس وحدها هي التي تقسم جزيرة العرب الضخمة وإنما المناخ أيضاً . فإذا ما نظرنا إلى خريطة الكرة الأرضية ، نرى شبه جزيرة العرب ـ التي يمر بها مدار السرطان في منتصفها بين مكة والمدينة ـ تنتمي إلى المناطق الحارة . إلا أن كثرة ما بها من ارتفاعات وصحارى تدخل على مناخها تنويعات جذرية . فالجنوب الأكثر رطوبة وسحبا ، والذي تكلل الثلوج قمم جباله أحياناً ، يختلف عن الحجاز حيث توجد الرطوبة عند السواحل ، وخاصة في الداخل ، في مناطق البادية

والصحارى ، بعواصفها العاتية ، المحملة بالرمال والتي تختلف بدورها عن الرياح المنتظمة الآتية من البحر الأحمر أو الرياح الموسمية للمحيط الهندي .

ورغم ذلك ، فهناك وحدة أساسية تحت كل هذه الإختلافات القوية . إذ أن طابع المناخ القاري المميز في التقلبات الجوية وفي شدة الإختلافات في درجات الحرارة هو الذي يسود الجزيرة العربية في إجمالها . فإذا كانت الجزيرة العربية تعد جزيرة جغرافيا ، فهي من حيث المناخ تنتمي أساساً إلى المناخ القاري . أي جفاف أولا وفي كل مكان . ففي أغلب الأحيان يظل متوسط فرق التقلبات الجوية أقل من خمسة عشر درجة ، أما الأمطار فهي رحمة من السماء . وكثيراً ما تأتي في شكل سيول مدارية عقب شهور طويلة أو أعوام من الجفاف ، لتنتزع الزهور البرية من تلك الأراضي الجافة ثم يستقر الحر الشديد أثناء النهار والخانق صيفا . أما الفرق بين درجات الحرارة أثناء النهار والليل فهو أشد قسوة . وكذلك الفرق بين الفصول . مما يضفي على هذه البلاد طابعها المميز : فالوحدات العمرانية قائمة على التناقض . وحتى إذا كانت هناك مناطق لا تعرف الحرارة الشديدة القاسية ، أو أنها تعيش في جو يمكن وصفه بالإعتدال ، فهي أيضاً تعرف التطرفات القاسية بين الفصول وإن كانت خاطفة . أما ربيعها فهو دائماً لا يتعدى الأيام المعدودة الخاطفة .

والمياه أيضاً نادرة . فعلى مساحة أكبر من فرنسا أربع مرات ، لا يوجد سوى نهر واحد ، طوله حوالي ١٠٠ كيلو مترا ، دائم التدفق لكنه أيضاً يقع في الجنوب الشرقي في المنطقة المفتوحة للرياح الموسمية . أما في الأماكن الأخرى حيث لا توجد أنهار ، فالقنوات نادرة مثل ندرة الزهور أما مياه الأمطار المتساقطة بغزارة في الأودية فعادة ما تظل ساكنة في شبه بحيرات عندما لا تبتلعها الرمال أو الغرين المتراكم . وكأنها أفراط يعقبه الضياع . أما الإنقاذ الحقيقي لبلاد العرب فهي الآبار المختلفة العمق . إذ يصل عمقها أحياناً إلى عشرات الأمتار ويقل أحياناً أخرى ، في الأودية ، ليصل عمقها إلى مترين أو ثلاثة ، وكثيراً ما تسدها الرمال . إلا أن البدو ، الذين لا تهدأ عزيمتهم ، يعثرون عليها حتّى في قلب الربع الخالي . وفي الأماكن الأكثر يسرا ، فإن الآبار تسمح بالري وبإقامة المزارع والحضر في الواحات بأجمل زينتها أي بالنخيل . أما في الأماكن الأخرى حيث

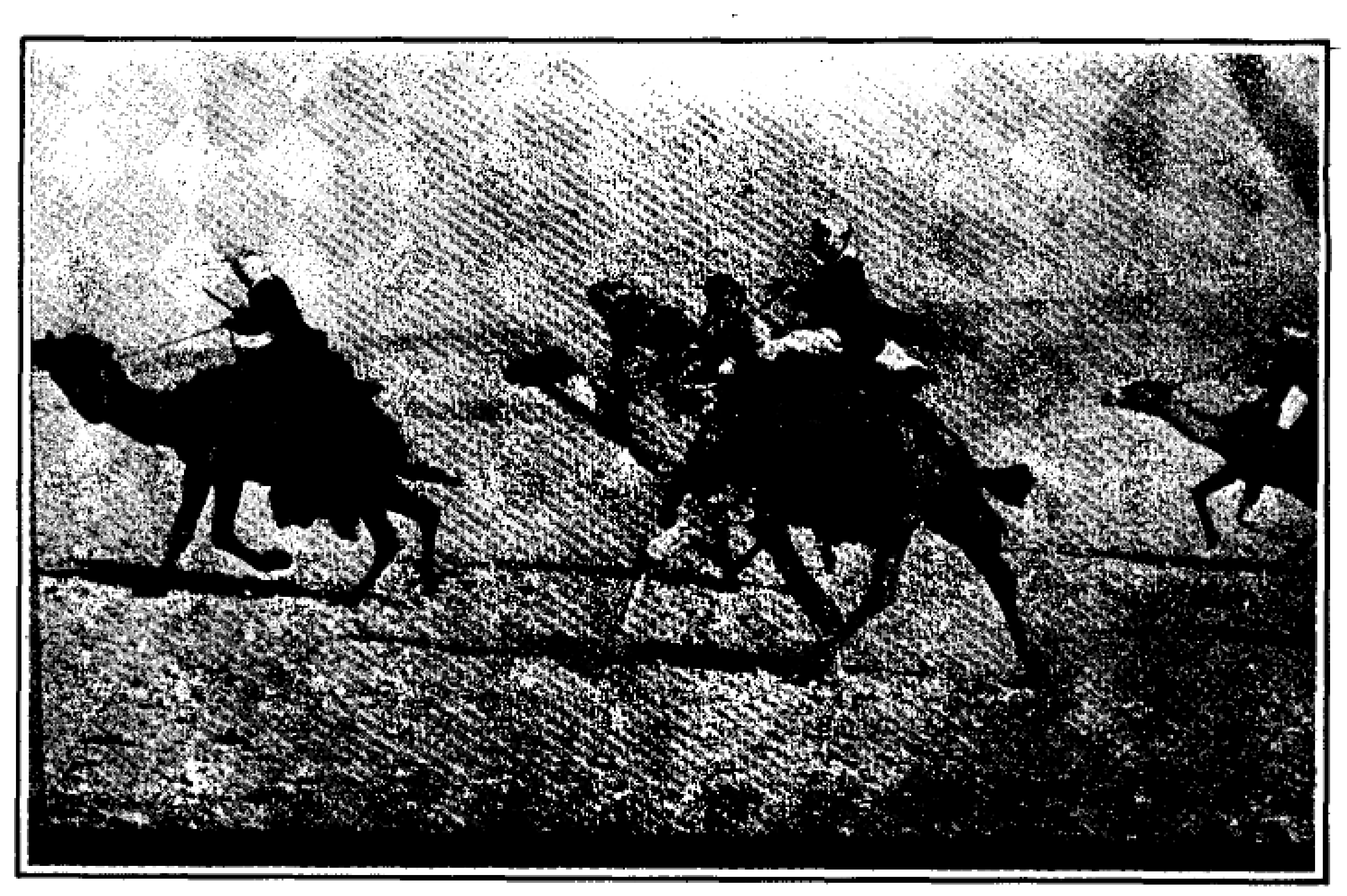
توجد المياه في شبه مستنقعات ، فهي تساعد على إنبات بعض أنواع الكلاء بأغصانها الشائكة أو بعض الدرنيات البرية التي تعطي الأشكال البدائية للحياة في الصحراء . وفيما عدا الإنسان والحيوانات الأليفة التي تعبرها فلا يوجد أي ساكن آخر للصحراء سوى ملوك الشعر العربي الثلاثة : الأسد (الذي انقرض مثل النعام) والغزال والنسر .



منظر من جنوب الجزيرة العربية ـ الزراعة على شكل مسطحات حول مدينة تعز

عوامل الإنعزال : البحار والصحارى

إن الصحراء تعمل أكثر من ترك بصمتها على الجزيرة العربية ، فهي تفصلها ـ كما سبق أن قلنا ـ عن بلاد ما بين النهرين وبلاد البحر الأبيض الشرقي ، مغلقة الباب من الجانب الوحيد الذي لا يقف فيه البحر حائلاً بينها وبين الخارج ، فالسفر من سيناء إلى مصب الفرات أو مصب نهر الدجلة لا يترك للمسافر حرية الاختيار بين صحاري النفود ومساحلة طويلة لبحر عارم تعتريه التيارات والجزر غير المضيافة والجروف الرملية وبقايا الحمم أو الأملاح الصلبة ، دون أن تقدم له أي مأوى ـ بخلاف عدن ـ سوى بعض الخلجان الصغيرة وغير المحمية من مياه البحر التي يصعب الوصول إليها من الداخل ، كما أنها غير عميقة



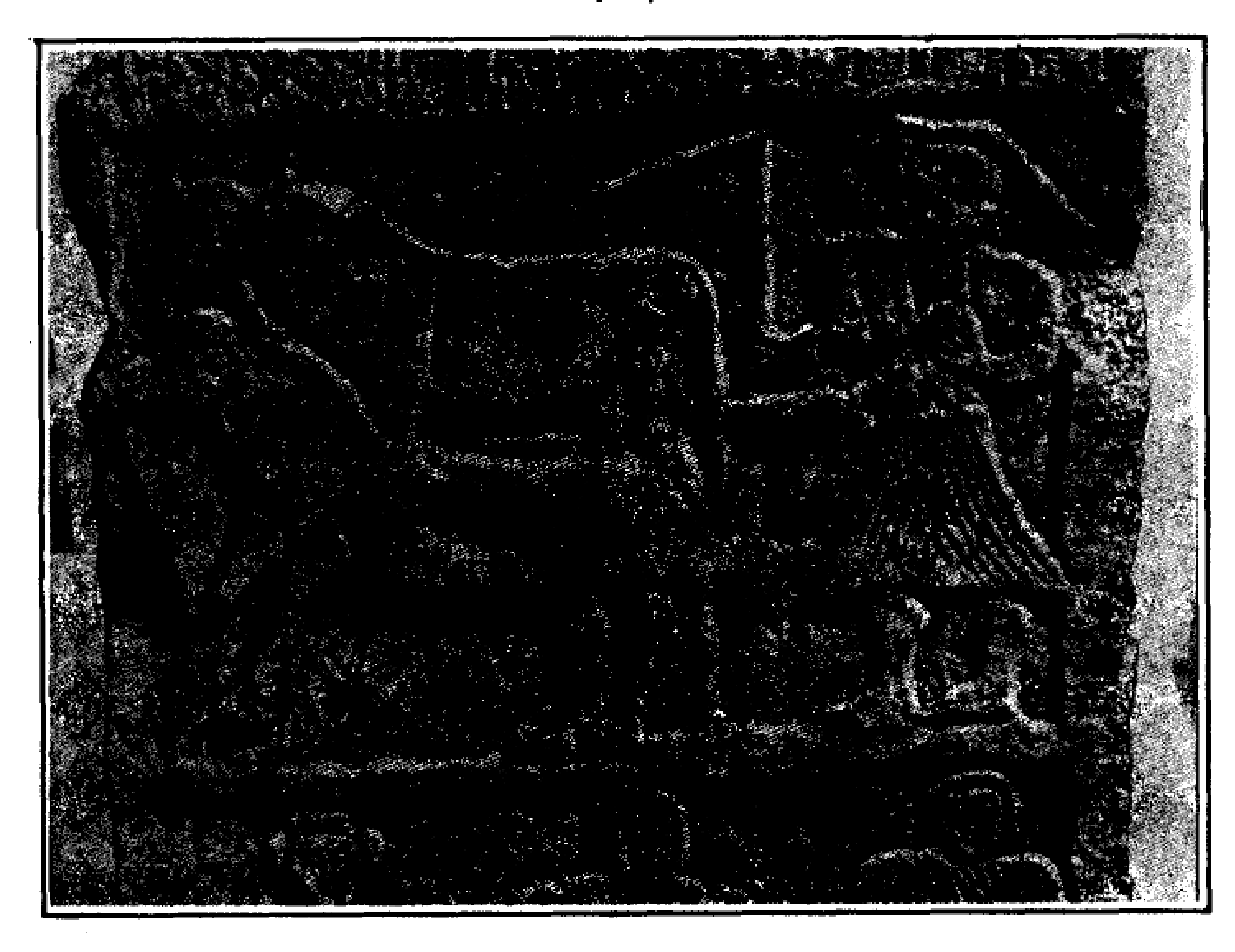
لأن سباق الجمال من معالم الحياة الصحراوية الرائية



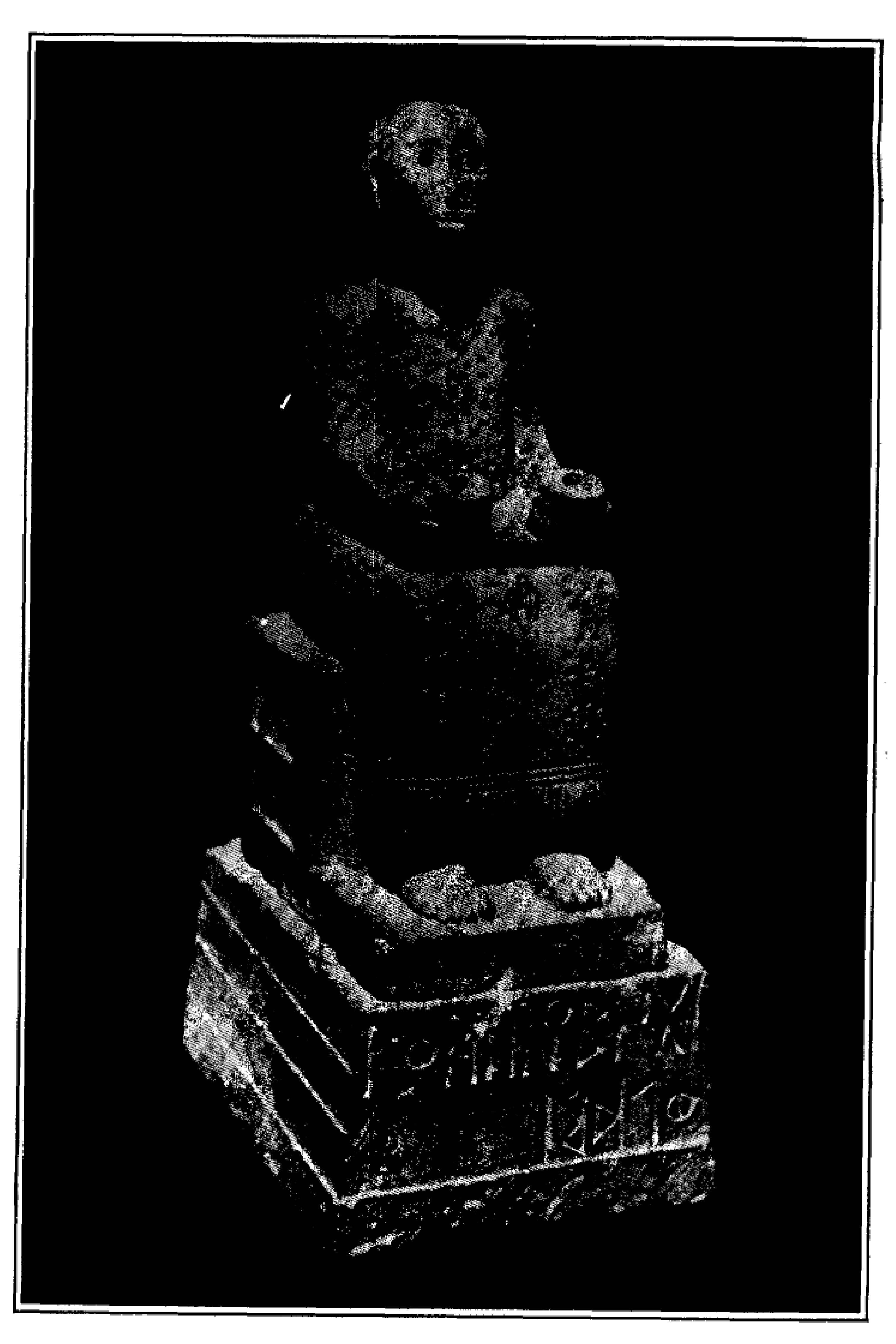
تعاليم الحياة في الصحراء - أ - مؤونة المياه



ب الراحة



٣ ـ فلاح يزرع : نقش من شاهد جنائزي من جنوب الجزيرة العربية



٤ ـ تمثال صغير من اثيوبيا عليه بعض النقوش في جنوب الجزيرة العربية (حوالي القرن الخامس قبل الميلاد).

أي صعبة الملاحة ، إن لم تكن تجمع بين كل هذه الصعاب مشتركة ، وكما أن الصحراء مكونة من المفاجآت الخائنة ، والعواصف والعطش ، والرمال المتحركة ، كذلك فإنّ البحر له عواصفه و« مرارته » على حد قول أحد الجغرافيين العرب ، وخاصة ذلك البحر الشرقي الذي يضم البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي الذي تعلو طرقه الممتدة أسماء يبدو وقعها أشبه بالشواهد على مقبرة كبيرة للسفن .

٢ ـ المكان الاقتصادي والاجتماعي

حضارة الصحراء : الجمل ، والكلأ ، والغزو

إن أكبر جزء من شبه جزيرة العرب ، بخلاف الجنوب الحضري يختلط ـ كما رأينا ـ مع الصحراء ، تلك المساحة التي يخوضها البدو أو العرب وفقاً لاسمهم الأصلي ، وقد اتسعت هذه التسمية شيئاً فشيئاً لتشمل كل السكان سواء كانوا رحّلاً أم لا .

وأسباب الحياة في الصحراء أو واقعها يختلف تماماً عن الصورة التي كونتها الرومانسية سواء كانت في الشعر العربي أو في شعرنا .

إن إقامة الخيام ، والسباق الجماعي على ظهور الإبل ، وتأرجح الهودج الذي يضم الحريم والمخيمات التي تفض دائماً والتي يرى فيها الشاعر المنشد أفضل رمز لفراق الأحبة ، كل هذا الجو لا مبدأ له ـ بخلاف التعبير الفني ـ إلا المرافقة الدائمة للجوع ، ولأن هؤلاء القوم يقتاتون بالقليل فالقناعة من أهم صفاتهم ، فالبدوي لا يعرف سوى طعام واحد أساسه الخضر النيئة ، والألبان أما اللحوم ، سواء كانت لحوم خراف أو إبل أو طيور ، فهي استثناء للأعياد الكبرى والمناسبات والضيوف العابرين .

وفي كل مكان ، ترتبط الحياة بالحركة (لوحة أ ، ب) وأساس الحركة هنا هو الجمل ، والجمل وحيد السنام (شكل أ) ولهذا الحيوان أسماء متعددة ، تفسر مختلف استخداماته ، كما أنه حامي البدوي : فهو يستطيع قطع مسافة ٣٠٠ كيلومتر في اليوم الواحد ويمكنه حمل أثقال تصل إلى ٣٠٠ كيلوجراماً وأحياناً تصل إلى ٤٠٠ . إن الجمل العربي ، وخاصة الناقة التي كثيراً ما تغنوا بها في الشعر ،

مرادفة لكلمة الحياة : فهي تعطي للبدوي اللبن ، واللحم ، والجلد ، والوبر الذي يصنع منه الثياب والروث الذي يستخدمه كوقود ، وفي الحالات القصوى ، البول ، الذي يشربه كإنقاذ أخير .

ولم يظهر الجمل في بلاد العرب كمطية أو أحيوان أليف ، إلا متأخراً في فترة تقع بين القرن السادس عشر والقرن الثالث عشر قبل عصرنا ، أي بعد الجمل مزدوج السنام الذي عرفته آسيا الوسطى (بحوالي ألف عام) . إلا أن سرعة وسهولة تأقلمه على الحياة الصحراوية أو الجفاف سرعان ما وضعته في مكانة بارزة بين الحيوانات الأليفة في المنطقة مثل الغنم والماعز ، بالنسبة للطعام والثياب ، والحمير والبغال ، بالنسبة للنقل . وأخيراً فالجمل هو الذي سمح باستخدام الحصان خارج المناطق الجبلية : لأن ذلك الحيوان النبيل ، حيوان الحروب والانتصارات والذي لا يأكلونه أبداً . يشارك البدو في المياه والحبوب التي يحملونها من أجله . أي أنه مسافر مرفه .



شكل واحد
جمل وفارس شاهد من المحاربة
(جنوب جزيرة العرب)

والكل ، البدو والجمال وبقية الحيوانات يشتركون في « الأعشاب التي تهرب »فالبحث عن الكلأ هو شغلهم الشاغل ، كما أنه يؤدي إلى تنقلات منتظمة ، وفقاً للفصول ، وأماكن المياه (لوحة ٢ ، أ) الدائمة . أولاً : والتي تحددها المراعي . إذ أن كل جماعة لها مساحة تخصصها لهذه التقاليد وتتحرك دائماً في نطاقها . إن مثل هذه الحياة المرتبطة برحمة السماء وبالحركة الدائمة ، تتطلب معدات معينة . إن المعدات البدوية بسيطة بدائية ، يعد فيها الدلو والقربة من القطع الأساسية ، والخيمة المصنوعة من وبر الماعز تأويه من حر الصيف وبرد الشتاء . أما ثياب البدوي فلا تتغير ، وهي مكونة من رداء وغطاء للرأس مهما تغيرت الفصول .

هكذا يحيا البدوي ، إلا أن الطبيعة تحرمه أحياناً من أبسط الحقوق . فإذا ما تضافرت تغيرات الفصول وشدة الجفاف لتقطع روابط الصلة بين الراعي والأرض

التي يحوم عليها ، فإنه يلجأ إلى الأرض المجاورة مدفوعاً بضرورة تمسكه بالحياة . إنها الغزوة المجددة ، التي يقوم بها بالجمال إذ أن الحصان يرجأ استخدامه للجولة النهائية . إن هذه الغارة التي تهتم باختطاف الغنم والجمال تتم عادة بلا وفيات بين الرجال ، إلا أنها كثيراً ما تنقلب ـ في الحالات القصوى إلى صراع تراق فيه الدماء وتختطف فيه النساء والأطفال ، ليباعوا فيها بعد كعبيد أو يستخدموا كتبادل للفدية . ولا بد من الاعتراف أنه بخلاف تغني الشعراء واختيالهم بالشرف ، فإن الغزوات والحروب عادة ما تكون أشكالاً جانبية لاقتصاد غير ثابت .

وفي هذا النظام ، فإن الحضري (لوحة ٣) المقيم في الواحات أو عند مشارف الصحراء ، يعد ـ سواء أراد أو لم يرد ـ مورداً للموارد الأساسية : الحبوب ، البلح ، والأسلحة والثياب قبل أي شيء آخر . ومقابل ذلك يقدم له البدوي حمايته ضد غزوات البدو الآخرين ، وضد مضايقات أي موقف معاد . ونفس الاتفاق ينظم مرور القوافل التي يقودها البدوي ويحميها طوال عبورها لأراضيه .

وسواء كانت الغزوات لها مبرراتها أو كانت المقايضة بسيطة أو مركبة . كتبادل الأغنام والجمال والخدمات والحماية ، فإن كل هذه الأشكال تؤدي إلى طابع أساسي واحد هو استحالة الحياة في الصحراء في حالة اكتفاء ذاتي .

إن هذا النظام الاقتصادي الاجتماعي يتطلب ، كامتداد لا بد منه ، وجود الشخصيتين : الحضري والرحالة ، الذي تصفه الطبيعة الجغرافية وأسلوب التعامل نفسه بأنه هامشي . فإيقاع الحياة في الصحراء يتطلب كنتيجة طبيعية ثبات المنشآت الزراعية أو المدنية . فبدلاً من أن نتحدث عن انعزال البدوي نسبياً ، من الأفضل أن نتحدث عن التوازن الدقيق في مجال التبادل . إذ أن البدوي يمسك بزمام المزارع والتاجر ليحصل منهما على كل احتياجاته ، لكنه يمسكه برفق حتى لا يبعدهما عن حركة المجال الاقتصادي إذ بدونهما لن يتمكن هو من الحياة

ولا شك في أن نظام تقييم الأرض هذا يساعد على تواجد التوازن المطلوب ، فالحضري يجد خير دفاع عن نفسه في مهاراته الزراعية ـ التي تثير نفور البدوي . إلا أن أسباب تماسك هذا البنيان يجب البحث عنها إجمالاً في تداخل كل

العلاقات التي تكون هذا النظام ، وذلك بالربط بين مختلف أجزائها بحكم الضرورة .

إن ما ينتج عن ذلك من التعقيد بحيث لا يكون قطع التوازن من الأمور النادرة ، سواء كان ذلك بين البدو ، أو بين البدو والمزارعين ، أو بين البدو والتجار . إذن ، ودون التحدث عن الصراعات المسلحة ، يمكن للمرء أن يشاهد تلك التغيرات الجذرية التي تتلخص في تحضير البدو أو عودة الأراضي المنزوعة إلى الصحراء .

ونفس التعقيد يجعلنا نرى أنه لا يمكن استتباب التوازن المطلوب إلا باستقرار جماعات كبيرة لكي لا يقع النظام في فوضى الحركات الفردية .

ونظراً لصعوبة الحياة في الصحراء ، فإن تواجد الأفراد كجماعات ضرورة مطلوبة على مستوى العلاقات التي تقيمها المجتمعات الخارجة عن الصحراء .

فأساس التنظيم العربي سواء كان في الريف أو المدينة قائم على القبيلة .

قيادات بلا وحدة

إن مفردات لغتنا لا تعبر عن ثراء المصطلحات التي يعبر بها العرب عن جماعات رجالهم : فالقبيلة والعشيرة ، والجماعة ليست إلا كلمات تقريبية بعيدة عن وصف التركيبات المعقدة والمتناهية التنويع . إلا أن هناك شيئين أكيدين من الناحية الثقافية ، أن القبيلة الأساسية هي التي تجمع كل أفرادها تحت لواء جد واحد ، وحجم هذه الجماعة يتحدد وفقاً لصلاته مع الجماعات الأخرى ، أو مع نسبه الذي يدفعه إلى الاندماج في جماعات أكثر أهمية أو أن يتفتت إلى جماعات أصغر. أما من الناحية الاجتماعية ، وأياً كان حجمها ، فإن القبيلة لها خلية أساسية هي العائلة الواسعة التي تضم تحت نفوذ شخص واحد ، مجمل سلالته من الذكور وعائلاتهم . والجماعة الأسرية قائمة على المبدأ المزدوج المتعلق بالنظام الأبوي والابن البكري ، وتتعامل كوحدة إقتصادية تمتلك خيامها ، وقطعانها ، التي تعهد برعايتها إلى الأطفال ، بالإضافة إلى حريمها سواء من تقبلهم أو من تعطيهم لتكوين علاقات نسب مع عائلات أخرى . وعلاقات الزواج هذه تمليها التقاليد والحاجات الاقتصادية والحسابات السياسية .

وفي هذا النظام الذي يميز الذكور من الأبناء ، يعد فيه الأب هو المرجع الأساسي بالنسبة لكل الأجيال الموجودة . إلا أنه لا يمثل السلطة الوحيدة في العائلة : إذ أن التقاليد تعطي لشقيقه ، العم ، مكانة بارزة في التكوين الأسري ، خاصة إذا كان هذا العم أكبر من الأب ـ ذلك وفقاً لمبدأ أهمية الابن البكري .

أما المرأة ، على العكس من ذلك ، سواء كانت أختاً ، أماً ، أو زوجة ، فلا أهمية لها سوى الأهمية التي تعطيها لها مكانتها الاجتماعية في الأسرة ، وكذلك خصوبتها . وبخلاف ذلك ، وفيما يتعلق بقرارات الجماعة ، أو حياتها الثقافية ، أو تاريخها ، فتظل دائماً في المرتبة الثانية . إن ما يهم أساساً هو الذرية ، ذرية الذكور : فإليها تنسب الانتصارات والأصل وحتى اسم البدوي .

إن وجود المرأة ، كوسيلة للإنجاب أو لإقامة علاقات نسب مع عائلات أخرى ، لا يجب أن تثير القلاقل للرجال . ومن هنا ينظر الرجل للمرأة على أنها شر لا بد منه أو عقبة عليه التخلص منها . وأحياناً تحسم الخلافات بأن يتزوج الرجل من إبنة عمه لكي لا تكسر الزوجة حلقة العائلة . وأحياناً أخرى يتفاخرون بوجود زوجة ذات نسب عريق عن طريق أبويها . أي إن ما يهم هنا ليست الزوجة في حد ذاتها وإنما ما يمكن الحصول عليه من عراقة نسب ، خاصة إذا تأصلت هذه العراقة أباً عن جد .

وربما كان الأصل في وجود لفظ مختلف باللغة العربية ، لشقيق الأم ، هو كلمة الخال ، يرجع إلى نفس العقلية التي تقدم الوضع الأبوي في كل شيء . ولعل ذلك يرجع إلى أهمية إثبات النسب الأبوي في سلسلة متصلة إلى أبعد الأجداد . وحتى إذا ما تعلق الأمر بزواج من عائلة أخرى فإن شقيق الزوجة ، الخال ، هو الذي يمثل النسب الجديد ، وهكذا تتصل حلقة النسب والانتساب بين الرجال .

وبإندماج الأسر على هذا النحو ، وأحياناً تحت ذكرى جد واحد مشترك ، تتكون القبيلة . وعادة ما توضع تحت زعامة وسيطرة شخص واحد هو السيد الذي يتم اختياره بين رؤساء العائلات الكبرى ، ولا تقبل القبيلة سلطة هذا الشيخ



١٠ ـ الكعبة في مكة مركز الاسلام وقبلة الصلوات مرسومة على مربع قيشاني من بداية القرن الثامن عشر

والمجلس الذي يحيط به إلا بالقدر الذي يلتزمون به جميعاً بقانونين هما العادة والقيمة . والعادة هنا هي السنة التي تملي أولاً كيفية اتخاذ القرارات أما السلطة والنفوذ فتقومان بالباقي مثل التنقلات ، والحروب ، والزيجات ، أو الاحتفالات ،

التي تتم بنوع من الاتفاق الجماعي بين الأصوات الكبرى للقبيلة ، حيث يكون الرئيس هنا صدى للأغلبية المحيطة به أكثر منه مرشداً لشعبه . وتزداد مهمته صعوبة عندما يتطلب الموقف تعديل أو اتخاذ قرار يخالف الشعور العام ، أو حينها يتعرض الشيخ إلى تطبيق قانون الغقوبات ، ويكون عليه الأختيار بين التنفيذ الصارم للقصاص أو دفع الدية . وقد يؤدي دفع الدية إلى الحد من إراقة الدماء واستمرار عملية الأخذ بالثأر إلا أنها ليست دائماً أفضل الحلول بالنسبة لقانون الشرف القهري .

وذلك يعني أنه في بعض المواقف الحساسة ، وحينها يكون السيد في حاجة إلى وسائل مادية لممارسة نفوذه ، يجب عليه أن يفرض صورة مثلى للقيم التي يتميز بها . ويقول رچيس بلاشير : « من ينجح هنا هم الذين يتمتعون بقوة السيطرة والإقناع والكرم المليء بالتفاخر والنسب القوي ، والشجاعة والحيوية بالإضافة إلى الوقار والرزانة والحكمة وبعد النظر ، ونوع من الحلم وعظمة النفس والمهارة » .

أما الجماعة التي تفتقر إلى التنظيم السياسي القوي فتجد تماسكها في كبرياء العصبية أكثر منه في حساسيات منشآتها . فمن خلال هذا الشعور تدرك هذه الجماعة أهميتها في الإحساس الجماعي المشترك وفي ذكريات الأمجاد المشتركة . وهو أيضاً الذي يوحد بين أبرز شخصيات العشيرة بالإضافة إلى الضرورات الاجتماعية والسياسية . فيترابط الحلفاء والجيران أو الزبائن وفقاً لنظام الحماية والخضوع لها بشكل مستتر إلى حد ما . وحتى العبيد عندما يتم عتقهم ، ويصبحون من الزبائن ، عليهم الاستمرار في الحفاظ على شرف إسم عشيرة سيدهم السابق .

إذ أن الشعور بالانتماء إلى العشيرة لا يكفي وحده لتحقيق ذلك . فالعصبية ليست إلا التعبير الثقافي ، في شكل مثالي للعشيرة ، لضرورة أقوى ، هي أن يثبت كل فرد تمسكه بالحياة وسط هذه الجماعة . وفي نظام يترابط فيه معنى الحياة والحياة مع الجماعة إلى هذا الحد ، فإن القبيلة تستمد قوتها من ترابط أعضائها مثلما يستمد الأعضاء قواهم من وجود القبيلة . فلا أمان لأحد خارج القبيلة .

فخارج الجماعة من الذي يحافظ على أراضي المراعي وكيف يطعم الماشية ؟ كيف يمكن لشخص بمفرده أن يستبدل منتجاته ويزوج بناته ؟ وكيف يمكنه بعيداً عنهم

أن يصل إلى الآبار أو إلى الأماكن المقدسة التي تمنحه رضا الآلهة ؟ إن الشخص الوحيد هنا هو قاطع الطريق المنبوذ ، ومثل هذا الشخص الذي يعيش في صراع دائم مع نظام القبيلة يعد من الأشخاص النادرين ، تماماً مثلما نرى على النقيض تجمعات بعض القبائل تتفتت بمجرد رحيل شيخها الكبير الذي كان يفرض سلطانه بحكمته لا كزعيم وإنما كسيد مطلق .

إن نظام القبيلة الذي أوجدته الظروف المحلية هو الذي يسمح إذن للبدوي بالحصول على إمكانيات الحياة في إطار معين ، فالقبيلة تتفادى ضياع رجالها سواء خارج أي جماعة أو في صحاري جماعة أخرى واسعة المدى ، وتمنحهم نوعاً من النظام الذي يمارسون فيه تعبيراتهم الشخصية ومتطلبات الحياة الجماعية ، إن ما يمكن أن نطلق عليه استقلالية البدوي المكونة من الكبرياء والتفاخر الغاضب والعصيان ، يماثل إلى حد ما المواقف التي تتخذها الجماعة لتأكيد سلطانها بالنسبة للجماعات الأخرى ، إن الفرد له وجوده من خلال العشيرة والعشيرة من خلال رجالها ، وهذا هو ما يفسر ذلك الترابط القوي المتبادل بينهم ، إلا أن هذا النظام الذي يحدد الإحساس الجماعي وفقاً للعشيرة فحسب يجعلنا نرى الجزيرة العربية كنوع من المربعات المتقابلة إلا أن أكثر ما ينقصها فهي الوحدة السياسية .

بخلاف القبائل : معابد وأسواق

إن ديانة الجزيرة العربية القديمة مفتتة مثل شعبها ، وهي ديانة قائمة على الارواحية وتخضع حياة رجالها للعديد من القوى مثل الجن الذين يحومون حولهم ويغرونهم ويملون عليهم تصرفاتهم وأفكارهم ، وأحياناً يحصل الجن على مأوى : حجرة أو مياه أو شجرة أو حيوان وأحياناً ظاهرة جوية ، وهكذا فإن كل قبيلة لها الأماكن واللحظات المقدسة التي تعد في نفس الوقت مناسبات للقيام بالصلوات أو تقديم الضحية وممارسة طقوس التأليه أو السحر وأحياناً أخرى يتدفق شعور أكثر قوة ، فتتخذ القبيلة لنفسها إلّهاً أكبر من الجن ـ الذي تظل وظيفته محدودة ـ وهذه الآلهة عبارة عن قوة إسمية يزداد نجمها مع ازدياد سلطان القبيلة ، وهكذا فإن المعبد المتواضع الأصل يمكنه أن يصبح مكان تجمعات بين القبائل ، ولا شك أن مصير مكة بدأ مع معبدها عندما اتسعت العبادات البدائية المقامة لنبع زمزم ، ولبعض الأحجار ـ ومنها الحجر الأسود ـ وأصبحت هذه الشعائر شيئاً فشيئاً

الدعائم المادية لديانة جديدة أوسع انتشاراً ، تهم بعض الآلهة الكبرى في الجزيرة العربية .

وإذا لم يكن تنصيب مثل هذه الآلهة الكبرى وسط مجمع الآلهة العربي مرتبطاً إلا بالثقل السياسي فذلك يجعل من الصعب تفسير وجود المعابد الكبيرة مع مراعاة ما سبق أن قلناه عن كثرة تحركات هذه الجماعات وفي واقع الأمر فإن الضرورات الاقتصادية هي التي تفسر اختيار بعض أماكن العبادة البدائية ، وتطور بعضها إلى شكل مدن .

فمن الناحية الاجتماعية ، المدينة ليست إلا قبيلة قد استقرت ، إذ أن تكتلاً سكانياً كما في مكة وأحيائها المختلفة يرجع إلى جماعات قريش والعشائر التي تكونها بل وأحياناً نلاحظ في هذه المدينة بعض سمات ملحوظة في الصحراء : ثبات منشآت الحياة اليومية مثلاً يزيد من انعزال المرأة التي هي أقل تحرراً من البدوية ، وموقف مثل موقف خديجة ، الأرملة الثرية التي أصبحت أول زوجة للنبي من المواقف النادرة ، ولعل ذلك يرجع إلى ترملها ، ومن جهة أخرى إذا كانت المدينة تحكم مثل القبيلة عن طريق مجلس ، فلا يبدو أن القاعدة هنا هي الاعتراف بمميزات استثنائية لزعيم ما ، إذ أن حكم وسط المدينة هنا يبدو أقرب إلى حكم الأقلية .

ومع ذلك إذا ظلت القبيلة هي الدعامة الاجتماعية والمرجع الثقافي الأساسي ، فالمدينة ـ في جزيرة العرب مثلها مثل أي مكان آخر ـ لا يمكنها إلا أن تضيف مميزاتها الخاصة ، وفي هذه الحالة هنا نرى نوعاً من استقلالية الأشياء (شكل ٢) وخاصة العقارية ، أما على المستوى الجماعي فهناك تعريف جديد ، مكاني ، لجماعة . إن المدينة بصفة خاصة تفرض شكلاً من النشاط الذاتي غير معروف في الصحراء : التجارة وليست المقايضة المحدودة .

لقد عرفت مدن شبه جزيرة العرب ازدهاراً حقيقياً طوال وجود طرق القوافل ، لمدة قرون متعددة ، وخاصة مدن جزيرة العرب السعيدة ، وواحات صحراء خيبر ، وطيماء ونجران وغيرها ، وذلك دون التحدث عن الأسواق التي ظلت ذكراها في تراث الأدب العربي والتي سمحت بتبادل المنتجات والأفكار بين البدو والحضر أكثر مما سمحت به المدن .

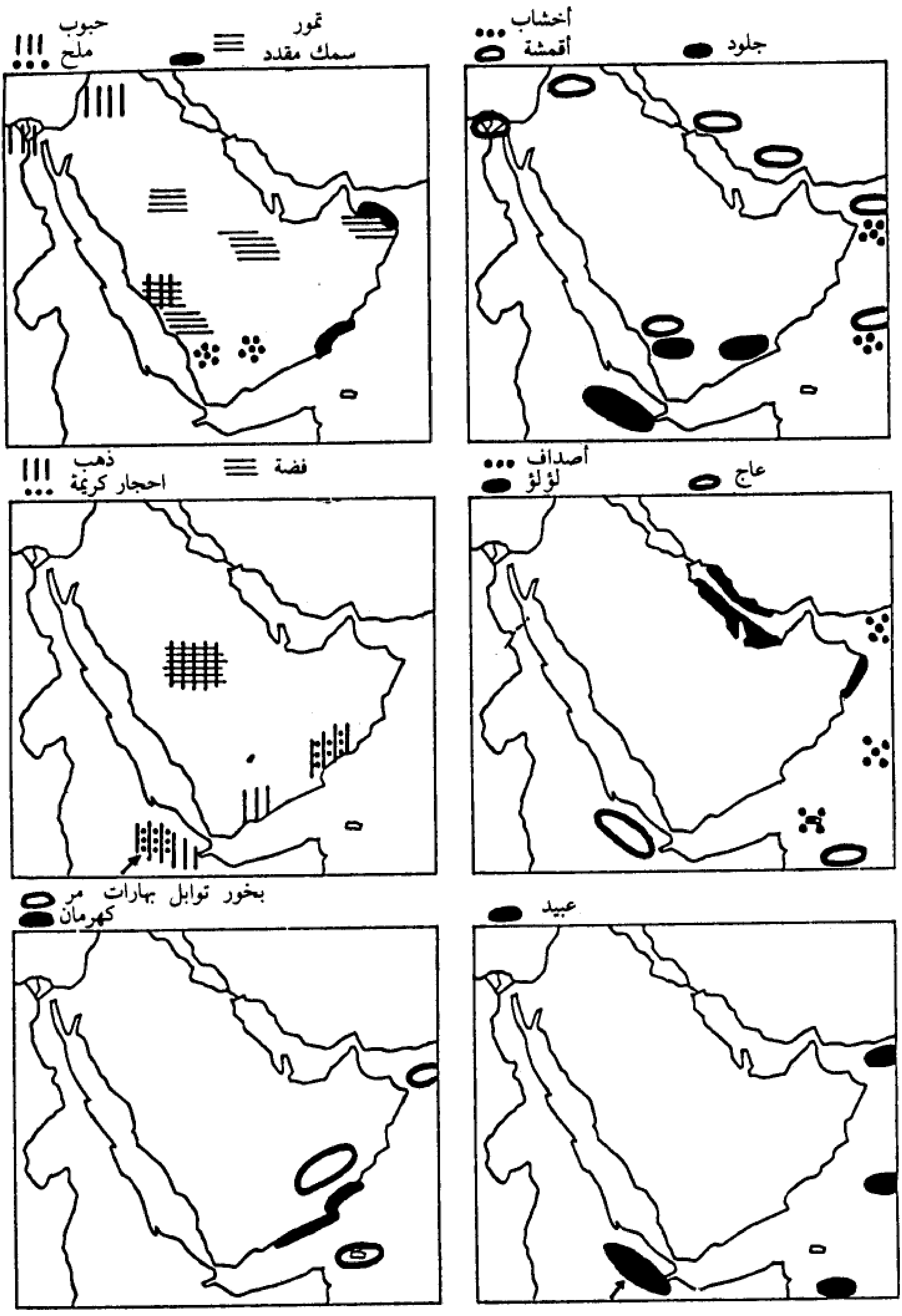
ولعل موقع الحجاز بخلاف أي موقع آخر هو الذي أهله أساسا للتجارة، فهنا في مفترق طرق القوافل نمت الطائف ويثرب (المدينة) وخاصة مكة التي سيجعل منها نشاط وبراعة آل قريش واحدة من أغنى مدن شبه الجزيرة العربية، وتكمن عبقرية هذه المدينة في إدراكها أن «موقفها» يفوق بمراحل عقبات «موقعها» وأن أرضها الجرداء التي تحدها الصحراء كانت أكثر حيوية بالنسبة للعلاقات التجارية لجماعات أربعة بلدان تعد من أغنى مدن ذلك الوقت،



شكل ٢ ـ مسرجة من البرونز من مدينة شيوه
(جنوب الجزيرة العربية)

فمن الجانب الآخر للبحر الأحمر، إمبراطورية النجاشي، وتجاه الشمال الغربي مدن البحر الأبيض المتوسط البيزنطية، ثم إلى الشرق أكثر بلاد ما بين النهرين الساسانية، وأخيراً وأقرب منها حضارات حضر اليمن المفتوحة عن طريق المحيط الهندي على الهند والصين .

لقد عرفت مكة كيف تحدد صلاتها مع البدو أولاً ، ثم مع البلدان البعيدة أو مع ممثليها المحليين دون أن يكون لديها قطع بحرية ، كما عرفت كيف تقيم نظاماً رائع التنظيم لاستقبال ومرور البضائع العابرة (أنظر خريطة ١) مثل الذهب والعاج والعبيد من أفريقيا ، والتوابل والأقمشة من الشرق الأقصى قادمين من بلاد العرب السعيدة التي تضيف إلى ما يمر من عندها البهارات والبخور والأقمشة والأسلحة والبقول والزيوت القادمة من حوض البحر الأبيض المتوسط



الخريطة ١ - المراكز الأساسية للتجارة في الجزيرة العربية قبل الاسلام .

وكلها تمر بلا توقف إلى مخازن الطبقة الارستقراطية في مكة .

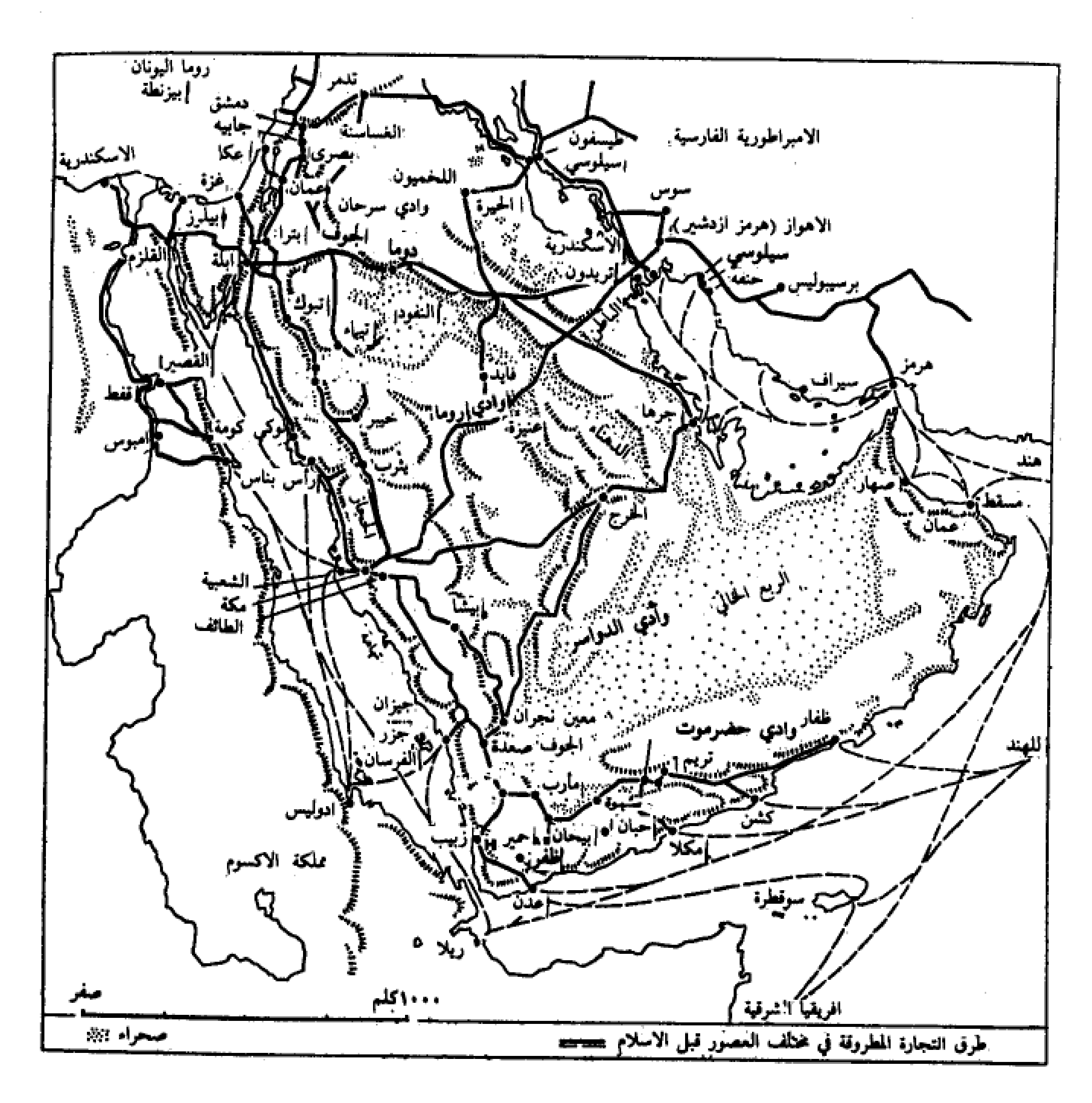
وهكذا كانت رؤوس الأموال المستثمرة تتضاعف سواء عند استقبال أو نقل أو شحن البضائع مما كان يؤدي إلى ازدهار الحركة المالية القائمة على أساس الدرهم الذهبي البيزنطي والدراخمة الفضية الساسانية ، وإلى خلق نمط جديد من المواطنين : المليونير التاجر ، والمستثمر والمرابي .

ويمكننا القياس على نموذج مكة التطور الحاسم لمستقبل الجزيرة العربية ، فالمدن هي مفترق طرق دينية وتجارية ، وتقوم حولها التجمعات والمقايضات التي تحد من الانعزال القبلي ، بل أكثر من ذلك ، إنها تحل محل مجمل الجزيرة العربية في خط سير الاقتصاد العالمي ، لتجعل من هذا المعقل الطبيعي للعزلة عنصراً أساسياً في الاستراتيجية التجارية آنذاك . لكن في أي الأزمنة ؟ إذا كانت مكة تمثل هذه الحقيقة وأن التاريخ الدولي للجزيرة العربية يمر من خلال مدنه ، فإن هذه الحقيقة رغم كل شيء سابقة لازدهار مكة نفسها ، التي يبدو أنها لم تأخذ مكانها الحقيقي إلا في القرن السادس ، من عصرنا هذا ، وأن الدور البارز للحجاز عشية الإسلام يكمن في أنه عرف كيف يأخذ ـ في الوقت المناسب ـ مكانه في حركة قد توقفت أو على الأقل قد اضطربت .

٣ ـ الوحدة الثقافية .

ثوابت التاريخ : التجارة

لقد احتلت البلاد العربية السعيدة هذه المكانة المرموقة تجارياً واحتفظت بها بنسب متفاوتة من الحظ طول فترة تاريخ ما قبل الإسلام (خريطة ٢) والذي لا نعرفه حقيقة ، إلا إبتداء من ألف سنة قبل عصرنا ، غير أننا نعلم أن تلك الفترة قد سبقها حدثان أساسيان هما : استخدام الجمل ، الذي سبق أن أشرنا إليه ، واختراع أبجدية الكتابة ـ وربما كان ذلك في فجر الألف الثانية . وبعد ذلك تفتح الألف الأولى الفترة التي نسميها مملكات جنوب الجزيرة العربية ، وكلها مشتبكة في معارك وصراعات غير أكيدة التاريخ وكثيرا ما يشك في ترتيبها وهي مملكة معين ، وقتبان ، وحضر موت وخاصة مملكة سبأ ، التي تحيط بها هالة أسطورة ملكتها ، التي استطاعت ـ بفضل نظام مهيب من السدود ـ أن تحول منطقة مأرب إلى جنة



الخريطة رقم ٢ - الجزيرة العربية قبل الاسلام وطرق التجارة العالمية .

من الظلال المستمرة والتي كانت مساحتها ، على حد قول العرب ، تتحدى أن يتمكن فارس من قطعها في شهر من السيرالمتواصل . وهذه المملكات سبق لها أن أكدت طرق التبادل التجاري بين عدةشعوب : كالمقيمين المتتالين في الشرق الأدنى ، من أشوريين وفارسيين ومصريين ، ويونانيين . وقد كان العرب بالنسبة لهم ، وعلى مر الأزمان ، أما تابعين أو أسياداً ، متمردين أو متحالفين كما تعاملوا مع التجار القادمين من الهند والأثيوبيين من مملكة أكسوم التي أسسها أبناء العرب على أرض أفريقية (لوحة ٤) .

وينتهي ذلك العصر الذهبي للتجارة العربية حوالي القرن الثاني قبل الميلاد ، مع بداية تقدم الملاحة في البحر الأحمر ، الذي سلب القوافل جزءاً هاما

من طريقها التقليدي ، ومع بداية قلاقل هزت جنوب الجزيرة العربية . فقد انجبوا ، في منطقة سبأ ، بداية أسرة جديدة ، ستصبح سيدة هذه المناطق في القرن الرابع من عصرنا هذا . لكن ذلك لم يتم دون آلام : فقد كان عليها أن تكافح ، وتكافح بلا هوادة ، ضد المملكات المجاورة لها ، ضد تحالف قوي بقيادة حضر موت ، وأخيراً ضد الهجمات المسلحة الأولى من الأكسوميين

إن الفترة الواقعة بين القرن الثاني قبل الميلاد ، والقرن الرابع من عصرنا ، تعد أساساً فترة تواجد الرومان في الشرق . وإذا كانت التجارة الدولية قد احتفظت بحقوقها في الجزيرة العربية ، فلم يعد ذلك بنفس سهولة الماضي ، إذ وقعت أحداث هامة أعطت لعالم الجزيرة العربية وجها جديدا . فالإمبراطوريات الكبرى التي تحيط بشبه جزيرة العرب كانت تحاول السيطرة الفُعلية على ملتقى الطرق هذا ، ومنها الحملة الفاشلة لجنود اليوس جاللوس التي وصلت حتى اليمن عام ٢٤ قبل الميلاد ، ومحاولات الساسانيين في الشمال وفي عمان ، دون أن ننسى كما سبق ورأينا ـ الغزوات الأثيوبية التي كانت تتصدى لهجرة سكان جنوب الجزيرة العربية إلى أفريقيا البحر الأحمر .

وأصبح القلق الذي عبرت عنه روما وضرورة محافظتها على المجال العربي ، من النتائج الحاسمة بالنسبة لتاريخ شبه الجزيرة العربية . وذلك مثل المنافسة التي كانت قائمة بينها وبين مدينة طيسفون التي كانت تعطي القوافل المتجهة نحو الشمال أهمية اقتصادية وسياسية متزايدة . وأصبح مصير شبه الجزيرة العربية يتأرجح بين الدول والعواصم الكبرى مثل بترا ، وبصرى ، وحتى تدمر وكلها التقاء طرق تجارية جديدة ، ومراكز جديدة للثقافة حيث بدأت المؤثرات العربية تتصل بالتراث الأجنبي الآرامي وخاصة الهلليني .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت العلاقات التي تقيمها الجزيرة العربية مع الشعوب الشمالية جزءاً لا يتجزء من تاريخها ، الذي لم يعد يشكل وفقا لأحداث شبه الجزيرة العربية فحسب ، وإنما أيضاً وفقا للغزوات الآتية من أطرافها الشمالية . وقد جرت العادة ، لتفسير هبوط التجارة التقليدية في القرن الرابع والخامس ، أن يوضع أفول نجم الدولة الرومانية والقلاقل السياسية في جنوب الجزيرة العربية على نفس المستوى . وفي الواقع ، أن أول شروخ في سدود

مأرب ، بالإضافة إلى بعض الظروف المناخية الجديدة ، تعد علامات أكثر منها الأسباب الحقيقية التي أدت إلى التفكك الداخلي وتقهقر الحياة الحضرية . لكن أحداً لا يفسر لماذا ازدادت كل الأشياء سوءاً في القرن السادس والسابع ، في نفس جنوب الجزيرة العربية ، ومع ذلك نشاهد توسعاً تجارياً جديداً يعد ازدهار مكة رمزاً له .

فمن الواضح أن هذا الإزدهار يوافق الإختفاء النهائي للسلطات الأهلية في جنوب الجزيرة العربية ، واحتلال القوات الأثيوبية لليمن ، تليه القوات الفارسية ، ثم أخيراً تصدع السدود الكبرى . وربما قال القارىء إن الإزدهار التجاري يقع خارج حدود منطقة القلاقل، في مكة التي لم تعرف سوى غزوة واحدة من الأكسوميين ـ على حد قول الأسطورة ـ وكانت غزوة فاشلة . لكننا إذا ربطنا ازدهار مكة بالفوضى السائدة في الجنوب ، لما فسرنا لماذا لم يأخذ هذا الإزدهار مكانته الحقيقية إلا إبتداء من أواخر القرن السادس ، في حين أن تطور الفوضى اليمنية ـ كما رأينا من قبل ـ يسبق ذلك بكثير ولعل هذا يرجع إلى أن بيزنطة ظهرت لتحتل مكانة روما المتداعية في السوق التجارية . ولا نعني الإمبراطورية بأسرها ، وإنما القسطنطينية بذاتها ، مدينة جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) ، وكانت عاصمة العالم والمستوردة الضخمة لمنتجات الرفاهية التي كانت تمر بجزيرة العرب .

إن المحافظة على الإزدهار في مكة ، والذي استمر بعد إنطلاقته ، يبرهن على أن التجارة التي تولى أمرها قريش تخطت الأزمات التي هزت الشرق الأدنى عند وفاة جوستنيان ، وخاصة في بداية القرن السابع ، عند انتصار الساسانيين في سوريا ثم في مصر . مما يدل على أن تجار الحجاز عرفوا كيف يتأقلمون مع الظروف الجديدة لمفهوم دولي هو المنافسة المحتدمة بين بيزنطة وطيسفون .

وفي الجنوب تأرجح اليمن في الفلك الساساني وتغير مدار مصيره لفترة ما على الأقل . أن أثيوبيا التي فقدت اليمن لصالح فارس ـ كما قيل ـ بدأت تتخلى عنه وتدفع طرق تصريف بضائعها نحو الشمال ، وخاصة تجاه بيزنطة حليفتها . وبتحويل الساسانيين جزءاً من تجارتهم البحرية مع الهند ، عن طريق الخليج الفارسي أدى ذلك إلى فقدان اليمن لنصيبها الذي كانت تضيفه إلى هذه التجارة

العابرة من منتجات الشرق الأقصى ، وبالتالي نقص هذا الجزء من حجم عملياتها التجارية . ومنذ ذلك الحين ، أصبح جنوب الجزيرة العربية يتعامل أساساً مع الحجاز ـ المجال التجاري الجديد ـ لتصدير منتجاته الذاتية ، حتى وإن ظل يتزود من بعض التيارات القادمة من الهند .

وفي الشمال أيضاً تغيرت الأحوال : فهنا ، أدت المنافسة بين البيزنطيين والفارسيين إلى أحياء تاريخ المقاطعات العربية المسيحية ، وهي دولة حاجزة على حافة الصحراء، فعند بلاد ما بين النهرين ، يوجد من جهة ، الأخميديون ، الذين يرجع تاريخهم إلى القرن الرابع على الأقل ، إلا أنهم بلغوا ذروة ازدهارهم في القرن السادس ، ومن جهة أخرى ، يوجد جيرانهم وأعداؤهم الغسانيون ، الذين استقروا منذ ٥٠٠ عام تقريباً بين دجلة الوسطى والجنوب الدمشقي . إن دولة طيسفون والقسطنطينية المتحالفتين على التوالي أو الصاخبتين ، تتواجهان دائماً في صراعات متواصلة . وبينهما تتأرجح مملكة كندة ، التي لا نعرف عنها الكثير ، والتي سوف تسقط في القرن السادس تحت هجمات الأخميديين ، بعد أن أعطوا المثل على أطول تحالف بين القبائل العربية مجتمعة حول زعيم واحد قبل الإسلام .

ووسط هذه البلبلة في المصالح ، وحيث لا يتوافق دائماً الطموح المحلي مع مطامع الدولتين الحاميتين على التوالي ، فلا بد لإستقرار التبادل التجاري من تنظيم يمكنه التفاوض على كافة المستويات ، من تأمين سلامة الإنتقال ، وتحديد موعد مرور القوافل بالتقريب ـ والأماكن التي يجب أن يتم بها التبادل ، وهنا يأتي انتصار مكة التي عرفت كيف تضع مثل هذا التنظيم وعرفت كيف تمد ثلاث أمبراطوريات كبرى بامكانية استمرار تجارتها رغم المسافات التي تفصل بينها.

ثوابت التاريخ : الهجرات .

يمثل العرب فرع أسرة جنوبية من الجماعة السامية ، يظل موطنها الأصلي مجهولاً لنا ، وعلى كل حال فإن الأجيال التي توالدوها تظهر ـ هنا أيضاً ـ تمييزا أساسياً بين الجنوب وبقية شبه الجزيرة العربية ، وفي سياق الحديث نعني بلفظ اليمنيين أبناء قحطان الذي يعتبر جد عرب الجنوب ، أما في الشمال فينتمون إلى عدنان ، وهناك عداوة عنيفة بين الجماعتين تدفعهم إلى التفنن في الربط بين أسماء أجدادهم بتاريخ الإنجيل وخاصة بذرية سام الذي يبدو إسماعيل مفتاح سرها .

إن هذا الإنشقاق يعد من المعطيات الأساسية للعالم الثقافي والسياسي في شبه جزيرة العرب إذ نراه واضحا في التراث الشعبي وفي أعمال المثقفين ، وملهما لكبرياء الشعراء كما سيلهم أكثر من صفحة في تاريخ العرب قبل محمد ولمدة طويلة من بعده ، عندما ستندلع المعارك بين اليمنيين وسكان الشمال لتنتقل مع الغزاة إلى أماكن أخرى على بعد مئات الفراسخ من البلد الذي نشأت فيه ، على أي حال يبدو أن هذه التفرقة ـ في الجزيرة العربية ـ كانت معنوية أكثر منها واقعية ، على الأقل في الأزمنة السالفة ، فالخريطة ـ ببساطة ودون أن تكترث لما بينهما من انشقاق ـ توضح لنا أن أبناء قحطان قد انتشروا في الشمال وأبناء عدنان في الجنوب .

إن التراث العربي الذي يجابه الموقع الأرضي لجماعة ما بذكرى إسكان ضاعت معالمه تشير إلى مضمون هجرات يؤكد التاريخ صحتها ، وذلك لا يعني أنه بمقدورنا التعرض لتفاصيل المعلومات التي قدمها العرب أو التأكد من حجم الكتل البشرية التي اشتركت في هذه التنقلات ولا كيفية انتقالها فهل كانت على شكل تسلل أو هجمات عنيفة ، ذات تأثير محدود أم ردود فعل متصلة ؟ . . . إلا أنه يمكننا ـ على الأقل ـ أن نؤكد بل ونحدد أن واقع الحركة المزدوجة من الشمال للجنوب ومن للجنوب للشمال موجود في التراث ويمكن معرفته في بعض الأحيان .

ولا شك أن هناك هجرة قد حدثت من منتصف شبه الجزيرة العربية إلى اليمن في بداية عصرنا هذا ، في حين أنه قد وقع انتقال عكسي في القرن السادس أدى إلى طرد جماعات ضعيفة شبه مهدمة تم غزوها خارج منطقة الجنوب ، ويبدو أن هذه الجماعات قد طردت غيرها أثناء خط سيرها الذي امتدت أصداؤه بعيداً عند مشارف العالم الحضري للعراق وسوريا ، وهذه التحركات البدوية الواسعة قد وقعت قبل تدفق الإسلام بقرن واحد .

ولا شك أن هذه التحركات قد مهدت له الطريق ، فسواء كانت في شكل هجرة أو على صورة تحركات القوافل التقليدية والحج أو الأسواق فإن الحركة والتنقل من السمات الأساسية المكانية في تاريخ البدو كما أنها ساعدت على نثر بذور التطور الديني والوحدة عبر شبه الجزيرة العربية .

أديان وتدين .

آن لنا أن نتحدث عن نبي الإسلام . . . لأن النجاح التاريخي للنبوة المحمدية ـ الذي سنتساءل عن أسبابه فيما بعد ـ يفترض أن هناك تمهيداً لها أولا ، وهو وضوح ومعقولية النبوة ، فقبل أن نعرف لماذا اتبعوها علينا أن نعرف كيف أدركوها ، فعندما ذكر الآله الأوحد ، وأعلن عن يوم الحساب وذكر الأنبياء السابقين ، لم يكن محمد يعظ في الصحراء بالمعنى المفهوم لها ، فلقد كان يتوجه إلى المدن وإلى مدينته أولا ، ويتوجه بشكل غير مباشر إلى كل القادمين إليها من مدن أخرى سواء للأسواق أو الحج وللتجار أو ممثليهم .

ولم يكن ذلك هو الموقف في الصحراء التي لامستها التأثيرات المسيحية وإن لم تكن ـ كما يبدو ـ اليهودية قد اقتربت منها ، ولا في المدن التي تؤ وي جماعات مهمة خاصة في اليمن والحجاز ، ففي القرن السادس عرف اليمن اليهودية والمسيحية ، على التوالي كديانات رسمية ، أما الحجاز فقد كان يستقبل بانتظام القوافل القادمة من أطراف سوريا وما بين النهرين ، وكانت تلك المناطق تزخر بالأديرة والمعابد ، فكانت هذه القوافل تحمل معها القصص والموضوعات المسيحية ، بل وتقول إحدى الروايات أن محمداً الشاب قد قابل أحد الرهبان المسيحيين من بصرى .

وربما كان كل ذلك في الواقع أقاصيص أكثر منها دوافع لتأمل ديني ، ما علينا ، إلا أن النبي عندما سيستعين ببعض اتباعه لضرب الأمثلة على تعاليم نبوته فلن يقابل في الناس ولا في قلوبهم أرضا بائرة .

إن وجود الوحدوية في الديانة اليهودية والمسيحية حتى وإن لم يكن يدين الوثنية العربية تماما فقد ساعد محليا على تدعيم مظاهر ديانة أكثر تطهرا ، فقد جرى العرف في المدن على الأقل على تبجيل عدد ضئيل من الآلهة الكبرى ، فالثالوث الأساسي هو الزهراء ـ القمر ـ الشمس ، التي تظهر عناصرها متفرقة ومجتمعة تحت تسميات مختلفة ، أما في الحجاز وفي مكة بصفة خاصة فقد أضافت إلى ثالوثها المقدس الأساسي (العزي ومناة واللات) إلّها أكبر هو الله ، الذي أقيم له معبد في الكعبة اسمه بيت الله .

وسواء كانت هذه الإتجاهات تطورا حديثاً أو استمراراً لعبادات قديمة لآلهة

قد ذبلت أهميتها مع الوقت لصالح آلهة أكثر عدداً وأكثر تخصصاً وتحديداً ، وأكثر قربا من المتعبد ـ مثلما حدث في أماكن أخرى من البلاد السامية ـ فمن الواضح أنه عشية الإسلام ظلت هذه الإتجاهات في مدن شبه الجزيرة العربية وتغيرت باتصالها بالديانتين التوحيديتين القائمتين آنذاك ، وسواء كانت جديدة أو معادة فإن الإتجاه نحو إله واحد اسمى وخالق لكل شيء لا يوجد في الوثنية العربية إلا كنوع من التدين المبهم ، إلا أن هذا التدين كان قائماً وكان لدى مكة أولياء عديدون يمارسون التقشف والصلاة منتسبين إلى تراث إبراهيم الذي كان يؤمن بإله واحد ـ ذلك هو ما كان يسبق الإسلام الذي تحقق في موعده .

العرب والشعر : لغات مشتركة .

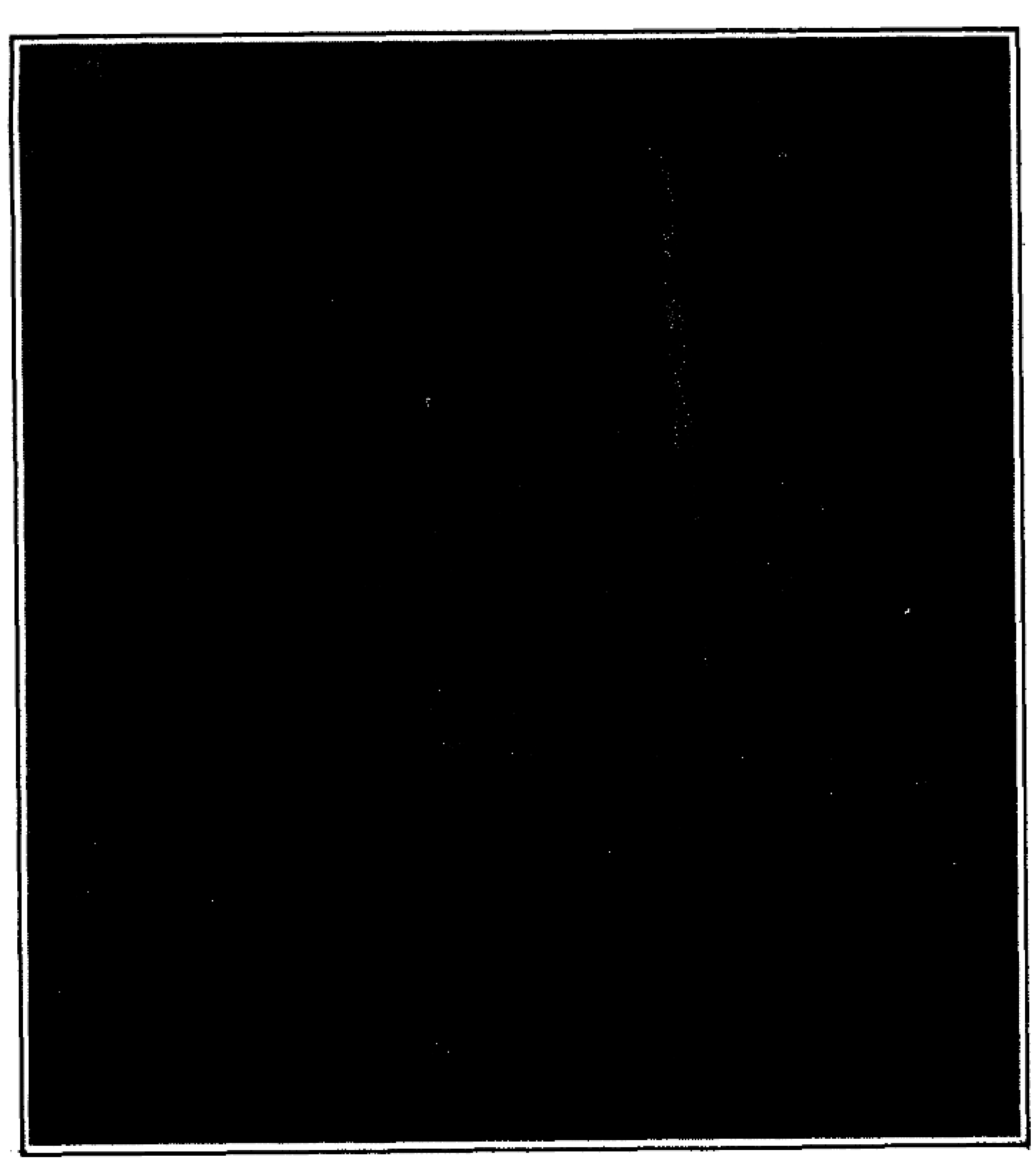
إن وضوح رسالة القرآن الذي أنزل للعرب أساساً ، يفترض حدا أدنى من الوحدة اللغوية في إجمال شبه الجزيرة العربية ، ولا شك أن الهجرات والتبادلات كان لها أثرها الفعال هنا أيضاً ، سواء على مستوى الحدود القبلية أو اللغوية المعبر عنها في لهجات مختلفة ، أو في الحد من الحدود التي تفصل العربية الخاصة بالجنوب داخل المجموعة اللغوية السامية الجنوبية ، وهناك بعض الأحداث الهامة التي تلخص هذا التطور : إن أبجدية الجنوب التي انتقلت إلى الشمال حيث عرفت تطبيقات أخرى ، قد تراجعت إبتداء من القرن السادس من عصرنا هذا ، أمام الخط العربي بشكليه المنتظم والسريع ، المشتقين من الكتابة الآرامية من خلال تطور طويل لعب فيه سكان بترا دوراً حاسماً .

وفي نفس الوقت فإن فهم واستخدام اللغة العربية المتواصل في المحادثة ، في المناطق الوسطى من شبه الجزيرة العربية وخاصة في الحجاز ، قد امتد بفضل التبادلات التجارية حتى قلب اليمن ، ففي عشية الإسلام بدأت لغة الجنوب المكتوبة ، ولغة الإتفاقيات الرسمية ، ترى المنافسة على أرضها إذ أخذت اللغة العربية في الإنتشار شيئاً فشيئاً ، خاصة عند التجار الذين بداؤا يفهمونها بشكل أفضل ، أو على الأقل بحيث أمكن للوفود التي إستعان بها محمد وسكان الجنوب أن يستخدموها في مباحثاتهم .

وازداد تقدم اللغة العربية وفقا لنفس الأساليب في الشمال حيث تراجعت اللغة الآرامية لتنحصر في الكتابات الرسمية بعد أن تركت لها المجال الشاسع كلغة



٥ - الاسراء ليلا بالنبي - علي البراق



٦ ـ بعض مظاهر العقيدة الاسلامية : أ ـ الصلاة في تركيا

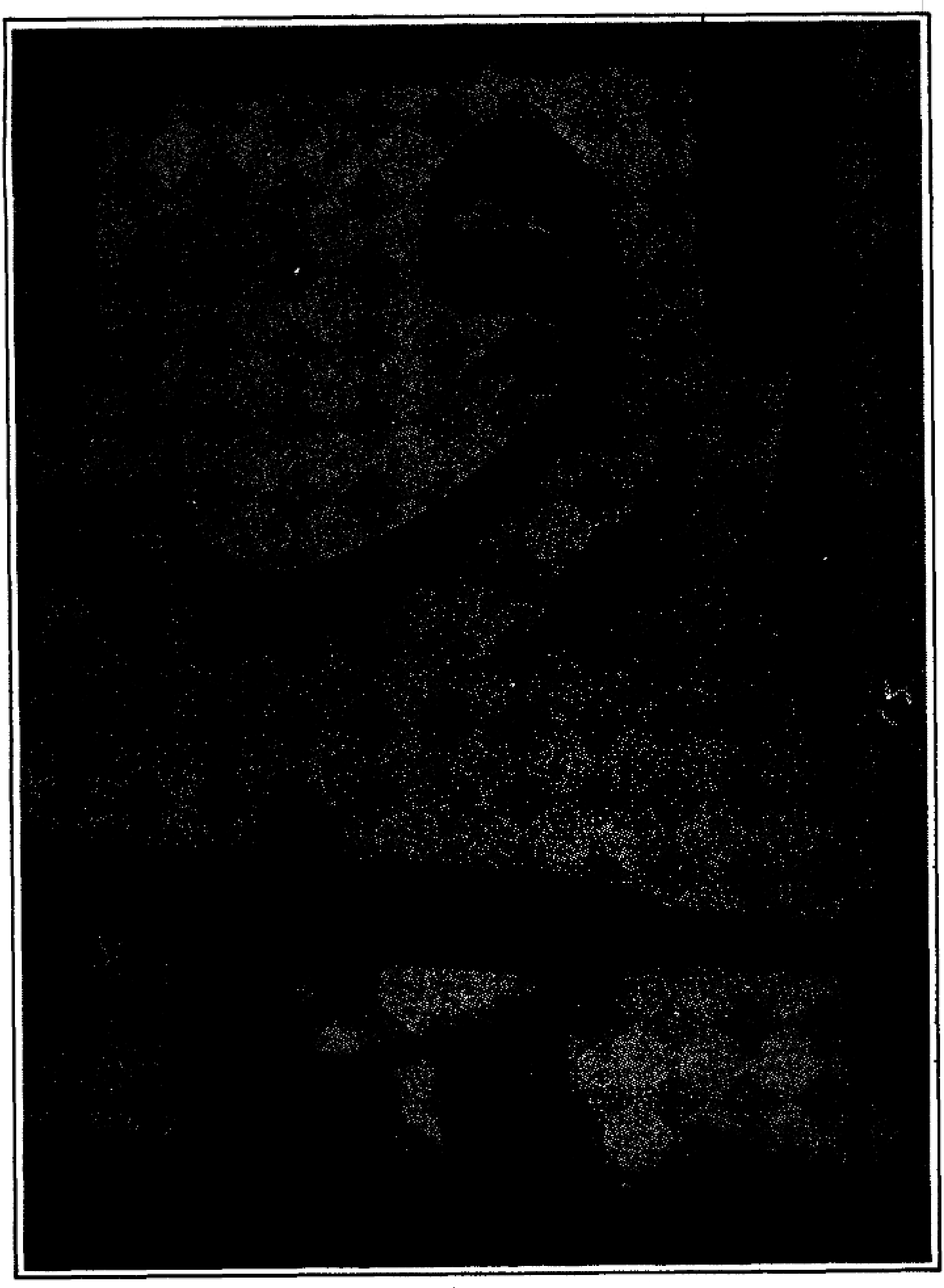
للمحادثة ، ولعل العامل الأهم من ذلك هو استخدام اللغة العربية في منتصف شبه الجزيرة العربية وفي الشمال كأداة لثقافة مشتركة ، فلقد شهدت شبه الجزيرة العربية تطوراً لحركة نشأت في مناطقها الوسطى وتغلبت شيئاً فشيئاً على الحدود التي كانت تضعها اللهجات المحلية ، وذلك هو ما يطلق عليه رجيس بلاشير « الكوانة » وقد استقرت هذه الكوانة على الأقل في القرن السادس بعد الميلاد ، قبل أن يصبح القرآن منبعاً للغة العربية الكلاسيكية ، وقد وحدت العرب وفقاً



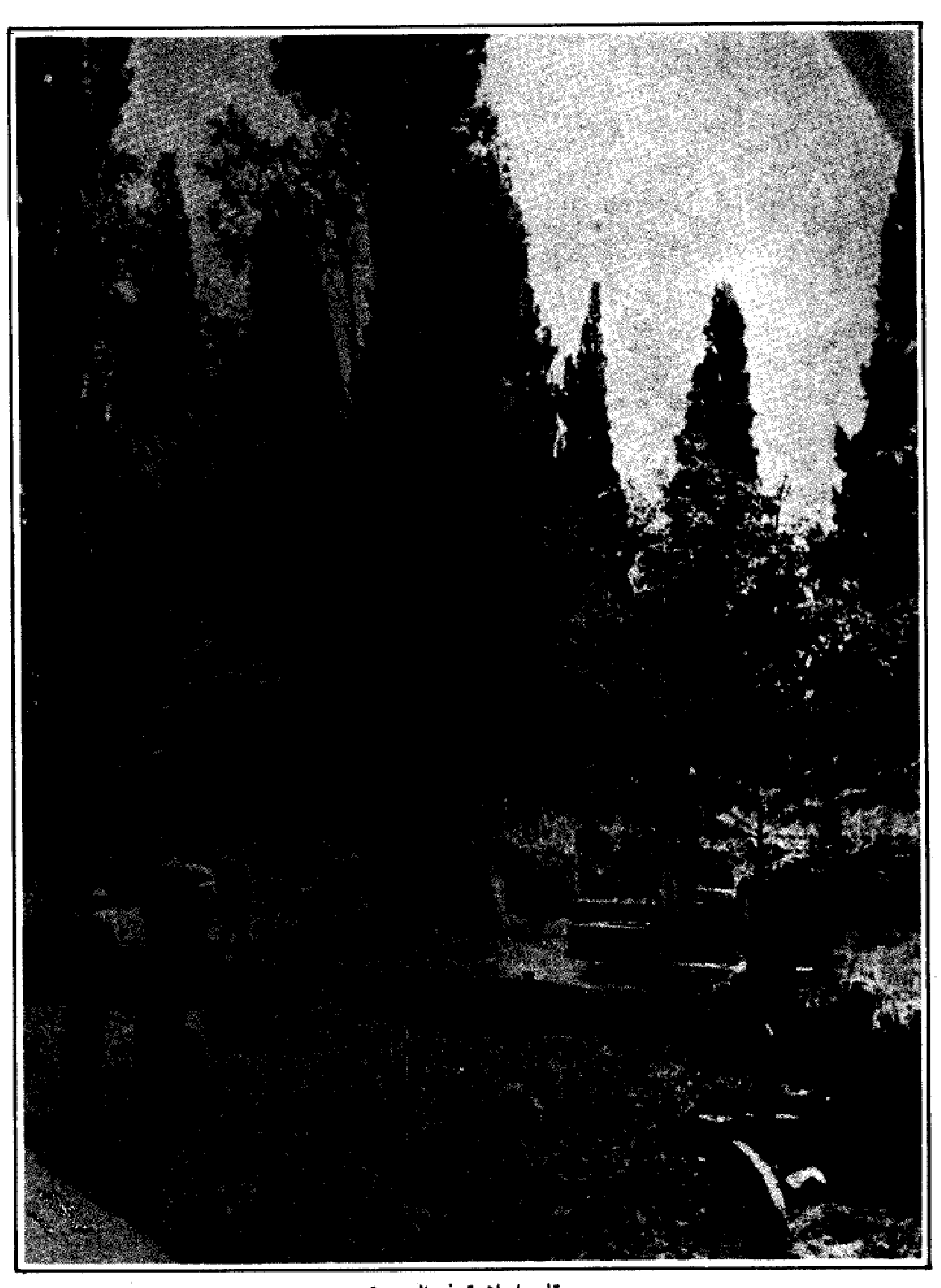
ابتهالات في مكه

لنفس الموضوعات ونفس المثل الخاصة بالصحراء إذ كانت أكثر حيوية من اللغة الرسمية وأكثر نبلا من اللهجة المحلية .

فالأعمال الجليلة والشرف والمروءة والكبرياء والكرم والضيافة ومشاعر الحب الكبرى أو الغضب وكل هذه الصيحات التي يتغنى بها الشاعر لا قيمة لها بالنسبة للترحاب الشفهي الذي يعبرون به عنها ، فاللغة التي يعبرون بها والمثل العليا التي يتحلون بها لا تعرف الحدود بين المدينة والصحراء ، وإذا كانت المدينة ـ



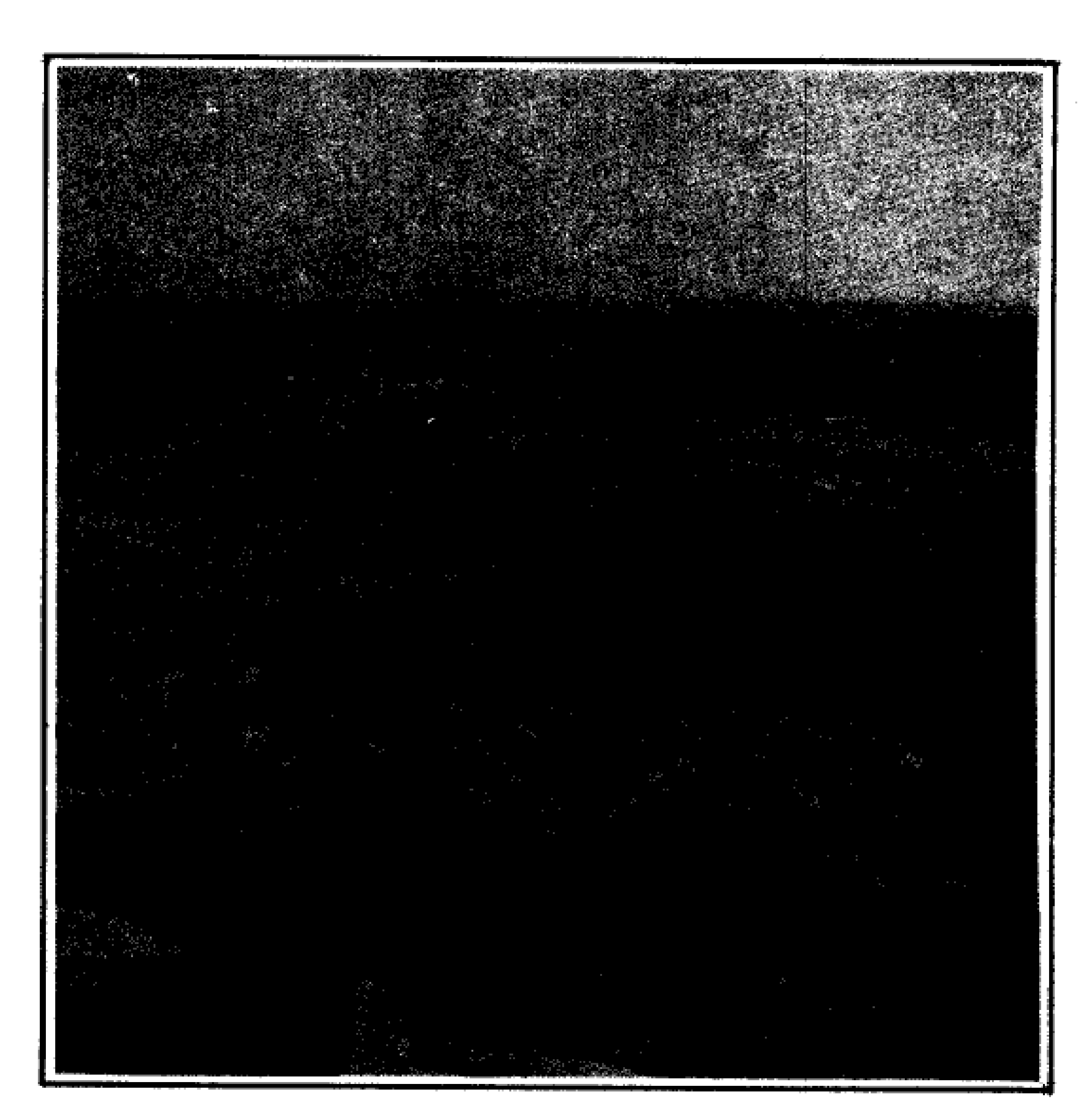
من الناحية الإقتصادية والإجتماعية ـ بعيدة عن فهم البدوي المحدد فإنها تتقارب من الناحية الثقافية وخاصة من أسلوب قيمه الجافة أو المتناقضة أحياناً وإنما تظل دائماً بعيدة عن فكرة الإنتهازية ، ولقد تعرض الإسلام لهذا التناقض بين المثل



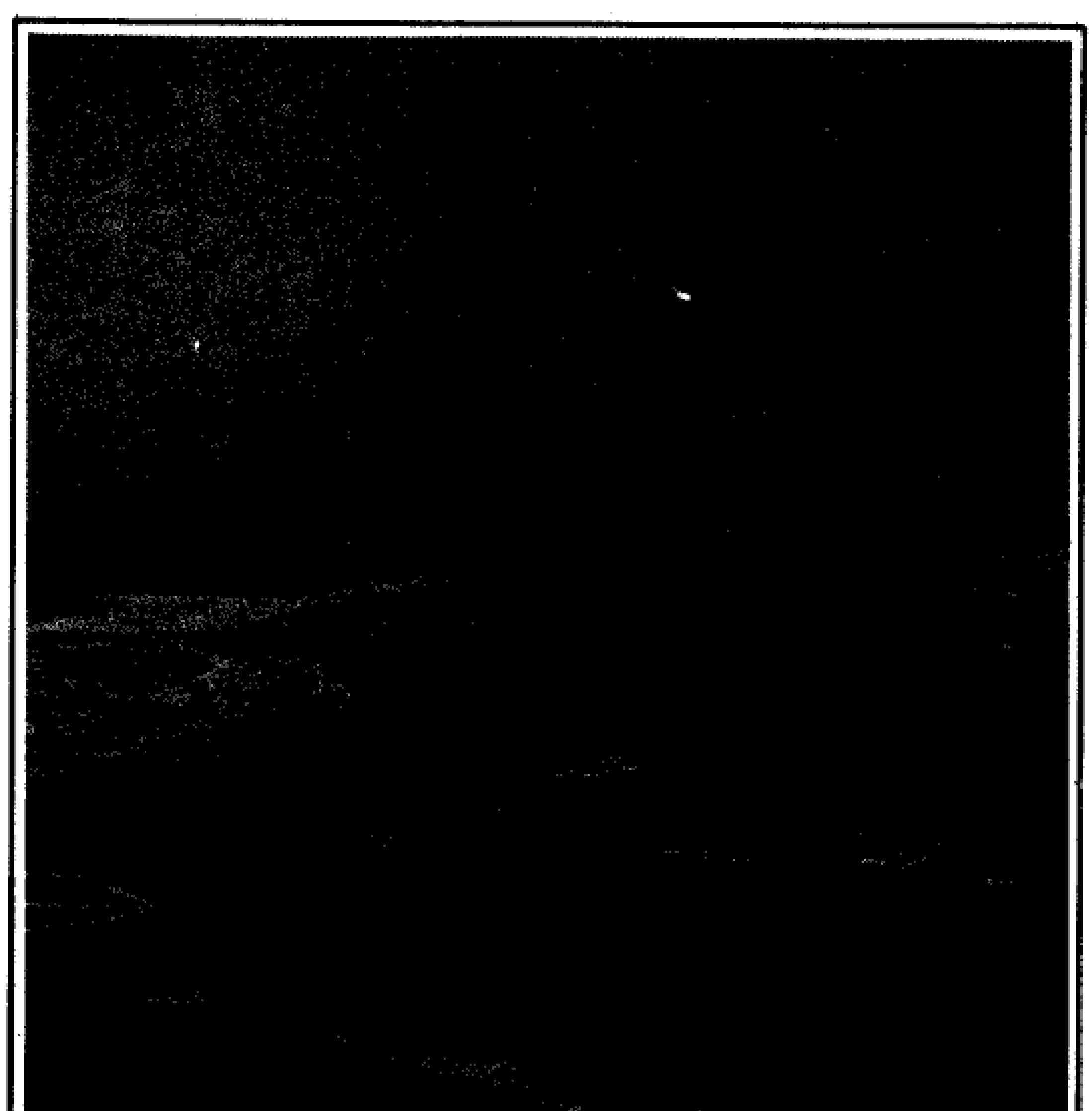
مقابر اسلامية في البروسة

العليا المعلن عنها عالياً وبين واقع ممارسة التجارة أو الربا في الحياة اليومية في مكة .

ولعل من لا يرون في مجيء الإسلام إلا علامة لعبقرية محمد سيقولون : تلك هي بلاد العرب عشية الإسلام . . . كما أن الذين يرون أن مغامرة محمد



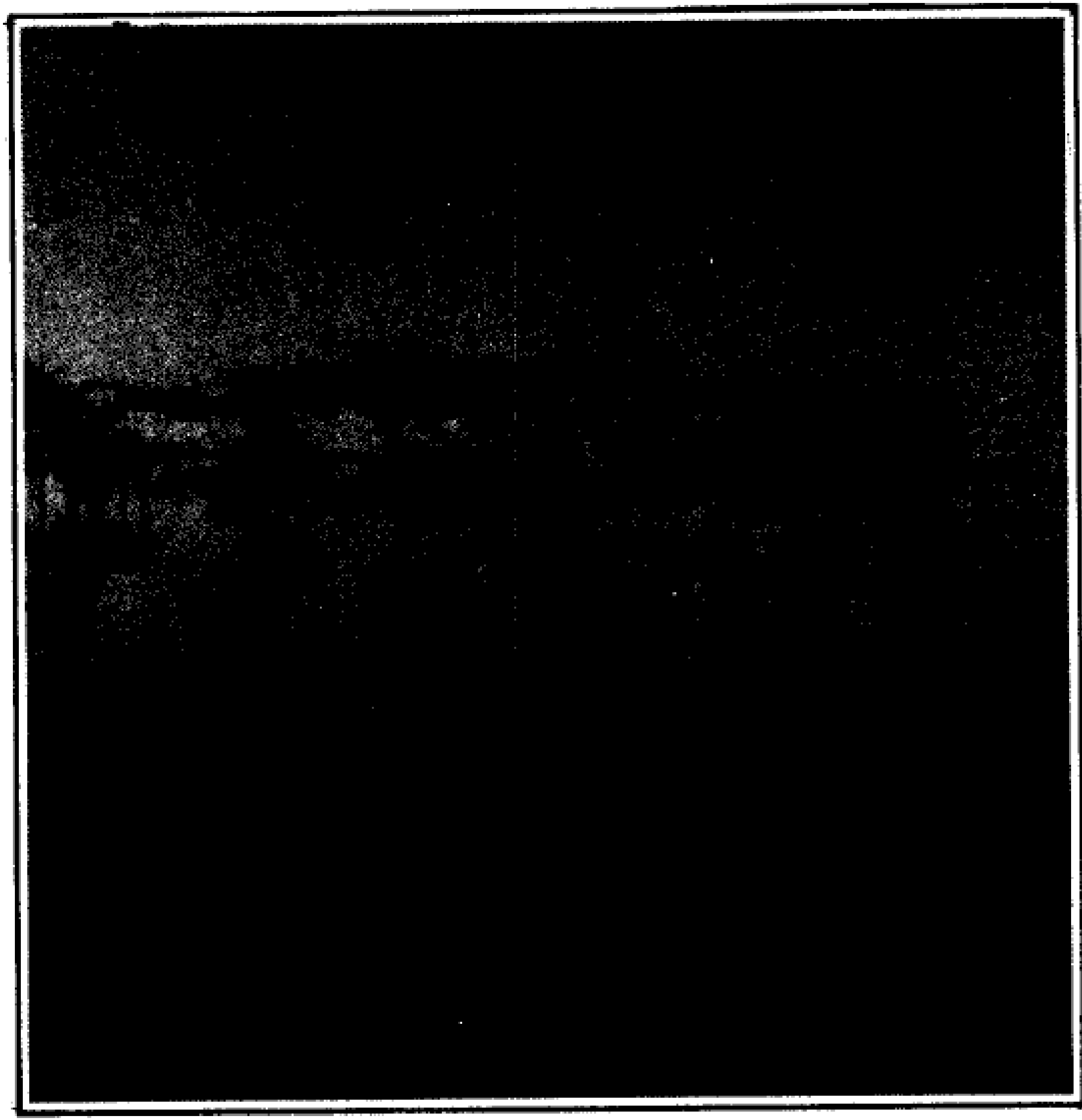
التراث القديم تدمر
وصحراء القوافل



البحر الأبيض المتوسط



أنهار بلاد الرافدين



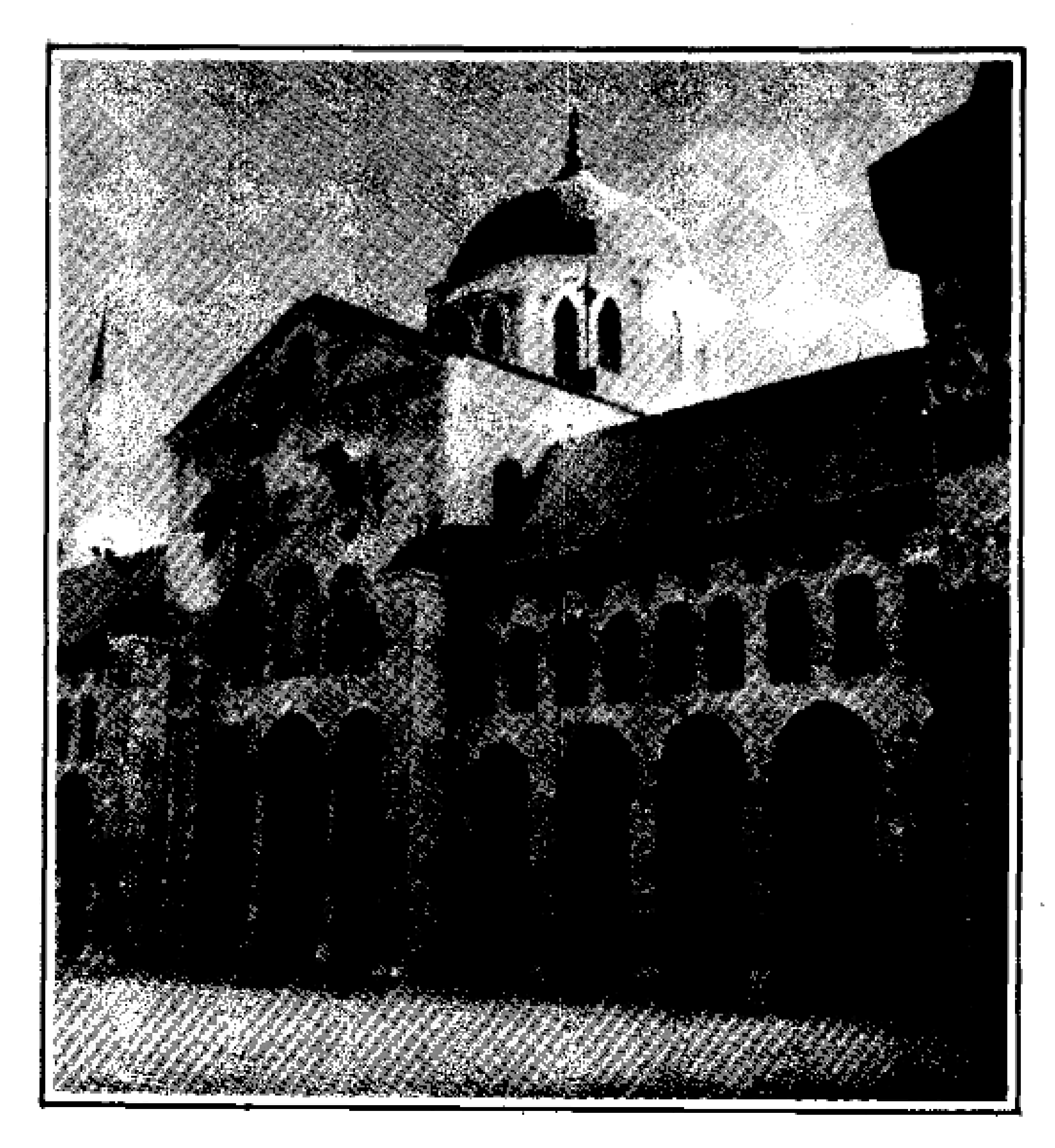
نهر النيل



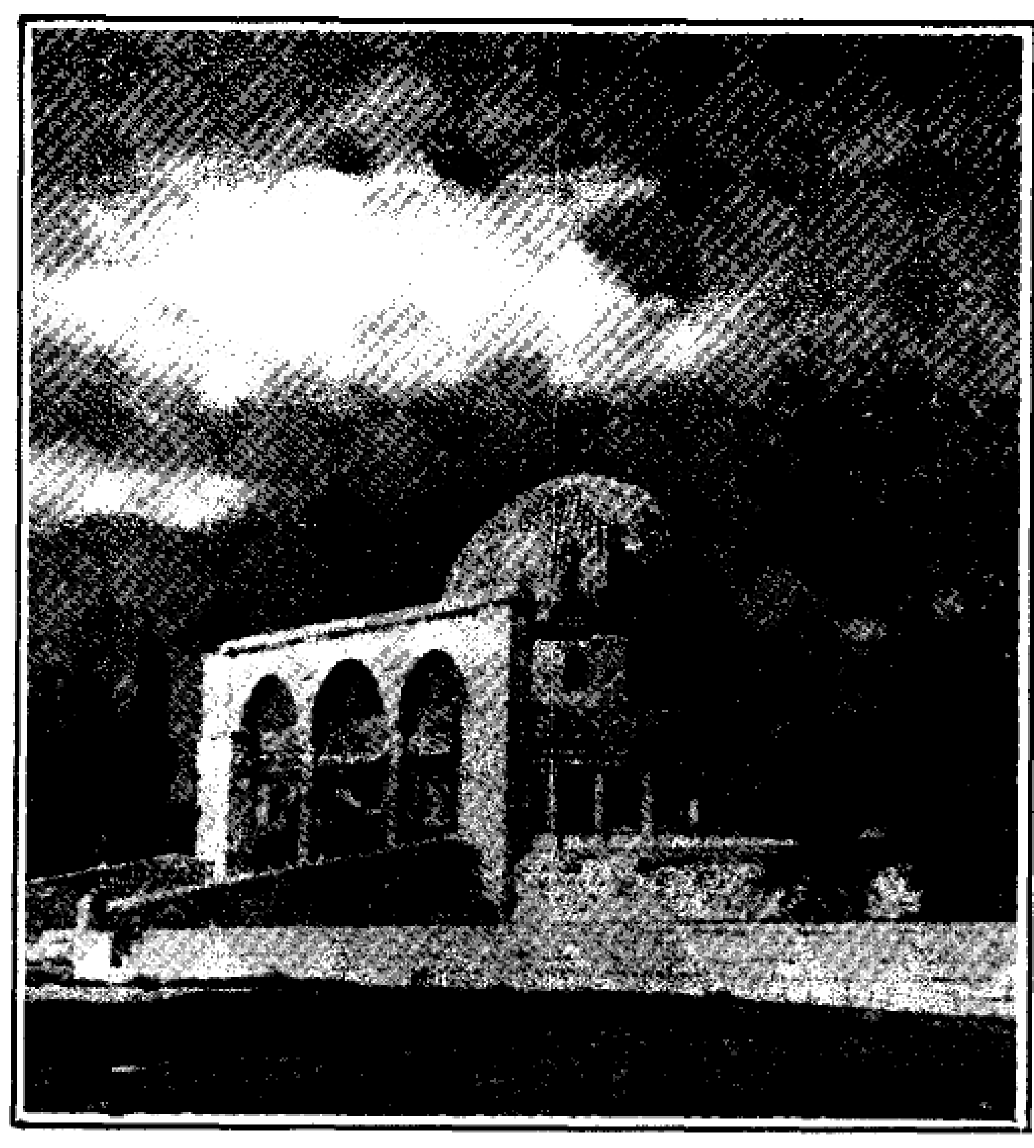
زعيم عربي



شاب يمني



دمشق : المسجد الأموي



القدس : قبة الصخرة

كانت مكتوبة في الوقائع سيعدلون عن آرائهم ، ولعل الحقيقة تقف في منتصف الطريق بينهما ، فبدون محمد لما أصبحت تطلعات أحد المجتمعات العربية هي الإسلام ، وبدون مجتمع عربي معين ربما بشر محمد بالإسلام لكنه لما أصبح نبياً له .

إن هذا المفهوم للإسلام الوليد يرجع إلى وجود بعض المدن التي أصبحت إطار النبوة المستقبلة ، وإلى النشاط التجاري لطبقة أرستقراطية كانت منبعاً للمكاسب ودافعاً للتوترات ، كما يرجع إلى التأثيرات الخارجية التي مهدت الأذهان لموضوعات دينية جدبدة ، وإلى إنعزال وافول منطقة الجنوب مما ساعد على ازدياد الترابط بين بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ولقد استطاع النبي التوفيق بين مصيره الشخصي وبين الأرض والرسالة ، لأنه كان ابن هذا المفهوم ، فالإسلام سوف يؤكد على الأقل عنصرين من هذه العناصر وباتساع باهر . . أما المكونات السابقة لبلاد العرب مثل انجذاب رجاله إلى بلاد البحر الأبيض القديمة وإلى ما بين النهرين حيث حدثت عدة أمور ، رغم صعوبة الطبيعة والمناخ ، فإن الوحدة التي نراها جغرافياً سنشعر بها أكثر ثقافياً وتلقائياً عبر لغة واحدة مشتركة .

الفصل الثاني

الملحمة المحمدية

في مدى عشرين عاما أصبح واحد من سكان مكة في مصاف الأنبياء ليبشر بدين جديد ، وليقيم تنظيماً زمنياً سيغير معالم العالم القديم بأكمله ، وقد ساعدته الظروف وعبقريته الفريدة على تحقيق ذلك.

١ ـ قائد قافلة يصبح نبياً .

النبوة والهجرة وحجة الوداع .

إن الطفل المختار للنبوة الجديدة قد ولد بمكة حوالي عام ٥٧٠ ، في عشيرة بني هاشم من قبيلة قريش (أنظر الرسم التوضيحي) وقد أمضى فترة الرضاعة والسنوات الخمس الأولى من حياته في البادية ، ومثله مثل المسيح فقد جعله التراث فقيراً .

وعندما ماتت أمه لم يرث سوى جارية وبضع نعاج وخمسة جمال ، وقد كفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب الذي سيصبح ابنه علي واحداً من أوائل اتباعه ، لقد أهل النور الإلهي على أبيه في نفس اللحظة التي حملت به أمه ، ومثلها مثل مريم لم تتعرض لبعض علامات الأمومة أما هو نفسه فقد ولد في لحظة من الضوء غير الطبيعي أشعلت النجوم وأحرقت النخيل ، ولم يكن قد تجاوز السابعة من عمره عندما تلقى أولى علامات النبوة ، فقد انتاب الشيطان القلق ، وأتى ملكان إلى البادية حيث كانت طفولة محمد وشقا صدره لينتزعا منه علامة الشيطان

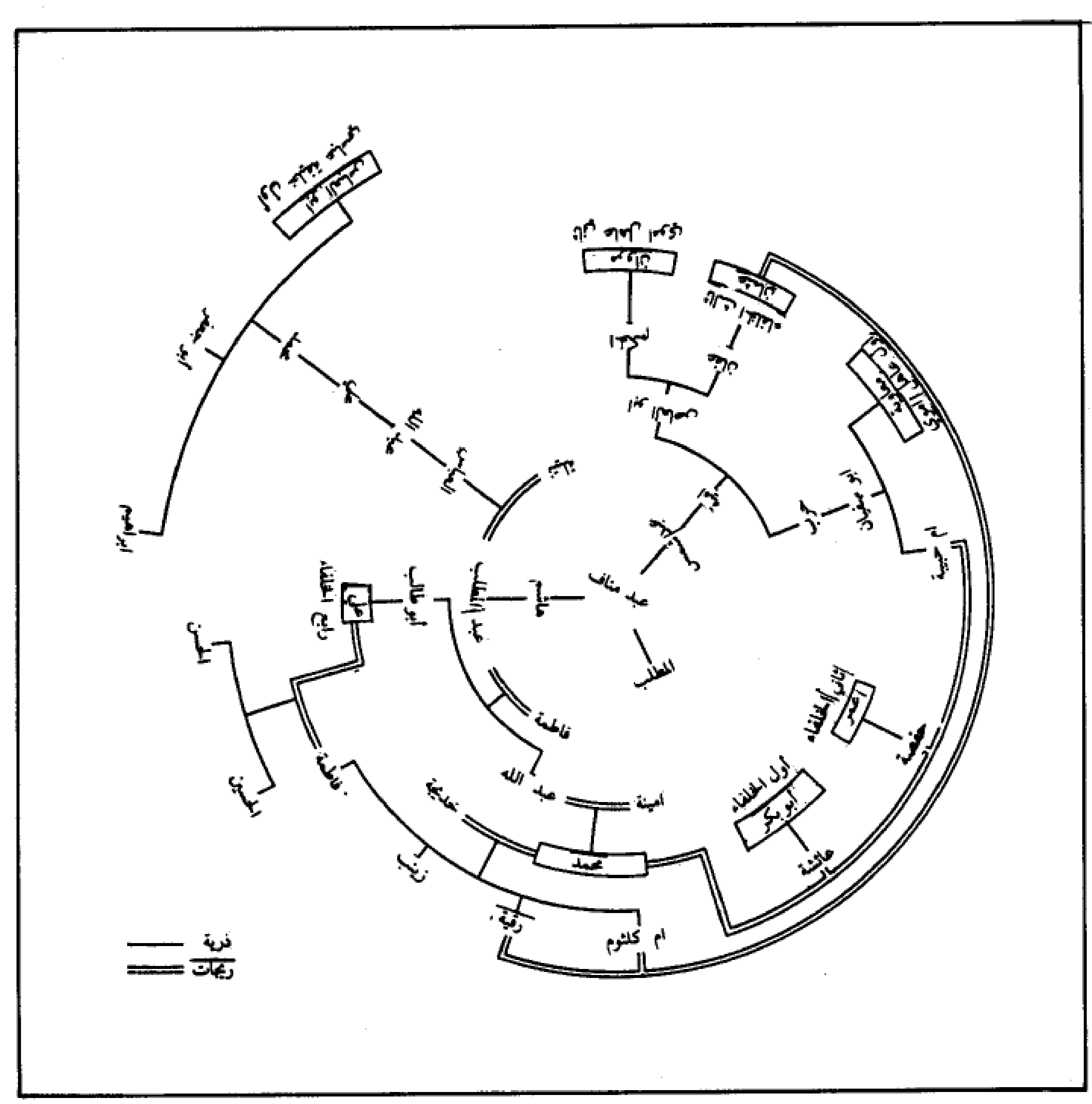
ويختما كتفيه بخاتم النبوة ، وقد حماه الله من المخاطر في شبابه الذي بدأه راعياً للغنم ، ثم ـ في التاسعة والعشرين ـ أصبح قائداً لقافلة إحدى الأرامل الثريات في مكة وأسمها خديجة ، وكانت تكبره على الأقل بعشر سنوات ، ثم تزوج منها وكانت زيجة سعيدة ستعيش منها ابنته المحبوبة فاطمة ، التي تزوجها ابن عمه علي فيما بعد .

وبدأت أولى علامات النبوة تظهر حينذاك : التأمل والإعتزال ، والطواف حول الكعبة ، والرؤ ى والهواتف ، ثم صمت دام أكثر من عامين ، وأثناء الليل تتجاذبه الهواجس والأفكار ، وأخيراً . . وعلى جبل حراء حوالي عام ٦١٢ ، وفي إحدى الليالي المباركة : ليلة السابع والعشرين من رمضان بهره النور الساطع للوحي الذي أمره ـ رغم احتجاجه ـ « إقرأ » باسم ربك . . . « وتكررت الرؤ يا . . . ، وكان محمد يخشى هذه المظاهر التي تنهكه ، وبدأ يتساءل ويتدثر عند إقترابه « يا أيها المدثر ، قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر . . . » .

وشيئاً فشيئاً بدأ يطمئن للأوامر التي يتلقاها ، وبدأ يصارح بها بعض المحيطين به ، وكانت خديجة أول من صارحها ، وكانت أكبر سند له ، ثم صارح من سيصبحون الخلفاء الأربعة عليا وعثمان ثم أبا بكر وعمر الذي ظل رافضاً للدعوة لمدة طويلة ، فلم يسلم إلا عام ٦١٦ ، ولكن نشاطه وسلطانه المعنوي سيكونان من أهم الدعامات الحاسمة بالنسبة للإسلام الفتى ، كما كانت مساندة أبي بكر حاسمة كذلك ، فقد أخذت الجماعة تعيش في البداية على جزء كبير من ثروته ، وكان إسلامه بصفته واحداً من كبار التجار ومثلاً يحتذى من أقيم المساعدات لدعوة محمد ، الذي ولد متواضعا على الرغم من الرقى الإجتماعي الذي يدين به لخديجة ، ، ولم تمس الدعوة في بدايتها ـ بخلاف المقربين لمحمد ـ سوى صغار الحرفيين والعمال والرقيق سواء كانوا مسيحيين أو يهودا ، أي أنها باختصار لم تمس سوى من كانوا يعيشون مستذلين أو مستغلين من قبل كبار إشراف مكة .

ولعل غضب أرستقراطية قريش هو الذي جعل الجماعة الإسلامية الأولى تتكون في البداية من المعدمين أو من الآبقين إذ أن دعوة محمد الدينية البحتة لم تدن أساسيات المدينة ، بل كان يسيطر عليها موضوع واحد هو العقاب : العقاب

الذي أدى إلى ضياع شعوب عربية من عبدة الأصنام ، وقد اختفت حين حلّ عليها غضب الله الواحد العزيز ، ولم يكن الأمر يتعلق بتغيير الكيان الإجتماعي ولا حتى بممارسة بعض الشعائر ، فقد كان محمد يصلي دائماً بمفرده أو مع اتباعه، وكان يشارك مواطنيه في تعظيم الكعبة والطواف بها كعادتهم ويكرم الحجر الأسود وعين زمزم ، وهكذا بدأ نطاق دعوته يتسع مشيراً إلى أنه يمكن عدم المساس بالعادات الدينية وإنما المهم هو الموافقة على إرجاع كل شيء إلى الله وحده .



ال النبي

وبما أن عداوة قريش لم تهدأ فقداضطرت الجماعة الصغيرة إلى الهجرة ، ففي عام ٦١٥ هاجرت أول جماعة من اتباع محمد إلى الحبشة ، بينما ظل محمد يبحث عن المساندة في شبه الجزيرة العربية وعندما رفضت دعوته في الطائف اتجه إلى

المدينة (يثرب) حيث كانت تتجاور جماعة من اليهود مع قبيلتين عربيتين من أصل يمنى ، وتم الإتفاق على أن يترك محمد وأتباعه مكة ، وهكذا بدأت الهجرة التي أعتبرت بعد سبعة عشر عاما تقريباً بداية للعصر الإسلامي .

وكانت هذه نقطة حاسمة بالفعل ، فمن داعية بسيط أصبح محمد زعيماً لمجتمع جديد إنحلت فيه الروابط القبلية القديمة ، وقد تم ذلك تدريجياً سواء بالإختلاط مع المهاجرين من مكة أو حلفائهم في المدينة ، وإن لم تنحل جميع الروابط مع عشائرهم الأصلية ، فلقد أضافوا إليها مبدأ عقيدة واحدة يمثلها زعيم واحد لا خلاف عليه ، وكان هذا الزعيم يتطور ، فقد حصل الآن على الثقة التي منحها له ماضيه المجيد خاصة بعد ليلة الإسراء والمعراج ، في أواخر أعوامه بمكة ، حيث انتقل في ذهول شديد من القدس إلى السماء السابعة (لوحة ٥) وعندما توفيت خديجة عام ٦٢٠ دخل محمد في سلسلة من تعدد الزوجات مدعما بذلك الروابط القائمة ومقيما غيرها ، وأصبحت حياته الزوجية من شئون الدولة بل ومن موضوعات القرآن ، وبدأت الجماعة تنتظم بإرشاده والسير على مثاله ، وبدأت العادات الجديدة تنشأ ، تلك العادات التي ستصبح فيما بعد مصدراً للقانون وللشعائر .

ومن خلال صراعاته بدأ الإسلام تحقيق انتصاراته الحاسمة . وقد أصابه تعصب اليهود بخيبة الأمل ، فقبل أن يتخلص منهم بالطرد أو بالسيف قام بتغيير قبلة الصلاة : واتخذ مكة بدلاً من القدس . وهذا الرمز يعني : أن الإسلام لا ينوي أن يتحول إلى مجرد ميراث يهودي ـ مسيحي ، ولا يجب أن ينسى أنه عليه أن يعود ذات يوم إلى المعبد الذي انطلق منه : وهذا التأكيد بدأ يثير قلق أهل مكة عندما بدأ يتحول الإسلام إلى الأفعال . إن الانتقام لردة بدوية متجددة في شكل حرب مقدسة ضد الأصنام والرغبة في زيادة موارد الجماعة في المدينة وتوحيد شقيها ـ سكانها الأصليين والمهاجرين ـ بقوة السلاح ، يفسر لنا سياسة الغزوات التي قادها محمد ضد قوافل قريش .

وأصبح للمجتمع الشاب مكاسبه وخسائره : ففي عامه الثاني عام ٦٢٤ كانت غزوة بدر ثم غزوة أحد . وأصبح المقر الجديد في المدينة التي اضطر سكان مكة إلى مغادرتها ثم تبعتها مساومات طويلة أدت إلى هدنة استغلها محمد لإخضاع

واحة خيبر اليهودية ، في الشمال ، وعمل المعاهدات مع القبائل وبعض الجماعات المسيحية كما أرسل تجاه البحر الميت جيشاً سيهزمه البيزنطيون . وفي العام ٨ / ٦٣٠ ، استطاعت فرق المدينة إسقاط مكة بلا معارك : فقد انتهز النبي فرصة سانحة ليدخل إلى الكعبة ويحطم أوثانها ، وحصل بذلك على تبعية البلد التي رأت في موافقتها سلامة قوافلها .

ومنذ ذلك الحين اتخذ التاريخ الكبير للإسلام مساره . وقد مر بالطبع بوحدة الجزيرة العربية وانضمت الطائف تحت قيادة محمد ، المقيم في المدينة ، ثم تلتها قبائل متعددة من نجد حتى مشارف اليمن . كما أعاد النبي محاولاته تجاه الشمال : وحتى إذا كان الجيش قد هزم من شدة الحرارة واضطر إلى العودة بأمر النبي عن طريق نواحي خليج العقبة حيث وصل إليها بلا معارك ، فقد أشار بذلك إلى طرق انتشاره المقبلة .

وفي عام ١٠ /٦٣٢ ذهب محمد إلى الحج ، وكانت قواه بدأت تضعف . لكنه بهذا العمل قد حدد الشعائر بالنسبة للمستقبل وطلب من أتباعه ، في خطب متعددة ، العمل برسالته . وقد جمعت هذه الخطب فيما بعد وعرفت باسم « خطبة الوداع » . وعندما عاد إلى المدينة ، طلب الصفح من إخوانه ، ثم انتظر الموت في خشوع وتلقاه بين ذراعي عائشة ، زوجته ذات الثمانية عشر ربيعاً . إلا أن التاريخ لم يذكر بالضبط تاريخ يوم وفاته .

الظروف الاجتماعية والثقافية للدعوة

وبدأ الجدل حول محمد منذ زمن بعيد ، مثله مثل كل الرجال العظام الفريدين ، سواء من ناحية الأشخاص أو من ناحية التاريخ . أن التراث الإسلامي يمجد بالطبع تأهيل النبي للنبوة ، وذلك في صورة مثيرة وحقيقية أكثر مما يتخيل المرء : فهو كما جعله الله يقولها في القرآن ، لم يكن إلا رجلاً ، أي موضع ضعف وشك وقلق ، وذلك لم يزد إلا من صفاته الحسنة .

إلا أنه يظل في نظر المؤرخ ، أن أقل هذه الفضائل نصيباً ، هو النجاح . ومهما كان ملهماً ، وأياً كانت عظمته ، فإن محمداً قد أتى في فترة كان المجتمع العربي التقليدي يتحول فيها ، وخاصة المدن ، حيث بدأت تظهر طبقة من

الحرفيين والعبيد الذين يستغلهم التجار المتحكمون . وكانت هذه الطبقة تشعر بالتناقض بين النظام الرسمي للقيم وحقيقة المسافات الاجتماعية المتزايدة نتيجة لاتساع الظاهرة المالية . ومع ذلك ، فإن هذه التوترات لا تفسر وحدها نجاح محمد الذي تعدى المدن وريفها ليصل إلى الصحراء شيئاً فشيئاً : لأن البدو هم الذين سوف يحققون أوائل الانتصارات الكبرى في الإسلام ، رغم ترددهم وقلة توغلهم في العقيدة الجديدة .

وهنا تتدخل الثوابت والتكوينات الاقتصادية للحياة في الصحراء ، لكن بشيء من التوسع فمن جهة ، لقد أقام نظام القوافل مبادرة التجار المدنيين لتحديد ضريبة الحماية ، وهذه الحاجة من الصفات البدوية الأزلية . إلا أن استخدام الغزوات ظل قائماً من جماعة إلى أخرى . وهنا سيعطي الإسلام حجماً جديداً للتوسع ، باتجاه البدوي دائماً نحو الأراضي الغنية : الواحات اليهودية في الداخل أولاً ، ثم الهلال الخصيب ، ثم الشرق ومن بعده البحر الأبيض المتوسط .

فمن بين النظامين التقليديين لجزيرة العرب القديمة ، النظام الحضري في الجنوب ، والبدوي في منتصفها وفي الشمال ، فلقد ساعد الانزواء اليمني على انتشار وتوسع البدوي أما ثقافياً ، فيمكن تفسير نجاح الإسلام بأنه كان إجابة على تساؤلات وقلق ديني كامن في النفوس ، بالإضافة إلى اتفاقه التام مع التراث القائم - حتى وإن عدله بعض الشيء . التراث « الوطني » أولاً : فعلى عكس اليهودية والمسيحية ، وهما ديانتان غريبتان ومعزولتان ، فإن الإسلام ، ابن الجزيرة العربية ، يتحدث لغتها . وهكذا فإن الوحدة لم تأته من الخارج وإنما من داخله أي أنها كانت تلقائية . ثم يأتي التراث « الأدبي » : لقد استعان القرآن بلغة شاعرية تتحدثها القبائل ولم يستخدم أي لهجة دارجة . ومن هنا فإن القرآن لم يبحث عن وسيلة فهم ممكنة وإنما ازاد اللغة نبلاً ، وذلك ما يدركه أي قارىء لنصه . فلم يستخدم المفردات الدارجة تقليدياً في الشعر ، وإنما أضفى على هذه المفردات نوعاً من النبل المثالي لأنه إلهي . إن إعجاز القرآن يكمن في وحدته قبل أن يكون النواة لمبادىء أدبية مقبلة . أي أنه كان قيمة متكاملة لكل الجماعة وقيمة صعبة الإدراك للآخرين .

تاريخ دنيوي أم تاريخ ملهم ؟

إن الإسلام قد أتى بتوازن للمتناقضات التي يعاني منها المجتمع العربي في القرن السابع أكثر من إحداثه ثورة ما . فقد أخذ إلهام جديد : ديني ومتعادل ، ووحدوي أو ببساطة اتخذ حياة أفضل إلا أنه مع ذلك لم يتنكر لبعض العادات القديمة لشبه جزيرة العرب ، وخاصة الغزوات : وبتحويلها إلى انتصارات ستسمح هي أيضاً بالتغلب على التوترات الاجتماعية ، بتقديمه للفقراء كما لغيرهم بلا استثناء إمكانية أن يصبحوا ملاكاً لاقطاعيات جديدة في البلدان التي ينتصر عليها ، شريطة أن يقدموا ولاءهم . وهنا أيضاً سيحارب العربي « ليحصل على الشرف وليشق طريقه ، ويكون ثروته ». وسيعطي الإسلام تعبيراً واضحاً لكل هذه الاتجاهات سواء كانت وراثية أم حديثة . وبالطبع فلن نفسر بنفس الأسلوب اقتحام الكلمات الغامضة مثل العقيدة ، والنبوة ، والرسالة وغيرها من المواقف التي تفلت خطاها اللاواعية من الأنظار . إلا أننا على الأقل سنفهم لماذا نجحت هذه المعاني الغامضة بعيداً عن النظرة الإلهية البحتة .

ولا شك أن هذه النظرة صائبة : فتاريخ الإسلام غير مكتوب في السماء بعيداً عن مجتمع الرجال . وكظاهرة إجمالية ، فإن الإسلام يتطلب أن يدرس في نطاق مضمونه الاقتصادي وحياته الجماعية أو اليومية ، من خلال ثقافته العامة ، وليس في أشكاله الدينية فحسب ـ وقد بدأ ذلك بالفعل . إلا أنه يظل ـ كظاهرة دينية ـ هو الذي يعطي الطابع المميز للحضارة المعروفة باسمه . إذ أن تاريخه مكون من أحداث لا دافع لها أو لا اهتمام آخر لها سوى الاهتمام الديني أو الفلسفي ـ الديني . ومهما رفض المرء وجهة النظر هذه ، فلا بد له من الاعتراف بأن ظواهر التاريخ هنا ـ وحتى العصر الحديث ـ تتميز بإمكانية مذهلة ودائمة لأن تتخذ شكلاً أو تعبيراً أو تبريراً مستوحى فقط من الحدث الديني .

ومن أجل هذه الأسباب ، فإن معرفة الإسلام سباقة على أي دراسة لتاريخه .

٢ ـ زعيم ديني

محمد ، خاتم الأنبياء : استمرار ووقف النبوة

الإسلام ، قبل أي شيء هو تاريخ النبوة . وقد بدأ هذا التاريخ من

قبله ، إلا أنه اتخذ شكله الإسمي والأوضح والأكمل والأتم من خلال النبوة الأخيرة . فمحمد ، آخر الأنبياء هو بالفعل « خاتم الأنبياء » الذي لم يأت نبي من بعده . ومن قبله سيطر كل من إبراهيم وموسى وعيسى على مجرى النبوة . والمسيح بصفة خاصة ، مبجل هنا : فهو حامل روح النور والقدسية أشبه ما يكون بآدم جديد ولد من عذراء لم تعرف إلا الرب ، وقد أفلت من العذاب الذي كان يعده له اليهود . وذلك بأن أحل الله رجلاً آخر مكانه على الصليب ، ثم رفعه إليه . وهكذا يفتح القرآن الطريق لمحاولات المفسرين الذين طوروا هذه المعطية في معنى المسيحية : إذ أن المسيح سيعود إلى الأرض في آخر الأزمان ليقتل المسيح الدجال ويفتتح عهد العدالة .

ومهما كبر الأنبياء فإنهم يظلون رجالاً ، مجرد رسل من الله يتحدد دورهم ، مثل محمد في أن يكون كل منهم نذيراً للحقائق الأساسية والعواقب التي ينتظر من يتجاهلها . ولأنهم ليسوا إلا رجالاً بين الرجال ، فإنهم يتعرضون لعدم فهم ولعداوات أمثالهم الذين يتعجلون العقاب بموقفهم هذا بينما يكون قد تأخر لحظة أثناء حديث النبي . فالنبوات إذن ، في كل مرة ، تمثل ساعات الفرصة الأخيرة ، وتاريخ الكلمة المقدسة لا ينفصم عن تاريخ العقاب . وذلك مثل نوح والطوفان ، ولوط ووابل الحجارة ، وهود ، نبي جنوب الجزيرة ، والعاصفة : كلها علامات سوف يذكرها محمد في أوائل رسالته . وإذا كانت النبوة قد تمت على هذا الإنذار الأخير ، فإن الإسلام منطقياً ، سيرجع دائماً ـ في حالات الشك ـ الحقائق إلى أصولها التي أكدها النبي بشكل قاطع وسواء كانت ممارسة أو مزعومة ، فإن العودة إلى المنابع الأصلية ستكون الوسيلة الأساسية في صحة الرأي الإسلامية . وعلى العكس من ذلك ، فإن الفكر المنشق المسمى هنا الشيعة ، سيرفض الاعتراف بالصمت النهائي لله نفسه ، أو على الأقل سيرفض التقيد بظاهر النص المقدس ، وسيجعل من التعريف المجازي أو الرمزي للباطن ، الامتداد الطبيعي للنبوءة القرآنية . وسنرى عاقبة ذلك فيما بعد بالنسبة للتاريخ السياسي للإسلام .

إله أعيد إلى طهارته

تتلخص الديانة الجديدة ، في نظر الجاهلية (الجهل والوثنية والبربرية)

للعرب القدماء أو الشعوب الغربية ، في أنها الخضوع أو الإسلام إلى الله ، سيد العالم وسيد الحياة . إله يحاسب أولاً . ففي يوم الحساب ، ومنذ الدفن في المقبرة ، فإن أرواح الأشرار ستعرف ثمن خطاياها ، بلا أي شفاعة . بمجرد مشاهدتها للأخطاء المدونة . إلا أن الله غفور رحيم ، يرحم الإنسان عندما يندم ويتوب : وذلك ما تؤكده البسملة التي يجب على المؤمن أن ينطقها في كل لحظات حياته : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ويضيف القرآن والحديث إلى هذين الإسمين الأساسيين سبعة وتسعين إسماً ، يصل عددها إلى المائة بإضافة إسم الله الذي تشير معاني كل أسمائه إلى قوته وخلوده وعظمته وخاصة إلى وحدويته ، التي تعد الركيزة الأساسية للعقيدة الإسلامية وحجر العثرة مع المسيحية = لأن الله ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ ، وبذلك فإن المسيح يشهد ضد شعبه ويدينه لتأليهه .

ومع ذلك فإن المسيحيين واليهود يعدون من « أهل الكتاب » وقد كان محمد يأمل في وقت ما انضمامهم إلى رسالته التي كان يقدمها كامتداد لرسالتيهم . إلا أن التعصب العقائدي للمسيحيين ، والمقاومة السياسية لليهود ، والمخاطر التي كانت تمثلها انتقاداتهم لبعض المترددين من المسلمين إلى تغيير وجهة النظر ـ كما سبق أن رأينا ـ وذلك باستبدال مكة بالقدس كقبلة للصلاة . ومنذ ذلك الحين أصبح المسيحيون واليهود مزيفين للكتاب المقدس ، الذين زوروا في نصوصه حتى يموهوا ـ في لحظة ضياعهم ـ معناه الواضح لرسالة التوحيد وعالمية الألوهية . وهكذا أضاع المسيحيون فرصتهم وظلوا في منتصف طريق إيمانهم . وسوف يقبلهم المسلمون بينهم وسيحمونهم . لكنهم سيظلون كمؤمنين من الدرجة الثانية . وهذا الموقف سيبرره وضعهم الاجتماعي كما سنرى فيما بعد .

الإسلام إذن ، بعد نواقص اليهودية والمسيحية ، تحقيق ناجح لديانة الإله الواحد بلا أية وساطة . بل سيكون ذلك هو التعريف الثابت والأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنبذ الشرك أو ربط أية وقائع أخرى بكيان الله . وذلك ما سيجعل من أسماء الله مشكلة يخشاها ضمير المؤمنين . فالله ، بالمعنى الدقيق للأشياء ، لا يمكن تحديده ، ولا يمكن تعريفه بهذا أو بذاك وإنما هو كل شيء . فبين مثل هذا الرب ، الذي يمثل كل شيء وبين إنسان يعرف بأنه عبده ، لا يمكن أن تكون

بينهما وساطة ما وسيصبح إسم المعبد ، وفقا للتعبير الناجح لجود فروا ـ ديبونبين « البيت الخالي لله الموجود في كل مكان » ، (لوحة ١) . وهكذا ، فإن الإيمان يعتبر الدعامة الأصلية للمسلم الخاضع تحت ثقل الغيب الذي يجب أن يسلم له نفسه دون أن يعرف عنه شيئاً .

ومثل هذا الجهد الضخم لا بد له من مساندة : لذلك سنرى كوكبة من الأولياء ، في الإسلام كما في غيره من الديانات ، عليها أن تملأ هذا الفراغ . وكلها تأويلات محلية ، وتقوى شعبية أو تحريف داخل العقيدة . وهكذا ، فالإيمان لا يجد نفسه محدداً بمفرده ، فالذهن يجهد نفسه لإرضاء الضرورات المرتبطة بالتصعيد وبالقوى المطلقة الإلهية . إن العقيدة الإسلامية ستجاهد بلا هوادة من أجل الحفاظ على احترام هذه المعطيات من خلال مناقشات التحرر أو حتمية الأعمال الإنسانية .

القرآن ولغته

إن مجمل النبوة التي أنزلها الله على نبيه بواسطة الملاك جبرائيل ، موجودة في القرآن ، قراءة وتسميعاً . وهو نموذج مثالي سماوي . وينقسم النص المقدس إلى مائة وأربعة عشر سورة تنقسم بدورها إلى آيات ـ (وتعني : علامات أو معجزات) . وطول الآيات والسور متفاوت . وفي إجماله ، فإن القرآن يتبع ترتيباً عكسياً لتوقيت النبوة : فالسور الأكبر ، التي كان محمد يبشر بها ويشرعها بعد أن أصبح قائداً للمسلمين ، موضوعة في أول الكتاب . وذلك باستثناء واحد هو نص سورة مكونة من سبع آيات اسمها « الفاتحة » وهي تشبه « أبانا الذي في السماء » عندنا ، وينص الحديث على كثرة تلاوتها . أما السور القصيرة فتوجد بآخر الكتاب . وتكمن عظمة القرآن فيما يحتوي عليه من إيقاع ونغم مليء بالأصداء ، ومن الروعة بحيث اضطر الله إلى التدخل ليحمي نبيه الذي اتهمه البعض بأنه عراف أو شاعر تملك منه الشيطان **﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت و أخرت ﴾** .

ولعل نجاح النبوة يكمن في صفحات بمثل هذه المثالية . لكنه لا يلخص وحده الحدث القرآني ، فبخلاف الظاهرة الدينية ، إن كل الحياة الثقافية للقرون

الوسطى ـ ذات التعبير العربي ـ مربوطة بظهور هذا النص الأساسي . إن القرآن لا يخص الدين وحده وإنما يتعلق ـ في الواقع ـ بلغة هي العربية ، وذلك بثلاثة أشكال .

وبصفته أداة للنبوة ، فقد أصبحت اللغة العربية ظاهرة إلهية ، لا يمكن مسها . وذلك ما يفسر رفض الإسلام الاعتراف بترجمة القرآن إلى لغات « بربرية » ، كما يفسر تمسكه بنص الكتابة ، والمفردات والتكوينات الصوفية أو النحوية العربية . لذلك استطاعت اللغة العربية الكلاسيكية عبور القرون على الأقل حتى قرننا هذا ، دون أية تغييرات تذكر . ولعل ذلك يرجع إلى أنها لغة محافظة أكثر من اللغات السامية الأخرى بالإضافة إلى مثل هذه الحماية التي عرفتها .

لكن هذه اللغة ليست التعبير عن الإيمان فحسب ، إنها أيضاً روح شعب بأسره : فالقرآن حدث وطني بقدر كونه حدثاً دينياً . ذلك لأنه حرر العرب من العبودية التي كانت تربط حتى هذه اللحظة النبوة بلغة أجنبية ، وخاصة اليهودية . فباستخدام لغتهم الأصلية فعل الله أكثر من مصالحتهم مع الحقيقة : لقد جعلهم يجدون أنفسهم .

ولعل ذلك قد حدث بشكل أكثر مما توقعه محمد أو بأسلوب آخر . فإذا كان العرب ـ تاريخياً ـ قد أدركوا بالفعل هذه اللغة لو استغلوها ، بعد أن أقرتها النبؤة كواحدة من أهم دعائمها الأصلية ، فقد تم هذا بشيء من التحريف للفكر القرآني . لا شك أن النبؤة قد اعتمدت على أصل ما واستعانت بلغته . وهكذا سمحت له بالشعور بقيمته الذاتية ، لكن ذلك لم يكن كنوع من التحيز من الله ولا إلى الأبد . إن النبؤة لم تختر العرب ولا لغتهم لأنهم كذلك وإنما لأن الله رأى أنها أنسب اللغات في التعبير عن رسالة وحدويته . مما نتج عنه أنه أوضح اللغات الممكنة وبذلك أنزلت به نبؤة عالمية كالرسالة نفسها التي يحملها . مما نتج عنه أيضاً أن الشعب الأصلي كان عليه ـ من خلال اللغة ـ أن يمتد إلى أنحاء العالم ، ويندمج في الإنسانية المؤمنة بأسرها وأن يحصل بذلك على شرف أنه كان النواة الأولى فإذا كانت اللغة العربية في بادىء الأمر ، لهجة محلية قاصرة على جماعة معينة ، فإنها رغم ذلك وبفضل مميزاتها المتكاملة ومصيرها العالمي ، اختارها القرآن لتكون

الشكل الكامل للغات الإنسانية . « تنوير مهيب وعاقل ، وخال من أية التواءات . . ، وكنز يفوق حدود الشعوب » : تلك هي الحضارة العالمية للإسلام على الأقل في فترة القرون الوسطى .

وهناك نتيجة للحدث القرآني ، لكنها تتعلق بنقطة معينة هذه المرة وهي الحروف العربية . إن اللغة التي وقع عليها الاختيار لتكون التعبير عن عقيدة وشعب وحضارة لم تكن ، كما رأينا لهجة من لهجات الحجاز أو غيره ، وإنما كونه « شاعرية ، أو بتعبير آخر لغة حظوة » . وهكذا أوجد القرآن ، أو أكد بكل ثقله كنموذج ، على الفارق بين لغة المحادثة ولغة الكتابة ، بين اللهجات واللغة العلمية ، بين الأدب الشعبي والآداب المسجلة . وهو انفصال حاسم سيزداد عبر القرون حتى أزمته الحديثة .

إن الحدث القرآني قد أدى إذن إلى تقسيم الوجود في المجتمع إلى عدة مستويات من الاتصال . كما أنه يتدخل في المستوى الخاص به كلغة « حظوة ، وكظاهرة أدبية بحتة » . إن أسلوب القرآن هو نوع من النثر ، لكنه نثر له إيقاع ونغم وكثيراً ما يكون مقفى ، وبذلك فهو يستعين بوسائل هي من المكونات الأساسية للشعر . ومن كثرة حفظه وتسميعه غيباً فقد علق بالأذهان بحيث تداخل في لغة النثر العربي طوال تاريخه . وفي عالم يرى في الشعر المجال المفضل للتعبير الإنساني ، فلن يبقى للنثر إلا الاختيار بين أمرين : إما أن يظل نثراً ، أي أداة تعبير فنية أو تعليق على موضوع أدبي ، أو إذا زاد طموحه واتسع مجاله ثقافياً فعليه أن يلجأ إلى بعض مكونات الشعر وهكذا فإن النثر ليس له مجاله الذاتي . وبعد محاولات متعددة من الإبداع لخلق نثر أدبي ومستقل حقيقة ـ وكلها محاولات ظلت بلا استمرار ـ فلا بد لنا من أن ننتظر حتى العصر الحديث حتى نرى محاولات جديدة لميلاد لا يتم بلا آدم .

أركان الدين الخمس

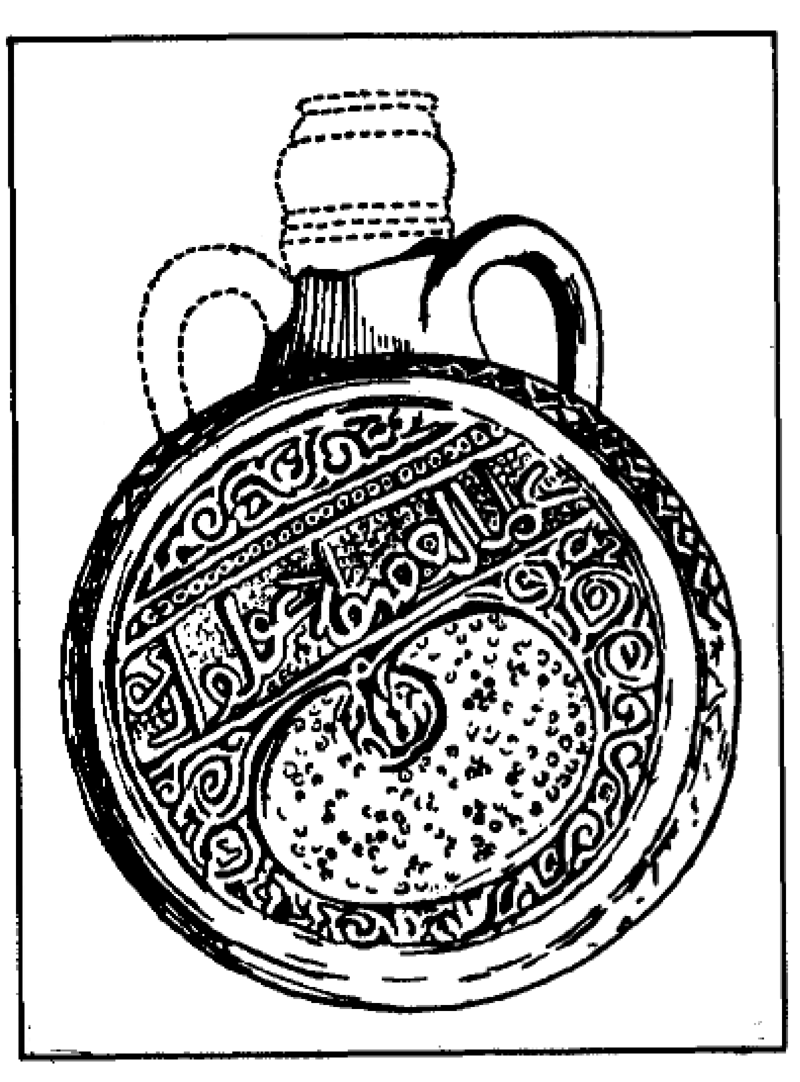
الإسلام كما يستخلص من القرآن أو كما يستخلصه الحديث ، قائم على خمسة أركان . وتعتبر الشهادة أهمها إذ بتلاوتها يدخل المرء الإسلام وهي : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » كما أن تلاوتها في أصعب فترات الحياة تعبر عن الاستشهاد .

أما الصلاة ، فيسبقها الوضوء الشعائري وتقام خمس مرات في أوقات مختلفة من اليوم : عند الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، (لوحة ٦ ، أ) . والصلاة الجماعية مستحبة خاصة يوم الجمعة : فيجتمعون في المسجد ، في مواجهة المحراب ، وهو عبارة عن كوة في الحائط تشير إلى اتجاه القبلة في مكة . والإمام ، الذي يتصدر جماعة المصلين ليس إلا مرشدهم في الصلاة الجماعية ـ أي أنه لا يمثل أي كاهن في رتبة ما وتعتبر خطبة الجمعة التي تقال من فوق المنبر ، الموضوع الرئيسي لاجتماع ذلك اليوم .

والصوم ، كما يحدده القرآن ، هو استمرار للقانون اليهودي والمسيحي ، إلا أنه لكي يميزه عن الديانتين السابقتين، فقد حدد له شهر رمضان ، وهو شهر النبوّة كما رأينا . وربما كان من الشهور المقدسة عند قدماء العرب . وهناك تحليل تقويمي يقول : لقد ترك النبي عام ١٠ /٦٣٢ استخدام الشهر الكبيس الذي كان يقع كل عامين أو ثلاثة ، ليبتعد عن عادات الوثنية . وكان هذا الشهر يملأ النقص بين الحد الشمسي والشهور الإثني عشر ذات التسع وعشرون يوماً أو ثلاثون . مما يفسر تحرك شهر رمضان « نار السماء » بانتظام خلال فترات السنة المختلفة . والجمود الموسمي للصيام مضافاً إلى عقبات أخرى ، يخل بإيقاع الحياة اليومية كما يخل بالنظام الاقتصادي للدول حالياً ، لأنه يقلل من حركة النشاط اليومي . ورغم ذلك فالعادة مستمرة لأن الإسلام يرى فيها واحدة من أهم التعبيرات الروحية الجماعية : وهو ترابط ينتهي في آخر الصوم باحتفال من أكبر الاحتفالات الإسلامية وهو « العيد الصغير » .

وهو أكثر أهمية من « العيد الكبير » الذي ينهي التجمع الآخر للمسلمين ، لكنه تجمع جسدي ومعروف بالحج إلى الأماكن المقدسة في مكة . وقد أوصى به النبي كل مسلم إذا سمحت له ظروفه المالية والصحية . إن الحج يجمع ، من السابع إلى الثالث عشر من شهر ذي الحجة ، آخر شهر في السنة الإسلامية ، الحجاج القادمين من كافة أنحاء العالم (شكل ٣) ، في أماكن وبتقاليد موروثة من العرب الوثنيين ، لكنها تحولت لعبادة الإله الواحد . وتتوسط الكعبة صلواتهم . وهي مستطيلة الشكل ، مغطاة بنسيج من الديباج الذي يجددونه كل عام . والحجر الأسود مركب في إحدى زواياها . وبجوار السور يوجد نبع زمزم وحجر

إبراهيم الذي وقف عليه ليصلح قمة المعبد . إن إجمال أرض مكة إسمها الحرام ، وقبل أن يصل إليها الحجاج ، وفي محطات معينة على الطريق ، عليهم ارتداء ملابس الإحرام : وهما قطعتان من النسيج ليست بهما أية خياطة . وهو رداء موحد الشكل ، كمساهمة جماعية في الشعائر ، ورمز للمحرمات الجنسية وغيرها : وهنا يتشكل حقيقة الشعور بالجماعة عبر البلاد واللغات المختلفة (لوحة ٦ ، ب) .



شكل ٣- زمزمية حاج

والصدقة أو الزكاة ، ويمكن تعريفها كنوع من الإعادة إلى وضع سابق ، في معنى روحاني للقيم المتوارثة من الكرم والضيافة التي كانت تمارس عند العرب الوثنيين . ففي الإسلام كما في ديانات أخرى للمساكين حق عند الأثرياء ، الذين يجب عليهم أن « يتطهروا » بدفع جزء من ثروتهم للمحتاجين وللعبيد والأيتام وللمسافرين . وهذا الواجب يتضمن ترك مبلغ معين ، بشكل إرادي وغير معلن عنه للمحتاج ، كما يتضمن دفع نسبة معينة إلى بيت المال كمساهمة من المؤمن في مصاريف الجماعة . إن الزكاة تمثل مجهود الجماعة على ذاتها في مواجهة الكوارث الخارجية مثل الأسر في الحرب ، والمصادرة ، أو الجزية التي يدفعها اليهود والمسيحيون .

هذه هي أركان الإسلام أو شعائره . وأحياناً يضيف المؤلفون « الجهاد » في سبيل الله . وهو مجهود ذاتي من التقشف أو المساهمة في عمل جماعي أو الإشتراك في المعارك المسلحة من أجل نشر الإسلام أو الدفاع عنه .

دين الحياة اليومية .

إن تعاليم القرآن والمثل المأخوذة عن النبي (السنة) واستمرارها في التراث

جعلا من الإسلام عقيدة حيوية ، متداخلة في حياة الفرد وحياة الأمة ، رابطين بين الحياة الدينية والحياة اليومية والإجتماعية والسياسية . وهكذا فقد عرف الإسلام ، على الأقل مثل الديانات الأخرى كيف يربط مسألة الإيمان بالأعمال . وسيكون له أيضاً أتباعه ومصلحوه ومنافقوه لكن ، كقاعدة عامة ، سينص على أن الإيمان والنية يمكنها أن تحيي الأعمال التي لا بد منها ، أي تداخل ما هو مادي مع ما هو روحي ، وسنجدهما منقولين في العالم الآخر . فمباهج الحياة اليومية والحسية سوف تكون من نصيب المختارين ، ومنها هذه السعادة المعروفة بإسم السلام ، والبركة وربما تأمل وجه الله .

إن الآداب الإسلامية تنظم على نفس النسق سواء للفرد أو للجماعة نوعا من الممارسة التي يوجد بها اهتمام واضح بالتقشف الروحي وبذل الجهد من أجل سعادة الجميع ، وذلك في وحدة الإيمان الذي يجب أن يلهم كل مواقف الإنسان . ومما يتعلق بجانب التقشف الروحي ما نراه من المحرمات ، وخاصة في المأكولات مثل لحم الخنزير والحيوانات غير المذبوحة ، والخمور التي يدين القرآن الإفراط فيها إن لم يدنها تماما . أما فيما يتعلق بحب الخير للجميع فيظهر في القيم الأخلاقية المتفائلة والجماعية . فالفكرة العامة هي أن الله يريد السعادة المادية لشعبه لكن على كل فرد ألا يصل إلى السعادة على حساب غيره وعدم التمادي في الأنانية ، وهي بالتالي مبادىء عادلة وعدالة إجتماعية .

وهناك مثلان يمكن ذكرهما لنرى مدى أهمية ذلك بالنسبة للزمن الذي نودي فيه بتحقيق هذا القول . فقد اهتم القرآن بموقف المرأة : لقد أباح بالفعل مبدأ الأربع زوجات لكنه أوصى بواحدة لمن يخافون « ألا يعدلوا » . وفرض التحجب الصارم الذي سيتولد عنه لبس الحجاب كما أنه يحمي الزوجات ضد الطلاق وعواقبه ، وعدل القانون المتبع لصالح المرأة فيما يتعلق بالميراث ، بل وما هو أكثر من ذلك فقد جعلها تمارس جميع حقوقها فيما يتعلق بفرائض الإيمان ، حتى الحج يمكنها الذهاب إليه بمصاحبة أحد ذويها ، كما خص المرأة بالكرامة وبحقها في السعادة وإن كان بشيء ضئيل من التنازل .

أما في المجال الإقتصادي ، فقد نزل القرآن في مدينة تجارية ، لذلك فهو لا يدين التجارة أو التأجير أو الملكية وتشغيل الأجراء ، وانما يدين سوء استخدام النشاط

الإقتصادي تحت شكل الربا . ويرجع أصلها إلى الدين غير المدفوع في موعده ، ثم في الإقتراض بالفائدة أو الكسب الفاحش .

وفي الحالتين المذكورتين ، فإن التراث الإسلامي قد عرف نتائج بعيدة عن المبادىء القرآنية : فإذا كان التراث قد غالى في تشدده في حرية المرأة وحقوقها ، ففي الناحية الإقتصادية على العكس ، نرى التراث شديد الليونة بشكل مذهل بل وعلى استعداد لتغيير المفاهيم الأصلية لصالح الضرورات الإقتصادية المفهومة تماما . لكن ، أيا كان المعنى الذي اتخذه التطور فإن حقيقة الإسلام ـ فيما يتعلق بالعدالة الإجتماعية والتهاون الإقتصادي ـ فعلينا أن نبحث عنها في مصادره : وذلك الدرس لن تنساه الحركة الإصلاحية والعصرية عندما سيحين وقتها .

٣ ـ زعيم شعب .

الأمة الجديدة .

إن الحقوق والواجبات ، والعقيدة والأنظمة القانونية الإجتماعية تكون أمة المؤمنين (لوحة ٦ ، أ . د) ، وأماكن تجمعهم الروحية والدنيوية . وهكذا فهناك زمن مسلم يحدد إيقاعه النتيجة الهجرية والإحتفالات السنوية والصلوات اليومية . وهناك أرض مسلمة ، دار الإسلام ، وهي تعني نظريا التوسع شيئاً فشيئاً عن طريق الإنتصار بالسلاح على أرض الجار القريب ، أي أن هناك « دار الحرب » وزي إسلامي يرمز إليه بغطاء الرأس والثياب الفضفاضة دون أن ننسى حجاب المرأة . وهناك عادات إسلامية مثل تحريم بعض الأطعمة ، وعادات الزواج ، وعادات التأبين وتلك المقابر التي تريدها العقيدة أن تكون بسيطة ، كالإيمان، وكل ذلك يربطه الإيمان نفسه ، وهو السبب الأخير لعدة تقاليد . وإنما يعتبر الأساس الوحيد لكل الأمة بعيداً عن التجمعات القبلية العصبيات المختلفة الأعراق إجتماعياً ولغوياً ، ويقول القرآن : ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ﴾ ، ويذكرنا التراث أن أول أذان عام للصلاة قام به بلال ، أحد العبيد السود من الحبشة .

إسلام وعروبة .

وهنا أيضاً يتعلق الموضوع بالمبادىء . ففيما بعد سيربط الإسلام إنتصاره بانتصار العرب حاملي الرسالة الإلهية المختارين ، المنتصرين . وكل تاريخ

الإتصالات بالشعوب المهزومة يتلخص في قبول ومعارضة السيادة المفروضة بالحق أو بأمر الواقع . وإجمالا . فإن هذه الشعوب ستقبل الأولى وترفض الثانية . لكن رغم قبولهم الوحدة الدينية واللغوية ، بل وسيعطون للآداب العربية بعضاً من قادتهم ، إلا أنهم سيرفضون دائماً سيادة العرب كجماعات لها أعراق أخرى ـ وذلك تحت ستار هذه التبعية .

وكثيرا ما سيعتمدون على تراث أقليمي متين أو وطني ، يساندهم ولاؤ هم للنبؤة العالمية والمتعددة الأجناس في الإسلام ، وسيعارضون التراث الدنيوي للعرب ، تحت إسم الشعوبية ، بنوع من الوطنية أو القومية السابقة لزمنها .

وأمامهم يقف سكان شبه الجزيرة العربية الذين يعلنون عن تراثهم الصافي وعن العروبة . إلا أن هذا الموقف سيخلق بدوره مشاكل هامة بالنسبة للعرب من ناحية الإسلام الصرف . لأن القيم التي يمجدونها في أشعار تظل أساساً دنيوية ، حتى بعد ظهور الإسلام ، هي قيم وثنية لبلاد العرب التقليدية . وقد أدان الإسلام بعضها ، بنسب متفاوتة وخاصة كل ما يتعلق بشرف العشيرة . وأعاد تشكيل غيرها ، وبجل عدداً آخر مثل كرم الأخلاق ، لكن رغم الإرتياب الذي وضعهم فيه القرآن ، ومن بعده التراث العقائدي ، فيما يتعلق بتراثهم الوثني ، فلم يستطع العرب عدم إظهار تحضرهم . فأخذ المؤلفون والشعراء يسجلون تراثهم القديم الذي يتغنى بالقيم الأخلاقية وبطولات السلاح . وهكذا أصبح تراث الجاهلية هو تراث أجدادهم الذين أورثوهم قيم أصلهم لكنها ظلت كقيم جامدة حتى أعطاها الإسلام شكلها النهائي .

فإذا كان الإسلام يعني لبعض الأجانب أنه يمكن ربطه بالعروبة ، فإن العرب ـ على العكس من ذلك ـ يميلون إلى اعتبار الدين كأنه أعلى تعبير عن نوعيتهم : إلا أن مثل هذا الإعتبار يختلف مع مثاليات الإسلام العالمي والجماعي ، لكنه ـ من الناحية التاريخية ـ ظل إحدى دعائم الفكر العربي ، كما ظل بالنسبة للإمبراطورية الوقتية للإسلام منبعاً لعدة مصاعب .

مصائر الأمة بعد محمد .

لا القرآن ولا محمد كانا قد حلا مشكلة الجماعة من ناحية المؤسسات .

والتدابير التي كانت تتخذ لتنظيم دولة المدينة ، كانت تنبع عن النبي يوما بعد يوم وتخص الأمة التي تحت قيادته . ولم تكن التنظيمات قد خصت مختلف مجالات الدولة ولا وفودها ، وعندما فرضت الحاجة نفسها ، أناب النبي أحد الصحابة ليحل محله في إحدى وظائفه وخاصة في القاء الخطبة أو من يؤم الصلاة . وكانت هذه أعمالا تلقائية وليدة الظروف . وبعد وفاة الرسول أصبح كل هؤلاء منبعا للتشريع بتطبيقهم المقارن للأعمال المحمدية ووفقا للظروف الجديدة . إلا أن نجاح مثل هذا التنظيم يرجع إلى العلماء المسلمين . على كل حال ، فإن معظم المواقف التي عرفتها الدولة الإسلامية ، عندما انتقلت من أحجام مدينة محددة إلى اتساع الإمبراطورية ، كانت معظمها مواقف غير متوقعة .



شكل ٤ ـ تمجيد علي وسيفه الاسطوري

ومن كل هذه المشاكل كانت مشكلة الخلافة هي أصعبها: ولكي يتم حسم هذا الموقف عرفت أمة المؤمنين الإنشقاقات التي نعرفها عنها حتى يومنا هذا .

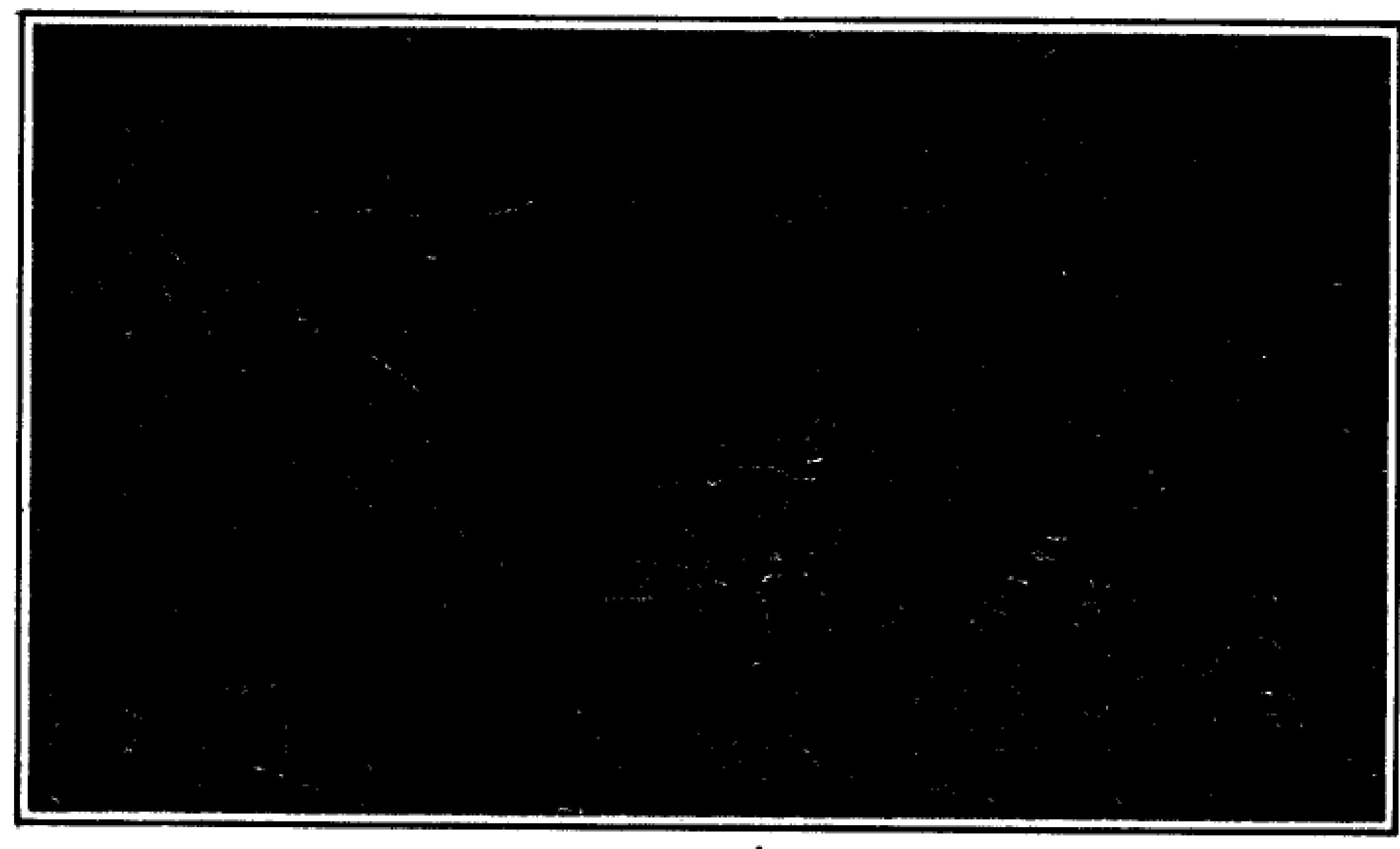
فلم يرتب محمد من يخلفه ، والتاريخ يظل صامتا حول أسباب هذا النقص . وربما أخذ النبي على غرة ولو أن خطبة الوداع التي ألقاها أثناء حجه الأخير تقول عكس ذلك . هل كان يعتقد أنه قام بالعمل الأساسي بقول كلام الله وأن بقية الأمور كانت ستأخذ مجراها ما إن القيت البذرة ؟ ترى هل أساء تقدير إمكانية ترابط أمته ؟ أم ، على العكس من ذلك ، إن إدراكه للمتناقضات التي نشأت أو ستنشأ من بعده جعلته ييأس مسبقا من حلها وكأنه أجهد مقدما ؟ على أي حال ، إن وفاته تركت الأمة لا حول لها ولا قوة ، وبلا أي نظرية حيال مشكلتين رهيبتين .

فكان من المهم معرفة ـ أولا ـ إذا ما كانت أسس الإسلام قد وضعت نهائياً أم على العكس ـ إن روح محمد كانت ستعيش من بعده ، إن العقيدة الإسلامية

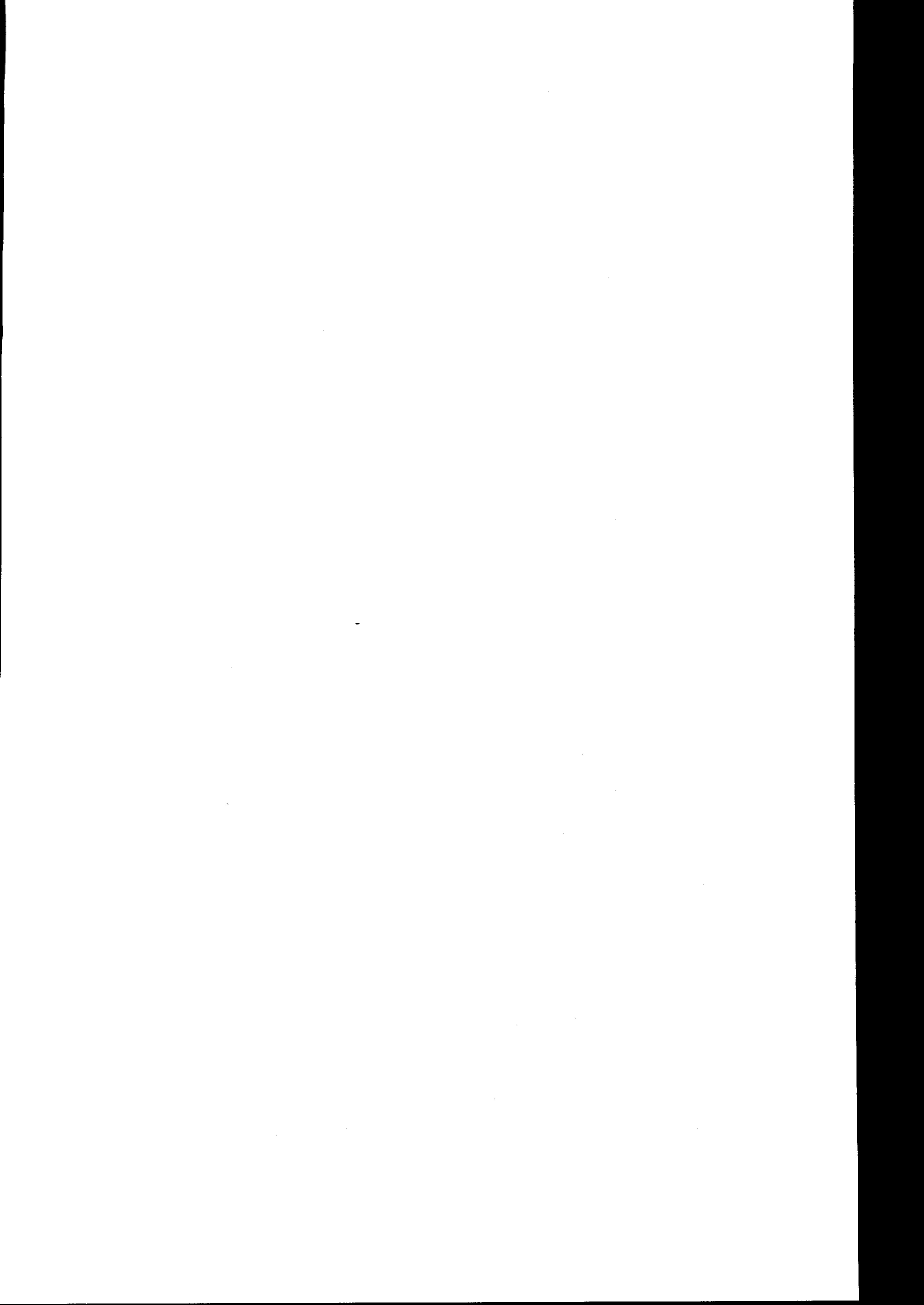
أرادت ، بالإسراع في جمع الحديث ، أن تثبت بشكل نهائي مجمل مواقف الرسول في ظروف معينة ، كمرجع للحالات المماثلة وكنموذج للحالات الجديدة . وعلى العكس من ذلك ، فإن الشيعة اعتبروا أن النور الإلهي يستمر في « أهل البيت » أي في علي (شكل ٤) ، ابن عم النبي وزوج ابنته وفي ذريته .

وفي الحال تداخلت مشكلة خلافة محمد الأرضية مع المشكلة السابقة . ففي نظر البعض فإن الخليفة ليس إلا نائباً عن الرسول وعليه أن يواصل تنفيذ فكره الذي يعرفونه جيدا . ووفقا للعقيدة فالخليفة هو أقدر الموجودين . وللآخرين - على العكس من ذلك - فإن القانون والعدالة وكل علامات السلطة تجدد بشكل متواصل في ذرية عليّ وبذلك لا يمكن وقفها . وإن ذرية عليّ هي التي تكون بمثابة المرشدين للأمة . أي أنهم أحلوا مبدأ السلالة الحاكمة بدلاً من مبدأ الإنتخاب .

هذه هي بشكل سريع ، الحلول التي كانت أمام الإسلام ، عند وفاة الرسول ، وعندما كان يستعد لغزو العالم . إن المواقف التي اتخذها المسلمون مختلفة ومتفاوتة للغاية ، وسنشاهد تشتيتا غريبا للأمة الأصلية . ومن المعجزات أن الإسلام كتكوين إجمالي مثلما تحدد بالنسبة للديانات الأخرى ، سيحقق ما هو أكثر من تخطي خلافاته الداخلية إذ سيفرض - رغم هذه الخلافات - بصمة فريدة على الحضارة التي ستحمل اسمه .



فسيفساء من قصير عمره بالأردن من النصف الاول للقرن الثامن



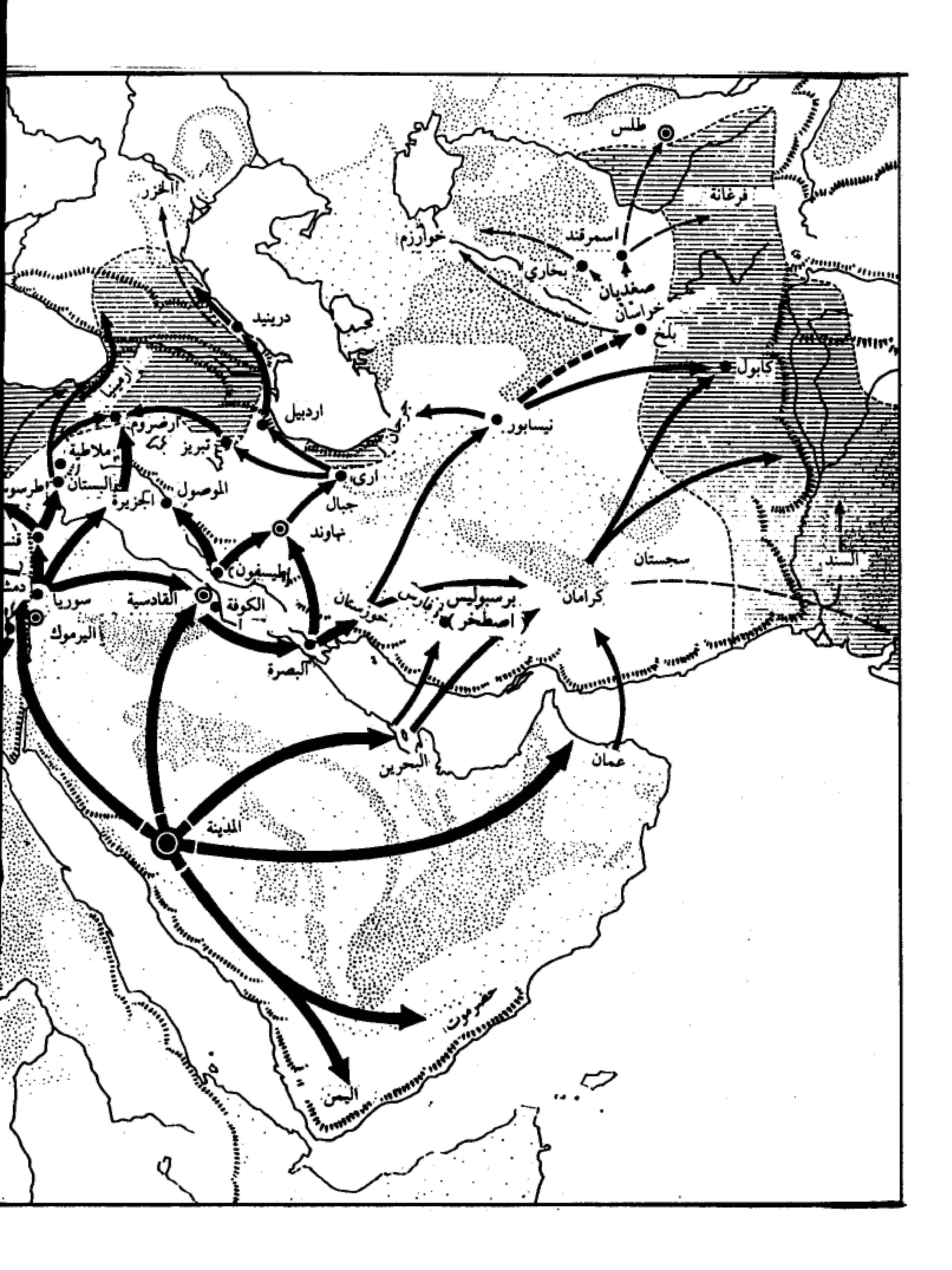
الفصل الثالث

الخلفاء الراشدون
وبداية الانطلاقات الكبرى

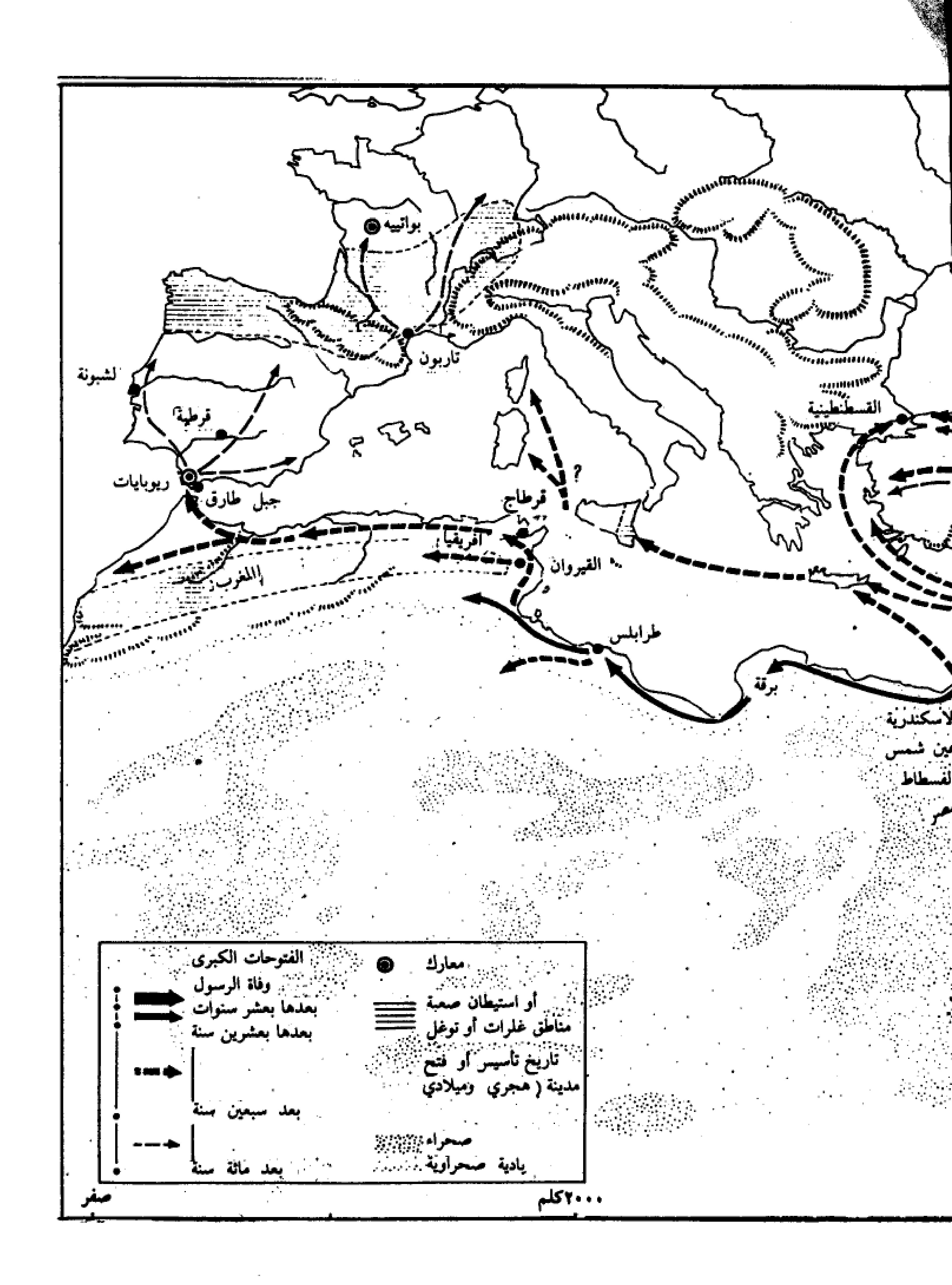
في خلال ثلاثين عاما ، تخطت الأمة الإسلامية حواجز الجزيرة العربية لتجابه مصائر جديدة . ولعل أكبرها هي الفتوحات التي وضعت أوائل الروابط لإمبراطورية تمتد إلى الشرق وإلى البحر الأبيض المتوسط (خريطة ٣) . تمت هذه المغامرة وهذا التوسع الإسلامي في دول ذات حضارات عريقة وكانت بحاجة إلى قادة : ولم يكن للأمة العربية آنذاك سوى أربعة مات ثلاثة منهم مقتولين . وفي خضم هذه المعارك والحروب الأخوية والخلافات بدأ الإسلام الشاب . والذي لا يقاوم ، مدفوعا بانطلاقته ، في تحديد معالم أراضيه وتأسيس قواعد قوته الروحية والزمنية .

١ ـ صراعات من أجل انتقال الخلافة .

منذ هذه الفترة أصبح تداخل المسائل الدينية والسياسية من المعالم الأساسية للإسلام . إذ أن أكبر الإتجاهات الفكرية التي تكونه تنبع من الصراعات القائمة حول خلافة الرسول . ومنذ ذلك الوقت أيضاً ، بدأت تتحدد معالم مجموعة من المدارس المختلفة حتى في درجاتها ، وهي معالم الإسلام الثابتة : إذ أن غياب أية عقيدة للقانون تحدد بشكل رسمي أو فقا للأغلبية حسب قوة تفسيرها . فالمسلمون مسلمون قبل أن يكونوا سنيين أو شيعة أو خوارج ، وبصرف النظر عن خلافاتهم المذهبية فهم في نفس الإرتباطات الأساسية لإيمانهم والتي سبق شرحها .



الخريطة ٣ ـ الفتوحات



كبرى بعد وفاة النبي

من المدينة إلى دمشق .

إن أول الخلفاء الأربعة الذين عرفهم التراث باسم الخلفاء الراشدين ، كان أبا بكر ، والد عائشة ، الزوجة المفضلة للرسول . وكان صوت عمر الذي يدوي كالرعد فوق أصوات الضوضاء قد فرضه على الأمة لأنه كان أحد أوائل الصحابة وكان أول من كلفه محمد ، في أواخر أيامه ، أن يؤم الصلاة . وتحت خلافته (١٠ /٦٣٢ ـ ١٢ ـ ٦٣٤) أكد الإسلام سيطرته خاصة على المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية ، وضاعف هجماته في الأطراف تجاه سوريا والعراق .

وما إن تم وضع الأسس حتى بدأ التدفق : ففي خلال عشر سنوات ، وصل عمر بالإسلام إلى قلب الحضارات العريقة ، وكان أبو بكر قد عينه خليفة له . وبعد سقوط دمشق عام ١٤ /٦٣٥ ، بدأت سلسلة الإنتصارات التي حققها العرب ، وفي كل هذه المعارك كانوا أقل عدداً من الأنظمة التي يخلعونها . ومنها موقعة اليرموك عام ١٥ /٦٣٦ والتي أعلنت سقوط سوريا البيزنطية ، والقادسية عام ١٤ / أو ١٦ التي أسلمت العراق الساساني ، ونهاوند فيما بين عامي ١٨و ١٩ أو عام ٢١ وفتحت إيران ، وهليوبوليس عام ١٩ وفتحت كلاً من مصر وبرقة . وشيئاً فشيئاً أصبحت البلدان المغزوة تمهد السبيل لغزو غيرها وهكذا نرى أرمينيا وطرابلس وكيرمان قد فتحت الطريق لآسيا الصغرى وشمال أفريقيا والهند .

وعندما مات عمر عام ٢٣ /٦٤٤ مقتولا بخنجر أحد العبيد المسيحيين ، انطلق التوسع وتم انتخاب عثمان بواسطة المجلس الذي كان عينه عمر قبل وفاته ، وكان هذا المجلس مكونا من ستة حكماء . وأطلق عثمان العنان لفرسانه ومنذ ذلك الوقت امتدت المعارك إلى البحار أيضاً ، منطلقة من موانىء البحر الأبيض الشرقية ، وخاصة الإسكندرية . وأضافت رايات الإسلام مجالا جديدا للعادات وأراضي المعارك وبحارة مصر أو سوريا ـ فلسطين . بل وأكثر من ذلك فقد أضافت مجالات جديدة للعرب أنفسهم . فالرجال الذين ولدوا في الصحراء أصبحوا بحارة أو قادة سفن . ويبدو أن تحولهم من بدو إلى بحارة بمثل هذه السهولة سيعطي المثل فيما بعد لشعب الأتراك . ذلك الشعب الرحالة الذي سيلعب دوراً كبيراً في البحر وخاصة في البحر الأبيض المتوسط .

إلا أن السحب قد بدأت تتراكم . فالتوسع المفاجىء للدولة الإسلامية والذي ترك المجال فسيحا للإرتجال الإداري وخاصة الإقتصادي في إدارة موارد الدولة التي بدأت تتحمل عبء المشاكل المتزايدة للعمليات الحربية ، وعدم انتظام هذه الموارد ، وخاصة الذهب والكنوز المسلوبة ، أولدت أنواعاً مختلفة من محاباة الأقارب والتهاون والتردد ، بالإضافة إلى الطموحات الوليدة . وقد تضافرت كل هذه العناصر لتزيد من تعقيد مهمة الخليفة . إلا أن فكرة قصر الخلافة على أقارب النبي ، والممثلة في عليّ كانت تواصل تقدمها . وبدأت المؤمرات تحاك . وقتل عثمان بضربة سيف وهو محاصر في بيته بالمدينة عام ٣٥ /٦٥٦ .

يعد هذا الحدث منعطفا أساسياً ومقدمة للإنشقاقات الكبرى . ففي خضم الأحداث التالية التي بدأت تضعف خلالها الوحدة السياسية والدينية للإسلام ، تواجهت ثلاث قوى : لقد تقلد علي الخلافة بعد مباحثات مثمرة ، إلا أنه اصطدم بعدد من الطامعين في الحكم ، تساندهم عائشة التي يملأ الطموح قلبها وينهشه الحقد الذي تكنه لعلي . وقد تخلص منهم علي في معركة الجمل عام ٣٦ /٦٥٦ في جنوب العراق . وكان عليه بعد ذلك أن يتفرغ ضد معاوية ، حاكم سوريا ، زعيم قبيلة بني أمية وقريب الخليفة المقتول .

ويبدو أن الحظ قد حالف الخليفة في معركة صفين عام ٣٧ /٦٥٧ إلا أنه تردد في قبول الهدنة التي عرضها عليه عدوه . واستطاع معاوية الإحتفاظ بسوريا وبأن يمد سلطانه حتى مصر نظراً لأن شرعية الخلافة انتهت نهائياً . ووقف الخوارج ضد عليّ المتساهل ، وضد مغتصب الحكم . وهم الخارجون عن الإطار الذي فرضته معركة صفين . ولم يلن حقدهم ، فقتل أحدهم عليا عام ٤٠ /٦٦١ .

واستولى معاوية على الخلافة معتمدا على جيش مدرب وعلى مقاطعات ثرية سليمة الإدارة وهكذا تراجعت الشرعية أمام الدهاء ، والموافقة الإجماعية أمام ترتيب الأسر الحاكمة ، والإضطرابات الروحية أمام ضرورات العصر . ومن معالم ذلك العصر أن السيد الجديد قد ترك المدن المقدسة في البلاد العربية لدورها الديني وظل حيث هو في دمشق ، في ضيعة يمكنها مجابهة العالم .

الإنشقاقات الكبرى للأمة الإسلامية :

السنيون ، الشيعة ، الخوارج .

لا بد من التأكيد على أن الإختيارات الكبرى في الإسلام تتم حول الصراعات على الخلافة . ومن خلال هذا الغليان ، لا تعمل مختلف الفرق الإسلامية إلا للإجابة بأساليب متناهية التفاوت على نفس السؤال الأساسي الذي هو مصير النبؤة بعد محمد . فمن جهة يقدمون الحدث الإلهي التام والنموذج الإنساني الذي قدمه الرسول طوال حياته . مما ينتج عنه أن كل التصرفات مستوحاة من الإيمان وفقا لصورة الإسلام الوليد . وزعيم الأمة ـ كما رأينا ـ ليس إلا خليفة لمحمد ، عليه أن يقوم بتطبيق القانون والقواعد الناتجة عنه سواء في الحياة الشخصية أو الحياة العامة . لذلك يتم اختيار الخليفة بناء على قوة إيمانه ، بعيداً عن أية إهتمامات إجتماعية له حتى وإن « كان عبدا أسود اللون » وتتم توليته بناء على الموافقة الإجماعية ، التي يتولاها في شكل مبايعة ، إلا أنه في نفس الوقت يخضع بشدة وصرامة لوطأة المبادىء التي يطبقها إذا ما حاد عنها سواء في حياته العامة أو الخاصة .

وهذا « الخط الصارم » يمثل الخوارج ، الذين هم أشبه بالمطهرين بالنسبة للإسلام . وهم متعصبون عنيفون ، تصل بهم شجاعتهم وأصرارهم حتى الموت . وسوف يعارضون السلطات القائمة بعد صفين بلا هوادة وسيكون تاريخهم مثقلا بالبطولات وبالدماء . إن تصرفاتهم المذهبية والقهر الذي عانوه ـ منذ معركة النهروان عام ٣٨ /٦٥٨ حيث سحقهم عليّ ـ تفسر قلة عددهم اليوم : فهم ليسوا سوى بضعة آلاف متناثرين خاصة في أفريقيا في المزاب وخاصة في جزيرة جربا .

وأمامهم يقف الشيعة الذين يرون أن امام الجماعة هو مرشد لهم تم اختياره بناء على مرسوم الهي يخص ذرية علي بصفة خاصة . وطاعة القانون هنا تختلط مع الأمانة لرجل يعد منبعا للقانون وليس مطبقا له فحسب . كما أنه مشبع بالروح الآلهية بل والذات الإلهية . وفي هذه النقطة بصفة خاصة في هذا المذهب ، نرى أن الموت لا سلطان له على شخص يمثل هذه الصفات الآلهية . لذلك تعتبر فكرة الإمام الخفي ، وانتظار عودته ، والأمل في مسيح ما هو المهدي المنتظر ليست إلا

تطورات منطقية عند الشيعة . ومن البديهي إذن وبناء على نظريتهم على الأقل في شكلها المتطرف ، فلا يوجد أي خليفة شرعي لمحمد خارج علي وذريته : ذريته التي أنجبها من فاطمة ، ابنة الرسول ، ومن غيرها أيضاً . ولقد وصل بعض الشيعة في تطرفهم وارتباطهم بعلي إلى أنهم أعطوه الأولوية ـ بكل تبجح ـ على الرسول مؤسس الإسلام ، زاعمين أن الملاك المكلف بتنزيل النبوءة القرآنية على عليّ قد أخطأ وأنزلها على محمد .

وبين هذين الموقفين المتشددين تقف الأمة الإسلامية بكل ما يمكن أن يعتريها من تدرجات ممكنة ومنهم الشيعة والسنيون المعتدلون في الإسلام ، والمهتمون بترابط الأمة ونظمها القائمة ، وهم يشكون في كل المواقف العقائدية أو السياسية المتطرفة من كلا الجانبين . أما السنيون فهم يطالبون بنوع من الإعتدال بين القرآن ، والتمثل بالنبي ، وموافقة الأمة . وهذا المزج ، إذا ما تم التعبير عنه سياسياً ، فإنه سيقود السنيين ، كما يقولها هـ . لاووست ، إلى « واقعية سياسية » بعيدة عن « شرعية عليّ » وعن « الذاتية التمردية » للخوارج والتي ستؤدي إلى سيادة ذلك الإتجاه الوسط في الإسلام .

٢ ـ الوحدة الإسلامية بعيدا عن الإنشقاقات :

تثبيت القرآن والجهد العثماني .

إن كل المسلمين يلتفون حول النص المقدس أيا كانت نوعيتهم ، سواء كانوا سنيين أو خوارج ، أو شيعة ، وأيا كانت التعاريف التي يعطونها لنص القرآن ، ولقد شعروا مبكرا بضرورة تثبيت مجمل الآيات التي تركها موت محمد متناثرة مدونة على مواد مختلفة مثل قطع من الجلد أو كسر الشقف من الفخار أو عظام الجمال أو بعض مواد مختلفة مثل قطع من الجلد لحمايتها من تأثير الزمن وضعف الذاكرة . ويرجع شرف تنظيمها وتنقيحها إلى الخليفة عثمان . ورغم طموح بعض العصبيات وجرح كبرياء بعض الكتاب المبعدين فقد نجح الأسلوب الذي اختاره عثمان وفرض نفسه شيئاً فشيئاً بحكم الضرورة .

ولا شك أن ترتيبه ـ كما رأينا ـ يتناقض مع الترتيب الزمني للنبوءة . بالإضافة إلى أنه غير مؤكد . فالأسلوب الذي تم اختياره يرجع في حالة الشك ، إلى

الإحتراس المنهجي في النص المكتوب كما يرجع إلى الشهادة الشفوية التي يتم جمعها من أفواه نفس الذين سمعوا النبي وهو يتلو الآية المعنية . إلا أن ذلك يعد بمثابة الباب المفتوح لما هو عشوائي وللطموح أو لبعض المبادرات الأدبية المؤسفة . وأيا كانت الإحتمالات ، فالطريقة التي لجأ إليها عثمان كانت تتفق مع ذاكرة الأمة وما كانت تحتفظ به عن النبي وتعاليمه .

وذلك يفسر كيف أن الكتلة الإسلامية المدركة لأمانتها الجماعية ومدفوعة بحكم الضرورة الملحة قد قبلت الدرس ، وأصبح النص الذي تم جمعه ، والذي مر خلال تاريخ طويل من التنقيح والتصويب رغم الإحتجاجات المنبع الذي سيؤدي إلى تكوين اتباع جدد وإشكال خطية جديدة (شكل ٥ ـ ٩) هكذا ولدت الألفاظ والقواعد من ضرورة المحافظة على معاني كلمات ولغة القرآن ، كما ولدت في نفس الوقت المدارس الخطية المختلفة إلى جانب علم التلاوة ، الذي تكون تدريجيا من خلال الحلول التي قدمت لحل المشاكل الأساسية للقراءة . ومنها ضرورة التوسع في علم_التشكيل للتمييز بين معنى الكلمات المتشابهة . وقد تم ذلك تدريجيا إبتداء من النصف الثاني للقرن السابع ، وخاصة فيما يتعلق بالتشكيل الذي أقرته الأمة منذ منتصف القرن الثالث /التاسع ، والتي ظلت تثير بعض الإعتراضات حتى حوالي عام ١٠٠٠ . ولن يثبت نص القرآن نهائياً إلا مع الطباعة : فبعد مناقشات طويلة أصبح القرآن المطبوع في القاهرة عام ١٣٤٢ /١٩٢٣ النموذج الأوحد للإسلام .

نجاح حرب الفتوحات وأواخر العصر القديم الإستعماري .

لعله يمكن تفسير النجاحات الأولى للملحمة الإسلامية ، مثلما صورنا خطوطها العريضة فيما تقدم ، بأنها كانت أولا نجاحات تكتيكية : ولعل عنصر المفاجأة كان ضخما من الجهة التي لم يكن يتوقع منها وخاصة بذلك الصخب الجامح للمنتصر البدوي الذي هزم الجيوش الكلاسيكية آنذاك المنظمة والمدربة على المواجهات المنتظمة مع عدو تقليدي . ومع ذلك ، ولنعد إلى مستوى التكتيك فإن البيزنطيين والغساسنة لم يخضعوا من أول مرة ولا يمكن للمفاجأة أن تفسر كل شيء . فالأسلوب الذي تم وضعه ثم أعيدت به الصدمة يرجع إلى عبقرية حربية معتمدة على إعداد الغزوات . فكانوا يقيمون في المناطق التي هزموها ثم ينتشرون

في ضواحيها مثل بقعة الزيت ، ويقومون في نفس الوقت بغزوات طويلة خاطفة ومتكررة تمهيداً للغزوة النهائية : وهكذا تم غزو تونس قبل فتحها ، ابتداء من القواعد في طرابلس وهكذا تم فتح خراسان ابتداء من السوس التي تم إخضاعها .

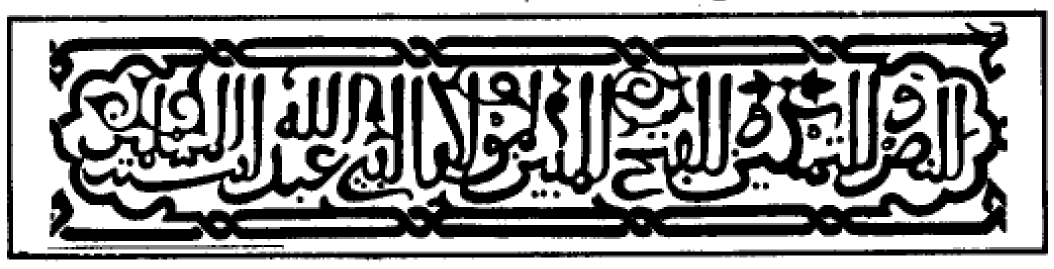
وقد أدى مثل هذا التصلب ، بكل ما يتضمنه من عدم أمـن في الطـرق التقليدية ، إلى تفتيت الإمبراطوريات القديمة وذلك بعزل المدن وبازدياد الخوف من عدو خفي وكائن في كل مكان . أما من الناحية العسكرية ، فإن عبقرية القادة العرب الكبار عرفت كيف تقود التوسع البدوي . وربما لم تكن هناك ضرورة لذكر ما حدث من تغيير مناخي عنيف ومفاجىء ظلّ يدفع البدو بعيداً عن جزيرة العرب . ولعل النجاح المتواصل والذي يدعمه حب الغنائـم والحمـاس الديني - على الأقل



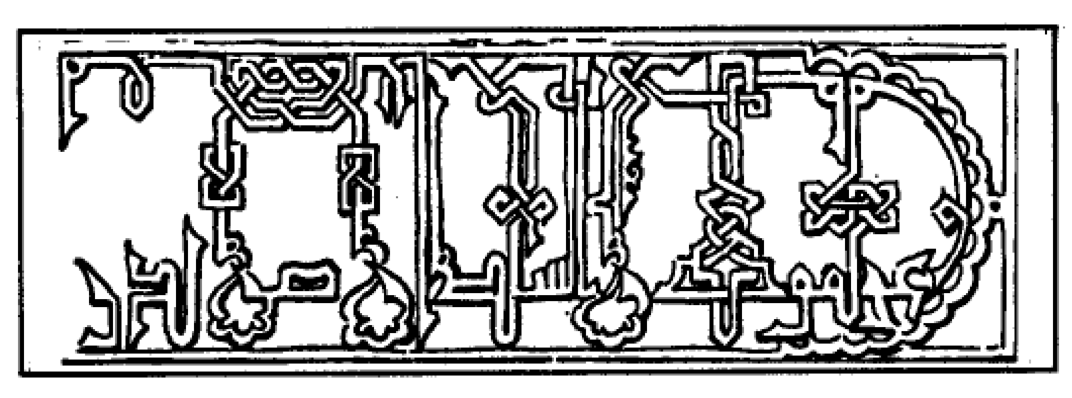
شكل ٥ - خط كوفي بسيط القاهرة - جامع ابن طولون اواخر القرن التاسع



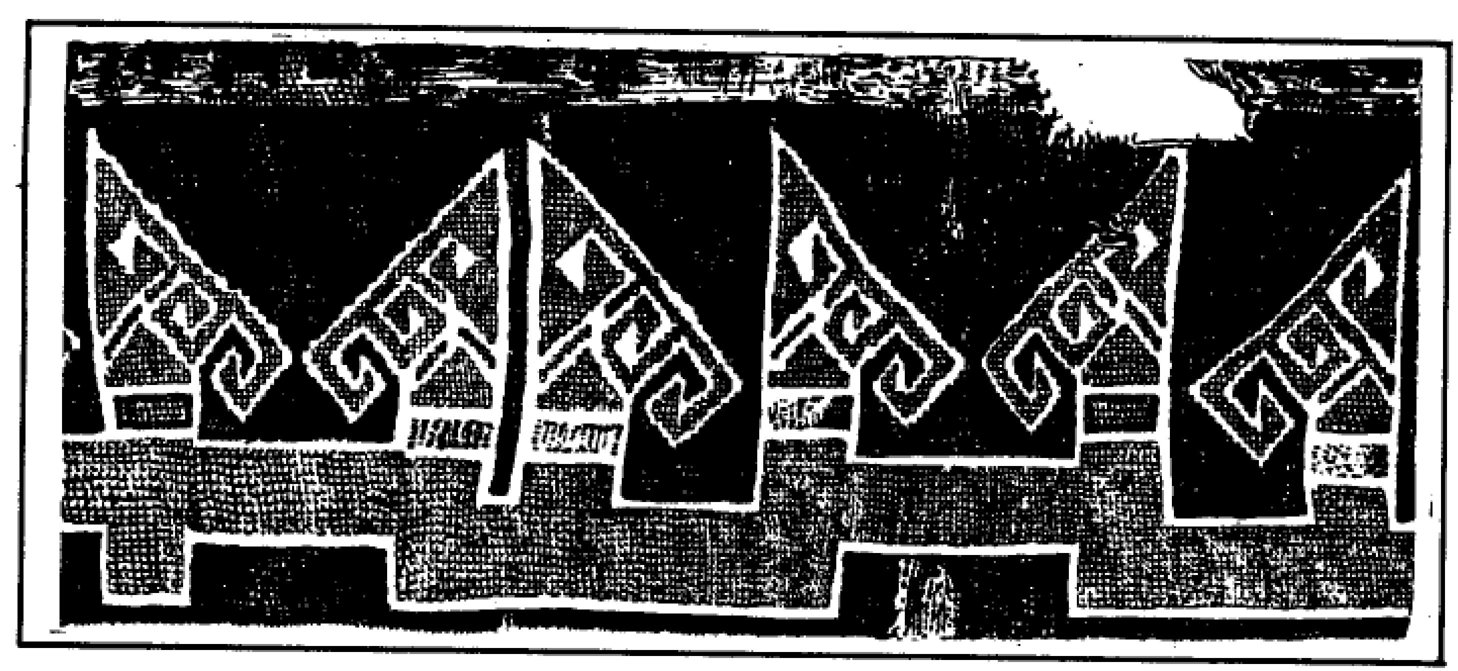
شكل ٦ - خط كوفي مزخرف بالزهور
- القاهرة - جامع الخليفة الحاكم - اول القرن الحادي عشر



شكل ٧ - خط زخرفي على القيشاني
من شرفة بقصر الحمراء ، غرناطة ، القرن الرابع عشر



شكل ٨ - على حافة الخط والزخرفة من قصر اشبيلية ، القرن الرابع عشر



شكل ٩ ـ على حافة الخط والزخرفة سجاد من تركيا ـ القرن الثالث عشر

بالنسبة للبعض ـ يفسر السيطرة المدهشة للإسلام على حضارات قديمة منذ عدة قرون تعتمد على ثقافات ثابتة ومدن قوية .

إلا أننا قد لا نفهم كيف نجح العرب في الحفاظ على انتصاراتهم فور الفتوحات إذا اقتصرنا على هذه الأسباب فحسب إذ أن نجاح الإسلام عمقاً يرجع ، ولا شك ، إلى أنه يتجاوب مع أماني عريضة للشعوب ، ولعل ذلك كان يعني بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ، وريثة ألف عام من التراث الإستعماري اليوناني ـ الروماني ـ نوعاً من التحرر الحقيقي وخاصة الريف الذي كانت تستغله الارستقراطية المدنية التي تعيش على هامش الأجناس المختلفة الأعراق والثقافة في مدن أصبحت ـ في نظر الكتل الشعبية ـ وكأنها رموز للتواجد الأجنبي المعلن في البلد بشكل مصطنع . لذلك وجدت التقاليد الوطنية القديمة نفسها وكأنها تدعم بالمقاومات الدينية : إن الردود المختلفة التي قدمها بعض المتهرطقين والكنائس الشرقية لمشكلة طبيعة المسيح ، كانت تميل إلى تأكيد فكرة الوحدة الإلهية ، سواء في المسيح أو في الرب ، بخلاف ما تعلنه العقيدة الرسمية في القسطنطينية ، وكانت دقائق العقيدة المسيحية يمكن أن تعد آثاراً للوثنية الغربية في نظر الكتل الشعبية في الامبراطورية . وسيعطي الإسلام رداً بسيطاً للتساؤلات الأساسية حول الله والإيمان . لذلك لن ينظر إليه كديانة دخيلة وإنما كوريث ومدافع عن مفهوم شرقي معين عن الألوهية .

ففي نظر هذه الشعوب المطحونة والتي تعاني من ثقل الضرائب المتزايدة

خاصة بعد أن دفعت دولها تكاليف الحرب بين بيزنطة وطيسفون ، لم يبد العرب كغرباء ولا كبربر . فقد كانوا يعرفونهم من زمن بعيد كقادة للقوافل ، في الأسواق وفي الأعياد الشعبية ، وكرعاة للأغنام يعيشون على حافة الصحارى التي تسللوا منها تدريجياً ، قبل الإسلام وخاصة في سوريا ، بعيداً عن الأرياف . وكان هؤلاء العرب يقيمون عدة اتصالات تقليدية مع الشعوب المحلية . وكانت هذه الاتصالات التي تتم خارج المدينة لا تجمع جماهير من التجار وقادة القوافل فحسب وإنما أصبحت تجمع جماهير شعبية بائسة ، ويمكن تفسيرها بنفس التحاليل التي توصل إليها ج . لجوف ، بالنسبة للصلات التي ربطت ذات يوم بين البربر وشعوب الإمبراطورية الرومانية : ففي الشرق أيضاً تمت صلات من شعب إلى شعب ، بسبب التوترات القائمة بين الطبقات الاجتماعية والطبقة الارستقراطية ، سواء كانت تطلعات إلى المساواة ، أو نوع معين من الشعور بالقرابة في البؤس ، حيال الثروات المكدسة ، وكلها اتجاهات ستجد في المطالبات القرآنية بالعدالة الجماعية نوعاً من العقيدة .

ونفس الصراعات الاجتماعية قامت من جهة العراق وفارس . فهنا ، في الدولة الساسانية المتينة الجذور عبر التاريخ المحلي ، لم يكن التراث الوطني هو الذي يقع عليه اللوم . فإذا ما كانت طيسفون قد سقطت بسرعة تحت هجمات العرب ، رغم خيولها وأفيالها وذهبها ، فذلك يرجع إلى أن المجتمع الساساني كان يعاني من أزمة عميقة . إن التوسع التجاري القائم على الاحتياطيات النقدية الهائلة التي تم جمعها على حساب الغرب وبيزنطة ومن السيطرة على طرق الشرق الأدنى وأفريقيا والمحيط الهندي ، أدت إلى ازدهار المدن وأفول نجم النبلاء من ملاك الأراضي ، وإلى خلق نوع من البروليتاريا في الجماهير الشعبية المدنية التي يشهد عليها اتساع المجوسية المائلة إلى اليسار في القرن السادس . وهكذا استسلمت الدولة الساسانية ـ الخاضعة لصراعات الأسر الحاكمة والمنهمكة بسبب عدة قرون من الصراع مع روما وبيزنطة ـ إلى محاولات البدو .

التكوين الأولي للدولة

إن الإنطلاقة البدوية ستظل مندفعة لمدة قرن تقريباً . بسبب ضعف العدو ، وبفضل مجيء محاربين جدد ، قادمين من شبه الجزيرة العربية ، لتقوية

جيش ظل عربياً بشكل أساسي . وهكذا ظل الجيش والتجنيد يدعم نفسه ويحدد اقتصادياً إحدى الضرورات المستقبلية للإمبراطورية الأموية وهي الانتصار المتباعد توسعاً أمام التقدم الإداري .

فالأرض ، التي تمثل شكلاً من أهم أشكال الغنائم، قد أفلتت تدريجياً من جموع المنتصرين عن طريق التسوية . فقد ذهبت ، في بادىء الأمر ، تحت شكل هبات إلى أهالي الخلفاء ومن يحميهم مما أدى إلى محاباة الأقارب خاصة فيما يتعلق بعثمان ، على حد قول التراث ، لكن الواقع يذهب إلى أبعد من ذلك : إذ كان يرمي إلى تكوين شبه مجمع حكومي حول الخليفة كرمز للدولة الوليدة . أما فيما يتعلق ببقية الأراضي فيبدو أن عملية التقسيم البدوية التقليدية بين الفاتحين تخلت عن دورها أمام تشريع قانون عام ينص على أن هذه الغنائم تم فتحها باسم الإسلام بأسره والذي كان يتركها بدوره إلى شاغليها التقليديين فارضاً عليهم ضريبة تدفع للخزانة العامة .

وهكذا حاولت الخلافة إظهار أن تقسيم الغنائم لم يكن خاصاً بمبادرات فردية أو قبلية وإنما خاص بجميع المؤمنين الذين تدير الدولة مصالحهم . وحيث أن عماد الإدارة الضريبية ، سواء كانت بيزنطية أو ساسانية تظل مكانها أساساً ، فقد اتجه الاهتمام إلى خلق ميزانية حربية ، من دخل الضرائب التي جاء رصيدها ليؤكد الطابع العام لأجر المحاربين .

إن إقامة إدارة مركزية حتى وإن كانت في تكوينها الأولي فهي تعني نوعاً من الوحدة في شئون الدولة ، حيال الهرج البدوي التقليدي وحيال طموح الحكام الجدد للمقاطعات وأحقادهم . وفي هذا التطور السريع ، والذي ستزداد سرعته تحت الحكام الأمويين والعباسيين ، فإن شخصية الخليفة ستأخذ بالطبع مكان الصدارة . فحتى إذا كان التصرف العام لرئيس الأمة ما زال يرتبط ببساطة أوائل عهد الإسلام ، فإن معنى المبدأ الذي أصبح يمثله أخذ يتغير تدريجياً . ففي نظر الشعوب المنهزمة ، أن خليفة النبي يتجه إلى أن يصبح وريث الملكية الكلاسيكية على الطريقة الشرقية . ولا شك في أن الصراعات من أجل السلطة ، التي تحدد تاريخ الإسلام بعد محمد ، ترجع إلى امتداد الصراعات القبلية القديمة . لكن ، هناك فارق جذري ، هو أن هذه السلطة قد غيرت علامتها وهي تخرج عن

الجزيرة العربية : فلم تعد السلطة تقتصر على نوع من الانتصار في نطاق العلاقات الضيقة من جماعة إلى جماعة ، وإنما أصبحت تتخذ شكل إمبراطورية عالمية ومطلقة . فانتصارها إذن ، والأصداء التي ستجدها في شعوب الشرق القديم وفي إقامة مبدأ الأسر الحاكمة الذي بدأت تتحدد معالمه في نفس الوقت ، بين العشيرتين المتنافستين العلويين والعثمانيين الذين يقودهم معاوية ، تشير إلى الجهد الذي يقوم به الإسلام ليتلاءم مع الإطار الذي يريده .

أوائل الإدماجات الثقافية

إن التغيير الكبير الذي يبدأ بهذا الشكل لا يمس النظام الجغرافي السياسي فحسب . فالجيل الذي يصل في سن النضج في بداية الفتوحات ، يجد نفسه في مواجهة بلدان قديمة مزودة بثقافات قوية بحيث يمكنها مقاومة الصدمة ، بل وأن تتخطاها لتناقض القيم العامة لحكامها الجدد . وكرد فعل ، سوف يتغنى العرب بتراثهم يوماً بعد يوم ، إلا أن بدويتهم التي كان عليها إزاحة تراث منافسيها الذين راح أبناؤ هم ـ المتزايدون عدداً ـ يدخلون الدين الجديد الذي لم تعد شبه الجزيرة العربية تنفرد به . ولم ينجح الإسلام إذن في انتزاع التقاليد السابقة كلية ، على الأقل أكثرها حيوية ، كما لن ينجح في تفادي عمليات الإدماج الثقافي الذي سيؤ ثر عليه بشكل متزايد .

إلا أنه سوف يتمكن من التعبير عنها في لغته الأصلية ، التي يثريها لدى الجماهير أو لدى صفوة المجتمع ، بما يمتزج بها من رصيد مقدس ، وكذلك عن طريق الإدارة التي ستحل تدريجياً محل المعدات القديمة التي حفظت لفترة من أجل هذا الاستخدام مثل اليونانية وخاصة البهلوية لما تتميز به من صفات . وعلى عكس ما حدث في أماكن أخرى ، في الغرب مثلاً ، وفي مفاهيم مختلفة تجابه أحد الغزاة لشعوب حضرية قديمة ، فإن تيار الأمية هنا يمر على قطاعات حيوية مثل الدين أو اللغة ، أو على قطاعات متحضرة وليس العكس . إن اتصال العرب بالحضارات الأجنبية واستمرار هذه الحضارات سيتم بفضل اللغة العربية وفي إطار الإسلام .

ومنذ ذلك الوقت بدأت مبادىء عمليات الإدماج المستقبلية والتي سنشهدها في مراكز مصر وسوريا وبين النهرين وإيران أو إسبانيا .

قدر مثالي : عمر

إن تاريخ الإسلام الأول يسيطر عليه طيف هائل : هو طيف ثاني الخلفاء ، الذي يرمز إلى كل الأحداث الكبرى التي تحدثنا عنها ، وفي قول آخر ، كل شيء يمر عبر عمر : انطلاقة الفتوحات ، الهبات العقارية ، مولد المدن الكبرى ، إقامة الإدارة ، تكوين جيش منظم ، وتشريع ، وتنظيم الحج ، واختيار الهجرة كأصل لبداية التقويم الجديد ، وقانون أحوال غير المسلمين ، وتأكيد وجود سلطة مركزية ، واستخدام تعبير « أمير المؤمنين » إلى جانب تعبير الخليفة ، بداية اتجاهات جديدة للسلطة ، وغيرها من المبادرات التي سيبدأ بها الإسلام بداية تطوره نحو مجتمع يسوده النظام والترتيب الإداري . المدهش أن عمر لم يساهم عن قرب في هذه الأحداث التي ربما قد تكون تمت بدونه ، أو ليس بمثل هذه السرعة ، والمدهش هنا هو أن يرتقي أحد البورجوازيين البسطاء من سكان مكة ، والذي كان مركزه الاجتماعي يبعده عن نشاطات ونفوذ الارستقراطية التجارية الكبرى ، ليصل خلال بضعة أعوام إلى مرتبة زعيم الامبراطورية بسلطان أقره الجميع .

ولا شك أن التراث الإسلامي كان صائب النظر حينما وضع كل الصفات التي خص بها عمر تحت ضوء الإيمان . فالإسلام حقاً وفي كل نضارته وتدفقه هو الذي يعطي معناه لحياة عمر . فلقد بدأ مناقضاً للإسلام ثم دخله نتيجة لسحر آية قرآنية سمعها صدفة . فبرز منذ ذلك الحين مثل أبي بكر ، لكنه برز بشكل ساطع بنوع من الإخلاص الذي لا يمكن مضاهاته ، للإسلام ولنبيه . ولعله الوحيد الذي وصل إلى الخلافة وله كل هذه المميزات التي تمكنه من فرض سلطانه بمثل هذا الوضوح على الأمة بأسرها . وسيكون الرجل العظيم للتراث السني وللخوارج ، في حين أن الشيعة ، على العكس ، لن يغفروا له أنه كان بمثل هذه العظمة بحيث يطغى على شرعية عليّ لمجرد صفاته الشخصية .

وما أصفى التاريخ حينما برأ عمر من هدم مكتبة الاسكندرية وأضاف إليه ذلك النموذج الإنساني المتسامح الذي وصفه به عند سقوط القدس ، وحينما رأى فيه خليفة محمد الذي لا عيب فيه والمؤتمن على القيم الأخلاقية والتراث العربي ، في وقت بدأ فيه البعض تحريفها وبه أيضاً تبدأ الفترة الانتقالية بين عهد المؤمنين وعهد السياسيين ، الذي بدأ عام ٤٠ / ٦٦١ بالخلافة الأموية في دمشق .

الفصل الرابع

الخلافة الأموية في دمشق

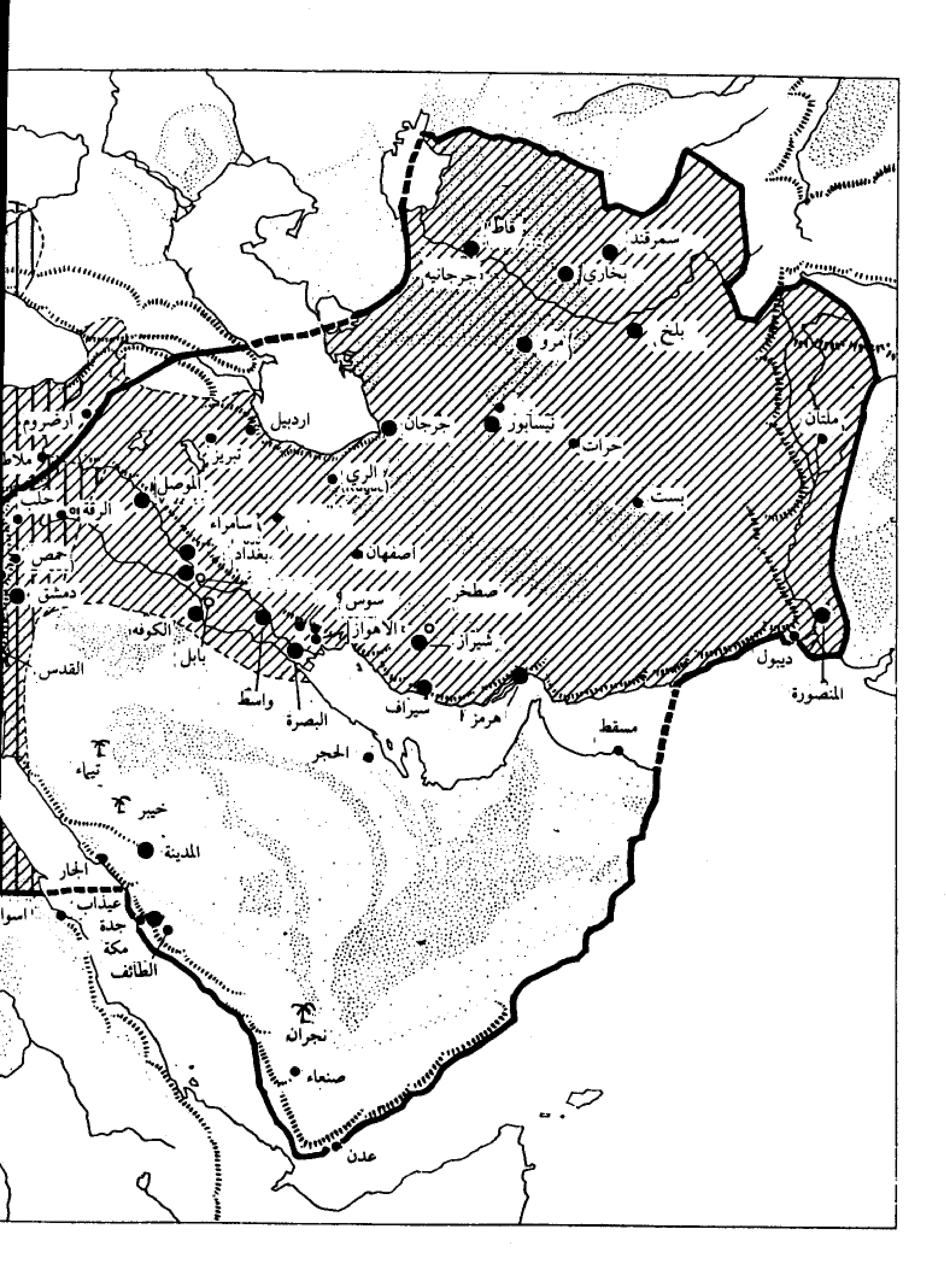
هناك عرف قوي يضع أوج العصر الإسلامي أيام الخلفاء الأوائل في بغداد . ويبدأ هذا العهد عام ٧٤٩ من زمننا . وحتى إذا كان المؤرخ لا يعرفها جيداً فإنه يهتم بالمائة عام السابقة : فالقوة العسكرية ، والإقتصادية والثقافية للإسلام بدأت تنمو أيام الخلافة في دمشق . ففي مجالات عديدة راح الأمويون يزرعون بينما أخذ العباسيون يحصدون .

١ - بوادر العصر الذهبي الإسلامي

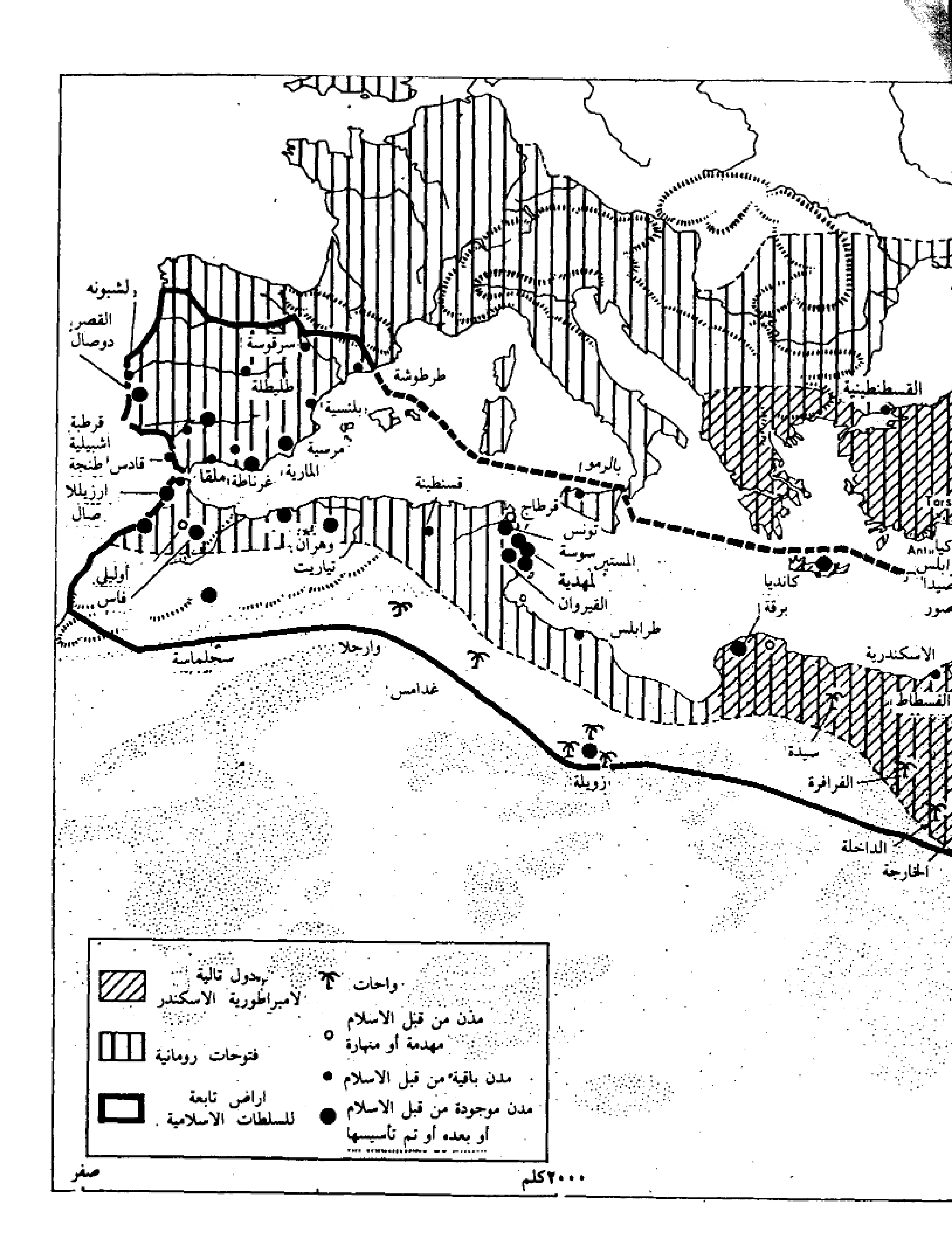
تتابع الإسكندر وروما

لقد أقام الأمويون نظاماً من أقوى النظم التي عرفتها البشرية بأسرها . وبفضلهم دخل الإسلام ، في ذروة العصور الوسطى ، كامتداد للإمبراطوريات الكبرى القديمة (لوحة ٧) . إذ كان يغطي أرض كل البلدان التي تتابعت فيها الدول التي خلفت الإسكندر وكذلك منطقة واسعة من النصف الجنوبي للانتصارات الرومانية (خريطة ٤) بخلاف اليونان وآسيا الصغرى . وكان لهذا الحدث عواقب يصعب حسابها . فلأول مرة تقع هاتان المنطقتان ، من مصب أنهار السند إلى إسبانيا ، تحت سلطة واحدة ، وتدمج في مجال اقتصادي واحد وتنتظمها ثقافة واحدة .

وانطلقت الانتصارات كالصاعقة : ففي اللحظة التي أصبح فيها معاوية



الخريطة ٤ ـ الاسلام



منتصف القرن العاشر

الزعيم الأوحد للإسلام ، عام ٤٠ /٦٦١ ، وصلت غزوات الجيوش العربية ، إن لم يكن الإحتلال الثابت إلى أراضي العصور القديمة : كودرز وأراخوسيا وبكتريا (البلخ) في الشرق ، والقوقاز وأرمينيا في الشمال ، والنوبة في الجنوب ، وأخيراً إلى أفريقيا الرومانية ، تونس الحالية ، في الغرب . أي أن الإسلام ، حتى عام ٧٠٠ كان يثبت انتصاراته في المناطق التي غزاها ويخطط المعسكرات أو يقيم المدن . وإذا ما استثنينا الحملات التي قادها أرضاً وبحراً ضد القسطنطينية فلا نراه يتقدم أرضاً إلا في شمال أفريقيا حيث امتد إلى المغرب .

وفي أوائل القرن الثامن نرى انطلاقة جديدة : فقد تعدى السند ونهر أمودارية شرقاً ، وأسس المقاطعات الإسلامية في كل من السند وفيما وراء النهر ، أما غرباً ، فقد امتد جيش مكون من ستة آلاف رجل ، معظمهم من البربر ، منتهزاً الانقسامات القائمة في إسبانيا وعبر المضيق الذي حمل اسم القائد المنتصر ليصبح اسمه : جبل طارق . وانهزم جيش الملك رودريك عام ٩٢ /٧١١ عند نهر بربات . وازدادت صفوف الغزاة بانضمام وحدات جديدة بقيادة طارق الجسور ، وانفتحت شبه الجزيرة بأسرها أمام موسى بن نصير .

وتلا ذلك انطلاقات أخرى ابتداء من وراء النهر وإسبانيا ، ولكن بنتائج مختلفة هذه المرة . فانتصاره على الصينيين ، على جوانب نهر طالاس (١٣٣ /٧٥١) قد أكد للإسلام سيادته على الطرق القديمة لبادية آسيا الوسطى . أما على الطرق الآخر للإمبراطورية فكانت موقعة بواتييه عام ١١٤ /٧٣٢ : إذ تقهقر المسلمون حتى جنوب غرب فرنسا ، وظلوا فترة متعلقين بالبروفنسيين ، إلا أنهم اضطروا إلى ترك نربون نهائياً عام ١٤٢ /٧٥٩ التي انتزعها منهم بيان ليبريف .

وهكذا استقر المنتصرون من الأطلنطي حتى الهند ، ومن بحر آرال إلى الصحراء (خريطة ٥) . ومرة أخرى يتساءل المؤرخ ، كيف ولماذا أمكن تحقيق مثل هذه الإمبراطورية في وقت ضئيل ، في أقل من قرن ، إمبراطورية أوسع من إمبراطورية الإسكندر ، وعلى الأقل مساوية لإمبراطورية روما ، وتعدتها ناحية آسيا الوسطى وأفريقيا السودان ؟ ولا شك أن نجاحها يرجع إلى الأزمات التي كانت قائمة في تلك البلدان . ولا بد من إضافة الثبات أو الدأب البدوي الذي ألهمه

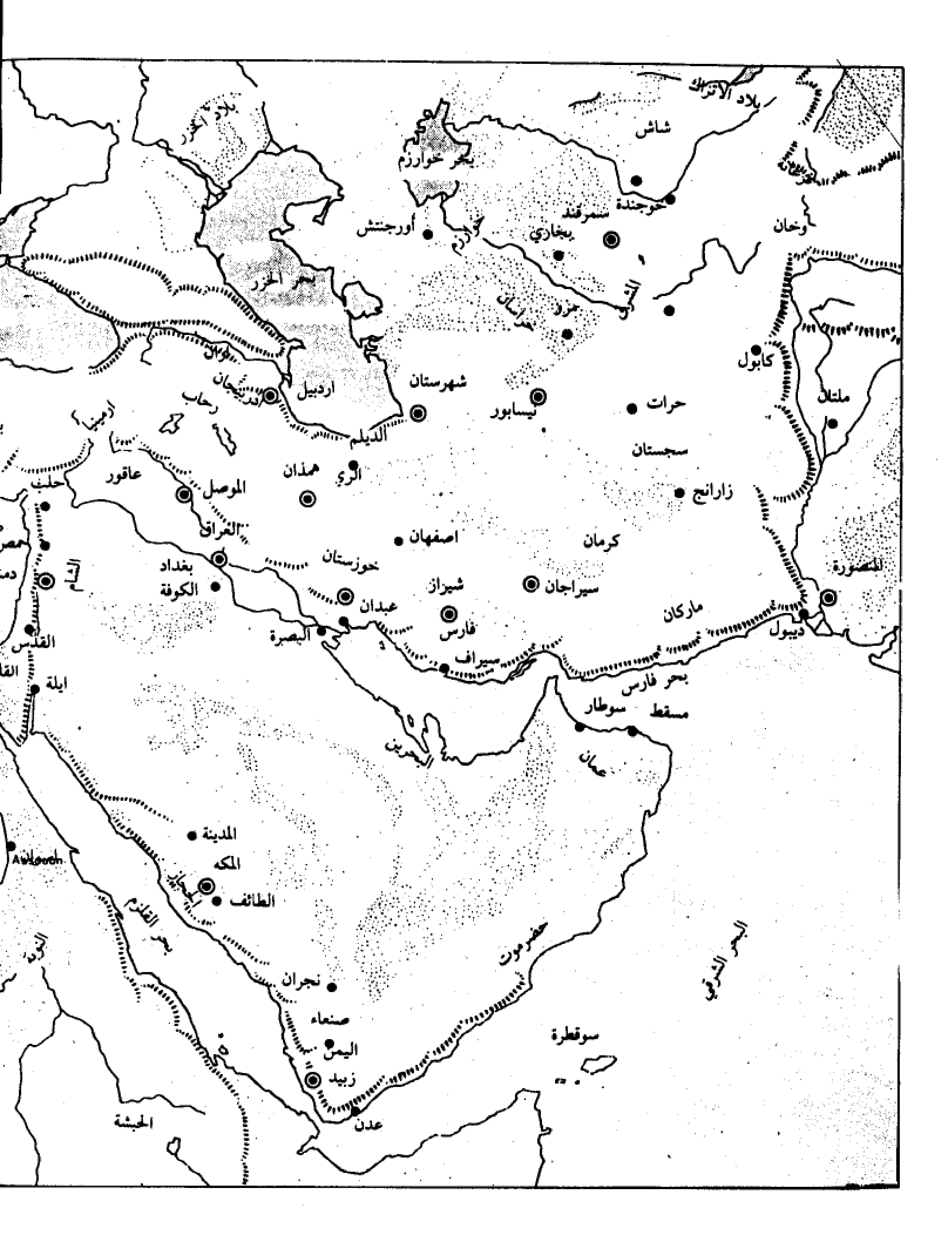
الإسلام بإرساله البدو الرحالة إلى المشارف الخصبة للصحراء العربية أولاً ، ثم إلى الصحراء الليبية وتوقفت الإنطلاقة أخيراً حيثما بدأت مصاعب المناخ البارد في الجبال : عند بامير والقوقاز وأرمينيا والبربر ، وحيث اصطدموا ببدو آخرين تأقلمت مواشيهم وإيقاع حياتهم مع صعوبة الظروف المحلية ، ومنهم المغول الأتراك في آسيا الوسطى . ومن ناحية أخرى فقد اصطدموا بقوى جديدة وطموحة ، مثلما كان الحال في الغرب وانطلاقة الأسرة الكارولانجية . ومنذ منتصف القرن الأموي بدأ العرب يتراجعون في انطلاقتهم أمام هؤلاء البربر الذين يرجع إليهم إحراز ، النجاح في إسبانيا ، ثم تلاهم الأتراك وبعدهم إخوانهم المغول وهكذا ، وبينما كان أوائل الفاتحين يستقرون ويتحضرون ، كانت هناك شعوب أخرى قادمة من الصحاري أو الجبال الفقيرة ، ليتعهدوا بانطلاقة جديدة للإسلام خارج الحدود ، حيث كانوا يحومون أحياناً قبل أن يستقروا بدورهم أو يتداخلوا في المدن .

وكانت الكلمة للعرب آنذاك . وتختلف فتوحاتهم حينما نقارنها ببشاعة فتوحات المغول وما يعاملون به البلدان الخاضعة لهم . ولم يكن الإسلام يفرض من حيث المبدأ إلا على الشعوب التي ليست من أهل الكتاب . ولم يكن اليهود والمسيحيون وحدهم وإنما أتباع ذرادوشت وبوذا وغيرهم أيضاً . ولعل هذا التسامح لدى الغازين يرجع إلى قلة عددهم ، مما كان يدفعهم إلى الحفاظ على الأمن والإستقرار بفرض الجزية على من يرفض دخول الإسلام . وكان ذلك يسمح للفرد بممارسة الدين الذي يتبعه ويعطيه الحق ـ من الناحية القانونية ـ في المثول أمام رئيس عشيرته سواء كان قسيساً أو حاخاماً .

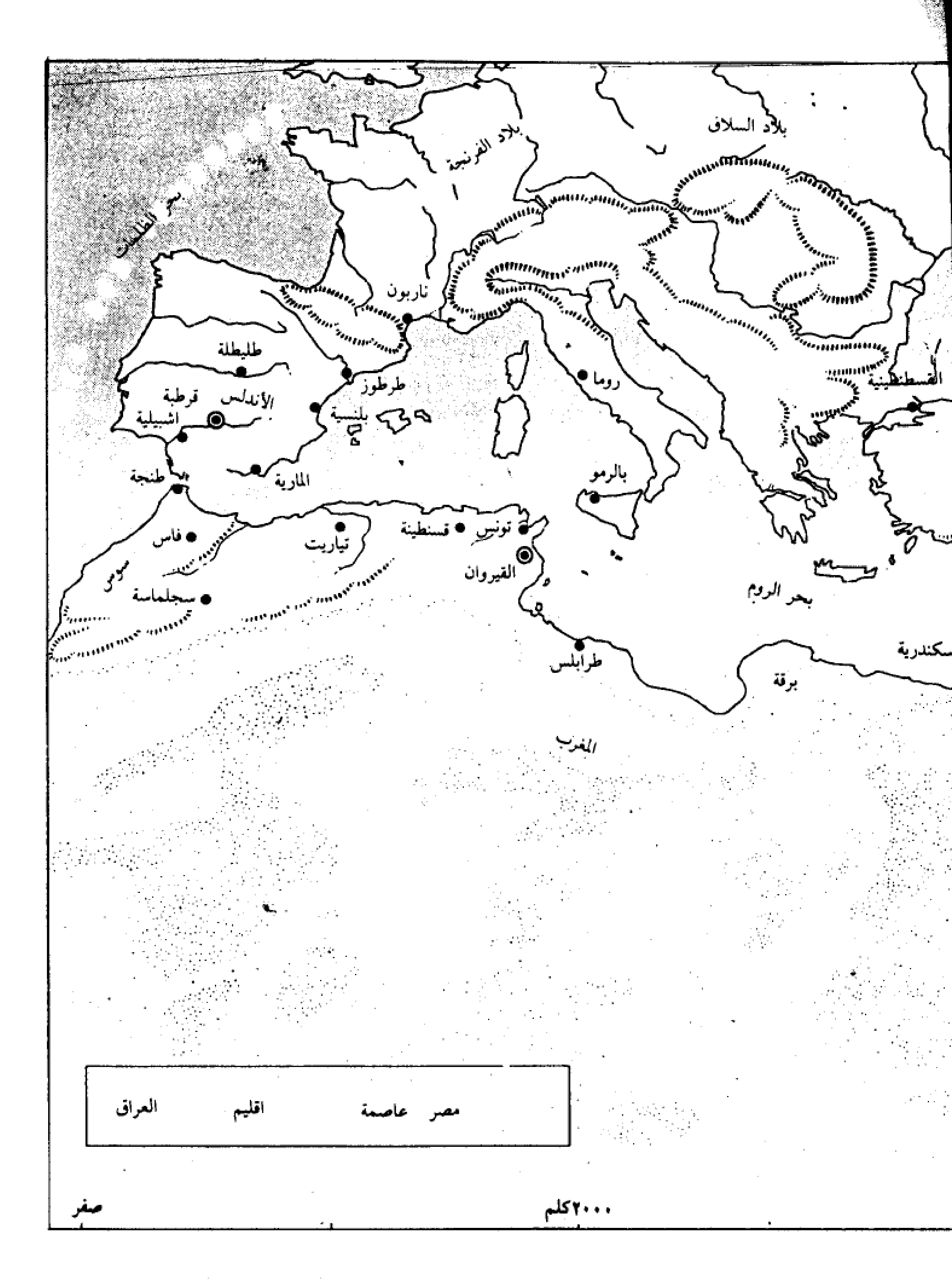
كما أن الاحتلال لم يأت بتغيرات تذكر في الحياة الحضرية ، على الأقل في أوائل أيامه .

فعلى أسوأ الفروض كان الريفيون يرون تغير رؤسائهم، أما الحرفيون والعاملون في المؤسسات الأخرى فيبدو ، من الأشكال التي نراها في العصر العباسي ، أنهم اجتازوا فترة الفتوحات بلا أزمات تذكر ، حيث أن الدولة الإسلامية راحت تحل محل الدول البيزنطية أو الساسانية بشكل طبيعي .

أما ظاهرة استقرار جماعات العرب المهاجرين من شبه الجزيرة فكانت أكثر



الخريطة ٥ ـ المراكز الأرضية الكبرى للعالم الاسلامي في



هد العباسيين (وفقا للجغرافي المقدسي ـ القرن العاشر) .

أهمية وجديدة كظاهرة . إذ أن مسافات السير الطويلة التي يقودها خط الفتوحات وسهولة الاستقرار والمنافسات التي تغرق فيها بينهم تساعد على ذلك . فقد حملوا معهم عاداتهم والخلافات القديمة التي بينهم كعرب ، سكان الشمال والجنوب أبناء عدنان أو قحطان (لوحة ٨ ، أ ، ب) ، إلى السماء البعيدة في خراسان أو في إسبانيا . كما أدت الصراعات الجديدة الناجمة عن خلافة الرسول ، إلى اندلاع الاختلافات التي لا نهاية لها . مما جعل كل مقاطعة تتحول إلى وكر للدسائس والصراعات فور تراخي السلطة المركزية . كما امتد عدم الاستقرار السياسي ، الذي يعد من المعالم الأساسية للجزيرة العربية ، إلى كافة أنحاء الإمبراطورية .

إلا أنه في نفس الوقت ، وكنوع من التعويض ، كان نفس هؤلاء العرب يعطون للإمبراطورية وحدة أكبر . إذ أخذت لغتهم تنتشر تدريجياً رغم الصراعات التي بين البلاد أو المدن أو حتى بعض الأحياء فيها . وبدأت اللغة العربية تتبلور أساساً على الحدود الصحراوية : في الهلال الخصيب ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، حتى الأماكن الجبلية أو المنزرعة . فهناك ستقاوم بعض الكلمات أو الاصطلاحات وكأنها تتشبث بالأرض أو بالتراث . وذلك مثل اللهجة الإيرانية أو البربرية ، وأقل منهما اللغة القبطية في مصر المنبسطة . وحتى بخلاف المجالات الخاصة ، فهناك الجماعات الصغيرة التي راحت تنشر لغة عربية متوسطة ، بها الكثير من اللهجات المحلية لكنها كانت أداة رائعة للتبادل التجاري . كما كانت هناك لغة عربية أكثر تهذباً وعلمانية ، هي اللغة العربية الفصحى التي ستعطي للثقافة العباسية أهم معالم وحدتها . ومن علامات الزمن أن اللغات الإستعمارية القديمة ستندثر ، مثل اليونانية في البحر الأبيض الشرقي ، واللاتينية في شمال أفريقيا .

وإذا كان انتشار اللغة العربية من أهم معالم هذه الإمبراطورية الشابة ، فإن العمليات التجارية الكبرى هي أجمل ما حصل عليه الإسلام من ميراث . فلقد حصل على هذا الميراث وزاده قيمة بأن قدم له أرضاً واسعة . وألغى الحدود السياسية والاقتصادية التي كانت تفصل العالم البيزنطي والساساني ، كما فتحت للمواصلات الدولية جزءاً من الغرب البربري . أما فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية الدينية ، فإن الإسلام قد تخطى حقيقة ما كانت جزيرة العرب الوثنية تمنحه من

ضمان للتاجر الكبير ، بأنها أصبحت تحميه رسمياً وتعده بمكان في الجنة إذا كان من العادلين .

وهنا يأتي دور العملة ، الأداة التي لا بد منها في مجال التبادل التجاري . لقد وضع الخليفة عبد الملك (٦٥ /٦٨٥ ـ ٨٦ /٧٠٥) . خامس الخلفاء الأمويين ، نهاية لحكم الأجنبي . ذلك بنجاحه هنا أيضاً ، في الربط بين التراث والتجديد . لقد تراجع الفلس الذهبي البيزنطي والدراخمة الفضية الساسانية ، وتحولت هذه العملة القديمة بعد الفتح لتصبح الدينار والدرهم . وإذا كانت الأسماء تحمل بعض الذكرى من التسميات القديمة ، فإن الكتابة عليها أصبحت باللغة العربية كما أصبحت لها معايير جديدة : ٢,٩٧ جرام للدرهم و٤,٢٥ جرام للدينار . ومن المعروف أن الفضة كانت تمثل العشر بالنسبة للذهب وهي عملات قوية ، إذ صكت للدينار آنذاك سندات بقيمة ٩٦ أو ٩٨٪ والأكثر من ذلك أنها كانت عملات واقعية فدون الإخلال بالعادات القديمة أعطتها معنى جديداً ، فقد أنهى الدينار والدرهم الإسلاميان الإزدواجية المتنافسة للعملات القديمة .

ومثل العملات ، فإن المنتجات والطرق تأقلمت مع الظروف الناجمة عن الفتح ، ولم تتغير جذريا . ورغم عدم معرفتنا الكاملة لهذه الفترة ، فيمكن افتراض أن المراكز الحرفية القديمة أو المراكز الزراعية قد استمرت في تراثها : الأقمشة والبردى والقمح من مصر ، والأسلحة والبقول والزيوت من سوريا ، والأقمشة الفخمة واللؤلؤ من فارس . وقلما تغير مسار الطرق التجارية نتيجة للفتح ، فيما عدا الزيوت من شمال سوريا القريبة من مسرح العمليات العسكرية في آسيا الصغرى ، أو القمح المصري ، فقد تم تغيير مسارها من القسطنطينية إلى مدن الحجاز ولصالحها بالطبع . وفي معظم الأحيان كان مسار هذه الطرق يتم تعديله ليفي بحاجات المدن التي انتزعها الإسلام من الأراضي الصحراوية أو قام بتوسيعها مثل : القيروان ، والفسطاط ـ القاهرة في المستقبل ـ والبصرة والكوفة في العراق وخاصة دمشق العاصمة .

استمرار في الأرض ، واستمرار في البحر ، لكن هنا مع بعض التعديلات والتغيرات حينما ننتقل من المحيط الهندي إلى البحر الأبيض المتوسط . ففي الشرق ، ظلت التجارة أساساً من شأن المشاة . ولا يمكن للخليج الفارسي أن

يقارن بطريق القوافل القديم في آسيا الوسطى ، التي سيطر عليها الفاتحون . ولن يولد سندباد البحار إلا بعد ذلك بكثير ، عند إنشاء العواصم الضخمة في العراق العباسي ، بغداد وسامراء إما في الغرب ، فلا شك أن أهمية البحر أكبر . ومرة أخرى فرض البحر الأبيض المتوسط نفسه على من يحتك به . إذ وجد العرب هنا ،على الأقل لفترة ما ، ذخر غابات لبنان وطوروس، ومستودعات الأسلحة السورية والمصرية ، والتراث البحري للشعوب القديمة النهرية . وتولدت مواهب بحرية لدى العرب ، مثل بصر ابن أبي ارطاة المولود في مكة بحوالي عشرة أعوام قبل الهجرة ، وهو الذي غزا مع غيره ، كلا من سوريا ومصر ، ثم عين حاكما على الحجاز والعراق الجنوبي ، ثم عاد إلى البحرية قائدا لوحداتها التي وصلت إلى جدران القسطنطينية .

ومع ذلك فإن هذه الغزوات المذهلة والمتكررة ، تظل مؤقتة ، مثل احتلال الجزر : فدون التحدث عن كريت ، فإن قبرص القريبة جدا ، لن تفلت أبدا من السيطرة البيزنطية . فما أن تمر صدمة المفاجأة حتى تعود القسطنطينية ، ومعها فينيسيا فيما بعد ، إلى المحافظة على تواجدها في البحر المتوسط الشرقي ، ومعها الموانىء السورية والمصرية وعلى رأسها الإسكندرية ،إذ سيرتبطون في عمليات سلب أو تبادل ـ وعلى الأقلّ تبادل بعض الأسرى . أما على المدى الطويل ، فلقد اعتادت البحرية الإسلامية هذه المواجهات ، مما سيكسبها خبرة واسعة ستعوضها في الغرب عن الجهود المبذولة .

فإذا كان مكتوبا على البحر الأبيض المتوسط الشرقي ألا يصبح بحيرة إسلامية ، فقد عرف الإسلام ، على الأقل ، كيف ينقل إلى الغرب الأساليب الفنية التي تعلمها في الموانىء الشرقية . فقد نقل عام ٧٥ / ٦٩٤ بعض العائلات القبطية لتتولى أعمال الترسانة الجديدة . وقد ساعد ذلك على فتح مالطة ثم صقلية ، لؤلؤة الإسلام المقبلة في البحر الأبيض .

أجهزة الدولة .

ما إن أقيمت الإمبراطورية بالفتح حتى بدأت تقر سيطرتها . ويوجد خليفة النبي والسيد الأوحد في قمة التكوين الهرمي . وبدأت بساطة عهد الإسلام الأول

تنمحي تدريجياً . ورأت دمشق مولد البلاط الفاخر ، الذي بدأت تظهر تحت رسمياته البراقة ، بوادر ملامح الملكية الشرقية وبدأت السلطة تنزل تدريجياً حتى الضيعات من كافة أنحاء الإمبراطورية . وكانت الدعامة الأساسية لانتقال السلطة هو حاكم المقاطعة ، ممثل إحدى العائلات العربية الكبرى . وقد تولى مهامه عن طريق دمشق مباشرة ، التي تمنحه سلطة تقديرية عندما يظهر أهليته لهذه الثقة . وقد احتفظ بمثل هذا النوع من الخادم الصارم للسلطة في شخص الحجاج ، حاكم العراق الشهير . فقد أقام الكثير من المدن ، وهو قائد كبير ومشرع لا يهدأ ومنظم للثورات . وفي عام ٧٥ / ٦٩٤ ، وصل بمفرده تقريبا إلى مسجد الكوفة ، وكان مليئا بالمشاغبين ، فرفع عمامته صارخا : « إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها : وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى يا أهل العراق ، يشهد الله أني لست من أولئك المندفعين ، إن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، قد أفرغ كل ما في جعبته وجرب سهامه فلم يجد بينها سهما أكثر مني حدة ومرارة » .

إن مثل هذا التصلب في الرأي ، وهذا الوفاء ، ومثل هذه الشراسة أيضاً عادة ما تأتي بثمار لا يتوقعها المرء : وصمدت الإمبراطورية رغم منافسات العشائر والطوائف والمقاطعات وأيا كان الأمر ، فهنا أيضاً حاولت إدارة الفاتحين إلا تغير العادات القائمة بشكل جذري ، وركبت الأنظمة القائمة ـ على الأقل في أول عهدها ـ فاحتفظت باللغات الفارسية واليونانية والقبطية وأحيانا احتفظت بنفس الدواوين ، بينما راحت تتوسطها وزارة العدل والجيش والضرائب التي نراها أيضاً في مستوى المقاطعات .

وأخذ الجيش يتطور بصفة خاصة ، إذ كان عمر قد أكثر من مؤسساته : فلم يمس التسليح إلا بشكل ضئيل لكنه اهتم بتكوينه وتشكيله ، وذلك بخلاف معدات الحصار . فإذا كان التصور وفقا لما هو محفوظ في السجلات ـ يجعلنا نتخيل تشكيلا عربياً بحتا قائماً على القبائل وإن العرب يكونون الغالبية العظمى لهذه التشكيلات ، فلم يكن ذلك في الواقع إلا من مميزات الخطوط الخلفية أكثر منه مسرح العمليات .

فهنا كان الغزاة يتعارضون مع الموالين لهم ، المسلمين من غير العرب ، أو

ممن على الحدود من غير المسلمين والذين كانت تجتذبهم الإعفاءات الضريبية والمصالح الحربية المباشرة فالإيرانيون والأرمن والبربر يحلون محل المتطوعين من أهل القبائل الذين بدأوا يقلون . ومن المعروف أن البربر كانوا يشكلون أغلبية الفرق التي غزت اسبانيا . وهكذا بدأت تتحدد معالم الجندي المرتزقة الأجنبي الذي سيحل محل العرب ثم سيطردهم مع عائلاتهم وملحقاتهم إلى مدن المعسكرات بمصر أو بالعراق ، حيث ارتقى جنود سوريا وفلسطين تدريجيا إلى الحياة المدنية .

أما فيما يتعلق بقضايا الضرائب ، فإن النظرية الإسلامية تميز ، مثل نظريتنا ، بين المساهمة والضريبة . فالمسلم غير مرتبط ، عقائديا ، إلا بالنوع الأول في شكل الزكاة (أو الصدقة) ، التي هي أحد أركان الدين الخمس كما سبق إن قلنا وهي تحدد بالعشر ، سواء كان عائداً أو عقاريا أو خلافه . وغير المسلمين ، الذميين ، يدفعون الضريبة العقارية واسمها الخراج ، والجزية وهي ما تسمح لهم بحرية اتباع ديانتهم الأصلية .

ونظريا ، كما نرى ، فهناك نوعية من الممتلكات لا تخضع للضرائب وهي العوائد العقارية لغير المسلمين . ودولة الإسلام التي لا يمكنها إغفال هذا النقص ، اضطرت إلى الأخذ بنظرية تزعم أنها في صالح التجارة في حين أنها تمثل : ضرائب مختلفة على رأس المال التجاري ، وحق التأجير ، والحماية وأخيرا رسم دخول ورسم مرور وجمارك . وكانوا يوقعونها على البضائع بصرف النظر عن ديانة صاحبها . ولم تكن تؤخذ هذه الضرائب عند حدود الإمبراطورية فحسب وإنما في الداخل أيضاً ، ومن مقاطعة إلى أخرى ، ومن مدينة إلى أخرى . وكأنهم يعبرون عمليا عن مجتمع أرادوه متماسكا إلا أنه في الواقع كان يعاني أنانيات الإنقسامات الداخلية لهذه الأمة .

وهكذا ، اضطرت دولة الإسلام إلى الأخذ بمعطيات الواقع والتراث وخاصة النظام الضريبي للأنظمة التي سبقتها . ولم تكن الضريبة العقارية والعشرية والجزية من المفاجآت لسكان بيزنطة وطيسفون القدماء . ونفس الشيء بالنسبة لعمليات التحصيل التي تقسم عشوائياً وفقا للمواقع المحلية بين الأساليب الصارمة والإدارة المباشرة . ولا شك أنه يمكننا ملاحظة نوع من التطور الضريبي

في العمليات التجارية بالنسبة للإمبراطوريات السابقة ، نوعا من تعقد قضايا الضرائب بصفة عامة . وليس ذلك بجديد تحت شمس الشرق ، وإنما تأكيدا للإتجاه القائل ، في العصور القديمة ، إن مصر تعد من بلدان « جنة الضرائب » .

إلا أن هناك شيئاً مؤكداً ، هو أن التجارة الآسيوية والمارة بالبحر الأبيض ـ ذلك الطريق القديم لدفع رسم الدخول ورسم المرور ـ لم تعد تعاني من موقف يعوضها عن مساوىء الضرائب المتعددة بخلق إمبراطورية ضخمة ، وإنما أصبحت تنعم بموقعها عند مفترق الطرق العالمية . أما المصاعب الحقيقية للضرائب فسوف تنجم عن الأرض ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، والتي تمثل ملكيتها والحقوق والإلتزامات المتعلقة بها عدة مشاكل متداخلة من موارد الدولة ، ودعائم لتموين جيشها وأسس الأمة الإسلامية الجديدة .

روائع سورية .

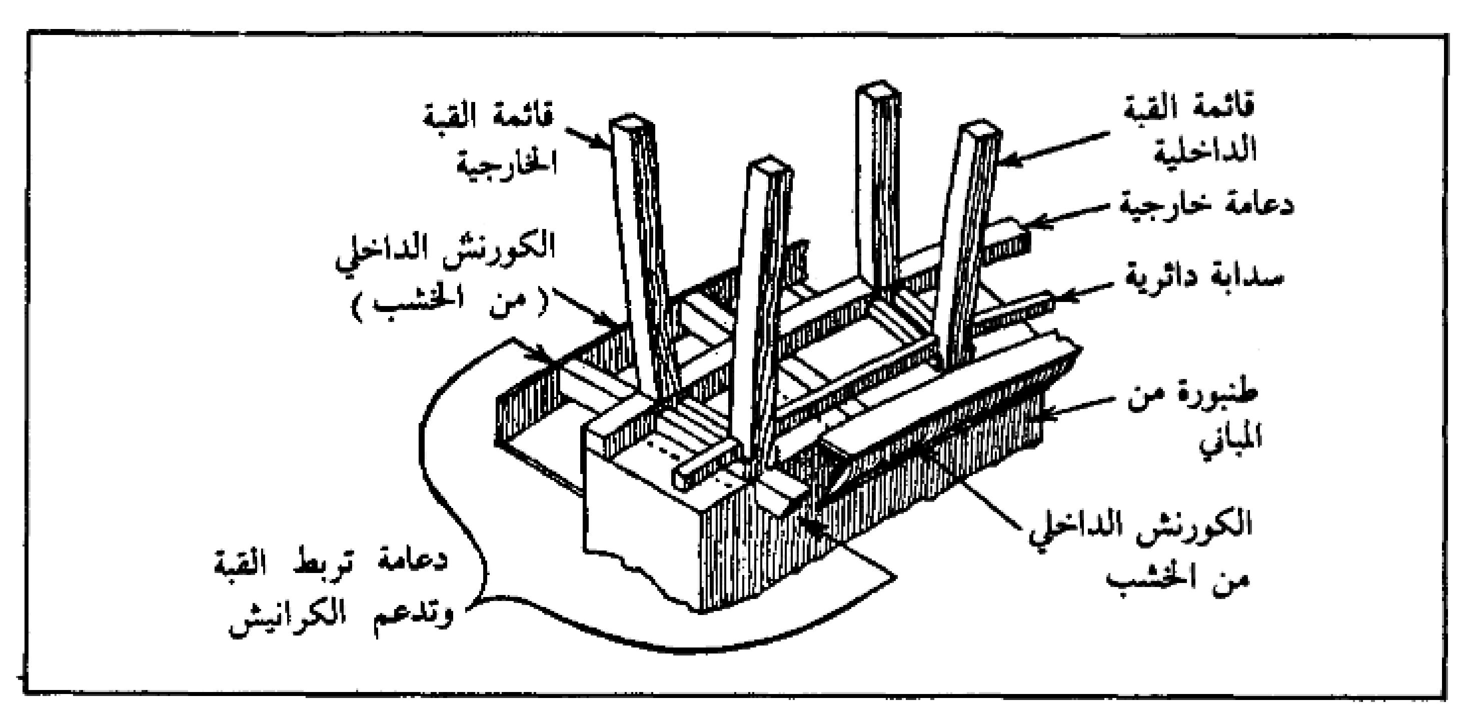
المدن هي أجمل جواهر القرون الوسطى الإسلامية . وتأسيس هذه المدن من الأعمال الأساسية لهذا التاريخ . إذ كان يتطلب إقامتها نوع من التصور المثالي للحياة الجماعية التي يلعب فيها المسجد والمنبر أدوارا رئيسية بالإضافة إلى ضرورة السيطرة على البلد الذي تم فتحه والإهتمام بالمجد . وكان الإسلام يفضل إقامتها ـ كما رأينا ـ عند تخوم الصحارى بعيدا عن البحر الذي لم تتم السيطرة عليه ـ حتى وإن كانت تونس الجديدة تشير إلى طرق التوسعات المقبلة في هذا المجال . وهناك على الأقل خمس مدن عرفت ازدهارها ومجدها أيام الخلافة الأموية ومنها : القيروان (٥٠ / ٦٧٠) ، الفسطاط ، القاهرة المقبلة (٢٢ /٦٤٣) ، البصرة والكوفة ، من مدن منطقة الفرات الوسطى والجنوبية (١٧ /٦٣٨) ، وأخيرا واسط ، التي أقيمت في منتصف الطريق للسيطرة على شقيقتيها العراقيتين . وكلها تحمل نفس الطابع : مدن ـ معسكرات ، مخصصة لوقوف القوات ، وتجتمع القبائل في أحيائها ، ومدن عربية ، على الأقل في البداية ، منعزلة وممنوعة وكأنها في وسط معاد ، وأخيرا مدن مبنية في معظم الأحيان على حافة مدن أقدم منها أو كبديل لها وتنقل إليها مهامها قبل أن تحل محلها مدن أخرى مكانها أو بعيدا عنها .

إن مؤسسات العراق ، التي ولدت نتيجة للفتح ثم رغبة في السلام ، كانت

أسرعها إلى التدهور ، ما عدا البصرة التي ستنقذها التجارة الكبرى للخليج الفارسي .

والفسطاط التي بنيت بدلا من مدينة بابليون المصرية ، ستغطي عليها القاهرة الفاطمية . أخيرا مدينة القيروان ، برج الصحراء ، ستحاط بعدة مدن حولها ، وخاصة من ناحية البحر الذي يمتد إليه مصير تونس ، كانت عبارة عن ضيعات للأمراء ، وقد أقيم على الأقل خمس مدن فيها بين عامي ٨٠٠ و ٩٥٠ ، ستصبح بدورها نواة لمدن أخرى ترتبط أحيانا بالمدينة الأم لكنها ، على أي حال ، ستسلبها دور العاصمة وسكانها وصناعاتها .

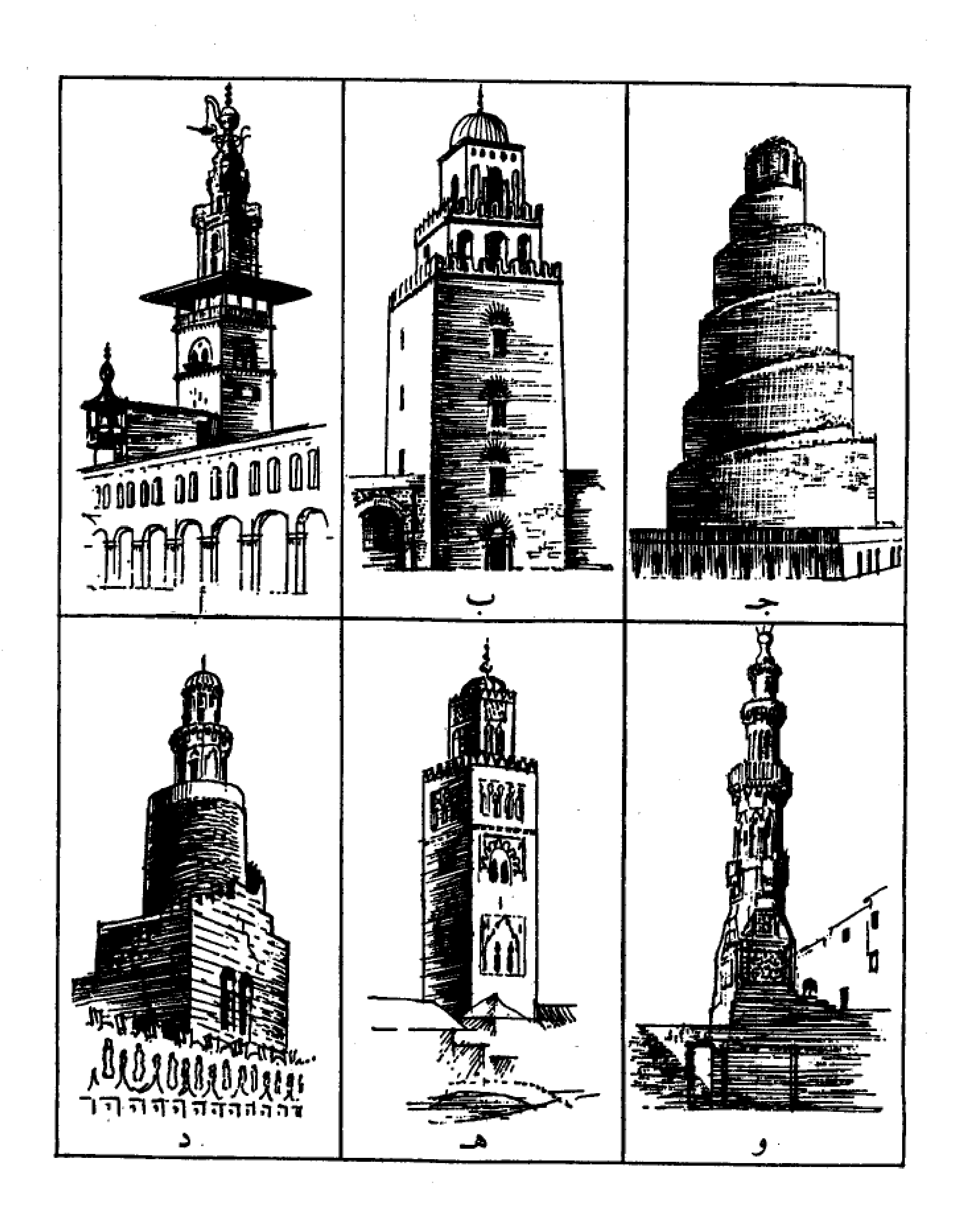
ومن معالم القرون الوسطى العربية ، المدينة التي تبدو دائما في أبهى صورها مع الموقع الذي يحيط بها . ومدينة دمشق العاصمة وحدها هي التي لم تعرف هذه التحولات وذلك بفضل المدينة القديمة وتوسيعها . ويعلم الله أنه ما كان عليها أن تشكو من أسيادها الجدد : فهناك ، ومنذ القرن الأول للإسلام تأكدت إحدى موهباته الأساسية وهي : إدماج فنونه ـ وازدهر بفضل الأعمال الهندسية التي أنجزها مهندسوه ومزخرفوه وفقا لاحتياجات الأمة الجديدة . إذا أن قرن الأمويين موضوع تحت علامة المسجد (لوحة ٨ ، جـ ، ع) وكل من القيروان والفسطاط والقدس والمدينة والبصرة والكوفة سيكون لها مساجدها ، لكن دمشق خاصة (شكل ٨٠) ، أقام فيها الخليفة السادس للأمويين ، الوليد ، النموذج المثالي لهذا النوع من العمارة . وهنا ، يمكننا متابعة طريق التطور الذي حدث منذ النموذج البدائي الأول ، المرسوم على الأرض ، والذي كان أحيانا يحاط بسور من البوص وأحيانا أخرى كان يسقف بسعف النخيل . ولا شك أن الإسلام قد استعان في النماذج الأولى الكبرى التي نجح فيها بالآثار القائمة في بيزنطة وأيضاً في فارس ، أما فيما يتعلق بقبة الصخرة (مسجد عمر) بالقدس فقد « استخدم الفسيفساء الخاص ببيزنطة في نفس الأشكال الساسانية » . وحتى إذا لم يحتفظ إلا بالهيكل الداخلي ، كما في دمشق ، فإن ما يشيد من مبان جديدة يقوم بها حرفيون محليون أو أجانب ، بنفس أساليبهم وعاداتهم ومنها تكسية الجدران بالفسيفساء أو بالرخام (لوحة ٢) ، والقباب (شكل ١٠) ، والقبوات ، وأجنحة الكنائس ستدخل عهدا جديدا مع الإسلام . ونفس الترتيب الإجمالي للمسجد والإستخدام الذي يتم به وخاصة يوم الجمعة أثناء الصلاة الجماعية وخطبة الخليفة ، ترينا أن



(شكل ١٠ تكنيك الهندسة المعمارية أيام الأمويين . قبة الصخرة ، القدس .)

المسلمين لم يقطعوا الروابط تماما بالتراث الشرقي الذي كان يجعل المعبد وطقوسه امتداداً للجلسات البلاطية .

ومع ذلك ، فلا يمكننا أن نخطىء ، فالأمر يتعلق بزاوية إسلامية وليس بشيء آخر ، والمحراب الذي يشير إلى اتجاه مكة وبالتالي يشير إلى الإتجاه الجديد للمبنى موجود ليذكر بذلك مثله مثل حنفيات الفناء الخاصة بالوضوء الشعائري أما الزخرفة ، سواء كانت نباتية أو خطية ، هندسية أو معمارية ، فإنها تشير إلى حساسية الإسلام تجاه التشكيل التشخيصي مثل حملة الإغلال عند الوثنيين . وأخيرا فإن المآذن بالمؤذنين الذين يرتادونها فربما كانوا أكثر العلامات المميزة لأي منظر إسلامي (شكل ١١ ولوحة ٩ ـ ١٠و ١٨ ـ ١٩) . فلنتخيل ، افتراضا ، المأذنة المربعة الشكل بقاعاتها ونوافذها وأدوارها في مساجد سوريا والبحر الأبيض المتوسط ونقارنها بمثيلاتها من المآذن في الشرق سواء كانت مستديرة أو متعددة الأضلاع ، صماء أو من قطعة واحدة ، ونتخيل بلدان الحضارات القديمة وأبراجها أو أبراج الكنائس أو الفنارات أو مجرد شكل زخرفي مماثل والذي قد تنسى غايته البدائية مع الوقت إلا أن الإسلام قد ترك بصمته الفريدة التي تحدد استخدامه الجديد أو يغطي على استخدامه السابق . وهذا نراه في الأذان ، في ذلك الصوت الآدمي الذي ينطلق إلى عنان السماء معبرا عن الثلاثة رموز في آن واحد وهي المكان والزمان وعقيدة المسلمين .



(شكل ١١ : بعض أشكال من المآذن : أ) دمشق ، من القرن الثامن إلى الثاني عشر ، ب)القيروان، من القرن الثامن إلى التاسع ، جـ) سامراء، القرن التاسع ، عـ) القاهرة ، القرن التاسع ، هـ) مراكش ، القرن الثاني عشر ، و) القاهرة القرن الخامس عشر .) .

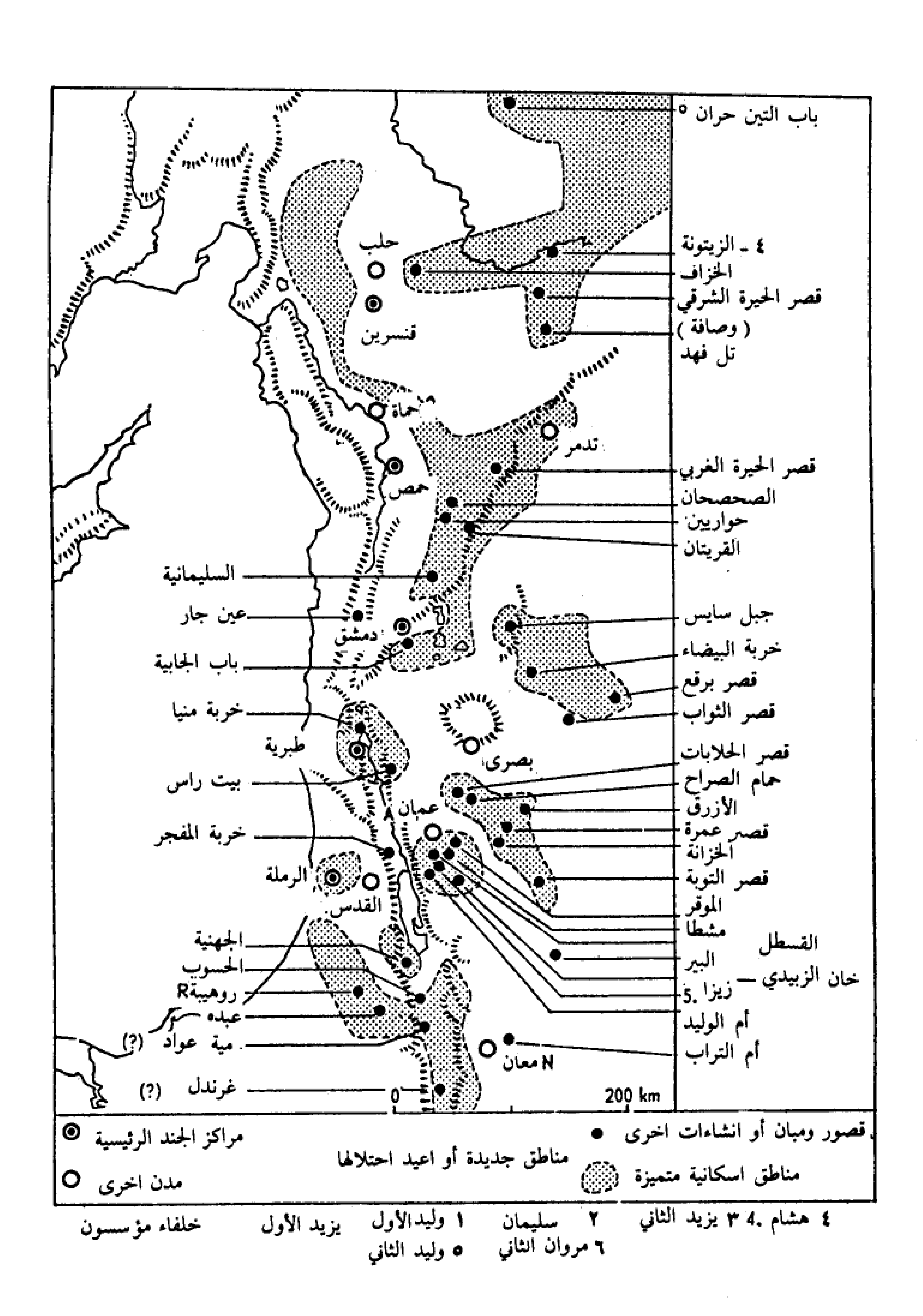
ولا يعتبر المسجد هو الشاهد الوحيد على حياة الإسلام الجديدة فقد ازدهرت القصور أيضاً في العصر الأموي فالخلفاء ، وخاصة الوليد ، وهشام ،

والوليد الثاني ، كانوا بناة لا يكلون . وقد أحاطوا دمشق بسور من القصور بلغ عددها عدة عشرات ، وكلها تجاه الصحراء أو الضفة الغربية أو تدمر وقصور الأمراء هذه من المباني الشاسعة التي يصعب إحصاء مفرداتها كمبان عقارية (خريطة ٦) ومعظمها أقيم على انقاض أثرية رومانية أو بيزنطية أو بعض القصور القديمة ، وتعبير « القسطل » يرمز إلى ماضيها . إن الخلفاء الأمويين كانوا أمناء بالنسبة لسياسة عثمان ، قريبهم البعيد والحاكم السابق لهم . وهم يعنون بالإستحواز على هذه الضيعات الكبيرة وضم أراض صحراوية جديدة إلى الجزء المنزرع وإقامة أفراد القبائل المهاجرة تنظيم مجموعة من الإقطاعيات الثابتة المتينة .

فكأن ذلك استمرار للأرض ، واستمرار للفنون ، إن الفن الإسلامي يجد في هذه المباني السابقة ما يمكنه الإستفادة منه ، بخلاف المساجد التي تفرض عليها الديانة الجديدة متطلبات زخرفية ومعمارية معينة . فالتماثيل والفرسك والفسيفساء التي بقيت من هذه القصور تشير ـ رغم ندرتها ـ على حرية تصرف الفنانين والمهندسين في المباني المدنية وما زخرفوها به من أشكال حيوانية أو آدمية . وربما قال البعض أن هذه الجدران كانت تحتوي على أحلام ساكنيها الجدد كما تحتوي على شاعرية حب الإنعزال الذي يعد المبرر الوحيد لإقامتها . إلا أن مباني البادية تظل سورية ، اقتصاديا وثقافيا قبل أن تكون إسلامية . وهذه المباني متداخلة في التاريخ ومتواصلة في التراث بحيث يصعب على المرء اعتبارها جزءاً من الإسلام (شكل ٨١ ـ ٨٤)

ولعل أكثر هذه القصور طموحا وأكثرها تعقيدا ، هو قصر مشطا (شكل ٨٢) ، وقد اندثر اليوم على بعد ٤٠ كيلو مترا من البحر الميت ، كما يعد أكثر هذه المباني غموضا .

وفي مثل هذا الإندماج الإجمالي ، لا بد من بعض التحفظات فيما يتعلق بمجال الأدب إذ أن قرن الأمويين في هذا المجال يلعب دورا انتقاليا بفضل ما يعطيه من أهمية للحياة المدنية ، والإهتمام المتزايد للذين دخلوا الإسلام بثقافاتهم العريقة . ومما لا شك فيه أن بوادر ما سيطلق عليه الأدب العباسي فيما بعد تمتد جذوره في آخر عقدين أو ثلاثة من خلافة دمشق . ذلك لا يمنع أن التقابل في هذا المجال كان أقل تلقائية والنضج أكثر بطئا وذلك يرجع إلى أن اللغة العربية والقيم التي يتضمنها تستفيد من الإنطلاقة التي تحملها . وإذا كان على القادمين أن يتعلموا



الخريطة ٦ ـ سوريا الاموية

الكثير في مجال الهندسة المعمارية فإن اللغة العربية وتعبيراتها سواء كانت دينية أو عامة ، تفرض نفسها وتستقر في ظل الإسلام وانتصاراته .

ولا بد من الإعتراف بأن وقت التلاقي والمواجهات والمنازعات لم يأت بعد فمثلما كانت الدولة الحديثة تترك لرعاياها استغلال أراضيهم . فإن الثقافة القادمة من شبه الجزيرة العربية كانت تسمح لهم بالتعبير عن إيمانهم وتراثهم . وهكذا راحت « الدول » تعيش جنبا إلى جنب بلا تداخل . ومما يلفت النظر إن مختلف الطوائف المسيحية الشرقية التي تشتهر باسم يوحنا الدمشقي ، كانت تقيم العلاقات أو تتصارع مع بيزنطة وليس مع الإسلام .

إن قرن الأمويين هو أساساً عصر ذلك التعبير البالغ للعبقرية العربية التي تتجلى في الشعر : الشعر القديم أو المتشبه به أولا ، والذي يرجع في تراثه إلى كبار شعراء تلك الفترة مثل أمرؤ القيس أو عنترة الذي سيصبح ، على مر الأيام ، الفارس الشهير في « رواية عنترة » وهذا الإتجاه يأخذ الموضوعات القديمة في التباهي أو العداء وينقلها إلى أواسط المدينة بعد أن يضفي عليها الألوان الجديدة أو التنويهات السياسية ، دون أن ننسى موضوعات الهجاء والحب . والمنشدون هنا هم ذو الرمة ، وجرير ، والفرذدق ، والأخطل . وكان الأخطل من قبيلة مسيحية وظل مخلصا لعقيدته . ويقف بجانبهم عمر بن أبي ربيعة ليقدم نوعا جديدا من الشعر ، مرادفا لحياة اجتماعية ومغامرات عاطفية نابعة من مدن الحجاز بمناسبة تجمع الحجاج . ومنه شعر الغزل حيث كانت المرأة تحتل مكانة عالية وغير مهانة كما سنرى فيما بعد في « شعر الرجال » أيام العباسيين ، حيث كانت تأخذ مكانة الجارية أو المحظية . أما هنا فالمرأة حرة في تصرفاتها وتقدر على الرد والرفض أحيانا ومن ينال قبولها فهو جدير بها . والدليل على مكانتها في ذلك القرن الأول للإسلام وخاصة في المدن المقدسة بجزيرة العرب ، حيث كانت ممارسة الثقافة تدعم الحركات التقليدية للتجارة والتبادل ، إن المرأة كعامل أساسي في المجتمع ، لم تكن قد عرفت بعد سلسلة الممنوعات التي فرضها عليها القانون فيما بعد وطالبها بالتزامها .

٢ ـ صعوبات واختلافات :

عدم استقرار الدولة .

مهما كبرت ومهما كانت قوة إمبراطورية الأمويين ، فإن الأزمات المتواصلة

كانت تشير إلى أن العرب حينما غادروا شبه الجزيرة العربية قد نقلوا معهم عاداتهم القبلية وعدم استقرارهم السياسي . وقد حاول بعض الخلفاء ، ومن بينهم معاوية وعبد الملك الإرتفاع بمصالح الأسرة الحاكمة على مصالح الحكومة ، وذلك بإبعاد الأقـارب لصالح ذريتهم المباشرة . ومع ذلك فقد ظلت الأغلبية المسلمة عاجزة عن تفريق الدولة والواقع . وإلا يروا في الأسرة شيئاً آخر غير نجاح الجماعة وهي بذلك قابلة للنزاع إلى ما لا نهاية . والمثل على ذلك الحجاج الذي نبذه التراث ـ على مستوى المقاطعة ـ لأنه كان يمثل سلطة وحيدة ، وازدراه خصومه المحليون ، إلا أنه كان سباقا على عصره .

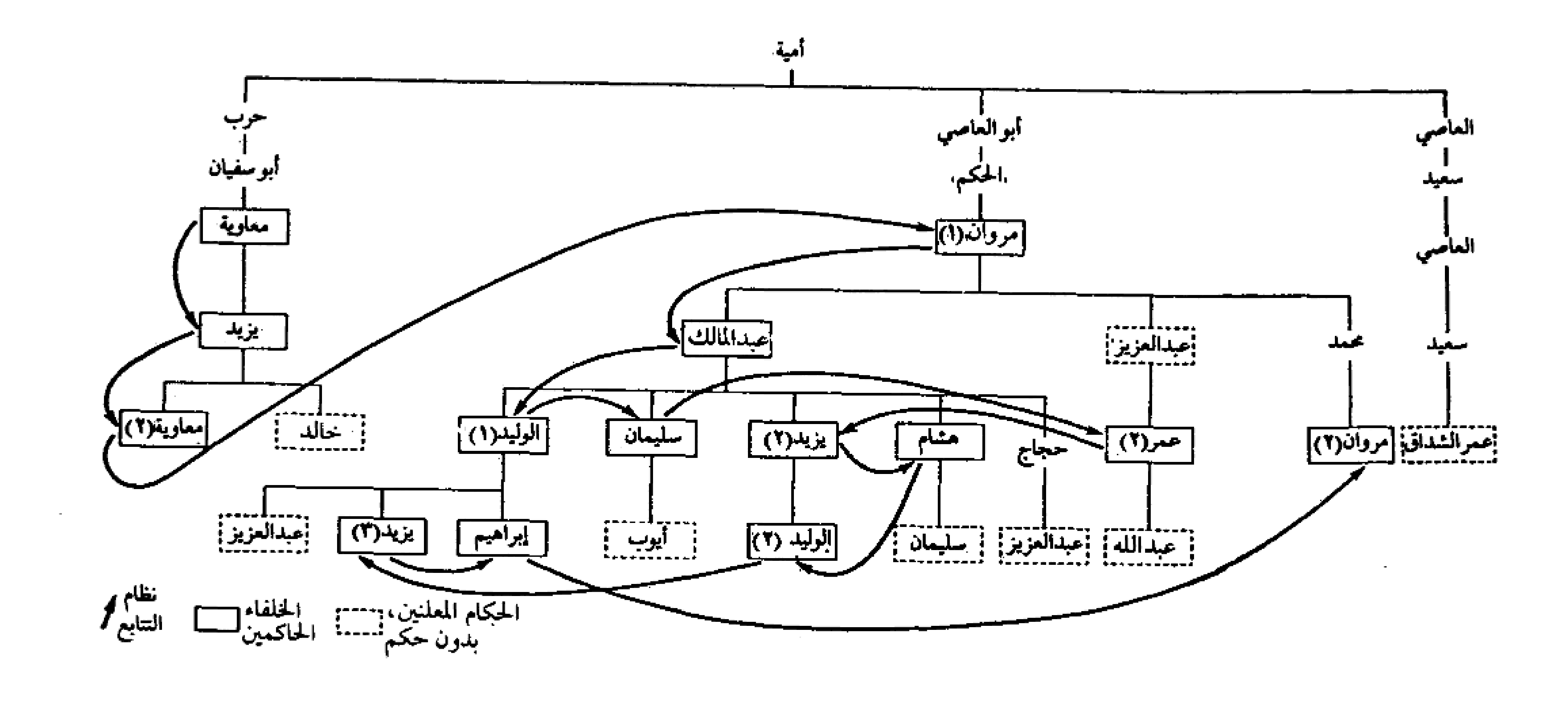
على أي حال ، هذا النزاع القبلي الأزلي لم يكن خارج عشيرة الأمويين فحسب . بل كان في قلبها أيضاً . إذ نرى نفس الشقاق بين ذرية معاوية وذرية الحاكم ، كما نراها عند نفس ذرية الحاكم بين الأبناء والأعمام والأخوان أو أبناء العم .

ولا شك في أن عدم الإستقرار الأساسي للقبائل قد تحول تدريجياً إلى خلافات سياسية وفقا للسلطة الحاكمة . وهذه الخـلافات السياسيـة هي التي أدت إلى المعارضات الدينية ، مما يفسر المواجهة التي حدثت في العراق الشيعية وسوريا المعتدلة ، والحركات المناهضة للأمويين في جزيرة العرب ومصر ، كما تفسر المنافسة القائمة بين المقاطعات مثل البصرة والكوفة في العراق ، التي سيعبر عنها الأدب الكلاسيكي ، والمنافسة القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب في سوريا ، والذي يطلقون عليه الآن القيسيين واليمنيين . وبينهما سيتخذ الخلفاء سياسة التأرجح بين الجانبين . أما أكثر الخلفاء مهارة ، مثل معاوية وعبد الملك . وعمر الثاني بن عبد العزيز ، فسوف ينجحون سواء بالقوة أو بالتحايل أو حتى بالتجاهل في الجمع بين ما لا يجمع . إذ أن هذه الخلافات السياسية قد انعكست في مجيء أربعة خلفاء في آخر سبعة أعوام من الحكم الأموي .

أزمات الضيعات والإدارة .

لقد حددنا النظرية الضريبية الإسلامية باختصار فيما سبق إلا أنها سرعان ما اصطدمت بالواقع . إذ أن دخول سكان البلدان المحتلة إلى الإسلام قد بدا أكثر

الأسرة الأموية وعدم ثبات مبدأ الأسرة



خطورة ، في نظر الدولة الإسلامية ، من احتفاظهم بعقيدتهم الأصلية . فإن هذه الشعوب بدخولها الإسلام ، كانت تتحرر من صفة الذمى ، وبذلك كانت الضرائب تفقد حصيلة الجزية من الأشخاص ، كما كانت تفقد في نفس الوقت فرق حصيلة الخراج عن الأراضي التي يمتلكونها من نسبة العشر ، وهي المساهمة الوحيدة المطلوبة من المسلمين . وإذا كانت الدولة لا تستطيع رفض خفض الجزية ، فقد سنت تشريعاً ينص على دفع ضريبة الخراج والعشر بصرف النظر عن ديانة أصحابها . وهكذا تم تحديد نوعيتين من المسلمين : العرب والآخرين ، الذين دخلوا الإسلام في مختلف القبائل الأخرى في صورة الموالين له . مما أدى إلى تفرقة بين الناس وإلى عدم عدالة في التوزيع الضريبي في ظل الإسلام القائم على العدل . كما أدى من جهة أخرى إلى الإحتجاجات والثورات والحركات المعادية للأمويين .

ونفس الخلافات نراها في الأراضي المملوكة للعرب . فإذا ما استثنينا الممتلكات الأصلية في شبه جزيرة العرب ، فذلك لا يعني نظريا ، إلا المجال العام . وفي وقت الحرب بالنسبة للإسلام ، فإن كل أرض تفقد مالكها بسبب الحرب بموت أصحابها أو بهروبهم ، تؤول إلى ملك الأمة التي تترك الإنتفاع بها كاقطاع في مجمل الضيعة لمن يشاء بشرط دفع ضريبة العشر . وغالبا ما يكون هؤلاء من سكان المدن ، فيقومون بتأجيرها بموجب عقد المزارعة .

ولم يكن هذا النظام أفضل أو أسوأ من غيره بالنسبة للفلاحين . فقد كان يقيم الإسلام في قلب التراث البيزنطي إلا أنه بالنسبة لنظام أرض الخراج فقد كان يضع الفلاح في اتصال مباشر مع بعض الإختلافات الإجتماعية . فإذا ما افترضنا جدلا أن المستحقات بموجب المزارعة كانت من نفس نوعية الخراج ، فإن مزارع أرض الخراج كان يمتاز بأنه يعمل لحساب نفسه .

إلا أن ذلك لم يكن يعني حرية الفلاح الخالدة . فإذا كان الخراج والمزارعة يتساويان في النقص بالنسبة لنظام ضريبة العشر ، التي كانت أفضل منها بكثير ، فإن هذا الإختلاف لم يكن محسوبا بنفس النسبة في الحالتين . ففيما يتعلق بالعدالة الإجتماعية فلا يمكن مقارنة مزارع أرض الخراج ، الذي كان ينتظم في دفع مستحقاته الضريبية ، بشاغل الأرض فعلا والذي كان يدفع نفس النسبة تقريبا

ولكن لصاحب الأرض . وصاحب الأرض لم يكن يدفع للضرائب إلا العشر . وهنا نرى عدم العدالة الصارخ والذي يسمح لصاحب الأرض بتحقيق المكاسب مما كان يدفعه له المزارع . وهكذا فإن نظام المزارعة الذي كان يرمي إلى خلق طبقة من ملاك الأرض ، أصبح أيضاً يضاعف من استغلال الأراضي بمضاعفة استغلال الرجال الذين يعملون عليها . أما فيما يتعلق بواقع الفلاح نفسه فكان عليه التزاماته المادية والمالية والتقنية بالإضافة إلى جهده . إلا أن هذا النظام ـ القائم في كل مكان تقريبا ـ كان يستبدل هذا التساوي بنوع من عدم التساوي في الحقوق يخلق خلافات اجتماعية وخلافات عنصرية .

كانت هذه الخلافات في المؤسسات . ورغم عدم شرعيتها أحيانا ـ حتى شكلا ـ فلم تكن هناك أية مبادىء إلا فيما هو افتراضي . فكم من أراضٍ ضمت أثناء وبعد الفتح ، في شكل اقطاع وتحولت إلى ممتلكات خاصة بكل بساطة . وما هو أسوأ من ذلك ، أنه في المناطق البعيدة أو التي يصعب الوصول إليها أو التي يصعب على الحكام السيطرة عليها ، فإن الأرستقراطيات المحلية كانت تستحوذ على الأراضي الخاصة بالمواطنين المتواضعين ـ وبلا أي تبرير قانوني ـ ثم تقوم باستغلالها باسم فرض الحماية . فكانوا يحولون أصحاب الأراضي الأصليين إلى أناس خاضعين لنظام المشاركة أو إلى انصاف عبيد اقتصاديا . مما أدى إلى خلق توترات جديدة وإلى نقص في دخل الضرائب .

من كل ما تقدم ، ورغم عدم معرفتنا بكل تفاصيل تلك الفترة إلا أننا سنصل إلى نتيجة عدم تأكيد حق ملكية الأراضي أو ضعف نظامها نظريا أو عمليا ـ حسب الظروف ، في احتلال أرض بلاد الإسلام . وهكذا فإن موقف الأرض مثقل بالأزمات المتعددة . أزمات عقارية وأزمات مالية ترجع إلى التفاوت في نوعية الدخل الضريبي القائم على الأرض ، وأزمات اجتماعية ، وأخيرا أزمات مؤسسات ، بما أن الدولة هي التي كانت المستخدم الأساسي لهذه الضريبة . والجيش هو أول هذه المؤسسات ، لأنه جزء حيوي من أجزاء القطاع العام . وكان يتهدده إقامة العرب على الأراضي المتنازل عنها ، وبنفس إمكانيات الهبات الأرضية وأنانية الملوك الذين يستغلون مبالغ خاصة قانوناً بالعمليات الحربية للأمة ويديرونها لحسابهم الخاص ، في مثل هذا الجيش الذي أصبح يعتمد على الرواتب

أكثر فأكثر ، فإن العرب ـ كما أشرنا من قبل بدأوا يبتعدون ليحل محلهم أشخاص راحوا يلعبون الأدوار الرئيسية وهم الذين دخلوا الإسلام حديثا أو من الغرباء والمرتزقة .

إن أخفاق مثل هذه الإنطلاقة الحربية التي كانت تساندها العقيدة ومصلحة الفاتحين بالإضافة إلى المقاومات الخارجية ، تفسر أن التوسع الذي حصل ابتداء من نهاية الخلافة الأموية ، أهم بالنسبة لآسيا الوسطى التي تبدو ـ بالنسبة لبيزنطة ـ وكأنها حصلت على محاباة أكبر . وهنا تقع منطقة الثغور غير الأكيدة والمتحركة . وكأنها أرض كتب عليها الضياع والإسترجاع أو المنازعة ، مثل تلك المدن القديمة ملاطية والبستان ومابنستر واطنة وطرسوس التي تغطيها من السلف المدن العواصم أمثال منبج وسروج وانطاكية .

أما الإدارة المدنية فلها مصاعب من نوع آخر . إن المنفذين ، على مستوى المكاتب ، كانوا ـ كما قلنا ـ من المحليين التابعين للتراث الذي خلفه البيزنطيون والساسانيون وللغات التي كانوا يستخدمونها مثل اليونانية والإيرانية والقبطية . والفتح لم يأت بجديد في التغييرات الفورية سوى في المناصب العليا لهذا الكيان . وكان عبد الملك أول من عمل على التعريب مثلما فعل بالنسبة للعملة . لكن ، ترى بأية نتائج ؟ بقدر ما يمكننا الحكم ، فإن هذه السياسة أتت بثمارها في البلدان التي بها شعوب عربية كبيرة مثل مصر والعراق وخاصة سوريا ، وأتت بثمار أقل في إيران وفي المناطق البعيدة . إذ لم يتيسر ادخال اللغة العربية في مكاتب خراسان إلا في نهاية خلافة الأمويين .

وهناك شيء مؤكد هو : أن تنظيم جهاز إداري موحد لغويا وذي فاعلية كان يفترض أن اللغة العربية انتشرت بحيث يمكن لمرتادي الإدارة أن ينجحوا في فهم ما يتلقون من أوامر وبحيث يمكن تعيين العدد الكافي من الموظفين الذين تحتاجهم الإدارة من بين الذين دخلوا الإسلام أو ممن في حمايته . إن تحقيق مثل هذا الترابط بين لغة مشتركة وإدارة متجانسة سيكون من أجمل انجازات الخلافة العباسية ، لكن فى هذه النقطة أيضاً ، فإن خلافة دمشق هي التي لها شرف تحديد سياسة المستقبل

ثقل المدن .

إن الخلفاء الأمويين ، جامعي التراث العربي كانوا يعدون للغة الإمبراطورية مستقبلاً باهراً رغم كل المصاعب ، فلقد شجعوا بدأب وانتظام جمع تراث شبه جزيرة العرب ، وهذه الوثائق التي تم جمعها ستؤدي إلى خلق جيل من المفكرين العرب ، وفي هذه الوثائق توجد نصوص وقراءات قرآنية وحديث وتاريخ ونصوص تشريعية ولغوية وخاصة دواوين من الشعر القديم ، إن النثر حتى الآن لم يكن سوى الخادم المطيع لتسجيل الحوار الشفهي ، ولم يكن يعنيه إلا سلامة الكتابة ، أما البحث عن الجمال اللغوي في هذا المجال فلن يظهر إلا في آخر أعوام هذه الخلافة ، عندما سيظهر في تاريخ ثقافة الإسلام تلك الشخصية الهامة التي هي شخصية الخطيب . أما رجل المكاتب غير العربي سواء كان ممن دخلوا الإسلام أو من الأشخاص المحميين ، فإن الكاتب (ولعل تعبير « المحرر » أسلم بالنسبة للغتنا الحديثة) سيعرف كيف يوفق بين دراية رائعة بلغة الأمة الجديدة وبين ميوله الأدبية . ومن هذا اللقاء الذي بدأته فترة الأمويين وستكثفه الخلافة العباسية سيخرج النثر العربي العظيم الرائع والذي يعد وسيلة تعبير عالمية ، فيها الإهتمام بالبحث ومحاولة تأقلم اللغة وفقا للحاجيات الجديدة .

إن ثقافة العرب في فترة الأمويين رغم ما بها من طابع بدوي ورحالة فقد كانت ثقافة حضرية في نفس الوقت ، فهذا التراث وتلك الأمثال التي راحوا يجمعونها من الصحراء كانت تقال في المدن ويعاد قولها وتدون هناك حتى الشعر نفسه وهو أكثر التعبيرات العربية عروبة فكان يتأرجح في بحثه عن الموضوعات متجها إلى أواسط المدن ، ونفس الشيء نراه في أسلوب حياة الفاتحين وما سببوه من قطع في مفهوم التعريب ، وإذا كان التعريب هو القاعدة العامة ، فقد كان ينظر إليه كمنبع لثقافة تهتم بالدفاع عن أصلها حيال التراث الأجنبي للبلدان التي تستقبلها إلا أن المحافظة على عدم ضياع تراث الصحراء لا يعني أن يعيش المرء على الطريقة البدوية . ومنذ هذه الفترة أدى تواجد عالم المدن وأذواقه إلى اعتبار البدوي كإنسان ثقيل الظل يقوم بدور إعطاء المعلومات ، أي أنه حامل لثقافة في طريقها إلى الزوال لكنه شخص لا يحتذى به .

دعنا من التخطيط في مجال أو في آخر . فاللغة العربية أيام الأمويين ظلت في

منتصف الطريق من مشارف الحضر . بين الصحراء التي يتغنون بها لكنهم تخطوها ، والمدينة المذهلة لكنها تثير الهيبة . والنماذج كثيرة ، مثل هشام في قصره الرصافة ، وسليمان في بلدته الصغيرة الرملة في فلسطين ، وعبد العزيز بن مروان في قصره في حلوان ، على بعد خطوات من الفسطاط لكنها في ضواحيها . وكأنه نوع من الريبة الكامنة التي تدفع بالخلفاء إلى الحياة خارج عاصمتهم ، وبالمحافظين بعيدا عن محافظتهم . فالمدينة منذ ذلك الوقت تبدو وكأنها أفضل وأسوأ شيء . بوتقة تصهر فيها الأمة الإسلامية المقبلة عبر احتكاكات الأجناس وكأنها قدور على استعداد للغليان دائما . فالحرائق والثورات تعتري تاريخ المدن وأولها دمشق .

كيف يمكننا قراءة هذه الأحداث ؟ إن التاريخ العربي التقليدي يرى فيها انتفاضات سياسية دينية ، لكن من المحتمل أيضاً ، أن تكون هذه الإنتفاضات قد تغذت بنفس الأسباب التي يولدها البؤس واليأس الآدمي . وفي الواقع ، ورغم قلة الوثائق ، فإن ذلك لا يمنعنا من اعتبار هذا التمركز في المدن ـ وكان كبيراً آنذاك وبالنسبة لتلك الفترة ـ وكأنه يأوي جزءاً كبيراً من العاطلين سواء كانوا بؤساء شحاذين ، أو من كبار رجال الدولة أو من كبار الملاك المقيمين في المدن ، والمحاطين ببعض الأقارب والمعارف والزبائن والخدم . إن إطعام مثل هذا الجمع له مشاكله خاصة وإذا كان الريف يخر تحت ثقل الضرائب . مما كان يدفع بعدد كبير من الفلاحين الضائعين إلى المدينة . ولا شك أن مثل هذا المنفى يشكل مخاوف الحاكمين بحث اضطر الخليفة عمر الثاني والحاكم الحجاج إلى منع الهجرة من الريف إلى المدينة . لكن دون جدوى فإن ما تبدؤه الضرائب تستكمله المصائب ، إن جفاف الريف والقحط الموسمي يزيد من ثقل المدن حيث كان التخزين والإستثمار يزيد من شبح الفقر الدائم . إلا أن العواصم الكبرى كانت تستثنى من مثل هذا الوضع كالحجاز والمدينة ومكة والطائف التي يصعب عليها مواجهة تزايد السكان سواء كانوا دائمين أو عابرين بسبب التوجه إلى الأراضي المقدسة للإسلام ومنذ أيام عمر ، الخليفة الثاني للرسول ، فإن الريف المحيط بهذه المدن لم يستطع مواجهة ايقاع الواقع . فكان لا بد من ترشيد مخزون القمح من مصر والبحث بسرعة عن موارد جديدة للمياه .

وذلك بالإضافة إلى الأمراض والأوبئة الموسمية ، وكان لها حدتها مثل

الطاعون القادم من الصين عام ٧٤٠ . إن النصوص العربية تصر على طاعون الخليل الذي ظهر على شكل خراريج عام ١٨ / ٦٣٩ ، سنة القحط القاسية ، والذي أودى بحياة ٢٥٠٠٠ شخص وهي ظاهرة أقدم من تلك التي وقعت أيام خلافة دمشق ، إلا أنه يبدو وكأن خلفية من الأوبئة ظلت طوال فترة الأمويين مما يفسر فترات الصمت ومعطيات التراث التحليلي العربي .

أما فيما يتعلق بالشعوب المصابة ، فإن النصوص لا تذكر ـ إلى جانب الأرقام الإجمالية للضحايا ـ سوى الأسماء الكبرى في التاريخ الإسلامي والتي فقدت آنذاك . وذلك لا يعني أن الداء لم يصب سوى المسلمين . بل على العكس يبدو من الإسم الذي أطلق على الداء عام ١٨ ، أنه اندلع وسط السكان المحليين وليس بين الفاتحين الذين كانوا ما زالوا في معسكراتهم مثل معسكر الجابية في جنوب دمشق . أي أن هذا الطاعون ناجم عن السكان الأصليين خاصة في سوريا وفلسطين . ورغم ذكر اسم مصر والعراق ، إلا أنهما قلما ظهرا في هذه النصوص .

تحدثنا فيما سبق عن خلفية وبائية . وهنا أيضاً فإن صمت المؤرخين له مغزاه . ليست ظاهرة عام ١٨ ـ في حد ذاتها ـ هي التي صورت لنا كشيء غريب ، ولكن طابعها المكثف الذي أدى ببعض القبائل إلى الإنسحاب حتى الحدود الصحراوية ، ودفع بالبعض الآخر إلى غزو مصر ودفع بأمة الإسلام لتتساءل عن أسباب غضب السماء . وفي كل هذا الحدث فإن ما شعروا به هو حدة المرض وليس طبيعته . فالإضافة إلى موقف مستوطن شبه طبيعي ، لا يقلل من انطلاقة الفتح . ولا شك أن هذا الوباء قد اكتسح جزءاً كبيراً من السكان المكدسين وسيء التغذية في المدن إلا أنه لا يقارن بذلك الطاعون الأسود الذي انتشر في القرن الرابع عشر .

إن هذا الطاعون قد عجل بانخفاض تعداد السكان الناجم عن الفارق الضخم بين الموارد والأفواه التي يجب إطعامها ، فراح يزيح من سكان وصل تعدادهم إلى أكثر من ٢٣ مليونا على حد قول ج . س راسل ، فيما يتعلق بإحصاء أمة الإسلام فيما بين القرن السابع والثامن (ما عدا إسبانيا) . ولعل فشل الأوبئة النسبي ـ مثل المجاعات ـ في فترة الأمويين ، يرجع إلى قلة عدد الرجال الذي نلاحظه في القرون الوسطى والذي يمثل في نفس الوقت سرا طبيعياً ضد نهم المرض .

فترة « الرجل نادر » إذن ! أن هذا القول صحيح على المستوى الإجمالي ويؤكده تزايد العبودية . ولعل من الأصح أن نقول فترة الرجل غير المعد جيدا ، وفترة عدم التوازن بين المدن والريف ، بدليل أن الأدب مليء بشخصيتي الكاتب والتاجر ، وهما شخصيتان أساسيتان في المدينة ، لكنه يفتقر إلى الفلاحين ، إلا حينما يدخلون التاريخ عن طريق الثورات وبدليل أيضاً احتلال العبيد لبعض الأراضي . وكلما نمت المدينة كلما زاد ثقلها على المقاطعات المجاورة لها والتي تفرغ من الرجال ، وكلما اعتمدت على صحة هذه الأرياف التي لا تكف عن ذبولها . إن هذا النقص الكامن أصلا ، على الأراضي التقليدية ، يزداد حينما يتعلق الأمر بالبحث عن سواعد للزراعة التوسعية . ومن الحالات الشهيرة ، جنوب العراق الذي كان عليه اطعام ثلاثة مدن إضافية على الأقل نمت خلال عدة اعقاد . أما بالنسبة للبصرة والكوفة وواسط فقد لجأوا إلى سياسة الري الساسانية في البطيحة ، تلك المستنقعات التي يصب فيها دجلة والفرات . هي مصاعب لا حصر لها مع الفلاحين ، وتوسع أصحاب الإمتياز ، وسلطان الحكام وخاصة الحجاج ، فكان لا بد من العمل سريعا على استدعاء الشعوب المستقطبة من السند مثل الغجر ، الذين قدموا مع جاموسهم ، وفي الجنوب أكثر ، عند شط العرب كان العبيد السود ، الزنوج اشقاء البؤس لعبيد الفلاحين ، وكلهم مكدسون لتنقية الأراضي المالحة . وكما نرى فإن للأرض أيضا مرتزقتها .

اختلافات الأمة .

إذا كانت الخلافة الأموية قد اسلمت الإمبراطورية إلى خلفائها العباسيين ، فإنهم تركوا لهم كما هائلا من السلبيات بسبب عدد المتآمرين والغاضبين والبؤساء ..

هل كان طموحا تجاه العدالة والحياة الأفضل ، لن يرجعوا عنه إلا للإعلان عن اللون الديني الذي اتخذوه بشكل طبيعي مدعين العودة إلى أصول الإسلام ضد الأمويين المتهمين بتزييفه . ودون التحدث عن موقف من كانوا في الحماية والذين يتعرضون إلى مضايقات بعض الحكام المتحمسين مثل يزيد الثاني الذي فرض على المسيحيين ارتداء زي معين كما حدد الشعائر الخارجية لعبادتهم . إلا أن الخوارج هم الذين أتوا على خلافة الأمويين إلى جانب مشاغبات الشيعة .

فالخوارج كانوا ثائرين علنا ـ على مر الأعوام ـ في البصرة وفي البطيحة وفارس وفي كيرمان . وقد تمكنوا من احتلال عمان وحضر موت واليمن وشواطىء الحجاز فيما بين أعوام ٦٥ ـ ٧٢ / ٦٨٤ ـ ٦٩٢ ، ثم قاموا بثورة جديدة عام ١٣٠ / ٧٤٧ استولوا خلالها على مكة . وفي عام ٧٦ / ٦٩٦ اتجهوا إلى شمال ما بين النهرين ، ذارين الرعب في العراق ، كما اعتقلوا الحجاج فترة ما وكان بدء الفشل . وعندما انهزموا عادوا أدراجهم من نفس الطريق عام ١٢٧ / ٧٤٥ . وأخيرا تمت السيطرة عليهم في كل مكان ، إلا أنهم كانوا يتركون سجلا بأسماء الشهداء ومجموعة صغيرة من جماعاتهم ، ومنهم الصفريين والأزارقة والعبيديين الذين سيلعبون دوراً لا يستهان به في شمال أفريقيا كما سنرى .

إلا أن النصر سيكتب للشيعة : الإنتصار في الثورات وفي سقوط أكبر عدد من الشهداء وبذلك احتلت الآلام مكانها نهائيا في الإسلام . وكان أكبر الشهداء هو الحسين ، الإبن الثاني لعليّ . ووفقا لأهل الكوفة ، فقد حاول السيطرة على الحكم ، وفي عام ٦١ / ٦٨٠ ، أيام خلافة يزيد الأول ، عدو الشيعة اللدود انهزم الحسين في كربلاء ، دفنوا جثته هناك ، بلا رأس ، على بعد خطوات من النجف حيث يرقد والده . وبهذين القبرين تصبح هذه المنطقة من أكبر أماكن الشيعة . كما استشهد زيد أيضاً ، وهو أحد أبناء الحسين ، حين قتل في الكوفة عام ١٢٢ / ٧٤٠ ، حيث اضطهدوه إلى ما بعد الموت . فقد نشأ مذهب الزيدية من ملحمة ما لاقاه من عذاب ، بدمائه وأسمه وجثمانه الذي أخرجوه وقطعوا أطرافه ثم عرضوه في الميدان وأرسلوا رأسه إلى دمشق ثم إلى مكة والمدينة ، بالإضافة إلى استشهاد ابنه يحي الذي قتل عام ١٢٥ / ٧٤٣ .

إن هاتين الإنطلاقتين هما ولا شك أضخم ما في تاريخ الشيعة الوليد ، إلا أنها لم تكن وحدها . فقد كانت هناك أشكال مختلفة وأقل عنفا من نفس الحركة . فالحسن ، مثلا ، الإبن الأول لعلي ، حاول فترة أن يصبح خليفة بمساعدة معاوية ، ثم تراجع عام ٤٠ / ٦٦١ ، أمام ما لم يكن منه بد ، ثم أكمل بقية أيامه في المدينة . أي أنه لا بد من التحدث عن أنواع مختلفة من الشيعة : فبقدر عدد أبناء عليّ بقدر ما وجد من مذاهب تقريبا . والبعض يتوقف عند ذرية الحسن والحسين دون أن يتفقوا على مذهب واحد للتفضيل أو التحيز أو الخلافة ولا حتى

على طرق تعيين خليفته عن طريق الإمام . وسنجد هذه الأحزاب مشكلة بشكل نهائي في فترة العباسيين . وقد اختار البعض الآخر ، مثل القيسانيين ، ابن علي لكن ليس من فاطمة ، فقد قال بمحمد « بن الحنفية » بينما آثر البعض الآخر عبد الله بن معاوية (لا علاقة له بالخليفة الذي يحمل نفس الإسم) ، وهو من ذرية أحد أشقاء عليّ . إلا أنها كانت حركة خاطفة انتهت بموت بطلها وهزيمة اتباعه عام ١٢٩ /٧٤٧ .

تعدد الإضطرابات الدينية كما نرى . تعدد أيضاً في الحركات العشيرية والمقاطعات . وهناك مثل كبير على ذلك : في عام ٦٠ / ٦٨٠ رفض عبد الله بن الزبير الإعتراف بيزيد الأول ، وكان عبد الله من الصحابة بخلاف كونه ابن عم الرسول وابن أخ خديجة . وأثار جزيرة العرب وأصبح خليفة واكتسب شعبيات امتدت حتى العراق ومصر قبل أن يسقط عام ٧٣ /٦٩٣ : فقد سقطت مكة بعد حصار دام ستة أشهر . وفي نفس الوقت وأثناء الحصار الأول عام ٦٤ /٦٨٣ احترقت الكعبة وانقسم الحجر الأسود إلى ثلاثة قطع .

ولا يعبر عن إنشقاق الأمة الإسلامية آنذاك مثل الحج عام ٦٨ /٦٨٨ حيث يمكن أن نرى زعيما من الخوارج وممثلا للخليفة عبد الملك والخليفة غير الرسمي عبد الله وابن الحنفية ، أي أكبر ثلاث انقسامات سياسية دينية قائمة آنذاك . وبالإضافة إلى ذلك يجب احتساب دمشق مع الذاتيات الخاصة الأصل . كما اندلعت الإضطرابات في الغرب ، في شمال أفريقيا . إلا أنها صمدت حتى عام ٧٤ /٦٩٣ وخاصة الكاهنة الأسطورية بمنطقة جبال الأطلس . ثم هدأت الريح فترة إذ أن البربر كانوا مهتمين بغزو إسبانيا . لكنه ، إبتداء من عام ١٢٢ / ٧٤٠ بدأت تلك الرابطة بين التطلعات الوطنية والشغب الديني تتضح أكثر من ذي قبل ، بين الخوارج أو الشيعة وستكون هذه السمة لعدة قرون من المعالم الأساسية لتاريخ المغرب . وفي نفس الوقت بدأت القلاقل في الشرق ، في كل مكان تقريباً . فالموالي من الإيرانيين بدأوا يلعبون لعبة الإسلام ، ويتحدثون اللغة العربية إلا أنهم لم يجنوا شيئاً ، إذ احتكرتهم سوريا بابتعادها ، وحرموا من المسئوليات التي يخولها لهم دينهم والتي تحق لهم بمهارتهم .

وهكذا بدأت الخلافة العباسية منطلقة من إيران . لتأتي على خلافة دمشق .

وهي كما نرى ليست أول حركة موجهة ضدها ، الأولى من نوعها الغريب ، ففيما مضى ، لكي لا نتحدث إلا عن مختار ، أحد المشاغبين ، وكان قد جمع تحت اسمه بعض الزعماء العرب وبعض الموالين الإيرانيين والشيعة وبعض العبيد .

غير أن المتقدمين الجدد فعلوا أفضل من ذلك . فأولا لقد عرفوا كيف يعطون اسلحة الشرعية لشيء لم يكن في باديء الأمر سوى تصفية حساب بين عشيرتين ، بما أن الأمر ـ رسميا ـ كان يتعلق بخلافة الرسول . فقدم العباسيون صلة قرابتهم المباشرة بالرسول ، إذ كان جدهم هو عباس عم النبي ، لينتزعوا الخلافة من الأمويين . وفي نفس الوقت أوهموا العلويين بأنهم مهتمون بإقامة الحق والشرعية وهكذا كانوا يجتذبون طاقة ضخمة على أهبة الإستعداد للثورة إلى جانب الشيعة والقيسانيين . وتبعهم البؤساء الذين ليس لديهم ما يفقدونه ، وكانوا يأملون في عودة مبادىء الإسلام الحقيقية . وكان المحافظون المتطرفون يريدون عودة هذه المبادىء لكن لغرض آخر إذ كانوا غير راضين عن شكل الدولة الأموية الدنيوي . وأخيرا انضم الإيرانيون المتعطشون إلى الغاء التفرقات القائمة بين الأجناس ، أو على الأقل ضمها لصالحهم .

ومما له مغزاه أن الثورة قامت في خراسان ، تلك الأرض الإيرانية ، بفضل الثوري الشيعي أبو مسلم . وقد استولى على مرو ، عام ١٣٠ /٧٤٧ ـ ٧٤٨ رافعا رايتهم السوداء ، مرسلاً قواده للإستيلاء على الإمبراطورية الأموية . ولم يطل الأمر أكثر من عامين حتى سقط آخر ممثل للأمويين عندما سقط مروان الثاني تحت ضربات من تبعوه حتى مصر العليا . وبدأ أول خليفة عباسي حكمه عام ١٣٢ /٧٤٩ بأن قتل أربعة وثمانين أميرا أمويا دفعة واحدة : ولم ينج منهم سوى واحد هو الذي أسس إمارة قرطبة .

هنا نحن على عتبة تاريخ جديد هو تاريخ بغداد . فلقد غربت دمشق في عالم النسيان وظهرت قيم جديدة لتستمر فترة أطول وهي تتسلق تدريجياً تجاه الشرق . وإذا لم ننظر إلا للإسلام ، فإن الفترة التي ستبدأ تختلف عن الفترة السابقة حيث كان الإسلام وحده هو الذي يسود بلا شريك . أما الآن فسوف يعرف التراث العربي روح الإعتراض . وسيكون ذلك سببا لعدة وفيات أو للثراء وفقا لحالة الدولة التي تعترض عليه . غير أن خلافة الأمويين في دمشق كان لها

الفضل الحاسم في جمع التراث العربي في شبه جزيرة العرب وبذلك أصبح هذا التراث ناضجاً لأيام ربما خرج منها أقل نقاء لكنه أكثر ثراء وأكثر قوة ، بل لنقلها في تعبير واحد لقد أصبح تراثا دوليا ولم يعد محدوداً في جزء ضيق من عالمنا .

ومنذ ذلك الوقت أيضاً أصبح هذا التاريخ تاريخا دوليا . وبعد كل هذه الأحداث انتقل مركز الإمبراطورية ناحية الشرق ، عند تقاطع طرق التجارة العالمية لتخرج منها تلك الحضارة الكلاسيكية والمركبة فيها بين القرن الثامن والحادي عشر . وهو موقع فريد بلا شك . فمن جهة ، الشرق الأقصى ، بلد التجارة والبوذية والإمبراطوريات الكبرى ، ومن جهة أخرى ، أوروبا الشابة والتي لم تكن تطلب إلا أن تعيش . عالمان مغلقان ، كل بطريقته ، وكل منهما غارق في صراعاته . ومع ذلك وقف الإسلام بينهما بجنوده وتجاره وعلمائه ، إسلام يعيش من نفس هذا الموقف الوسط مانحا الحياة لمن حوله . الحياة التي يحافظ عليها الشرق ، والحياة التي يبثها غربا حيث استطاعت أوروبا بفضله أن تجد طريقها شيئاً فشيئاً إلى التبادلات الكبرى .

ومما لا شك فيه ، أن الأرض ، في الصفحات القادمة . ستدور لصالح بغداد .

الباب الثاني

عهد اللقاءات
التراث العربي والميراث الأجنبي
(من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر)

الفصل الأول

عظمة وتخيلات
الخلافة العباسية في بغداد

إن الخلافة في بغداد ، حتى منتصف القرن الخامس / الحادي عشر ، كانت تستثمر ميراث الأمويين وتغذيه بدم جديد نابع خاصة من بغداد . فازدهرت حضارة وثقافة تعد ـ حتى يومنا هذا ـ من أرقى منجزات الإسلام ، ومع ذلك فما انقضت بضع سنوات من هذه الإمبراطورية حتى اندلعت نفس الأزمات المعروفة من قبل ، لتثقب واجهة المدن البراقة والطرق التجارية والتبادلات الذهنية ، أزمات سياسية واقتصادية ، وأزمات اجتماعية أيضاً ، أزمات أعراق مختلفة وأزمات دينية . إن القرن الرابع / العاشر الذي بدأ بقيام خلافتين متنافستين في القاهرة وفي قرطبة يدق ناقوس الخطر على الوحدة الإسلامية وفي نفس الوقت فإن إقامة الحكومات الشرعية في العراق يعلن عن وضع الخلافة الجديدة تحت حراسة قوات أخرى سرعان ما ستسيطر على مصائر الإسلام : هي قوات الأتراك .

١ ـ أشكال من الخلفاء .

إذا ما التزمنا بالتراث فإننا سنذكر أسماء كالمنصور (١٣٦ /٧٥٤ـ ١٥٨ /٧٧٥) المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية ومؤسس العاصمة التي تحمل اسمه ثم اسم هارون الرشيد (١٧٠ /٧٨٦ ـ ١٩٣ /٨٠٩) ملك الليالي في ألف ليلة وليلة ، المتنكر في صورة أشبه ما تكون بشارلمان على الطريقة الشرقية ، ثم اسم المأمون (١٩٨ /٨١٣ ـ ٢١٨ /٨٣٣) راعي العلماء والفنانين المتنور . أي

أننا سنرى ثلاثة أنواع من الحكم الطويل ، ثلاث مراحل من الإستقرار تتبلور خلالها القيم العسكرية والإدارية والثقافية للإمبراطورية الجديدة .

إلا أن هناك أشكالا أخرى ، ربما كانت أقل اكتمالا ، غير أن ملكاتها تبرز بشكل واضح أمام أعين المؤرخ لتثقب الليل الطويل للإضمحلال السياسي حيث راح يغوص الحكم العباسي بعد أقل من قرن من نشأته ، ومنها المتوكل (٢٣٢ /٨٤٧ - ٢٤٧ /٨٦١) المدافع الشرس عن السنية ، ثم المعتمد (٢٥٦ / ٨٧٠ - ٢٧٩ /٨٩٢) الذي كان شقيقه الموفق الحاكم الحقيقي الذي أعاد النظام في كل مكان مذكرا الأسرات المحلية بوجود الخلافة ، مهددا إياهم بالقهر ، وأخيرا اسم المعتضد الذي استمر من عام ٢٧٩ /٨٩٢ إلى عام ٢٨٩ /٩٠٢ على نفس خطي أبيه الموفق مع استخدام العنف والدماء .

وكم من أسماء أخرى كان التاريخ سيتواطأ معها إذا ما نجحت ، ولا شك أن النظرية الطويلة للخلفاء لها مستبدوها غير المستقرين ، ولها ضعافها ومنتفعوها ، كما أن لها العاجزون والأمعات ومتقلبو الرأي أو الأطفال الملوك ، لكن حتى في أحلك الساعات لا يمكن اغفال اسم القاهر (٣٢٠ /٩٣٢ - ٣٢٢ /٩٣٤) وكان مثالا للحيوية والمهارة السياسية ، أو ثقافة الراضي الواسعة (٣٢٢ /٩٣٨ - ٣٢٩ /٩٤٠) أو تعنت بعض الأمراء مثل القادر (٣٨١ /٩٩١ - ٤٢٢) ١٣٣١١) أو القائم (٤٢٢ /١٠٣١ - ٤٦٧ /١٠٧٥) الذين كانوا مهتمين بتثبيت سلطانهم في نفس الوقت الذي كانوا يعزلون فيه .

ولا شك أن هؤلاء الخلفاء الخلاسيين أبناء الأجنبيات أو الجواري ، قد جاؤ وا إلى الحياة صدفة عن طريق عواطف الأمراء . . . وجاؤا إلى الحكم عن طريق المؤامرات ، وشبوا وسط معارك التأثيرات ولذلك كانوا مؤهلين بشكل طبيعي ومنذ نعومة أظفارهم لمهنة زعيم الأمة القائمة منذ ذلك الحين على مزج الأجناس المختلفة وعلى المعايير السياسية أو الدينية المختلفة إلى ما لا نهاية ، وهي مهنة - كما نرى - تتطلب المهارات الخفية لمن يجيد « التخطيط » مثلما تتطلب الشجاعة والتربية المتينة ، أي بتعبير آخر أنها مهنة تتطلب أن يكون المرء قد رضع لبان القصور وتم أعداده لمهنة الأمير .

ولقد كانوا أمراء بالفعل . . . امراء في حياتهم التي يحيونها على حساب

ثرواتهم ، وأمراء في الموت ذلك الموت الذي كانوا يفرضونه بلا حساب ويعرفون كيف يخضعون له حينما يأتيهم في أبشع صورة . . . وكانوا أمراء في العابهم الذهنية . . فقد كان ابن المعتز ، وهو أحد أبناء المتوكل « خليفة ابن يوم واحد » لكنه كان من أكبر الشعراء ومن أكبر نقاد الأدب العربي ، وكان هؤلاء الحكام يقيمون ويشجعون ويحمون دوائر المثقفين ، وأخيرا فقد كانوا أمراء في الحكم ، فإذا لم يتصرفوا جميعا كأمراء فقد كانوا على الأقل يعرفون أنهم أمراء تماما ، فحافظوا بقدر الإمكان على هذه السلطة التي كانوا محرومين منها في الواقع ولو في أشكالها النظرية وغير القابلة للتقادم .

أن الحاكم العباسي ظل شرعا الزعيم الأوحد للأمة زمنيا وذهنيا ، والوارث لتلك الخلافة : خلافة الرسول التي كان يذكرها لجميع أنحاء الأمة ـ سواء بشكل مباشر أو عن طريق اتباعه ـ يذكر ذلك بالدعاء للخليفة في خطبة صلاة الجمعة على المنابر في أنحاء الخلافة . وإجمالا ، فإذا دخلت الخلافة مبكرا جدا في طريق الإنهيار السياسي فمن الصعب ذكر أي نقص في ممثليها أو على الأقل الإكتفاء بذلك ، فقد كانوا أمام مهمة مستحيلة هي موضع الكثير من المؤامرات ، وليس أصحاب الحق هم الذين ضعفوا أمام المؤسسات ، وإنما المؤسسات هي التي افلتت من أيدي أصحابها .

٢ ـ تداخل المجالات الدينية والسياسية والإجتماعية :

السنيون والشيعة : خلافة وإمامة .

مرة أخرى لا بد من وضع النزاع الأزلي حول خلافة الرسول وإدارة شئون الأمة في بداية القوى التي أتت على الخلافة ، فلم يعد الخوارج يمثلون سوى بعض النواة الحية إلا أنها كانت منعزلة فالصراع كان في المواجهة القائمة بين السنيين والشيعة .

إن السنية التي تبدأ فترة تنظيمها النهائي بالخلافة العباسية تتميز أساساً بنوع من الواقعية السياسية ، إن ما يعنيها قبل أي شيء هو وجود الأمة وعملها وإدارتها ، لقد انضم المعتدلون الأمويون إلى الحكام العباسيين من أجل متطلبات الوحدة ، وذلك دون إنكار الخلافة الأموية التي ظلت ذكراها وخاصة في سوريا

شديدة الحيوية ، بل وظلت في نظر بعض السنيين أنها مثال الأمة الجماعية التي لم يتخطها أي نظام آخر ، وبالتحديد أيام معاوية مؤسسها . وشيئاً فشيئاً انتظمت المذاهب الأربعة وهي المذاهب التي تتقاسم الإسلام السني حتى يومنا هذا ، وتغطي العبادات وما نطلق عليه القانون العام أو الخاص ، وهي حسب ترتيب ظهورها ووفقا لإسم مؤسسها : المالكية (نسبة لمالك بن أنس الذي توفي عام ١٧٩ /٧٩٥) ، والحنفية (نسبة لأبي حنيفة الذي توفي عام ١٥٠ / ٧٦٧) ، والشافعية (نسبة إلى الشافعي الذي توفي عام ٢٠٤ / ٨٢٠) والحنبلية (نسبة لابن حنبل الذي توفي عام ٢٤١ /٨٥٥) وهو أكثرهم تمسكا بالتراث ، وكل هذه المذاهب معترف بها كمدارس معتدلة لقب زعماؤ ها في الإسلام بلقب الإمام .

والسنية تناقض الشيعة (لوحة ١١) التي تضم الموالين لأسرة علي وإنما يقصرونها فقط على ذرية علي وفاطمة ابنة الرسول ، إن الشيعة تقيم أساساً نظاما مثاليا لخلافة الرسول هو شرعية أسرة الأئمة العلويين الذين يتم اختيارهم بمرسوم إلٓهي أو باختيار واضح من الإمام الحي لخليفته ، وذلك على عكس الواقع التاريخي لسلطة الخلافة التي مارسها الأمويون والعباسيون .

إن الإيمان بالإمام والإخلاص له ، حيث أنه حامل التنوير السري الذي حصل عليه علي من الرسول وأورثه لذريته من بعده ، يعد بالنسبة للشيعة من الدعائم الأساسية التي تضاف لأركان الدين الخمسة التقليدية في الدين الإسلامي ، إلا أن الشيعة الذين يتفقون على المبادىء العامة ينقسمون حول ترتيب الأئمة ، وبدون الغوص في متاهة تشعب الفكر العلوي سنحدد الإتجاهات الأساسية الثلاثة (الرسم البياني ص ١٠٣) .

إن الزيديين الذين قاموا في عهد الأمويين كما رأينا ، لا يختلفون عن السنيين إلا فيما يتعلق بمشكلة الإمام نفسه ، فعند موت زعيمهم الذي يحملون اسمه أعلنوا نهاية وإقفال كشف الأئمة الشرعيين وعادوا إلى مبدأ اختيار رئيس الأمة بالمبايعة ، وهذا تنازل للإسلام السني ولا شك ، ولكنه ظل تنازلا نظريا فحسب ، ففي الواقع فإن الزيدية يعرفون أن الإمامة تخص كل ذرية علي وفاطمة ومن يظهر منهم جدارة ثقافية بمعرفة التراث الشيعي وجدارة معنوية بصفاته الذاتية ، وجدارة سياسية بأن يستولي على الحكم بالسلاح ، إن علامة الشيعة

المميزة تكمن في مجموعتين أكثر أهمية هما : الإثنا عشريون والإسماعيليون ، فالإمام في نظر هؤلاء يبدو كإنسان يتألم ، وكشاهد متألم للإيمان ، وهي رؤ ية متشائمة للالآم الدينية التي تستلهم ذكرى الشهداء من آل البيت العلويين ، وتؤدي إلى نوع من الهروب من مآسي الرجال والزمان ، ففي فترة ما من سلسلة الإمامة اختفى واحد من حامليها خارج العالم ، أنه « الإمام الغائب » الذي تنتظر عودته عند نهاية العالم حيث سيعود ليبدأ عهد حكم الله على الأرض، أن الشيعة تجسد أحد أئمتها وتعطيه اسما خاصا به هو « المهدي » الملهم من الله ، بدلا من المنصف وهو الشخصية الرئيسية في رؤ يا نهاية العالم الإسلامية .

وبالنسبة للإثنا عشرية أو الشيعة الإمامية ، الذين سيعطون الطابع المميز للشيعة الفارسية ، فإن سلالة علي تتوقف عند الإمام الثاني عشر ، محمد ، الذي اختفى عام ٢٦٠ /٨٧٤ ، أما الإسماعيليون فيتفقون معهم حتى الإمام السادس ، جعفر ، إذ يختلفون فيما يتعلق بذريته ، فهم يفضلون إبنا آخر لجعفر هو إسماعيل ولا يؤمنون بموته (١٤٥ /٧٦٢) ، يفضلونه على موسى الإمام السابع للشيعة الإثنا عشرية إن سلالة العلويين المرئيين تتوقف بالنسبة لهم عند هذا الإمام السابع الذي يعطيهم اسم الإسماعيليين أو السبعيين (نسبة لرقم سبعة في اللغة العربية) .

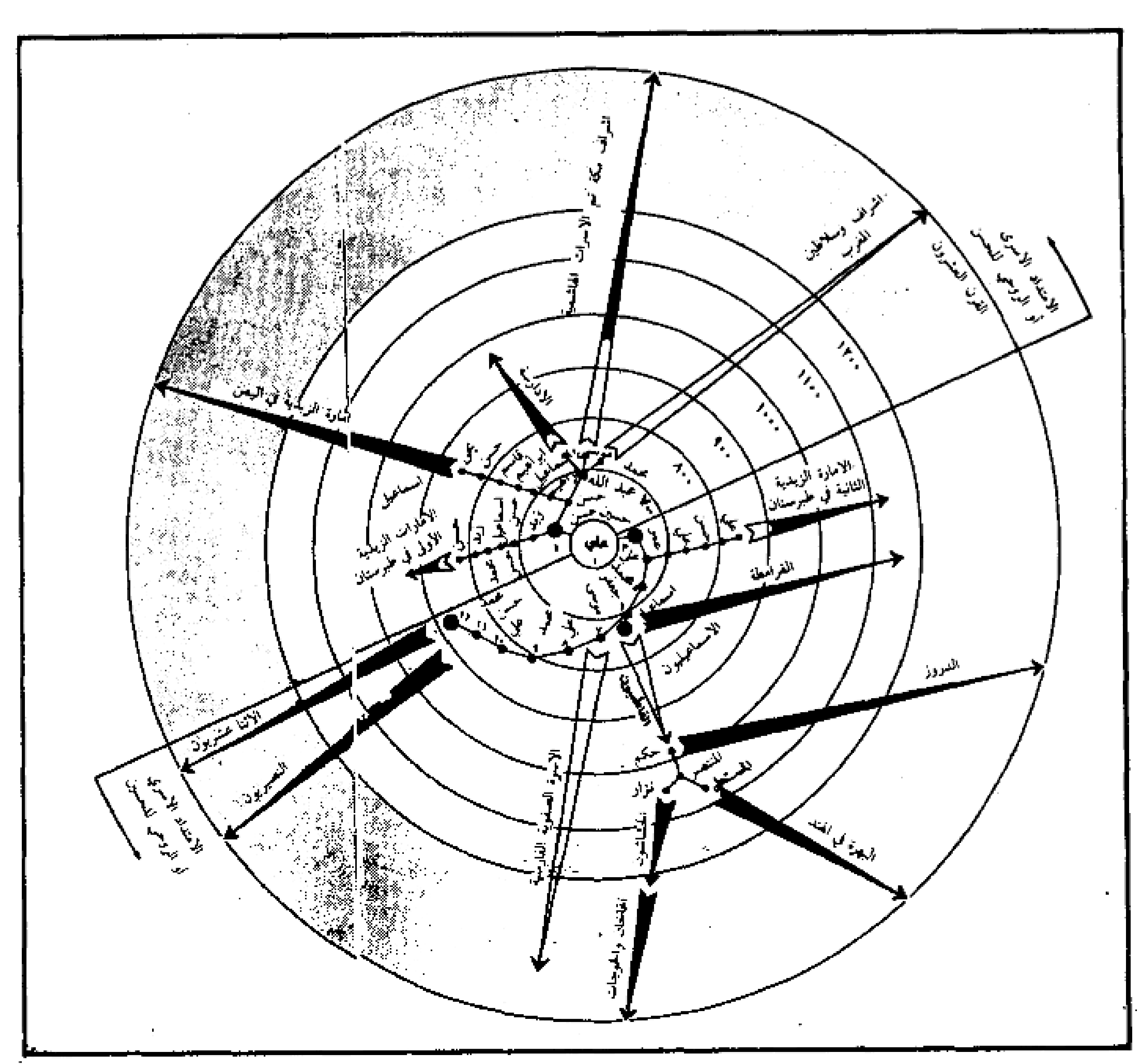
فالشيعة تبدو اذن في نظر السنية كأنها عقيدة الالآم والغموض ، فلكي ينقذ المرء إيمانه المهدد ، كان يسمح للمؤمن الشيعي بأن يخفيه تحت مظاهر خارجية عن العقيدة الرسمية للمنطقة التي يوجد بها وهي ما يطلق عليه اسم « التقية » ، فالإسلام مع الشيعة ينزل أيضاً إلى أعماق الجماعات السرية والتجارب المذهبية ، فالإسماعيلية قد أقامت مذهبا سرّيا قائما على علم « الباطن » في القرآن ، ونحن نعرف هذا المذهب من خلال مجموع نصوص لجماعة سرية اسمها « اخوان الصفا » ، وهم جماعة شديدو التعمق في المعرفة الروحية ويعتبرون الإمام كإنسان ملهم من السماء مباشرة ، ولقد توصل الشيعة الإسماعيليون إلى الإعتقاد بأن النصوص المقدسة ـ القرآن والكتب المقدسة الأخرى ـ إنما هي مجرد وسائل مجازية للوصول إلى حقيقة أبدية ، يعتبر المهدي هو تجسيدها الأكبر .

ها نحن قد ابتعدنا عن السنة ووصلنا إلى أطراف الإسلام ، في حين أن

المعتدلين المسلمين يرون أن النبوة قد ختمت بمحمد إلا أن الإسماعيلية تدخل محمدا في سلسلة من الأنبياء ولا يعتبر هو إلا حلقة من حلقاتها ، قبل ظهور المهدي ، الذي سيكون آخرهم وأكثرهم كمالا ، وهناك اختلاف آخر هو : إمام هذا المذهب الشيعي المتطرف القائم على الإخلاص التام لشخص واحد ، فالإسلام السني يبدو كمذهب جماعي أساساً ، يعنيه أن يفلت من التبعية لأي شخص أيا كان ، إذ أن كل ما يعني هؤلاء المعتدلين هو الإجماع ، إجماع المؤمنين حول المعاني والمعطيات الواضحة للقرآن أو ـ في حالة سكوت النص المقدس ـ يجدونها في تفاسير العلماء المعتمدين على القياس على النموذج القرآني أو في حالة عدم وجوده يعتمدون على تقدير مصالح الأمة .

إلا أن مثل هذا الإجتهاد في التفسير أو التشريع والذي يمنح من يقوم به لقب « المجتهد » لا يترك لأي شخص ليقوم به ، إن السنة قد اهتمت بالإجماع وتحفظت على الرأي الشخصي بحيث اعتبرت « أن « أبواب الإجتهاد مغلقة » منذ القرن الثالث / التاسع ، وفي قول آخر أن العقيدة السنية قد اعترفت بصفة المجتهد لمؤسسي المذاهب الأربعة التي ذكرناها ، واعتبرت أن الحالات الجديدة التي قد تمر على الأمة منذ وفاة الرسول قد استنفدت ، وأن التقليد الأمين للقدماء والعلماء هو القاعدة الأساسية للإيمان .

ولعل هذا الموقف يعد موقفاً سلبيا بالنسبة للبحث العلمي والعلم ، وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد ، إلا أنه موقف متجانس وإن كان يقبل أحيانا بعض الإستثناءات والتغيرات مما أعطى السنة انتصارها البين في غالبية الأراضي الإسلامية ، إن مذهب الشيعة الصاخب والمنقسم حيث نرى اجتهاد العلماء يتحدث بإسم الإمام الغائب ، ويؤدي إلى تعصبات دينية فإن مذهب السنة على العكس من ذلك وإن كان أيضاً مليئاً بالتناقض ، إلا أن كل أعضائه يجتمعون داخل نطاق واحد هو : الأمة وإذا ما حاولنا تعريف مذهبي الشيعة والسنة في تحليل أخير ، كإسلام حقيقي ، كإسلام مخلص لأصوله فلا بد من الإعتراف قبل كل شيء بأن الفكر السني كان يهتم أولا وقبل أي شيء بأن يحافظ للدين على واحدة من أهم مكوناته الأساسية ، وهي أمة المؤمنين المجتمعين وراء الخليفة الذي يعتبر في رأيها المسئول الوحيد عن حياة الإسلام وعن مفهومه .

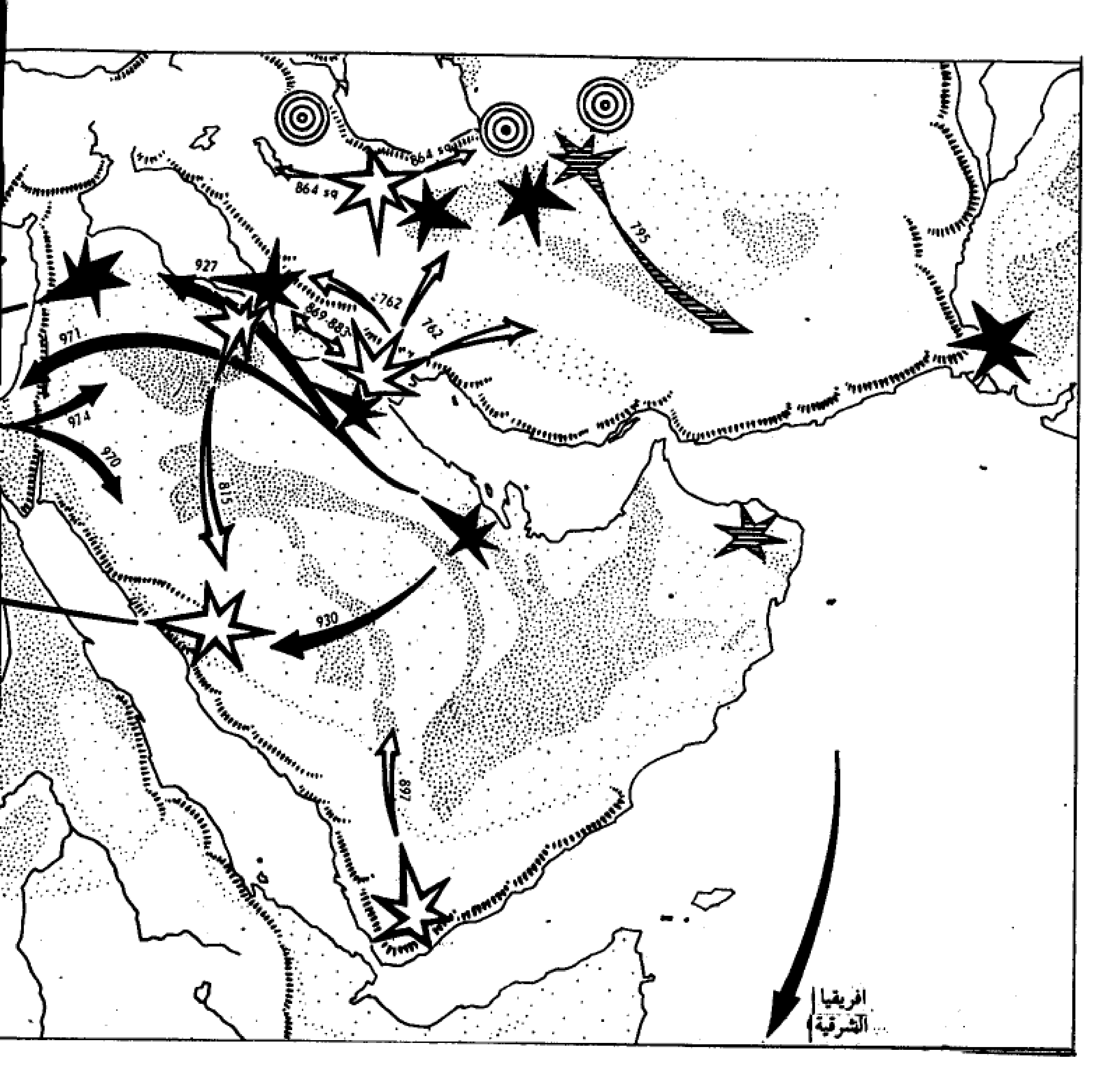


الشيعة : الاتجاهات الأساسية

الإنحلال السياسي والمقاومة الروحية للخلافة .

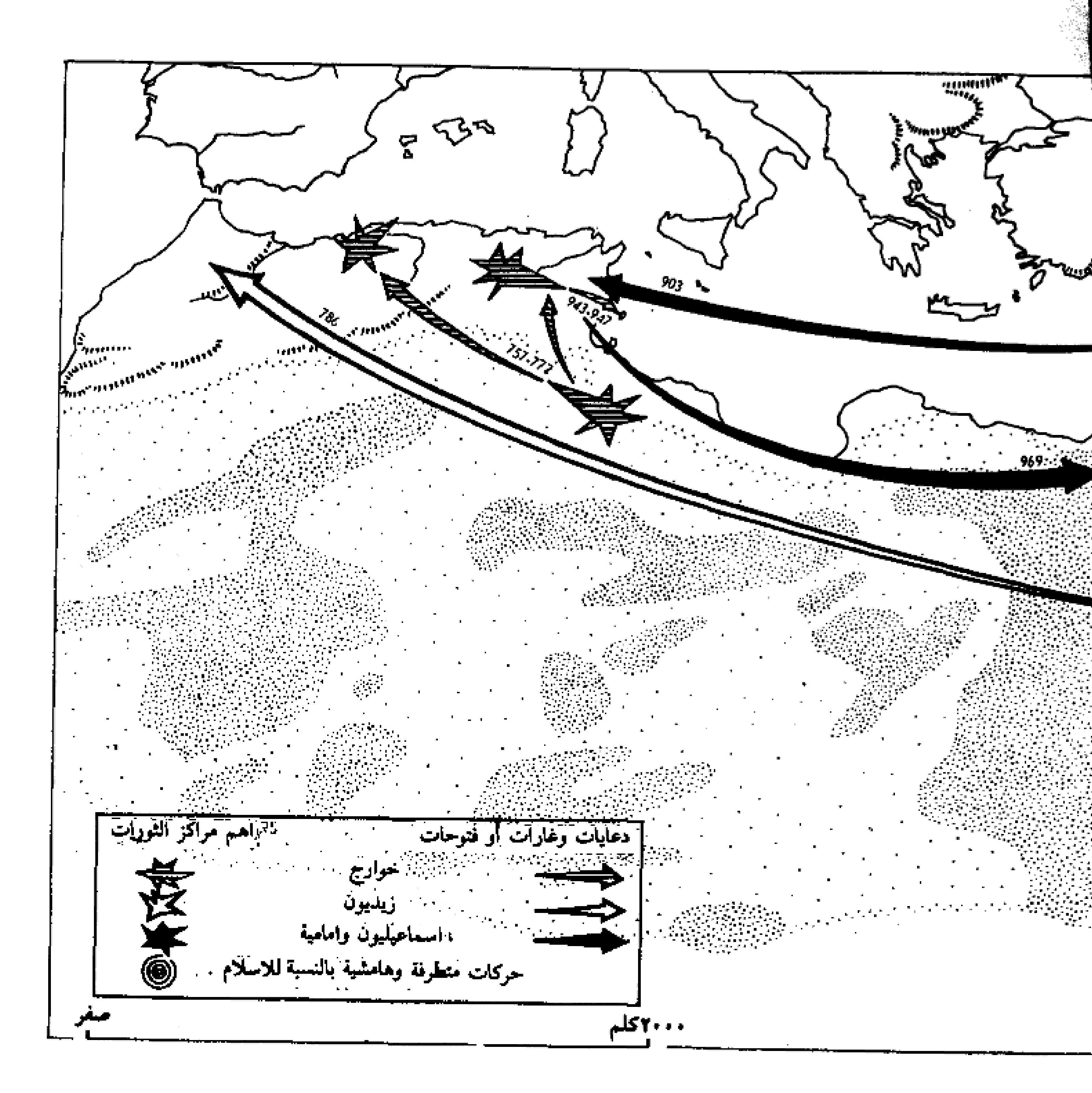
إن انتصار السنة الذي سيتأكد ابتداء من القرن الخامس / الحادي عشر ، كان يعتمل في الصراعات المذهبية والسياسية القائمة إبتداء من الأعوام الأولى للخلافة العباسية ، ومن ينظر إلى الخريطة يرى كل شيء عبارة عن تنافر (خريطة ٧) فلا توجد في الواقع أية حركة دينية لم تدخل مسرح الأحداث تحت شكل سلطة سياسية سواء كانت مدفوعة بالمصالح العشائرية أو تناقضات الأجناس أو التوترات الإجتماعية .

ولنكتف هنا أيضا بما هو أساسي ، فسيكون للخوارج مملكتهم مع العباديين في تيارات (١٦٠ /٧٧٦ ـ ٢٩٦ /٩٠٨) والمدراريين في سجلماسة في تافيلليت المغربية (من ١٥٥ /٧٧١ إلى القرن الرابع / العاشر) وكلهم معتمدون على



خريطة ٧- (الاضطرابات الدينية في العالم الإسلامي

الإنضامية البربرية ، وانتصر الزيديون في طبرستان في الجبال جنوب بحر قزوين ، وظلوا بها حتى فجر القرن الثاني عشر ، وقد كانوا أكثر ثباتا في اليمن حيث استقروا به حوالي عام ٩٠٠ ، وأقاموا دولتهم وسط تاريخ شديد الإثارة والقلاقل ، وظل حكمهم قائما حتى عام ٩٦٢ ، ثم اتجهوا إلى المغرب أقدم الإمارات الزيدية وأقاموا دولة الأدارسة ، وكانوا أوفياء للعقيدة السنية وقام بتأسيسها أحد أبناء حسن بن علي ، حينما هرب ابن أدريس بالجزيرة العربية حوالي عام ١٣٢ / ٧٨٩ ، ووضع في منطقة المغرب أسس مملكة سرعان ما ستزود بمدينة جديدة هي مدينة فاس .



ن القرن الثامن إلى القرن العاشر)

أما أصحاب دعوة الإثنا عشرية فسيجدون خير مدافع لهم في القرن الرابع / العاشر في كل من الحمدانيين أمراء الموصل وحلب ، وفي البويهيين أصحاب العراق والهضبة العراقية المقربين من الخلافة .

ومن بين كل هذه التحركات فإن الحركة الإسماعيلية هي التي حصلت على أكبر قدر من النجاح فإذا ما استثنينا ثورة الزكروية (٢٨٩ /٩٠٢ ـ ٢٩٤ /٩٠٧) سنرى إجمالا أنه لا توجد سوى طائفتين هما اللتان تتقاسمان رضاء اتباع ذلك المذهب ، وكانت أكثرهما سرية هي طائفة القرامطة القائمة على الطقوس المذهبية

وعلى « الرعب الثوري » ، وهي شديدة الإخلاص لنظرية الإمام الغائب ، محمد بن إسماعيل ، المهدي الذي ينتظرون رجوعه ، وقد استقرت تعاليم هذه الطائفة في الأعماق الشعبية ، التي كانت تستغل ميولها الإجتماعية ، وتطورت في العراق ثم قامت بتأسيس البحرين على الشطآن العربية للخليج الفارسي ، وهي دولة جماعية قام أعضاؤها في النصف الأول من القرن الرابع / العاشر بعدة حملات ضخمة ضد العراق وشمال ما بين النهرين ، وجزيرة العرب التي انتزعوا منها الحجر الأسود ولم يعيدوه إلا عام ٣٤٠ /٩٥١ .

أما الطائفة الثانية ، طائفة الفاطميين فهي ترفض أضفاء صفة المهدي على محمد بن إسماعيل إذ تفترض ظهور عدة أئمة مختفين من بعده حيث سيظهر المهدي الحقيقي من بينهم وفي موعده ، وإلى أن يحين ذلك كان الفاطميون يقومون بنسج هالة من الظل حول شخصية الإمام السرية لكي يميزوا بين الإمام الدائم من سلالة علي وفاطمة ، والإمام المؤتمن على السلطة والذي اختاره الإمام الأسبق ، وهو يعتبر « الحجاب » الممثل والناطق باسمه خلال ذلك القرن ، وبناء على هذا التحريف استطاعت الدعاية الإسماعيلية أن تثير بربر منطقة القبيلة بالجزائر لصالح شخص يدعى عبيد الله الذي اتخذ لنفسه لقبي الخليفة والمهدي وابتداء من عام ٣٥٨ / ٩٦٩ سقطت كل من المغرب وطرابلس ومصر تحت الحكم الفاطمي .

إن العلاقات السياسية والمذهبية بين القرامطة والفاطميين غير معروفة تماماً ، إلا أن تأثيرهما المتبادل وتنافسهما ونجاحهما الذي لا ينكر جعل لويس ماسينيون يطلق على القرن الرابع / العاشر تسميته المشهورة « القرن الإسماعيلي للإسلام » وهذاصواببلا شك ، إلا أن هذه القلاقل والمعارك لا ينبغي أن تنسينا واقع السنيين ومؤسستهم الكبرى : الخلافة العباسية ، ومهما أثير حولها من جدل سياسي أو ديني فإنها ستظل قوة ترابط روحي هائلة وترمز إلى الإسلام في إجمالها حتى أجهز عليها الغزو الخارجي الذي قام به المغول وسقطت بغداد عام ٥٦٥ /١٢٥٨ .

ولأن السنية ـ هذه السنية التي أهمل المستشرقون الغربيون دراستها لفترة طويلة ـ لن تكف عن رد توجيه الضربات ، وقد راحت تقدم فرقها الدعائية من الدعاة والقصاصين في مواجهة نظام الدعاة الشيعيين وخاصة الإسماعيليين ، وفي

مقدمة الصفوف كان محاربو السنة المجاهدون من الحنابلة الذين كانوا متداخلين أيضاً بين سكان المدن وكانوا من القوة بحيث استطاعوا القضاء على أية محاولة انشقاق عن شرعية الأمة .

وشيئاً فشيئاً اجتذبوا هذه الخلافة التي يساندونها بلا هوادة ، وذلك بجرها إلى مجال الفتنة مع الشيعة التي يدينون لها بتوليتهم السلطة والحكم ، فحكام بغداد كانوا يستخدمونها ـ أي الخلافة ـ لصالحهم أكثر مما يخدمونها ، وقد تباعدوا بحيث بدت خيبة أمل الشيعة وكأنها معارضة خفية للخلافة مما أدى إلى تأكيد مقاومة المعتدلين كرد فعل عكسي ، أما الضربة التي أتت على تطلعات الشيعة فكانت من جانب المتوكل (٢٣٢ /٨٤٧ ـ ٢٤٧ /٨٦١) الذي ظلت الخلافة من بعده تتردد وتتأرجح لمدة قرن من الزمان تقريبا ، وقد بدأت الأمور تتبلور إبتداء من عام ٩٥٠ ، فبدأ كل شيء وكأن سلطة الخلافة وإنهيارها السياسي ستؤدي بعمق إلى احتجاج أقوى يقوم به الحنابلة الذين لا يكلون ولا يتعبون أبدا ، ففي عام ٤٠٩ /١٠١٩ ، ثم في عام ٤٣٣ /١٠٤٢ وعام ٤٤٤ /١٠٥٢ قام كل من الخليفة القادر والقائم بإعلان العقيدة الحنبلية رسميا .

وهكذا فإن الإنحلال الوقتي للخلافة والذي سنبحثه عن قرب لا ينبغي أن يخدعنا في قدراته على المقاومة كرمز إذ أن الخليفة يظل في نظر أغلبية المسلمين هو أمير المؤمنين بصرف النظر عن أية خلافات والسيد الأعلى للأمة كلها ، إن الإبقاء عليه ولو رمزيا يفسر ما في قرار الأمة الإسلامية من رفض للواقع واستمرارها في التعلق بحلم الوحدة الكبير .

٣ ـ اعتراضات الأعراق الأصلية والأقليمية :

أيام إيران .

لم تكن العواصف الدينية وحدها هي التي عصفت بالخلافة ، فالأمم العريقة الخاضعة للفتح والتي ما زالت مليئة بالحيوية على أرضها وما زالت متمسكة بلغاتها موجودة في كل مكان تقريبا ، إذ لم يختف سوى الأقباط ـ على الأقل كجماعة لغوية ـ ويبدو أن لغتهم ابتداء من القرن الرابع / العاشر اقتصرت على الإستخدامات الدينية والعلمية ، أما مقاومة البربر والأكراد والأرمن فتبدو على

عكس ذلك ، فهنا تبدو اللغات باقية على مستوى الإستخدام اليومي الدارج ، ولم تستطع اللغة العربية المستخدمة كأداة للفكر والتبادلات ، وخاصة في المدينة ، لم تستطع أن تنتزع تلك اللغات المحلية التي استطاعت أن تعبر القرون دون أن تختل .

أما الأتراك الموجودون على مسرح الأحداث فيحتلون مكانة مختلفة ، إذ نراهم كعبيد أو مرتزقة ومن المستبعد أن نتحدث عن أمة لهم حينذاك ، إلا أنهم بداؤ ا يثقلون على مصائر الخلافة بحكم أعمالهم التشريعية ، فلقد انعزل المعتصم عام ٢٢١ /٨٣٦ على بعد مائة كيلومتر تقريبا في الشمال الغربي بالعاصمة الجديدة سامراء (لوحة ١٢ وشكل ٨٨) لكي يتفادى الإحتكاك بين حرسه التركي وشعب بغداد .

ومع ذلك وفي مجمل الأشياء ، كانت هذه الأيام هي أيام إيران ، فقد انتقلت الخلافة شرقا من دمشق إلى بغداد لتستقر فيما بين النهرين حيث نقلت التراث العربي ووجدت ميراث اليونان المنبثق من المخطوطات وخاصة فارس الصافية أو الخاضعة للتأثيرات الهندية ، إلى جانب الأساطير القديمة المحلية . كل هذه المؤثرات ستلعب دورها ـ كما سنرى ـ في تشكيل الاندماجية الجديدة ، للإسلام ، إلا أن التراث الفارسي هو الذي استقطع لنفسه نصيب الأسد فيما عدا الأرث العربي ، لأن فارس لا توقظ المواجهات الثقافية فحسب ، إنها موجودة في الأذهان التي يغزوها ذكرى الماضي الفارسي وديانته الزارادشتية ، عبادة النار ، دون التحدث عن المانوية والمجوسية التي لم تنطفىء نيرانها تماما ، فالزارادشتية تعيش على أفواه الملايين من الأشخاص الذين يتحدثون لغتها الموجودة



(شكل ١٢ ـ المهدية « مدينة المهدي » التي أسسها الفاطميون عام ٣٠٠ / ٩١٢ في الجنوب الشرقي من القيروان ـ لوحة من الرخام تمثل الملك وهو يستمع إلى عازفة موسيقى) .

بوضوح وحيوية بحيث قام بينها وبين العربية تيار منتظم من تبادل الكلمات والمفاهيم ، كما أنها ستوحي ببعض المواقف الجديدة للدولة وللإدارة .

وهنا يكمن الإختلاف الأساسي بين إيران والثقافات الأخرى غير العربية ، فبدلا من أن تتقوقع فيما يشبه الوجود فحسب والإنحصار في حيزها والإنطواء على نفسها ، فقد امتدت الإيرانية من هضبتها إلى الوديان ومدنها وهي أول محك للفتح ومعقل للدين واللغة المنتصرين ، وبرفضها الإنعزال راحت تواجه الإسلام في معاقله الأكيدة ، ومن التقاء التراثين الفارسي والعربي ستتولد حضارة على المستوى العالمي .

علية القوم ، وحكام ، ومؤسسو اسرات حاكمة .

كما نرى فإن الإسلام لم يخنق الأقليميات ، حتى في الأماكن الأكثر تعريبا مثل سوريا ومصر ، فإن الوحدة اللغوية قد غطت المميزات المحلية القديمة ، واختلافات البلدان بالنسبة لبعضها دون أن تخنقها ، فكل مقاطعة هي دعامة عدة سلطات عائلية ، ولدت بها أو جاءت لتستقر فيها ، وكان على السلطة العليا أو الحاكم أن يتعامل معها ، وذلك مثل عائلات ميكالي في نيسابور ، وبريدي في البصرة ، ومذراعي في مصر . . وغيرها ، وبالطبع - كما سنرى - كان هناك أسلوب للحياة في معظم الأحيان بين الدولة التي يمثلها هنا الحامية وإدارة البريد ورجال الضرائب ، ومن جهة أخرى الموظفون المحليون ، وكان يقع على عاتقهم ما نسميه نحن مسئوليات البلدية ، إلا أن طموح هؤلاء الموظفين كان يزيد أحيانا عن حدود بلدهم مثل الباريديين في البصرة في القرن (الرابع / العاشر) وكانوا من الثراء والقوة بحيث تمكنوا من شراء مزرعة ضرائب السوس ، وتكوين جيش والوصول إلى الوزارة وطرد خليفة بغداد لفترة ما ، وأحيانا أيضاً كانت تقوم منطقة بأسرها لتستقل حول مهد أسرة حاكمة محليا ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك هو ما حدث في أذربيجان وجرجان ، وهي مناطق جبلية في الجنوب الغربي من بحر قزوين تساهم موانعها في تقطيع شكلها إلى ما يشبه الموزاييك .

ومهما أخذت هذه الحركات من أشكال فإن هناك أمرا مؤكداً هو أنه لا توجد مدينة أو منطقة أو بلد ما لم يمكنه تقديم قطعة أرض - في لحظة أو في أخرى - للإندفاعات الطموحة أيا كان نوعها ، سواء كانوا هنا أو هناك ممثلين لسلطة

الخلافة أو قادة محليين ، يمكنهم الإستفادة من المنافسة العشائرية أو الدينية أو العصبية لكي يقيموا أو يعيدوا إنشاء عدة أقليميات تحت السيادة الإسمية لبغداد أو على إنشقاق معها .

إلى الغرب : البحر الأبيض المتوسط الإسلامي والذهب السوداني .

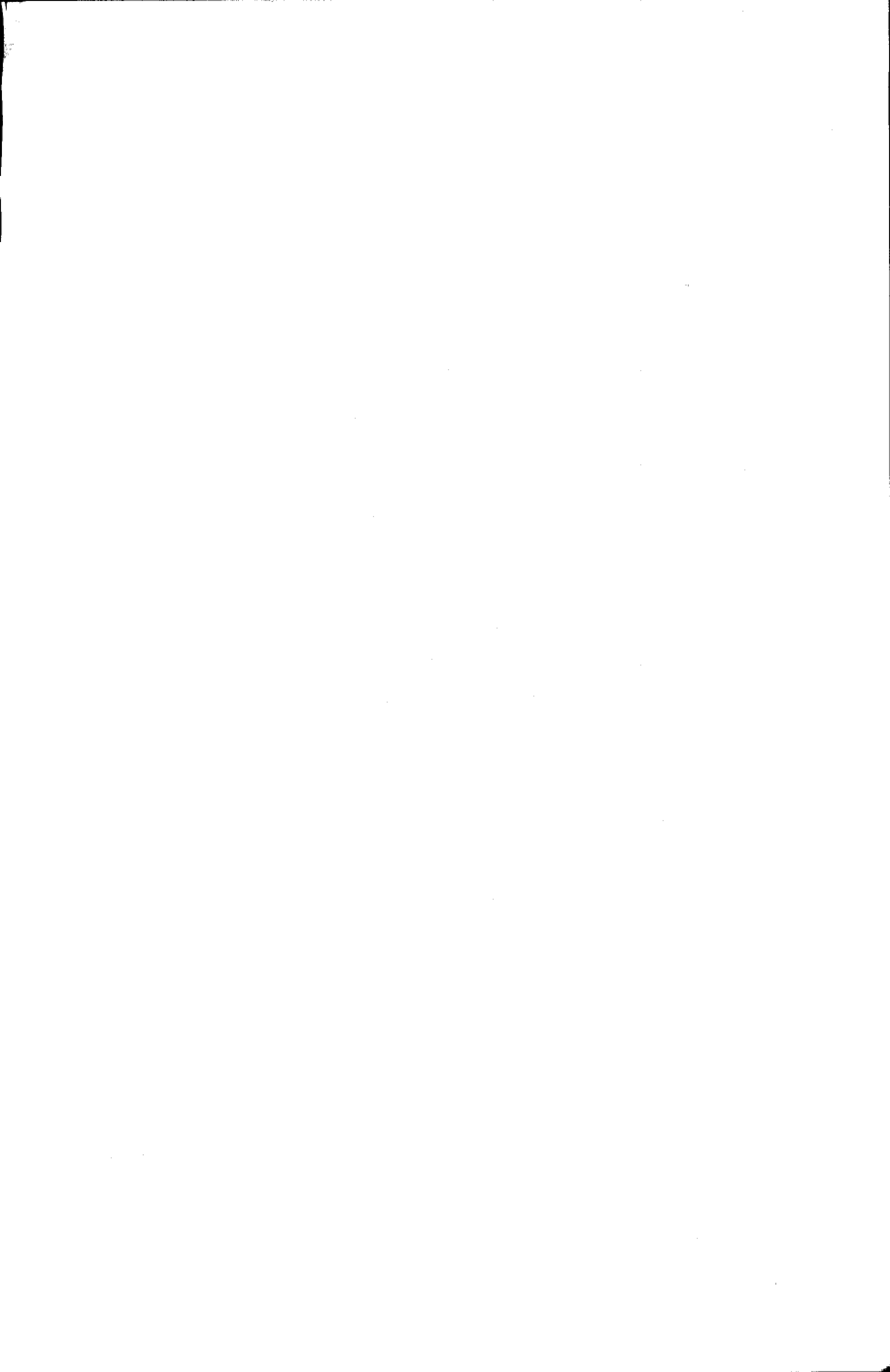
لا يوجد ما هو أقل ثباتا من الخريطة السياسية للإمبراطورية الإسلامية أيام العباسيين (خريطة ٨) ولنبدأ من جهة الغرب ، فإن إسبانيا تنقلت منذ البداية من سلطة الخليفة الجديد ، ففي عام ١٣٨ /٧٥٦ قام أحد الأمويين الناجين من الهلاك بتأسيس إمارة في قرطبة ستتوهج ببريق لا مثيل له على الأقل حتى عام ١٠٠٠ ، كما سيتخذ مؤسسها لقب « الخليفة » ابتداء من عام ٣١٥ /٩٢٨ وعلى الجانب الآخر من المضيق كان رواد الخوارج يقيمون ويهدمون الأسرات الحاكمة ، يساندهم في ذلك صخب البربر ، ولقد تحدثنا فيما سلف عن الرستميين في تيارت ، والمدراريين في سجلماسة ، أما الأدارسة في فاس فيختلفون مثل أسرة العلويين ، لكنهم ظلوا مخلصين للسنية ، ولنضف إليهم « بنو أفرن » في تلمسان في القرن الثالث / التاسع ، الذين ترددوا بين مذهب الخوارج والإعتدال ، وخاصة في تونس الحالية ، والأغالبة ، إقطاعيو بغداد الذين سيصبحون حكاما بالوراثة عام ١٨٤ / ٨٠٠ .

وبالأغالبة سيبدأ قرن من الإشعاع بالنسبة لأفريقيا العرب ، أفريقيا الرومان القديمة ، لا يفلت أي شيء من نشاط الأغالبة فهم يكتسبون أراض جديدة للزراعة بالري ، وينتزعون من الأرض عددا هائلاً من القصور والقلاع والمساجد ، كما شيدوا مثلها في صفاقس وسوسة ، وأعادوا الحياة إلى منشآت القيروان وتونس وخاصة جامع الزيتونة الشهير ، إن الإسلام التونسي سيعطي الحياة لميراث قديم تجاورت فيه كل من روما المسيحية وسوريا ومصر وذلك بفضل فنه وأساليبه التقنية ومواهبه ، بل لقد فعل أكثر من ذلك ، فهو مثل قرطبة يتطلع إلى عبور البحر ، وتأكدت هذه التطلعات ببناء الرباط بطول الساحل (شكل ٢٤و٨٧) ، وهي معسكرات محمية يتمرن بها المتطوعون على حرب الجهاد إلى جانب التدريبات العسكرية والدينية ، قبل أن يبحروا على الأسطول المعد في

ترسانة تونس ، وكانت حربا دفاعية ضد الغزوات البحرية للبيزنطيين ، كما كانت هجومية ضد الشواطىء الوثنية للبحر الأبيض المتوسط الغربي . وهنا ـ وعلى عكس الحوض الشرقي ـ فإن السيادة الإسلامية ستكون مطلقة ، على الأقل لفترة ما باستثناء الغزوات النورماندية ، وسيتم غزو صقلية عام ٢١٢ /٨٢٧ ، ومالطة عام ٢٥٥ /٨٦٩ ، وستنطلق سفن الإسلام بكل حرية ، وقد سقطت باري عام ٢٢٦ /٨٤٠ واتلف الريف النابوليتاني والروماني ومست سردينيا وكورسيكا ، ونهبت كل من نيس ومرسيليا وآرل ، وكانت فينيسيا مهددة كما سقطت جنوا بعد ذلك بقليل عام ٣٢٣ /٩٣٤ ، وأصبح عش النسور البروفانسي في جارد ـ فرينيه ابتداء من عام ٢٨١ /٨٩٤ ولمدة قرن تقريبا مسرحا لغزوات امتدت حتى سويسرا ، وانتصر نوع من التراث البربري القائم على السلب والنهب والذي استكملته غربا المحاولات البحرية لسادة قرطبة الذين هزموا الباليارد ، وفي نفس الوقت انتصرت حركة تبادلات تجارية وثقافية ترمز إليها صقلية المقدمة كالفنار .

إن القرن الرابع / العاشر ـ بالنسبة للغرب الإسلامي ـ يعد فترة المواجهة بين خلافتين متنافستين في قرطبة والقاهرة ، سواء في مواجهة مباشرة أو بمساندة بربر وهران الزناتية أو بنو زيري ، ولقد تبلور الصراع خاصة في النصف الغربي من شمال أفريقيا حيث تحمل اتباع أدريس نفقات العمليات الحربية ولم تكن هذه العمليات تعكس تطلعات السيطرة الأيديولوجية للسنة أو الشيعة دون التحدث عن مذهب الخوارج الذي كان مستغلا هنا أو هناك عن طريق القبائل المنشقة والذي كان قد الهم ثورة « أبو يزيد»الكبرى « صاحب الحمار » والذي انطلق من جبال الأطلس فيما بين عام ٣٣٦ /٩٤٣ وعام ٣٣٩ /٩٤٧ .

إن الصراع يخفي بعمق المجازفة الأساسية التي هي السيطرة على المنافذ الشمالية للطرق الصحراوية حيث يتوافد الذهب وعبيد السودان ، ولم يكن حكام بغداد وحدهم هم الذين يسيطرون على هذه المناطق ، وإنما كان يسيطر عليها أيضاً بعض البربر كالحماديين بالمغرب الوسطى الذين لعبوا سياسة التأرجح الكلاسيكية فيما بين القرن الخامس / الحادي عشر ، أو بعض التجار ـ كتجار البصرة والكوفة وبغداد ـ وكان الجغرافي ابن حوقل قد أعلن عن وجودهم حوالى عام ٣٤٠ /٩٥١ في سلجماسة .



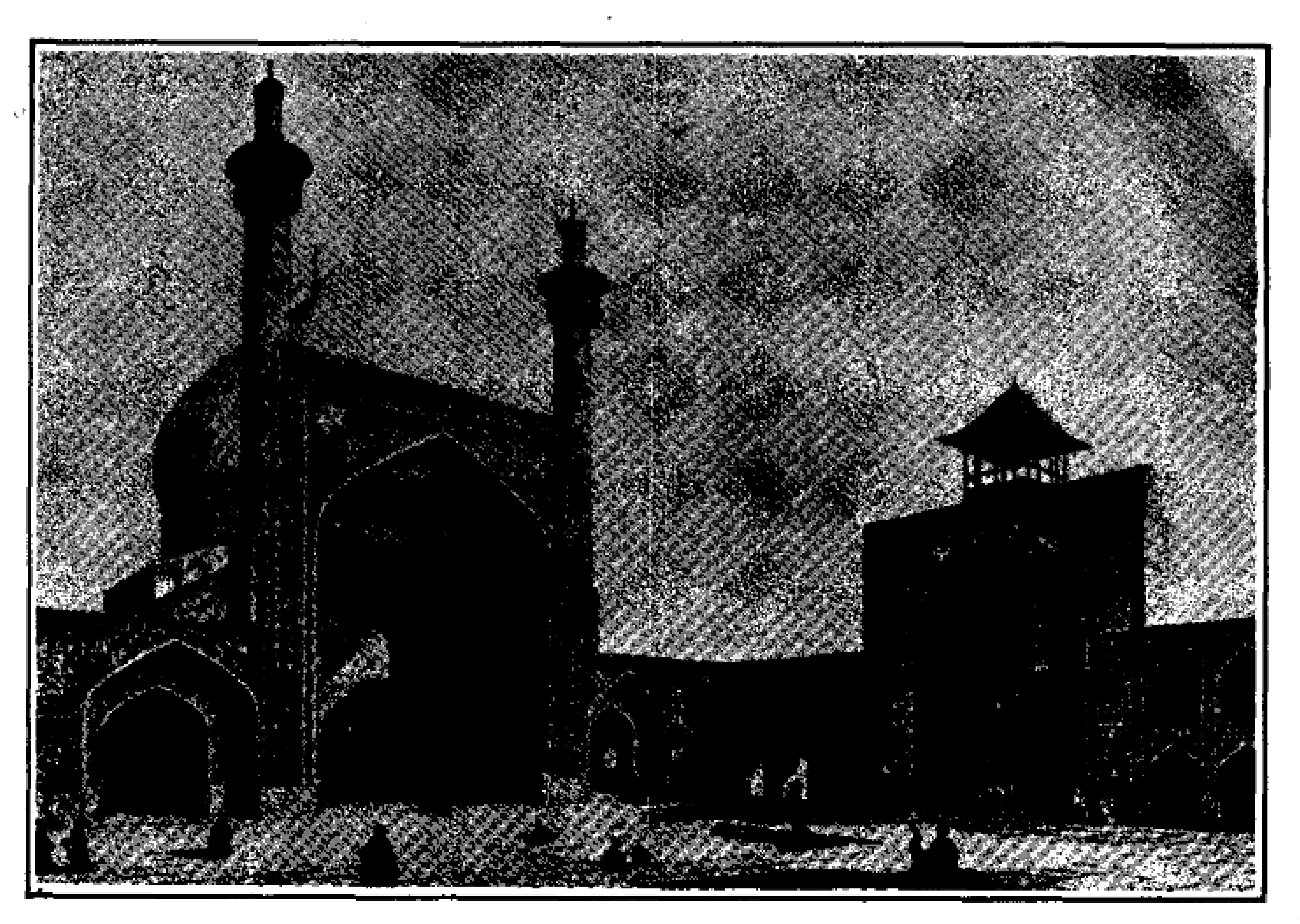


لنكتف بهذه المدينة التي أسسها المدراريون ، البربر الخوارج ، وكان خليفتهم قد أطلق على نفسه لقب الخليفة عندما عاد إلى السنية ، ثم سقطت سجلماسة أيام جوهر القائد الفاطمي الكبير عام ٣٤٧ /٩٥٨ ، ثم عادت إلى المدراريين الذين حل محلهم بربر آخرون من بني خزرون وحكموها لصالح الأمويين في قرطبة ، قبل أن يعلنوا أنفسهم أحرارا ، وتعد سجلماسة النموذج البانورامي لمصالح البربر والأجانب الذين يتقاسمون الغرب الإسلامي .

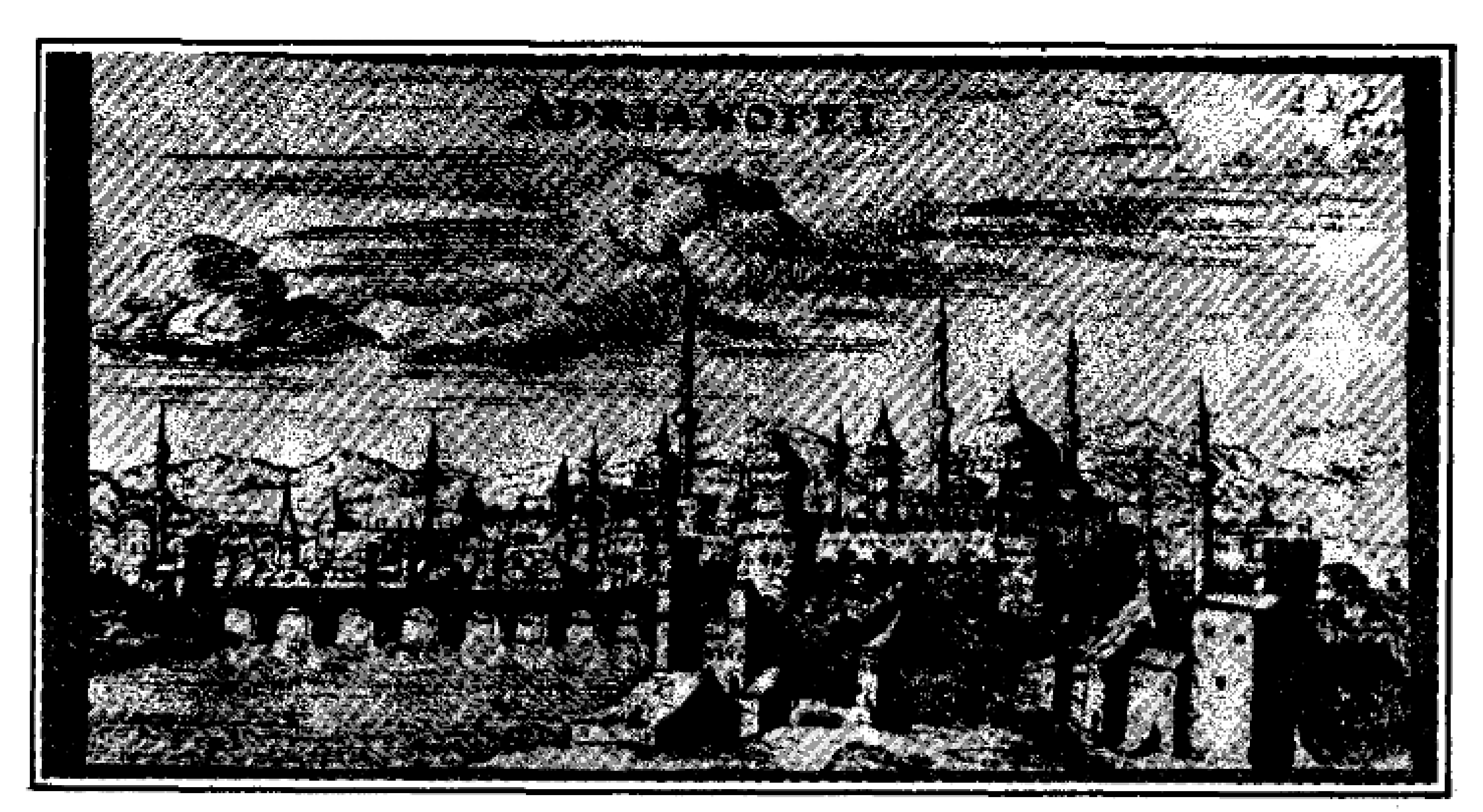
ثبات مصري ومجازفات سورية .

في أواخر القرن الثالث / التاسع بدأت مصر تاريخ استقلالها عن خلافة بغداد ، وكان ابن طولون ابن أحد العبيد الأتراك والنتاج الصافي لحرس طاغية سامراء ، قد تم تعيينه في مصر ثم بدأ يستحوذ شيئاً فشيئاً على السلطة الضريبية ثم العسكرية ثم استولى على السلطة بأسرها ، وكان تابعا للخليفة العباسي ، فقام بتكوين جيش متين من العبيد الأتراك والسود استولى به على سوريا ، إلا أن الأسرة الحاكمة التي أسسها لم تستمر طويلا ، وكانت تعرف باسم الطولونيين ، فقد استبعدها الأخشيد عام ٣٢٣ /٩٣٥ وهو من علية القوم من فرغانة البعيدة وكان الوزير والقائد البارع كافور الحبشي ـ سيد البلاد الحقيقي ـ يعاونه ، وصارع الأخشيديون ـ بنتائج مختلفة ـ ضد الحمدانيين الذين يحتلون سوريا الشمالية ، إلا أن مصر سقطت عام ٣٥٨ /٩٦٩ في أيدي قادمين جدد من جهة الغرب هم الفاطميون الذين قادهم جوهر ، ولكن الخلافة الشيعية في مصر قد صدتهم ودفعت برسلها عبر شبه جزيرة العرب حتى بلاد الهند ، بل وستعترف بها بعض المدن العراقية لفترة ما ، لكنها كانت مجرد انتصارات وقتية ، فالحكم السياسي الفاطمي ظل أساساً محدوداً في مصر ، ولن يمتد بشكل حقيقي إلى سوريا التي تتنازعها ثورات القرامطة القادمين من البحرين ، أو الأتراك القادمين من بغداد ، في حين بدأ العدو الحقيقي في الشمال ، وكان بيزنطة التي راحت تستولي على حوض نهر الأورنت وإنطاكيا ، ثم أخذت تتنازع مع الفاطميين على السيادة المطلقة على مدينة حلب ، التي كانت غارقة في الفوضى .

والتاريخ المضطرب ترادفه تعليقات بسيطة . . . فالشرق الأدنى الذي كان مسرحا لهذه الصراعات أثبت في نفس الوقت أنه منطقة لقاءات ، لقاءات

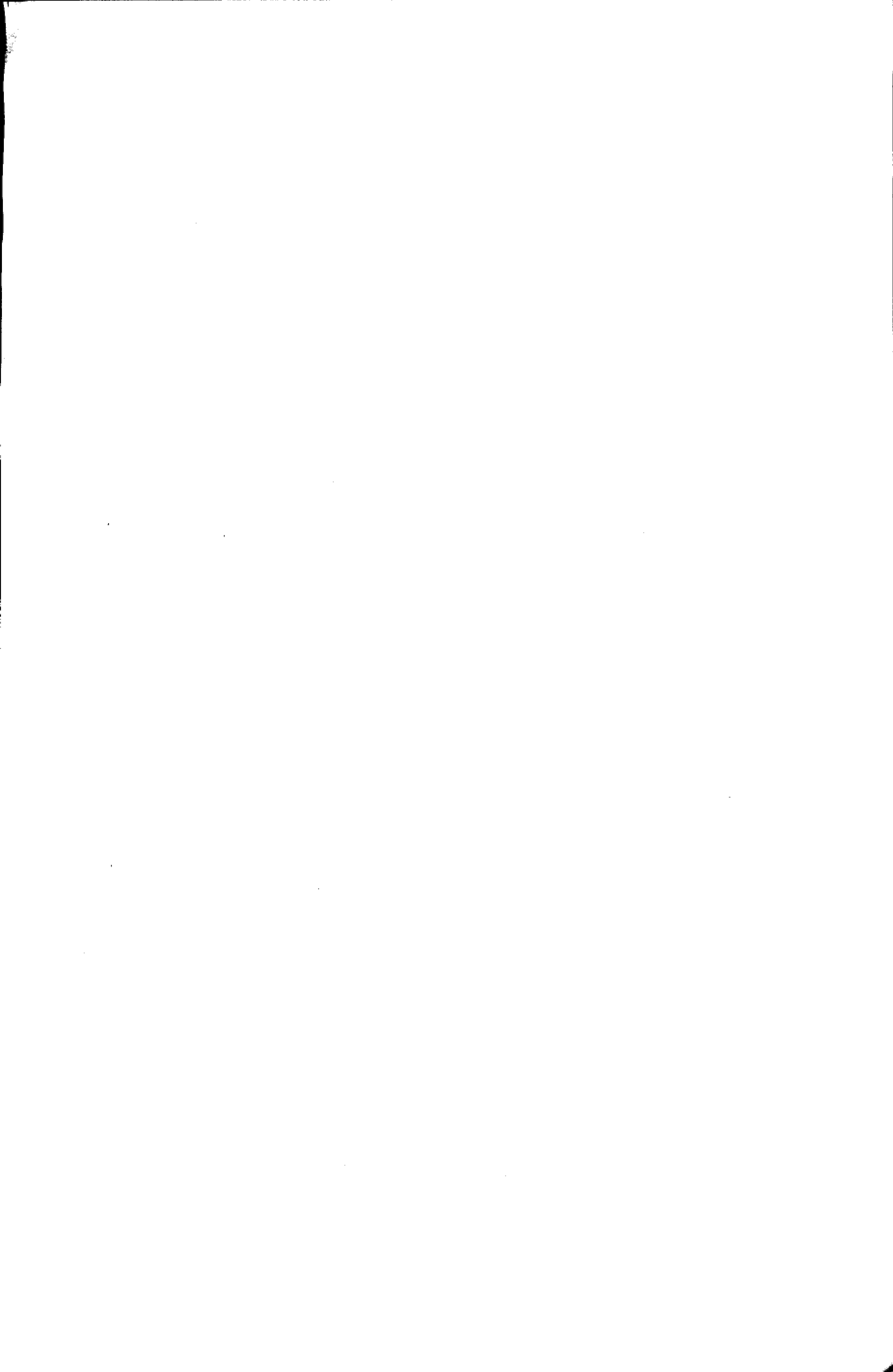


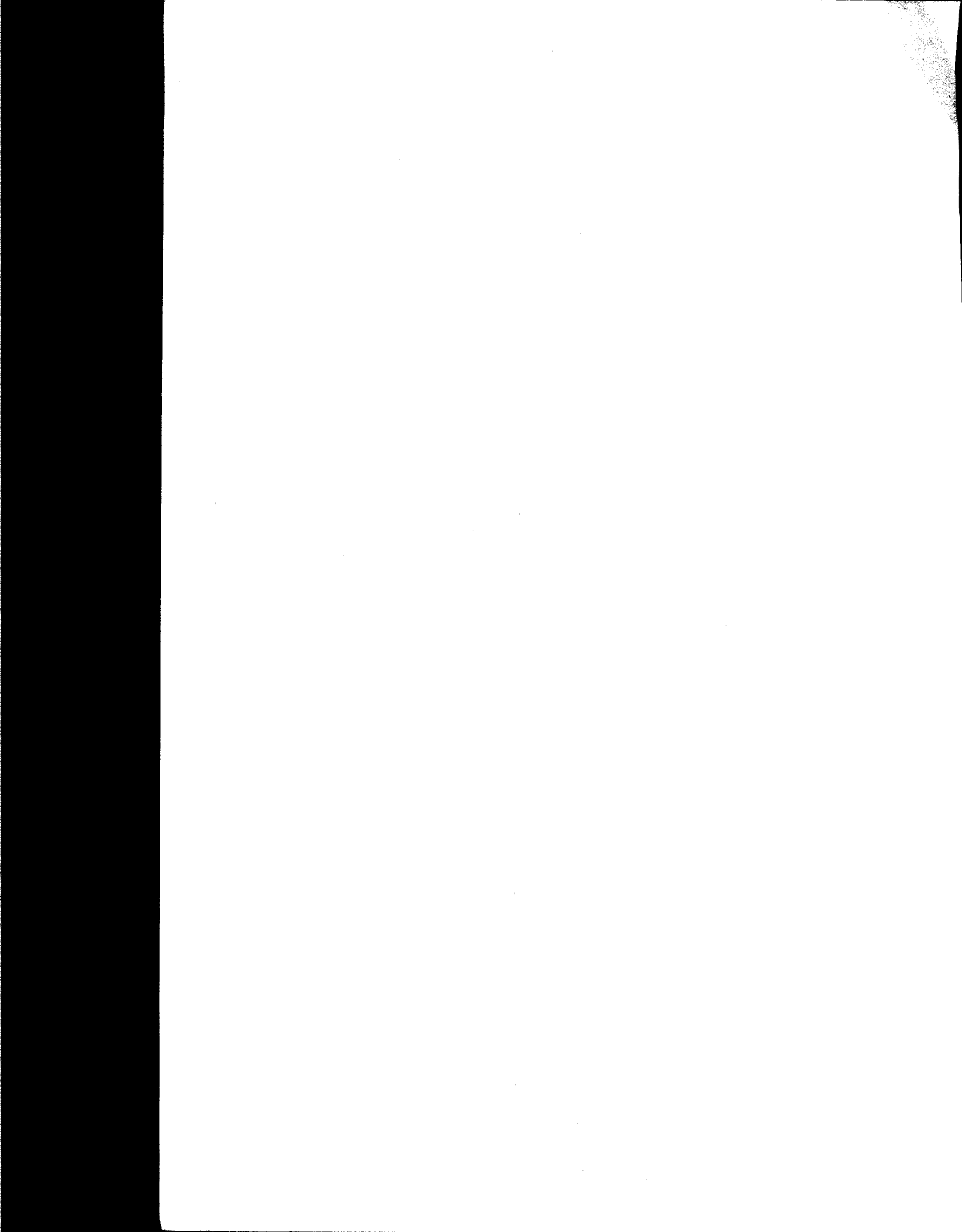
ـ ٩ ـ (فوق) ١ ـ مسجد الشاه في أصفهان (أواخر القرن السادس) .



بانوراما مدينة أدرنة : مآذن عثمانية من القرن الخامس عشر والسادس عشر .

الأسلحة بالطبع ، وكذلك لقاءات تجارية وثقافية أيضاً ، وكانت مصر وسوريا المفتوحتان للهجمات الشرقية والغربية التي تتلاقى عندهما ، قد ظلتا كما كانتا قبل الإسلام ، محطات لا بد منها للتاريخ والمكان الإنساني ، وقد نجحت مصر أكثر





ضد رؤسائه ويؤسس عاصمة جديدة قرب غزنة عند المصبات الأفغانية للطرق الهندية ، وستحمل أسرته اسم الغزنوية الذين سينحدرون تجاه السند والكنج ، ومن علامات ذلك العصر أن محمودا قد أعلن السنية بشكل رسمي وعين نفسه تابعا أمينا للخلافة ، لكنه كان تابعا فريدا ، ذا ميول فريدة في الوصاية .

إن الصراعات الدينية بين اعتدال السامانيين المتسامح أو الفاتر ، وشيعية البويهيين الإثنا عشريين المتطرفة ، وسنية الأتراك المناضلين ، قد أثارت صراعات أخرى كما كان حادثا في الغرب إذ كان الأمر يتعلق بالسيطرة على ملتقى الطرق الكبرى ومصبات الأنهار الروسية التي تسمح بمحاصرة بيزنطة شمالا ، وبتوصيل منتجات أوروبا الوسطى والشرقية إلى بادية قزوين وبحر أورال ، ولعل الأمر كان يرمي إلى أكثر من ذلك كمحاولة استخدام الطريق القديم لقوافل الحرير الذي كانت تمر منه منتجات الصين على مستوى خراسان ، وهو طريق يسانده الطريق البحري للشرق الأقصى في الخليج الفارسي ، لكنه كان طريقا مألوفا وأكثر أمنا إذا ما قورن بمخاطر البحر .

٤ ـ سلطة الحرس ووضع الخلافة تحت الحراسة .

بدأت الخلافة العباسية تعاني من الشغب على حدودها ، ثم انتقل هذا الشغب إلى المناطق الوسطى من الإمبراطورية التي انتهى بها الأمر إلى أن يسلبها الحرس كل سلطاتها ، والأمر بسيط وتقليدي ، فقد بدأ السامانيون في بخارى والأمويون في قرطبة والفاطميون في القاهرة يتساقطون تباعا ، وقد بدأت هذه المناوشات في بغداد عقب إنشاء حرس العبيد (الزنج) ، والغلمان الأوروبيين والأفارقة وكذلك الأتراك بوجه خاص الذين بدأوا يحتلون الصدارة والمراكز العليا في السلطة منذ أيام المعتصم .

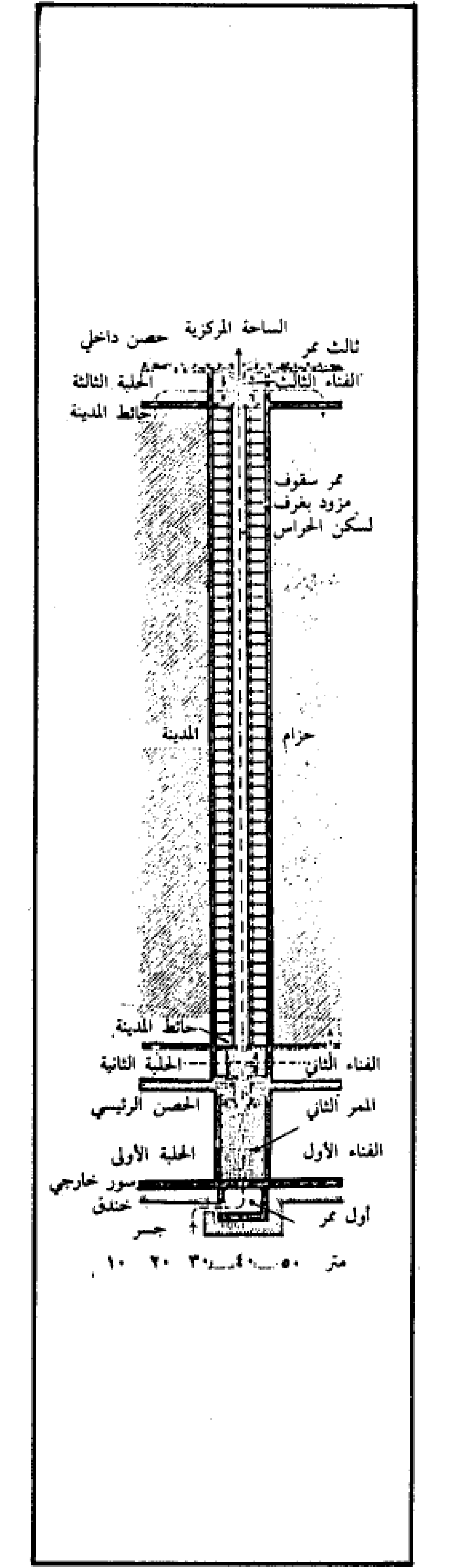
ولا شك أن الفكرة كانت صائبة عند إنشاء حرس مهني محترف ملحق بشخص الخليفة مباشرة ، إذ كان ذلك يحرره من أية تبعية تجاه وحدات القوات المسلحة « الوطنية » من العرب ، وخاصة من الخراسانيين الذين قام على أكتافهم انتصار العباسيين فيما مضى ، ومع ذلك فقد كانت العواقب واضحة وهي انتقال هؤلاء الطموحين إلى الأمصار مثل ابن طولون حيث كانوا يزيدون من عوامل انقسام الدولة ، فالنهم العسكري المتزايد مرادف دائما لأزمة الدولة المالية ، وكما

نرى مرادف أيضاً لهدم التكوين العقاري ، وأخيرا فهو مرادف للإستيلاء على أجهزة الدولة ابتداء من الخليفة ، وبدأت الإغتيالات وعزل الحكام المنقسمين ، وهنا ـ كما في أية إمبراطورية ـ بدأ موت السلطة ، وقد صرخ أحد المحتجين مرة في وجه الأتراك قائلا « في كل يوم تقتلون خليفة ثم تعلنون عن غيره . . » .

ويعد عام ٣٢٤ /٩٣٦ نقطة تحول هامة في مسار هذا التاريخ المضطرب القاتل ، إذ تحدد نهائيا معنى وظيفة حاكم القصر ، ويسمونه هنا « أمير الأمراء » أي السيد بلا منازع لجهاز الدولة ، وكانت وظيفة مغرية بالنسبة للحرس الطغاة الذين راحوا يتكالبون على هذا اللقب ، إلا أن بعض الطموحين من خارج القصر كانوا ينافسونهم فيه ، فبعد الحمدانيين في الموصل ، آل هذا اللقب إلى البويهيين عام ٣٣٤ /٩٤٥ ، وقد راحوا ينظمون ما يثبت دورهم الرسمي كحماة للخليفة مثل لقب « يد الدولة» الذي حمله أكبر أمراء البويهيين (٣٦٦ /٩٧٧ ـ ٣٧٢ /٩٨٣) ، أي إن السلطة السنية أصبح يحميها شيعي إثنا عشرى . . . ويبدو أن الأمر انتهى بالخلافة إلى التناقض ففي الواقع كان البويهيون يقومون بمهام السلطة ويشجعون الدراسات الشيعية ، ويتحاشون ذكر انحلال الخلافة وإدانة السنية ، كما يبدو أنهم كانوا يهدفون إلى نوع من « الحكم الثنائي » لسلطتين أو إلى نوع من الوجود الرسمي لاتجاهين أساسيين في الإسلام ، ترى هل هو إخلاص أم هو عملية محسوبة مقصودة . . ؟ ما علينا . . . فالتناقض الذي ذكرناه لم يكن في صالح البويهيين فحسب ، وبصموده لهذه المحنة الأخيرة فإن الخليفة ـ بمساعدة الإنطلاقة المذهبية والمناضلة للسنية ـ قد أوضح أنه لا ينبغي الخلط بين الضعف السياسي والإشعاع الروحي ، أي أنه إذا كانت المؤسسة الزمنية تفلت فإن الرمز يبقى ، إن الإسلام كأمة ، والممثل في الخليفة سيظل قائما بصرف النظر عن الخلافات في الرأي ومهما كان الثمن . . . وسوف نرى فيما بعد ، وبنفس الطريقة ، إن معالم العالم الإسلامي تتحدد كسوق ضخم للإنتاج ولتصريف المنتجات وأنه يتجاوز الحدود الأقليمية ببساطة .



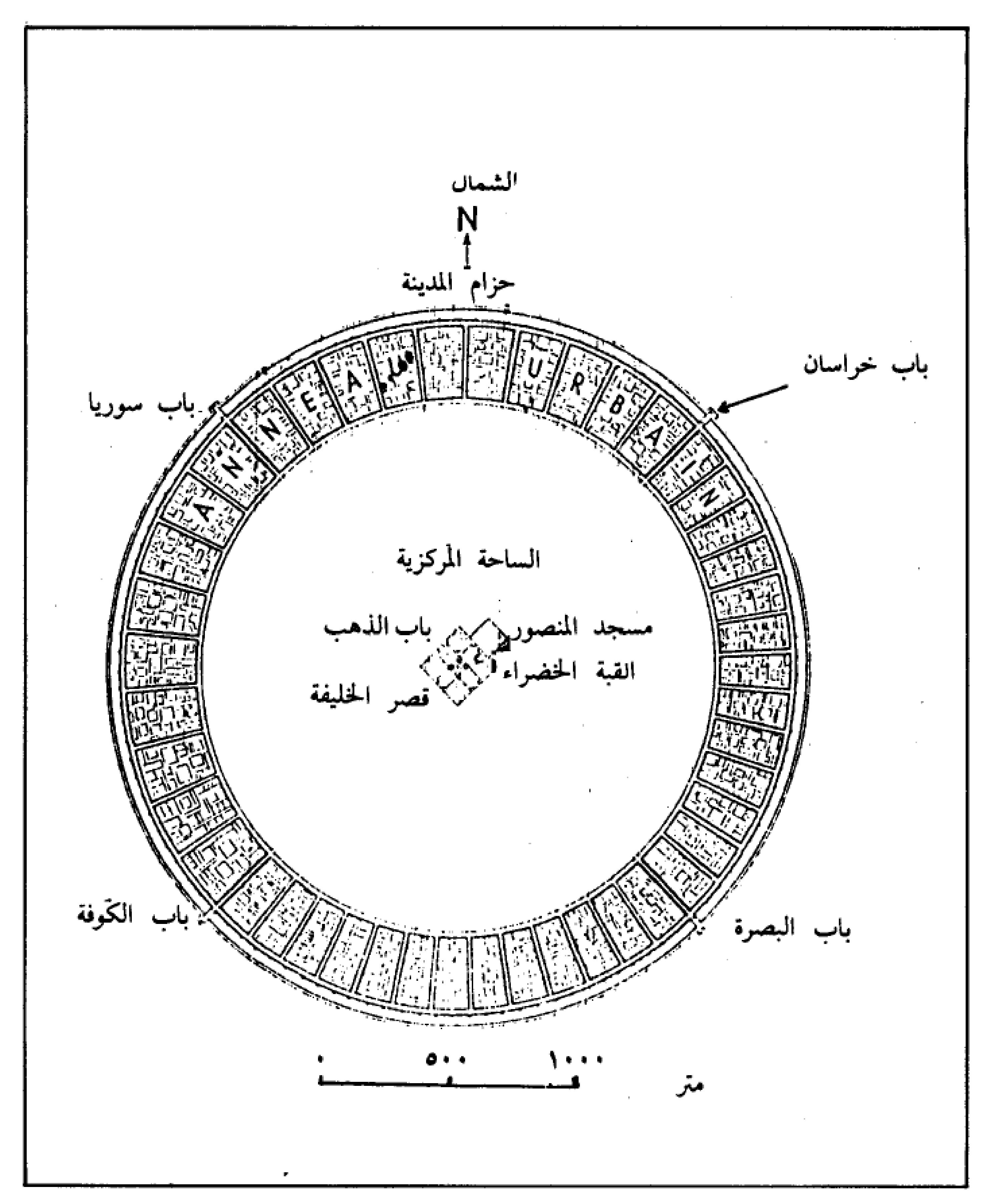
ملتقى الطرق التقليدي هذا حيث يمر النهر وكأنه يسهل المواصلات ويقدم مئونة لا نهائية من مياه الشرب ، فينساب مقتربا من الفرات مما يسمح بتقسيم المنطقة إلى مربعات من القنوات المتداخلة بعيدا عن المستنقعات الرطبة المليئة بالبعوض ، فإن تتابع بابل وسايس وطيسفون قد أدى إلى مدينة يعد الآجر فيها من مواد البناء الأساسية ، كما يعد شكلها المستدير مستوحي من العصور القديمة الشرقية السابقة ، المعروفة فيها بين النهرين وفي سوريا ، وعلى حد قول سوفاجيه : « إنها مدينة رقابة وإدارة ، توحي بالريبة المتعمدة التي تسحب العاصمة بعيدا عن الشعب ، وتسحب الخليفة بعيدا عن العاصمة في صمت متبادل » .



- (شكل ١٣ - بغداد . قطاع من « حزام المدينة ») .

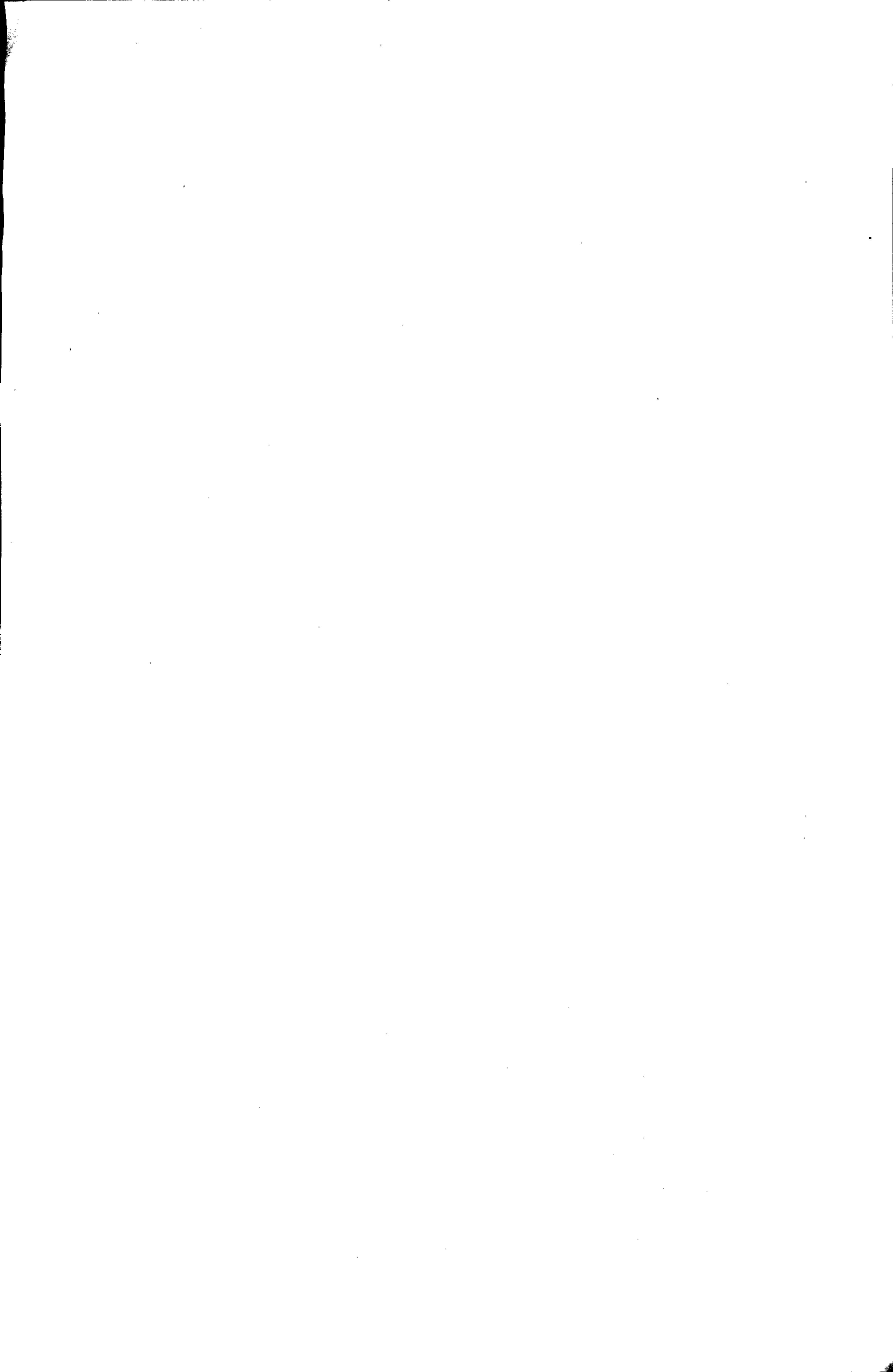
يحيط بالمدينة خندق عرضه عشرون مترا تقريبا تقسمه مجموعة من الجدران إلى مناطق مركزية يمكن عزلها عن بعضها عن طريق أبواب متحركة (أنظر شكل ١٣) وفي المنتصف يوجد مجمع القصر : سكن الخليفة وسكن حرسه ، والمسجد الكبير والمكاتب (شكل ١٤) وهي مبان شديدة الحماية إذ لا يقطنها في الواقع سوى الأشخاص الرسميين والحرس والأشخاص المؤتمنون على الحكم ، والذين قد تم توزيعهم وفقا لأصل أعراقهم ، ويمكن عزلهم بسهولة .

أما لأسواق فهي محصورة في طوائفها بعيدا عن المركز وعلى جانبي الطريق الذي يصل طوله إلى كيلومترين ونصف تقريبا . وهذه الطرق التي تبدأ عند كل باب من أبواب المدينة تقسمها إلى أربعة أقسام متساوية ، كما أن هؤلاء التجار لا



(ـ شكل ١٤ ـ بغداد : الخريطة العامة لمدينة المنصور المستديرة)

يقيمون داخل المدينة وإنما يقيمون خارجها مثل بقية الطوائف إلا أن المنصور سرعان ما سيطرد هذه الأسواق نهائياً لتقام خارج المدينة في الضاحية الجنوبية من الكرخ ، وستنمو المدينة شاسعة عظيمة ، كما ستنمو قصورها وحرفياتها على الجانب الشرقي من النهر حيث سيتم نسج تاريخ بغداد فيما بين ١٥١ /٧٦٨ وعام ٣٢٠ /٩٣٢ ، وقد أقيمت عدة قصور اشتهرت عبر التاريخ ومنها قصر المقتدر





وهي مدن ضخمة بالنسبة لتلك الفترة إذ يقول بعض المؤرخين أن تعداد سكان قرطبة كان . ٣٠٠,٠٠٠ نسمة وكان سكان كل من سمرقند والقاهرة ٥٠٠,٠٠٠٠ نسمة ، أما بغداد فكان تعداد سكانها مليونا ونصف نسمة ، مما كان يجعل للكوارث الطبيعية صدى كبيرا كالأوبئة والمجاعات (هناك خمس كوارث منها في بغداد فيما بين ٣٠٧ /٩١٩ - ٣٣٧ / ٩٤٨) والفيضانات والحرائق والمظاهرات التي كانت تجد مرتعا لا حصر له في هذه الأعداد ، فكان دائماً لا بد من إعادة إصلاح الجسور والموانىء والأسواق والمساجد والقنوات والضواحي بأسرها أحيانا ، إلا أن كل هذه العناصر لم تكن وحدها هي التي تؤدي إلى خراب مدن المشرق في موقعها .

٢ - الشرق في السلطة .

إن مجيء العباسيين إلى الحكم لا يعني الإنزواء التام لشبه الجزيرة العربية ولا إنزواء ممثليها أو ميراثها ، فدون التحدث عن اللغة الرسمية للأمة وهي اللغة العربية ، التي ستعرف هنا فترة من أجمل فتراتها ، فإن الأسرة العربية الحاكمة في بغداد هي من جماعات مختارة أصلا من نفس الأمة العربية حتى وإن ظلت تتأرجح بين السنية والشيعية في الإسلام ، إذ أن الشيء الجديد الذي أصبح مثار جدل بالنسبة للعرب هو استحوازهم على الإسلام وعلى أجهزة الدولة مما أدى إلى ظهور الموالي وخاصة الفرس في المناصب الرسمية وتصعيد الذكريات الشرقية إلى قمة البناء الإداري .

الخليفة وريث جزئي للطغاة الشرقيين .

كان الأمويون قد انساقوا - كما رأينا - في طريق الرسميات في البلاط ، إلا أن بذخ البلاط العباسي ، حيث تألقت بعض العادات الساسانية (شكل ١٦) وربما عادات من عصور أخرى سابقة ، قد تخطى كل هذه الأنماط السابقة لها ، فالخليفة قد انعزل عن الشعب تماما ولم يعد يظهر له إلا في المناسبات مكرسا وقته للمقربين إليه من أقاربه ومعارفه وكبار رجال الدولة ، وعندما كان يعقد جلسة علنية كان لا يبدو على العرش إلا في قمة تزينه وسط كبار موظفيه ، مثل الوزير والحاجب ورئيس شرطة بغداد ورؤساء الفرق والبريد وقاضي القضاة وقاضي

اليهود وقاضي المسيحيين وغيرهم من « الحلى الفاخرة »وذلك بخلاف جيش من الأمراء وكبار التجار وضباط البلاط والحرس والخدم والمهرجين والفنانين وكل هؤلاء القوم الذين تحكمهم مراسم صارمة ذات أصل فارسي ، تقوم بتحديد الجلسات وترتيب النداءات والزي والرسميات ، ومن علامات ذلك



شكل ١٦- امبراطور ساساني على عرشه

العصر تقبيل الأرض أمام الحاكم، ولا شك أن هذا التقليد كان يثير غضب المتزمتين المسلمين مثلما أثار الإسكندر غضب المقدونيين عندما اتخذ العادات الأسيوية .

ومن بين ما أصاب الأصل العربي والإلتزام المثالي للأزمنة الأولى التغيير الذي طرأ على الثياب الباذخة وعلامات التمييز الفخرية مثل التيجان والألقاب الرسمية والإفراط في الترف في الأطعمة واتساع نطاق استخدام الأقمشة الثمينة وخاصة الحرير الذي كان النبي يزدريه ، وكل ذلك تحت شعار القانون الصارم ، إن الإسلام ، تحت هذه الإنبثاقات الوقتية ، كان يتسم في الشرق بالبذخ ويزداد اقترابا من التقاليد الأسيوية القديمة التي كانت بلاد فارس تقدم له الصورة المباشرة لها لكي لا يتذكر سواها . . .

ومع ذلك فيجب ألا نفرط في التشبيه ، فإذا كان الخليفة حاكما فرديا مثل سابقيه الشرقيين فإنه يختلف عنهم في أنه لا يعتمد في سلطانه على تأليه شخصه ولا استنادا على طبقة معينة منظمة مثل رجال الدين أو النبلاء ، إذ أن الخليفة يظل رمزا لدين المساواة الذي لا يعرف - أو على الأقل يرفض - التفرقة الإجتماعية كما يرفض أي شيء يمس مكانة الله ، فينجم عن ذلك أن الخليفة يصبح غير قادر على تبرير سلطته وحظوته والبذخ الذي يعيش فيه إلا بأنه خادم الشريعة التي تخص جميع المؤمنين . وينتج عن ذلك أيضاً مميزات السلطة أيام الإسلام في القرون الوسطى ، وبما أن الشريعة فوق الجميع ابتداء من الخليفة ، فإنها تظل خاضعة للعلماء ومن « الإتفاق الإجماعي للأمة»: أمة إسلامية ليست قاصرة على العرب

وحدهم من جهة ، ومن جهة أخرى أمة هي وحدها القادرة على تعريف الشريعة بالنسبة للصالح العام ، وذلك بالرجوع بقدر الإمكان إلى الأمثلة المشابهة في الإسلام السلفي (الأصلي) ، وفي التطبيق العملي لا يهم كثيرا إذا ما لجأ هؤلاء العلماء المتخصصون في تطبيق الشريعة العقائدية لمعطيات القانون العام أو الخاص ـ إذا ما لجأوا إلى ما استعانت به الدولة الإسلامية في العصور القديمة ، إذ أن السلطة العليا لا يمكنها الإعتماد على حكم استبدادي لزعيم يمتلك موهبة خاصة .

والنتيجة على نفس الدرجة فيما يتعلق بممارسة السلطة التي تتم عن طريق الوفود من الخليفة إلى الإدارة المركزية أو إلى المقاطعات ، وهنا أيضاً فإن الفرق الأساسي بين الدولة الإسلامية والدول السابقة لها يكمن في أن طابع الحاكم أنه مؤتمن على السلطة وليس مصدرا لها (باستثناء دولة الشيعة المثالية) حتى إذا ما وجد بعض الميراث الأجنبي مكانا في أجهزة الدولة فيبقى أنه يعيد تشكيلها في جو جديد إسلامي ، يجعل من تعريف « أمير المؤمنين » الخليفة البسيط للنبي وحارس الأمة وراعيها من بعده .

الوزير : برامكة واتباع .

إن الوزير بالنسبة لقراء رواية « ألف ليلة وليلة » هو جعفر البرمكي ، الرفيق الذي لا يبتعد عن الخليفة هارون الرشيد ، إنها صورة أسطورية خاطئة ، لما فيها من مغالاة ، فالوزارة لم تكن دائما بهذا الوضوح ، إلا أنها تخطته بكثير أيام أسرة البرامكة الشهيرة ، والواقع أن الوزارة أساسية ومتطورة ، ويمكن تلخيص تاريخها في أنها قد تأرجحت بين قطبين : مجرد وظيفة رئيس الموظفين القائم بإدارة المكاتب إداريا ، أو النيابة الحقيقية عن الخليفة التي تجمع كل السلطات حتى السلطات العسكرية لإدارة سياسة الدولة .

إن العصر الذهبي للوزراة يقع في الأعقاد الثلاثة الأولى من القرن الرابع / العاشر حيث تألقت أسماء بعض الشخصيات البارزة مثل ابن الفرات أو علي بن عيسى ، إلا أن هذه الوظيفة ظلت دائما تحمل تناقض تعريفها المزدوج : هل هي وظيفة تنوب عن الخليفة حقيقة أم مجرد تنفيذ ؟ هل هي سياسة أم إدارة ؟ ثم إنها كثيراً ما يتغير شاغلوها . . وأكبر مثل على ذلك أنه يوجد أحد عشر شاغلا لهذه

الوظيفة في أربعة عشر وزارة أي بواقع وزير كل عام أيام الخليفة المقتدر وحده (٢٩٦ /٩٠٨ ـ ٣٢٠ /٩٣٢) .

ترى ما هي أسباب زوال المحبة ؟ هل هي مجرد نزوة من الأمير ؟ أم مؤامرات أو مشاحنات مالية أو دينية ، فكثيراً ما تؤدي هذه المكانة الرفيعة إلى أن يأخذ الوزير في جمع الكنوز والموالي مما يثير غضب الخليفة الذي يرى في هذا التصرف إهانة لشخصه وللدولة ، كل هذه الأسباب تفسر الصراعات والغضب الذي يؤدي أحيانا إلى الإعدام ، وهنا يمكننا ذكر مثل الأسرة البرمكية في بلخ ، وكانوا حراسا أبا عن جد لأحد المعابد البوذية ، وقد عملوا نفس الشيء في الوزارة إذ جعلوها وظيفة عائلية ، مما أدى إلى غضب هارون الرشيد الذي كان قد قرر أن يحكم بنفسه بينما كان غيورا من ثرواتهم التي جمعوها وقلقا من ميولهم تجاهَ العلويين فتخلص منهم عام ١٨٧ /٨٠٣ .

وإجمالا للقول فهناك شيء من التناقض في هذه الوزراة التي هي مؤسسة أساسية للخلافة إلا أنها مؤسسة حيوية تشتمل على الوقائع المتنوعة التي لن تتشكل نظريتها إلا فيما بعد ، حوالي القرن الخامس / الحادي عشر ، إن الوزارة تبدو من عدة جهات وظيفة ولدت من التجريبية وإن لقبها أو تعريفها لن يدخل عادات الدولة إلا تدريجيا ، لذلك يجب استبعاد نظرية إنها مجرد نقل للمؤسسة الساسانية ، فإن كان الأمر كذلك فكيف يمكن افتراض أن مثل هذا التراث المتداخل في تطبيق الدولة الإيرانية قد أخذ كل هذا الوقت ليتشكل في الدولة التي تلته ؟ ـ . . في الواقع أن الوزارة إذا كانت قد استعانت ببعض الملامح من النماذج السابقة لها كالإيرانية أو الهللينية والبيزنطية أو الهندية ـ وفقا لقول بعض واضعي النظريات ـ فهي ذات إصداء عربية أيضاً على الأقل في كلمة « وزير » التي يمكن الوصول بها إلى النص القرآني .

إذن فهي مؤسسة مركبة تستعين بعدة عادات سابقة ولن تتحدد معالمها إلا تدريجيا وربما كانت سمتها الثابتة والتي تفسر ذلك الطابع المتراقص للوظيفة ولشاغليها ، تكمن في عدم ثبات أساسي فحتى عندما تصبح الوزارة وظيفة دولة بأوسع معاني الكلمة ويصبح القائم بها بديلا حقيقيا للخليفة فإن المؤسسة تظل دائما مرتبطة بمفهوم « خدمة شخصية » للحاكم ، الذي تظل موافقته ضرورية ولا

يمكن للوزير أن يعمل بدونها ، إن هذا الطابع الشخصي للصلة بين السلطتين ، الخليفة والوزير ، تفسر الجانب الكبير الذي تلعبه المؤامرات ذات الطابع ، كما تفسر كيف يمكن لشاغل هذه الوظيفة أن يصبح سهل الرفت ، هل يعني ذلك أن هذه المؤسسة تظل معلقة في الهواء ؟ ستكون الموافقة على هذا الرأي مبالغة ضخمة ، إذ أن الوزير هو أيضاً التصاعد الأعلى للمكاتب التي تؤكد بقاء الدولة خلف الوزراء الذين كثيرا ما تطير وظيفتهم وسلطاتهم وأحيانا رؤوسهم . . .

الموظفون : فنيون مهرة ونماذج ثقافية .

تماما مثلما يحدث في وزاراتنا ، فإن إدارة الدواوين الكبرى في الخلافة العباسية قد تغيرت كما وكيفا حسب الأزمنة ، وأهم هذه الدواوين وأثبتها هو ديوان ضريبة الخراج والخزانة والحربية والأختام ، أما ديوان العدالة فيأتي بعد ذلك إذ أن القاضي كالحاكم ، هو حارس الشريعة التي هي أعلى منهما ، فالقاضي يبدو في مختلف درجات السلطة المركزية أو الأقليمية كالمساعد أو المستشار للسلطة في الشئون القضائية ، إلا أن الرغبة في مركزية هذا المجال مثل غيره من المجالات أدت بالجهاز الإداري إلى أن يقرر منذ بداية الخلافة العباسية ووفقا لبعض التأثيرات الإيرانية إنشاء وظيفة قاضي القضاة في بغداد ، التي تمكن شاغلها من تعيين ورفت مجمل القضاة الذين يخرجون على السلطة المحلية ويتبعون سلطة الحاكم ، وذلك بأمر من الخليفة أو الوزير ، أما إذا كانت هناك مخالفات أو إفراط في استخدام السلطة واستغلالها أو فشل ما أو امتناع القاضي عن الحكم فإن الحاكم كان يبت في هذه المسائل في محكمة خاصة هي ديوان المظالم ، وربما كان هذا الديوان أيضاً من وحي الساسانيين .

أما إدارة المقاطعات (الأمصار) فكانت أيضاً مزدوجة ، إذ أن قيادة الفرق كانت تخضع للأمير ، أما السلطة المدنية وخاصة الموارد المالية فكانت تخضع للعامل وكلاهما يتلقى أوامره من بغداد مباشرة .

إن هذه الوزارة « المركزية البيروقراطية والغارقة في الأوراق » كانت برمتها في أيدي الوزير ـ على الأقل في الفترات الهامة للمؤسسة ـ وستحاول عملية ربط الإمبراطورية بأي ثمن ، وسوف يعاونها جهاز رائع هو جهاز البريد ، ولعله أيضاً مستوحي من بيزنطة وإيران ، فقد كانت الأوامر الرسمية والمعلومات الخاصة

بموقف الحكام والمحافظين والموظفين وحالة المحافظات أو الموقف عند الحدود تنقل من طرف إلى آخر عبر أراضي الإسلام عن طريق تنظيم حوالي ألف محطة بريد ، وعلى قمة هذا الجهاز يوجد الرئيس الأعلى للبريد الذي يعاونه « الخبّار » وكان عليه أن يراقب الإدارة المركزية بما فيها الوزير .

فمن أسفل السلم إلى أعلاه وحتى إلى الوزير نفسه الذي عادة ما يكون قد تم تكوينه في مدرستهم فإن المكاتب هي التي تسير هذه الألة الضخمة ، إن الكاتب هو الذي عليه أن يكتب جميع القرارات الرسمية في لغة عربية سليمة ومنمقة ، لذلك كان على الكاتب أن يكون على دراية بالثقافة القضائية ومسح الأراضي إلى جانب تكوينه اللغوي ودرايته بقواعدها ليتمكن من عمل الوعاء الضريبي ، ولا يمكنه عمل أي تخصص إضافي إلا بعد التمكن من هذه القاعدة الثلاثية أولا .

إن معظم هؤلاء الموظفين كانوا أصلا من العراقيين وبعضهم من المسيحيين ، وكانت الأذواق والعادات التي يجلبونها معهم تثير مشاكل كبيرة بالنسبة للضمير الإسلامي ، وكثيرا ما سيلفت نظرهم إلى أنهم فنيون مهرة ، وأنهم في هذه الوظائف للطاعة وللتنفيذ على أكمل وجه فحسب ، وذلك مثل الكاتب الكبير الجاحظ الذي كان يخشى على الإسلام ـ رغم تفتحه ـ من التأثيرات الإيرانية وما يمكن أن يدخله هؤلاء الفرس على أجهزة الدولة من فساد . وفي نظر بعض واضعي النظريات الآخرين فإن هؤلاء الموظفين التابعين للدولة هم خير مثال للثقافة الجديدة ، وذلك مع الإصرار مع ابن قتيبة على التعبير العربي لهذه الثقافة ، وأنه من الممكن الإستعانة باللغة الإيرانية (وليس اليونانية) في رؤ ية إجمالية للتاريخ حيث تصبح شبه جزيرة العرب ورسالتها هي أساسه ، أو أن تتسع معلومات الكاتب ـ على حد قول قدامة ـ إلى درجة موسوعية ، تتعدى بكثير نطاق الوظيفة ، مثل المعلومات التي كان المتشددون في الإسلام يحددونها للثقافة العامة .

وبعيدا عن كل نظريات (كاتم السر المتكامل) السكرتير فهناك حقيقة وهي : إن كل سياسة الموظفين الرسميين كانت التعبير باللغة العربية عن تنوع إسلام يناصر المساواة ، وحتى إذا ما ظلوا أوفياء لنوع ما من الشعوبية الثقافية الموروثة عن تراث غير إسلامي وغير عربي ، فقد لعبوا دور الخلافة بأمانة وكذلك حق الإسلام الذي طبقوه بدقة وراعوا قواعده ، واللغة العربية أيضاً التي أثروها

بأول نماذج النثر العربي الأدبي من ترجمة بعض النصوص الفارسية ، فقد قام أحد الكتاب الفارسيين هو ابن المقفع بعمل ترجمة لكتاب « كليلة ودمنة » إلى العربية عن نص فارسي لأساطير بيدبا الهندية وأن هذه الرحلة وحدها لرمز بأكمله .

منعطف القرن الرابع / العاشر إلى حكم العسكريين .

إن العهد الكبير للوزارة ينتهي عام ٣٢٤ /٩٣٦ بإنشاء منصب أمير الأمراء ، القائد الأعلى للدولة تحت إشراف الخليفة مباشرة ، وهو لقب عسكري ويعد من علامات ذلك العصر ، ففي إمبراطورية لم تعد فيها بغداد تحكم مباشرة إلا العراق ، فإن الوظيفة المدنية تنزوي أمام السلطة الطاغية للحرس ، وقد رأينا الفائدة التي سيحصل عليها البويهيون عام ٣٣٤ /٩٤٥ .

إن الحركة ولا شك أقدم من ذلك ، ففي أيام سامراء لم يكن الوزير إلا شبحا ، إذ كانت العسكرية التركية تقيل وتعين الخلفاء والوزراء ، إلا أن القرن الرابع / العاشر راح يؤسس الإتجاه العام تحت الأشكال التي سيعرفها القرن التالي بشكل نهائي وهي أبعاد سياسة كبار التجار والموظفين وازدهار أرستقراطية الضباط المعتمدين على الأرض وأزمة الأرياف والخزانة ، وهي عواقب التغييرات التي وقعت في الجيش . أي من جيش العقيدة إلى جيش الإحتراف ، هكذا يمكننا تحديد معالم التطور الذي أعاد البدو إلى الصحراء ليحل محلهم الخراسانيون ، عماد الإنتصار العباسي على الأمويين ، ثم ابتداء من القرن الثالث / التاسع راح يأتي بالأتراك والبربر والسلافيين والزنج والديلم والأكراد من المرتزقة ، ويمكن تفسير هذا التطور بعيدا عن الأسباب السياسية التي أثرناها من قبل ، ببعض الضرورات الفنية وخاصة الدور المتزايد لسلاح الفرسان الذي لا يتمشى مع الإمكانيات أو المعدات المرتجلة لأوائل المتطوعين .

فهذا الجيش المتشدد بتزايد نفوذه على السلطة المركزية كان بحاجة إلى رواتب أساسية ومن أزمة لأزمة فإن ثمن الإخلاص أخذ يتزايد وبدأت الخزانة تلهث والخليفة يلهث معها إذ أن تهدئة شراهة المرتزقة بحاجة إلى قيم عينية أكثر ثباتا ، إلا أن عملية تخصيص الأراضي للإقطاع كانت تتحدد بالقطاع العام وتتضاءل ، وقد تم الإستيلاء على كل الأراضي ولم يكن نزع الملكية سهلا في

تبريره أو يتم بلا مخاطر ، أما فيما وراء الحدود فكان الأفق يبدو مسدودا بوقف الفتوحات .

وكان لا بد من البحث عن شيء آخر ، وقد وجد واكتسبت كلمة « إقطاع » معنى جديداً ، وبهذه الطريقة لم يعد الجنود يحصلون على الأراضي وإنما على منح الضريبة العقارية للمجالات المعينة مما أدى إلى افتقار الدولة واستغلال الملاك من قبل طبقة كل ما يعنيها هو الحصول السريع على النقود حتى وإن كان ذلك على حساب إفلاس الأراضي ، كما أدى إلى بداية الديون وإلى نزع ملكية الفلاحين التقليديين ، وقد شاهدنا ملامح هذا التطور ترتسم أيام الأمويين ، إلا أن القرن الرابع / العاشر قد زاد من سرعتها خاصة في الشرق ، إلى أن يأتي العصر الذهبي « لنظام الإحتلال العسكري » بوصول الأتراك السلاجقة .

وإجمالا للقول فقد تم انتصار « أرستقراطية السيف » على « أرستقراطية النقود » ، إن الأزمة التي غاصت فيها الخلافة العباسية تتطابق مع التدهور السياسي لطبقة التجار لصالح طبقة عسكرية تستحوز على الأرض ، إلا أننا لا نتبين جيدا اليوم الأسباب الأخيرة لهذا التحول ، لأن تصاعد الاقطاع لا يفسر هنا كما في الغرب بظروف ذاتية لاقتصاد يعد أساسا اقتصادا ريفيا وارتداديا ، وإنما يتم على حدة وسط اقتصاد تجاري توسعي ، ولن يتعب حقيقة إلا فيما بعد في القرن الخامس / الحادي عشر تقريبا وربما تحت تأثير تعميم « نظام الإحتلال العسكري » .

ولا بد هنا من محاولة فهم تناقض معنى طبقة تجارية منتعشة ماليا ومفلسة سياسيا كما يمكننا تحديد طبيعة الأزمة التي تنهش الخلافة حول هذه النقطة ، إذ أن مصاعب الدولة تأتي هنا من المأزق الدائم للخلافة وليس من النظام الإقتصادي العام ، فالفجوة تزداد باستمرار بين دخل المقاطعات ـ التي تحصرها حدود الأراضي الشاغرة وحدود الأساليب في أحجام مماثلة تقريبا ـ وأعباء الإنفاق المتزايدة والأعباء العسكرية للخلافة ، إن هذا العالم الإسلامي الذي يزخر بالذهب والبضائع والرجال ، هذا العالم الذي بمقدوره أن يعيش بسخاء ـ كما سوف نرى ـ لم يكن يمتلك نفقات جيشه .

الفصل الثالث

تحت شعار التجارة

الوضع : انقسامات سياسية ، واستمرار للإنقسامات المحلية ، وعادات ضرائبية عريقة لبلدان البحر الأبيض المتوسط وبلدان الشرق : وكلها منابع ضرائب وجمارك ورسوم مرور ورسوم دخول ، كل ذلك لا يهم ويمكن تخطيه . . . إن ما لا تستطيع انجازه الإدارة والسياسة ستنجزه التجارة : فقد خلقت لنفسها نظاما فريدا ، بل واحدا من أكبر الأنظمة التي عرفتها البشرية وتخطت حدوده ، فما إن انتهى الفتح حتى حل التاجر محل الجندي بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير .

١ ـ مكان مؤقت ومرحلة انتقالية .

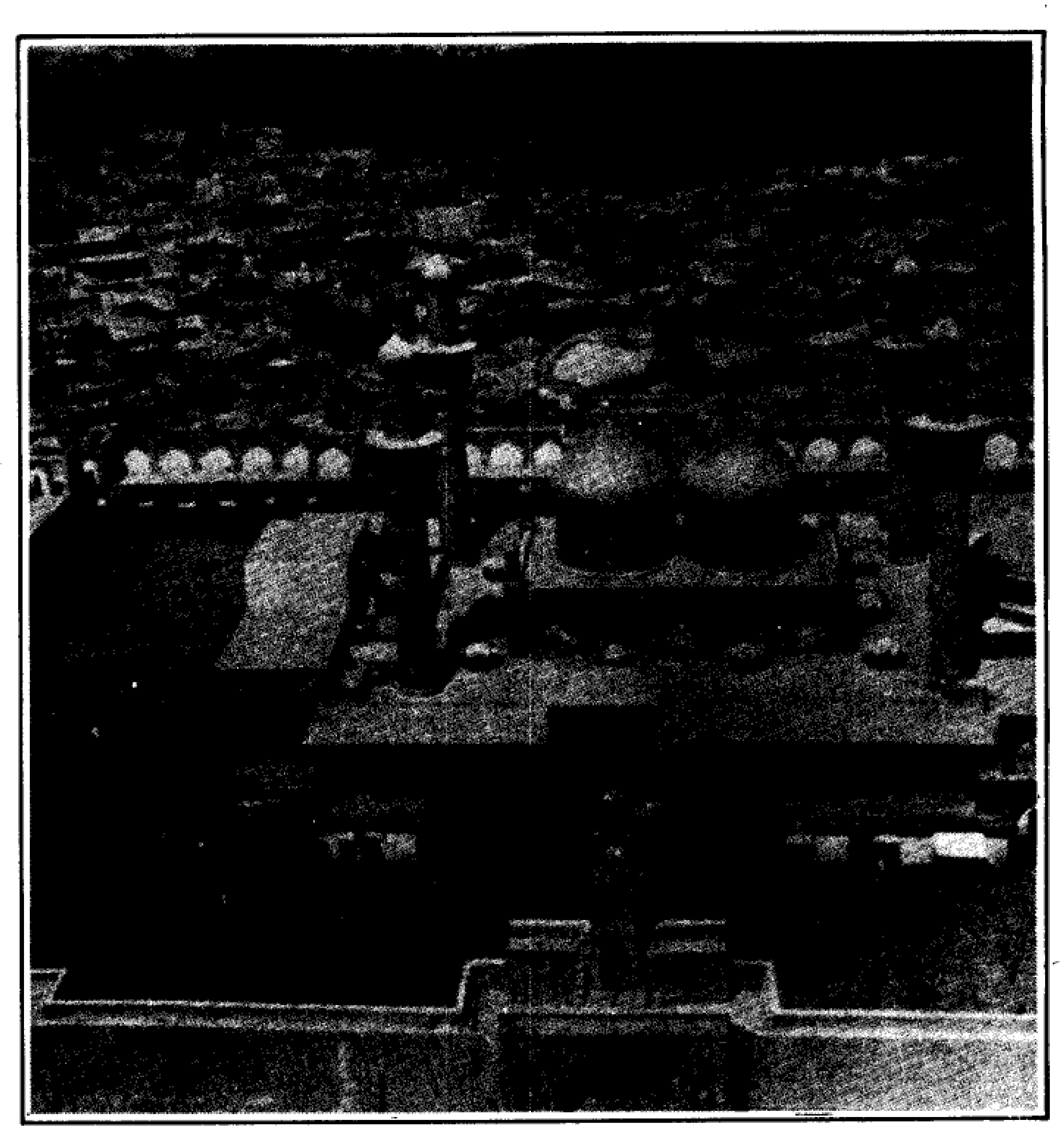
رغم بعض النتائج الحسنة فإن تاريخ التجارة في الشرق أيام القرون الوسطى الأولى ما زال غير معروف تماما ، فما زالت هناك أماكن ظلال كبيرة حول متوسط حجم المعاملات التجارية مثلا أو حركة الأسعار أو تداخل الإنتاج والتبادل . ، هل هو نقص في الوثائق ؟ هل هي معطيات مشكوك فيها ؟ أو متكررة بلا رقابة من مؤلف إلى آخر ؟ أم هي إهمال للتراث العربي الكبير الذي عادة ما يؤدي بدوره إلى إهمال المستشرقين ؟ ولعل الواقع يتعلق بكل هذه التساؤلات مجتمعة ، مما يدفعنا إلى توخي الحذر ، إلا أنه يبدو ـ على الأقل ـ إن العالم الإسلامي في القرن الثالث / التاسع والقرن الرابع / العاشر يحل محل الإمبراطوريات الكبرى القديمة ويعيدها من جديد ، إن منتجات الأرض

والمنتجات الدنيا والحرفية تظل كما هي ، أما التجارة فتستمر في تخصيص مكانة مرموقة لمنتجات البذخ التي تطلبها طبقة الأرستقراطية المدنية ، ومع ذلك فإن هذا العالم يعلن عن ملامح جديدة وهو يدين بعض الملامح السابقة القديمة ، وذلك بتكثيف التبادل وبتكثيف الدور الرئيسي المخصص للتجارة بعمل قانون أساسي للإقتصاد حيث تتلاقى فيه أراضي الإمبراطوريات القديمة الشرقية والغربية ، إن العالم الإسلامي يقوم أساساً بعمل دور انتقالي عبر المكان والزمان ، عن طريق الحركة المتزايدة للبضائع والرجال والنباتات والحيوانات .

إن الأراضي الإسلامية تتماثل مع ما كان موريس لومبارد يقول عنه « منطقة المضايق » بين المحيط الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط ، وبين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، وبين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي ، وبين البحر الأسود وبحر قزوين ، وهي منطقة ذات طابع مؤقت أساساً معتمدة على جزر حضرية مرتبطة ببعضها عن طريق شبكة طرق قديمة الأزل ، ومن خلال هذه المضايق فإن العالم الإسلامي يسيطر على أكبر مجالين اقتصاديين في الشرق الأدنى والبحر الأبيض المتوسط ويربط بينهما (أنظر خريطة ١٠) وذلك بدفع من سبقته من الحضارات الكلاسيكية نحو الصحراء وطرق السودان والوديان السفلى للأنهار الروسية وبادية آسيا ؛ ولم يترك سوى منطقة واحدة من هذه المناطق الحيوية هي بيزنطة التي تنازعه منطقة البحر الأبيض الشرقية والمداخل المباشرة إلى أوروبا وسهولها وغاباتها الكبرى والتي لا يمكنها إلا أن تكون مرتبطة معه في نفس تاريخ الحرب والتجارة والمنازعات الدينية وتهيئة القيم الثقافية المتماثلة عادة .

رجال وحيوانات .

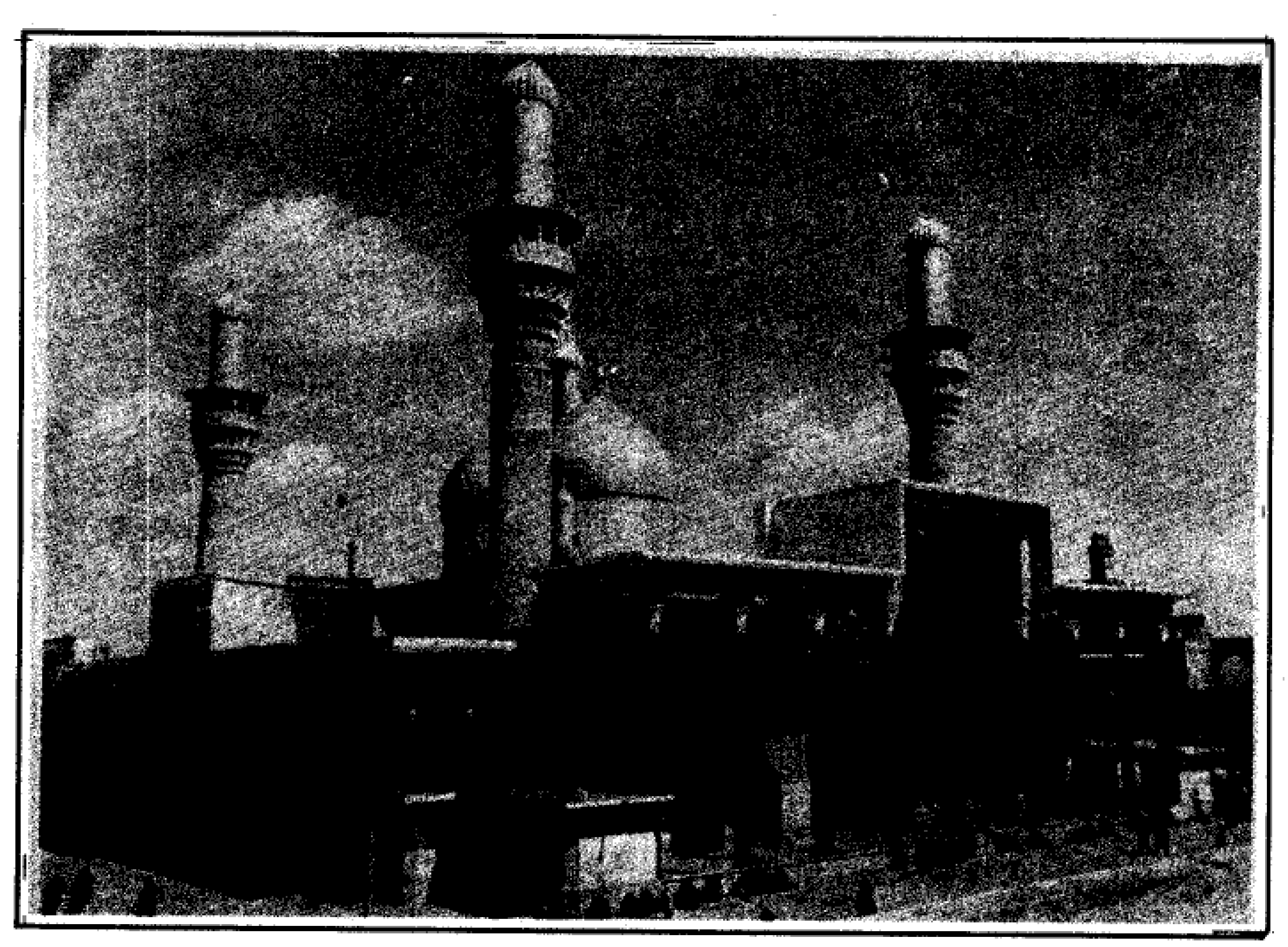
ترى من يسير عبر هذه الطرق ؟ الرجال بالطبع أولا : التجار المثقلون بالعملات الإسلامية التي سنجدها في مانز أو عند مشارف البلطيق ، والأسرى الذين يتبادلهم الإسلام مع بيزنطة عند موانىء البحر الأبيض المتوسط ، والطلبة والمثقفون الذين « يبحثون عن العلم » (والحركة هنا من الغرب للشرق خاصة حيث أنه من المفروض أن العراق تقدم أنماط العلم والمعرفة) ، وحجاج شبه جزيرة العرب وأيضاً الحجاج الشيعيون المتجهون إلى العتبات المقدسة في العراق وإيران ، وأخيرا العبيد الذين كانوا يسدون حالات النقص المزمنة في الرجال



ـ ١١ ـ أ المسجد الشيعي الكبير في الكاظمية من ضواحي بغداد

لمواجهة مسئوليات تطرح على المستوى العالمي ، وكان الإسلام آنذاك (ما بين ٣٠و٥٠ مليون نسمة) يأخذ العبيد من ثلاثة مصادر هي آسيا الوسطى وأفريقيا وأوروبا السلافية ، وكانت أعمال القوى الزراعية أو المناجم والخدمات العامة والجيش تستخدم أعدادا ضخمة ، فكان الطولونيون يمتلكون ٢٤,٠٠٠ عبد تركي ، و٤٢,٠٠٠ عبد أفريقي والأمويون في قرطبة يمتلكون ١٠,٠٠٠ عبد سلافي ، وعندما سيثور الزنج ، العبيد السود في جنوب العراق لمدة خمسة عشر عاما ، فسوف يلجأ الخليفة إلى تجنيد كل الجيش لإخماد ثورتهم عام ٢٧٠ /٨٨٣ .

وبعد الرجال يأتي دور الحيوانات ، فدون التحدث عن الجمل وحيد السنام



ب : منظر من المسجد الشيعي الكبير بالكاظمية في ضواحي بغداد .

أو ذي السنامين في آسيا الوسطى ، اللذين يتجه أحدهما إلى أقصى الغرب والثاني إلى بادية شمال القوقاز وإيران ، فمن الملاحظ أن الفترة العباسية تشهد بداية أو تكثيف هجرات نوعيات أخرى أساسية .

أولا وقبل أي شيء الحصان ، الذي انتقل من آسيا الوسطى إلى شمال الصين وأوروبا الشرقية ، والحصان الإيراني الذي اتجه إلى الهند ، وحصان البربر في شمال أفريقيا الذي سيعطي فصيلة « جينيه » في إسبانيا ، والحصان السوري المهجن أيام الرومان من فصيلتي شمال أفريقيا والإيراني والذي انتشر أكثر وأكثر إلى مراعي نجد ، وقد أعطى فصيلة « الحصان العربي » الذي تم تصديره إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط والهند ، ولقد أدى انتقال الحصان إلى انتقال زراعة البرسيم خارج مناطق المراعي الطبيعية من فارس إلى ما بين النهرين ومصر والأندلس .

أما الخروف فقد انتقل إلى إسبانيا حيث تأقلم الجنس المغربي الذي سيعطي



ـ ١٢ ـ العاصمة العباسية : سامراء .

فيما بعد المارينوس الشهير كما انتقلت معه وسائل تربيته ووسائل تجمع الرعاة الذين سيكونون مؤسسة مستا الرعوية .

وعلى هامش هذه التنقلات يمكن التحدث عن الجاموس الذي تبع أولى تنقلات غجر الزوت من الهند إلى جنوب العراق أولا ثم بعد ثورتهم (وخاصة أيام المأمون (١٩٨ /٨١٣ـ ٢١٨ /٨٣٣) إلى شمال سوريا وإلى مستنقعات الأورونت .

نباتات الحدائق ونباتات الحقول .

إن هجرات الرجال والحيوانات تلمس ـ كما سنرى ـ البلدان غير الإسلامية وخاصة الغرب ، إلا أنها لن تمحو معالم الغرب على حد قول لروا لادوري عن الأطراف الشمالية للبحر الأبيض المتوسط : « إن كل ما يسير على قدمين أو يمشي على أربع قادم أساسا من الشمال ومن الجبل » ، أما النباتات فعلى العكس من

ذلك فإننا نرى في كل مكان « الطرق التقليدية الآتية من الجنوب الشرقي » ففي الحدائق السحرية لرواية « الوردة » مثلما في الحدائق الكلاسيكية لجنوب بلدان البحر الأبيض المتوسط « فإنها تأتي مباشرة من بلاد السراسنة » الذين حل محلهم الإسبان والصقليون حيث تأقلمت تلك النباتات في الفترة التي تعنينا والتي ستنتصر في هجرتها إلى الشمال .

ولنحفظ أسماء بعض نوعياتها ومنها : « شجر البرقوق ،والمشمش من دمشق والقدس ، والخرشوف « زهرة الشوك» التي سوف يدخل عليها العرب بعض التحسينات « والخس والقنبيط ، والبقدونس والبنجر والشمر والكرفس والشمام « ذلك المسافر الذي لا يتعب» وقرع العسل والباذنجان إلى جانب الزهور ، كالورد الأبيض من دمشق والباقة من الهند وكثير غيرها ، ففي كل مكان إذن نرى « علم الوراثيات ظاهرا ودائما ومتداخلا في العالم اليوناني العربي أو في شبه الجزيرة اللاتينية » وكلها تأثيرات سابقة على الفتح الإسلامي إلا أنه يجددها ويعيدها من جديد ويدعمها ، بدليل أشجار الزيتون أو العنب الإسباني وقد أعيدت صحوتها بفضل نقلها من المغرب والساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

كما أن هناك محاصيل أساسية مثل القمح في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وفي جنوب إيطاليا والقمح الجاف من المغرب الذي أقلمه البربر في إسبانيا ، أما الأرز القادم من الهند فقد استقر فيما يشبه الجزر في الأراضي المنخفضة الحارة ، المائية أو سهلة الري ، مثل منخفض الأردن والواحات المصرية والجنوب المراكشي ووادي نهر الوادي الكبير في إسبانيا ، أما الذرة البيضاء فإنها تصعد من أفريقيا إلى مصر العليا وواحات ليبيا والمغرب ، ويمتد نخيل البلح تجاه صقلية وإسبانيا والصحراء الغربية أما قصب السكر الذي كان قد أدخله الساسانيون من الهند إلى السوس في القرن الرابع فيمتد إلى مصر وسوريا والمغرب وجنوب إسبانيا وصقلية ، وهنا فإن الفتح الإسلامي قد دعّم بعض عادات شعوب البحر الأبيض المتوسط والشعوب الشرقية التي تتغذى على القمح والشعير وهي تتناوب أسس الزراعة كل عامين وتستخدم إختراعات ما بين النهرين الشهيرة وهي الطمي والمحراث البسيط والساقية ، أي أنه يمكن القول إجمالا : إثراء وتجديد الحدائق واستمرار الحقول على شكلها التقليدي .

بعض الأساليب الفنية .

بقي أن نتحدث عن هجرة بعض الأساليب الفنية الحرفية ، وسوف نكتفي ببعض الأمثلة ، إن القطن من الواردات الحديثة ففي القرن السادس نراه في كردستان ، وفي القرن السابع يتوغل إلى أعالي ما بين النهرين حيث انتزع الكتان من عرشه ثم انتشر فيما يشبه الإنفجار فوصل حتى آسيا الوسطى وشمال سوريا وواحة دمشق ومنخفض الأردن وتفادي مصر (إذ لم يستطع انتزاع الكتان) ثم إمتد إلى المشارف الجنوبية لتونس والمغرب وصقلية وإسبانيا ، أما قبرص وكريت فرغم وصول القطن إلى أراضيهما إلا أنهما لن تطورا زراعته حقيقة إلا فيما بعد أيام الحروب الصليبية .

وهناك زهرة أخرى في صناعة النسيج هي الحرير ، إن تربية دودة القزالتي هي صينية الأصل سوف تمتد إلى أرمينيا ومشارف بحر قزوين ، إلا أنها سوف تعاني من انفصال المجالات الإقتصادية بين بيزنطة وطيسفون ، غير أن الفتح الإسلامي سوف يحررها لتنتشر عبر كل المناطق الصالحة حول البحر الأبيض المتوسط مثل جنوب سوريا وقبرص وجنوب تونس وخاصة صقلية وإسبانيا والنتائج : إذا ما استمر استيراد الحرير من الصين فإن إستيراد الحرير الخام سوف يقل بشكل ملحوظ إذ أن العالم الإسلامي هو الذي سيصبح المورد الرئيسي له إلى بيزنطة رغم حاجته الشديدة إليه .

إن إنطلاقة القطن وانطلاقة الحرير قد ادتا إلى تضاعف الأساليب (الحرفية وأنواع الفرز) كما أدت إلى انقلاب في مواد الصباغة فاللون الأزرق النيلي الذي انتشر بين النهرين وسوريا وليبيا وجنوب تونس وجنوب المغرب قد أقال الأزرق المستخرج من ورد النيل ، وكذلك الأزرق الفاتح واللون القرمزي المنتشر في أرمينيا وإسبانيا وذلك الأحمر الداكن المسمى « خشب البرازيل » سوف يتصدر اللون النبيتي أو الأحمر القاني ، أما الأصفر الزعفراني فهو في كل مكان .

ويعد الورق آخر هذه التحركات الصناعية ، فقبل أيام العباسيين كانت المواجهة بين البردي المصري والرق ، ولم يكن الورق الصيني أو القنب والكتان معروفا إلا من بعض عمليات الإستيراد في الفترة الساسانية ، ثم ما إن وصل

الإسلام إلى منفذ تركستان حتى انتقلت صناعة الورق بسرعة وأقيم مصنع للورق اللازم للإدارة والرسميات في بغداد حوالى عام ٨٠٠ ، وابتداء من ذلك الوقت انتشر الورق إلى سوريا وصقلية والأندلس ثم انتزع البردى من معقله في مصر في القرن الخامس / الحادي عشر ثم بدأ التصدير إلى كل من بيزنطة وروما قبل إقامة مصانع الورق في إيطاليا في القرن الرابع عشر وكذلك في الجنوب الغربي من فرنسا .

الإسلام : الشرق والغرب .

لعل القارىء المتعجل يقول في نفسه : لقد حان الوقت لكي نتحدث عن التجارة العباسية التي لم يتطرق الحديث إليها إلا عن بعد ، وربما كان الأمر كذلك ، إلا أن هذه الهجرات ليست وحدها علامة أو نتيجة منتجات وتبادلات فترة معينة ، إذ أنها تتعلق بفترة وتاريخ أوسع هو تاريخ الإنسانية بأسرها ، وذلك يدفعنا إلى التساؤل باختصار حول مسألة أساسية هي : هل الإسلام بتدخله في تلك المنطقة الحيوية للمواصلات بين الغرب والشرق قد قطع خط السير التقليدي للتبادلات دافعا الغرب إلى الأفول أم العكس هو الذي حدث ؟

ففيما يتعلق بالجزء الأول من السؤال ، إننا نعرف نظرية بيرين الشهيرة والتي يناقضها التحليل الإجمالي لموريس لومبار ، ولعل الأمر إجمالا يحتاج إلى تفسير هنا ، فالصحوة الديموغرافية والإقتصادية لأوروبا سنة ألف لا يمكن تفسيرها فقط بتدفق ذهب الشرق إلى الغرب المثقل الهمجي ، والأمر بسيط للغاية إذ يدفعنا إلى المغالاة في حجم هذه التبادلات ولا بد ـ بأي حال ـ من تصويبه من وجهة النظر البيزنطية التي سنعود إليها فيما بعد .

ومع ذلك فإن انتقال الحركة وهذا الجنون التجاري للإسلام العباسي إلى الغرب ، وإشراقة صقلية والإتصالات الإسبانية واتصال الشرق بأسره مع التجار اليهود الأوروبيين ستكون علامة الغد التجاري الغربي ، إن استقرار الفاطميين في القاهرة في النصف الثاني من القرن الرابع / العاشر ، قد أعاد لملتقى طرق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر جزءاً هاما من تجارة الغرب ، بل وإننا نقرأ في الكتب الجغرافية العربية لتلك الفترة أسماء مدن بدأت تحتل الصدارة مثل نابولي وجعيته وأمالفي وفينيسيا .

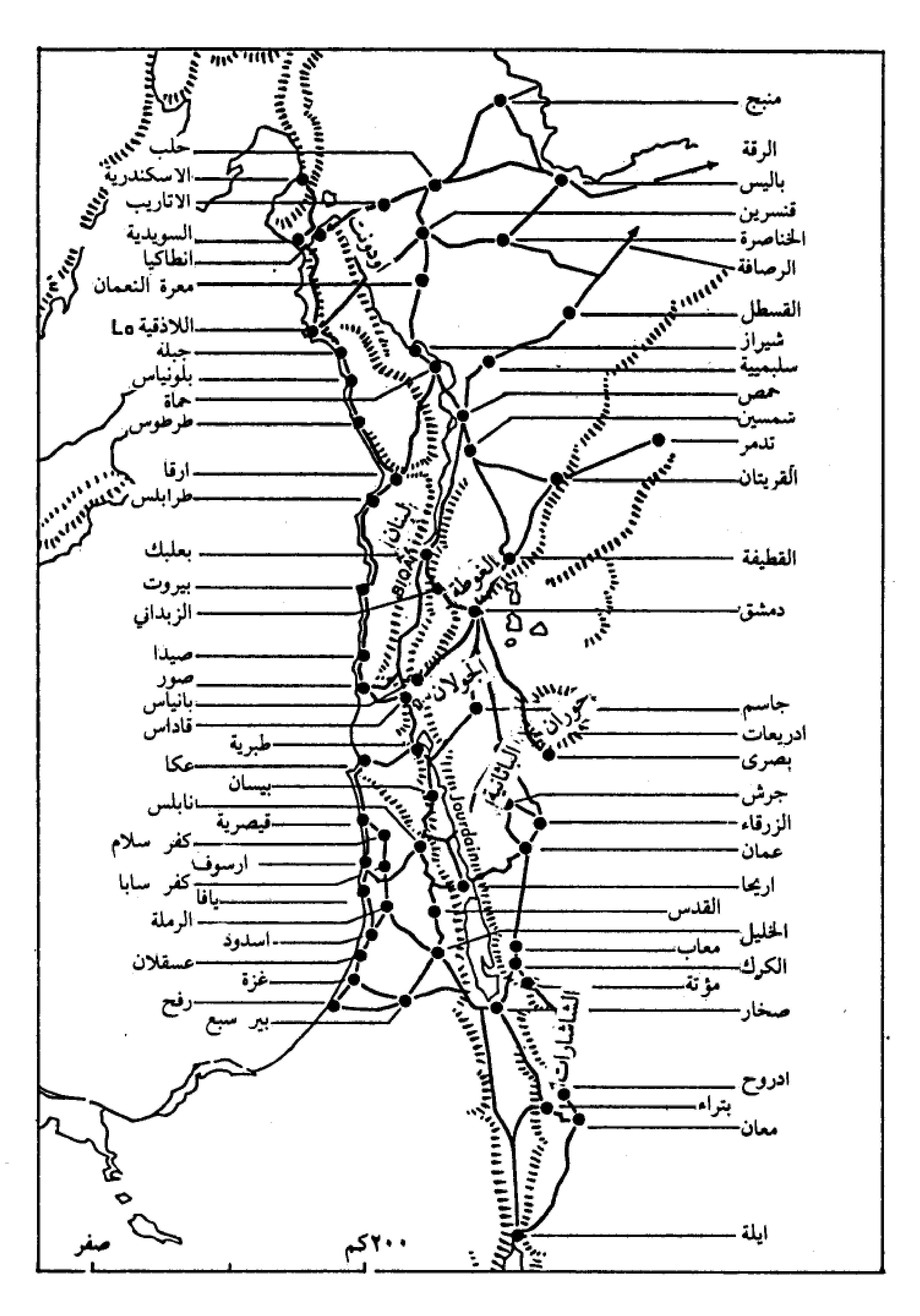
٢ ـ أساليب التجارة .

تجهيزات مدنية .

إن كل تجارة الفترة العباسية تعتمد ـ كما قلنا ـ على شبكة مدن الإسلام المتقاربة (خريطة ٩) سواء كانت مدنا جديدة أم أعيدت إليها الحياة ، والتي تضع إمكاناتها كموانىء أو قواد قوافل تحت أمر التجار ، ومنها موانىء البحر الأبيض المتوسط أولا مثل : المرية وهي من الإنشاءات المدنية النادرة للإسلام الإسباني في جنوب شبه الجزيرة ، وبالرمو وتونس والإسكندرية وصور وعكا ، وطرابلس وسوريا ، أما موانىء البحر الأحمر فمنها : القلزم عند مصب قناة النيل وهي كليزما القديمة ، والجار وجدة ميناءا مكة والمدينة ، وخاصة عدن المدخل الكبير إلى الهند ، ثم هناك موانىء الخليج الفارسي والمحيط الهندي فمنها البصرة على شط العرب والتي تصل إليها البواخر ، وسيرافِ وتعد كمخزن لفارس ، وصوهر التي أصبحت مسقط فيما بعد ، عند طرف جزيرة العرب ، وديبول بجوار مصبات نهر السند .

أما محطات القوافل فلا حصر لها ولا يمكننا هنا إلا ذكر أهم هذه المدن ـ المحطات ومنها مراكش عند شطآن الأطلسي من الجنوب المغربي ، وسلجماسة في تافيلليت ، وكلاهما مصب للطرق الصحراوية وذلك مثل الواحات في جنوب الجزائر وفزان والقيروان ، ثم هناك خط مكة والمدينة وحمص وحلب ، وأخيرا محطات الطرق القديمة في آسيا الوسطى مثل همذان والري بجوار موقع الظهران الحالي ومدن الشمال الشرقي مثل : حيرات ونيسابور وبلخ ، وعند أقصى الطرف واحات ما وراء النهر الكبرى وعند مشارف تركستان : بخارى وسمرقند والشاش و (طشقند الحالية) وغوجندة .

وعندما سنذكر مدن المراكب مثل أشبيلية والوادي الكبير ، والموصل والدجلة ، والعنبر والفرات ، والمنصورة والسند ، فلا بد لنا من أن نفكر في هذا المصير لدى الجغرافيين العرب الذين يخلطون أحيانا بين الوظائف التي تقوم بها هذه المدن وبين دورها الذاتي في الإنتاج والإستهلاك ، إن الجغرافي المقدسي ، قبل ألف عام بقليل ، يعطينا سبعة عشر أسما لفنارات الإسلام وهي : قرطبة ،



ـ خريطة ٩ ـ مدن وطرق مقاطعة : سوريا ـ
فلسطين ، كما راها الجغرافي المقدسي (القرن العاشر)

القيروان ، القاهرة ، دمشق ، الموصل ، بغداد ، مكة ، الزبيد ، في جنوب شبه جزيرة العرب ، المنصورة ، ، السيراجان عند كرمان ، شيراز ، والأهواز والمدن الكبرى لفارس ، والسوس وهمذان وأردبيل في أذربيجان وشهر ستان في الجنوب الشرقي من بحر قزوين ونيسابور وسمرقند .

جماعات ولغات وعادات .

إن هذه المدن تؤ وي جماعات متينة تعتمد على تراث طائفي أو عرقي عادة ما تستفيد منه التجارة ، وكل جماعة منها تضع في خدمة أعضائها ، وأحيانا بين طرفي العالم الإسلامي ، شبكة من المراسلين والمسئولين ، ونحن نعرف شهرة « السيري » المسيحي والأرمني واليهودي لكي لا نذكر سواهم ، إلا أنه يجب ألا نبالغ في تخيل نوع الإنغلاق الذي يخص جماعة أو أخرى لإحتكار بعض الطرق أو التخصصات مثلما كان ذلك سائدا لفترة طويلة بالنسبة لليهود والبنوك ، إلا أن هذه التجارة أوسع من أن تخص بعض الأقليات فحسب ، فالإسلام يحتل مكانه بجدارة في هذا المجال ، ونحن هنا لا نتحدث عن أقلية الخوارج الذين عرفوا كيف يتدخلون في طرق القوافل في شمال أفريقيا ، وإنما نعني المسلمين عامة : السنيين والشيعيين ، سواء كانوا عربا أو فرسا ، وكلهم معتادون على التجارة من قبل الإسلام وكلهم كانوا يحصلون على التشجيع من دينهم ، حتى من أكثر أشكاله تزمتا .

إذا كان لا بد من عمل تقسيم فسيكون ذلك على حساب الطوائف ووفقا لانشقاقها إجتماعيا إلى أصحاب حوانيت صغيرة في السوق ، وهم عادة ممتهنون ، وإلى تجار كبار لمعدات السباق أو السلاح أو مستثمرين أو ممثلين لنوعية فاخرة كالنسيج (شكل ١٧) وهناك علامات ترتيب أخرى يمكن البحث عنها في التطور التاريخي : إلا أنه نظرا لعدم وجود احتكارات محددة فيمكن عمل ما يشبه الخط البياني للأولويات .

إن الموقف يبدو أكثر ثباتا تجاه الشرق ، عند الخليج الفارسي والمحيط الهندي ، ولصالح الفرس خاصة في القرن الرابع / العاشر ، أما تجاه الغرب فعلى العكس من ذلك ، فإن مجال البحر الأبيض المتوسط هو التدفق وتأرجح الأمم بين التجارة والحانوت ، فالمسيحيون الشرقيون « السيري » هم الذين يجلسون على



ـ شكل ١٧ ـ عنوان ملكية حانوت ـ لوحة من الخشب ـ مصر ـ القرن التاسع

عرش التجارة قبل الفتح الإسلامي ، وكانوا يوجهونها من الشرق للغرب ، إذ أن مجيء الإسلام وخاصة مجيء الفترة العباسية قد جعلهم سادة التجارة العالمية الجديدة ، لكن من الغرب للشرق ، وكان اليهود في كل مكان ، بينما كان الإسلام بقبولهم يحرر نوعية العمليات التجارية ، وقد انحصر المسيحيون في التجارة الصغيرة ، إلا أنهم ظلوا على طرق مصر وسوريا وبين النهرين وآسيا الوسطى ، أما اليعقوبيون والنسطوريون فكانوا موجودين حتى في الصين معتمدين على سلسلة من الأديرة المتعددة الوظائف ، كالفندقة ومخازن نقود (في أرمينيا ومصر العليا) والإخصاء وتعليم العبيد .

إن عام الف يحدد نقطة تحول القرن التالي : فقد كان اليهود مضطهدين في أوروبا ، وفي نزاع في الشرق وخاصة في مصر الفاطمية حيث كان عددهم ومكانتهم في أعلى الوظائف الرسمية يثير الأحقاد فتخلوا عن جبهتي البحر الأبيض المتوسط وبلاد المشرق لاتباعهم : أصحاب البنوك والتجار الإيطاليين من جهة ، ومن جهة أخرى إلى الأرمن ، وكانوا نشطين في الإمبراطورية البيزنطية في شمال سوريا ومصر الفاطمية في القرن الخامس / الحادي عشر ، حيث كانوا يقومون بدور البدائل .

إن هذه الجماعات وغيرها لها لغاتها التي كانت تستفيد منها في المبادلات التجارية مثل اللهجات التقليدية كالفارسية والبربرية والرامية لدى الجماعات اليهودية في الأندلس ، والسريانية لدى المبشرين النسطوريين في آسيا الوسطى والصين دون التحدث عن إسبانيا وتطور اللاتينية إلى اللغة الرومانية مصدر اللغات الإسبانية ، وكانت اللغة العربية كلغة أم ، بلهجتيها العامية والنحوية تسيطر على الإمبراطورية من أدناها إلى أقصاها ، بل وخارجها أيضاً عن طريق المستعمرات الإسلامية في المحيط الهندي والصين ، خاصة كانتون ، وجنوب

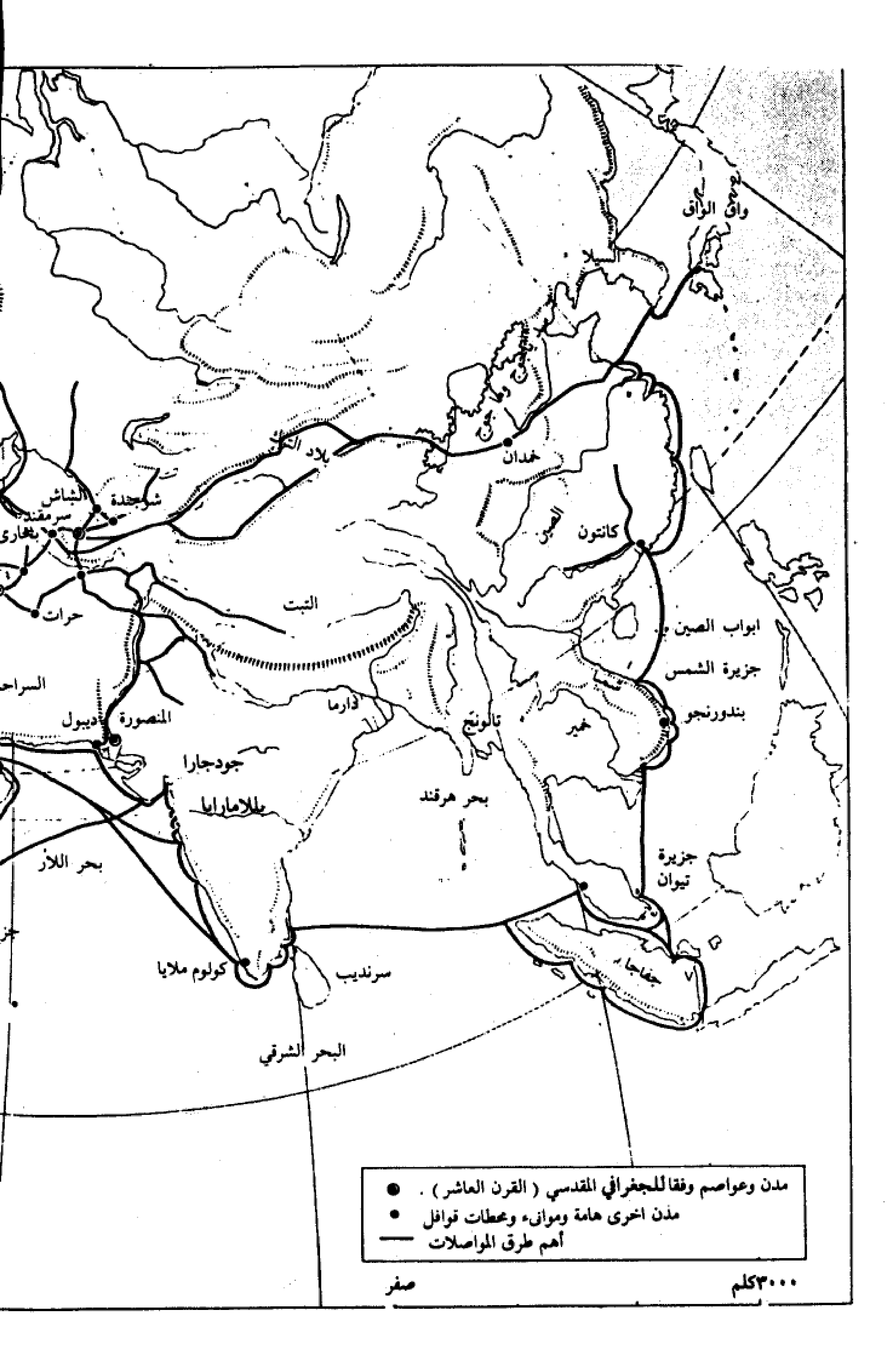
روسيا وبيزنطة ، مما أدى إلى خلق لغات جديدة مختلطة يمكن القول أنها تكونت عن طريق التداخل بين اللغة العربية واللهجات المحلية لجيران الإمبراطورية مثل السواحيلية عند الشطآن الأفريقية للمحيط الهندي ، والآزر السودانية والسغدي عند أطراف تركيا ، ولغة الفرنجة عند البحر الأبيض المتوسط ، وهي لغات هامشية على الخرائط ففي هذه البوتقات تنصهر وتتكون عدة مصطلحات ـ ليست كلها تجارية ـ ثم تنتشر .

كل هذه الكلمات سواء كانت عربية أو فارسية أو حتى لاتينية أو يونانية قد أعيد تشكيلها وفقا للنطق الشرقي وكان للغتنا الفرنسية نصيبها سواء مباشرة أو عن طريق التحركات بين المدن الإيطالية والإسبانية ومنها كلمات : الزان والخرشوف والمشمش والزعفران والقطن والكحول والأكسير والقطران والتعريفة والصفر والجبر وكثير غيرها .

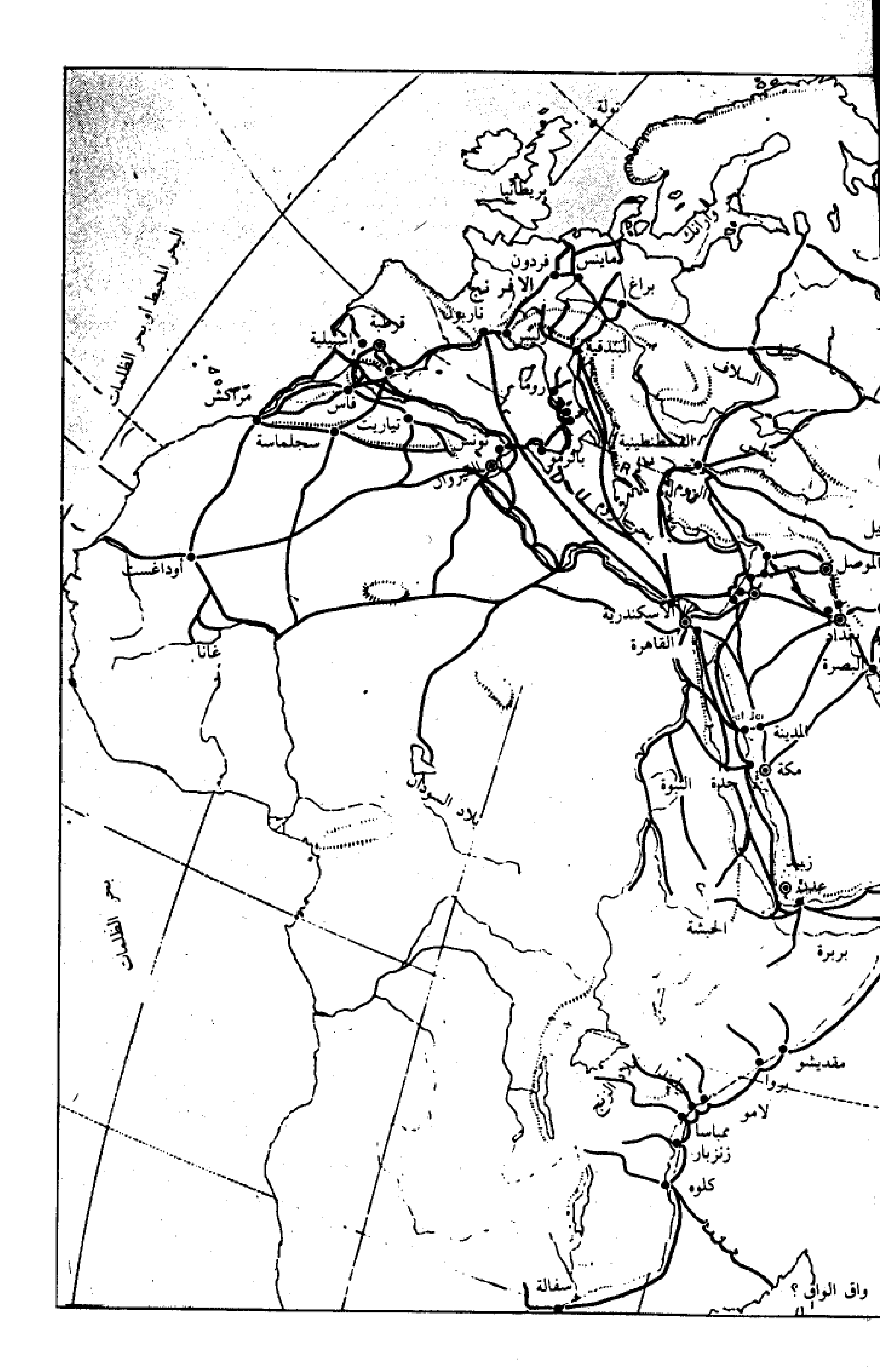
ممارسات مكثفة أكثر من جديدة .

إن الإمبراطورية الإسلامية قد استعارت الكثير من العادات التجارية من الإمبراطوريات الكلاسيكية التي سبقتها مثل : تجمعات التجار أو شركاء التوصية والإستثمار والإقراض بالفوائد ـ وقد حاول البعض تحريف التحريم الديني ـ ونظام الصكوك أي الكتابة التي تغني عن نقل النقود العينية والدفع عن طريق الشق أو نظام التصفية وفي مجمل هذه المجالات فلا يوجد ما هو جديد ثوري بالنسبة للعالم القديم ، أما الجديد فهو وهن التحولات وأحيانا حجم التبادلات كما يمكن الإطلاع عليها من القصص البحرية لتلك الفترة والتي تسبق رحلات سندباد البحار ، أو في أعمال أحد الجغرافيين مثل ابن حوقل الذي قال أنه رأى إيصال دين لدى أحد التجار في سلجماسة قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار ذهبا .

كما لم تحدث تغيرات تذكر فيما يتعلق بالضرائب أو الجمارك ، التي تقع على التجار المسلمين وعلى غيرهم (علما بأن المسلمين كانوا يدفعون نصف قيمة ما يدفعه الآخرون) ليس على الحدود فحسب ، وإنما في الداخل أيضاً من مدينة إلى أخرى ، وكان لكل مدينة فندقها حيث الإقامة جبرية للعابر نظير مبلغ معين بين تاجر الجملة الكبير وتاجر التجزئة في السوق ، أي أنه كان هناك دخل للأجهزة الرسمية في خط سير التبادلات ويرمز لها بالدولة نفسها ، لكنها كانت تتدخل عند



الخريطة ١٠ ـ الاسلام



العالم في العصر العباسي .

الضرورة ، عند إعادة بيع كميات مخزونة بأسعار بخسة أثناء المجاعات . والمساهمة في سوق الحرفيين وخاصة في شكل مشاغل نسيج ، وكانت مستخدمة في مصر الفاطمية للخشب والحديد وحجر الشب والقار .

وكل هذه التبادلات كانت تعتمد على نوعي العملة الإسلامية : الدرهم الفضي والدينار الذهبي وكان الأول يستخدم على المستوى المحلي إلا أنه كان مستخدما في إسبانيا لفترة ما ، وفي إيران حيث كانت عادة استخدام العملة الفضية الساسانية ما زالت قائمة ، إلا أن كل ما هو تبادل على المدى الطويل كان يتم من خلال العملات الذهبية : الدينار الإسلامي والسوليدوس البيزنطي منافسه في بعض الأسواق الأجنبية ، وهكذا أقيمت ما تشبه الحركة المثلثة الشكل أساسها المعدن الأصفر ، وإن كانت حركة متواضعة إذا ما قيست بمستوياتنا المعاصرة ، فالغرب أقل هذه المدن الثلاثة رصيدا كان يحصل من الإسلام نظير البضاعة المباعة على ذهب كان جزء منه يذهب لمشتريات مختلفة إلى بيزنطة التي كانت بدورها مدينة في تجارتها مع العالم الإسلامي .

وفي هذه الحركة النقدية فإن بلاد الإسلام هي التي كانت تفقر نفسها في الذهب ، لأن حجم مبيعاتها إلى القسطنطينية حتى وإن غطى عجز ميزانها التجاري مع الغرب فإنه لا يتمكن من تعويض نزيف الذهب المسجل على واجهات أخرى من التبادلات ، في الأنهار الروسية وآسيا التركية أو الهند فكان لزاما على الإسلام لكي يستمر أن يتزود باستمرار في رصيده من الذهب ، مما يفسر أهمية الطرق التي تؤمن له خط سير التجارة انذاك .

٣ ـ طرق ومنتجات .

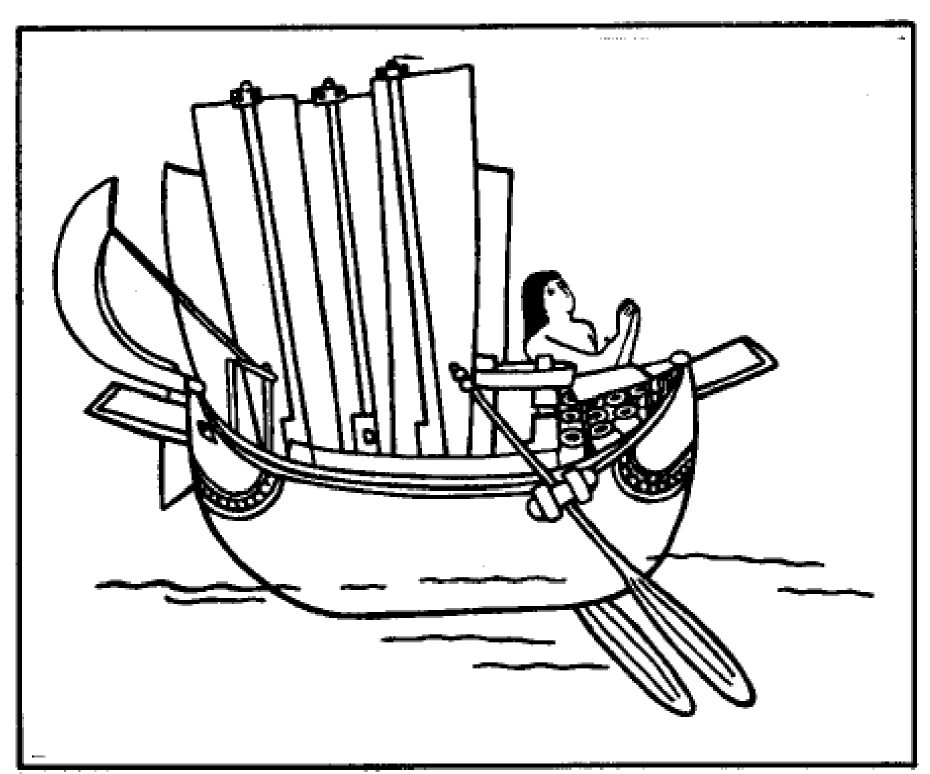
إن الخريطة ستوضح أفضل منا تفاصيل المنتجات وخط سيرها ولن نتحدث هنا إلا عن الأحداث الأساسية التي ستسمح لنا بالتعرض للملامح العامة للحياة الإقتصادية للإسلام في الفترة العباسية (أنظر الخرائط من ١١ ـ ١٤) .

قوافل ومراكب .

إن تأسيس مدينتي بغداد وسامراء لم يؤد إلى خلق التجارة البحرية تجاه الشرق الأقصى وإنما أعطاها الإنطلاقة الحاسمة ، فاتجه التجار المسلمون إلى كوريا

وأقاموا مستعمرات نشطة في كانتون وفي الجانب الغربي للهند ، في حين كانت المراكب الصينية الثقيلة تصل على الطرف الآخر إلى سيراق : المستودع الكبير للخليج الفارسي ، وتعد نهاية القرن الثالث / التاسع نقطة تحول هامة ، إذ أن ثورة هوانج تشاو التي ذبح خلالها التجار المسلمون أدت إلى نوع من الإنكماش في هذه البحار أو على الأقل إلى نوع من التحفظ ، وأصبحت شبه جزيرة ماليزيا تحدد آخر ما وصلت إليه الملاحة الإسلامية تجاه الشرق ، والمركز الجديد للتبادلات ، وفي هذه الفترة أصبحت المعلومات الخاصة بالبحار الشرقية مختلطة ومتكررة ومتناقضة ، بينما كانت جديدة وفريدة في نوعها في حوالي منتصف القرن الثالث / التاسع وفي هذه الفترة أيضاً حاد علم الجغرافيا العربي ، الذي كان يعني حتى تلك الفترة بالبحار والآفاق الأجنبية ، ليتجه مع أكبر ممثليه : ابن حوقل والمقدسي ، إلى التخصص في اقتفاء آثار المشاة والقوافل في الوقت الذي كانت إقامة الفاطميين في القاهرة قد أعادت جزءاً هاما من التجارة العالمية إلى محور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

وكان قارب الحمولة الصغيرة (شكل ١٨) يسيطر على بحار الشرق وهو مكون من خشب التك والياف شجر جوز الهند ، وهذه الألياف كانت تسمح بربط الواح الخشب دون استخدام المسامير كما كانت تستخدم للتحكم في حركة المجاديف ، ويقول أحد مؤلفي ذلك العصر : « أعطني شجرة جوز هند وأنا أصنع لك منها قاربا » إذ كان سيستخدم خشب الجذع لصنع الهيكل والقلاع والصاري ويستخدم الأوراق لنسج القلاع ،والألياف للعوارض والجوز كحمولة ، وها هي المركب بحمولتها ٠٠٠ ؟ ، إلا أن هذا القارب الصغير كان غير متين إذ

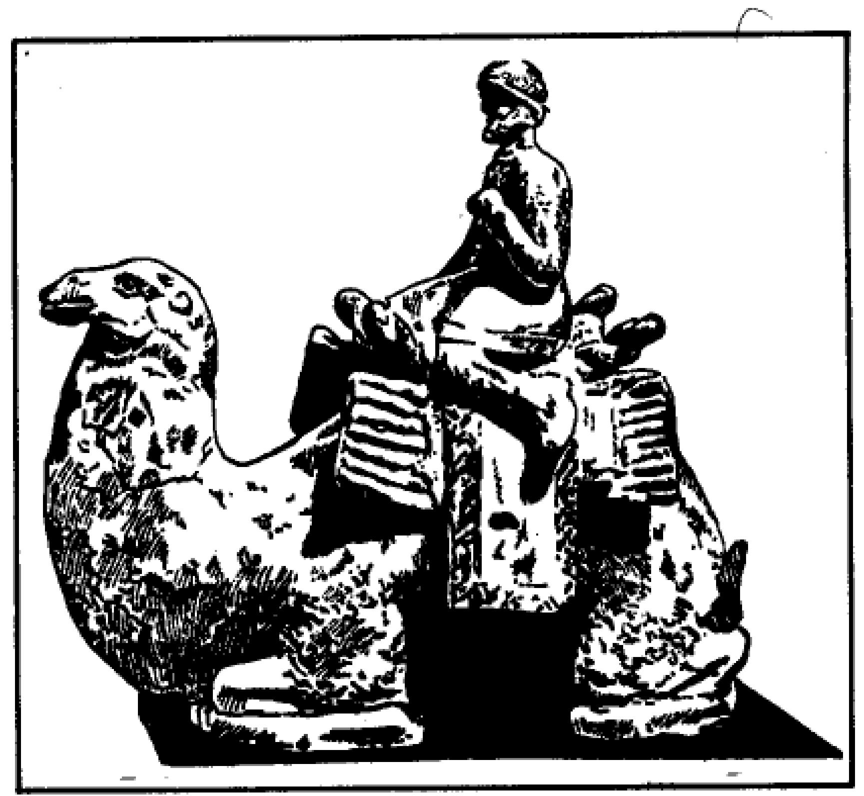


شكل ١٨- قارب صغير في المحيط الهندي ، ويلاحظ شكل القلاع المربعة والمجداف الموجه المزدوج .

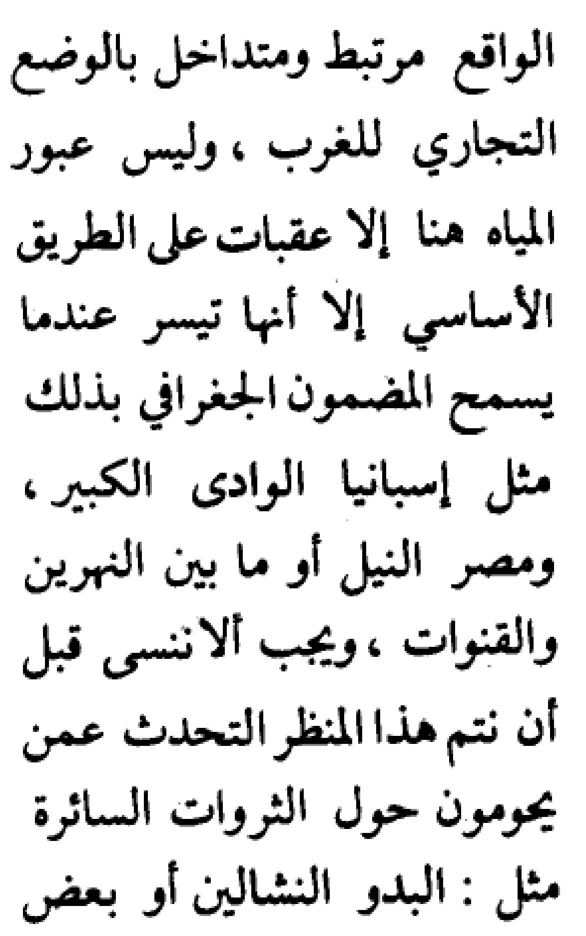
أن قلفطة وصلات الخشب والثقوب التي تمر منها الحبال بدهن الحوت كانت تسمح بتسرب المياه إلى درجة يقال عنها « عادية » ، فكان القارب يطفو بشراعه المثلث ويصل إلى البحر الأبيض المتوسط حيث كان يطلق عليه « اللاتيني » لينضم إلى نوعية القارب الآخر المثبت بالمسامير أي غير « مخيط » كما تقول النصوص .

والملاحة في كل مكان كانت تعني المساحلة ، فمثلا في البحر الأحمر : من الشواطىء الشرقية لأفريقيا وابتداء من آخر الخليج الفارسي حتى الطرف الجنوبي للهند أما الإتجاه في خط مستقيم تخدمه الرياح الموسمية اعتمادا على أوائل خرائط السواحل ومراقبة النجوم ـ وخصوصا مجموعة « سحب ماجللان » التي تشير إلى الجنوب ـفكان متبعا عند شواطىء شبه الجزيرة العربية والهند ، من سيلان حتى مشارف ماليزيا وأخيرا من أنام (شامبا) إلى ضواحي كانتون ، أما في البحر الأبيض المتوسط فكانت السيطرة الساحلية في بعض الأحيان على الجزر (جزر البليار وساردينيا وصقلية ومالطة وكريت (من ٢١٠ /٨٢٥ـ ٣٥٠ / ٩٦١) وأحيانا جزيرة قبرص) تسمح برحلات طويلة آمنة بعض الشيء تجاه الغرب بعيدا عن بيزنطة ، وكانت الموانى وعلامات الإرشاد والفنارات ، وكثيرا ما تكون مجرد حواجز في الماء تعلوها إشارة نارية كما في الخليج الفارسي ، موجودة في كل مكان ، والقرصان أيضاً : هنود في الشرق وخاصة عند جزيرة سوقطرة قرب القرن الأفريقي ، ومسيحيون في البحر الأبيض المتوسط .

أما أرضا فكانت التجارة ملكا للدروب ، الدروب التي تحمل عليها التجارة ولا تجر ، فقد احتلت القوافل والدواب الطرق الرومانية وعرباتها (أنظر شكل ١٩) والقافلة عبارة عن عالم يتحرك فيمكنها أن تضم من ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ جمل في حين تصل حمولتها إلى حمولة مركب كبيرة ، إلا أن معظم القوافل كانت أكثر تواضعا من هذا العدد ، وكل هذه القوافل كانت تستفيد من الخان أو خان القوافل (أنظر شكل ٢٠) وهو مكون من فناء واسع مربع الشكل محاط بسور ومحصن ، وبه غرف مشتركة بالدور العلوي وأحيانا يكون به مركز رسمي للبريد ، وكانت توجد مثل هذه الإستراحة كل أربعين كيلومترا تقريبا ، أما عبور القنوات فيتم عن طريق المخاضات وفي حالة عدم وجود كبار حجرية أو قوارب فكان العبور يتم عن طريق قرب منفوخة ، والطريق الذي يبدو سلسا هو في



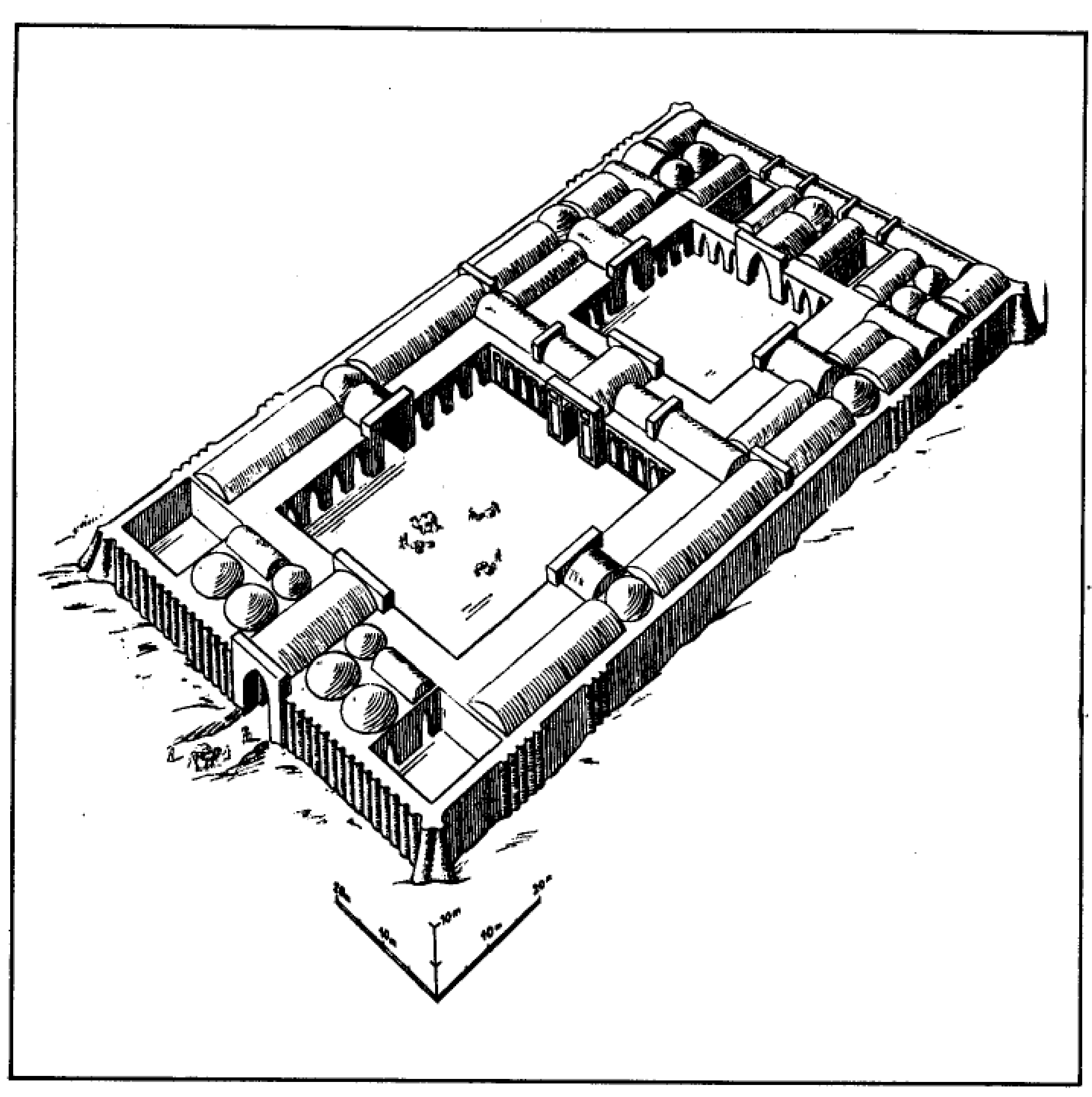
شكل١٩- قائد قافلة في آسيا الوسطى



الواقع مرتبط ومتداخل بالوضع التجاري للغرب ، وليس عبور المياه هنا إلا عقبات على الطريق الأساسي إلا أنها تيسر عندما يسمح المضمون الجغرافي بذلك مثل إسبانيا الوادى الكبير ، ومصر النيل أو ما بين النهرين والقنوات ، ويجب ألا ننسى قبل أن نتم هذا المنظر التحدث عمن يحومون حول الثروات السائرة مثل : البدو النشالين أو بعض القبائل غير المنضبطة أو سكان الجبال الشاردين أو الفلاحين الجائعين المنشقين والخارجين على القانون .

ويتوسط المنظر كل من بغداد وسامراء والقاهرة وقرطبة وبقية المدن الإسلامية الأخرى التي تنتج وتستهلك وتبادل سواء فيما بينها أو مع الخارج ، وعندما يتعذر علينا وصف أو معرفة التفاصيل الدقيقة لهذا النظام فسوف نتخيل افتراضا مع موريس لومبار أنه كانت هناك أربع « واجهات » للتجارة كان الطريق التقليدي الشمالي الشرقي لإيران يؤدي إلى الصين أو الهند الجنوبية ، وكان العبيد والأسلحة والفراء وجوخ تركستان وحرير الصين وما تنتجه من صيني يمر من هناك إلى جانب المسك من التبت والعبيد وأصواف الكشمير من الهند ، أما في الإتجاه العسكي فإن الإسلام أولا وقبل أي شيء يعد مصدر العملات .

أما الواجهة الجنوبية الشرقية فكانت تؤدي إلى الشطآن الأسيوية أو الأفريقية بالمحيط الهندي وهنا كان العالم الإسلامي يصدر بعض الأشياء المصنعة ويتمون بأدوات الترف مثل : التوابل والعقاقير والبهارات والكهرمان والعاج والصدف واللؤلؤ والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة وللإستخدام العادي والمعادن الخام أو المصنعة والقصدير من ماليزيا والأسلحة من الهند وأخيرا الذهب والعبيد المباعين في الأسواق الأفريقية مثل مقديشيو وبراوا ولامو وماليندا وممباسا

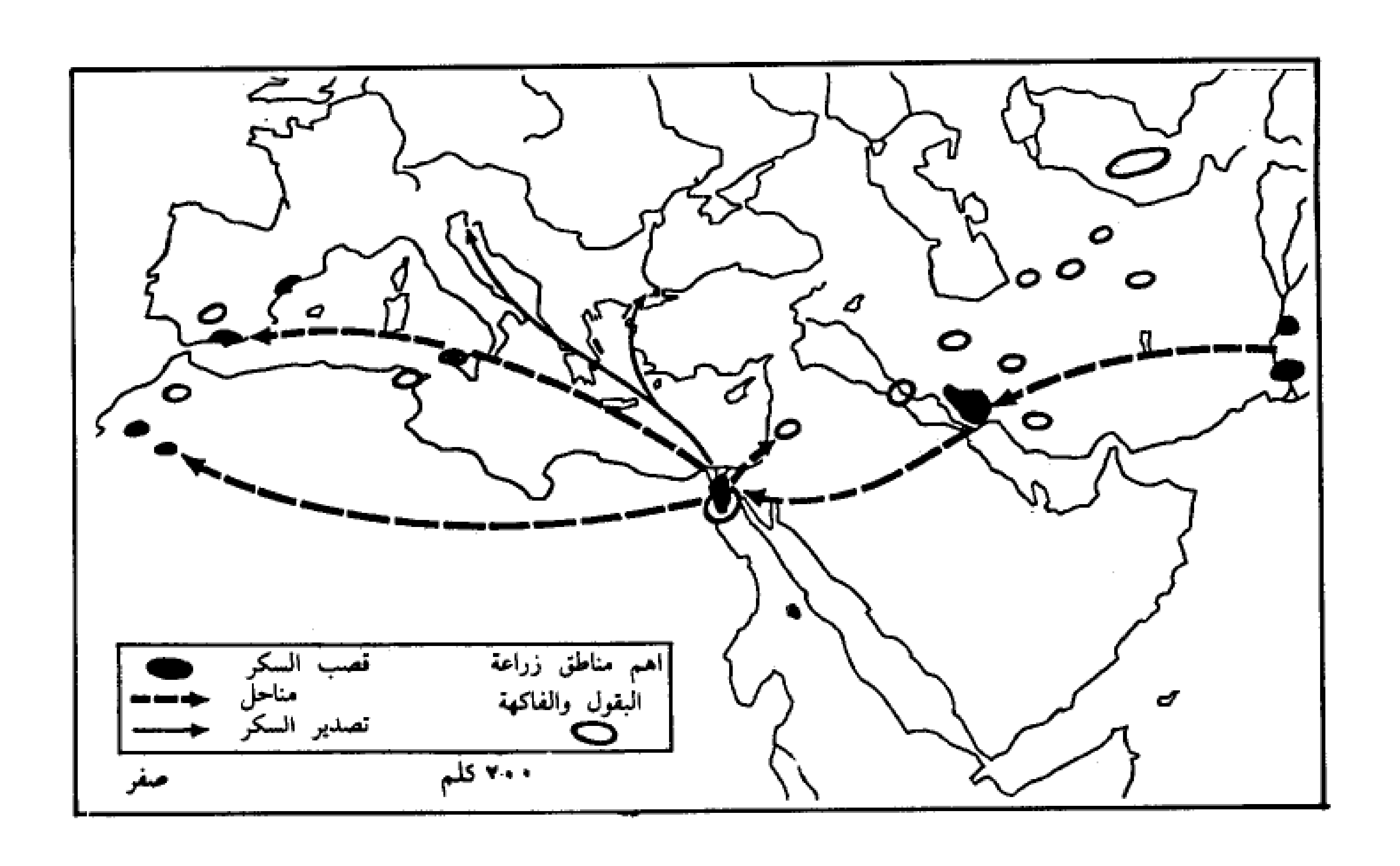


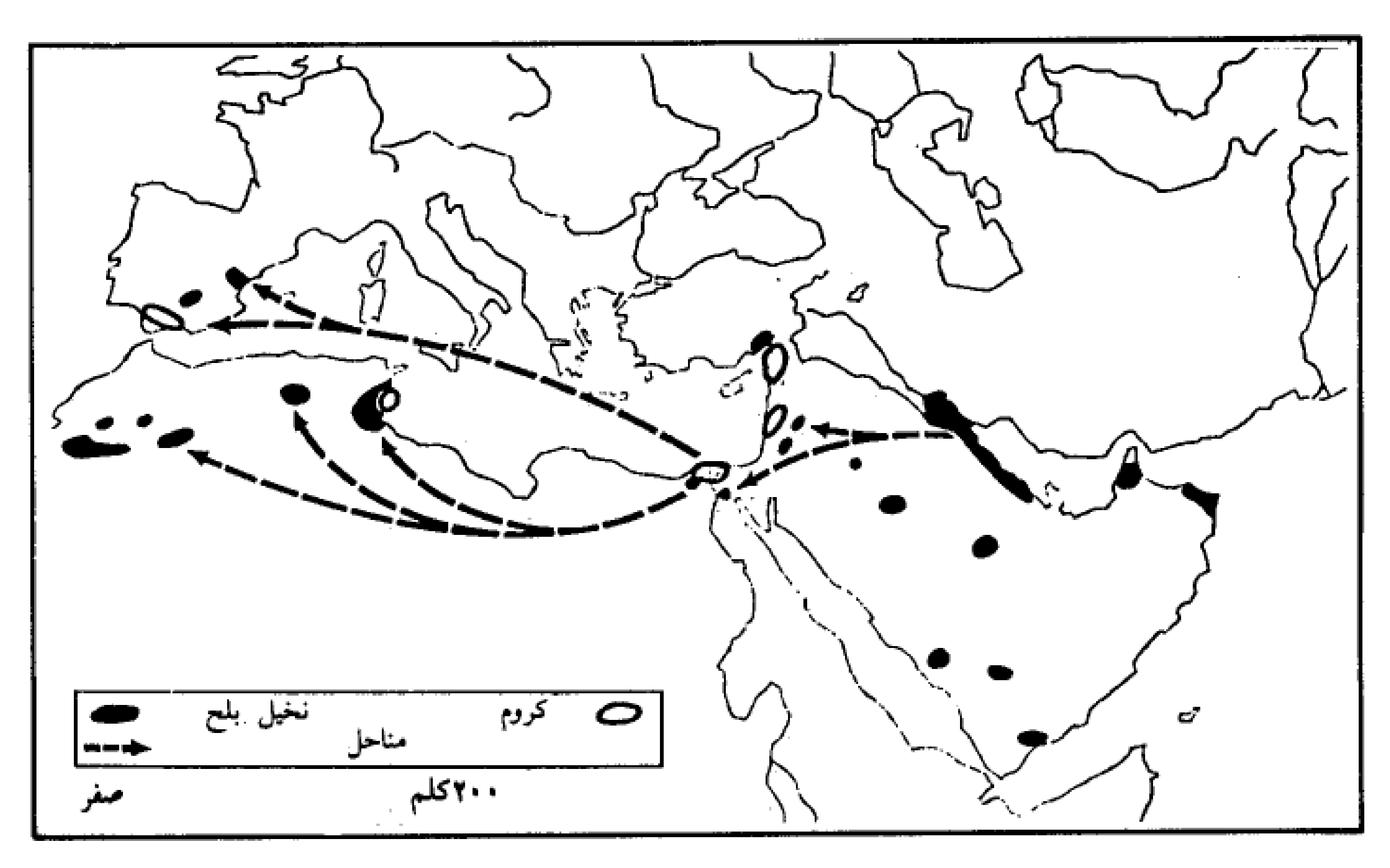
شكل٢٠ - خان القوافل

وزنزبار وكيلوا وصوفالا ، وقد اتبع الإسلام بقواته نفس هذه الطرق المستخدمة للمجلوبات أو لشحن العبيد لكي يتوغل داخل المدن للدعوة للإسلام .

وكانت الواجهة الجنوبية الغربية يسيطر عليها الخطوط الصحراوية الطويلة لتصدير الملح والتمر وبعض المنتجات الزهيدة إلى بلدة أوداغوست ، وهي نقطة التحول للتبادل مع غانا المصدرة للعبيد والذهب ، وهذا الذهب ـ الذي يسبق بكثير شحنات الذهب الإسباني إلى أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ كان يتوقف قليلا بالمغرب ليعاود خط سيره إلى المراكز المدنية الكبرى في الغرب والشرق حيث كان يسك في أسواقها ومصانعها .

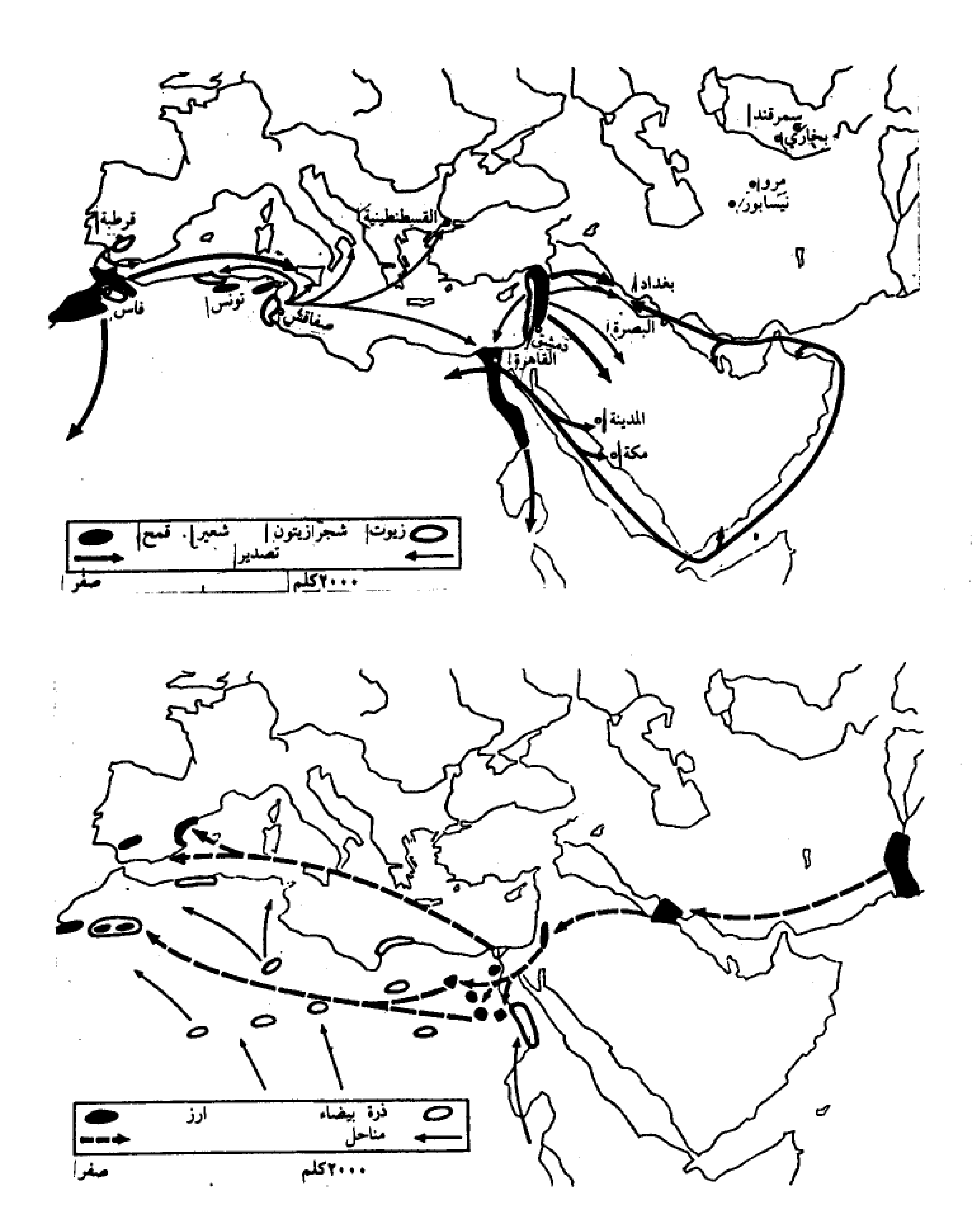
أما الواجهة الشمالية الغربية فكان لها ثلاثة وجوه فكانت الأقمشة والحرائر





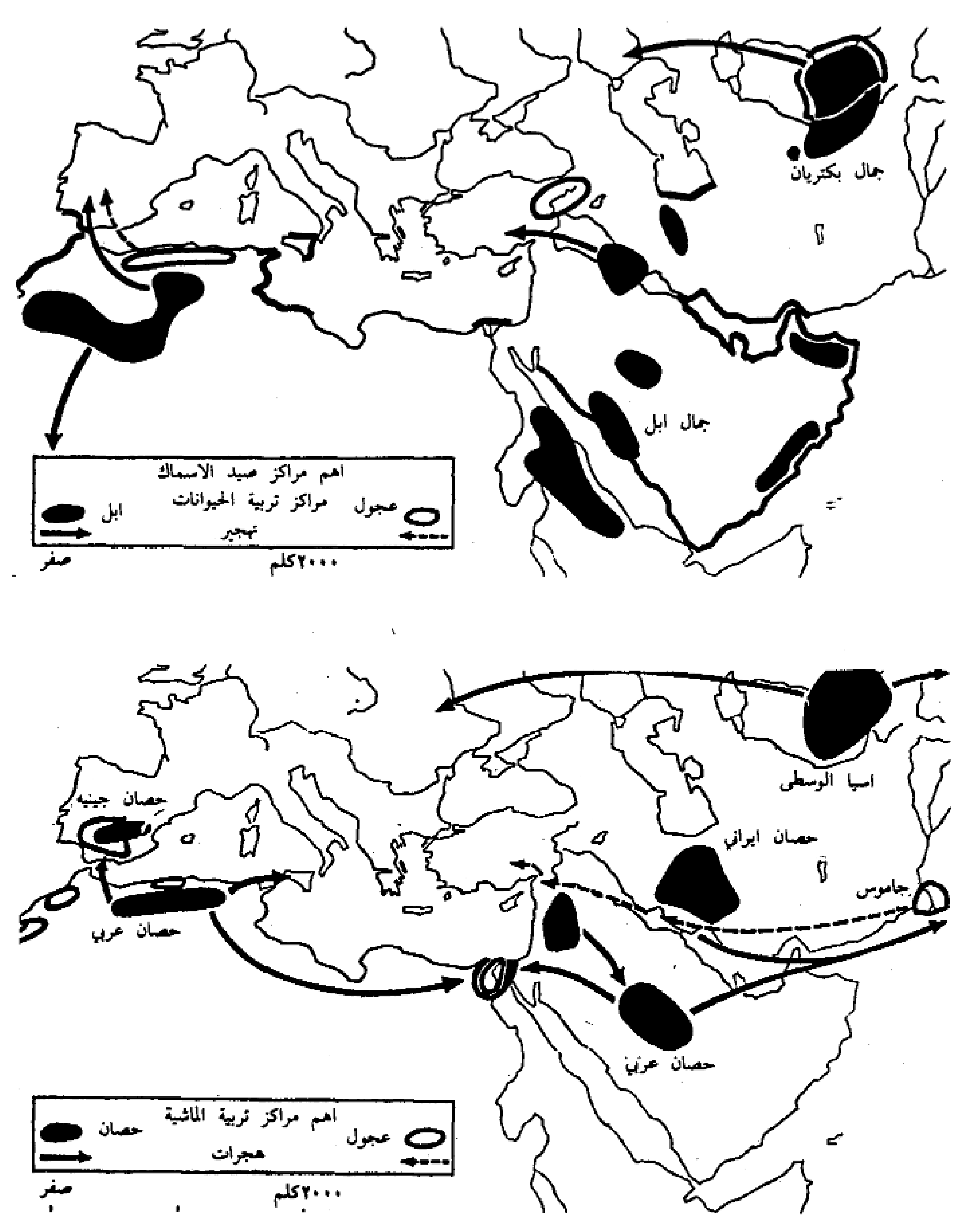
الخريطة ١١ ـ النباتات الغذائية في العصر العباسي

والمصنوعات تتجه إلى القسطنطينية دون التحدث عن المنتجات الثمينة التي بستوردها الإسلام ويعيد بيعها للإمبراطورية البيزنطية التي كانت تبادلها ببعض المنتجات الفاخرة مثل البروكار والذهب المسكوك ، وكانت روسيا الجنوبية تصدر



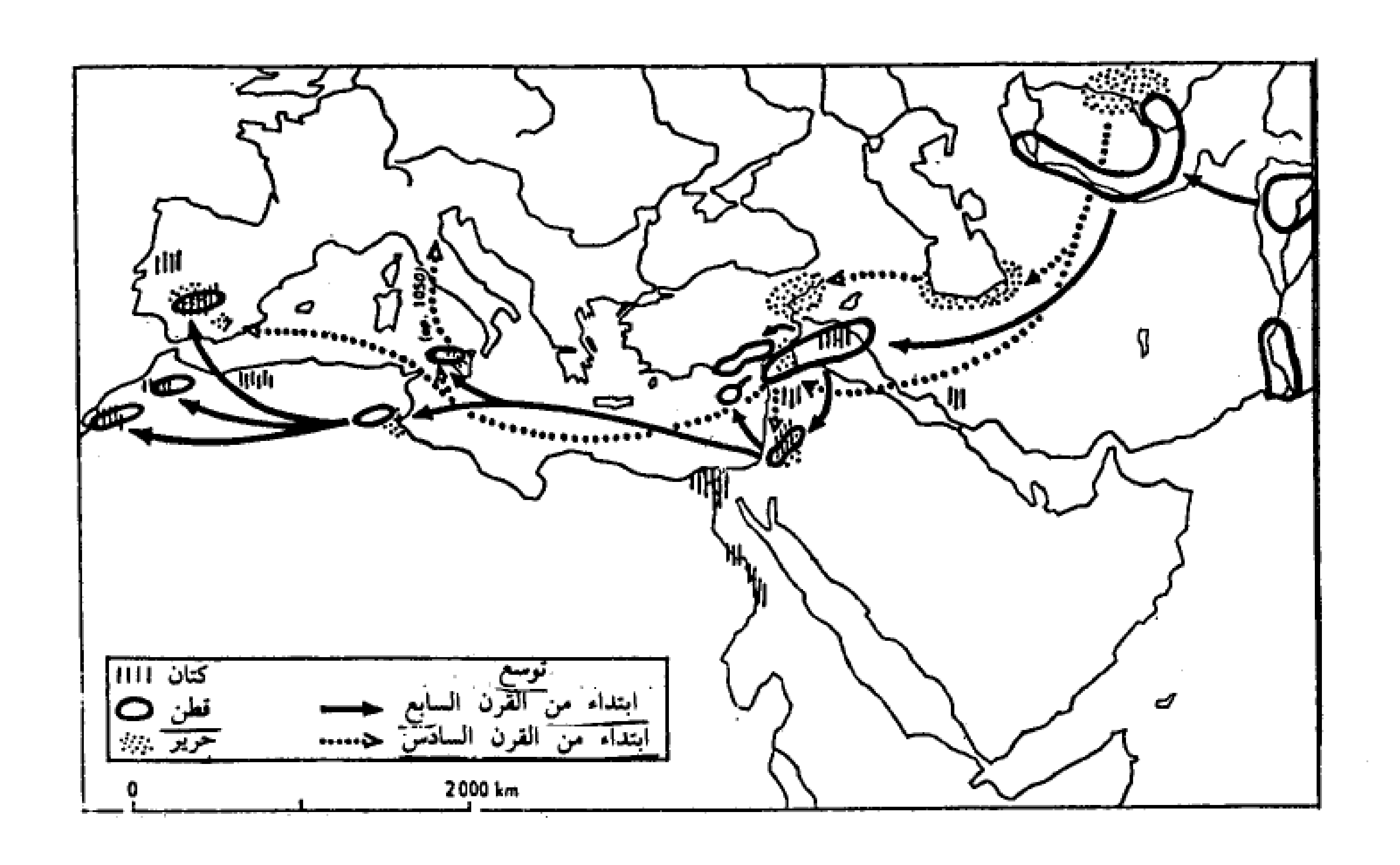
الخريطة ١١ ـ النباتات الغذائية في العصر العباسي

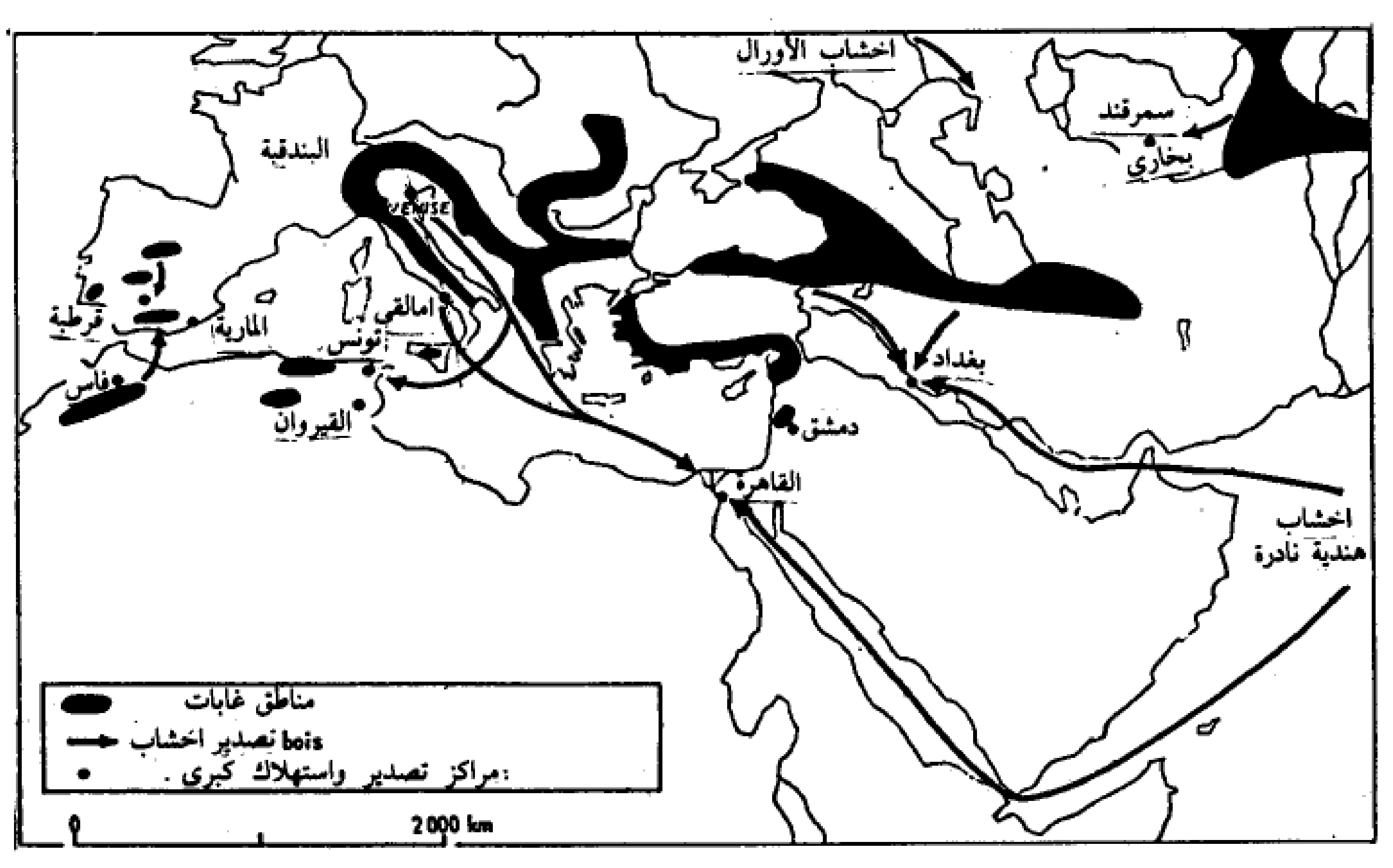
إلى بادية قزوين عن طريق مدن المستعمرات الإسلامية في جنوب نهر الفولجا والمستعمرات البلغارية التي دخلت في الإسلام عن طريق فولجا ـ كاما ، تصدر العبيد الصقالبة من أوروبا الشرقية أو أوروبا الوسطى إلى جانب منتجات الغابات مثل : الخشب والعسل والفراء وكل هذه البضائع مباعة نقدا ، كما كان يتم التبادل



الخريطة ١٢ ـ أنواع الحيوانات في العصر العباسي

على نفس المستوى مع الغرب الأقصى الذي كانت بضاعته في أيدي التجار اليهود ، وذلك عن طريق ثلاثة اتجاهات رئيسية : تجاه أوروبا الوسطى وجنوب روسيا وتجاه إيطاليا عن طريق الألب ، وتجاه إسبانيا عن طريق أخاديد جبال البرانس .





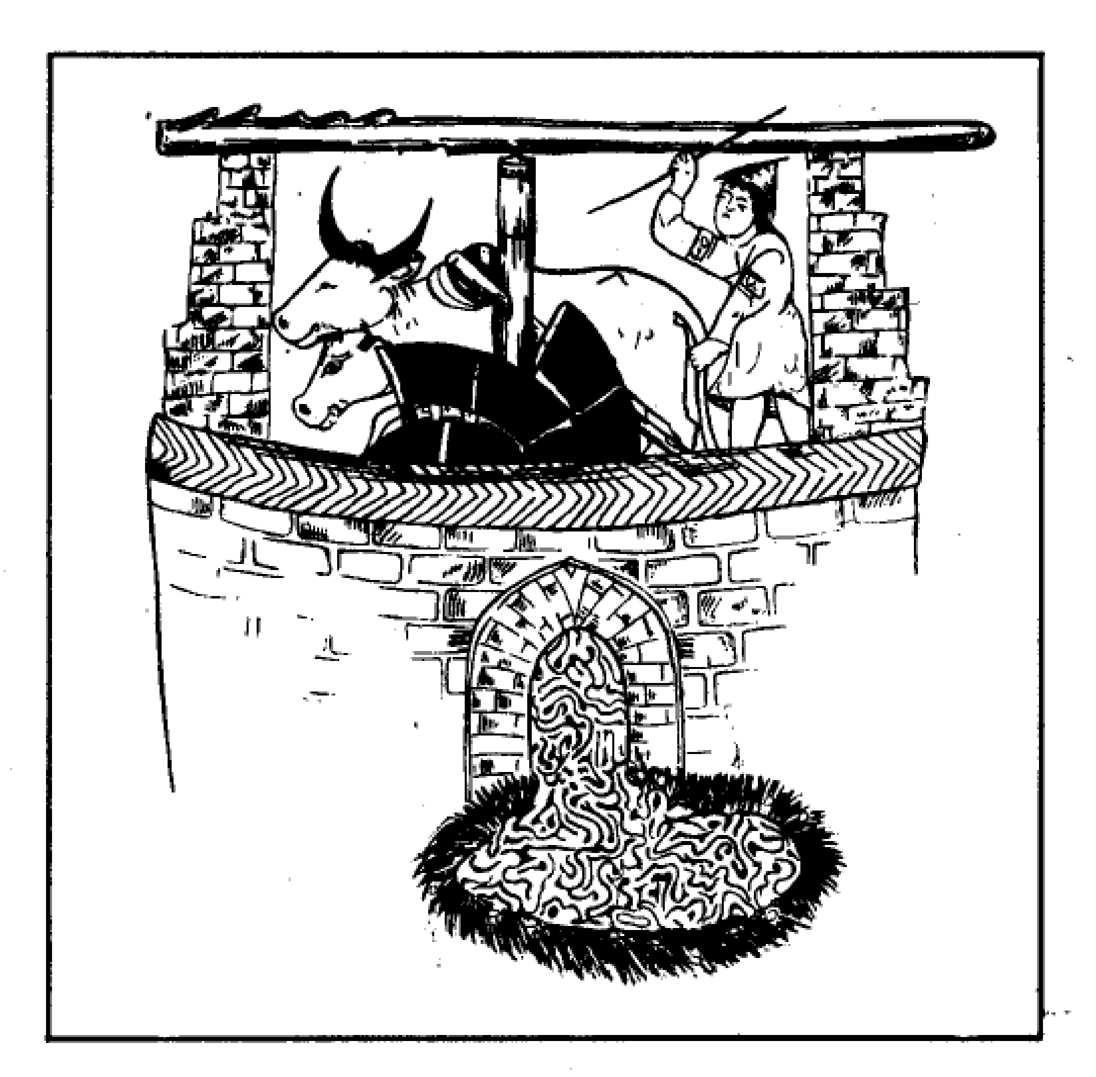
الخريطة ١٣ ـ نباتات النسيج والأخشاب في العصر العباسي

٤ ـ المجتمع الجديد .

الركود الريفي .

إن الحياة الريفية التي تأتي في مؤخرة الكيان الإجتماعي ما زالت غير معروفة وتتجاهلها النصوص ، وذلك مثل : العبيد وعمال التراحيل أو صغار الملاك ،

وهو عالم بأكمله مكرس للأفلاس ومحصور بين الضرائب والضغوط المدنية وما يستقطعه منهم كبار الملاك أو التجار والجنود ، ولا يفلت أحدهم من هذه الضغوط إلا بالموت أو الهرب أو تكوين العصابات أو الثورة ، إن حركات التمرد التي سبق ذكرها والتي قام بها الزوت أو الزنج أو ثورة بابك الكبرى في النصف الأول من القرن الثالث / التاسع ليست سوى أهم معالمها ، إن هذا العالم الريفي ـ باستثناء الأجزاء الملاصقة للمدن الكبرى ـ يستهلك المأكل والمشرب والملبس من نفس المنطقة في نوع من الإكتفاء الذاتي المتضائل كلما زاد ضغط الملاك العسكر الذين يتحكمون في توزيع المياه (شكل ٢١و٢٢) وهو أهم أسباب الحياة أو الثورة ، كما أنه يمثل رعب الحكام المحليين، أما الأساليب الزراعية المستخدمة في الريف فهي شديدة القدم وقد أتت إلى الغرب قبل الإسلام الذي لم يقم إلا بإعادة نشرها عن طريق إسبانيا أو صقلية ومع ذلك فإن الشرق العربي خاصة سوف يحتفظ بميزة أساسية لمنظر ريفه الذي يعد ناقصا بدون صورة العربي الرحالة ، فسواء كان أحد أفراد القوافل أو من مربي الماشية فإنه يفرض وجوده وتحركاته على حافة الزراعة الحضرية التي تتحرك مثله .



ـ شكل ٢١ ـ الري : عجلات مجوفة تديرها جاموستان .

مزيد من المدن .

كان الإسلام يقيم المدن الحديثة أو يعيد إنشاءها عندما تكون قائمة بالفعل ، وذلك بفرض بصمته المميزة عليها بإقامة المساجد وبعمل تخطيط مدني

أكثر تلقائية ، يؤدي تدريجياً إلى طمس معالم التخطيط القديم والمنتظم لتلك المدينة ، وإجمالا فإن المدينة تنتظم حول مبنى الجامع المقام عند تقاطع أهم طريقين ، أما الشوارع الصغيرة فكانت ترى إقامة المنازل شبه الصماء من الخارج والتي تتنفس من الداخل على فناء واسع ، وذلك إلى جانب الطرقات الضيقة التي تزخر بالأسواق .



شكل ٢٢ ـ الري بالساقية

هذا هو الشكل الكلاسيكي للمدينة الإسلامية ، إلا أن جزءاً كبيراً من الحياة داخل هذه المدن كان قائما عند ضواحيها وعند أبوابها التي تمثل نقطة وصول القوافل وبالتالي مكان الأسواق الكبيرة والمقابر .

وقد قام الإسلام بتزويد هذه المدن مثل من سبقوه بكل الوسائل المائية من نافورات وحمامات ، لكنه لم يقم بمحو عيوب هذه المدن مثل ازدحامها بالسكان أو البؤس أو اللصوصية ، وكان الإسلام يلجأ إلى شخصيتين رسميتين لفرض النظام هما : القاضي والمحتسب ، الذي يقوم بمراقبة الأسواق والعادات كما كان يلجأ إلى ما يشبه الأنظمة القديمة السابقة سواء كانت بيزنطية أو ساسانية ، وذلك بفرض نوع من الشرطة المحلية التي تقوم بدور الحراسة للتجمعات الوطنية والمحافظة على النظام وعلى روح المقاومة لصالح السلطة المركزية .

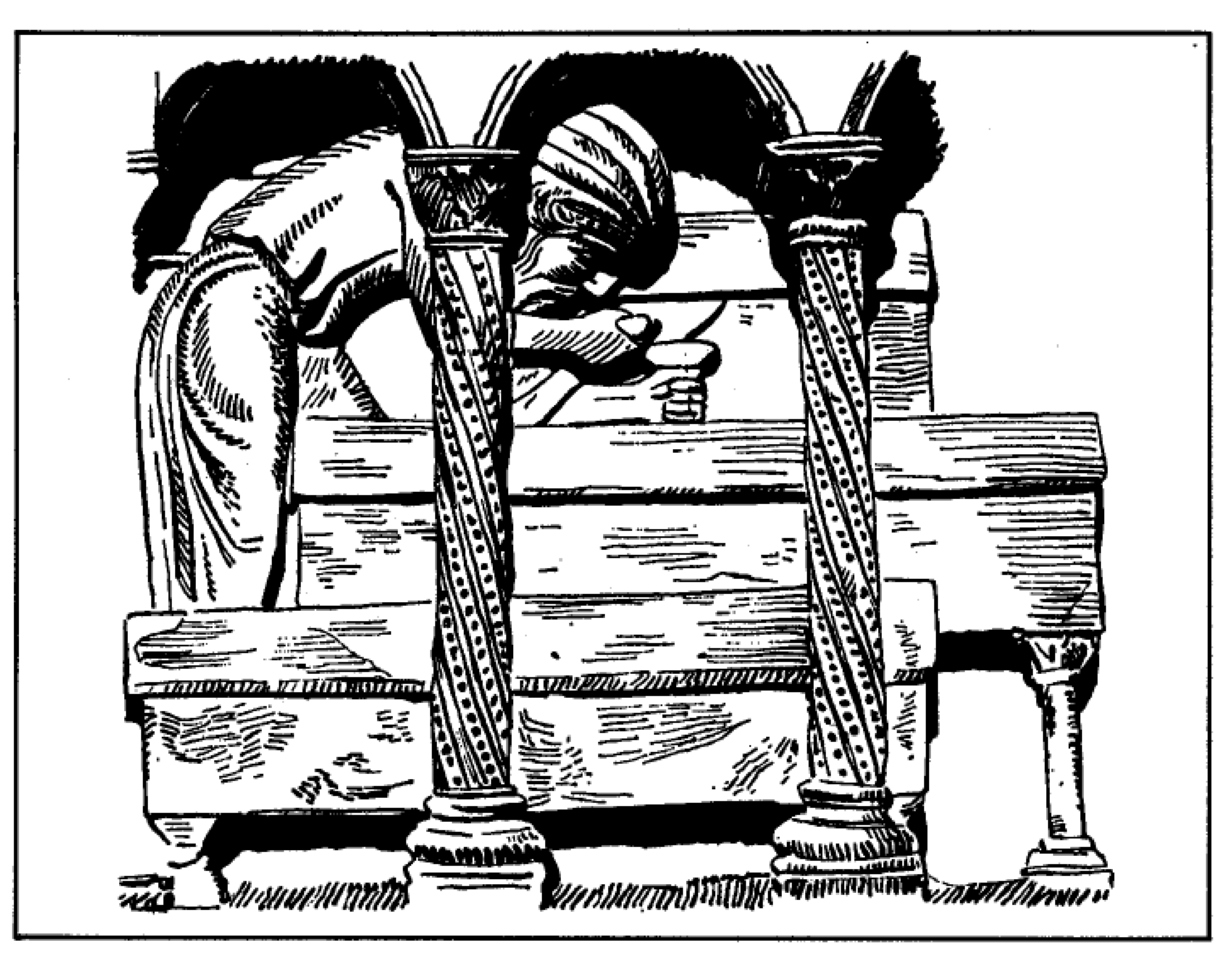
وسواء كانت هذه المدن مزدحمة أو غير منظمة إلا أنها كانت دائبة العمل ، إذ أن جزءاً كبيراً من التجارة الإسلامية كان يعتمد على المهن التي تمارس في الورش الرسمية أو الخاصة ، وهذه الورش تعمل فيما يشبه المجمعات إلا أننا نجهل تفاصيل تنظيمها وبالتالي نجهل أهمية وكيفية الرقابة الرسمية عليها ، إلا أن هناك بعض التفاصيل الثابتة فهذه الحرفيات كانت تعيش فيما يشبه تقسيم العمل

الحرفي في شوارع أو أحياء معينة ، أي أن هذه المجمعات كانت تزيد من الإنعزالية داخل المدينة ،كما كان يسمح بالعمل في الأعماق لكافة الإتجاهات المذهبية ، وقد استفاد اتباع المذهب الإسماعيلي ـ الذين كانوا يشجعون العمل اليدوي ـ من هذه الأوضاع الإنعزالية ، كما أن تنظيم الحرف بهذا الشكل كان يسمح بمراقبة احتكارها وأسعارها ، ولا شك أن الأسعار كانت تتفاوت من مدينة إلى أخرى ، إلا أن العالم الإسلامي في إجماله كان يعرف الثبات النسبي حتى القرن الثالث / التاسع عندما أدى إنطلاق الأعمال وحركة العملة إلى ارتفاع ملحوظ في الأسعار تبعته فترة جديدة من الركود ، وهناك بعض العلامات بالنسبة للأجور ، ففي بغداد ، في سنوات الرخاء كان متوسط أجر العامل ثلاثة دنانير شهريا ، أو درهما في اليوم ، أي ما يوازي قيمة كيلوجرامين من الخبز اليومي ، أما العامل المتخصص فكان يكسب أربعة أضعاف هذا المبلغ ، ويقدم الجغرافي ابن حوقل في أواخر القرن الرابع / العاشر معدلا آخر للأجور بالنسبة للموظفين الساسانيين في خراسان ، فالراتب الأساسي لرئيس البوليس أو القاضي أو مدير البريد كان يصل إلى ٣٠٠ درهم كل ثلاثة شهور ، إلا أن هذا الراتب قد ينخفض إلى ٢٠٠ درهم أو يرتفع إلى ٣٠٠٠ وفقا للمناطق .

حظوة التاجر ووجوده في كل مكان .

سواء ارتفعت قيمة التاجر سياسيا إلى القمة أو انخفضت تمهيدا لصالح الشرطي ، فإن التاجر الكبير يظل محور هذا المجتمع المدني طوال فترة الحكم العباسي ، فهو من الناحية الإجتماعية مميز عن صغار الحرفيين في السوق من أمثال البائعين أو الحرفي الذي يبيع منتجاته بنفسه وهو يقتات على أساليب عتيقة ترجع إلى ما قبل الإسلام (شكل ٢٣) فقد كانت هناك فئة لا حصر لها من أولئك الحرفيين الصغار الذين لم يستطيعوا الحصول على مكانة ملموسة بجوار كبار التجار فكانوا يحيون على مشارف الجوع والأوبئة والفتن ، مبعدين عن الجامع المركزي وفقا لمستوى نظافتهم الحرفية ، فكان بائعو الروائح والعطور وبائعو الكتب والفضيات يقيمون أقرب إلى الجامع ، أما الحدادون ودابغو الجلود فكانوا يقيمون بعيدا بقدر الإمكان عند حافة المدينة .

أما التاجر الكبير الذي يشتري ويبيع الأقمشة الفاخرة فلم يكن عند قمة



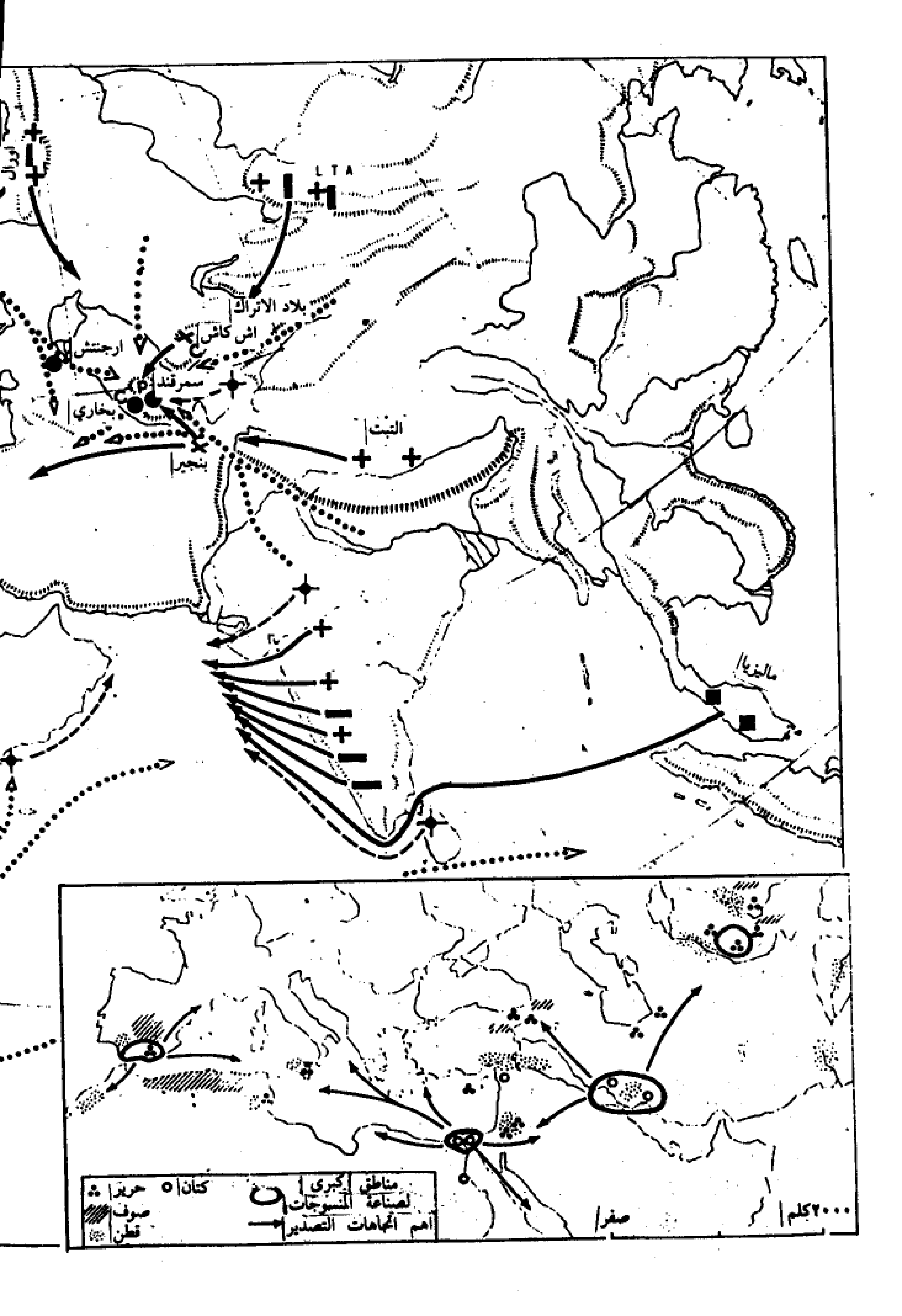
شكل ٢٣ : النجار ـ نقش إسباني من القرن الثاني عشر .

هذا الهرم الحرفي وإنما خارجه، ولنلخص شخصيته في بضعة سطور : أنه من يتاجر في التجارة البعيدة ، ناحية الشرق الأقصى وأفريقيا الشرقية أو بادية آسيا ، وهو ثري يعيش حياة رغدة ويقوم عدد من الأتباع بخدمته وكثيراً ما يقدم القروض للدولة ويقبض أحيانا حصيلة الضرائب ، ويساعده مجده في الإشتراك في المحافظة على المباني العامة ومساعدة الفنانين والمثقفين وكأنه أحد الأمراء ، وعادة ما يكون هو مثقفا ومرفها بل وكثيرا ما يحاول ممارسة أسلوب الترقيم الهندي القائم على تسعة علامات وصفر ، وهو نظام سينتشر بين العلماء بنجاح كبير مما سيعطيه اسم الحساب العربي ، إن التاجر الكبير المتيسر اجتماعيا والذي له مكانته الدينية والأدبية يكوّن هو والكاتب الثنائي الأساسي للمجتمع العباسي في الفترة التي سبقت الفترة العسكرية ، ولكل صورة نقيضها ، إذ أن الشخص المكمل لهذا التاجر الثري ، هو الثري حديث الثراء الذي قام الكاتب الكبير الهمذاني بتصويره عام ١٠٠٠ في الأدب العربي .

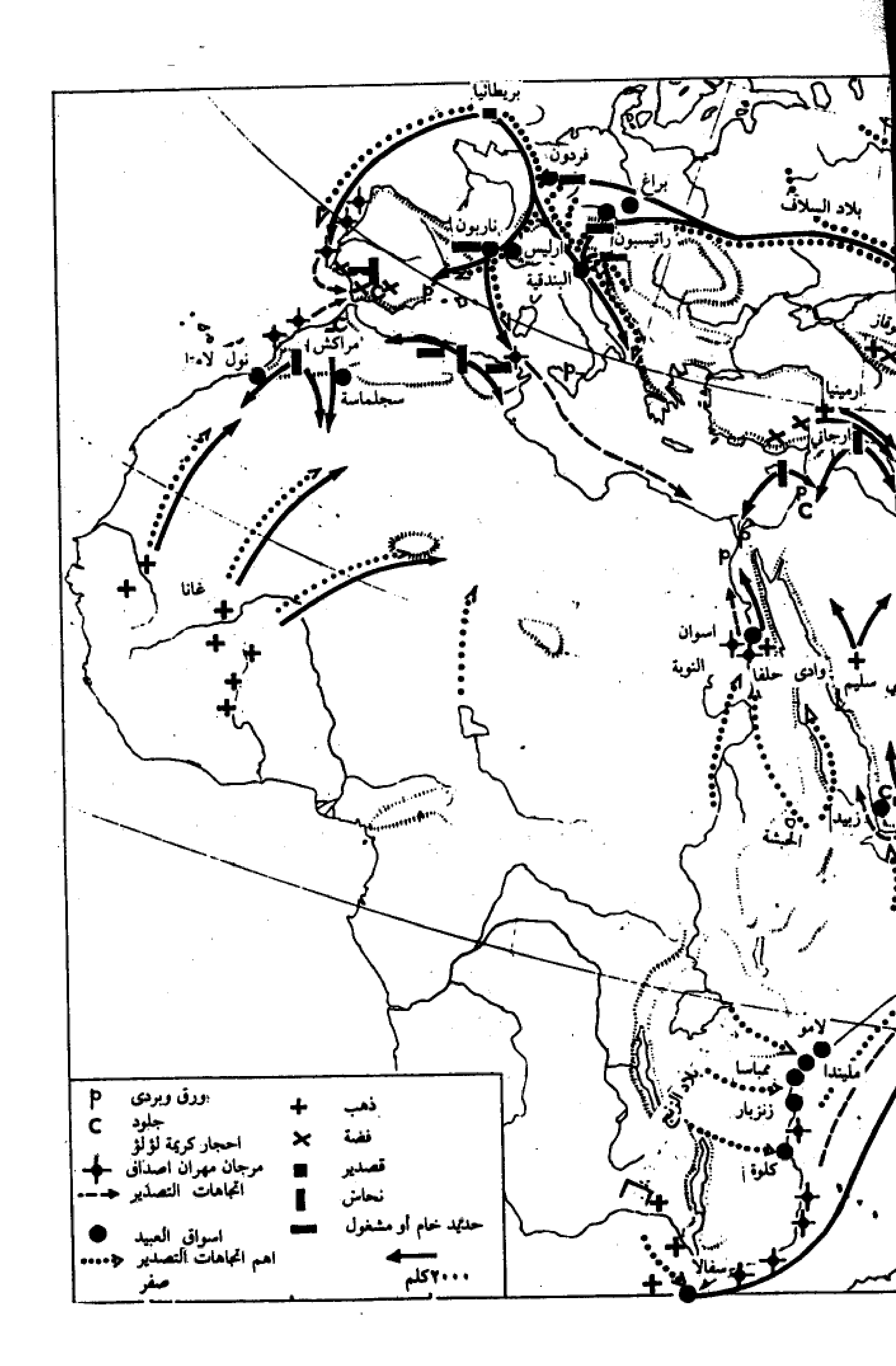
المجتمع والإمبراطورية .

أهو مجتمع جديد ؟ . . إن العنوان المستخدم هنا يتطلب توضيحا ، جديدا بلا شك بالنسبة للإسلام ابن الجزيرة العربية ذات الملامح المتغيرة من الصحراء إلى المدينة ، ومن البدوية إلى المؤسسات الحضرية الكبرى والثقافة المغلقة في شبه الجزيرة العربية التي تواجه التراث الأجنبي إلا أن الشرق القديم الذي يخيم عليه الإسلام الجديد فإنه لم يعمل - بتغيير سادته - إلا على استمرار العادات القديمة ، إذ أن حياة المجتمع - تحت لواء الإسلام مثلما أيام الحكم الروماني أو الهلليني - هي مرادف للحركة والتبادل والحضارة المدنية ، وكل هذه المكونات قائمة على خلفية ملصقة بشكل صنناعي على أرياف راكدة من العادات القديمة التي أعيد تنشيطها لصالح تكوين الإمبراطوريات الجديدة على الطريقة القديمة التي تلقي آخر وميض لها بمجيء الإسلام ، فالإسلام يعاني أساساً من نفس معوقات الإمبراطوريات السابقة ، فأولا ، حتى إذا كان المجتمع التجاري للفترة العباسية الكبرى ينهار - كما سبق إن أوضحنا - تحت التأثيرات السياسية والمالية ، أكثر منها تأثيرات اقتصادية بالمعنى الحرفي ، وقبل صدمة الهجوم التركي المغولي ،فستظل هناك دائما فكرة أن العالم الإسلامي هو مارد ضخم بلا قواعد ثابتة ، فقد كان ضخما وكبيراً ولم ينزع منه ضخامته إلا الإمبراطورية المغولية ، لقد كان الإسلام في القرن العاشر يغطي الخريطة من السند إلى إسبانيا ومن آسيا الوسطى إلى أطراف النوبة ، أي أنه كان يحتل مساحة توازي مساحة فرنسا اثنى عشر ضعفا ، كما أن الإمبراطورية الإسلامية كانت من الناحية السياسية أو الإقتصادية عبارة عن جسد له عدة رؤوس هي قرطبة والقيروان والقاهرة ومكة ودمشق وبغداد وبخارى ، لكي لا نذكر سواها ، أي أنها كانت أراضي متنوعة جغرافيا وشعوبيا .

لقد كان العالم الإسلامي كبيرا وضخما ولكنه إنساني شديد الإنسانية ، ولا شك أن هذا المارد كانت له روح أخرى بالنسبة لسابقيه ، إن التماسك الذي اتصف به في أوائل الإسلام لم يمكنه مقاومة الضرورات أو الضعف الأزلي الذي يعتري المجتمعات الآدمية ، إذ أن الدين بكل متطلباته قد تداخل مع ضرورة الحياة ، الحياة بكل حرياتها ليثري كل شيء ، إلا أن المجتمع الإسلامي لم يكن لديه كافة الوسائل للإدارة الجديدة أساسا والثورية فيما يتعلق بالأساليب المستخدمة



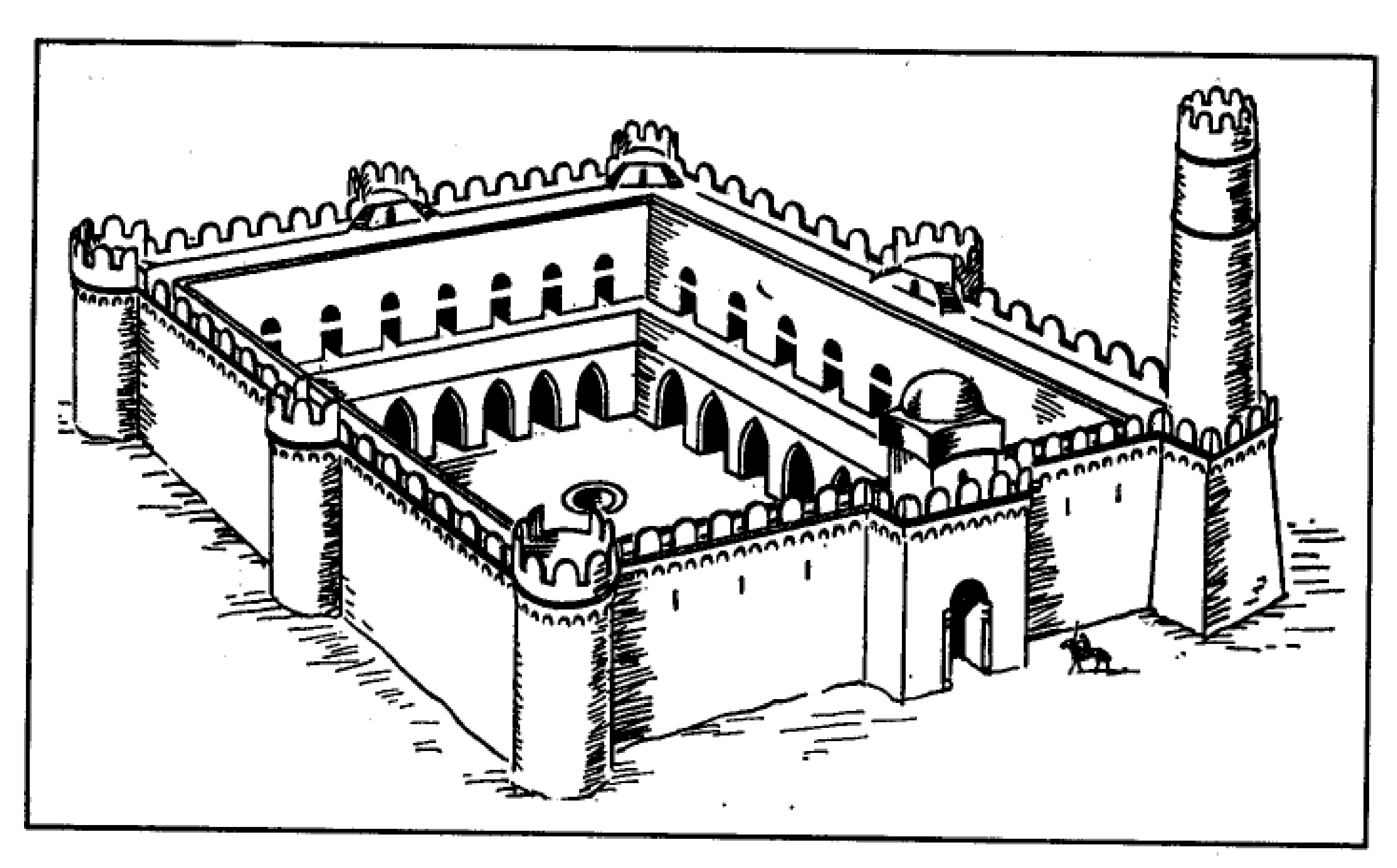
الخريطة ١٤ - اهم الاتجاهات الحرفي



ارة العبيد في العصر العباسي

في هذه المهمة التي كان عليها التوفيق بين نوع من السياسة العامة والإختلافات المحلية .

وهناك صعوبة أخرى هي أن الإمبراطورية تحدد خطاها ، فقد توقف اتساعها وبدأت تطلب من حامياتها التي على الحدود أن تحميها ، (وكان يطلق عليها اسم الرباط) شكل (٢٤) ، وتحمي ثرواتها أكثر مما تهتم بزيادة رقعة أراضيها ، وإذا قال القارىء إن شدة الإتساع لها مشاكلها فإن توسيع الأرض بفتوحات جديدة كان سيزيد من هذه الصعاب بتسويفها ، ولا شك في أن توقف التوسع دليل على وجود أزمة واضحة ، وكأن الإمبراطورية أخذت تلهث خشية الضياع .



شكل ٢٤ ـ دير محصن (رباط) في القرن الثالث/ التاسع .

ولعل ما هو أكثر خطورة على المدى الطويل هو أن ثرواتها كانت تأتيها عن طريق العبور المؤقت والإستثمار ، إن هذا المجتمع الضخم لم ينتج بقدر احتياجاته ، إذ كانت زراعته قاصرة في رتابتها وما زالت تعوزها المياه ، وكان الإستهلاك والتبادل لا يتمان بشكل يتناسب مع الإنتاج ، وهذا الإنتاج بدوره لم يكن متنوعا بل كان يدور حول بعض منتجات الترف والبذخ، ولكنه يفتقر إلى القطاعات الرئيسية كالأخشاب اللازمة لهياكل المباني والنجارة وبناء السفن ،

وكذلك بعض المعادن الهامة كالحديد الذي كان نادرا بالنسبة للإحتياج إليه مما كان يتطلب تدخل الدولة في هذه المجالات الأساسية .

وكان الإسلام يعيش على التبادل سواء في أرضه أو مع الخارج ، ولا شك في أن عظمته وضعفه يكمنان في هذه الكلمة ، إذ أن تغير سياسة أو خط سير نقل الأسلحة وتبادلها أو ظهور قوى جديدة في سماء التجارة كما حدث في الغرب يعني أن الدولة تنهار .

ومثلها مثل سابقاتها فإن الإمبراطورية الإسلامية وهي تخبو ماديا ، راحت تلقي في مجال التبادل الثقافي بأضواء قوية لم تنطفىء حتى يومنا هذا



الفصل الرابع

مجتمع مضطرب وقلق

يمكن تلخيص الفكر الإسلامي للفترة العباسية في كلمات ثلاثة هي إعداد ومنازعات وحنين ، لكن الأمر لا يتعلق هنا أيضاً بعالم مغلق إذ أن العالم الأجنبي يتدخل في الفكر الإسلامي ويؤثر عليه ويصدمه ثم يستعد هو والغرب لجني ثمار هذا الفكر .

١ ـ الحنين إلى الماضي .

انحلال التاريخ .

إن الإسلام الكلاسيكي تسيطر عليه فكرة الجنة المفقودة ، وهو مقتنع بفكرة أن تحسينه ذاتيا يكمن في أوائل أيامه وإن أي تطور لا يبرره إلا مدى اقترابه من محاكاة النموذج الأول ، مما أدى إلى نجاح أسلوب الإسناد في القانون والتاريخ ، والإسناد هو الرجوع إلى مجموعة من الأشخاص التي تحفظ التراث عن ظهر قلب وترويه أبا عن جد وكانت تحافظ على الحقيقة المعاصرة للنبي أو التي كانت تصدر عنه .

وقد ولد التاريخ العربي في المدينة ، في محاولة لجمع الذكريات الأولى كتراث مقدس لا يمكن مسه ، وشيئاً فشيئاً اتسعت مغامرة الإسلام باتصاله بالخارج مما أدى إلى توسيع معطياته الأولية ، وبدأ التحليل التاريخي للخلافة الذي استكملته نظرة واسعة على التاريخ الماضي للدول الأجنبية المجتمعة حول الشخصيات

الإنجيلية الكبيرة وحول الإسكندر وزنوبيا وخسرو ، هذه هي روح التاريخ الدولي الكبير باللغة العربية ، ذو الإلهام الشيعي : تاريخ الطبري والمسعودي (اللذان توفيا عام ٣١٠ /٩٢٣و ٣٤٥ /٩٥٦) ، لكن لا الموضوعية ولا الإنتقائية ولا اتساع وجهات نظر مؤلفية لم تمنعهما من اعتبار الإسلام كالحدث الأساسي أو الحدث الخاص بمجيء إنسانية قد نضجت .

وهكذا تستمر المعطيات القديمة للتاريخ عبر الأيام بأساليب مبتكرة وبعيدة عن أي تأثير أجنبي مثلما رأينا في موقف المؤرخ بوليب حيال الرومان .

أمة وجماعات .

إن التاريخ والتأمل الأخلاقي الذي يؤدي إليه بالنسبة لمؤرخ مثل ابن مسكويه (توفي عام ٤٢١ / ١٠٣٠) ليس إلا أشكالا أدبية لذلك الحنين إلى ماض متكامل قد ولّى إلى الأبد والأسف عليه ، لكن هناك الحانا أخرى فكلما اتسعت الأمة كلما راحت مثاليات الجماعة تبحث عن تعويضات في مجالات مناسبة أو أكثر تحديداً ، ويعد القرن الرابع / العاشر نقطة تحول هامة بالنسبة للمجتمع الإسلامي فهو الذي شاهد ازدهار الإسلام الأول وشهد الصحوات الوطنية المكثفة خاصة في إيران ، كما عاصر بدايات التطور الصوفي وهي ترتسم إذ كان اتباع هذا المذهب يلبسون الصوف (مما أعطاهم اسم الصوفيين) ، وكانوا يهتمون بالتصوف ويجتمعون حول شيخهم في جماعات صغيرة ، وقد تحدث الجغرافي المقدسي عن أوائل هذه النماذج وكان مارا بالجنوب الغربي لدمشق ، فوصفهم بارتداء النسيج الخشن وأكل ثمار البلوط .

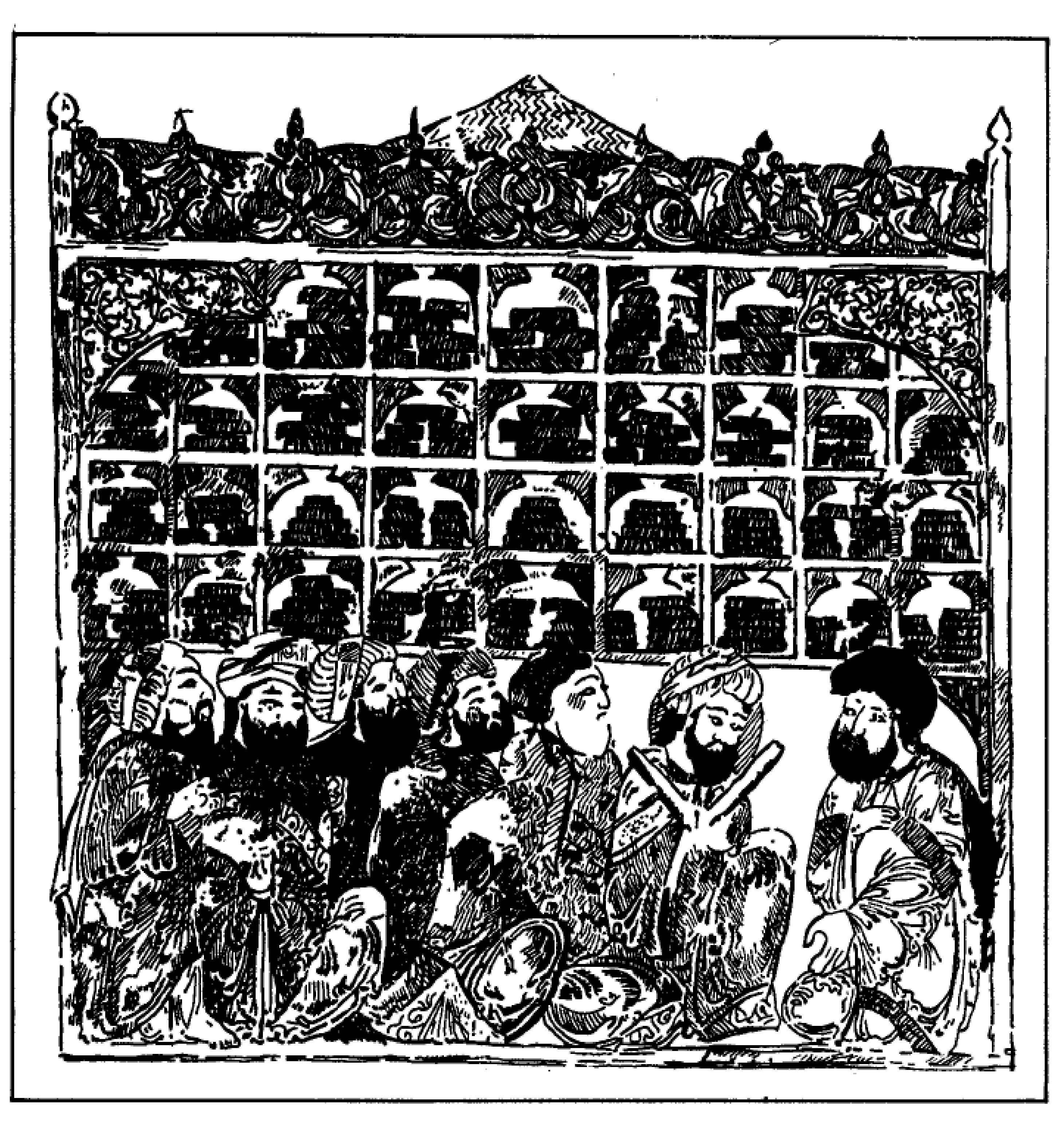
وفي نفس الوقت تقريبا بدأت تجمعات الفتيان ـ ما زالت غير معروفة تماما ـ ترقي إلى مستوى مؤسسة تجمع حقيقية ، وهي ترمي إلى التعاون والحياة الجماعية ويجمعهم ميثاق شرف اسمه « الفتوة » بالإضافة إلى روح الشهامة والكرم وحب الغير ، وكلها سمات عربية إلا أنها ترجع إلى أيام الساسانيين وقد بدأت هذه التجمعات تنتظم في اجتماعات دورية لها طقوسها وزيها الخاص ، وقد انتشرت في الأوساط الشعبية وهي تقدم لبعض الفئات المدنية وخاصة فئة « المعدمين » التطلعات التي كانوا يحلمون بها والقائمة على سلب الأغنياء ، وبدأ هؤلاء الفتيان يتعاونون في نوع جديد من التضامن بعيدا عن أي ارتباط مهني أو قبائلي ، وكان

زعماؤهم يتعاملون مع السلطات الرسمية على مستوى الند للند ، وفيها بعد بدأت سياسة الدولة أو فلسفة التجمعات الصوفية تهتم باستغلال هذه الحركة لصالحها لكن بنتائج مختلفة ، إلا أنها ظلت حتى تلك اللحظة وعلى المستوى الإجمالي للمجتمع الإسلامي مجرد محاولات أساسية للترابط ، وفي مجمل هذا المجتمع الإسلامي الشاسع الذي أعطاه التاريخ أبعاد كل ما يمكن لإمبراطورية شاسعة أن تتضمنه من ضعف وأبعاد ، فقد كانت أحداث هؤلاء الفتيان تبدو وكأنها تنمو داخل الشعور الوطني أو داخل المنشآت الجماعية أو الدينية دون أن تخرج عن نطاق الأمة الفريدة كأنها جماعات أكثر حساسية وأكثر حسما .

٢ ـ اضطراب المعرفة .

حركة تداول الأفكار الجديدة .

كان البردي المصري والورق الصيني يغذيان سوق الكتاب النشطة ، ويعد فهرست ابن النديم وهو من أصحاب المكتبات في أواخر القرن الرابع / العاشر من أهم الوثائق إذ يعطينا قائمة كاملة بكل الكتب الموجودة في بغداد آنذاك ، وهذا الفهرس يعد منجما لا ينضب ، ومن المؤسف إننا لم نعد نعرف من كل هذه الكتب التي يذكرها سوى عناوينها . . . ترى هل يمكننا أن نعرف ذات يوم عدد طبعاتها أو رقم مبيعاتها ؟ لا شك أن المعدات كانت باهظة الثمن وكان الكتاب من الأشياء الثمينة النادرة إلا فيها يتعلق بالأعمال الشهيرة جدا لدى جمهور المثقفين مثل الأشعار وكتب تعميم العلوم بالإضافة إلى نسخ القرآن ، وكانت هناك مكتبات (شكل ٢٥) تدخل في نطاق هذا السوق ، ويصف لنا الجغرافي المقدسي ، ذلك الملاحظ الذي لا يكل ، مكتبة شيراز وكان بها عدد من العاملين المتخصصين في ترتيب الكتب على الرفوف وبها سجلات ومراقبون أي أنه لم يكن ينقصها أي شيء من عالم المكتبات العامة الصارم ، إلا أن باب الثقافة كان ضيقا إذ كان الدخول إلى هذه المكتبات مخصصا « لعلية القوم » ، أما الشعب فكان يحصل على معلوماته في مصادر أخرى : في القصص والأشعار التي كانت تلقي في الهواء الطلق في الميادين وخاصة في الأمسيات ، وكان الأدب الشعبي يعرف السمر والنقاش عندما تنام المدينة ، ، مما يجعل من حضارة الإسلام ـ من عدة نواح ـ حضارة ليلية ، لقد كانت الحاشية تلتف حول الخليفة ، والمثقفون يلتفون حول أحد الشعراء أو



شكل ٢٥ ـ مكتبة عامة .

المتحدثين ، والمتعلمون والطلبة ينهلون القصص من الرواة ، مما جعل الأدب العربي أدب حلقات ، وما زالت بعض هذه الأعمال الأدبية تحمل ذكريات هذه الحلقات مثل كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، وهو كتاب في النقد الأدبي على هيئة مناقشات أو ذكريات ، وكتاب « المقامات » للهمذاني وهو من أساتذة النثر المسجوع .

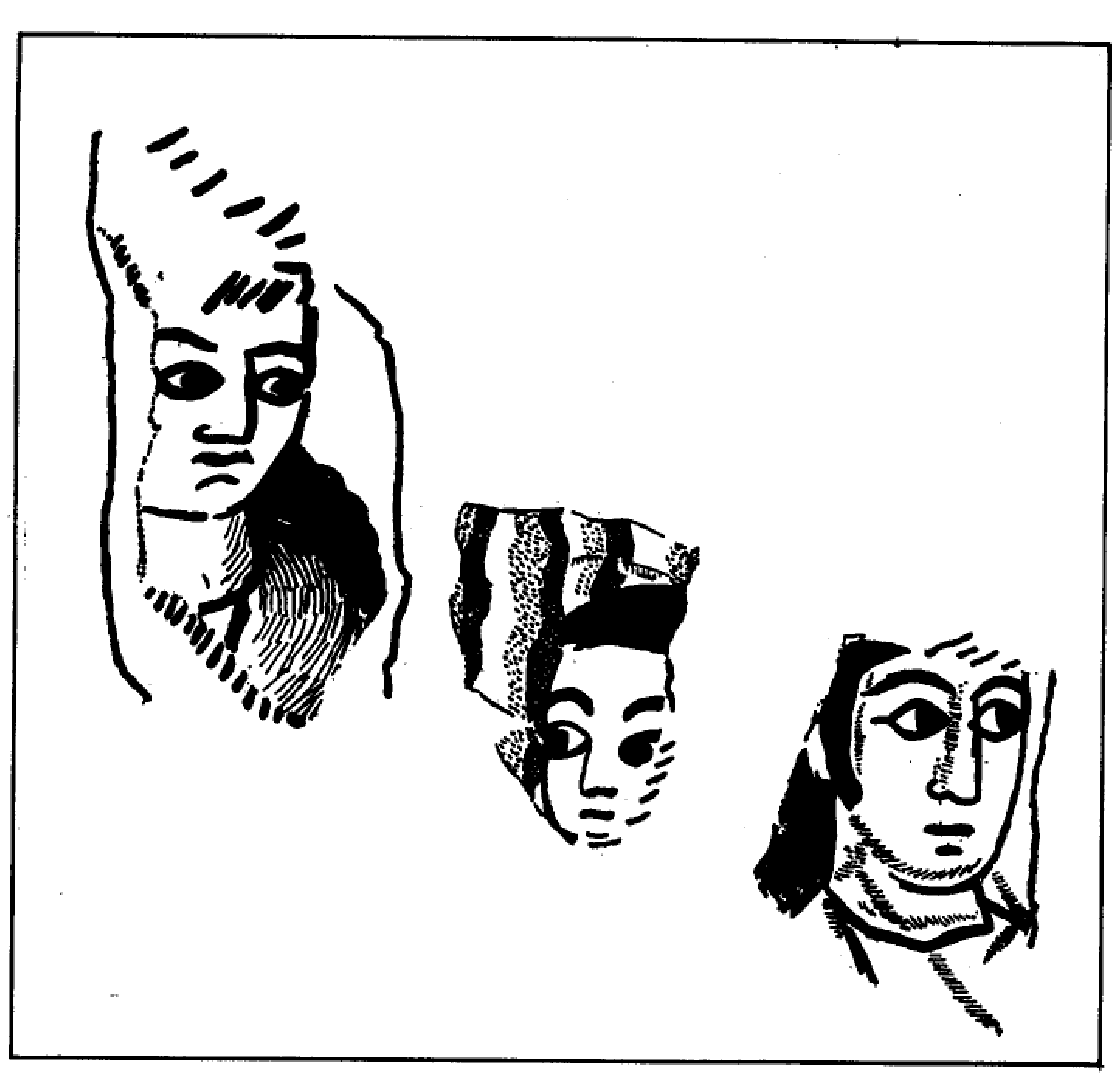
وماذا عن « ألف ليلة وليلة » ؟ . . . لا شك أنها تظل أجمل مثل عن التعبير الشعبي ، إلا أنها لا تستحوذ عليه بأكمله إذ يجب أن نضيف إليها « رواية عنترة » وقصص الحرب عند الحدود ، وأساطير البحار وكل ذلك الأدب المتنقل عبر

الأذهان والذي لدينا واحد من أهم أمثلته في « تقويم قرطبة » ، أي أنه أدب شامل شديد الحيوية كما في بقية المجتمعات ومن المحزن أن مثل هذا التراث الأدبي لم يهتم مباشرة بالكتابة التي لم تتم إلا فيما بعد . . .

انتظام عربي واكتشافات أجنبية .

تعد بغداد ـ كما سبق أن أوضحنا ـ نقطة التقاء الثقافات القديمة : هند الرياضيين والفلكيين والأطباء ، إيران وإخلاقيات الملوك ، اليونان وفلاسفتها وعلماؤها مثل فيثاغورس وأبو قراط ، وأفلاطون وبطليموس وبلوتان وبورفير وبروكليس وكثير غيرهم ، وكلهم يقفون تحت لواء معلمهم أرسطو ، وفي هذه اللقاءات نلاحظ غياب بعض الأعمال الهامة مثل الأعمال اليونانية غير الفلسفية والأدب اللاتيني والتاريخ العلمي وخاصة سترابون فيما يتعلق بالجغرافيا ، بل وحتى أفلاطون المعروف عادة بشكل غير مباشر من خلال أعمال اتباعه ، ومن الملاحظ أن التراث الأفلاطوني الحديث كان يعيش في الشرق قبل ظهور العرب ، فقد كان لإيران الساسانية في جندي شابور ، فيما بين النهرين ، مدرسة طب شهيرة تعتمد أساساً على أعمال المسيحيين النسطوريين المتحدثين باللغة السريانية ، وهم من أهم ناقلي الكتب اليونانية وقد تناول الإسلام العباسي هذه المعطية ونمى تراثها وذلك بإنشاء مدرسة حديثة للترجمة بقيادة حنين بن اسحق وثابت بن قرة ، وقد نقلا من اليونانية إلى السريانية ثم من السريانية إلى العربية جزءاً هاماً من التراث الهلليني ، وقام الخليفة المأمون العظيم بتشجيع هذه الجهود ثم جمعها في النصف الأول من القرن الثالث / التاسع ليؤسس أول معهد في ذلك الوقت وكان اسمه « بيت الحكمة » الذي سيشتهر بأعمال الفلكيين .

وفي مواجهة ذلك وقف التراث العربي الذي كان يستفيد أحيانا من أساليب البحث الجديدة ومن المناقشات الخارجية إلا أنه يعتمد على الدفاع عن الإيمان وإظهاره ، وتكونت نظرية « علم الكلام » ابتداء من القرآن وقراءته المقننة ، والتفسير (يعد المؤرخ الطبري أحد أساتذة هذا المذهب) والحديث الذي جمعه البخاري ومسلم ، وبدأ هذا العلم عقلانيا مع المعتزلة ، الذين ينتمي إليهم الكاتب الكبير الجاحظ ، فقد استخدم هذا العلم للدفاع عن الإسلام بنفس



شكل ٢٦ ـ رسوم حائطية من سامراء : وجوه نسائية ومنها ربة الينابيع (في المتصف) .

الوسائل المستخدمة في اليونان ، وكانت تهتم بالبحث في العقائد وتربط بين الإيمان ومتطلبات روح البحث ، وكان القلق سريع التولد مما أدى بالسنة المتشددين إلى العمل ، ففي النصف الأول من القرن الرابع / العاشر قام الأشعري والماتوريدي المترضي بالربط بين العلم العقلاني للمعتزلة ونصية المحافظين ، وقد أصبح هذا الإتجاه رسميا فيما بعد .

وبدأ التصوف هو أيضاً على هامش استقامة الرأي وترك أساساً رغم أولى خطواته إلى المحاولات الشخصية التي لا تجيد أجهزة الدولة السيطرة عليها ، وقد قتل أحد أهم ممثليه عام ٣٠٩ /٩٢٢ وهو الحلاج ، الذي راح يصرخ مثل المسيح « أنا الحقيقة . . » ، ولن يتمكن الإسلام من العودة بهذه الحركات المتأثرة

بالممارسات الأجنبية وخاصة الهندية أو المسيحية إلى داخل حدوده إلا فيما بعد عندما أعطاها مذهبا وتنظيماً أخوياً منظماً ، مثلما أوضح ذلك المقدسي بالنسبة للبنان .

فما أن يتعرض المرء إلى دراسة اللغة حتى تختفي مشاكل التحفظ أو الصمت ، فلقد ظلت اللغة العربية حتى في أشكالها الدارجة أو بأقلام الأجانب ، هي الوسيلة المختارة للنص المقدس ، والمرآة التي ينعكس من خلالها الإسلام بأسره ، رغم المدارس والقوميات المختلفة، وقد قام بعض علماء اللغة مثل الخليل الذي كان يدرس علم اللغة والعروض بتسجيل تفعيلات وايقاعات اللغة العربية ، بينما كان سيبويه والكسائي اللذان يمثلان المدرستين المتنافستين في البصرة والكوفة يقومان بوضع القواعد .



ـ شكل ٢٧ ـ

سامراء : شقفه عليها رسم تخطيطي لرأس أسد .

ويجب ألا ننسى أن الشعر يتوج كل شيء ، وحتى عندما ينفتح الشعر في العراق على قوافٍ وبحور جديدة فإن الشعر يظل اسمي تعبير لغوي ، تعبير اللغة العربية التي ستبحث عن نماذجها عند شعراء من أمثال بشار بن برد وابن المعتز وأبي العتاهية وخاصة أبي نواس ، منشد الخمر والغراميات الكبير ، إلا أن مساهمة أبيات الشعر في عملية توضيح اللغة العربية كانت تهتم أحيانا بشكل أكثر تحررا ، فقد كان هناك تيار من الكلاسيكية أو الكلاسيكية الجديدة التي تنهل من ثقافة علماء اللغة وتحافظ على انتمائها إلى شبه الجزيرة العربية وعلى موضوعاتها ـ سواء كانت تنطبق على الواقع أم لا ـ كما تحافظ على إيقاعاتها ومفرداتها المتغلغلة والتي يصعب أن تختفي ، وهنا تبرز أسماء أبي تمام والبحتري وابن المعتز الذين يؤدون بمواهبهم إلى المتنبي وإلى أبي العلاء المعري بكل ما يحمله من تشاؤم .



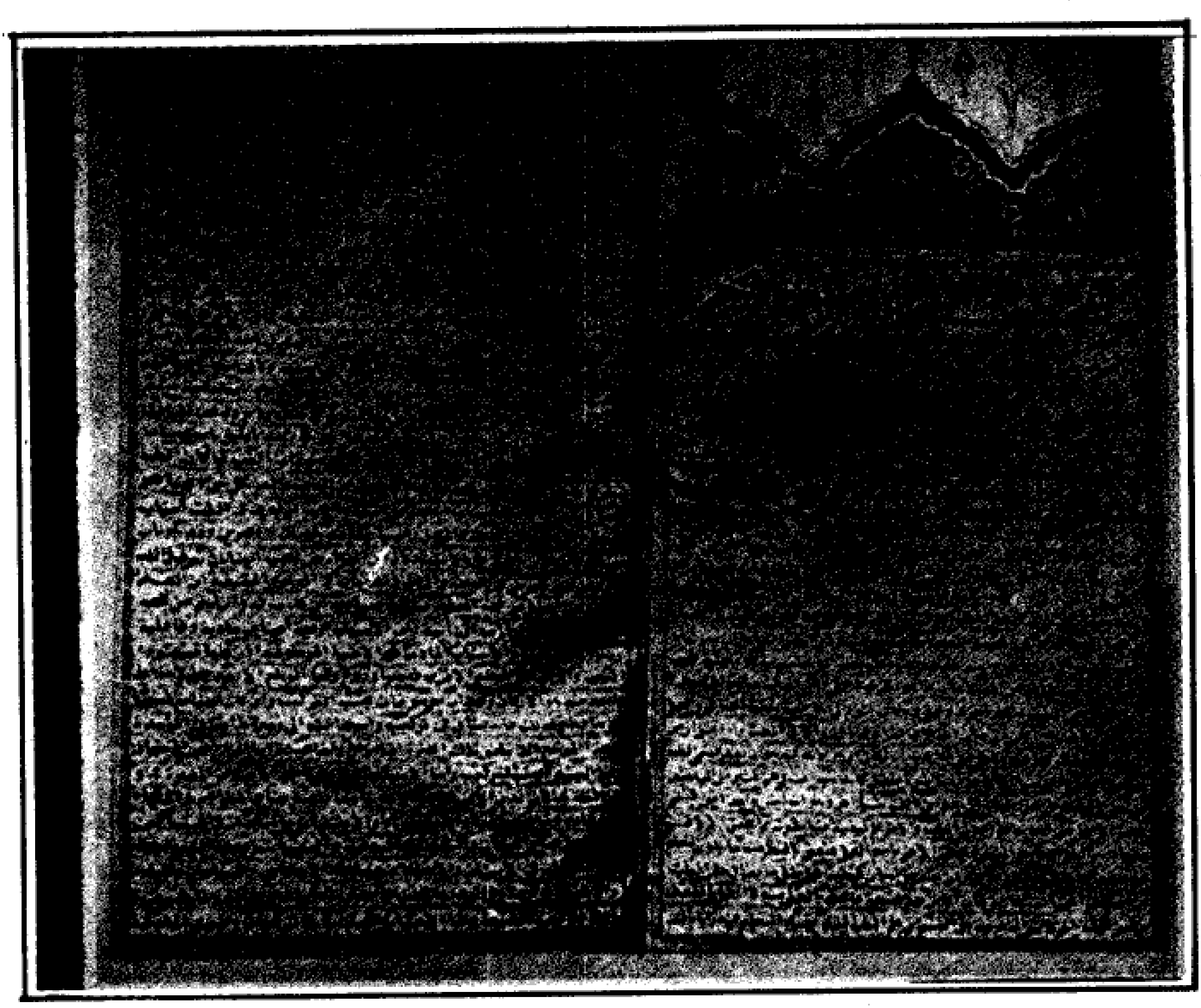
شكل ٢٨- فريسك من سامراء : شفقة : راقصة طب نظري وطب عملي

٣ - النقاش حول ماهية الاجتماعي

الثقافة جواز المرور إلى المجتمع

إن أنصار نقاء اللغة العربية أو الانفتاح على العالم الغربي، سواء كانوا من العقلانيين أو من المحافظين، كانوا متفقين على نقطة واحدة هي: ضرورة الأدب، وسواء كانت هذه الكلمة تعني نظام السلوك أو القيم الأخلاقية في أوسع معانيها، أو المعرفة بكل شمولها فإن الأديب يمكنه أن يرتقي إلى مصاف النبلاء أو الارستقراطية التقليدية حتى وإن كان متواضع الأصل، ورغم كل شيء فإن التطلع إلى صفوة المجتمع يتطلب عدة نقاط أكثر واقعية فهناك حقيقة تقول: إن البطن الجائعة يصاحبها عقل عاطل، وبالتالي فإن الأدب يؤدي إلى البحث المزدوج عن القوة الاجتماعية والمال، وهذا هو المثل الأعلى العملي الذي كان يصبغ المعرفة بلمسة بورجوازية، فهنا مثلما في المجتمعات الأخرى، فإن الاعجاب الصادق بالعلم في حد ذاته ترادفه متطلبات أكثر ضرورة.

وهكذا يمكن تفسير أن عملية الشعر والأدب تقيد الاصالة في نطاق الانتحال أو التقليد وأن العبقري في هذا المجال يهتم باتباع الطرق المألوفة بدلاً



أ ـ مخطوط كتاب ابن سينا .

من البحث عن موضوعات جديدة تظهر عبقريته .

اتجاهات النثر

بدأ النثر العربي يتشكل ابتداء من النماذج الفارسية ولدى الكتبة مثل ابن المقفع مقتبس « كليلة ودمنة » الذي تحدثنا عنه سالفاً، وعبد الحميد في أواخر العصر الأموي ، وسهل بن هارون وكثيرون غيرهم ، وبعد هذا المنطلق كان للنثر أهم كاتبين في القرن الثالث / التاسع هما الجاحظ وابن قتيبة ، وبفضلهما تحقق للنثر اتزان تام بين اللغة السلسلة الرشيقة الواضحة وبين فكر متكامل يخدمه التعبير المتزن ، لكن سرعان ما ابتعد النثر عن هذا الاتجاه ، فمن ناحية ظل اسلوباً تعليمياً ومجرد وسيلة بسيطة لعرض الموضوعات الخاصة بعيداً عن أية اهتمامات لغوية ولذلك كان معظم الإنتاج العربي عبارة عن أدب تفسير ودفاع عن الدين ، وانتاج فلسفي أو قانوني أو تاريخي أو علمي .

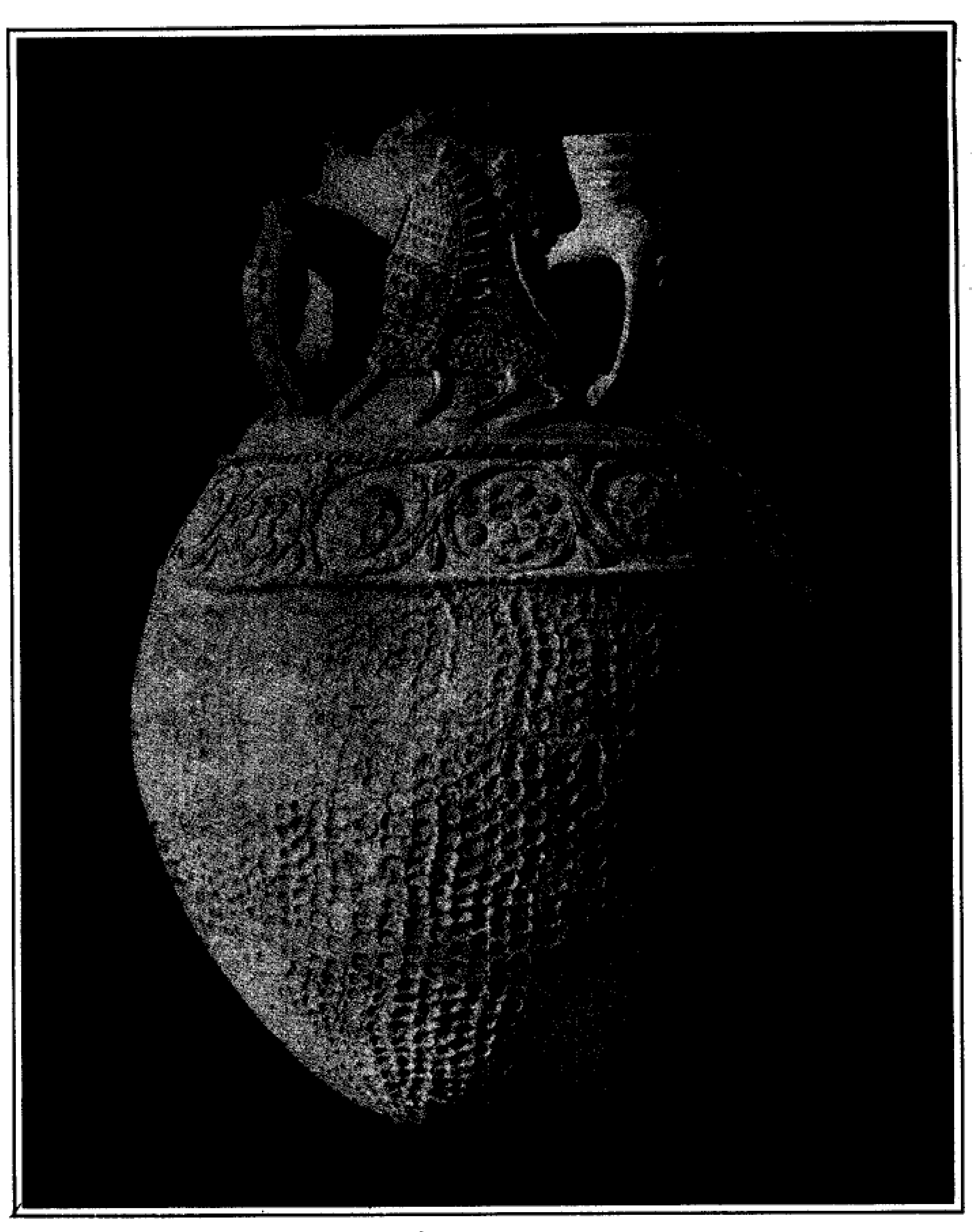


ب ـ تجبير كسر .

ومن ناحية أخرى فإن النثر عندما كان يطمع في الثقافة لذاتها ، فإنه كان يقع في فخ الفن للفن الذي يقدم له نماذج الشعر الملحقة وهكذا بدأ السجع والإيقاع والتكرار يفسد التعبير الأدبي شيئاً فشيئاً مثلما نجد في مقامات الهمذاني الذي أشرنا إليه من قبل ، والذي كانوا يلقبونه « ببديع الزمان » في زمنه (أواخر القرن الرابع / العاشر) وفيها بعد بزمن طويل بدأت العصرية تجد طريقها إلى النثر الحيوي ضمن ثورات أخرى .

أفكار جديدة وأشكال عربية .

يمكن إلى حد ما تلخيص كل مناقشة قضية المعرفة بالنسبة للإسلام



١٤ ـ آنية من الفخار من العصر العباسي .

الكلاسيكي إلى هذا المعنى : « ثقافة مفتوحة أم ثقافة مغلقة ؟ . . » إذ أن استمرار التراث القديم الوطني حتى عند المسلمين المتمسكين باللغة العربية على مستوى الأمة ، والدور الذي لعبته اليونان أو إيران يؤدي إلى عدة خلافات ففي نظر البعض ، وعلى رأسهم الجاحظ كان الدفاع عن الإسلام وعن التراث العربي يكمن في الإبتعاد عن إيران الخطرة ، حيث أن تأثيرها قائم في كل مكان ، وإبتداء

من هذا الدفاع فإن اليونان يمكنها أن تقدم تساؤلا جوهريا حول ماهية العالم بالنسبة لحضارة إسلامية مستقرة ، إلا أن هناك اتجاها معارضا لهؤلاء يتمثل في ابن قتيبة ، هو معرفة يمكن وصفها بأنها مناضلة ، لكن بما أن إيران متداخلة في البنيان الأساسي للمجتمع الإسلامي وتاريخها قد اندمج في تاريخ دولي يعد الإسلام هو مفتاحه ، فقد اتجهت النية إلى أبعاد اليونان « وفلاسفته » على أنهم خطرون على الإيمان .

وفي نفس الوقت الذي كانت تتكون فيه ـ في الفكر الديني القانوني ما أطلقنا عليه سالفا ، وفقا للتراث الإسلامي « غلق أبواب الإجتهاد الشخصي » قام بعض المؤمنين الصادقين بتحديد القيم والموضوعات الموسوعية بالنسبة للمثقفين ، وهي معرفة بعيدة عن متناول العامة بعد النبوة عن مفسري المعرفة الدينية ، وهكذا أصبح الأدب مرادفا للتراكم والمختارات الأدبية والتكرار ، وأصبحت معطياته تتنقل بين الأدباء بلا ملل ، وكان من أبرز هؤلاء الأدباء التنوخي والثعالبي وأبو حيان التوحيدي الذي كان يتميز عنهم بتأملاته .

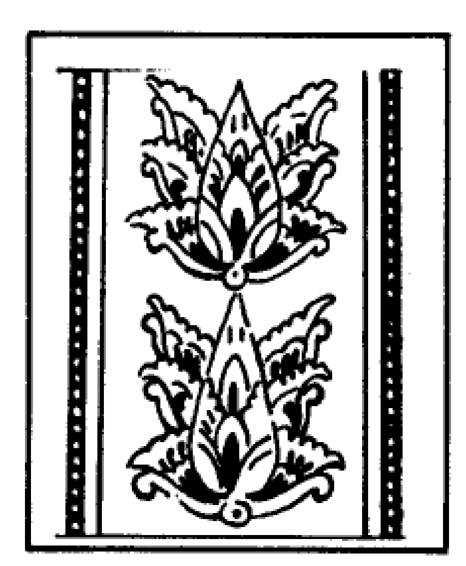
٤ ـ ابتكارات وتقدم واندماجات .

تأملات حول الإسلام .

إن فلسفة المسلمين هي قبل أي شيء فلسفة إسلامية ، أهو تحصيل حاصل . . ؟ ربما . . . لكنها في البداية كانت كذلك بكل تأكيد ، فلكي ينتمي إنسان إلى مجتمع مركب كالإسلام فلا بد من التطلع إلى الحفاظ على مجالي العقل والإيمان ، بل وإعطاء الأولوية إلى العقل مثلما فعل الرازي الذي توفي عام ٣١٣ / ٩٢٥ ، فقد قسم الأديان المنزلة وقسم أنبياءها ودافع عن الحكمة القديمة الموضوعة تحت لواء سقراط وأفلاطون ، إن اتساع ردود الفعل في كل الجماعات الصوفية الإسلامية تجاه هذا الموقف تثبت إلى أي مدى كانت هذه الوقفة هامشية ، وبالفعل اضطرت الفلسفة للبحث في مكان آخر واضعة الإسلام كإحدى مقدماتها .

ويحمل الكندي وهو أقدم الفلاسفة وأوسعهم صيتا لقب « فيلسوف العرب » في التراث وكان أول من أوضح الطريق إلى فلسفة إسلامية ، وذلك

بالجمع بين نظريات المعتزلة الدينية وبعض النظريات المأخوذة عن أرسطو أو عن الأفلاطونية ، ومن بعده حاول الفارابي (توفي عام ٣٣٩ / ٩٥٠) أن يدمج في مذهب متجانس كلا من كتاب « الجمهورية » و« القوانين » لأفلاطون ومجمل الفلسفة الأرسططالية ونظريات المعتزلة أو الإمامية ، إلا أن الفضل يرجع إلى ابن سينا المتوفى عام ٤٢٨ /١٠٣٦ والمتأثر بالمعتزلة والشيعية في أنه كوّن إبتداء من الفارابي ومحاضراته الذاتية أكبر مذهب فلسفي في عصره ، حيث لا يفوق الإشعاع الأرسططالي إلا سمو ورفعة الدين الإسلامي الذي لا يضارعه شيء .







ـ شكل ٢٩ ـ زخارف من مسجد القيروان الكبير .

إن هـذه الفلسفـة لـم تنجـح في التغرير بالإسلام سواء كان ذلك من باب الحيطة أو من باب التعمد ، فقد كانت هذه الفلسفة تهتم مثل الإسلام بالوصول إلى الجوهر ، إن لم يكن إلى أشكال المطلق ، وكان من الصعب على هذه الفلسفة الدمج بين أركان العقيدة ووضعية أرسطو ، والإهتمامات الكونية والأخلاقية الأفلاطونية الجديدة ، وكان التناقض أو الشك يحيط بمشاكل في مثل حدة مسألة التوحيد وحياة الروح والجسد وكنه العمل الإلٰهي ، لذلك ظلت هذه الفلسفة في نظر الأغلبية العظمى من المؤمنين ـ وخاصة السنيين ـ فلسفة غريبة وخطرة ، وكان اتباعها من الفلاسفة يتهمون بالشعوذة بل وأحيانا كانوا يخلطون في

نفس الكراهية الموجهة إلى الزنادقة ، وذلك مثل ابن قتيبة وكانت كلمة « زنديـق » في أوسع معانيها تشمل جميع المفكرين المتهمين باختلاق أفكار مريبة فيما يتعلق بالإيمان ، وتكمن عظمة ونفع هذه الفكرة في أن هذه الفلسفة تعد ابنة الإسلام من جهة ، فقد أعطاها بعض معطياته ومناخ متناقضاته ، إلا أنها من جهة أخرى تفلت منه كحلقة للربط بينه وبين فكرة الفلسفة الدولية وبين اليونان الذي ورث منه الإسلام والغرب الذي سيحييه فيما بعد .

علوم دقيقة وعملية .

لم يفصل أحد مفكري هذه الفترة ـ سواء كان مسلما أو غير مسلم ـ علم الفلسفة عن النشاط العلمي ، وكانت إشراقة النشاط العلمي وحدها تكفي لأن يوصف عصر الخلافة العباسية بأنه عصر النهضة ، فمن قال « العلوم » فإنما يعني بقوله الإهتمام بالبحث المجرد والتطبيق العملي ، وتعميق المعرفة ونقلها في أشكال تعليمية واحترام التراث الأجنبي سواء كان إيرانيا أو يونانيا أو فيما بين النهرين ، بالإضافة إلى الرسالة التي يتضمنها وهي مناقشة نتائج ما وصل إليه العلماء الأولون إذا ما احتاج الأمر .

ويمكن اختيار بعض الأسماء من بين هذه الكنوز ، ففيما يتعلق بالرياضيات هناك الخوارزمي والبطاني وأبو الوفاء وكانت أعمالهم تخص الجبر والترقيم العربي والجيب وخط المساس وأعمال الإنحراف وفلك البروج ومقياس درجة من محيط الكرة الأرضية ، وفي الكيمياء هناك جابر وانداده واكتشافاتهم في أعمال التقطير وفي تعريف العديد من المواد منها الكحول وحمض الكبريتيك ، وفي البصريات هناك أبحاث ابن الهيثم ، وفي الطب (لوحة ١٣) هناك أبحاث الرازي حول الجدري والعديد من الأمراض الأخرى وإنشاء البيمارستان (المستشفى) وهو من أصل إيراني إلا أنه انتشر عبر كل مدن الشرق قبل أن ينتشر في الغرب بعد تعميمه أيام الحروب الصليبية ،، وانتشر حتى في مسرحيات موليير ، وتعتبر أعمال ابن سينا من أهم الإنجازات في هذا المجال ، أما في الجغرافيا فبعد أعمال ماران دي تير وبطليموس المشكوك في نتائجها ومحاولة عمل أطلس جديد للأرض بالتعاون مع « بيت الحكمة » وهي محاولة سباقة في هذا العلم ومرتبطة عند ابن خرداذبة باهتمامات إدارية لمعرفة الإمبراطورية فقد قام بإعداد نظريته وأساليبه مع اليعقوبي

والبلخي والأسطخري ، كما عمل في النصف الثاني من القرن الرابع / العاشر مع ابن حوقل والمقدسي .

ولا بد من ذكر علماء النبات والزراعة والمعادن واتباع هؤلاء العلماء ومنهم من تخصص في الزراعة وعلم تربية الصقور والفلك والكيمياء وتفسير الأحلام وعلم الفراسة ، وكيف لا نتحدث عن شبه الجزيرة العربية الموجودة في مجمل الحركة العلمية سواء عن طريق لغتها ودينها الذي لم يعد ينفصل عن البحث العلمي ولا عن تساؤلات الفلاسفة وكلهم يمثلون تراثا لا يمكن تجاهله خاصة في علم الفلك وعلم النبات وعلم الجغرافيا ، ولننه هذه الفقرة بذكر البيروني الذي كان يلم بكل هذه العلوم بالإضافة إلى أنه كان مسلما مخلصا وكاتبا كبيراً ـ باللغتين العربية والفارسية ـ أي باختصار أنه كان على مستوى عالمي ورمزا لهذه النخبة من العلماء ، والذين كانوا علماءنا أيضاً إذ أصبحنا نتقاسم معهم المصطلحات التي يستخدمونها مثل الجبر والكحول وأعطينا أسماء لاتينية لمن عثروا عليها .

غايات نفعية وأجوبة جمالية .

يستمر القصر والمسجد في السيطرة على المنظر المعماري للإسلام ، إلا أن بعضا من الملامح في التراث السوري بدأت تتشكل وكانت أكثرحيوية حين بدأ هذا التراث في إسبانيا ـ بلاد الأمويين المهاجرين ـ يترك المكان شيئاً فشيئاً للتأثيرات الفارسية وما بين النهرين كلما اتجهنا شرقا ، فقد تحول البرج الديني فيما بين النهرين إلى المئذنة الحلزونية في مسجد سامراء ، وتسللت مع بعض الزخارف إلى مسجد ابن طولون في القاهرة ، كما بدأت مربعات القيشاني ذات البريق المعدني تزين التعديلات الجديدة في مسجد القيروان ، أما في سرايات سامراء (شكل ٢٦ ـ ٢٨) وقصور الخضير المتناثرة في الصحراء والغامضة مثل قصر مشطا في الفترة الأموية ، فقد انتصرت الروح الإيرانية ، وكان الملك يقيم بعيدا عن الأعين بفضل تصميم هذه القصور القائم على عدة أفنية وقاعات ضخمة بقبابها مما يضفي ضخامة على ضخامتها ، وذلـك مثل مباني مسجد سامراء ومساحته التي تبلغ ٣٨,٠٠٠ متر مربع وكان للإسلام بمثل هذه المباني ما يوازي قصر بوفيه في أتم أشكاله .

وكانت هناك عادات شرقية أيضاً بالنسبة للمعدات ، فقد كان الآجر هو السائد وقد غزا مجال البحر الأبيض المتوسط وما اشتهر به من الحجر المقطوع ، مارا بمصر أيام الطولونيين ، وذلك لأن الآجر كان يمكن دهانه بالطلاء اللامع (الورنيش) أو بمعجون المرمر أو بالميناء ، أي أنه كان يستجيب أكثر من غيره لإمكانيات التلوين ، إلى جانب سهولة نحته وتشكيله ، وسوف تشيد إيران العديد من الأقواس والقباب المربعة الأركان التي ستنتشر في المغرب حوالي القرن السادس / الثاني عشر ، والقباب القائمة على عقد الزاوية وهي المرادف الشرقي للقبة البيزنطية المثلثة الأركان والمليئة بالزخارف ، ثم تتشعب هذه المثلثات إلى العديد من التجاويف التي ستعطي طابعها المميز للجوامع الفارسية ، كما تتمثل إيران في مباني الأضرحة التي تعتبر النواة القادمة للمسجد الجنائزي والمئذنة المستديرة ذات القطعة الواحدة والتي توازي المئذنة الكلاسيكية المربعة ذات الطوابق والمنتشرة في البحر الأبيض المتوسط .

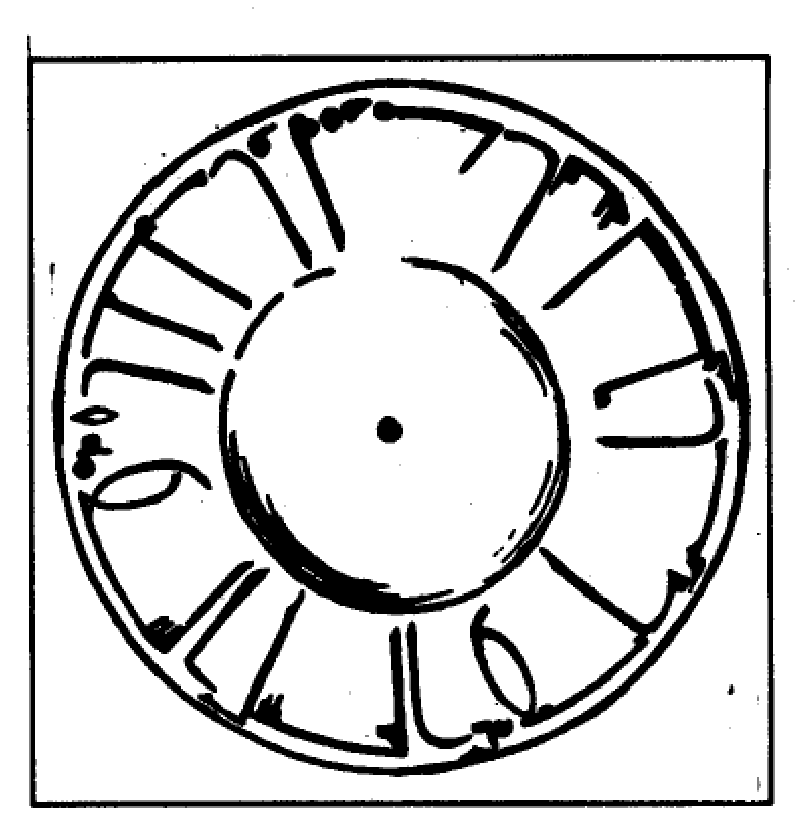
وهذه الملامح المميزة لا تشتمل على كل المعطيات ، فهناك تنويعات لا حصر لها تتولد من تداخل التقاليد المختلفة من بلد إلى آخر ، هل معنى ذلك أننا ننكر وجود فن إسلامي . . ؟ إن الفن الإسلامي في الواقع كان يتعلم كيف يتغذى من نفسه على مر القرون ، إذ أصبحت زخارفه (شكل ٢٩) تنتمي إليه أكثر فأكثر ، مثل زخارفه المصنوعة من معجون المرمر والقيشاني (شكل ٣٠) والرخام أو خشب التك وكلها زخارف تعتمد على العنصر الهندسي الصافي أو العنصر المعتمد على الأشكال الخطية والحيوانية ، فالفن في الإسلام يعني الزخرفة (الأرابسك) المتكررة إلى ما لا نهاية ، هل هو النفور من التشكيل الذي يشتبه فيه مع عبدة الأوثان ؟ ذلك هو التفسير التقليدي ولكنه في حاجة إلى بعض التوضيحات .



شكل ٣٠ ـ طبق من السيراميك اللامع ، فارس ، القرن التاسع ـ العاشر .

لا بد من التمييز بين العمارة المدنية والعمارة الدينية ، أي بين الغرب

والشرق ، والدليل على هذه الضرورة مناظر المنمنمات الفارسية ، ومثلما لم يستطيعوا منع الأقراض بالفوائد فإن علماء القانون لم يعرفوا كيف يجبرون الفنانين على عمل الرسومات التجريدية إن لم يساعدهم اتجاه عام في الذوق وهذا التفضيل العميق السري والذي لن نعرف تماما أصله وإنما يمكن التعبير عنه في تلك الخطوط اللانهائية للزخرفة العربية ، يعبر عن حساسية ساذجة



طبق من الصيني المصدف ، سمرقند ، القرن التاسع .

في الإسلام أو ميل إلى القدم ، أو إلى عالم غير مكتمل لا يعيش في كل لحظة إلا بفضل الإنتباه إلى خالقه بشكل حيوي لا يكل .

وأيا كان الأمر فإن هذه الزخرفة تجمل أيضاً الأدوات العادية مثل المصنوعات الجلدية والعاج والمصوغات والفضيات التي تمثل معدات الحياة اليومية عند الأثرياء ، ولا بد من إفساح المكان للأسلحة المرصعة دون أن ننسى أن قرطبة تنافس سوريا في هذا المجال ، وكذلك النسجيات وخاصة السجاد الذي لا نعرفه جيدا في هذه الفترة ، وأقمشة رشيد والسوس وإسبانيا ، المشغولة بالذهب والفضة أو الحرير ، إلى جانب الأشغال الجلدية والفخار (لوحة ١٤) المصنوع في سامراء والذي انتشر حتى مصر وإسبانيا بمنتجاته وأساليبه : اللون الأبيض المزخرف بالأزرق المصقول ببريق معدني أو متعدد الألوان والمستوحي ـ على حد قول مارسيه ـ من الصلصال الصيني من عصر تانج .

وهناك أمر غريب لا بد من ذكره هامشيا ، وهو أن الزخرفة المجزعة لفن البادية (الإستبس) قد انتشرت في بيزنطة وليس في الإسلام .

ولننه هذه الفقرة بالموسيقى (شكل ٣١) حيث تجتمع العادات العربية القديمة للمغنيات مع التجديدات الفارسية التي ستضاعف عدد النغمات من ثمانية

إلى ثمانية عشر ، مما سيؤدي إلى العديد من أبحاث الفلاسفة الرياضيين ، إن هذه الموسيقى تعتمد على الغناء والآلة ليست إلا أداة مصاحبة ، إنها موسيقى آدمية وليست هارمونية بالشكل المفهوم للهارموني، ورتابة نغماتها التي يتخللها الإيقاع سواء بالأيدي أو على الطبل ، تختلف من مغنية إلى أخرى بالمحسنات الصوتية ، ويعتبر العود ذو الأربعة أوتار أساس الآلات الموسيقية وهو يوازي في الإسلام آلة القيثارة عند القدماء .



شكل ٣١ ـ جوقة قادمة من بلاد المغرب (ايران)ـ الصين ـ اسرة تاريخ ، القرن الثامن

ميراث متنوع لكنه أكيد الاصالة ، عدة تنويعات لكن من خلال وحدة أساسية ، فيمكن للمرء أن يستخلص منها ما يبعد أو يقرب الإسلام من العالم الذي حاول أن يجد لنفسه مكاناً فيه ، فليغفر لنا القارىء إذا اتجهنا إلى المعنى الثاني ، فالإسلام بلا شك يحتفظ دائماً بشيء لا يمكن انقاصه ، إلا أنه قد عاش على منحدريه : الشرق والغرب ، حيث كان اللقاء هو التراث ، فمن جهة توجد أنهار بابل وهضبة إيران ، ومن الجهة الأخرى مشارف البحر الأبيض المتوسط وما هو أكثر من ذلك ، فإن الإسلام قد أخذ تراث الإسكندر وروما وزادهما اتساعا وأدمج منحدريه في مجال واحد فريد ، في اتحاد وثيق من الدرجة الثانية وإذا توغل

أكثر من ذلك فإنه لم يغلق أبواب مجاله إذ أن تجاره وأساليبه وأفكاره قد اتجهت إلى الخارج وأخذت بقدر ما أعطت ، بما في ذلك شكل التناقضات ، وفي القرون الوسطى الأولى ، فإن الغرب الممثل في بيزنطة ، والشرق ، يشتركان عبر الحروب في عالم واحد ، فإن السلطان الذي يمثل الناموس الآلهي على الأرض ، وهذا الفيلسوف الذي يريد تثقيف الفكر اليوناني في ظل الآله ، هذا الإنسان المثقف المزود بمعرفة دنيوية مقننة في عدة أمثال وأساطير وروائع ، هل هو ملك للإسلام وحده أم ملك لبيزنطة ثم للغرب أيام القرون الوسطى من بعدهما . . ؟

الفصل الخامس

نجاحات إقليمية

وحدة وتنوع ، حضارة الإسلام وحضارات إسلامية ، إن هناك قوى ومجتمعات وثقافات تتكون وتوجد لنفسها مكانا على حدة بعيدا عن بغداد ، في قرطبة والقاهرة وسمرقند ، إنها جانبية على الخريطة ، فيما يتعلق ببلدين منها ، وهما أيضاً ـ من بعض النواحي ـ متقدمتان على عصرهما ، بل ويمكن من الآن أن نقرأ عبر تاريخهما صحوة الغرب والغزو الطوراني .

١ ـ إسبانيا وصحوة الأمويين :

قرطبة منافسة بغداد والقاهرة .

قام الأموي عبد الرحمن عام ١٣٨ / ٧٥٦ بتأسيس إمارة قرطبة بعد أن نجا من مذبحة أسرته ، وقد وضع على رأس الدولة الجديدة أمراء شوامخ حكموا لمدة طويلة ، وتعد هذه علامة استقرار للأسرة الحاكمة وهو إستقرار غير معروف في مكان آخر ، فحتى عام ٣٥٦ / ٩٧٦ لم يتتابع سوى تسعة حكام ، وقد ضرب عبد الرحمن الثالث الرقم القياسي في طول مدة الحكم (٣٠٠ / ٩١٢ ـ ٣٥٠ / ٩٦١) وقد اتخذ لنفسه لقب الخليفة ، وبدأ اشعاعه على الأرض ، إذ أصبحت حرب الجهاد ضد المملكات المسيحية في الشمال شعاراً لمملكته ، وإشعاع على البحار : وذلك باحتلال جزر البليار ، وإنشاء موانىء المريه في البحر الأبيض المتوسط وقصر دوصال في الغرب ، وأرسل فرقة من ثمانية شبان من لشبونة وصلوا في القرن

الرابع / العاشر إلى مشارف ماديرا وجزر كناريا ، أما العملية الكبرى فتظل شمال أفريقيا وطرق مرور الذهب التي تنازعوها مع الفاطميين وإقطاعياتهم ، مما نتج عنه الهجمات على الموانىء واحتلال أبيلا وطنجه ، وإنشاء وهران حوالي عام ٢٩٠ /٩٠٣ بواسطة المبعوثين الأمويين .

وأخيرا إشراقه على المدن ، وهنا كانت الإبتكارات الجديدة قليلة بخلاف مرسية والمينائين المذكورين سالفا ، إلا أن الإسلام قد أحيا المراكز القديمة مثل طليطلة وأشبيلية وخاصة قرطبة وتحيط بها القصور التي تعد نواة للمدن الجديدة مثل مدينة الزهراء التي أنشأها عبد الرحمن الثالث .

وباستناده إلى إدارة على النمط العباسي ، وإلى عملة قوية ، عاد عبد الرحمن الثالث إلى نظام سك العملات الذهبية الذي كان قد توقف منذ عام ١٠٦ /٧٢٤ وكان لخليفة قرطبة سلطانة فقد فرض نفوذه على كل من القاهرة وبغداد وتعامل مع القسطنطينية على مستوى الند للند ، مع تبادل السفراء ، وتعد إمارة قرطبة من أكثر البلدان الغربية ازدحاما بالسكان ، إذ كان تعداد سكانها ٣,٥ مليون نسمة حوالي عام ٨٠٠ بعد الميلاد ، وقد تضاعف هذا العدد بعد قرنين وفقا لتقديرات ج . س . راسل .

شعوب مختلفة وصاخبة .

إن الإشعاع الأموي بازدياد بروزه يدين الخلفية القائم عليها والمكونة من خلافات وثورات ، وكان هناك العديد منها في إسبانيا ، فهناك ثورات الإسبان سواء كانوا موالين أم لا ، وثورات المسيحيين « المستعربين » ، وثورات اليهود الموجودين في كل المدن ، وكانت المساندات الخارجية تتكون أساساً من البربر ثم من العرب ، ـ دون التحدث عن الأيدي العاملة المكونة من العبيد السود أو السلافيين ، وهذه الإختلافات في الأجناس تدين ما بينها من اختلافات إجتماعية ، إذ أن الأرستوقراطية المكونة من العرب الملّاك تأتي على قمة الهرم الإجتماعي ، ثم كبار الموالين أو كبار التجار اليهود ، وعلى أقصى الطرف يقف عامة الشعب ومعهم المسيحيون المستعربون والريفيون ، وهنا بخلاف الهضاب المتروكة للعرب فإن البربر هم المسيطرون على الجبال .

كانت مزايدات العمالة المحلية ووطنيات البعض الآخر الذين اعتنقوا الإسلام ، والصخب الديني للمسيحيين يزيد الصراعات بين العرب ، وكانت الحكومة المركزية تكرس كل جهودها لقمع ما يحدث في مدنها خاصة في طليطلة وقرطبة ، وقد أدى إخماد ثورة ٢٠٢ /٨١٨ إلى طرد مئات من المنفيين إلى خارج البلاد فراحوا يؤسسون حيا بأكمله في مدينة فاس الجديدة ، في حين انتزع البعض الآخر جزيرة كريت من القسطنطينية ، وأصبحت مدينة كاندي الجديدة امتداداً اقتصادياً وثقافيا لإسبانيا إلى أن استعادها الغزو البيزنطي عام ٣٥٠ /٩٦١ ، ويعد انقلاب عمر بن حفصون أخطر هذه الثورات إذ امتد على مدى أربعين عاما فيما يشبه الحرب الأهلية الحقيقية ، وظل يحتل الجنوب معتمداً على قلعته ولم يهزم إلا عام ٣٠٦ /٩١٨ .

ثم تأتي الضغوط الخارجية وخاصة ضغوط الفاطميين الذين قام حلفاؤهم الصقليون بنهب المرية عام ٣٤٣ /٩٥٤ ، وضغوط النورمانديين الذين اجتاحوا شاطىء لشبونة عند جبل طارق عام ٢٢٩ ـ ٢٣٠ /٨٤٤ واستولوا على أشبيلية ثم عادوا واحتلوا الجزيرة وشطآنها البرتغالية على مرتين ، وأخيرا هناك الضغوط الواقعة من الممالك المسيحية الشمالية ، ورغم الغارات الهائلة التي أدت إلى سقوط مدينة سان جاك عام ٣٨٧ /٩٩٧ ، فإن حدود الإسلام لم تتعد حدود نهر دورو شمالا ومناطق أراجون وتراجون شرقا .

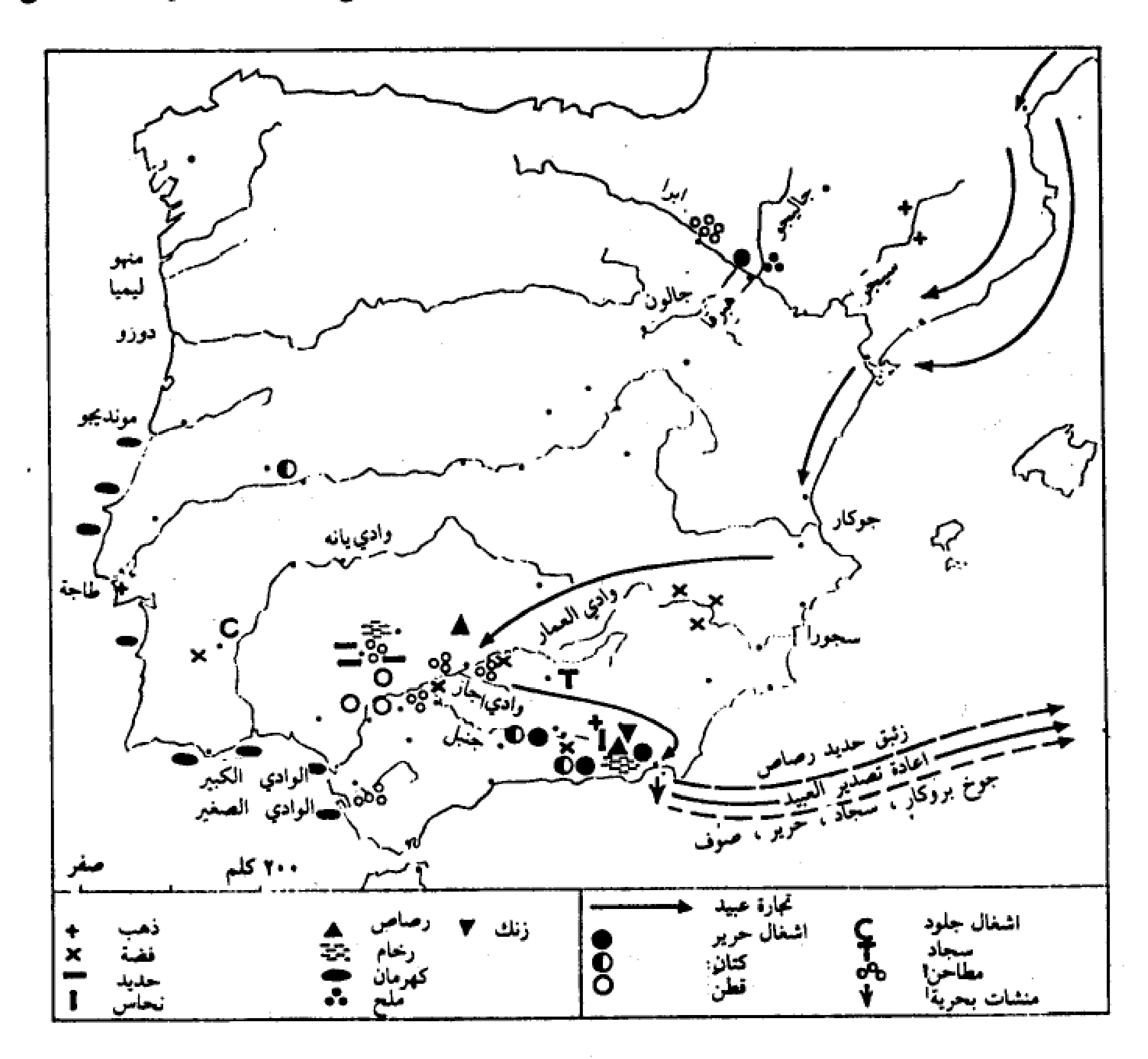
وماتت الإمبراطورية إذ استندت قوى الحاكم إلى عناصر من البربر وازدهرت في أواخر القرن الرابع / العاشر وعند وفاة المنصور « عمدة القصر » الجليل انقسمت المملكة إلى طوائف أندلسية وبربرية أصبحت بدورها نواة لإمارات أخرى .

الإسلام الإسباني .

لقد اجتمع الشرق والغرب ، الإسلام وإسبانيا ، ليعطيا لحضارة الأندلس ملامحها المميزة داخل وحدة الإسلام ، ولا شك أن قلب شبه الجزيرة الاسبانية آنذاك كان وادي النهر الكبير (خريطة ١٥) الذي أعطى اسمه (الأندلس) إلى كل إسبانيا حيث كانت تمر كل المنتجات المميزة للبلاد ومنها الزيتون والزبيب

والأنبذة ، (وقد قنع الإسلام هنا بالعادات المحلية) وخاصة منتجات الوادي من خضروات وفواكه ، وهي مواد أساسية لهجرة النباتات الحياتية من الشرق إلى أوروبا ، إنه تقليد زراعي يتغنى به الأدب والمؤلفات الزراعية قبل القرن الحادي عشر والثاني عشر بكثير ويتمم قصب السكر والنخيل (شكل ٣٢) والكتان والقطن تلك الرؤية الزراعية ، وفي الفصل الخاص بالصناعات علينا أن نذكر الحرير والمعادن ومنها النحاس والرصاص والحديد والزئبق ، وخاصة الفضة التي ترجع إليها عادة سك العملات البيضاء .

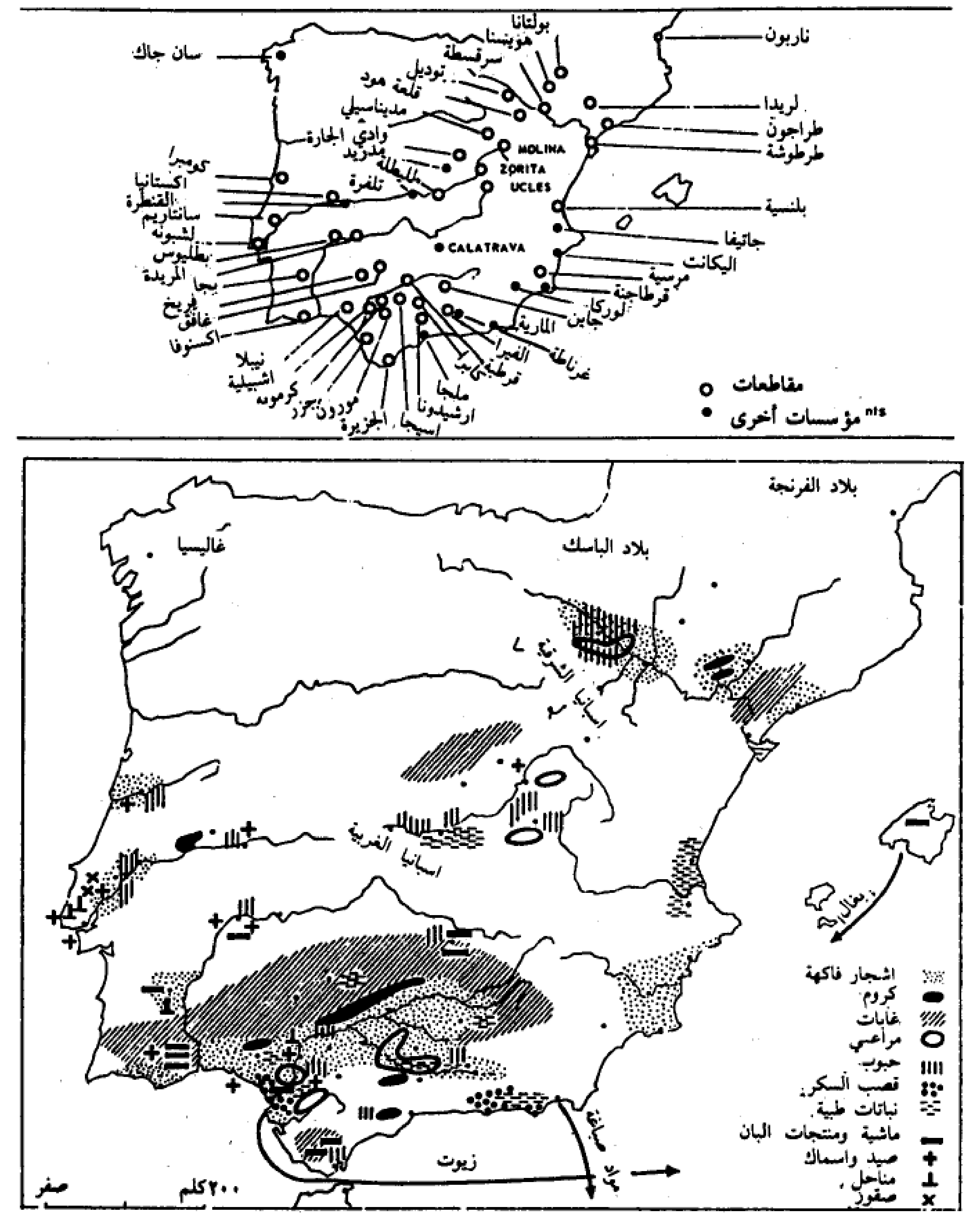
ومثل بقية الإسلام فإن إسبانيا هي أرض التجارة والتبادل ، فهي تصدر زيوتها وأقمشتها وأسلحتها إلى كل مكان تقريبا ، وتستورد القمح من شمال أفريقيا والعبيد من أوروبا ، وأدت هذه التجارة إلى إنعاش التجار اليهود ابتداء من



الخريطة ١٥ ـ اسبانيا في القرن العاشر كما شاهد

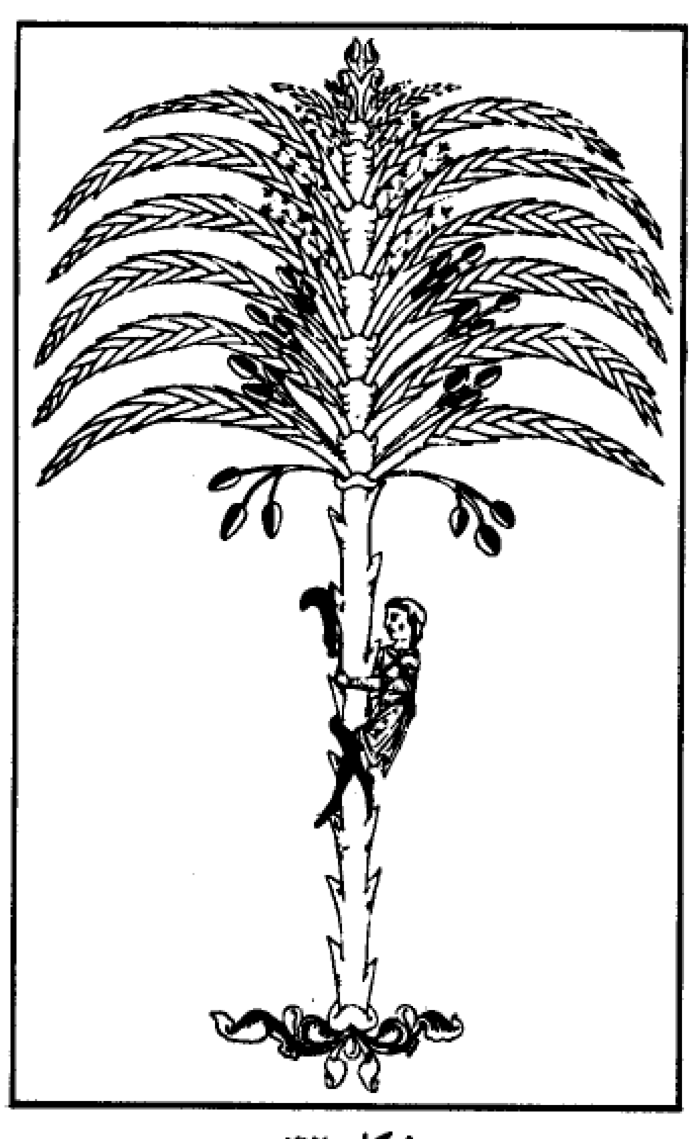
ميدان الفردان الخاص بالبيع حتى آرل وناربون حيث يمكن الذهاب منها إلى شبه الجزيرة أو إلى تونس وبقية الموانىء عن طريق البحر .

وما هو أكثر من هذه التبادلات ، فقد حدثت تداخلات ثقافية ، فعلى الرغم من كل الصراعات التي عاشت فيها إسبانيا فقد استطاعت أن تجد التوازن



جغرافيان من العرب : الرازي وابن حوقل

في هذه الإختلافات ، مثلها مثل بقية البلدان التي تسكنها جماعات مختلفة ، إن نجاح الأمراء الأمويين يرجع إلى اهتمامهم بأن يكونوا سادة مطلقين ورفضهم التعامل مع المتمردين بل كانوا يقمعونهم بشدة على أنهم يمثلون أحداثا سياسية دون إثارة فكرة الأقليات أو الأجناس أو الطوائف ، وهكذا رأى اليهود واحداً منهم يصل إلى منصب الوزير ، وأمكن للمسيحيين أن يجتمعوا في مجمع ديني وأن يؤكدوا استمرار اللغات الإسبانية ، واستمرار الحوار مع أمثالهم من رجال الدين عبر حدود الشمال .



ـ شكل ٣٢ ـ
جني البلح في إسبانيا ـ القرن الثالث عشر .

ويمكن وضع الإسلام الأندلسي تحت لواء مدرسة واحدة هي مدرسة مالك ، ومع ذلك فقد كان الملوك حريصين على عدم الوصول إلى حد التعصب أو السكوت على الإنتقادات التي يوجهها إليهم وإلى اليهود والمسيحيين علماء الإسلام ، ومنهم العلامة المثقف والقانوني ورجل الدين المعروف ابن حزم ولم يتمكن المذهب المالكي من منع تأملات الفلاسفة والعلماء بل كانت الدولة تشجعهم ، وكان هؤلاء العلماء ينهلون من كتب المكتبة الرائعة في قرطبة ومنهم ابن مسرة الأفلاطوني ، والطبيب الزهراوي الذين مهدوا السبيل للمستقبل ونقلوا الفكر اليوناني العربي إلى الغرب المسيحي .

ونفس التلاقي نجده في الأدب ، فالتراث العربي ـ دون التحدث عن التراث المالكي ـ والذي يعد نتاج المدينة البحث ، فهو ممثل في أعمال القالي الفقيه اللغوي ، وهو من أصل عراقي ، من عراق راح يفرض أساليبه شيئاً فشيئاً ، فقد فرضها في الإدارة كما رأينا سالفا ، وفرضها في الموسيقى بفضل زرياب المغني

البغدادي ، وبالمعلومات الموسوعية للأديب ابن عبد الربيع الذي لم يكن يقدم لمعاصريه سوى المعرفة الشرقية .

ولعل القارىء يتساءل عن إسبانيا ؟ . . . إنها تستمر في التغني بالأشعار التي ينشدها ابن شهيد وابن زيدون وغيرهما من الشعراء ، وكلها تدور حول روائع المدينة وزهورها ونسائها ، وهو تراث من شعر الغزل المهذب مثل أشعار ابن حزم المعروف عالمياً والتي تمثلها قصيدة « طوق اليمامة » إلا أن أهم ما تتميز به أشعار إسبانيا آنذاك إنما هو شعر يدور حول نفس الموضوعات وكانت نماذجه المفضلة في الموشحات المعتمدة على ترتيب المقاطع ، وكانت تكتب باللغة العربية الفصحى وتلجأ إلى بعض التعبيرات اللاتينية من الزهور ، زهور إسبانيا التي سيتغنى بها المنشدون عبر الجبال .

أما الحديقة الأخرى فهي حديقة القصر التي لا نعرف الكثير عنها في هذه الفترة ، لكن . . . هل كانت تختلف في حوارها بين الخضرة والماء عما احتفظت لنا به حديقة الحمراء بغرناطة حتى أيامنا هذه . . ؟ لا شك في أن مدينة الزهراء قد استلهمت نماذج حدائق الشرق الإيراني من خلال التراث اليوناني الروماني أو من خلال بديلاتها العباسية ، إلا أن الميراث راح يتدفق أيضاً خارج هذه الجنة المغلقة ، فقد أخذت إسبانيا تنتج بسخاء في كل الفنون معتمدة على موضوعات مستوردة من فارس وما بين النهرين وبيزنطة ومصر الفاطمية ، وقد راحت مشغولات العاج (لوحة ١٥) والجلود والأقمشة والسيراميك تنقل تحدي الحضارة إلى الإمارات المسيحية في الشمال .

كان جامع قرطبة الكبير (شكل ٨٦) الذي عمل فيه كل حكام الأسرة الأموية منذ إنشائها ، يمثل رمز المملكة ومجدها وثقافتها ، ويتكون هذا المبنى الذي يعد من أكبر مباني الإسلام من تسعة عشر جناحا وغابة من الأعمدة ، كما يعتبر بوتقة تتجمع فيها جميع أنواع التراث ، فقد قدمت سوريا سقف الجمالون والجناح الرئيسي وهو أوسع الأجنحة والمئذنة المربعة الشكل ، وقدمت بيزنطة الفسيفساء ، وقدمت تونس قباب الفوانيس ، وإيران أقواس القناطر ، وروما الأعمدة المنزوعة من آثارها القديمة وبعض الأحجار والآجر وكلها ذات طابع مميز ، وأهم ما يميز هذه العمارة هو نظام الأقواس المركبة التي تبهر المشاهد وكانت سائدة من قبل في

إسبانيا وفي الشرق ، أهي تقليد لقنوات الماء الرومانية وأقواسها ؟ ربما . . إلا أن استخدام مثل هذا الأسلوب في الحيز الضيق لساحة المسجد يعد ابتكارا معماريا لم يستخدم في أي مبنى آخر سوى في قرطبة ، فهو يضاعف من مساحة المكان ويزيد من فراغاتها إلى ما لا نهاية .

٢ ـ مصر الفاطمية :

على عكس إسبانيا فإن مصر الفاطمية لم تواجه الغرب عسكريا ، على الأقل ليس على أراضيها ، وتعد الحملات البحرية لاتباعها التونسيين أو الصقليين والعمليات التي قادتها ضد بيزنطة عند الحدود الشمالية لسوريا أقل أهمية على المدى البعيد ، من التوغل السلمي لتجار الغرب داخل الأراضي المصرية .

انتصار الشيعية وحدودها .

قدم الفاطميون الإسماعيليون من المغرب الشرقية ، وأعلنوا عن خلافة جديدة في القاهرة ، حياها الإسلام في كل مكان بصيحات الأمل الشيعية ، إلا أن التناقض كان كبيراً بين نجاح الدعاية الإسماعيلية في ذلك القرن الرابع / العاشر ، وبين عدم فعالية السياسة الفاطمية منذ أولى خطواتها العملية ، ورغم الدعاة المنتشرين حتى الهند ، ورغم الجامع الأزهر الجديد ـ وهو مركز اشعاع شديد الحيوية ـ فإن الفاطميين لم يسجلوا أي نجاح ، على المستوى السياسي سوى السيطرة على الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية وعلى تبعية تونس وصقلية بشيء من التكتم ، أما شرقا فقد بدأت المتاعب مع سوريا المسيطر عليها نظريا ، لكنها لم تخضع أبدا .

ومن بين كل الأسباب التي أدت إلى هذا الفشل فإن أكثرها ترجيحا يرجع إلى إمكانيات المقاومة لدى السنيين الذين يمثلون الأغلبية في سوريا كما في مصر أيضا ، وإذا ما نظرنا إلى تأثير الحدث الشيعي على مجمل تاريخ البلاد فإنه سيظل حادثا عارضاً قائما على خلفية سنية لا تمحي .

ولم يقم الخليفة الجديد بعمل أي شيء لتفادي خيبة آمال الجميع بما فيهم مؤيدوه ، ومن الملاحظ من خلال الأحداث أن المذهب الإسماعيلي في شكله

الفاطمي - والذي كان يزعم الثورية - لم يغير أي شيء من ثوابت التاريخ والإقتصاد المصري ، بل على العكس من ذلك كان يضاعف الهاوية بين معدمي الريف أو المدن وبين ثراء دولة شديدة المركزية ، لا تلين فيما تفرضه من ضرائب ، وأكثر اسرافا في بذخها من خلافة بغداد ، إذ كان الشعب دائما يعاني من الفاقة وهو يرى القصور تشيد أمام أعينه ، وجبال الحلوى تقدم للأثرياء من الموظفين الذين يتلقون الخلع من الثياب الفاخرة مرتين كل عام ويغرقون في هذه الجبال من الحلوى .

ثم كانت هناك الإستقطاعات الخاصة بالحرس بالإضافة إلى تطرفات الخلفاء نصف المؤلهين وقد أصبح الخليفة الحاكم الشخصية الرئيسية لعدد من الأساطير سنراها فيما بعد لدى الدروز ، وذلك عقب اختفائه بشكل غامض ذات ليلة من عام ٤١١ /١٠٢١ ، وقد كان يضطهد المسيحيين كما هدم قبر المسيح في القدس .

ملتقى طرق مصرية .

إن خلفاء القاهرة قد أكدوا رغم إفراطهم وضعفهم مكانة هذا البلد الهامة كملتقى طرق بشكل أوضح من سابقيهم ، فهناك أولا نظرة التسامح التي لم تخطىء أبدا ونراها في بناء الكنائس وحماية الأديرة وفي تعيين اليهود أو المسيحيين في مناصب الوزراء أو كبار رجال الدولة ، وكلها علامات تدل على السياسة الرسمية للدولة ، وقد يقول البعض إن عدم رضي الجماهير يعد إنكارا لهذه السياسة لذلك يجب التفرقة بحذر بين الإحتجاجات التي قد تكون إجتماعية ولا تهدف إلى المبدأ في حد ذاته وبين سياسة كانت تضع الأقليات في معسكر المتجاهلين في نفس الوقت الذي تسيطر فيه على السنيين بعنف .

وكانت هناك فئة أخرى من المحميين هي فئة العلماء ، فقد كان رعاة العلوم والآداب من الفاطميين يجتذبون العلماء بمكتباتهم وكان الأدب يتميز في عدة نقاط جديدة منها الإهتمام بماضي مصر في مرحلة ما قبل الإسلام وبداية الخطط التاريخية وقوة التراث القصصي الشعبي الذي سيسهم بشكل ملحوظ في رواية « ألف ليلة وليلة » .

أما في الفنون فيكمن سر مصر في تجانس الأساليب إذ استطاعت أن توفق

بين التراث المحلي (شكل ٣٣ ولوحة ١٦) سواء كان قبطيا أو طولونيا والتراث المغربي ، مثلما حدث في بداية الأزهر وكلها بوتقات تنصهر فيها التأثيرات الرومانية والبيزنطية أو الشرقية ، إن الفن المركب الذي نتج عن ذلك سيتجه غربا إلى شمال أفريقيا وصقلية وحتى إلى إسبانيا كما رأينا سالفا .



شكل ٣٣ ـ مصر ـ خشب منحوت

كل هذا بالطبع يفترض كأساس عدة تبادلات مادية ، إن مصر بصفتها ممرا من بين الممرات ، أصبحت تأخذ الصدارة ـ ولو جزئياً ـ من بغداد المنهكة ، وبمعنى آخر إن عدم نجاحهم السياسي شرقا قد ساعد الفاطميين بأن فرض عليهم تحويل جزء من تجارتهم المارة في خط الخليج الفارسي ـ العراق ـ القسطنطينية إلى البحر الأحمر ، ويعد ذلك الحدث تحولا هاما في تاريخ التجارة الدولية إذ أن عودة مصر إلى طريق الهند له رمزه من ناحية حماية الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية وله قيمته المادية إذ أعاد الحياة إلى طرق القوافل التي تربط موانىء البحر الأحمر بمخازن النيل .

وعلى الطرف الآخر من نهر النيل عند البحر الأبيض المتوسط سارع الغرب إلى انتهاز هذه الفرصة التي سنحت له ، ولقد سعد الفنيون الذين كانوا يشترون من مصر أقمشة الدلتا والشب وبالطبع المنتجات القادمة من الشرق الأقصى وذلك بخلاف تجارة العبيد والإفلات من الرقابة البيزنطية لتوريدهم لدولة الفاطميين تلك المواد الإستراتيجية مثل القار والحديد وخاصة الخشب ، ولم تكن البندقية وحدها في هذه العمليات فقد كان للأرمن الذين يأخذون مكانة اليهود تدريجياً ممثلوهم في القاهرة ، وكان بعضهم من سكان الموانىء مثل جعيته ونابولي

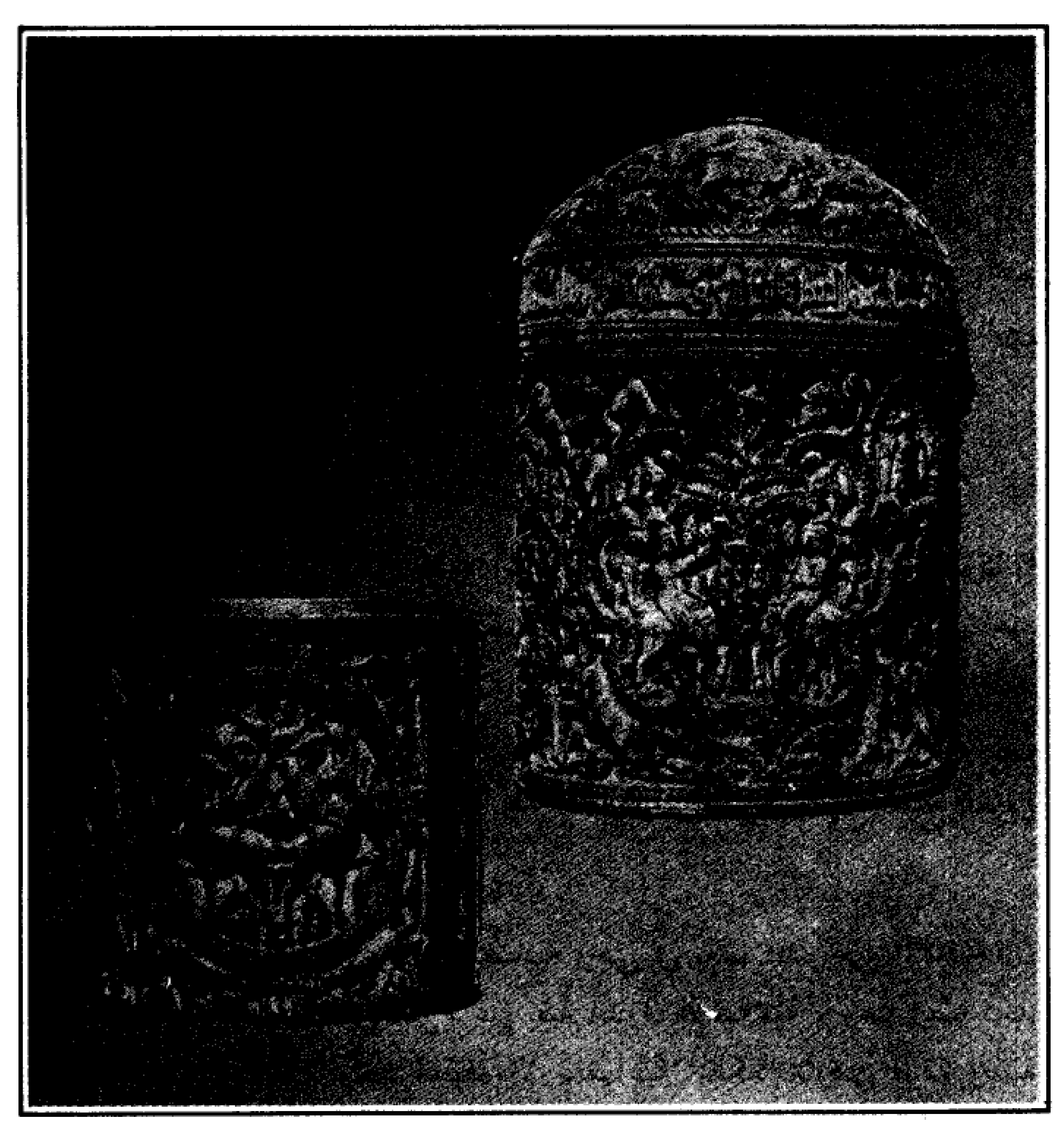
وأمالفي ، كما بدأت الموانىء الشمالية الإيطالية تستيقظ ومنها جنوه وبيزا ، وقد أفاقت من الهجمات الإسلامية القادمة عبر البحار ، واكتسبت من محاولات الدفاع عن نفسها معنى الإهتمام بالمسائل البحرية ، وبالطبع لم تستنفد إيطاليا كل التجارة مع مصر الفاطمية إلا أنها كانت تشير إلى الأيام القادمة ، ومن جهة أخرى فإن السيطرة على سوريا وعلى الطرق الشرقية التي تهتم بها أوروبا تظل من أهم المميزات الأساسية للنجاح المصري ، وقد ظل الوضع كذلك حتى أيام البرتغاليين والعثمانيين .

٣ ـ السامانيون ونهضة إيران .

استقر السامانيون عند الحدود الشمالية الشرقية للعالم الإسلامي ، وكانوا اتباعا لخليفة بغداد ثم راحوا يحكمون مباشرة أو عن طريق اتباعهم على إمبراطورية تمتد من مشارف الهند إلى بحر قزوين ، وإذا كانوا لم ينفذوا إلى قلب فارس القديمة لأن عدداً من الأسرة البويهية قد حال دون ذلك ، إلا أنهم كإيرانيين عرفوا كيف يجعلون من خراسان ملاذا للتراث القديم الذي لم ينجح الفتح العربي في انتزاعه .

ومن الناحية الإجتماعية والإقتصادية وحتى في بعض النواحي الثقافية فإن دولة السامانيين لا تختلف في شيء عن بقية الدول الإسلامية ، وهنا أيضاً نجد بعض الأرستقراطيات ، وتعد الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض طبقة وطنية متمثلة في بعض النبلاء الريفيين ، لكن طبقة التجار والحرس التابع للحاكم ـ وكان معظمهم من الأتراك ـ كانوا يسيطرون على البنيان الإجتماعي .

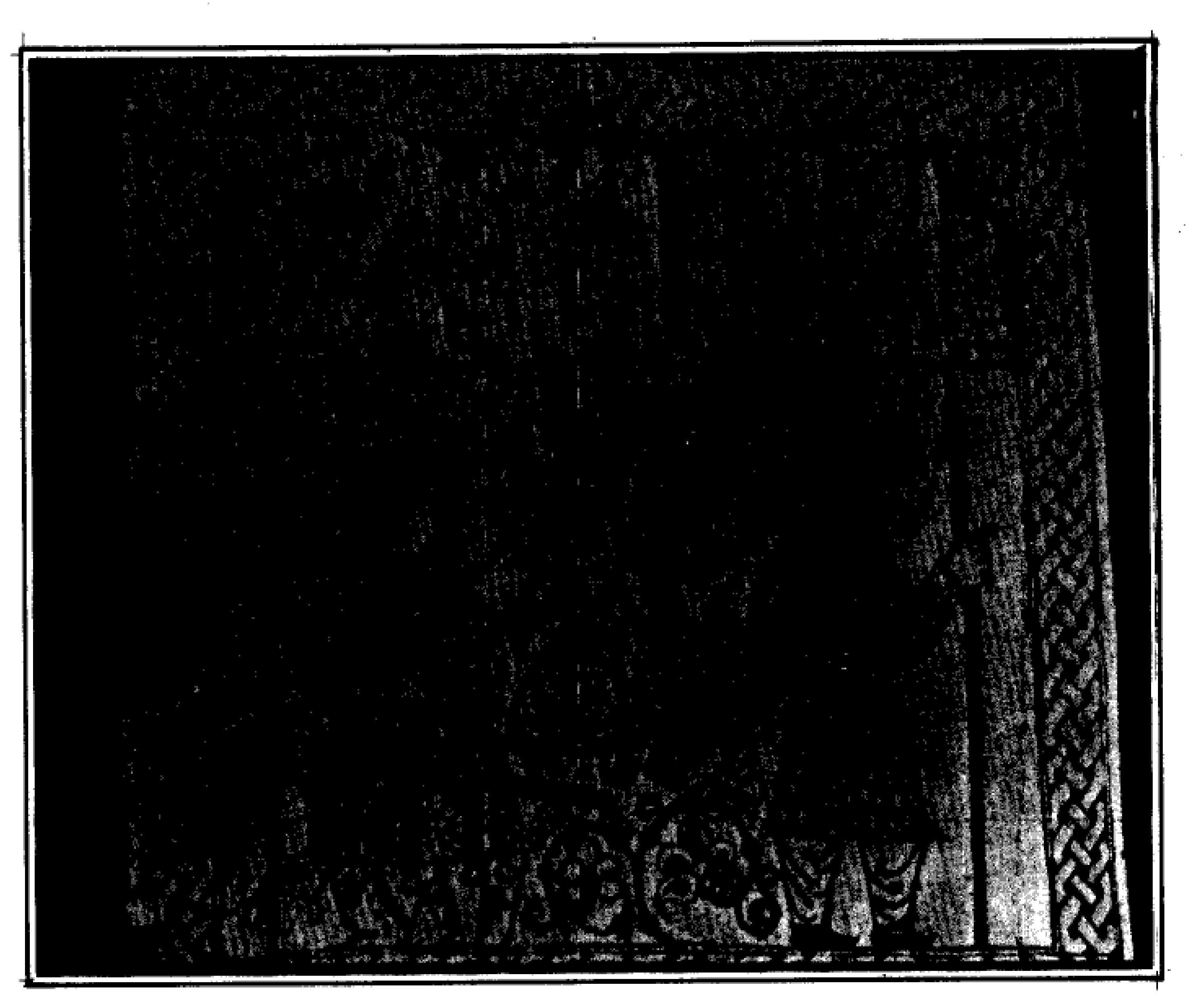
وكانت الثروات تعتمد أساساً على التجارة ، إذ أن موقع الدولة كان يسمح لها بتلقي المنتجات القادمة من آسيا الوسطى ومن روسيا ، واستطاع السامانيون الذين يتجرون في البضائع الثمينة ومنها الفراء والعبيد أن يقيموا دولة ذات نفوذ ، تألقت بفضل عملائهم حتى ما ينز على الأقل ، وهنا مثلما في بقية الدول قد أقيمت المدن الضخمة الرائعة ومنها نيسابور ومرو وبلخ وخاصة سمرقند وبخارى (شكل ٣٤) وهي مدن وواحات تزين مناطقها المحيطة بها بحدائقها ونافوراتها ، وأصبح علم الجغرافيا بفضل ابن حوقل يتغنى بالمتنزهات والمقصورات والإكشاك وبالهواء



ـ ١٥ ـ علبتان من العاج ـ اسبانيا ، القرن العاشر ـ الثاني عشر .

الذي يداعب صفحات الماء ، ذلك الماء الذي أعطى الحياة للعديد من الحيوانات والأشجار ، وهنا كما في بقية الدول أيضاً وجد المثقفون وعلماء اللغة العربية الرعاية المطلوبة ، نذكر منهم على سبيل المثال الأديب الهمذاني والجغرافي الجيحاني والبلخي وابن سينا الشاب .

إلا أن الأدب الفارسي هو الذي يفرض بصماته على الفترة السامانية ، ولا شك إن عادة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية وبالعكس لم تتوقف أبدا ، لكن فارس أصبحت تطالب بمكانة أوسع دون زعم استبعاد اللغة العربية ،

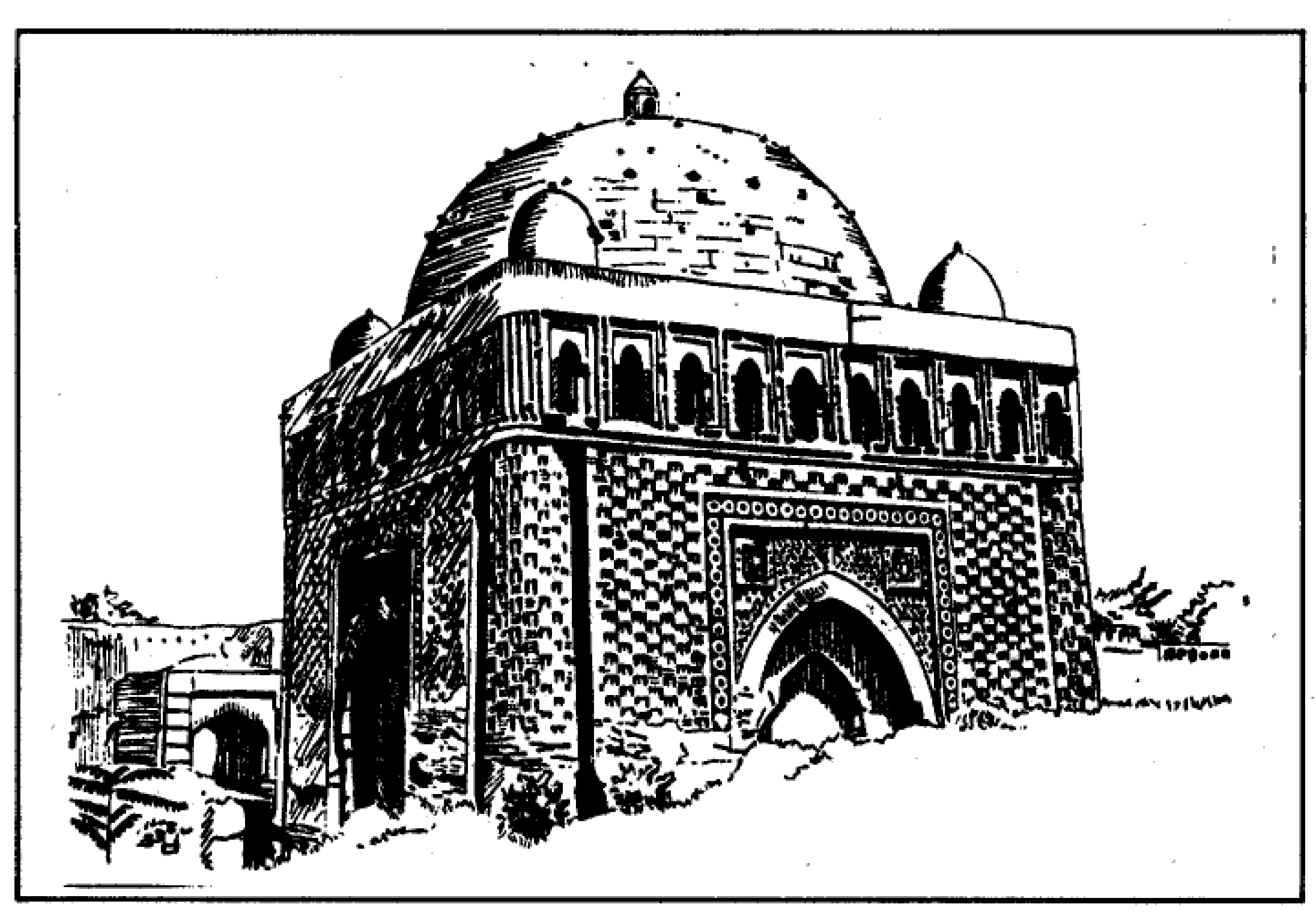


ـ ١٦ ـ رسم بالحبر ـ مصر الفاطمية .

وهناك اسم يسيطر على هذه الفترة هو اسم الفردوسي الذي خلق الملحمة الوطنية بمؤلفه « كتاب الملوك » أو « الشاهنامة » الذي انتهى من تأليفه عام ٤٠٠ /١٠١١ وقد راح يتغنى بماضي فارس قبل الإسلام في ٦٠,٠٠٠ بيت من الشعر الرومانسي الرائع وهنا تطالعنا بوادر عصر آخر إذ حاول الفردوسي إهداء عمله هذا إلى أحد الفاتحين الأتراك هو محمود من غزنة ، وقد استوحى الفردوسي أهم موضوعات « الشاهنامة » من المعارك التي دارت بين إيران وطوران (منطقة البدو في آسيا الوسطى) .

مقدمة للتوسع الطوراني : الغزنويون .

شهدت نهاية القرن الرابع / العاشر إنشاء الدولة الغزنوية ـ نسبة إلى اسم عاصمتهم غزنة ـ منبثقة من الحرس الأتراك عند نهاية عهد السامانيين ، وكانوا في



شكل ٣٤ ـ مدفن إسماعيل الساماني .

بادىء الأمر اتباعا لحكومة بخارى ثم تخلصوا نهائياً من سادتهم عام ٣٨٩ / ٩٩٩ وتسيطر على هذه الأسرة الحاكمة شخصية محمود (٣٨٩ / ٩٩ ـ ٤٢١ / ١٠٣٠) الذي بدأ معه حكم الأتراك بشكل نهائي .

فمن الناحية التاريخية يظل محمود هو وجنكيزخان من أكبر قادة بدو آسيا ، وقد فتح أبواب الهند لجنوده الذين لا يكلون فقد قاموا بسبع عشرة حملة في ربع قرن من الزمان ملىء بالأهوال والسلب والنهب ، مما أجبر الفاتح المحمل بالذهب والمثقل بألاف العبيد أن يعود بانتظام إلى مقره الأفغاني ليتنفس الصعداء ، ولم تعد الهند كما كانت هي وبلدان جنوب السند مقاطعة من بين المقاطعات البعيدة عن الإسلام ، فقد أصبحت قارة إسلامية جديدة بالقوة ، وحدد محمود نطاق الحملات المقبلة بإخضاعه منطقة البنجاب وحوض نهر الجانج حتى مشارف بنارس .

ترى هل يمكن التحدث عن الثقافة مع مثل هذا القائد المنهك ؟ . . ومع ذلك فقد اهتم محمود بالثقافة بقدر ما سمحت له الحروب بذلك ، فقد كان راعيا للآداب العربية والفارسية ، وبحكم ثقافته الفارسية فقد سمح للبيروني الكبير

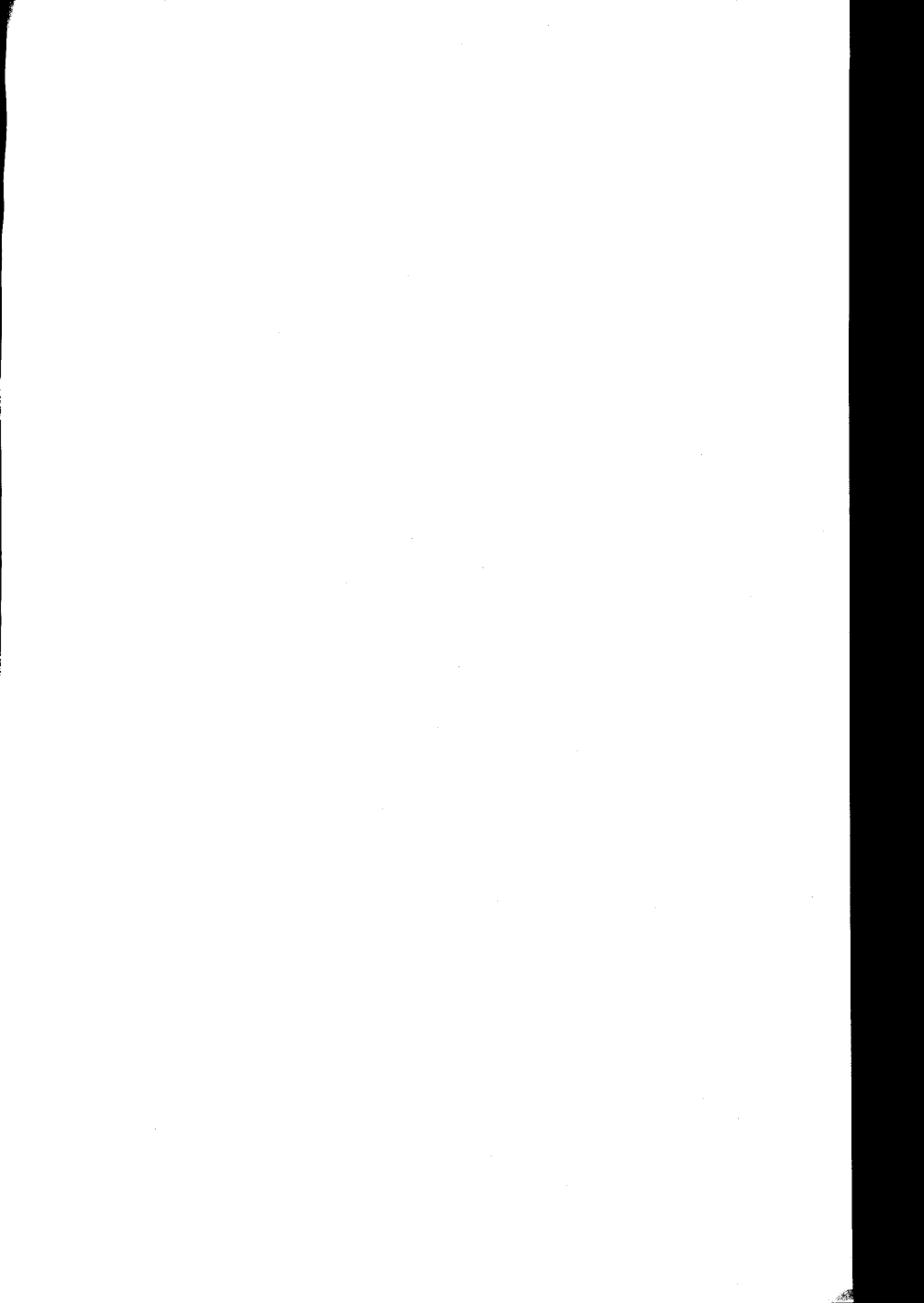
الذي كان يلازمه في الهند أن يؤلف كتابا رائعا عن هذا البلد ، كما سمح للمهندسين بعمل محاولات معمارية تجمع بين التراث العباسي التقليدي والتراث الخراساني وكانت ثمار هذا التلاقي من أكبر النجاحات إلا أن محمود يفتح عهدا جديدا بسعة آفاقه السياسية والدينية ، ترى هل كان ذلك صدفة أم تخطيطا . . ؟ أيا كان الأمر فإن سنيته كانت تتأكد في كل مكان كمناضل وبطل لخليفة بغداد .

هل هو بطل أم حام ومدافع ؟ . . . لولا حاجز البويهيين لذهب محمود الذي كان يتطلع أيضاً إلى الغرب ، لذهب إلى الخليفة ليوضح له الأمر . . . لكنه كان قد رسم الطريق لأخوانه الأتراك وحدد مبادىء سياسية هي السنية وكيفية السبيل إليها ، فلم يعد ذلك يتم عن طريق الدسائس والمؤامرات داخل الدوائر الضيفة للحرس ، وإنما عن طريق التوسع بالقوة وبفرق بأكملها ، وقامت الدولة السلجوقية على إنقاض إمبراطورية محمود لتنطلق لغزو بغداد .

الباب الثالث

السيطرة التركية المغولية والملامح الجديدة للإسلام

(من القرن الحادي عشر إلى آخر القرن الثامن عشر)



الفصل الأول

مخلفات واضطرابات بغدادية
حتى منتصف القرن الثالث عشر

إن وصول الأتراك إلى الأراضي الإسلامية يرجع إلى ما قبل القرن الحادي عشر كما رأينا ، إلا أن تواجد آسيا الوسطى قد تغيرت معالمه وكثافته بهجوم السلاجقة ، فمنذ ذلك الحين بدأ التركي الفاتح يحل محل التركي المرتزق أو التركي العبد بأعداد كبيرة ، وهكذا بدأ عهد جديد للإسلام ، ذلك الإسلام الذي أراد له قدره أن يتولى أمره في كل إنطلاقه شباب البدو الصاخب ، فبعد موجة العرب في القرن السابع هاهم فرسان البادية ، أو على حد قول الملحمة الإيرانية ، هاهم الطورانيون ، إنها قصة التاريخ الأزلية ، فالشعوب حينما تستقر وتتحضر تجنح إلى الخمول والمنازعات ثم تستجير بجار لا ينتظر إلا هذه الفرصة . وهنا أيضاً لم يأت البربر من تلقاء أنفسهم ، فما إن فتح لهم الباب حتى راح الأتراك يتوافدون في انتظار إخوانهم المتوحشين : المغول .

أهي فترة انحلال ؟ . . لا شك أن غزو البدو يفتح السبيل لركب طويل من المدن المدكوكة والحقول المنزوعة من البادية والشعوب المذبوحة بأسرها ، ومع ذلك فهناك بعض الحضارات التي تزدهر فوق هذه الأنقاض على مستوى الدولة أو الإمبراطورية ، وما هو أكثر من ذلك بالنسبة لهذا الإسلام الذي يعنينا قبل أي شيء ، فإن الفترة التركية المغولية ترتبط ـ إلى حد ما ـ بالتراث الكبير التوسعي للقرن الأول الهجري ، وحتى إذا ما كانت الأغراض السياسية كثيراً ما تخفي انطلاقة الإيمان الصافية ، فإن الإسلام هو الذي كان ينتصر في النهاية ، فكان

اتباعه الجدد القادمون من الشرق يدفعونه من ناحية حتى مشارف النمسا ، ومن ناحية أخرى ـ عبر الجسر الأسيوي الضخم أو عبر البحار ـ حتى الصين وجزر الصوند ، أما إلى أقصى الغرب فكان هناك بدو آخرون هم البربر ، يعوضون ضياع صقلية وضياع الأندلس في إسبانيا بتحويل السودان إلى الإسلام ، إلى إسلام ممتد ، إسلام ثري ، تتولد في ظله مدارس جديدة ، وتتولد ولايات أخرى أو تعود إليها الحياة مثل : تركيا وأفغانستان والمغرب وإيران .

ولا بد لنا الآن من أن نضيف العرب إلى الممثلين الجدد لتاريخ الإسلام ، إذ أن الحروب الصليبية والقسطنطينية والإمبراطورية العثمانية تنتمي إلى مصير واحد يتكون ـ مرة أخرى ـ بالسلاح والتبادل في المياه وحول البحر الأبيض المتوسط ، وفي هذا الحفل الموسيقي (وهذا الصخب) نلحظ غياب العرب الذين انخفض دورهم إلى مجرد مشاهدين ، إلا أنهم سيتدبرون المستقبل بفضل هذه الصفة الجديدة ، إذ أن لغتهم وثقافتهم المغلقة في كبرياء دفاعي ستعبر القرون بلا عواقب سيئة لتقوم باعداد صحوة ما بعد عام ١٨٠٠ .

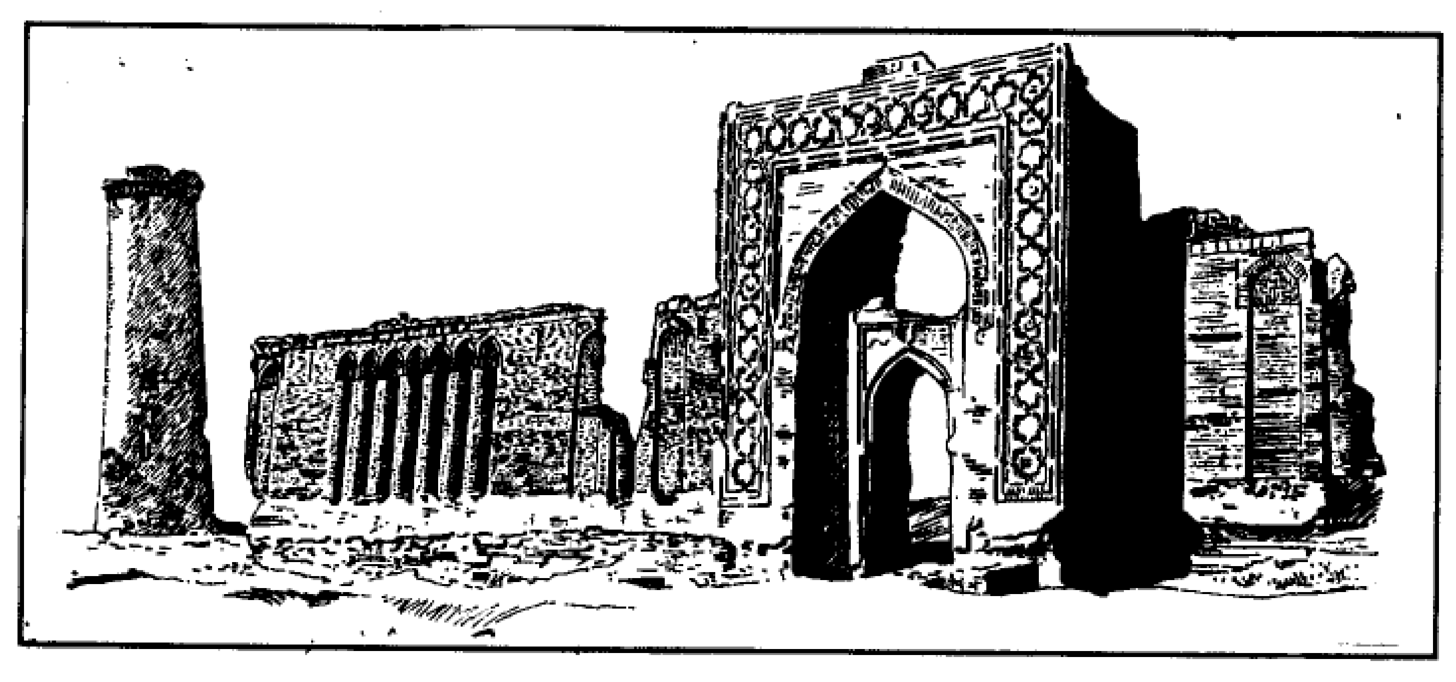
١ ـ الأتراك السلاجقة ، حماة الخلافة :

بغداد حوالي عام ١٠٥٠ ، إن سلطة الخليفة ـ من خلال الشخص البويهي المسخر من الحامية ـ لم تعد تمارس إلا في حدود النطاق المباشر للعاصمة ، إلا أن لحن الخلافة والسلطة الشرعية والوحدوية للإسلام لم يمت ، فالقضاة والمشرعـون والفقهاء لم يكفوا عن الدفاع عنه قانونا ، في الوقت الذي راح فيه الحنابلة يطالبون به على مستوى الشارع ، وما إن أصابه الملل من الوصاية البويهية وتحمس لهذه الحركة حتى سارع الخليفة « القائم » باستدعاء القائد السلجوقي طغرل بيك لمساندته ، ودخل هذا القائد بغداد عام ٤٤٧ /١٠٥٥ وفرض سلطانه على إيران والعراق وسوريا ، وتم بذلك مولد إمبراطورية جديدة .

الملحمة السلجوقية .

إن ارتقاء السلاجقة يتضمن شيئاً أسطوريا ، ويبدأ تاريخهم ـ مثل تاريخ إخوانهم الأتراك أو المغول ـ في عالم البادية غير المستقر ، فهناك ابتداء من شمال الصين وحتى الأنهار الروسية كانت تعيش حفنة من الجماعات الرحالة ، يجتمعون

حينا من أجل الغزوات المدمرة ضد الشعوب الحضرية على الحدود ، ويأخذون أماكنهم ولو لفترة ثم تعود المنافسات القبلية أو الحاجة إلى المراعي إلى تمزيقهم مرة أخرى؛إن علاقات القوى بين هذه الجماعات ـ مثلها مثل مقاومات الحضارات المستقرة كالصين والإسلام ـ كانت تتطلب تنقلات لا نهاية لها وتؤدي إلى فقدان التوازن وتقهقر حدود البادية أو تقدمها على الحدود المنزرعة ، كما كانت تتطلب إقامة اتصالات وصلات مع الجار الحضري ، ففيما يتعلق بالإسلام فإن التركي الخوارزمي قد تحول من مغير ليقدم خدماته لحماية الإسلام ضد الرحالة الذين ظلوا غير أوفياء (شكل ٣٥) كما قدم خدماته داخل الإسلام نفسه لصالح هذا الحزب أو ذاك وهذه الجماعة أو تلك ، وهكذا استقبل السامانيون العديد منهم والذين سوف يحلون محلهم ، فقد استقر الكرخانيون منذ أواخرِ القرن العاشر من ما وراء النهر إلى كاشغارى ، إلى جانب الغزنويين المرتزقة الذين عرفنا مصيرهم من قبل .



شكل ٣٥ ـ آسيا الوسطى ، أواخر القرن الحادي عشر : خان ـ رباط (دير محصن) .

وكان السلاجقة الذين يمثلون فرعا من ترك الغز يتوسطون السامانية والكرخانية ، ثم عندما اختفى السامانيون راحوا يتوسطون الكرخانية والغزنوية ، وقد عرفوا كيف يخططون ليكونوا مرهوبين وتتأكد أهميتهم تباعا بالنسبة للجانبين ، ونراهم في أواخر القرن العاشر وقد استقروا عند المجرى الجنوبي لنهر سرداريا بعد أن اعتنقوا الإسلام ، ومن هناك زحفوا إلى منطقة ما وراء النهر ، ودفعهم محمود الكبير الغزنوي إلى عبور نهر أموداريا ـ ولعله فعل ذلك لينتزعهم من سيطرة

الكرخانيين وليتمكن من مراقبتهم بسهولة ، إلا أن حساباته باءت بالفشل ، فما إن وصلوا إلى خراسان حتى راحوا يمرحون فوق الهضبة الإيرانية وأذربيجان ثم القوا بالغزنوية تجاه الشرق ، بعد أن هزموهم في معركة دندناكان عام (٤٣١ / ١٠٤٠) وما إن أصبحوا سادة لخراسان ، حتى اتجهوا إلى أرمينيا وآسيا الصغرى والعراق ، وعندما دخل طغرل بيك بغداد عام ٤٤٧ / ١٠٩٩ حق له أن يتمعن كيف أمكن لشعبه ـ الذي راحوا يطلقون عليه اسم التركمان ـ أن يتحول على مدى خمسين عاما من مجرد قوم رحل من الأتراك إلى أن يصبح من سادة العالم ، وسرعان ما سيضاف لهذا النصر فتح سوريا التي انتزعوها من الفاطميين ، وفرض السيادة المطلقة على الكرخانية ، ثم انتصارهم في معركة منزكرت (عام ٤٦٣ / ١٠٧١) حيث رأت بيزنطة ـ لأول مرة في تاريخها ـ امبراطورها في ذل الأسر .

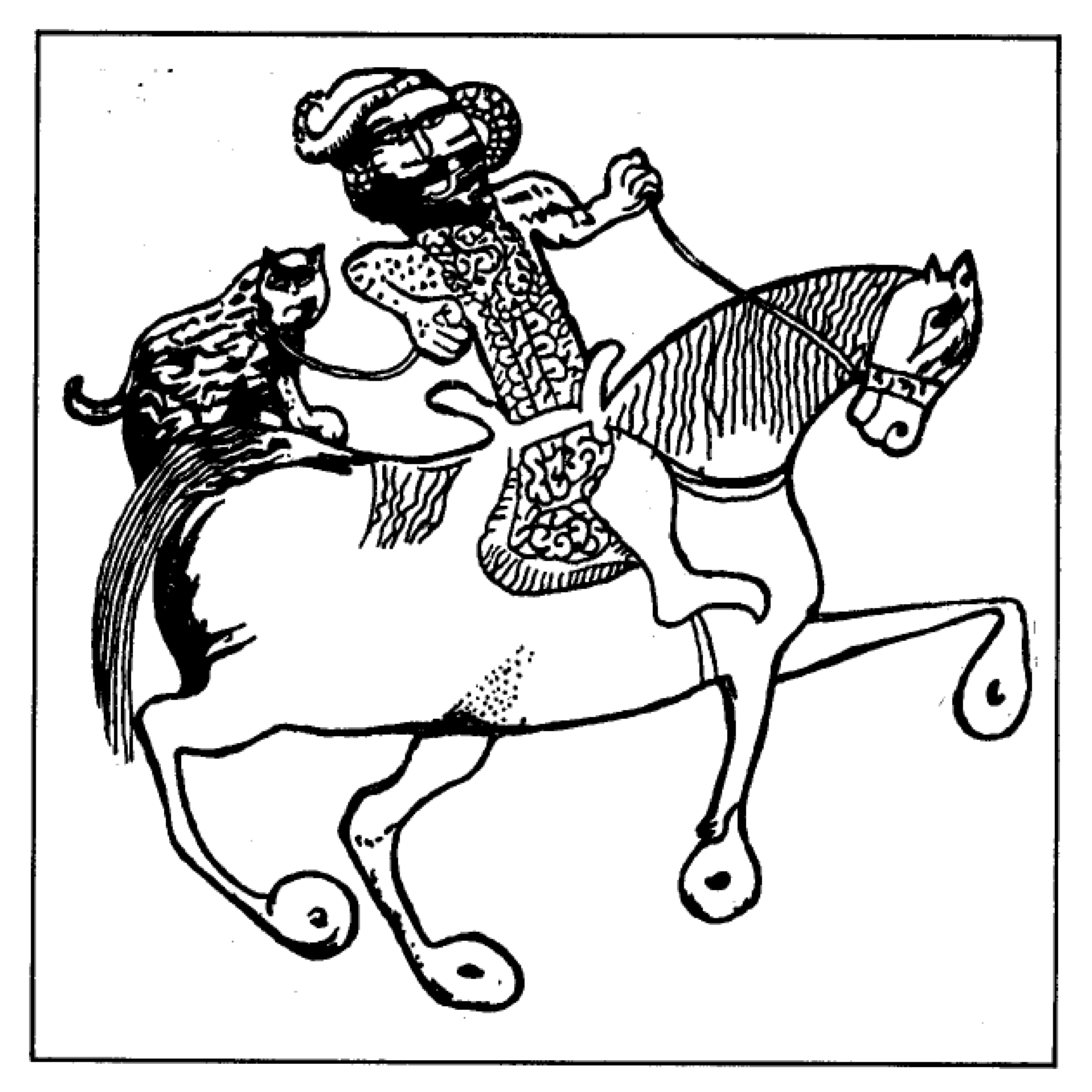
خلفاء وسلاطين .

كانت الخلافة هي الخاسرة الكبيرة في هذه المعارك ، وكانت قد انتصرت هي والحركة التي قامت ضد الشيعية والتي كانت تحمل آمالها وذلك باستبعاد البويهيين ، ولكنها وجدت في الأتراك وصاية أشد عنفا ، فحتى عام ٤٨٥ / ١٠٩٢ كان يسيطر على تاريخ الشرق الأوسط كل من الشخصيات الكبيرة مثل طغرل بيك والب ارسلان ، ومالك شاه والوزير نظام الملك ، وهناك كلمة جديدة أصبحت تحدد السيد الجديد هي كلمة سلطان ، وهكذا استقرت سلطة الواقع جنبا إلى جنب مع السلطة الروحية للخليفة .

ومع ذلك فهذا القول ليس إلا نصف الحقيقة ، فالخلافة ـ مستندة إلى آداب مذهبية قوية ـ يتألق فيها اسم الوزير ابن هبيرة كما تستند إلى الحركات المنبثقة من الشارع والتي يقودها الحنابلة بتنبؤاتهم ، لكنها لم تخضع أبدا لمثل هذا التقسيم ، وإلى أواخر القرن الثاني عشر انتهز الخليفة الناصر غروب حكم السلاجقة ليحطم طغيان السلاطين ، وأعاد بناء الخلافة مستغلا ماسونية الفتيان الذين جعل منهم مؤسسة حقيقية على مستوى الدولة لنشر فكرة الإسلام الثري ، بكل مدارسه ، والموحد من خلف رمز الخلافة ، وقد ظل أمير المؤمنين في نظر أغلبية المسلمين أيام الحكم السلجوقي هو زعيم الأمة ، ولم يغير من هذا الوضع إلا تدفق المغول .

الجيش في الحكم .

هناك شخصية تسيطر على مجتمع السلاجقة هي شخصية الجندي (شكل ٣٦) ولقد رأينا من قبل انطلاقته وهي ترتسم ، إلا أن الإنتصار التركي هو الذي



ـ شكل ٣٦ ـ تسلية حربية :
الصيد بالفهد ، آنية مزخرفة بالحفر . فارس ، القرن العاشر ـ الثاني عشر .

سوف يتوجه ، ويأتي المثل من أعلى : ففي قمة هذا الكيان العسكري الجديد يقف القائد الحربي بشاراته الرسمية المكونة من القوس والسهم مساويا لرئيس الدولة أو أعلى منه ، وبهدوء شديد راح كل من طغرل بيك والب ارسلان ومالك شاه يتركون الإدارة للمدنيين ، وكأنهم يعترفون بعدم كفاأتهم لذلك ، أو لعل أعمال الإدارة لم تكن تستهويهم أو تلائم أذواقهم ، إلا أنهم كانوا يجيدون اختيار من يسندونها إليهم مثل نظام الملك الذي عرف كيف يحافظ في هذه الإمبراطورية على

السمات الأساسية للتراث الإداري الإيراني الكبير ، ذلك التراث الذي لم يتزحزح عبر تتابع حكام الإسلام .

ويبدو أن صدمة الفتوحات الجديدة قد مرت دون أن تغير الكثير من ملامح الشرق ، فباستثناء تدفق التركمان على أذربيجان ظلت الكتل الشعبية في أماكنها ، كما احتفظت التجارة بحقوقها حيثما ظل النظام سائداً ، مكتفية بتغيير مسار بعض خطوطها الرئيسية ، وهكذا ضمر الخط الملاحي للخليج الفارسي عبر متاجر سيراف بينما ازدهرت الطرق البرية في كرمان .

ولنعد إلى ذلك الجيش الذي يعطي لأجهزة الدولة السلجوقية ملامحها المميزة ، فلقد كان هناك تكتيك حربي أقوى من سلاح الفرسان الذي لا يمثل إلا جزءاً من هذا الجيش ، هو الذي يحدد كيان هذا الجيش ويفسر انتصاراته والرعب والمفاجأة التي يثيرها ، وهو تكتيك يعتمد على الإرهاق ويهدف إلى إفساد تنظيم الخطوط المعادية بوابل من السهام ثم إدعاء وقف المعارك ثم العودة لاستئنافها فجأة ، وكان السلطان السلجوقي يلقي بهؤلاء المحاربين البواسل عند الحدود ، وكانوا بدورهم لا يقبلون أية رئاسة إلا في نطاق زعيم يجمعهم ويقودهم من أجل غزوة نهب محدودة ، وهكذا اتجهوا إلى بيزنطة وفقا لتقليد معروف لدى الجيوش الإسلامية ، كما كانت الدولة السلجوقية تمارس سياسة الإهداءات على أرضها ، فقد ارتفع الإقطاع إلى مرتبة المؤسسة ، لكنها مؤسسة مسيطر عليها بحساب ، وكانت هذه المؤسسة تساند الحكم بشكل أكثر صلابة من اقطاعياتنا .

انتصار المعتدلين .

هناك منتفع آخر بالنصر السلجوقي هو : رأى المعتدلين ، أو لنكون أكثر دقة : السنية التي راحت تستكمل حركة الإصلاح الكبرى التي بدأتها في القرن السابق ، فلا شك إن اسلام الفاتحين لم يهتم بالنظريات قدر اهتمامه بالسياسة وبالفتوحات ، كما أنه لم يتمكن من انتزاع كل العادات الفكرية القديمة وخاصة عبادة الطبيعة والقوى الخفية المتوارثة ، وفي الواقع أنه لم يهتم بذلك كثيرا ، إذ كان يعوض نواقصه بنشاطه وعدم اهتمامه بالشكليات ، فبدأت ترتسم إحدى مميزات الإسلام التركي ، فإذا كان النصر السلجوقي قد أفاد السنية بأسرها ، سواء مذهب الحنابلة أو الشافعية ، فإن الأتراك ـ في هذا المضمار ـ قد ظلوا أوفياء كورثة

للحركة التي اتتهم من الدول السامانية وظل قادتهم متمسكين بالمذهب الحنفي إلى أن جاء العثمانيون .

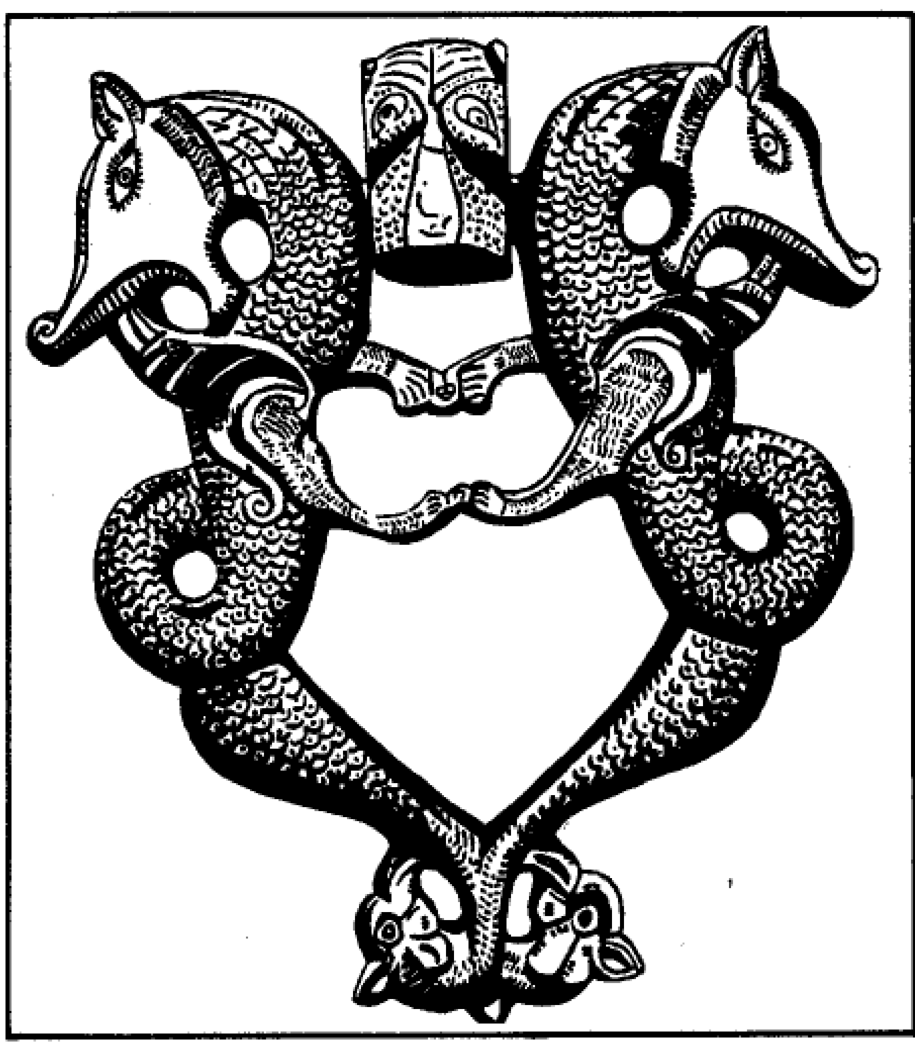
ولم تكن الحرب ضد البيزنطيين والمصاعب التي يثيرها الإسلام غير السني والحركة الموجهة ضد مذهب الحشاشين الجديد وفلسفة الغزالي وانطلاقة الصوفية التي اصطفت في تنظيمات قوية ، لم يكن ذلك كله إلا الجوانب الباهرة لإشعاع المعتدلين ، وكان اخلاص الجموع العريضة من الشعب للسنية يبدو أهم وأعمق ، كما كان دور المشرعين والقضاة الخاضعين لسلطان قاضي القضاة الذي يعينه الخليفة دائما من أهم أسلحة الحاكم في مقاومته للسلاطين ، ويجب ألا ننسى رعاية الفنون والآداب العامة أو الخاصة ، وفي نفس الوقت بدأ تعميم الوقف بموافقة ومساهمة السلطات واستخدام العديد من المساعدات من أجل مؤسسة دينية أو عامة .

وكل المباني التي ازدهرت حينذاك في بلاد السلاجقة مثل الكباري ومباني الخانات أو الأديرة تنمحي ـ مهما كان عددها ـ أمام مبنى المسجد وخاصة المسجد الجامع (المسجد المدرسة) ولم تكن المدرسة بأساتذتها المعينين أو طلابها الحاصلين على المنح بدعة في حد ذاتها ، فقد عرفها الغزنويون وآخر ممثلي السامانيين ، على حد قول الجغرافي المقدسي ، وهنا أيضاً يتمثل موقف السلاجقة في تحويل الفكرة إلى نظام ، فكانت شبكة هذه المدارس تعمل على مستوى الدولة حيث كان يتم فيها إعداد الموظفين والقضاة والفقهاء وفقا لروح السنية الصارمة ، وكانت نظامية نظام الملك المقامة في بغداد عام ٤٥٩ /١٠٦٧ توازي رسميا الأزهر في مصر الفاطمية .

تفتت وبقايا .

كانت ملامح دولة السلاجقة في خطوطها العريضة والتي تظهر عظمتها التي لا تضاهي تتكون من هذه الكلمات وتتلخص فيها : أتراك عسكريون وسنيون . ولم يكن الأمر هنا يتعلق إلا بنجاحات عسكرية وسياسية ، وسوف نرى فيما بعد النتاج الثقافي لفترة السلاجقة ، في مجمل الفترة التركية المغولية ، ولنكتف هنا بما هو أساسي : فقد أعطى السلاجقة زميلا جديداً لحضارة الإسلام ، وذلك باحترام التراثين العربي والفارسي ، وبادماج الحضارة المركبة الناجمة عن لقائهما وبإدخال

أشكال تعبيرية جديدة تركية أو محاولات معمارية جديدة ، فلقد أعادوا صحوة حضارة الإسلام في عدة مجالات بل وجددوها (لوحة ١٧ أ و ب ، وشكل ٣٧و٣٨) ، بحيث يمكننا التحدث بفضلهم عن حضارة إسلامية جديدة حقا .

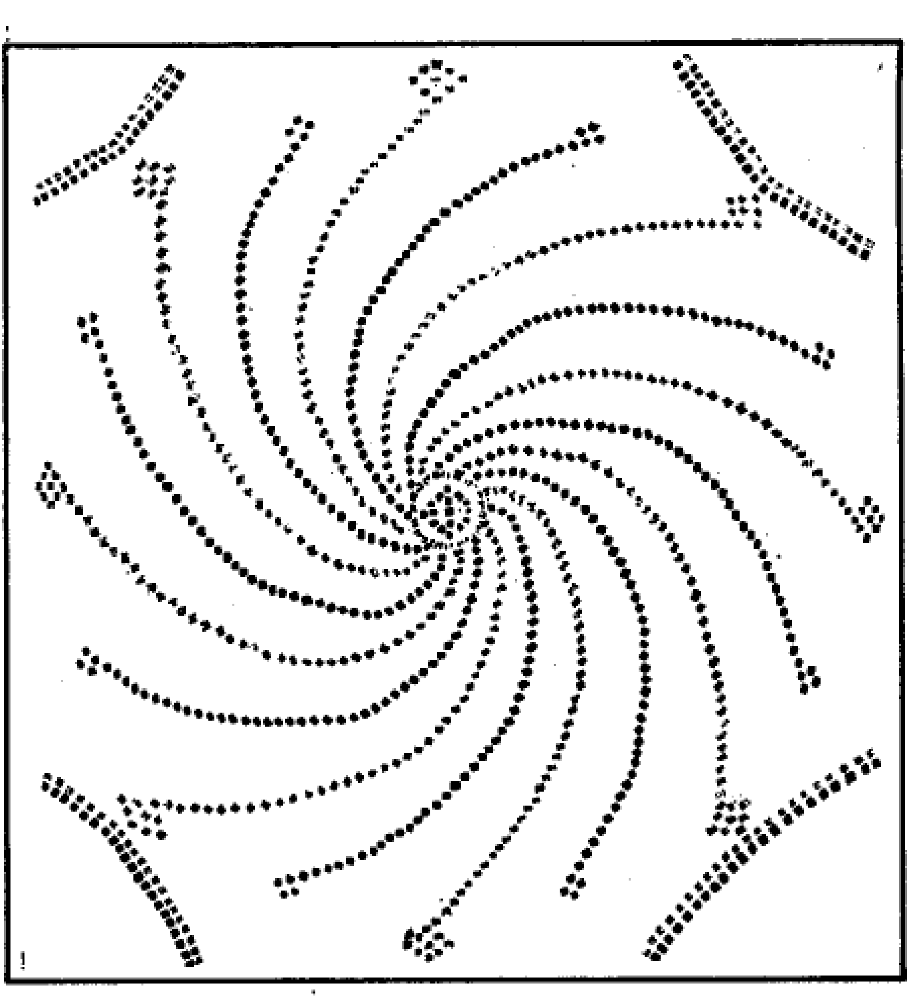


شكل ٣٧ ـ مطرقة باب من البرنز على شكل تنين ـ جنوب العراق أو فارس ، القرن الثاني عشراوالثالث عشر .

وهكذا فإن العالم الذي بدأه السلاجقة راح يستعد ليعيش على إنقاض امبراطوريتهم، لكن ترى ما الذي أدى إلى موت هذه الامبـراطوريـة؟ . . فمن اتساعها الشديد الذي سمح بصحوة الأقليات، نذكر اختصارا منطقة جورجيا وداود الثاني الذي طرد السلاجقة، من تفليس عام ٥١٥/١١٢١،والشبنكارية المنتـمين إلى الأكــراد وعــرب المزيوية حــول عاصمتهم الهلال التي تم تأسيسها عام ٤٩٥/١٠٠٢ بجوار انقاض بابل، وعلينا أن نتحدث أيضاً عن ضعف كيان السلاجقة بما أن هذا المثل الأخير يفسر لنا كيف كانت قوة السلطان تعارض ابتداء من أبواب بغداد، فبعد وفاة مالك شاه عام ٤٨٥/١٠٩٢ يجب إضافة صخب القبائل وحرب الحكام الأهلية وثورة الأتابك ، هؤلاء الأوصياء الذين فرضتهم العادات التركية على ابناء السلاطين القصّر، وكانوا لا يكفون عن نسج المؤامرات لصالح أوصيائهم أو لصالحهم .

إن كل عوامل التفتيت هذه بالإضافة إلى الإنتفاضات الشعبية الناجمة عن الحروب الصليبية قد تضافرت بلا نهاية لتخلق واقعا أكثر تعميما هو التحرك التركي وتوسع شاب لم يستقر بعد .

بذلك يجب أن نتبين أساليب التوسع التركي في آسيا الصغرى أولاً، قبل أن نتبينها في العراق الآيل إلى الإنحلال والغارق في الفوضى وفي بؤس الفيضانات، أو في منطقة كرمان حيث كانت أفواج جديدة من الغز تأتي لتحل محل الدفعة الأولى من السلاجقة التي لم يستطع البحر وقفها، (وكانوا قد أصبحوا سادة البحر عند عمان).



ـ شكل ٣٨ ـ قبة مسجد جولبايجان في إيران، القرن الثاني عشر : رسم يوضح زخرفة الأحجار .

سلطنة سلاجقة الروم .

فتحت معركة منزكرت أبواب الأناضول البيزنطي للتركمان وخاصة القادمين من أذربيجان، ليرتعوا بعيدا عن الحدود تجاه تلك الحرب التي كانت وحدها هي القادرة على وقف احتدامهم، وكانت الظروف تساعد ذلك الإحتدام بالإضافة إلى التواطؤ الذي وجدوه لدى المتآمرين من الشعوب المسيحية التي كانت في صراع دائم مع القسطنطينية، وهكذا ولدت أول دولة للسلاجقة في آسيا الصغرى تحت سلطان سليمان بن قطلميش (توفي عام ٤٧٩ /١٠٨٦) الذي راح يسيطر على هضبة الأناضول من العاصمة أزمير، ثم بدأت أسرة جديدة من التركمان أسسها دانشمند (توفي عام ٤٩٧ /١١٤٠) البطل الأسطوري الذي يمثل وجه الغازي الجديد، لتعترض طريق خلفاء سليمان في الشمال الشرقي حول مدينة سيواس .

إن وصول الصليبيين وانتصارهم في اسكى شهر (عام ٤٩٠ /١٠٩٧) وفي

إنطاكية (عام ٤٩١ /١٠٩٨) قد دفع بعالم الأتراك إلى المنطقة الوسطى من الأناضول وعزلهم عن سوريا التي تحجبها إمارات الفرنجة عند إنطاكية وطرسوس ، حيث استقر شعب صغير من الأرمن ، عندما طردهم الفتح السلجوقي في القرن الثاني عشر وأسسوا مملكة اسمها أرمينيا الصغرى .

واستقر عالم ترك الأناضول عندما تحددت حدوده ، وتكونت تلك المنطقة بشكل نهائي وأطلق عليها الإسلام اسم سلطنة سلاجقة الروم ـ وكانت تابعة لبيزنطة ثم توسعت بسقوط منافستها عند سيواس التي ضمت إلى السلطنة عام ٥٧٣ /١١٧٨ ، وانتصر الإتجاه إلى الإستقرار وتنظيم الأرض مع إقامة الدولة الجديدة .

وذلك لا يعني أن خلفاء سليمان ، هؤلاء السلاطين أمثال قليج ارسلان وقايقاوظ وعلاء الدين قيقباد قد قطعوا صلاتهم بالتراث الحربي التركماني ، ذلك التراث الذي كان يمثله دانشمند في أعلى صوره ، لكنه أصبح يسير وفقا لهدف سياسي هو تنظيم الدولة ، وراح سلاجقة الروم يفرضون سلطانهم تجاه الشرق على أمراء تركمان آخرين ، وخاصة على الآرتوكية عند أعالي وادي نهر دجلة (ديار بكر) ، أما تجاه الغرب فقد أبعدوا تقدم الهجوم الثاني للجيوش الصليبية بعيدا عن ديارهم ، بهزيمتهم للإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين عام ٥٧٢ /١١٧٦ ، ومرة ثالثة كادوا يخضعون لصدمة الحروب الصليبية عندما استولى فريدريك برباروسة على عاصمتهم الجديدة قونية ، لكنهم تغلبوا على هذا الهجوم وفتحوا لأنفسهم مسالك لا بد منها على البحر شمالا وجنوبا .

وكانت التجارة مع روسيا والقسطنطينية وإيطاليا ومصر تمر عبر أراضي دولة أرمينيا الصغيرة المجاورة من خلال هاتين الرئتين ، إلا أن سلطنة الروم قد استفادت من تدفق المهاجرين الإيرانيين الذين طردهم الغزو المستمر والذين جاؤا معهم بعاداتهم الإدارية والثقافية ، وراحت دولة قونية الحامية الجديدة للتراث الفارسي تضيف النجاحات بفضل حسن إدارتها وموقعها المحمي ونشاطها وثرائها .

ولا شك أن تطور هذا الشعب الصاخب الذي لا يعرف إلا الحروب إلى دولة بوليسية لم يكن أقل هذه الأحداث ، فقد كانت عاداته والميراث الذي يجمعه

تعزله عن بقية العالم التركماني ، وكان هذا العالم أبعد ما يكون عن استكمال تاريخه المتحرك ، إذ كان مستودع آسيا من الرحالة يدفع باستمرار تجاه الغرب بشعوب جديدة أكثر فظاظة وغير مستعدة للإندماج في الإطار الأناضولي ، ودون انتظار الهجوم المغولي الكبير يمكننا القول إن الدولة التركية في آسيا الصغرى قد أتت إلى حد ما قبل الأوان إلا أن الفضل يرجع إليها ـ قبل خلفائها العثمانيين ـ في تحديد مكان لدولة جديدة على خريطة العالم سيكون اسمها تركيا فيما بعد .

٢ ـ دفع الإسلام إلى الشمال الشرقي .

على عكس ما نراه في آسيا قبل السلاجقة ، وكان النظام قائما على دمج السيطرة التركية والسنية فإن المنظر الذي نراه كلما تقدمنا تجاه إيران وآسيا الوسطى يصبح أقل حدة ، فهنا تطمس معاني الأدماج الذي أشرنا إليه أو تختفي ، فالسنية تنتشر إجمالا في أفغانستان ، لكن الإيرانيين هم الذين يحكمون ، في حين أن الأتراك هم السائدون في أماكن أخرى ، دون أن يهتموا كثيراً بالسنية عندما لا يكون الإسلام هو السائد .

أفغانستان الغوري والهند .

ظل الأتراك جماعة من المرتزقة في منطقة الغور الجبلية وسط دولة أفغانستان الحالية ، وكانوا يخدمون أسرة حاكمة إيرانية تابعة للغزنوية ، ثم طردتهم نهائياً عام ٥٦٩ /١١٧٣ ، ولم يفعل الغوريون أكثر من جمع تراث من سبقوهم في أكثر من مجال ، فقد كانوا مثلهم سنيين ومشيدي مدارس ، وكانوا مثلهم على صلة رسمية طيبة بخليفة بغداد ، ومثلهم أيضاً راحوا يتجهون جنوباً وغرباً .

لقد ظهروا في الهند في شخص معز الدين ابتداء من عام ٥٧١ /١١٧٥ ، وطردوا آخر الغزنوية بعيداً عن لاهور عام ٥٨٢ /١١٨٦ ، وأقاموا في كل مكان حكاما من الأتراك سيصبحون بحكم الواقع مقدمة لسلطنة دلهى القادمة ، ولقد زودت دلهى بأوائل أهم آثارها الإسلامية أيام قطب الدين أيبك ، الذي توفي عام ٦٠٧ / ١٢١٠ ومنها مسجد دلهى ومئذنته الرائعة في قطب مينار (لوحة ١٨) ، التي فرغوا آنذاك من بناء الدور الأول فيها ، ورغم ثقل النماذج الأجنبية وخاصة الأفغانية فإن الهند لا تعبر منذ ذلك الوقت إلا عن طريق المواد المأخوذة من

معابدها ، ويقوم استخدام القبة فوق الأعمدة وبعض نماذج الزخرفة النباتية بتحديد أول مساهمة محلية لنماذج جديدة من عمارة الإسلام .

وسوف ينتهي أمر الغوريين أخيرا غرب بلادهم ، فلقد أهلكوا أنفسهم من أجل امتلاك خراسان ضد السلاجقة ، أولا ، ثم ضد أسلافهم الخوارزميين الذين نجحوا في السيطرة على مجمل دولة الغوريين - باستثناء الهند - عشية الغزو المغولي ، وفي هذه الإثناء ووسط المعارك المستمرة الدائرة بين الأفغانيين والمرتزقة الأتراك ، نجح الغوريون في خلق انتاج أدبي واسع باللغة الفارسية كما نجحوا في نثر العديد من المباني المبتكرة على أراضي جباهم الرائعة ، وذلك مثل مئذنة دجام التي أقامها أحدهم بكل فخر وكأنها « برج النصر » وسط دولتهم (لوحة ١٩) بالقرب من فيروزكوه عاصمتهم الأولى التي تم تأسيسها في النصف الأول من القرن الثاني عشر .

إيران ، خراسان وخوارزم .

تسيطر شخصية سنجار ، أحد أبناء مالك شاه ، على تاريخ إيران السلجوقي ، لقد كان بطلا هو أيضاً لكنه هذه المرة ضد إخوانه في طوران ، الذين هجموا على حدوده الشمالية وقد حاول هو إنقاذ فارس وتراثها من أيديهم لكن عبثا ، إذ لم يستطع منع استقرار قوتين جديدتين : أولا قوة قرة خيتاي المغولية القادمة من الشرق ، وكانت منذ زمن بعيد مختلطة بالتأثيرات الصينية إلى جانب إنتماء العديد من أفرادها إلى المسيحية النسطورية التي انتشرت في آسيا الوسطى ابتداء من أواخر العصر الساساني ، أي أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا نادراً ، وأيا كان الأمر فسوف ينسب الغرب نجاحهم إلى نجاحات القس جان الأسطوري مصلح المسيحية حيال الإسلام ، وقد انتهزوا فرصة ضعف السلاجقة فأخضعوا أراضي الكرخانية واتجهوا إلى ما وراء النهر .

أما القوى الثانية التي سارت تجاه الجنوب الغربي على أثر السلاجقة فكانت أتراك خوارزم ، إذ سحقوا خلفاء سنجار في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، وانتشروا فارضين سيطرتهم على أراض شاسعة تمتد من القوقاز إلى الخليج الفارسي ومن أبواب العراق إلى أفغانستان ونهر سرداريا ثم عبروا هذا النهر تجاه الشمال الشرقي دافعين اتباع قرة خيتاي ليستولوا على عاصمتهم أوترار .

ولقد أدت هذه التحركات إلى العديد غيرها سواء كانت إلى الإمام أو إلى الخلف ، وذلك باستثناء الإيرانيين الذين وصلوا إلى الأناضول لأنهم قابلون للتماثل ، أما الآخرون فإنهم ينفرون من الإستقرار مثل جماعات التركمان الجديدة التي ظهرت في أفغانستان وكرمان وفي الأناضول أيضاً ، أو مثل هؤلاء الخوارزميين الذين لا تعتبر دولتهم إلا حقلا شاسعا يمرحون عليه وسط الدمار ، وسرعان ما سيصبحون ضحايا التدفق المغولي الكبير الذي سينتهي أمامه آخر شاه لهم هو جلال الدين منجبرتي في ملحمة وحشية ستجعله يجري من السند حتى أصفهان . . .

إن معركة أرزنجان (٦٢٨ / ١٢٣٠) حيث صد سلطان الروم هجماتها العربية لم تنقذ عالم السلاجقة الذين كان نظامهم السياسي ينهار يوما بعد يوم آخذا معه تلك السنية التي كانت من دعائمه الأساسية ، وأدان المعتدلون هذه الأحداث وسط الضياع الذي عم سنة ١٢٠٠ ، ومثلما كانت تحركات العشائر الفوضوية الجديدة التي غزت الإسلام لا تتلاءم مع دولة بوليسية ، فلم يكن لديها أيضاً أي ميل طبيعي لسنية يمكن تعريفها ـ بحكم الواقع ـ إنها المدافعة عن دولة من هذا النوع ، وراحت العقائد الشامانية القديمة أو النسطورية في آسيا الوسطى والشيعية في إيران تتنقل عبر العالم الإسلامي حتى الأناضول عشية الغزو المغولي باستثناء سوريا ومصر : معقلي مقاومة الإسلام ضد الحروب الصليبية ، ومعقلي السنة داخل نفس هذا الإسلام .

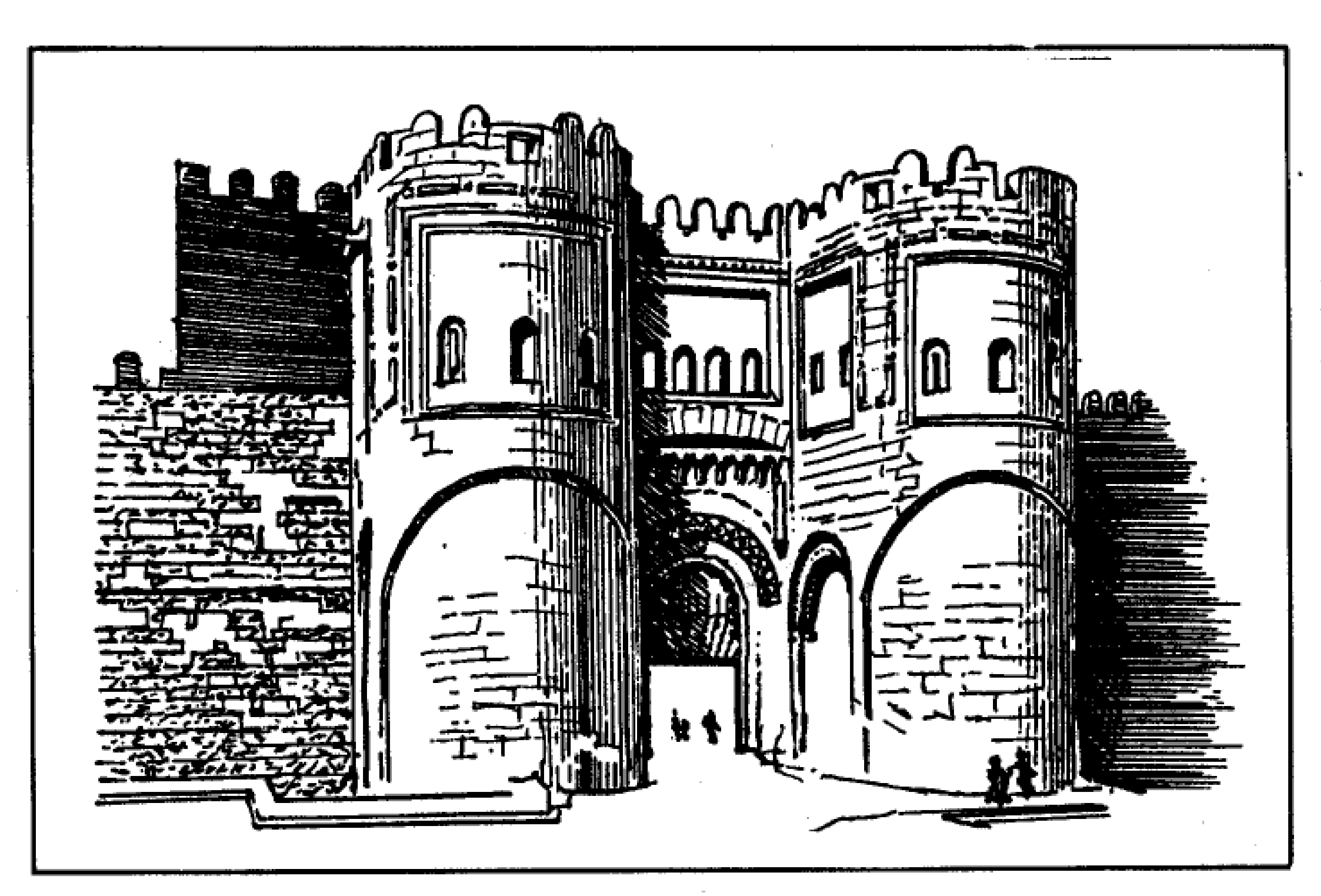
٣ ـ الدفاع عن الإسلام في منتصف الموقع :

إذا ما قورن بالتاريخ المضطرب لبقية الشرق الإسلامي ، فإن تاريخ سوريا ومصر يعطينا صورة بسيطة لبلدين ينتميان بنفس الأمانة إلى السنية ، وخاضعين في الوقت نفسه لنفس المعركة ضد العدو الغربي ، إذ يتمتعان بموقع أساسي على تقاطع الطرق الكبرى للتجارة العالمية ، وكأن وحدة قدرهما ومصيرهما قد أكدت اجتماعهما تحت سلطان أمير فريد من نوعه ، وواحد من أكبر الأمراء الذين عرفهم الإسلام وهو : صلاح الدين .

الزنج والأيوبيون .

قامت أسرة من الأتابغ هم زنج الموصل ، أسلاف العبيد الأتراك ، خدم السلاجقة ، ضد الفرنجة أسياد إنطاكية والرها ، وفي أيام الزنجي مؤسس هذه الأسرة ثم أيام ابنه وخليفته نور الدين والمتوفي عام ٥٦٩ / ١١٧٤) انتزعوا إمارة الرها من الصليبيين واجتاحوا إمارة إنطاكية ، وحاربوا ضد مملكة أورشليم القدس ، وأكدوا سلطانهم على أرض تمتد من الموصل حتى دمشق ومصر .

إلا أن اتباعهم الأكراد والأيوبيين بقيادة صلاح الدين قد حلوا محلهم في مصر ، وقد وصل الأيوبيون إلى مصر حوالي منتصف القرن السادس / الثاني عشر ، بناء على استدعاء الخليفة الفاطمي الذي كان يحتضر ، إذ لم تتمكن من إنقاذ صحوة وزيره الأرمني بدر الجمالي و (المتوفي عام ٤٨٧ /١٠٩٤) مؤسس القاهرة (شكل ٣٩) المسالم الذي أعاد تنظيم البلاد جاعلا من مصر معقلا ضد السلاجقة .



شكل ٣٩ : تحصين القاهرة ـ باب الفتوح ، أواخر القرن الحادي عشر .

وانتهى صلاح الدين إلى القضاء على النظام الفاطمي معلنا طاعته لخليفة بغداد (عام ٥٦٧ /١١٧١) وهكذا عادت السنية التي لم تكف مصر أيام حكامها

الشيعيين العابرين عن الإنتماء إليها ، وفيما يتعلق بباقي الأمور فقد كان صلاح الدين يتصرف كما يحلو له ، فقد انتصر على الزنج الذين طردهم إلى خارج سوريا ، وهو بطل المعارك ضد الفرنجة الذين استعاد منهم القدس عام ٥٨٣ /١١٨٧ ثم توفي في دمشق عام ٥٨٩ /١١٩٣ وسط التبجيل الشعبي الكبير ، وقد أعاد الوحدة السياسية لسوريا ومصر وجعل من البلدين قلعة السنية إلى الأبد .

بل لقد مد سيطرة البلاد إلى أبعد من حدودها بفكرة انتصار المعتدلين وتأمين مدن أخرى كملجأ بالإضافة إلى السيطرة على طرق التجارة التقليدية ، والحيوية لأي سلطان يقوم في الشرق الأدنى ولعل وصول الفرق الأيوبية إلى طرابلس عند أطراف تونس الثرية باتصالاتها مع صقلية النورماندية وموانىء إيطاليا (بيزا وجنوة) يعد علامة لتطلعات تجاه البحر الأبيض المتوسط ، إلا أن اتجاه الأيوبيين ناحية البحر الأحمر كانت أكثر حسما ، إذ كان صلاح الدين يتطلع إلى ما هو أكثر من الحجاز الذي كان يواصل سياسة التوازن بين قوى العالم أيام الاشراف : سلالة النبي وخاصة حسن ابن علي وفاطمة ، فقد كان يفكر في اليمن أساساً وفي ميناء عدن الذي استولى عليه عام ٥٦٩ /١١٧٤ وفي لعبة الأسرات والأجناس والعشائر هذه يبدو استقرار الأمراء الأيوبيين ، ومرتزقتهم وخلفاؤهم الرسوليون من بعدهم كأنه عصر نهضة جديد : إذ راحت الحقول وأشجار النخيل تمتد والمدارس تنبثق من الأرض الجرداء .

مجموعة سوريا ومصر .

إن الدولة التي أسسها صلاح الدين تدمج التراث السلجوقي والزنجي والفاطمي فيما يتعلق بمصر ، ويمكن تسمية البلدان التي تكون هذه المجموعة ـ وفقا لرأي س . كاهن ـ بأنها « اتحاد عائلي نصف اقطاعي » تم تأسيسه على مراحل ابتداء من الحاكم ، وعلى تمثيل واسع من القوى والإقطاعيات ، وما إن مرت فترة صلاح الدين الثري حتى أصبح النظام الأيوبي في المجال المدني يتميز بصرامة مالية كبيرة وسيطرة حاسمة على الدخل بما في ذلك الإقطاعيات ، كما تميز بعملة مستقرة ووفيرة (لوحة ١٧ جـ) وكان الموضوع الهام هو الجيش الذي كانت أسسه قائمة على التوزيع التقليدي للإقطاعيات والدخل الذي تحدده الإدارة والتبادل الذي

يلزم المنتفع به إيواء عدد معين من الرجال ، ولعل هذا النظام كان يتبع الدولة أكثر من أي وقت آخر على الأقل في العالم التركي قبل الأيوبيين ، مع بعض التنويعات المحلية في بعض المجالات ، على كل حال كان نظاما يؤكد وجود الجهاز العسكري ويدخل النظام الأيوبي وسابقه الزنجي في التراث السياسي لعهد الأتراك تماما .

البر والبحر .

ومن الناحية الإقتصادية أيضاً يبدو أنه لم يتغير شيء بالنسبة للعادات السورية والمصرية ، فقد اشتهرت سوريا بتنوع منتجاتها الزراعية وحرفياتها الدمشقية ، أو الحلبية مثل النحاس والحرير والجلود أما مصر فكانت معروفة بنخيلها وبقولها وقصب السكر وخضرواتها والكتان ، وكلها محاصيل مجمعة حول مجرى نهر النيل أو في الدلتا ، وأحيانا كان بعض هذه المحاصيل يتبع الدولة مثل قصب السكر ، وهذه العادات المصرية في القطاع الإقتصادي المراقب يقابلها في التجارة تدخل الحكومة في انتاج النسيج واحتكارها لبعض القطاعات الأساسية وخاصة قطاعي الخشب والحديد .

والجديد هنا إلى حد ما هو صحوة هذا الإقتصاد السوري المصري الذي تخدمه سياسة التعايش جنبا إلى جنب والتي اتخذها خلفاء صلاح الدين ، الملك العادل والملك الكامل ، (٥٨٩ /١١٩٣ ـ ٦٣٥ /١٢٣٨) تجاه الفرنجة ، ورغم فترات قطع العلاقات أو بعض الأحداث الأخرى فإن الإتصالات ظلت قائمة ـ عبر فلسطين ـ بين أهم بلدين في هذا المجال الأيوبي ، ولقد عرفت هذه الإتصالات تطوراً هاما خاصة مع تجارة البحر الأبيض المتوسط الكبرى ، وبذلك دخل العالم الإسلامي في اتصالات وتبعته أوروبا بأسرها عبر قطالونيا أو البروفانس أكثر من بيزا والبندقية أو ، جنوا ، وكان التجار وهم على قمة هذه التحركات يقيمون في الموانىء الفرنجية مثل أكرا أو في الموانىء الإسلامية مثل الإسكندرية ودمياط واللاذقية ، كما كانوا يقيمون في المدن داخل البلاد مثل دمشق وحلب والقاهرة .

وكان هؤلاء هم سادة التجارة البحرية رغم جهود صلاح الدين في أن يتزود

بأسطول بحري جديد بهذا الإسم ، أما في البحر الأحمر ، فعلى العكس من ذلك كانت التجارة في أيدي تجار مسلمين أو هنود ، وقام صلاح الدين الذي رأينا سياسته في اليمن بتوضيح ذلك للصليبيين بإنهاء عمليات رينو دي شاتييون على شواطىء هذا البحر ، ويرجع إلى تلك الفترة ازدهار ميناء عيذاب الذي تربطه طرق القوافل بالأماكن النيلية بأسوان وقوص ، وهكذا تأكدت أهمية طريق سيظل حيويا حتى القرن السادس عشر من أيام مصر الفاطمية ثم الأيوبية وبعد ذلك أيام المماليك .

انتصار السنية .

إن تحسن الوضع الإقتصادي والإشعاع السياسي والعسكري وكرم الأمراء ، كل هذه العناصر مجتمعة تفسر الإنطلاقة الثقافية البراقة التي تألقت في دول الزنج والأيوبيين وإن بدا ذلك بشكل واضح واكثر في سوريا .

ففي قرن مليء بالأحداث الكبرى لن يندهش المرء إذا ما استحوذ التاريخ على الإنتاج الأدبي ، وتحتل السير الذاتية مكان الصدارة بالنسبة لبقية مجالات الأدب ، وذلك مثل سير الأطباء التي كتبها ابن أبي أصيبعة ، وقصص انتصارات صلاح الدين الملحمية التي كتبها عماد الدين الأصفهاني ، وأخيرا السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ التي تمثل نموذج هؤلاء الأمراء المسلمين المشتبكين مع الفرنجة في مواجهات عسكرية عبر تقدير متبادل .

أما الجانب الآخر من هذه الآداب فتمثله الأعمال الفقهية أو الدينية التي ولدت في جو دفاعي سني ، وفي التطورات وردود الفعل التي تثيرها وخاصة من جانب الفلسفة الوحدوية ، مثل مؤلفات سهروردي المتنور وابن عربي الذي يرمي مذهبه إلى وحدة الوجود وكذلك مؤلفات ابن الفارض الذي يعتبر من أكبر الشعراء المتصوفين في اللغة العربية .

وأيا كان الأمر فلم تكن هذه الأشكال إلا تطرفات من الصوفية ، وقد انضمت غالبية هذه الحركة إلى المعتدلين الرسميين الذين راحوا يثنون عليهم ، وهنا ظهرت الأديرة جنبا إلى جنب مع المساجد والمدارس والمستشفيات ، وكانت السنية المناضلة موجودة في تراث أسلافهم السلاجقة ، فقام صلاح الدين ـ مثله

مثل نظام الملك ـ بالغاء الضرائب والمكوس التي قالوا أنها مخالفة للشرع ، كما كانت السنية حذرة أيضاً وذلك بمحاولة الربط بين رجال الفقه وقرارات الدولة بفرض رئيس واحد لكل الحركات الصوفية ليمثلها في الحكم ، وبذلك تمكن الأيوبيون من السيطرة على كل هذا الجهاز الضخم المتوغل في الجموع الشعبية ، وفي الواقع كانت السنية شديدة القوة وواسعة الأفق بحيث أصبحت تمثل التسامح بمثل هذا الشكـل ، وقد ترك الزنج والأيوبيون تفضيلاتهم الذاتية ليقوموا بتجديد هام هو ادماج المذاهب الأربعة للإسلام السني في مجريات القانون وفي المدارس ، وقد مسح هذا التسامح بعض أجزاء من الميراث الوثني القديم ، ومنها مجال الطب الذي ازدهر في الفترة العباسية معتمدا على المستشفيات العامة (البيمارستانات) ولعل أوضح مثل لذلك هو بيمارستان دمشق الذي تحدثنا النصوص عن تنظيمه الإداري ونظام « الفيشات » الخاصة بالمرضى ، والجزء الخاص بالمجانين ، وكيف كان الأطباء يمضون أوقاتهم بين الزيارات اليومية للمرضى والقيام بالتدريس ومتابعة مرضاهم الخصوصيين .

أما الإسماعيليون في سوريا فكانوا في وئام مع الفرنجة ويبدو أنهم امتنعوا عن الظهور بجوارهم أثناء الحرب الصليبية الثالثة ، ثمنا لهذا الهدوء المؤقت ، وعم هذا التسامح كلا من اليهود والمسيحيين ، وكان هذا الموقف يتصف بالكرم والذكاء خاصة إذا ما عرفنا أن المسيحية في نظر الإسلام أيام الحروب الصليبية كانت تمثل وجه الغرب المعتدي .

الحروب الصليبية في نظر الإسلام .

من الأمور الواقعة إن إسلام الأيوبيين لم يشمل بريبته جميع المسيحيين وإن كان يحق له ذلك تماما بعد الحروب الصليبية ، ففي مصر مثلا عرف الأقباط المتعلقون بشدة بماضيهم وبعادات بلدهم ، ازدهارا ثقافيا حقيقيا بالمقارنة بالأرمن الذين كانوا يضعفون لا لأسباب دينية وإنما لشدة ارتباطهم بالنظام الفاطمي البائد .

ويبدو أن الأيوبيين في سوريا المغلقة لم يكونوا شديدي التعنت ، بدليل أن أول اهتمام لهم بعد استعادة القدس كان دعوة اليهود للعودة إليها ، أما المسيحيون

فكانوا يقبلونهم طالما ظلوا بعيدا ولم يحاولوا تنصير المسلمين ، كما أخذ الأيوبيون في الإعتبار موقف هؤلاء المسيحيين من الأعداء الصليبيين ، وهل كانوا متعاطفين معهم أم لا ، وكان موقف المارونيين اللبنانيين يمثل الحالات القصوى إذ كانوا على الأراضي الفرنجية ومتحالفين مع سلطات روما خاصة في أرومينيا الصغرى ، فكانت عواقب النصر الإسلامي الذي أتمه المماليك وخيمة بالنسبة لكل هؤلاء ، فقد تم طرد المارونيين في جماعات كبيرة تجاه الجبل ، أما الأرمن المتحالفون مع الغرب المسيحي ثم مع المغول فكانت النتيجة مفجعة بالنسبة لهم إذ تم تدمير مملكتهم في القرن الرابع عشر .

أما فيما يتعلق ببقية المسيحيين وخاصة اتباع الطائفة اليونانية الذين كان الصليبيون يضطهدونهم أو يخرجونهم ليضمنوا لأنفسهم بعض العملاء داخل البلدان الإسلامية ، فلم يتخل الأيوبيون حيالهم عن كرم كان يمكن للفرنجة أن يتخذوه مثلا بدلا من أن يحتفلوا باستيلائهم على القدس ببحر من الدماء ، وبدلا من أن يعاملوا المسلمين في أراضيهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية إن لم تكن العداوة معلنة صراحة ضدهم .

وإذا ما تأملنا موقف الإسلام تجاه نفسه ، أي فيما يتعلق بواجبه حيال حرب الجهاد التي كان يفرضها عليه وجود الفرنجة فلا بد من ملاحظة أنه لم يجد نفسه موحدا إجمالا في رده ، ولا موحدا في عدائه ، فقد وقع ثقل الحرب بأسرها على مصر وسوريا بصفة خاصة ، الثقل والحظوة أيضاً ، إذ أن الأيوبيين قد استفادوا من نصر كل المعارك على الغرب وجنوده مثلما استفادوا من انطلاقة التجارة مع تجار الغرب تلك الإنطلاقة التي استمرت - كما رأينا - عبر مخاطر العمليات الحربية .

ولم يكن بمقدور هذا النجاح ألا ينعكس على السنية التي لا تنفصم عن سياسة تتفق والعظمة الزمنية لروح الإسلام ، إذ أن هذا الإنضمام الشاسع السوري المصري حول المعتدلين كان يعبر في الواقع عن سعادة العودة التي تم تحقيقها لإسلام منتصر موحد وصاف ، أو بعبارة أخرى : إسلام الأزمنة الأولى وذلك يعني أن الصدام العسكري للحروب الصليبية لم يقابله أي تراخ أساسي في الدين الإسلامي ، وإن وجود الفرنجة قد دفع بذلك الدين إلى تمجيد أشكال

معروفة ، تلك الأشكال التي كان الإسلام يربطها من خلال السنية والحرب بأولى نجاحاته وأكبرها بدلا من إثارة أشكال جديدة .

بقي أن نقول كلمة عن التبادلات الشرقية الغربية في فترة الحروب الصليبية ، وهو موضوع كثر نقاشه لكنه لا يزال غير معروف أحيانا : فلا أقل من ذلك الظلام الذي يخيم على موضوع مثل الفنون الحربية ، أو مسألة التأثيرات المتبادلة فيما يتعلق بالمباني العسكرية ، وهي موضوعات ما زالت في حاجة إلى إجابة إذا ما تم العثور عليها ذات يوم ، وماذا عن غيرها من الموضوعات . . . ؟ لقد تحدثنا فيما سبق عن التجارة لكن بقي أن نعرف ما إذا كانت هذه التجارة قد أدت ـ فيما يبدو منطقيا ـ إلى علاقات أخرى أقل مادية ؟

ولا بد لنا من الإعتراف بأن أيا من العالمين المتواجهين قد تغير حقيقة عند اتصاله بالعالم الآخر سواء على المستوى العام للمؤسسات أو الثقافات ، بل إن مفهوم كلمة الحروب الصليبية لم تكن مفهومة تماما من المسلمين الذين لم يكن هناك في نظرهم ما يبررها : لا وجود المسيحيين على أراضيهم ولا وجود الحجاج في الأراضي المقدسة ، واتخذ هذا التدخل الغربي شكل العدو التقليدي مثلما كانت تبدو لهم بيزنطة منذ زمن بعيد ، فمن جانب الفرنجة ـ ولا نتحدث إلا من حيث الشكل الديني للحروب الصليبية ، فقد كان يمكن لهذه الحروب أن تكون نهاية سلسلة طويلة من الإنتقامات التي بدأت منذ الأزمنة الأولى للتوسع الإسلامي مثلها مثل إعادة الفتح المسيحي لإسبانيا وصقلية ، إلا أن مثل صقلية وإسبانيا يوضح لنا ـ كما سوف نرى ـ أنه لم يكن من المستبعد من حيث المبدأ أن المحتلين الجدد قد يتفتحون لبعض ملامح حضارة الإسلام ، فمن الضروري اذن الأخذ في الإعتبار أن فرنجة بلاد المشرق قد عاشوا دائما متنقلين محبوسين في عاداتهم ، ومنعزلين تقريبا عن وسطهم المحلي ، وإن التيارات الكبرى الحضارية بين الشرق والغرب قد اتجهت إجمالا إلى غرب البحر الأبيض المتوسط ، فالحروب الصليبية لم تكن ـ على حد قول س . كاهن ـ إلا شكلا أساسيا للتبادل بين عالمي البحر الأبيض المتوسط اللاتيني والعربي ،والا بداية « مقدمة » للتأثير السياسي والثقافي للغرب على بلاد المشرق في الأزمنة الحديثة .

٤ ـ تجاه الغرب : إسلام توسعي :

لكنه خائب الظن .

كان الأتراك في الشرق والبربر في الغرب يمثلان محور الوحدة السياسية للإسلام لفترة ما ، في هذه المناطق ، ثم دفعاه جنوبا تجاه أفريقيا السوداء ، لكنهما أصبحا يقاومان الدفعات المسيحية بصعوبة .

تقدم مسيحي وفوضى إسلامية .

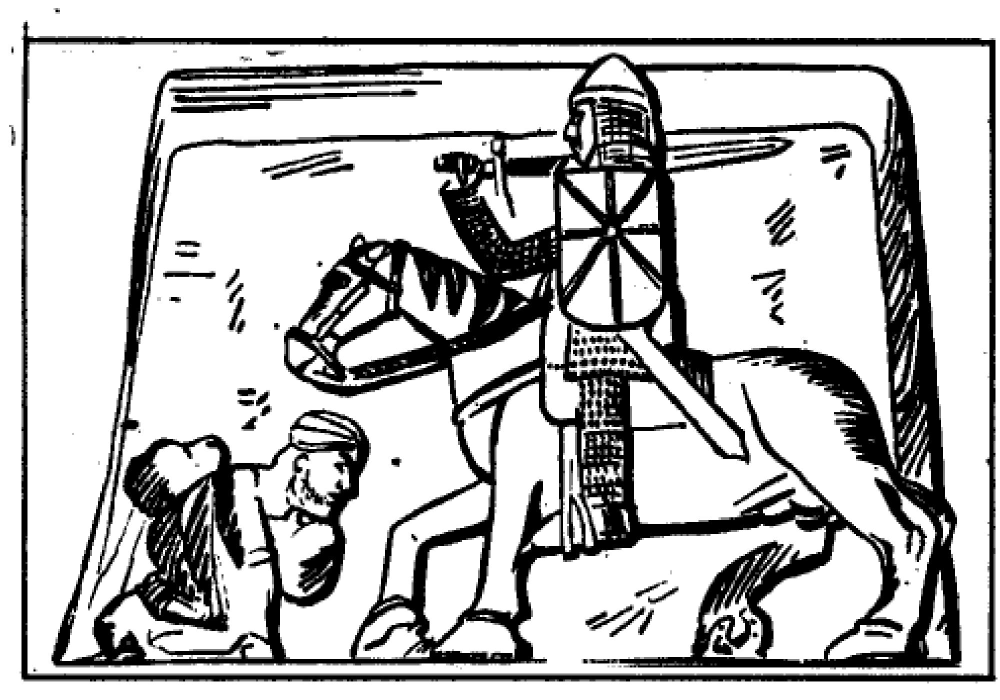
صقلية : فقدت أم كسبت ؟

إن الهجوم المسيحي يبدأ هنا بشكل أوضح من الشرق ، فقد حل محل بيزنطة التي سبق لها أن طردت المسلمين من جنوب إيطاليا وكريت وبينما كانت تستعد لإسترداد الشواطىء الشرقية لصقلية ، ظهر النورمانديون الذين استولوا نهائيا على الجزيرة عام ٤٧٨ /١١٨٥ ، ثم استولواعلى مالطة بعد خمسة أعوام ، إن الحدود المتطرفة لأوروبا الجنوبية تفلت من تاريخ الإسلام وكذلك تجارتها ، فقد جاء بعض القادمين الجدد المنافسين للبندقية وموانىء جنوب إيطاليا ، والذين نجحوا كما رأينا أيام مصر الفاطمية في الإرتضاء بالوجود الإسلامي في صقلية ، واستولوا على ذلك البحر الذي تم تحريره ، معتمدين في طريقهم إلى الشرق التابع للحروب الصليبية على هذا الموقع الهام الثري الذي يحول دون القراصنة الذين سوف يطردونهم حتى معاقلهم في تونس .

ولقد أزفت ساعة تجار بيزا وجنوة خلف قدوم النورمانديين والغارات التي شنوها حتى الإسكندرية عام (٥٥٠ /١١٥٥) أما تجار البروفانس ومقاطعة تولوز وقطالونيا فقد كانوا أقل حظا نظرا لتعرضهم إلى قراصنة جزر البليار الإسلامية ، .

مع ذلك ففي اللحظة التي كانت فيها صقلية تفلت من الحكم الإسلامي ، ازدهرت ثقافتها التي كان يحبذها الصلح النورماندي وسعة أفق حكامه ، وإذا ما كان على صقلية أن تلعب دوراً أقل من الدور الذي لعبته إسبانيا في نقل العلوم الإسلامية إلى الغرب ، فإن هذه الجزيرة تتميز ببعض الإندماجات المبتكرة كجزيرة كبرى ، والدليل على ذلك أولئك الملوك الذين يقراؤ ن ويكتبون باللغة العربية إلى

جانب بعض العادات الممارسة على المستوى الرسمي ، للتقويم الاسلامي والمسيحي أو إشتراك بعض الفنانين المسلمين في الأعمال الخاصة بسقف كنيسة بالاتين في بالرمو (شكل ٤١) والذين عاد تراث سامراء إلى الظهور بفضلهم مختلطا ببعض المعطيات البيزنطية ، وقد وصلت هذه التأثيرات إلى هنا مباشرة أو عن طريق المدن المصرية والتونسية ، كما يجب ألا ننسى جغرافية وأطلس الأدريسي المكتوبين باللغة العربية واللذين يقال عنهما أنهما « ملك للملك روجيه » إلا أنهما أول الأعمال في مجال العلوم الإسلامية التي تنفتح بمثل هذا الإتساع على أوروبا .



ـ شكل ٤٠ ـ

المسيحية في صراع ضد المور ، إسبانيا ، القرن الثاني عشر .

انقسام إسبانيا .

لقد تحدثنا فيما سبق عن تفتت إسبانيا الإسلامية عقب وفاة « عمدة قصر » المنصور (عام ٣٩٢ /١٠٠٢) ودون الغوص في متاهات المعارك المتواصلة التي قادها ملوك الطوائف ، والذين يعتبر اسمهم بالنسبة للدولة مرادفا لإمارات متعددة متقلبة وفوضوية ، لنكتف بذكر ما اكتسبه منهم عدوهم : ففي عام ٤٧٨ /١٠٨٥ دخل الملك الفونس الرابع طليطلة ولن يستردها الإسلام بعد ذلك ، ولم يعد في وسع إسبانيا أن تنتظر الخلاص في مواجهة مسيحية جريئة (شكل ٤٠) إلا من الخارج ، من ذلك المغرب القريب الذي كثيرا ما فرضت عليه قانونها أو تأثيرها والذي تدين له ببقائها المرتبط به مباشرة .

تدمير شمال أفريقيا .

حوالي عام ١٠٥٠ قرر الفاطميون في مصر ترويض اتباعهم من بني زيري في تونس لشدة تمردهم ، إذ كانوا قد ابتعدوا عن الشيعية فأرسلوا قبيلة بني هلال



ـ شكل ٤١ ـ عازفان على آلناي بجوار نافورة ـ تصوير على خشب ، بالرمو ، القرن الثاني عشر .

المستقرة في مصر العليا لترويضهم ، فانطلقوا غربا إلى المغرب ، وكانت بداية لغزوات سوف تتكرر بانضمام قبائل أخرى إلى بني هلال ، وخاصة قبيلة سليم ، وانقضوا عبر التخوم الشمالية للصحراء ومعهم بعض القبائل العربية فوصلوا حتى جنوب مراكش .

ولم تتمكن ملحمة بني هلال من إخفاء حقيقتها خلف المغامرات البطولية التي قامت بها ، فقد تغيرت الخريطة الأساسية لشمال أفريقيا مع نسج هذه الملحمة ، وتم طرد مملكات البربر الحضريين ، أو أنصاف الحضريين داخل بضعة

بلدان أو عند الشاطىء وذلك مثل بني زيري الذين اتجهوا إلى المهدية حيث اكتشفوا في أنفسهم مواهب بحرية وقرصنة ضد النورمانديين في صقلية ، ومثل الحماديين الذين اتجهوا من عاصمتهم القلعة إلى بجاية ، كما تغيرت ملامح الخريطة الخاصة بالأجناس واللغات وكان هذا التغيير يزداد كلما اتجهنا من الغرب للشرق ، فبعد مجيء عرب الفتوحات الأولى الذين استقروا في المدن ، هاهم العرب الرحل يستقرون في الهضاب الداخلية ومشارف الصحراء حيث كانوا يفرضون حمايتهم وينشرون استخدام اللغة العربية بتوسع .

وأسوأ ما في الموضوع إن هذا الغزو راح يفتت الجهاز الإقتصادي الذي كان يعاني من الأزمات والفوضى في أواخر عهد بني زيري ، وسواء اعتبر ابن خلدون ان بني هلال مسئولون عن هذه الكارثة أو قللنا من شأن دورهم فيها ، فإن المنظر في ذلك القرن الحادي عشر يظل يمثل المغرب الشرقي المفلس بنظام الري القديم المحروم من الريف ، مما ساعد على عودة البادية والجمال مرة أخرى .

رد الإسلام : المرابطون .

في إسبانيا الممزقة ، وفي شمال أفريقيا الغارقة بالبدو الرحل ، سوف يظهر بدو آخرون هم البربر ليعيدوا وحدة الإسلام ، ويختلف توسعهم عن توسع الأتراك أو بني هلال في المكانة الحاسمة التي تحتلها الإهتمامات الدينية : وبقول آخر كانوا يمثلون حرب جهاد إسلامية قبل الحروب الصليبية .

وقد بدأوا من الصحراء الغربية من منطقة النيجر السنغالية حيث كان المحاربون البربر يتمرنون على حرب الجهاد تحت قيادة ابن ياسين في صوامعهم المحصنة ، وسيطلق عليهم اسم : المرابطون ، وقد بدأت اشتباكاتهم ضد البربر المحيطين بهم ، وسرعان ما اخضعوهم وضموهم إلى صفوفهم ليشتبكوا مع السود وهزموا مملكة غانا حوالي عام ١٠٧٦ .

وقد أملى عليهم مذهبهم المالكي المعلن عنه بوضوح الطريق شمالا إلى المغرب الذي كانوا يريدون تخليصه من هرطقته . وتوفى بن ياسين في المعارك وحل محله يوسف بن تاشفين الذي بدأت معالم عاصمة مراكش تتحدد في أيامه (حوالي عام ٤٥٣ /١٠٦١) ومد المرابطون سيطرتهم من هنا إلى جنوب الجزائر الحالية

حيث اصطدمت سلطاتهم بسلطة الحماديين في بجاية، وكانوا هم في صراع مع بنى زيري في المهدية وبني خراسان سادة تونس الجدد من البربر ، كما كانوا في صراع مع عدة إمارات مدنية تولدت في فوضى غزو الهلالية .

وفي عام ٤٧٩ /١٠٨٦ قام الأمراء الإسبان بالإستنجاد بالمرابطين الذين عبروا المضيق وصدوا جيش الفونس السادس في مدينة الزلاقة ، وأعادوا الوحدة السياسية لإسبانيا الإسلامية لصالحهم ، وكانت حدودها تمتد آنذاك من نهر تاجة إلى نهر الإيبر باستثناء مرتفعات طليطلة المسيحية ، وكانت الإحتكاكات الأولى بالحضارة الأندلسية عنيفة ، إذ أن منقذي إسبانيا الإسلامية قد أساؤا معاملتها بعض الشيء .

لكن سرعان ما انتصرت عليهم بدورها ، وانفلّت صرامة القادة المرابطين ، وقد أدت بهم إباحيتهم وترفهم في مراكش كما في قرطبة إلى إن أصبحوا هدفا للفقهاء المالكين المتشددين الذين كانوا يسيطرون على الجماهير الشعبية ، وبانقطاعهم عن اتباعهم أهلك المرابطون أنفسهم ، في صراعات أسرية في هذا الوسط البربري الشديد الإرتباط بالقرابة النسائية عن طريق الأمهات المتآمرات ، وتدهور نظام ابن تاشفين (٥٠٠ /١١٠٦) بعد موته بأقل من نصف قرن .

امبراطورية إسلامية في الغرب : الموحدون .

لقد انبثق داعية جديد للإسلام وسط بربر الجبل المغربي المتحضرين هو : ابن طومارت ، فمنذ عودته من الشرق حيث ذهب مثل غيره « يطلب العلم » راح يثير مستمعيه بمذهب ينهل من كل الأسرات الروحية الإسلامية ، فقد كان ينادي إجمالا بالعودة إلى المصادر الأصلية فيما يتعلق بالمذاهب والوحدة المطلقة لله (مما أعطاه اسم الموحد) وتوصل ابن طومارت إلى أبعاد سلطان المذاهب القائمة وطالب بالعودة إلى الشخصية الأساسية الشيعية : المهدي ، الممثل الوحيد للقانون وللتراث ، دفاعا عن عقيدة مستوحاة أساسا من مختلف الإتجاهات السنية ، وكانت هذه العقيدة باتساعها وحماسها تقف ضد مجمع الإسلام الرسمي ابتداء من المذهب المالكي .

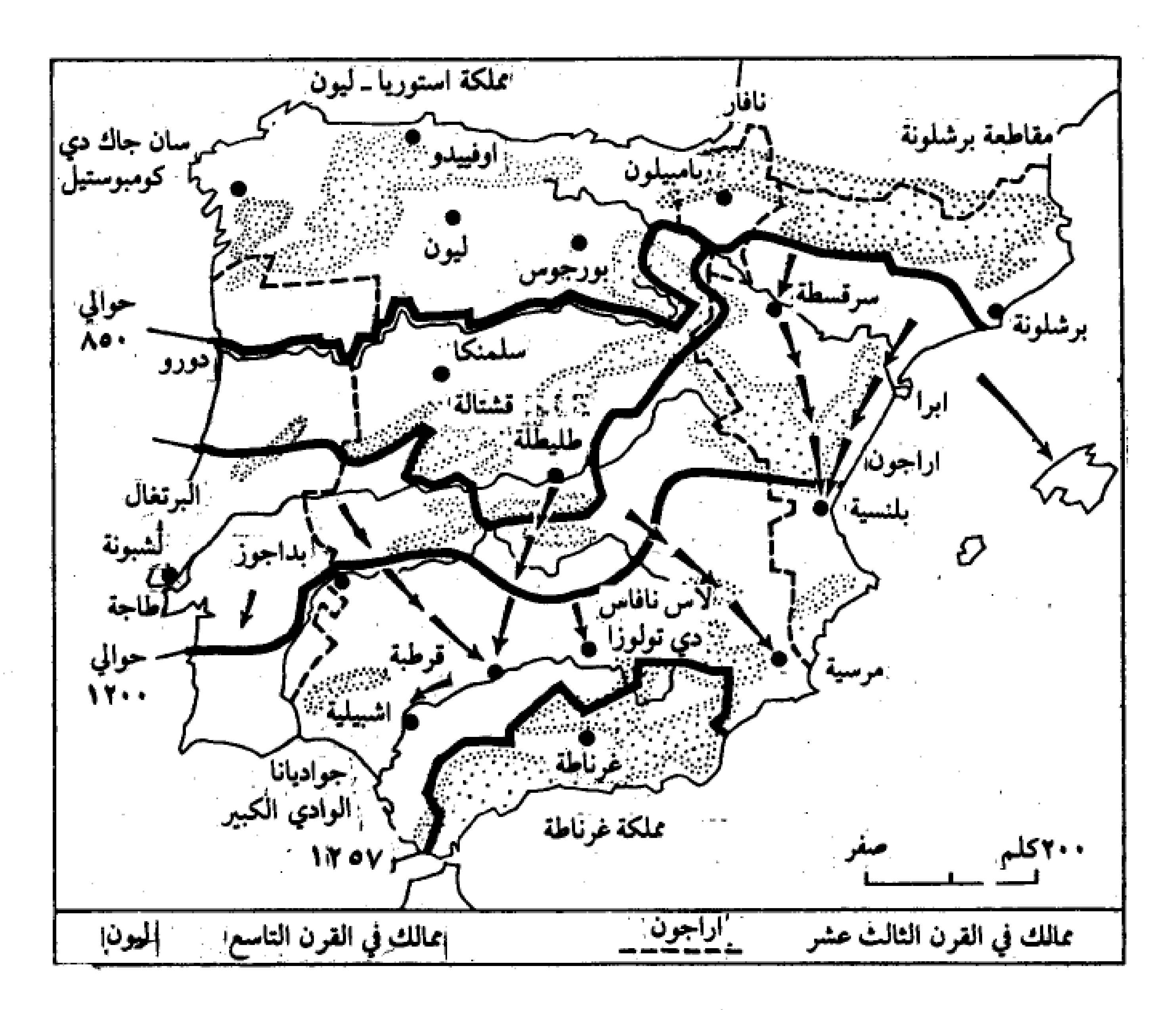
وترجع أولى انتصارات ابن طومارت إلى لجوئه للبربر مبشرا أو مفسرا

نظرياته كتابة ، وحوالي عام ٥١٥ /١١٢١ أعلن أنه هو المهدي ، كما أعلن حرب الجهاد وقام بتنظيم دولته بفكرة العودة إلى المنابع الأصلية ، ووفقا لهذه المبادىء الأساسية للقانون ولإجماع الأمة وتقليد الرسول ، أصبح تكوين هذه الدولة يتضمن المهدي في القمة ويسانده مجلس مكون من عشرة أفراد يديرون معه شئون الدولة ويمثلونه في الجيش وفي إقامة الصلاة ، أما القاعدة فكانت تتكون من مجمع المؤمنين ، أي من الشعب الموحد الممثل في « مجلس الخمسين » وكان هذا المجلس يضم أعضاء مجلس العشرة بالإضافة إلى أربعين ممثلا للقبائل .

وعند وفاة ابن طومارت (٥٢٤ / ١١٣٠) بدأ عبد المؤمن تلميذه المفضل ينزل من الجبل شيئاً فشيئاً متجها إلى الجنوب وإلى الشمال في أن واحد ، فوصل مراكش عام ٥٤١ /١١٤٧ وبعد أربعة أعوام دمر مملكة الحماديين شرقا في بجاية ، وعام ٥٥٥ / ١١٦٠ أصبح سيدا لشمال أفريقيا حتى شطآن خلجان سدرة وقابس ، ومنذ عام ٥٣٩ /١١٤٥ اتخذ التدابير اللازمة لوضع إسبانيا الموحدين تحت سيطرته ، وولدت امبراطورية إسلامية جديدة في الغرب أجازت لقائدها لقب الخليفة في مواجهة منافسية في بغداد والقاهرة .

وستستمر هذه الإمبراطورية قرابة ثلاثة أرباع القرن بعد وفاة عبد المؤمن (عام ٥٥٨ /١١٦٣) ومنذ عام ١٢٣٦ بدأ هذا البنيان يتصدع ، بل لقد رأينا التصدع يبدأ قبل ذلك التاريخ ، إلا أنها لم تظل متماسكة إلا بفضل أمرائها ، ومن عام ٥٨٠ /١١٨٤ إلى عام ٦٣٣ /١٢٣٧ قامت عائلة من البربر هي قبيلة بنو غانية لتدافع عن حقوق المرابطين ، ووصلوا إلى مدينة بجاية ابتداء من جزر البليار وكانت معقلهم في الحملات ضد السفن المسيحية ، ثم تحالفوا مع العرب الرحل والأتراك القادمين من مصر صلاح الدين واجتاحوا شمال أفريقيا من طرابلس حتى جنوب المغرب ، على عدة مراحل ، تبدو كصحوة للكارثة الهلالية ، إذ اختفت عدة مدن من وسط المغرب من على سطح الخريطة ، وكانت باقية حتى ذلك الوقت .

وأهلكت الحروب قبائل الموحدين وكان بلاطهم منقسما إلى قسمين : المتمسكين بالتراث الخالص لابن طومارت ، والمنتفعين بالتغيير التي تحدثه الأحداث في ملكية وراثية لصالح سلالة عبد المؤمن ، كما كان الإسبان المسيحيون



الخريطة ١٦ ـ الاسترداد

مصممين أكثر من أي وقت على استرداد أراضيهم (خريطة ١٦) فبعد انهزامهم في معركة اليركوس قام سكان مملكة قشتالة وليون وأراغون ونافارا بسحق المسلمين عند العقاب عام ٦٠٩ /١٢٠٢ ، وفي عام ٦٣٣ /١٢٣٦ فقد الإسلام الإسباني قرطبة ، وكانت رمزا له منذ زمن بعيد .

موازنة إسلام المرابطين والموحدين .

إذا ما استثنينا أتراك صلاح الدين في طرابلس أو إعتراف المرابطين بخليفة بغداد ، فإن السمة الأساسية للإسلام الغربي في تلك الفترة ـ من الناحية السياسية ـ هي أنه يعيش حياته بعيدا عن أي ارتباط ببقية العالم الإسلامي ، إلا أن هذا الموضوع المميز لم يمنع وجود صلات ثقافية عميقة بين الشرق والغرب .

السنية الراسخة .

كانت السنية منتصرة غربا وشرقا مع فارق بسيط هو أن البربر هنا هم الذين

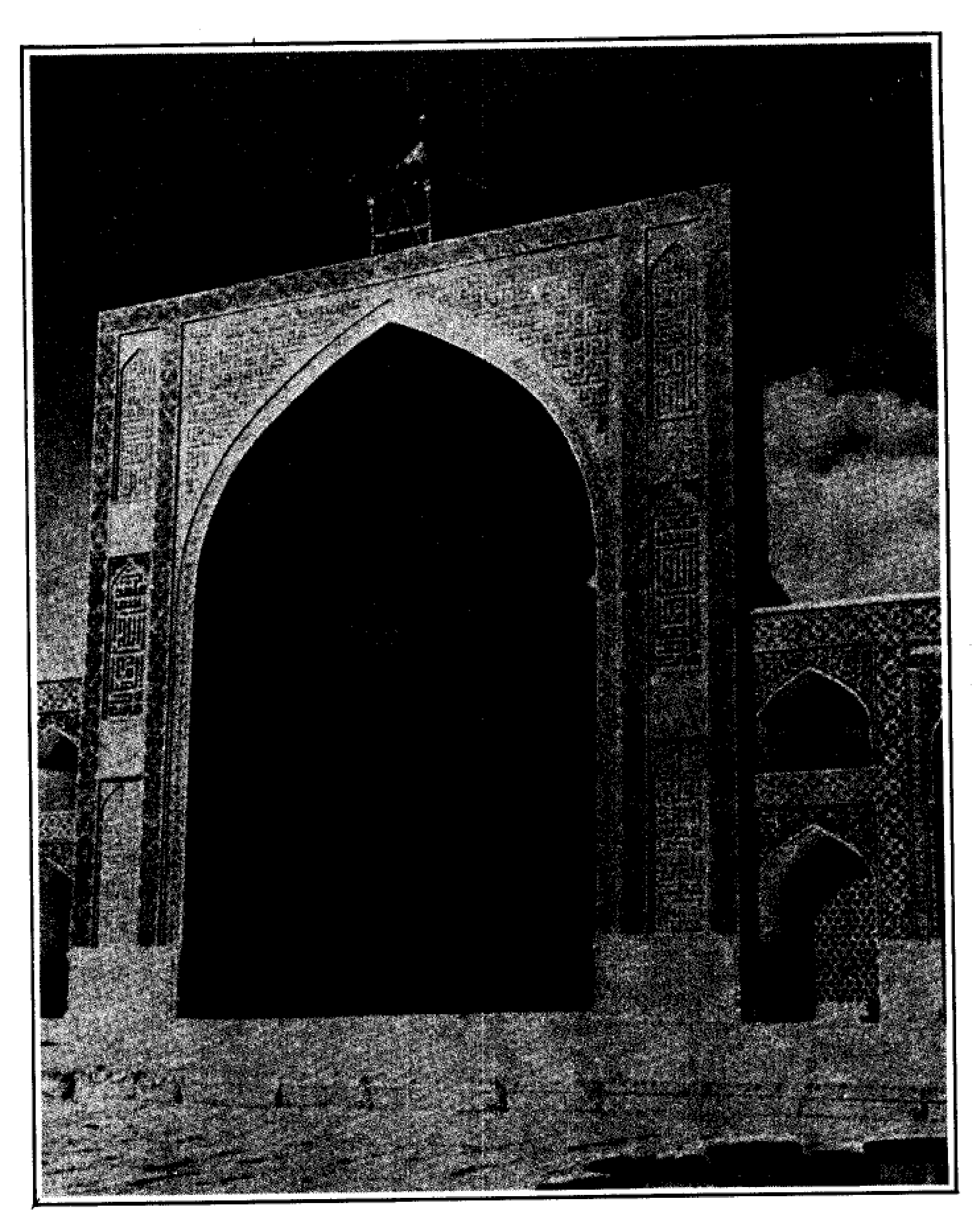
كانوا يدافعون عنها وليس الأتراك أو الأكراد ، وقد استفاد المذهب المالكي من هذا الإزدهار ، فقد كانت السنية تعتمد على صرامة فقهائها المناضلين مثلما في الشرق ، فدون التحدث عن دورهم أيام المرابطين ، فإنهم لم يكفوا عن الدفاع عن هذا المذهب بحماس حتى بعد أيام المرابطين ، وعلى أي حال فإن أسرة الموحدين الحاكمة قد قطعت صلاتها بمذهب ابن طومارت حوالي عام ٦٢٧ / ١٢٣٠ بدليل إن خليفة مراكش لم يمكنه من انتزاع السنية التقليدية التي ظلت الجماهير الإسلامية شديدة التعلق بها ، وذلك مثله مثل منافسة الراحل خليفة القاهرة .

ومثلما في الشرق أيضاً فإن صحوة المعتدلين هنا تتمشى مع السنية المنتشرة والتي تعرف أشكالا أكثر شعبية وأكثر واقعية وأكثر شيوعا مما في الشرق ، وذلك بخلاف الجمعيات الدينية وتعبير كلمة مرابطة تعطي المضمون التاريخي والسياسي كما أنها تعني أيضاً كل أولئك الذين جعل منهم الضمير الشعبي قنديسى الإسلام الغربي من فاتحين ومؤسسي مذهب أو أسرات حاكمة وأسلاف كبار أو قادة قبائل كما تعني أيضاً بعض الآلهة القديمة المتنكرة والنساك الملهمين الذين تتناثر أضرحتهم البيضاء فوق الأرض المغربية .

وأخيرا فإن هذه السنية ترفض التواطؤ مع ما تعتبره هرطقة أو الحادا أكثر مما في الشرق فقد استبعدت الشيعية من مراكش ومن أواسط المغرب بفضل انطلاقة السنية ، كما أجبر الخوارج على الهجرة وعلى إعادة تشكيل فرقهم الدفاعية ، وهكذا تم تنظيم الميزاب : معقلهم النهائي والموقع الهام للتجارة عبر الصحراء ، ونفس الإنطلاقة النضالية كما رأينا تحيي السنة في دفاعها الخارجي عن الإسلام ، ومثلما لعب الحماس الحربي للتركمان في آسيا الصغرى دوراً حاسما في إندلاع الحرب الصليبية الأولى ، فإن توسع المرابطين ـ في نفس الوقت تقريبا ـ قد أدى إلى تمسك الممالك المسيحية بموقفها ، ويعتبر تلاقي الأحداث مماثلا في الحالتين بين سنية تبدو كانطلاقة للإسلام وبين انطلاقة مسيحية يثيرها أو يؤكدها بدوره ، والفارق الوحيد بالنسبة للمسيحية هو أن الحروب الصليبية ـ على الأقل فيما يتعلق بإسبانيا ـ سوف تنجح تحت شعار « الإسترداد » .

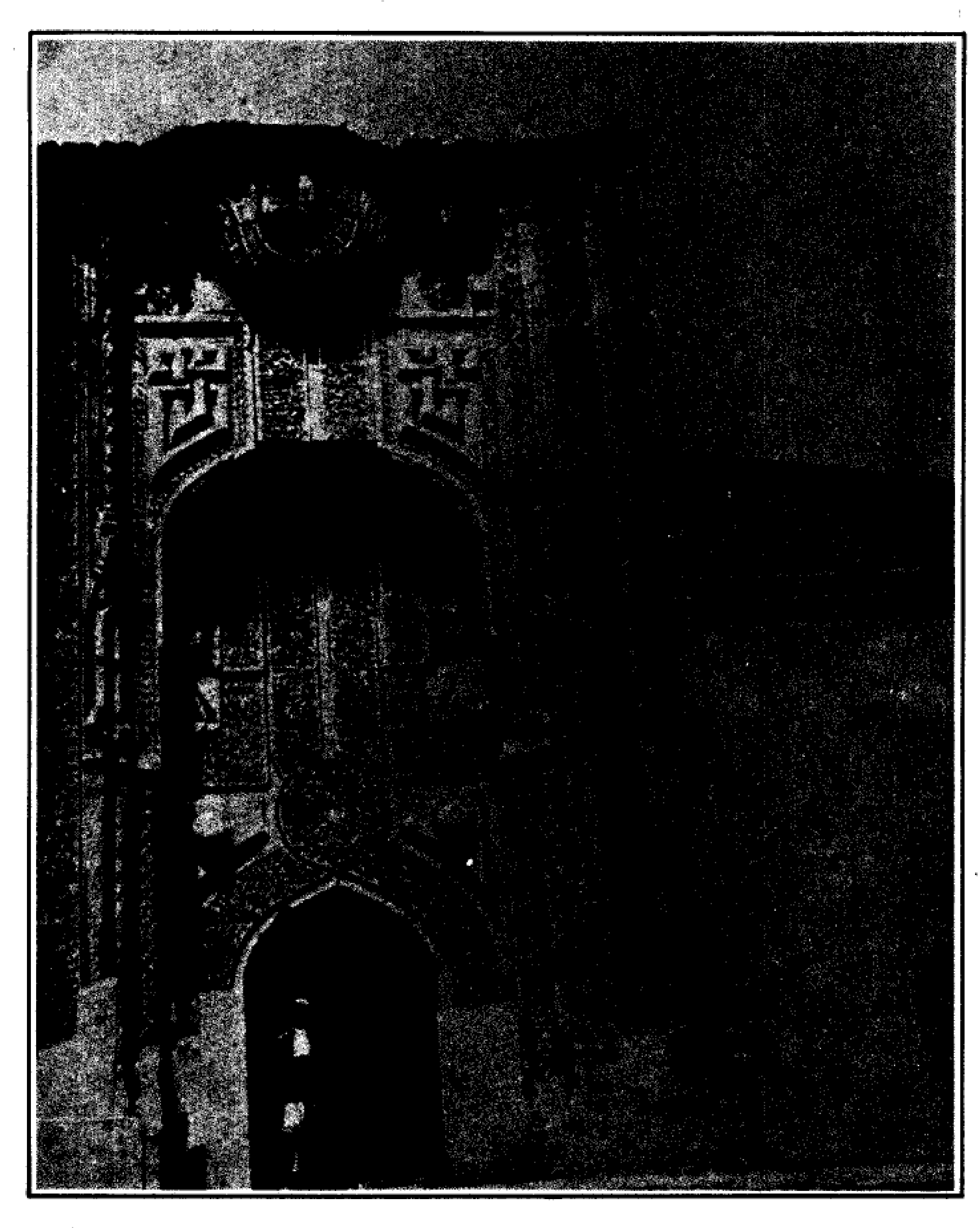
نظام الدولة .

إن الموحدين خلفاء المرابطين ستتاح لهم الفرصة أكثر من سابقيهم ليزودوا



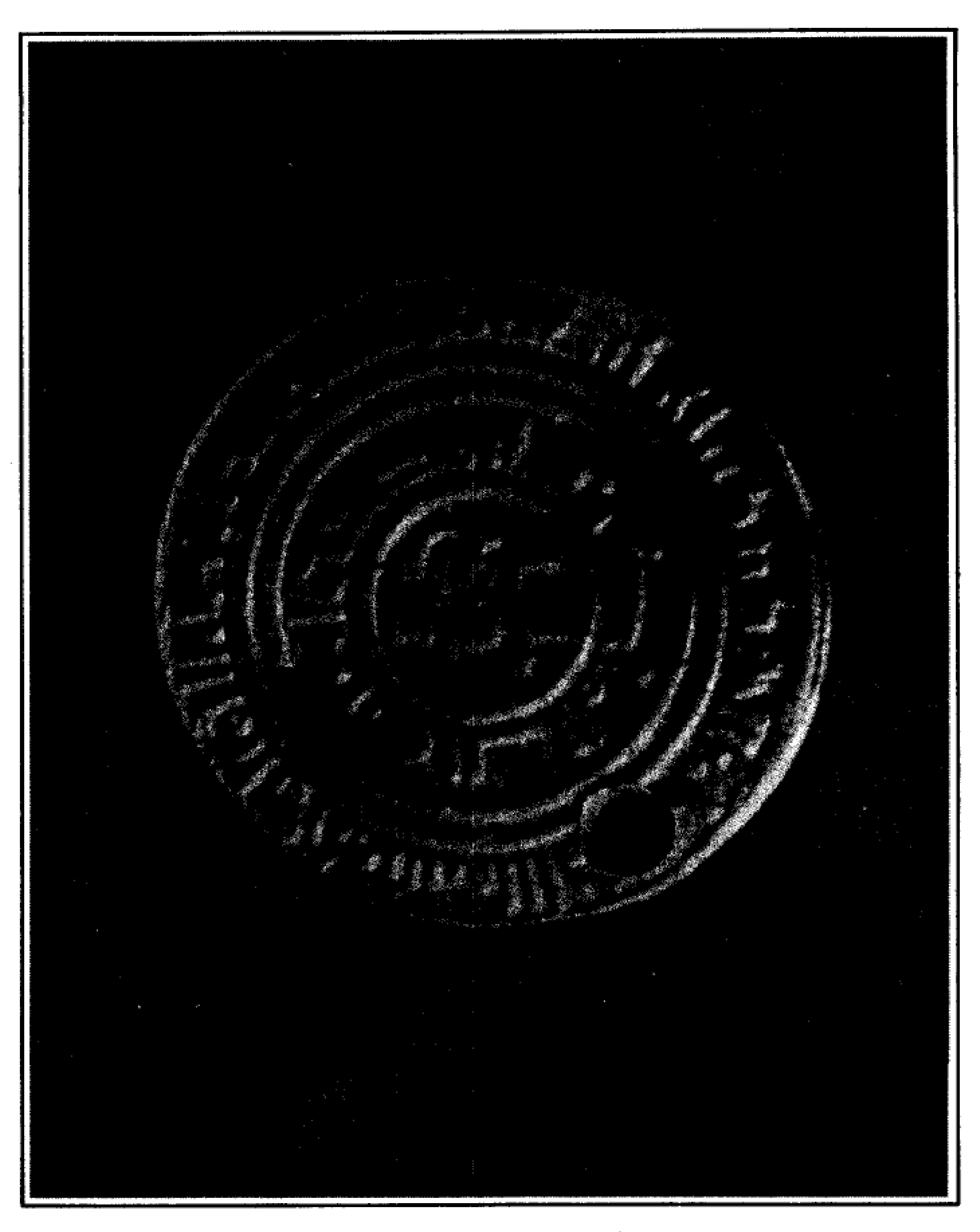
ـ لوحة ١٧ ـ أ ـ الفن السلجوقي : المسجد الكبير في أصفهان ، أواخر القرن الحادي عشر .

دولتهم بإدارة مركزية هي المخزن ، حيث تتجاور العادات الإدارية لموظفي الأندلس والمتوارثة عبر المرابطين من الأمويين في إسبانيا ، مع بعض التجديدات الخاصة بمراعاة جنس البربر ، وكانت أهم ابتكارات هذا المخزن هي مسح شمال أفريقيا بأكمله من أجل إقرار الضرائب .



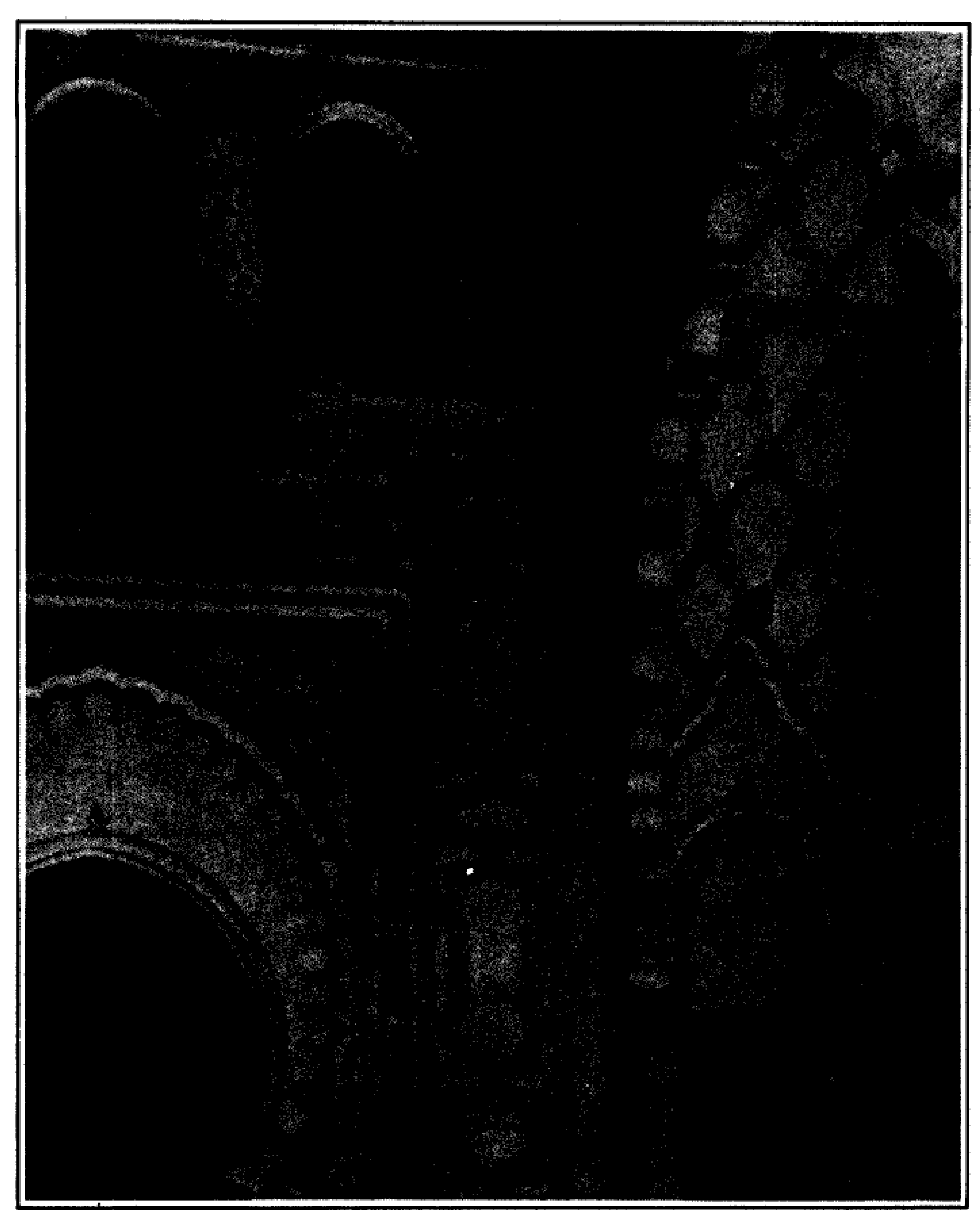
ب ـ فن سلجوقي من الروم : بوابة مدرسة انجي فينارللي ، قونيه ، منتصف القرن الثالث عشر .

كان لنظام المرابطين والموحدين عواقب حميدة على التجارة ، وإذا ما كانت التجارة تفلت بحرا من الإسلام شيئاً فشيئاً فإن توحيد المغرب وإسبانيا كان من نتائجه تسهيل المرور بين السودان وإسبانيا ، سواء كانت مسلمة أو مسيحية ،



جـ ـ عملة ذهبية من أيام صلاح الدين ، الإسكندرية ، ٥٨٠ / ١١٨٤ .

وبالتالي كان لهذه الصحوة للإقتصاد الإسلامي في الغرب آثارها على المدينة وعلى ممارسة الشعائر الدينية ، ما أعطى المدن عددا من أجمل وأفخر مبانيها ، ويدل كل من مسجد تلمسان والكتابية في مراكش ، وبرج حسن في الرباط أو برج جيرالدا المربع في أشبيلية عن تفتح أسلوب جديد وزخارف جديدة (لوحة ١٧ د) تميز

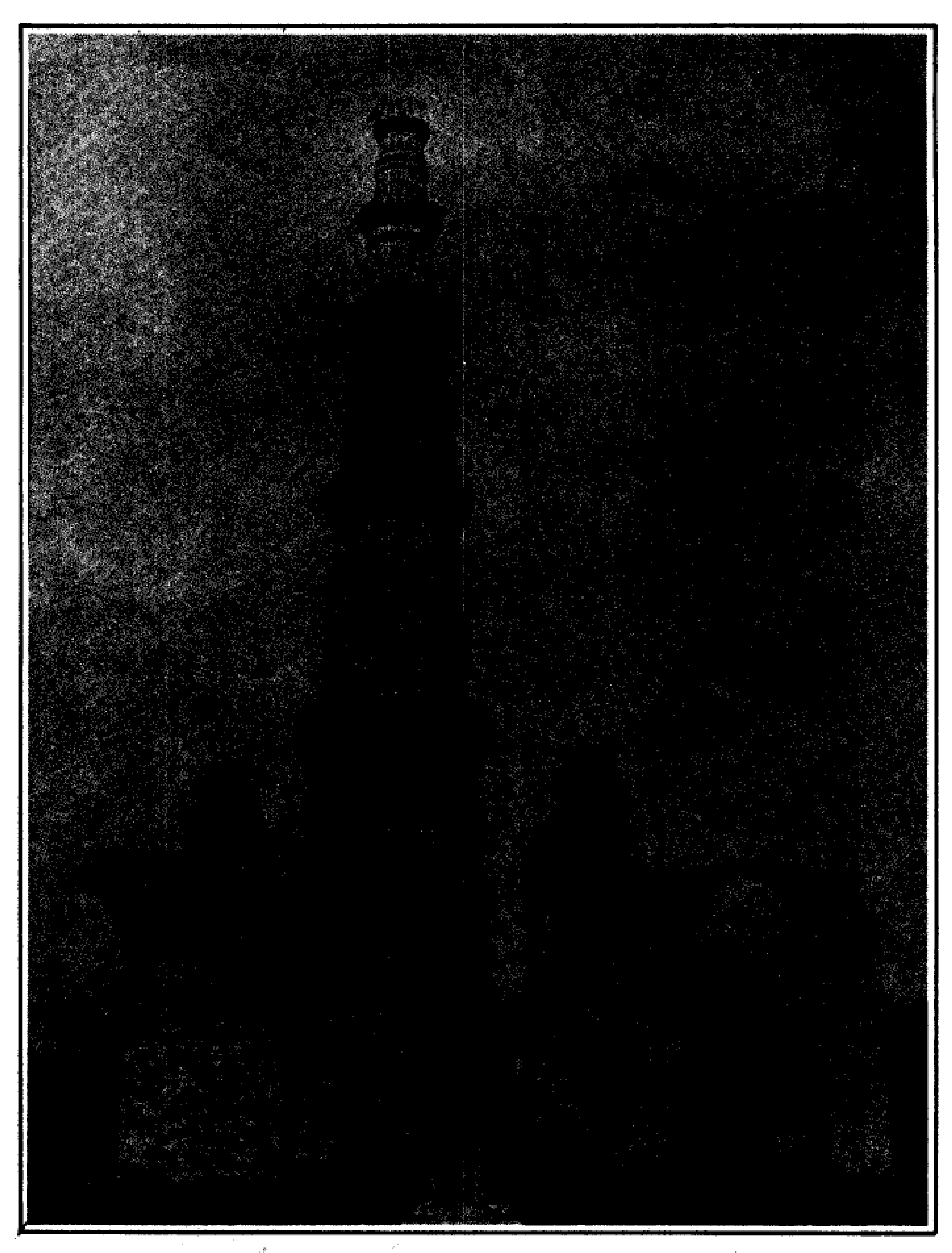


د ـ فن الموحدين : داخل المسجد الكبير في تنمال ، منتصف القرن الثاني عشر .

الغرب الإسلامي إلى الأبد ، كما تدل على التجانس الموفق والقوة الفاتحة ورقة الفكر .

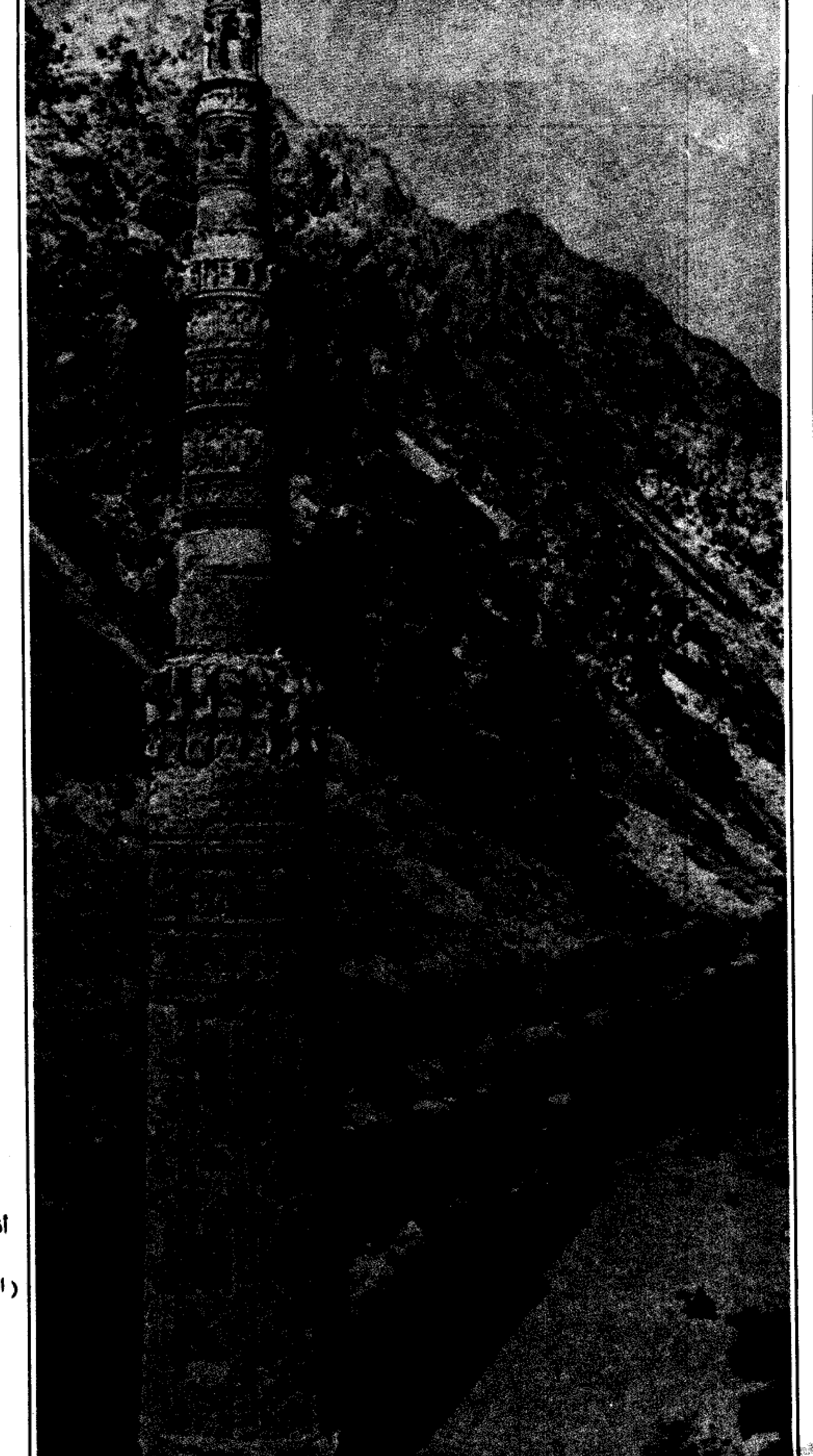
إسبانيا موقع ثقافي : الفلسفة .

إذا كانت إسبانيا من الناحية السياسية قد بدلت سادتها ، فمن الناحية

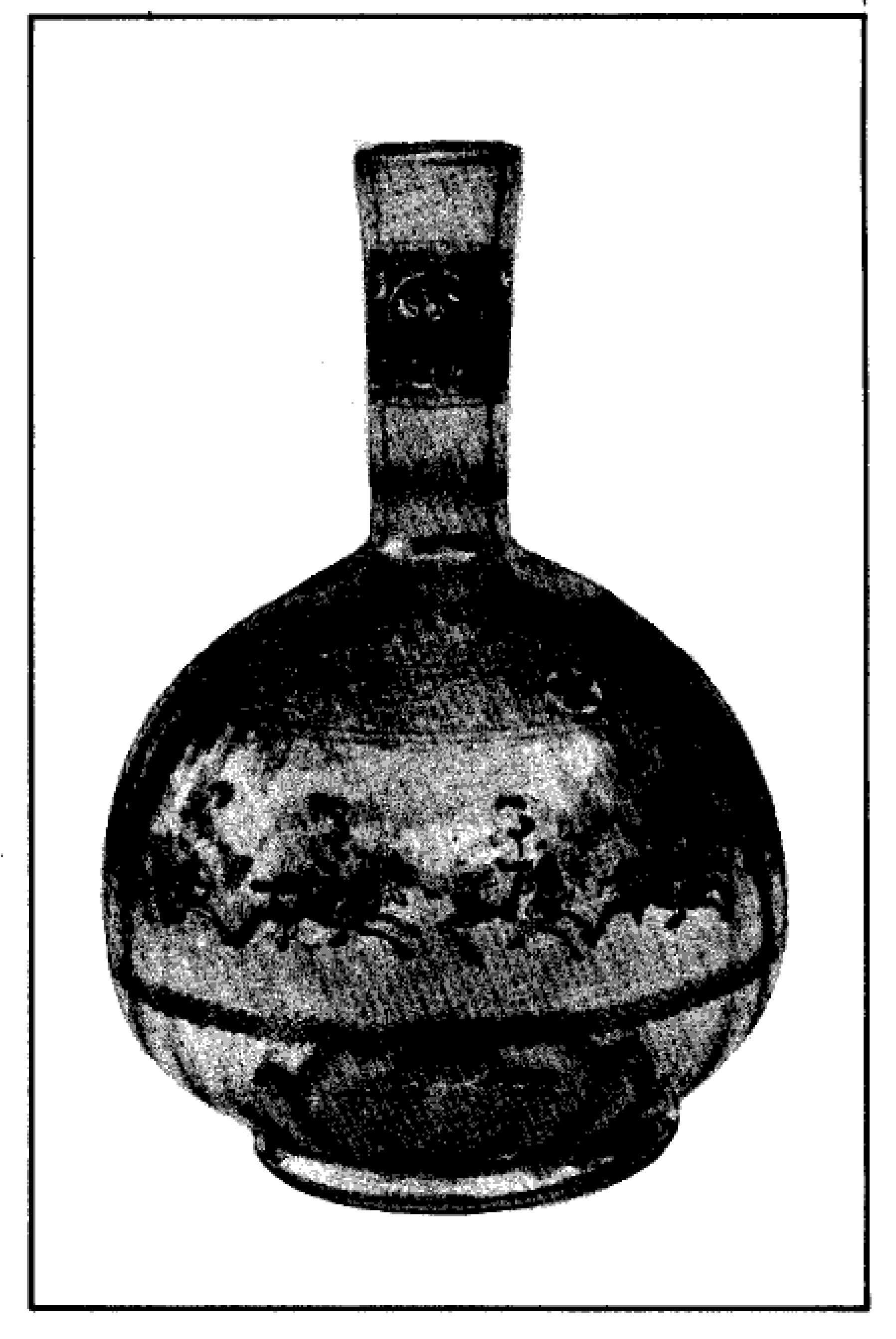


الهند ، منطقة دلهي ، منار قطب (القرن الثالث عشر ـ الرابع عشر) .

الثقافية قد استمرت تغزو غزاتها المتتالين وتنتشر حتى المغرب ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسبانيا تبدو كالوريث المميز للحركة الفكرية الكبرى التي تولدت من قبل في الشرق ، وأتت هنا لتتطور وتنطلق من جديد في أشكال مبتكرة بل ما هو أكثر



أفغانستان : المئذنة
الغورية في جام
(القرن الثاني عشر)



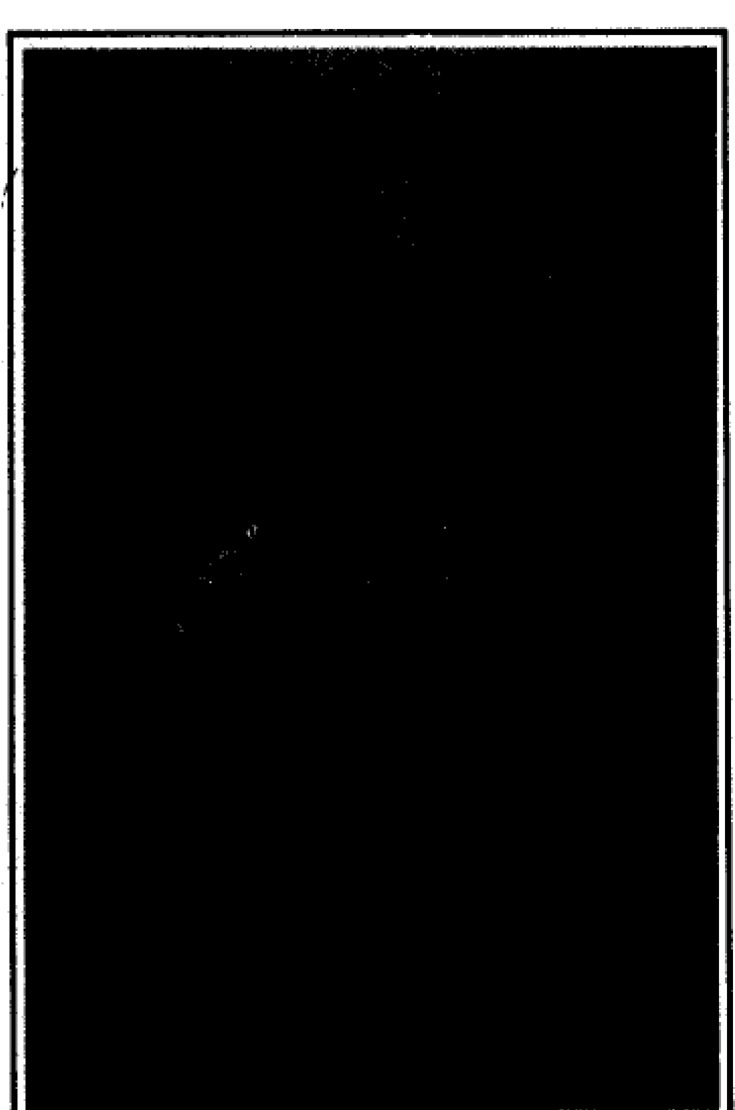
ـ أ ـ فرسان وجياد : التاريخ الشرقي والحركة .
إناء سوري (حلب) القرن الثالث عشر .

من ذلك فقد بدأت في نفس الوقت ازدهارها في صقلية تنقل معرفتها إلى الغرب الذي كان مستعداً لاستقبالها .

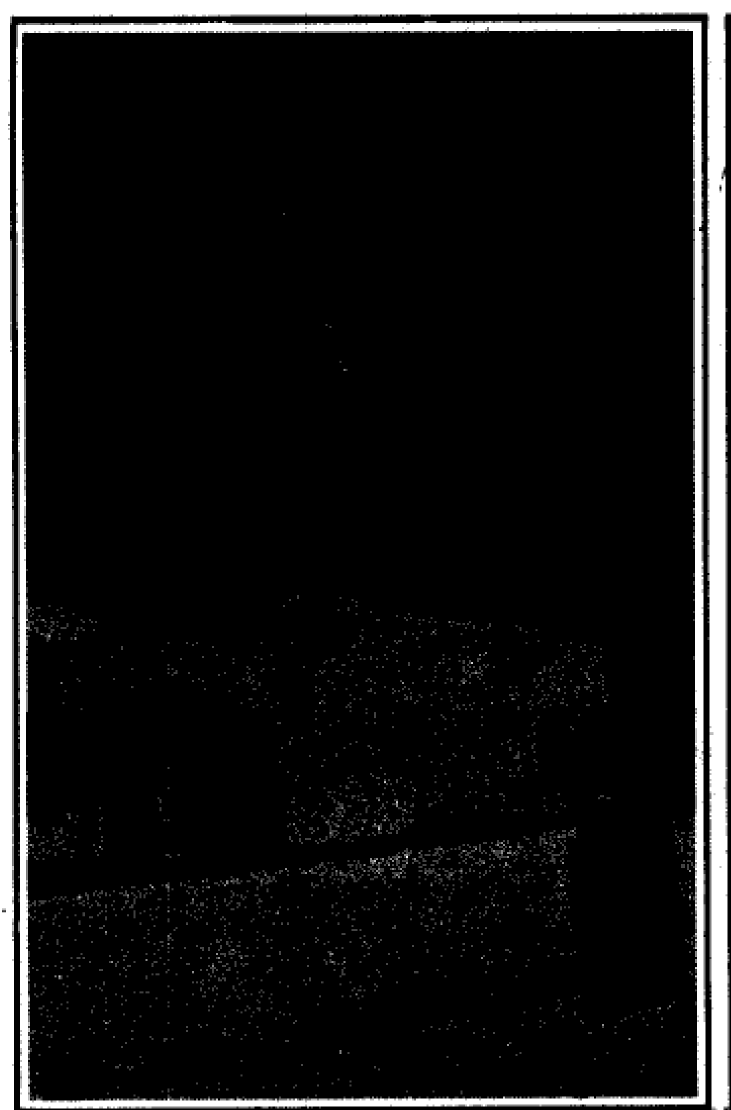
إن هذه الجرأة للفكر المسلم الإسباني والتي أثارت غضب بعض العلماء وإحراق بعض الكتب يتزعمها ابن طفيل ، مؤلف رواية عظيمة تشدو فيها وحدة الفيلسوف وحرية تأملاته ، أما فيما يتعلق بمستقبل الفكر الغربي فالأرسطالية هي التي سوف تتزعم الصدارة بقيادة ابن ماجة وخاصة الميموني اليهودي الذي توفي عام ٦٠١/ ١٢٠٤ في الشرق إلا أنه كان قد أمضى الثلاثين سنة الأولى من عمره في إسبانيا وفي المغرب ، وابن رشد (المتوفي عام ٥٩٥/ ١١٩٨) وكان ابن رشد مفكراً مسلماً ـ قبل كل شيء ـ يهتم بتوفيق تأملاته مع الإسلام ، وعلى الأخص توافق قانونه والمذهب المالكي ، إلا أن الغرب لم يحتفظ من كل هذا الجهد إلا بإمكانية تأسيس الفلسفة في الواقع كنظام يمارس دون أن يمس الإيمان .

إسبانيا موقع ثقافي : العلوم .

نفس التفتح نراه في العلوم التي لم تكتف بتأكيد دورها التقليدي كمناوبة للشرق ، وإنما راحت تطور أشكالها الأصلية ، فعلى حدود الأدب افتتحت الجغرافيا الإسبانية أدب الرحلات مع ابن جبير الذي عرف ازدهاراً واسعا ، أما في



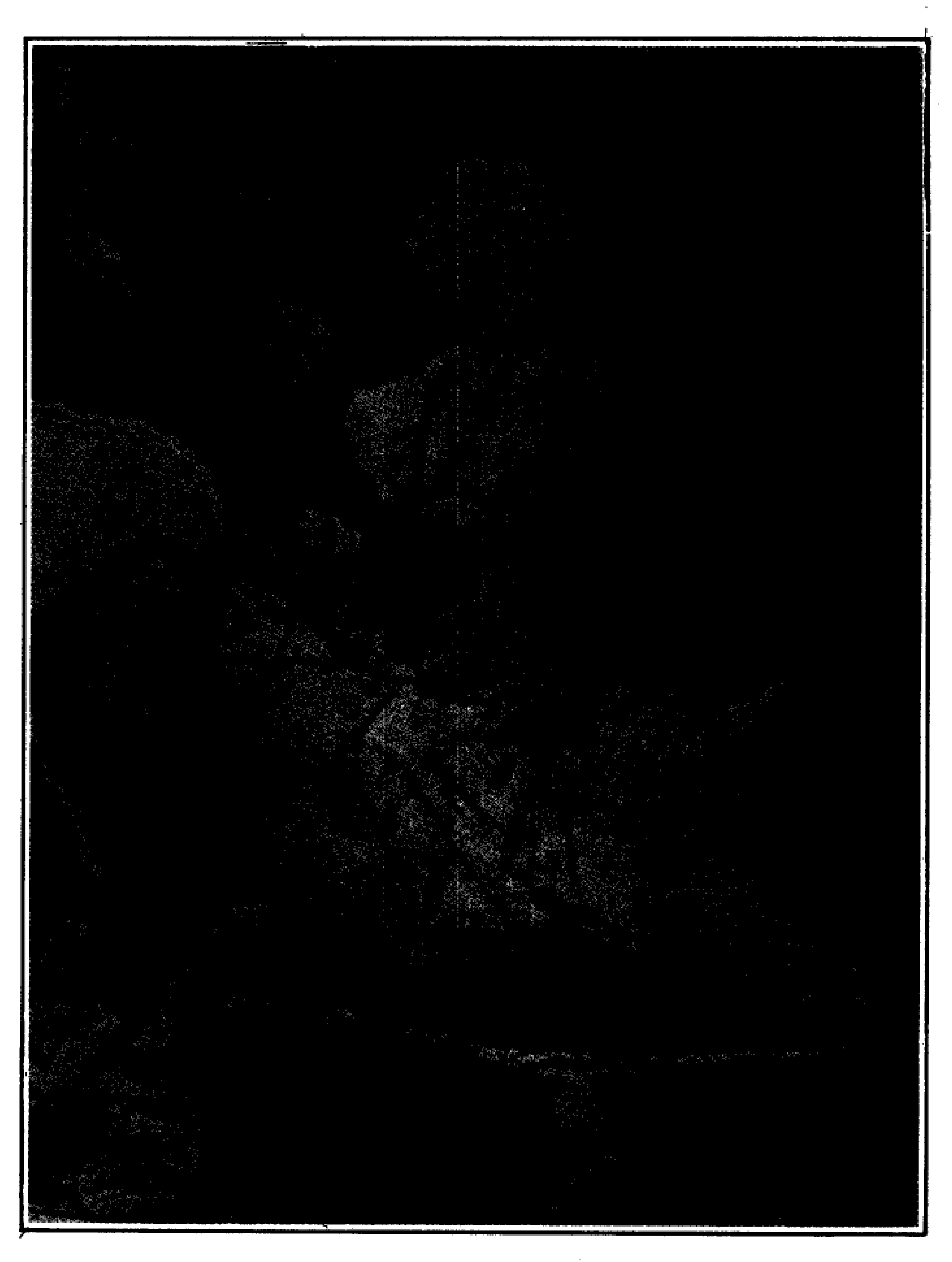
ب ـ مسجد قايتباي ،
القاهرة ، أواخر القرن الخامس عشر .



جـ ـ المئذنة الهرمية
الشكل لمسجد غرداية (جنوب الجزائر) .

الطب ، فإلى جانب الغافقي الذي يعد سباقا في الرمد الحديث لا بد لنا من ذكر ابن زهر (المتوفي عام ٥٥٧ /١١٦٢) فلقد نشأ وسط أسرة واسعة من العلماء لكنه كم كان عظيما . . واستلهم ابن زهر ميراث سابقيه إلا أنه استكمل نظرية الملاحظة التطبيقية واكتشف قرحة التامور والرمد الحبيبي والتغذية الصناعية وبفضل الترجمات العبرية واللاتينية لأعماله أصبح ابن زهر ، إلى جانب ابن سينا ، واحدا من أساتذة الطب الغربي .

أما علم النبات والصيدلة الشديدي الإرتباط فيرجع الفضل في تقدمهما إلى الغافقي ، ولعله كان ابن العالم ابن زهر ، كما يرجع إلى ابن البيطار الذي نشأ في إسبانيا ثم راح يجمع الأعشاب حتى آسيا الصغرى مضاهيا معطيات سابقيه من اليونانيين والعرب بتجربة مادية شديدة الإتساع ، بحيث منحته ـ عند مروره بمصر الأيوبيين ـ اللقب الرسمي « أمير الأعشابيين » .



د ـ فارس مسلم : الحمراء في غرناطة ، قاعة الملوك ، أواخر القرن الرابع عشر .

كما تقدم علم الزراعة بطفرات مدهشة ، ولعل من الأفضل تسميته « موسوعات الإقتصاد الزراعي » وذلك بفضل التقاء التراث القديم للبحر الأبيض المتوسط والشرق ، فلقد قام الأمراء والعلماء بانتزاع العديد من الحدائق من

أراضيهم كما انتزعوا الكتب من قراءاتهم وتجاربهم ، والدليل على ذلك أعمال ابن العوام وخاصة ابن البصال الذي كان أكثرهم واقعية وربما أكثرهم ابتكارا .

وكانوا كلهم يهتمون ويستمتعون بالأبحاث ودراسة الأنواع الجديدة كالأرز وقصب السكر والنخيل ونباتات النسيج أو الصباغة إلى جانب اهتمامهم بنباتات البقول والخضروات المتجهة إلى الغرب وعندئذ ولد نموذج « الحديقة النباتية الملكية » وكان سباقا بخمسة قرون على جنوب أوروبا المسيحية ، إذ أن طليطلة واشبيلية سيكون لهما مثل هذه الحدائق في القرن الخامس / الحادي عشر .

وكما نرى فإن الحدائق تتعلق بالأرستقراطيات سواء كانت إجتماعية أو فكرية ، ولا شك في أن كل هذه الآداب ـ رغم ارتباطها الشديد بالتجربة ـ إلا أنها كثيرا ما تبتعد عن مجال الفلاحين وأيا كان الأمر فعندما سيأتي زمن الترجمات ـ وذلك عقب القرون الوسطى مباشرة ـ فلن تترجم هذه الأعمال إلى اللغة اللاتينية فحسب ، وإنما ستترجم أيضاً إلى اللغة القشتالية الحية .

إسبانيا والغرب : الشعر .

هل يمكننا التحدث عن مواقع إسبانية فيما يتعلق بالشعر . . ؟ ربما أمكن ذلك بقدر ضئيل ، إذ أن مساهمة شبه الجزيرة هنا تتعدى في دورها مجرد نقل أو توسيع معطيات أتتها من الشرق ، لقد سبق إن رأينا أدب الموشحات في أشكاله وفي لغته الأصلية وكم كان هامشيا بالنسبة لتراث الشعر العربي الكلاسيكي ، لقد احتفظ هذا التراث ببريقه أيام فترة المرابطين إلا أنه بدأ يتوارى مع ابن قزمان والعديد من الشعراء الآخرين ، وذلك بظهور شكل جديد من الشعر هو الزجل القريب من لغة العامة والقصص .

ونحن نعرف ذلك الصراع القديم فهل تأثر فن شعرائنا المتجولين بهذا الشعر ؟ إن المشكلة معقدة بعض الشيء وتتداخل مع تأثيرات أخرى أقل وضوحا أو أقل اتساعا وأهمها مشكلة الشعر الغنائي الإسباني العربي أو بعض النماذج الإسلامية من الأغاني ، وفي مجمل الأمر فلا يمكننا اليوم معارضة فكرة إن علم الشعر في إسبانيا الإسلامية وصقلية قد أوحى إلى العالم الغربي باستخدام القافية أو بعض نماذج ترتيب المقاطع وتكوينها ، إن المسألة أكثر حساسية بالنسبة لتداخل

الموضوعات وخاصة موضوعات الحب ، ونفس تسمية شعرائنا المتجولين حيث تشير دراسة حديثة إلى أن اسم الشاعر المتجول (التروبادور) مشتق من اسم عربي يرمز إلى المصاحبة الموسيقية عند القاء الشعر ، وأيا كان الأمر فإن هذه التأثيرات سباقة على فترة شعرائنا المتجولين الذين جمعوا التراث السابق لهم ، وتظل هذه الأشكال الغنائية شكلية وغريبة عن الجذور العميقة والمبتكرة لهذا اللون من الشعر .

بوادر إسلام أفريقيا السوداء .

إن جهود الإسلام الغربي تجاه الشمال لا يمكن أن تنسينا فكرة إن المرابطين قد أسسوا تجاه أفريقيا السوداء أيضاً تراثا توسعيا إسلاميا ، وفي هذا التوسع لم تكن الحرب إلا الشكل الجانبي أو المتقطع ، إذ سبقتها التجارة بشكلها المسالم والدائم قبل أيام المرابطين .

ولا بد من توخي الحذر الشديد عند بداية تاريخ إسلام أفريقيا السوداء ، والذي لا نعرف عنه شيئاً إلا من خلال نصوص عربية تمت كتابتها تحت إملاء المحدثين وليس في موقع الأحداث ، كما إن هناك مشكلة أخرى ترجع إلى عدم وضوح حدود الممالك الأفريقية التي لا يتم تحديدها إلا عن طريق « محدثين متجولين » .

ويمكننا تحديد عدة درجات لبداية الإسلام تحت هذه التحفظات السابقة ، ففي غانا التي هزمت مباشرة بصدمة المرابطين فإن الشعب والملك قد ظلوا وثنيين ، إذ أن الإسلام لم يمس سوى المترجمين وبعض الموظفين ، وهذا التحديد يمكنه أن يعبر ـ على مستوى العاصمة ـ عن انعزال المدينة الملكية عن بقية المدينة الإسلامية بجوامعها الإثني عشر .

والإسلام يتقدم أكثر بالطبع عندما يمس الزعماء وذلك مثلما حدث عند قبائل التكرور في السنغال مثلا ، إذ أن ظاهرة الإسلام لا يبدو أنها تعدت الجماهير في القرن الحادي عشر ، ونفس الموقف نراه في مالي ، أما في مملكة صونغي فلقد توغل الإسلام بين أفراد الشعب بشكل أوسع بفضل الحركة التجارية والتجار المقيمين في جاو ، وهنا لدينا الدليل القاطع ، بفضل شواهد القرن الثاني عشر



ـ ٣ ـ الحياة الإسلامية في القرون الوسطى : حانة ، مخطوط من بداية القرن الثالث عشر .

والثالث عشر ، إن جاو ممثلة كمدينة مزدوجة نصفها الأسود المسلم يحكمه ملك هداه الله .

وإلى الشرق أكثر ، عند كانم بورنو ، في مناطق بحيرة تشاد ، تدلنا بعض

الملامح على أن الإسلام قد توغل بفضل العلاقات التجارية مع تونس وبلدان النيل ومنها مصر ، والدليل على ذلك تلك السفارة المرسلة إلى تونس في منتصف القرن الثالث عشر ، كما ذكر ابن خلدون ، حيث جاءت بحيوان مفاجأة هو : الزراف .

والدليل على ذلك أيضاً المؤرخ المقريزي القائل بأن سكان كانم بورنو أصبحوا ينتمون إلى المذهب المالكي بحماس واضح في القرن الثالث عشر ، وأخيرا بدليل ذلك الزعيم الذي أدى طقوس الحج مرتين ، وفي كل مرة كان يترك ثلاثمائة عبد في القاهرة ، وكل هذه معطيات متفرقة - كما ترى - وشديدة التجزئة ، لكنها تسمح لنا بالتوصل إلى نتيجتين متواضعتين ، بحيث تجعلنا نفترض أن الإسلام مهما توغل فلم يعرف الحيوية الرائعة للقرون التالية ، إلا أن هاتين النتيجتين تلتقيان في نقطة واحدة : إذ نرى من خلالها أن الإسلام قد ساعد على انطلاقة الطبقة الحاكمة ، وثبت خطى الملك ، كما أنه ثبت حدود الدولة وأجهزتها الإدارية وطور المدن التي تمت التبادلات من خلالها ، وهذه الدلائل تكفينا لنعترف بأن حضارة الإسلام تظل مخلصة لميولها حتى ولو تغيرت أجواؤ ها .



الفصل الثاني

مماليك ومغول
من منتصف القرن الثالث عشر
الى فجر القرن الخامس عشر

إن قيام إمبراطورية المغول الشاسعة بين أوروبا الشرقية والصين ليس ملكا للتاريخ الإسلامي بالشكل المفهوم ، بل لقد كاد أن يعرضه للخطر ، وإذا ما استطاع الإسلام أن ينهض من هذه الإنتفاضة الهائلة للتاريخ العالمي بملامح جديدة أحيانا فذلك لا يعني أنه لم يفقد حلم وحدته الكبير إلى الأبد ، إذ وجد نفسه منقسما إلى معسكرين غريبين عن بعضهما ، على جانبي منطقة ما بين النهرين الخربة ، وكلاهما غريب بالنسبة للغرب البعيد والمنعزل سياسيا . ، مما يضطرنا في هذا التاريخ الشاسع أن نشذب وننقص مدى الرؤ ية لنقصرها على البلدان والأحداث التي تهم مستقبل الإسلام ، ومع ذلك فلا يمكننا القيام بهذا العمل إلا بعد تحديد المعطيات المكانية الجديدة لهذا التاريخ باختصار شديد .

١ ـ اختفاء بغداد من التاريخ :

سبق إن رأينا كيف ظلت العاصمة القديمة لما بين النهرين أحد أقطاب الضمير الإسلامي رغم ضعفها ، فلقد انتهت الآن بغداد من الخريطة على الأقل على مستوى طفرات التاريخ .

زمن الغزو المغولي .

لقد تم الغزو الجديد على عدة مراحل ، وفي كل مرحلة كان يهزم جزءاً من الأراضي الإسلامية وكانت أول مرحلة تتمثل في جنكيزخان (المتوفي عام ١٢٢٧)

فلقد جمع شعب المغول وقاده عبر النيران والدماء من شمال الصين إلى القوقاز والفولجا ، ومن بعده أتى أجوداي وتم غزو كوريا وأوروبا الشرقية الهلعة واستمر حتى بولندا والمجر والإدرياتيك ، كما انتزع إيران عام ٦٢٨ / ١٢٣١ من جلال الدين منجبرتي آخر قادة الخوارزميين .

وتزعم قوبيلاي المرحلة الثالثة وتم غزو الصين بأكملها واليابان وجنوب شرق آسيا وبغداد التي دمرها هولاكو شقيق قوبيلاي عام ٦٥٦ /١٢٥٨ (شكل ٤٢) إذ أهلك الخليفة وأهله في مدة أسبوع من القتل والنهب لم يعد بعده أثر لعاصمة الإسلام ، أو لعله لم يعد بعده أثر للإسلام نفسه ، واستمر المغول فاستولوا على دمشق عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ ومن حسن الحظ أن المماليك الذين هرعوا من مصر قد صدوهم خارج البلد ، أما آخر مرحلة ولعلها أكثرها هلعا فكانت بزعامة تيمورلنك فاتجه من أواسط روسيا إلى شمال الهند كما اتجه مرة ثانية إلى سوريا حوالي أعوام ١٣٨٠ ـ ١٤٠٠ ويتتبع المرء ذلك الفاتح على إهرامات من الجماجم التي تحدد معالم طريقة المنتصر .

بلاد الإسلام في مواجهة صدمة المغول . .

إن فكرة أن يأتي أحد المتوحشين المتعطشين إلى الدماء بهذا الشكل على الإسلام بأسره ، أي على حضارته ستظل دائما عالقة بشتى أشكال العار ، ترى كيف تم هذا النجاح الوحشي ولماذا ؟ . لا مجال لإنكار قوة القادة العسكريين الخارقة وقوة احتمال فرقهم بشكل لا يصدق ، بالإضافة إلى تطبيق بعض التكتيكات البدوية المتحركة (لوحة ١٢٠) وإلى حيل المعارك التي سبق للأتراك إن انتصروا بفضلها والتي كان لها نفس أثر المفاجأة على أعداء المغول حينما استخدموها .

ومع ذلك فهذه الأدلة غير حاسمة ، إذ يكفينا ذكر اشتباك بسيط مثلما حدث في عين جالوت حيث انتصر المماليك لكي تهزم أسطورة استحالة قهر المغول ، فمن الأسباب الأساسية لهذه الأسطورة والتي يكمن بها معنى العار ، ذلك الموت الجزافي ، الموت المفرط ، الموت المجنون الذي يجلبه من ورائهم هؤلاء الغزاة الغامضون الذين أتوا من أماكن أبعد من الأتراك ، فالموت وحده هو الذي يمكنه

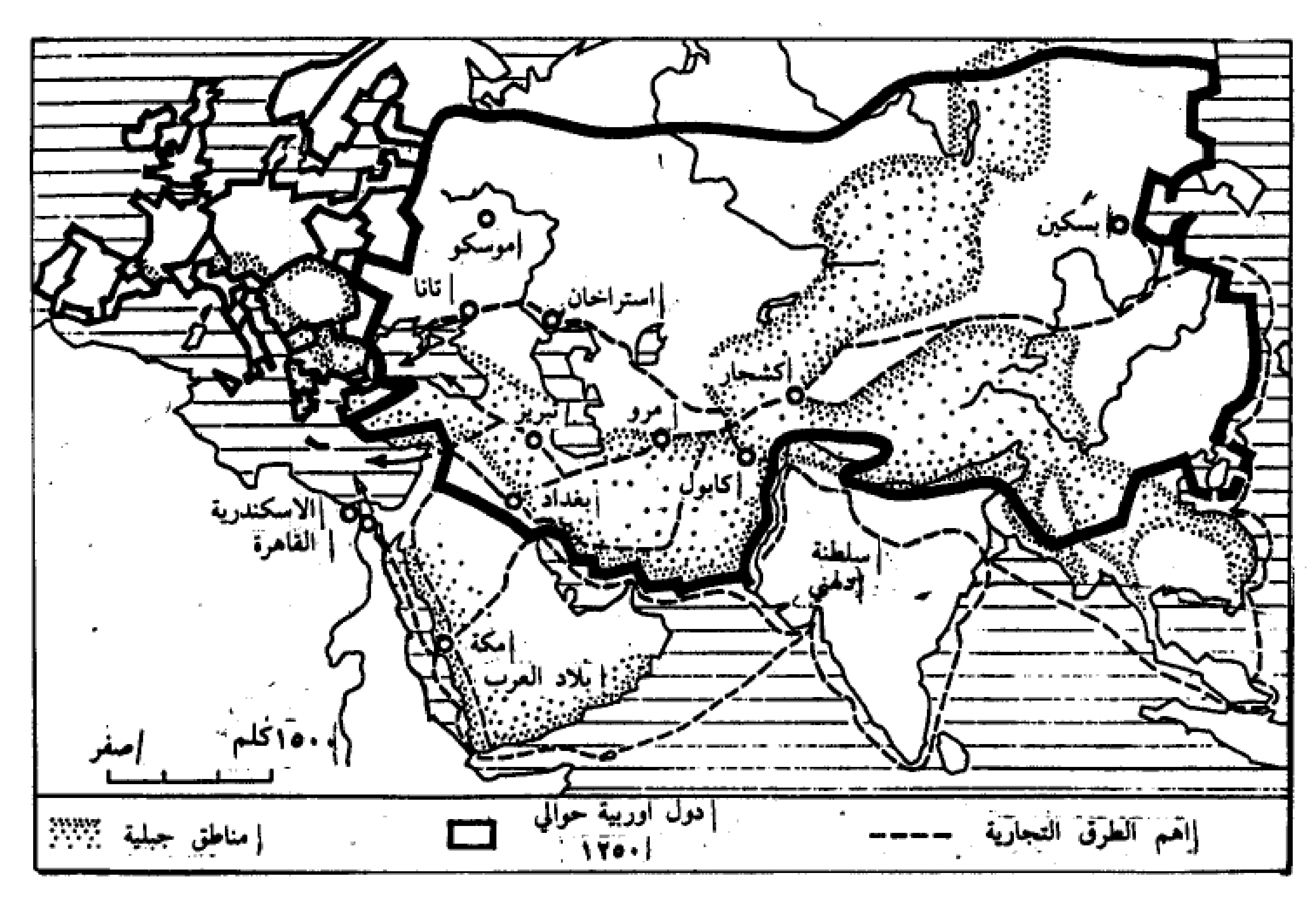
تفسير هلع الشعوب المغزوة واستسلامها آملة بذلك أن تفلت من غضب الغزاة الدمويين .

لكن هذه التفسيرات كلها ليست إلا تفسيرات « أحداث » مثلها مثل مذبحة التجار في آسيا الوسطى التي قام بها الخوارزميون والتي أدت إلى أول غارة قام بها جنكيزخان تجاه البلاد عام ١٢١٩ ، تجاه بلاد الإسلام ، ولا بد لنا من الرجوع إلى أبعد من ذلك وإلى أعمق من ذلك أيضاً ، إلى حالة آسيا بعد حملات الأتراك التي نجم عنها عدة فراغات لا بد من سدها ، وخاصة ما نجم عن غزو الخوارزميين الذي لم يؤد إلى مثلما حدث أيام السلاجقة من خلق دولة أو عدة دول جديرة بهذا الإسم ، وإنما لم ينجم عنها عبر كل الشرق الإسلامي إلا استتباب عدم الإستقرار .

وكان المغول يعرفون ذلك جيدا منذ أيام جنكيزخان الذي لم تكن طموحاته الحربية تخلو من الإهتمامات التجارية ، فمنذ البداية كان طريق الحرير يمثل واحدة « من أكثر اهتمامات الحكم » ، لكن إذا كان محور انطلاقة المغول من الشرق للغرب قد بدأ بأن اختلط مع هذا الطريق فسرعان ما أخذ الغزو يحيد عنه ويتسع إلى ارجاء العالم متجاهلا كافة العقبات إذ كان يعد قادته تدريجيا بامبراطورية عالمية ، لعلها أكبر امبراطورية عرفها التاريخ (خريطة ١٧) .

وما يجب أن نتساءل حوله عند هذه المرحلة بينما نظل داخل نطاق إطار الإسلام هو : لماذا لم يغرق مثل هذا الهجوم كل شيء ؟ لا شك أن كل الإنطلاقات تخمد ، وهذه أيضاً ، فعندما ابتعد توسع الرحل عن قواعدهم وابتعدوا عن سلطاتهم المركزية ليصلوا إلى نقطة إنقسامهم فإن هذا التفتيت وهذا الإنهاك لم يكن إلا أول بوادر للميل إلى الإستقرار ، ولم يستغرق هذا الأمر كثيراً ، فلم يستغرق أكثر من قرنين من الزمان ، من جنكيزخان إلى تيمورلنك .

إن أولى حملات التوسع المغولي على الأراضي الإسلامية لم تبدل الفوضى التقليدية للرحل من الوهلة الأولى فهؤلاء الرحالة الذين يصعب انتزاعهم قد أعاقوا إقامة دولة جديدة وأدوا إلى إعادة إنطلاقة الغزو في شكله الجديد : فلقد انطلق تيمورلنك من منطقة ما وراء النهر ليفرض النظام عن طريق المذابح الشاسعة ، وذلك باستثناء أنه في هذه الآونة قد تغير شيء ما ، إن ما قام به



الخريطة ١٧ - امتداد المغول حوالي ١٢٥٠

الفاتح الجديد نصف التركي ونصف المغولي ، هي حرب جهاد حقيقية باسم الإسلام الشديد « الإعتدال » إسلام توحش مغولي ، إسلام منتصر في نهاية المطاف ، لكن بأي ثمن ؟ إن حملات تيمورلنك لم تؤد إلا إلى زيادة الانفصال بين عالمي الإسلام ، وذلك على تلال من الجثث .

إن نجاح تيمورلنك في الإنتفاع من الإسلام بعد قرن ونصف من الغزو المغولي الأول إنما يدل على القدرات الخارقة لإمكانيات هذا الدين ، وهي قدرات لا تدل على إمكانية إعادة تكوينه بعد كئوس المذابح المحزنة فحسب ، وإنما تدل على إمكانية مقاومته لعدم اكتراث المغول بالمسائل الدينية بل ومقاومة عداء بعضهم الصريح ، إلا أن هذا الإسلام الذي يتعذر اخماده هو إسلام عالم إيران ، عالم تحمل وحده عسكريا وثقافيا ثقل هذا الغزو ثم استقرار وامتصاص المغول ، إن هذا الإسلام ، بانقطاعه عن العرب تقريبا ، سوف يتغذى من داخله ، من هذه الحيوية المستقلة بحيث سيمتص سنية تيمورلنك على المدى البعيد ليطور الأشكال الأصلية للشيعية الوطنية .

مجموعات الأراضي الجديدة .

أيام سيادة الإمبراطور (الخان الأعظم) المقيم في بكين ، كانت أراضي المغول مسندة إلى ممثليه من الأمراء ، الخانات ، إذ كانت الهند وآسيا الصغرى تقع إلى حد ما على هامش هذا النظام .

دول المغول .

إسلام المغول هو أولا إيلخانية فارس التي أسسها هولاكو وحكمها من أذربيجان : من تبريز أولا ثم من مدينة السلطانية الجديدة التي تقع على بعد ثلثمائة كيلومتر في الجنوب الشرقي ، وفي قمة ازدهارها كانت الدولة الإيلخانية تسيطر على أراض تمتد من مشارف السند إلى نهر أموداريا ، ومن الفرات إلى جورجيا ، وتكملها حماية آسيا الصغرى ومملكة أرمينيا الصغرى .

وتجاه آسيا الوسطى كانت تمتد إيلخانية دياغتاي ، من أفغانستان إلى الطاي حيث يقع الطرف الشرق للإيلخانية الثالثة التابعة لكيتشاق المسمى « عشيرة الذهب » ، وكانت العاصمة سراي تقع على جنوب الفولجا ، وكانت في الواقع عاصمتين متتاليتين بنفس الإسم ، كما كانت مقرا لسلطة تغطي في جانبها الغربي مساحة شاسعة تطل عليها اليوم اسم روسيا .

وكان تجميع هذه الإيلخانيات الثلاث لا يمنع الصراع بينها وخاصة بين إيلخانية فارس وإيلخانية « عشيرة الذهب » كما لم يمنع قيام بعض الأسرات الحاكمة سواء كانت مغولية أم لا داخل حدودها وفي ظل الحكم المركزي ، وفي قول آخر فإن مذابح تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر أدت إلى تبسيط خريطة سياسية كان مصيرها التفتت ، وتكونت دولة واسعة تحت سلطة تيمورلنك من عاصمة سمرقند ، لتغطى إيلخانيات فارس القديمة ، وجزءاً من إيلخانية دياغتاي ، إلا أن غزوات تيمورلنك امتدت عبر حدودها لتمس كلا من موسكو ودمشق وآسيا الصغرى والهند

آسيا الوسطى أيام المغول .

إن أيام ما بعد المغول بدأت تتشكل في آسيا الصغرى فلم تجد إيلخانيات

فارس أية صعوبة في فرض حمايتها على دولة سلاجقة الروم التي كانت تتفتت تدريجيا بسبب غزوات عصابات التركمان .

ووجدت منطقة الأناضول نفسها لفترة ما متداخلة في التيارات التجارية للإمبراطورية الجديدة المرتبطة بفارس التي ازدهرت عاداتها كما رأينا أيام سلطنة السلاجقة ، ويعتبر قبر الفارسي جلال الدين الرومي (المتوفي عام ٦٧٢ /١٢٧٣) من أهم الآثار التي تدل على عظمة مدينة قونية ، وكان جلال الدين يتوسط فترتي السلاجقة والمغول ، وقد أعطى أفضل النماذج من الشعر الصوفي باللغة الفارسية كما بدأ تنظيم « الدراويش الجوالة » وهي من أشهر التنظيمات الدينية الجماعية التي عرفتها إيران .

ومع ذلك فقد كان « السلام المغولي » مؤقتا إذ كان الحكام شديدي النهم لثروات البلاد إلى شدة اضطراب التركمان ، فكانت المعارك الداخلية والمؤامرات المحاكة مع مماليك مصر تثير غضب الإيلخانيات التي كانت تفرض إدارتها المالية على البلاد قبل أن تجعل منها مجرد مقاطعة من أراضيها في فجر القرن الرابع عشر إلا أن الوقت قد فات بالنسبة للمغول ولم يتمكنوا من السيطرة على الحدود أمام عداوة الأناضول ، التي كانت تزداد بينما يضعف نفوذ الإيلخانيات إذ كانت فرق جديدة من التركمان تصل باستمرار سواء كان المغول قد طردوها أو احضروها معهم .

وهكذا رأت الأناضول بداية إمارات تتفتح ، وقد مر الرحالة ابن بطوطة ببعضها حوالي عام ٧٣٣ /١٣٣٢ - ١٣٣٣ ، ويذكر المؤرخ اثنتين منها : إمارة الكرمانية التي استقرت منذ أواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب جبال طوروس ، وإمارة العثمانيين الذين تبدأ معهم تركيا الحديثة .

إن تاريخ الأناضول إجمالا وحتى تيمورلنك هو تاريخ توسع أسرتين ، الكرمانية الذين اتجهوا إلى قونية ، والعثمانيين الذين راحوا يغزون شواطىء بحر مرمرة وأزمير واسكيشهر التي أصبحت العاصمة ، وذلك من معقلهم الأساسي في شمال آسيا الوسطى ، وفي اتجاههم إلى أوروبا استمروا في توحيد الأناضول واصبحوا سادة الكرمانية ، وقد أعاد غزو تيمورلنك المنتصر في أنقرة (عام ٨٠٤ /١٤٠٢) أقليمية التركمان ، واثار صحوة الكرمانية ، أي باختصار يبدو

أنه قد عرقل جهود العثمانيين بشكل نهائي ، وسوف نرى فيها بعد عندما نعود إلى بدايات هذه القوة الجديدة أنها لم تتوقف في الواقع إلا فترة قصيرة ـ .

مولد تركيا .

لنتوقف حاليا عند حدث هام : فمن خلال فترة التحرك المغولي الطويلة والصعبة ، التي حلت محل تركيا الأولى التابعة للسلاجقة ، ولدت تركيا جديدة : هي تركيا الأتراك الحقيقية ، وبدأت تتشكل دولة موحدة أو على الأقل تراث وطني في الأناضول حيث ستعود الأمة التركية دائما لتنغمر في منابع تاريخها .

وبدأت اللغة التركية تستخدم في الإدارة الداخلية للإمارات ، وخاصة إمارات الكرمانية ، جنبا إلى جنب مع اللغتين الفارسية والعربية ، فاللغة العربية كانت تعتبر لغة الدين وبعض العلاقات الدبلوماسية ، كما استخدمت اللغة التركية أيضاً في القصص الغنائية ، وقد نسجت أسطورة دانشمند حول أواخر السلاجقة ، أما في القرن الرابع عشر فستستخدم اللغة التركية في الشعر الأصيل ، شعر الأحمدي (المتوفي عام ٨١٥ /١٤١٣) .

إن ما يلفت النظر في الحركة الأدبية للقرنين الثالث عشر والرابع عشر هو صلتها الوثيقة بالشعب بفضل اللغة أولا ، سواء كانت مستقاة من منابع حيوية أم لا ، مثل اللغة العربية كمصطلح علمي أو جاهلي والتي تعتبر نموذج المثقفين والندوات الأدبية .

وكانت الصلة وثيقة أيضاً في اختيار الموضوعات ، وذلك في القصص وأدب الحجاج ، والشعر المعتمد على قواف بسيطة وكلها موضوعات تعبر عن هذا التقارب حتى التصوف قد ساهم في التعبير عن القاعدة الشعبية ، فإلى جانب محاولة الدراويش بدأت تتكون تنظيمات البكتاشية وهم أكثر تفتحا على مظاهر الوحدة الدينية الشعبية التي لم تنفصل لا عن الشيعية ولا حتى عن بعض الذكريات المسيحية .

وهذه الحركات كانت تغذي تيارا قويا من الشعر الذي يتقارب بصورة أو بأخرى من التعبير الشعبي إلا أنه كان يتداول في كل الأوساط ، ويتألق التراث باسم أحمد يسوي ، صوفي تركستان (القرن الثاني عشر) واحد مؤسسي الشعر

الشعبي باللغة التركية ، وكذلك اسم يونس عمرا (القرن الثالث عشر - الرابع عشر) ، أما عشيرة الحروفية فستجد شاعرها في نسيمي (المتوفي عام ١٢١٧ - ١٢١٨) وكانت ثقافته ثلاثية المنبع : فارسية وعربية وتركية ، كما عرفت أشعاره المتنقلة في مختلف البلدان نجاحا فائقا .

هل سيقول المرء إن هذا الأدب يستخدم عدة لهجات . . ؟ ، لا شك في ذلك إلا أن هذه التنويعات الثانوية أو المتعلقة بالأجرومية لا يبدو أنها أعاقت إمكانية تعبير الشعب التركي منذ هذه الفترة . أيا كان الأمر فلقد اختفى العديد من هذه الفوارق في اللغة المكتوبة ، وكان الخط العربي الذي لا يعبر عن كل صوتيات اللغة التركية يؤدي إلى نوع من التأرجح في الكتابة إلا أن مجمل المجال التركي في الأناضول كان يتجه إلى تجميعات غير مصطنعة تبعا لسياسة العثمانيين ورغم كل مصاعب التوحيد فقد استطاعت اللغة التركية أن تجد معيارها الفني للتحدث والكتابة ، كما يجب من خلال الذوق العثماني ، لكن . . . ترى هل كان صدفة عندما راح تاريخ هذا الأدب العثماني - أو بتعبير آخر العثمانلي - يبحث عن أصله في هذا القرن الثالث عشر الذي عاصر بداياته المتواضعة ؟

الهند والتوسع الإسلامي .

سواء كانت الهند تابعة للأفغان أو للأتراك الذين دافعوا عنها بنجاح ضد الغزو المغولي فهي تبدو وكأنها تعيش على هامش الإسلام ، ومع ذلك فيجب ألا ننساق إلى نظرة مبسطة للأمور فالهند وحدها عبارة عن عالم إسلامي معقد التركيب وفي نفس اتساع جارتها في الشمال الغربي .

فتح داخلي وانطلاق مغولي .

رغم عدم استقرار السلطة المركزية أو الأقليمية فإن الإسلام ظل يواصل توسعه هازما أمراء السند ومقاوما ضغوط المغول عند الحدود ، ولنذكر أهم كبار الزعماء لسلطنة دلهى حيث كانت تنطلق منها دفعات الفتح الأساسية ، وهم شمس الدين الطميش (المتوفي عام ٦٣٣ / ١٢٣٦) ، وعلاء الدين خالجي (٧١٥ / ١٣١٥) ومحمد بن طغلق (٧٥٢ / ١٣٥١) وامتد الإسلام بفضل أسراتهم الحاكمة أو دعم سلطاته مباشرة على شمال البلاد عند جبال ونديا ووادي

الكنج والبنغال كما واصل غزواته إلى الحدود الجنوبية لشبه الجزيرة فارضا حمايته على أغلبية منطقة هضبة الدكن ، ولقد أقر ابن بطوطة الذي ذهب تقريبا إلى كل مكان ، الإزدهار الحقيقي الإمبراطوري لسلطنة دلهى وذلك عام ٧٣٤ /١٣٣٣ .

وبدأت الحروب الداخلية ومقاومات أمراء السند تمزق تلك السلطنة الضخمة وتلك السلطة شديدة الإتساع ، وهنا أيضاً ظهر تيمورلنك وسط عالم يتجه إلى الفوضى ، وقد أتى من المداخل التقليدية للشمال الغربي ونهب دلهى عام ٨٠١ /١٣٩٨ ثم عاد محملا بالغنائم تاركا لقادته ذلك البلد وقد تضاعفت فوضاه .

الهند والإسلام وجها لوجه .

إن استقرار سلطة إسلامية على جزء كبير من القارة الهندية يعني أولا استقرار طبقة حاكمة وكانت هذه الطبقة تتكون من بعض سلالة الفاتحين العرب والأتراك والأفغان وبعض سكان السند الذين دخلوا الإسلام حديثا والذين وصلوا أحيانا إلى أوائل الصفوف الإدارية .

وتحت صدمة الإسلام راحت جماهير الشعب المطحونة من البؤس والمذابح تلجأ إلى القيم الوطنية الهندية ، فاتجهت إلى الهندوسية التي راحت تسيطر على معظم البلاد عند فجر سلطنة دلهى وهي ديانة موحدة شاملة ، وملجأ لكل الشعب ، كما كانت طموحة وتزداد انغلاقا ، لكنها كانت شديدة المقاومة بل ومنتصرة ، فقد امتصت البوذية أو نبذتها ، وطردتها حتى معقلها في البنغال ، مما أدى إلى خلق فراغات ومآس سوف ينتهز الإسلام الفرصة لملئها ، ولقد كان لحركات الإضطهاد ضد البوذية وخاصة الحركات الأخيرة في القرن الثاني عشر أثرها الحاسم في استقرار الإسلام في البنغال البعيد عن المقر التقليدي للهند الإسلامية (وادي السند والبنجاب) ومنذ ذلك الوقت بدأت ترتسم حول محوري الشمال الغربي والشمال الشرقي الدولة التي سيصبح اسمها في القرن العشرين : الباكستان .

كما بدأت ملامح التجارة ترتسم أيضاً بعيدا عن المواجهات المسلحة ، وهنا أيضاً يرجع الفضل للسنية في تجميع المقاومة الإسلامية في مواجهة المغول : العدو



ـ شكل ٤٢ ـ استيلاء المغول على بغداد ، وفقا

الخارجي ، إلا أن هذا المزج في الإسلام الهندي ـ باستثناء قلة من الشيعة ـ لم يمنعه



لأحدى المنمنمات الفارسية من بداية القرن الرابع عشر .

من أن يتفتح لبعض التأثيرات المحلية التي ستعطيه بعض الملامح المبتكرة داخل

الأسرة الإسلامية ، وكل ذلك بالطبع لن يتحدد إلا فيها بعد ورغم المقاومة الهندية ، مثلما ستنعكس بعض تأثيرات الإسلام على عادات البلاد ، ومن المعروف أن سلطنة دلهى هي التي بدأت مجال الحوار بين الهند والإسلام .

أساليب غربية وعادات محلية .

إن علاقات السلاطين بالبلدان التي يحكمونها تعد اقتصادية وسياسية أكثر منها دينية وكأنها علاقات بين سادة وعبيد ، فمن جهة نرى البذخ الذي لا مثيل له في دلهى وفي عواصم المقاطعات ومن جهة أخرى نرى الجماهير التي سبق وتحدثنا عنها وعن حالتها ، وظلت الإدارة تعني بالنسبة للحكام المسلمين امتصاص الحد الأقصى من موارد الطبقات المنتجة الشعبية .

هل كانت هذه عبارة عن عادات محلية أو مستوردة من الغرب . . ؟ إن النقاش لم ينته ولا شك أن الواقع يجمع بين الأمرين معا ، إن عادة الضغط على طبقة الفلاحين والحرفيين وتفضيل الإدارة المباشرة للبلدان المهزومة لصالح سلطة تفرض رقابتها على الضرائب والقوى الحربية تعد من الملامح العامة للنظام الإيراني التركي ، مثل نظام الهند قبل فترة السلطنة ، إلا أن بعض الأساليب الإدارية مثل نظام الإقطاع بشكليه ، سواء كان هبة للأراضي أو منحة أو جباية للضرائب ، فإن ذلك يدل على تأثير قادم من الغرب .

وهناك تجاور فيما يتعلق بالشعوب : فباستثناء الأرستقراطية الحربية التركية الأفغانية فإن الإيرانيين الذين طردهم الغزو المغولي قد أتوا من الغرب ، إلا أن هذه الحركة ـ حتى وإن كانت قوية ومستمرة ـ فإنها لا تمس قواعد الشعب الهندي بقدر مساسها بعدة فئات إجتماعية حرفية وسيمكن لهذه الحركة أيضاً تدعيم بعض العادات الثقافية : إنها الفترة التي ازدهر فيها الشعر الغنائي أو التاريخي باللغة الفارسية لأميري خسرو (المتوفي عام ٧٢٥ / ١٣٢٥) لكن التأثير الإيراني لن يمس كل المجالات ومنها الهندسة المعمارية التي ستظل سطحية في أيدي الحرفيين في دلهى والذين سيتشكل أسلوب العاصمة على أيديهم متأثرا بعادات المقاطعات حتى هضبة الدكن .

٢ ـ الإسلام المغولي :

هل يمكننا التحدث عن إسلام مغولي ؟ . . . ربما أمكن ذلك بصعوبة ما

لأن العقيدة الإسلامية لم تكن بالنسبة للسادة الجدد إلا دينا ضمن بقية الأديان ، إلا أن الإسلام ـ على المدى الطويل ـ لم يقاوم على أراضيه التقليدية فحسب وإنما راح ينتهز فرصة إنطلاقة الرحالة حتى يكتسب المزيد من الأراضي من أجل انتصاره النهائي حتى وإن أدى ذلك إلى تطوره في بعض الأماكن أو حول بعض النقاط ، وفي الواقع لا يمكن إدانة الإسلام كدين في حد ذاته ، فالحضارة التي يساندها ويعطيها اسمه قد تطورت هي أيضاً من جراء الملاحم المغولية .

هل الإسلام في خطر ؟

إن المخاطر التي تم اجتيازها كانت مهولة حقا ، فلم يكن الفاتحون يشعرون بأي ميل تجاه الإسلام ـ وذلك أقل ما يمكننا قوله ـ كما إن المذابح كانت تأتي على العديد من اتباع الإسلام ، وكانت كافية لتمحوهم من هذه المنطقة أو تلك ، إلا أن ما أنقذ الإسلام ـ بعد زوال وقع الصدمة ـ هو نفس موقف الغزاة في المسائل الدينية ، فلو أنهم كانوا قد جاؤا معهم بعقيدة أخرى ليفرضوها بالرعب والسلاح ، إذن لتغير مصير الإسلام في الشرق .

المقاومة في البلدان القديمة .

من حسن الحظ بالنسبة للإسلام أنه سينتهز فرصة موقف المغول من الناحية الدينية ، ترى هل كان تسامحا منهم أم كان عدم اكتراث . . ؟ لعل شدة اهتمامهم بالناحية السياسية هي التي جعلتهم يفضلون مسائل الإمبراطورية على الأغراض الدينية ، وأملت عليهم موقفهم تجاه العقائد والنتائج التي كانوا يتوقعونها منها سواء كانت مخاطر أو حياداً .

وعلى عكس ما حدث في الصين حيث وجد المغول أنفسهم أمام ثلاث ديانات مختلفة وأساسية فإن الموقف غربا كان أكثر بساطة ، وعندما لم يتمكنوا من حصر الإسلام ، كان عليهم أن يقبلوا به خاصة وأنه لم تكن هناك أية عقيدة يمكنها أن تنازعه مكانته كدين جماهيري ، وفي سبيل حكم البلاد كان عليهم إذن أن يمروا من خلاله أو يهاونوا معه ، وبقول آخر كان إما الإسلام أو لا شيء .

ولعل البعض سيقول إن دخول المغول في الإسلام قد بدأ منذ أواخر القرن الثالث عشر وقد ساعدهم على ذلك مثل سابقيهم وأقربائهم التركمان ، ربما كان

الأمر كذلك لكنه يظل تفسيرا ثانويا ، يمس أساليب أو كيفية دخول الإسلام وليس أسبابه الأخيرة ، وأعني بذلك ثقل الإسلام نفسه وتأثيره على الواقعية السياسية للغزاة .

ولا يجب أن نخدع من ازدهار النسطورية في مجال المغول وفارس والصين ، ولا بعثات الفرنسيسكان التي تعبرها ولا الأحلام السياسية والسفارات المتبادلة بين الغرب و « مملكة القديس يوحنا » فكلها ظواهر سطحية ومحاولات سياسية بلا جذور عميقة ، ومثلما مر المغول على الصين دون انتزاع ديانتها العتيقة الوطنية فإن الإسلام قد استفاد من الفتح وذلك بفضل الوجوه الجديدة التي اتخذها والأراضي الجديدة التي اكتسبها .

السنية والشيعية .

عندما دخل المغول الإسلام فإنهم لم يختاروا صراحة بين أحد اتجاهاته ، فبتعبير أدق : بعد دخول الخليفة السادس لهولاكو وكان اسمه غازان (٦٩٤ / ١٢٩٥ - ٧٠٣ / ١٣٠٤) راحت كل إيلخانية تختار المذهب الذي يساعدها أكثر على تنفيذ أغراضها السياسية سواء كان في الداخل أو في الخارج وخاصة فيما يتعلق بالمعنى المحدد للعلاقات مع مماليك مصر السنيين ، وفي الفترات النادرة التي كانت فيها الإيلخانيات تريد تخفيف الحدة في علاقاتها مع مصر ، كانت تعلن انتماءها إلى السنية وتخفض من وهج الشيعية ، ومع ذلك فقد كانوا شديدي الحرص على عدم إعاقة هذه العلاقات مدركين أن الجانب المسيطر على العلاقات بين المماليك وبينهم هو العداء ، لذلك لم يكن خلاصهم يكمن إلا في الشيعية فراحوا يحمونها ويعلنون تفضيلهم لها كما كانوا أحيانا يعلنون عنها كعقيدة رسمية .

لكن أي مذهب شيعي . . ؟ إذ أن الإعتبارات الداخلية هي التي تلعب الدور الأساسي هنا ، فلم يتمكن المغول من تجاهل مخاطر بعض أشكال المذهب الإسماعيلي على أمن دولتهم ، وقد حددوا فيما بعد تفضيلهم الديني ، وهنا لا بد لنا من أن نقول كلمة عن طائفة الحشاشين .

من المشكوك فيه أنه يجب علينا تصديق تعبير كلمة « الحشاشين » التي يعنون

بها طائفة الإسماعيلية المتطرفين ، وكان لقبهم الحقيقي هو « النزارية » وليست هذه الكلمة أكثر من نسبة لا تعني حقيقة أنهم كانوا غارقين في الهلوسة من تعاطي « الحشيش » القنب الهندي ، أما ما هو مؤكد فهو أنهم طائفة قوية أسسها حسن الصباح واستقرت عام ٤٨٣ /١٠٩٠ في معقله بقلب البورز من حيث ستنطلق متحدية السلاجقة بنسجها خيوط المؤامرات والرعب من سوريا إلى فارس ويتضمن جدول القتلة المتعطشين للدماء اسمين من الخلفاء إلى جانب اسم نظام الملك ، وفي الواقع ليست المخدرات هي التي تسببت لهم في هذا الإسم ، وإنما رائحة الدماء المسفوكة هي التي أدت إليه وقد حرف في الفرنسية إلى كلمة « السفاحين » .

عندما استولى المغول على عاصمة البورز عام ٦٥٤ /١٢٥٦ وتفتت قوة الإسماعيليين فإن الأمامية الإثنا عشرية هي التي استفادت من سياسة إيلخانية فارس ، وحينما قام خودابندة (٧٠٣ / ١٣٠٤ - ٧١٦ / ١٣١٦) بإعلان ذلك رسميا - حتى وإن ظل ذلك الحدث كواقعة منعزلة في تاريخ المغول من الناحية السياسية - فكأنه يشير بذلك إلى الدلائل العميقة لاتفاق الإيلخانية على التوسع المذهبي الشعبي للشيعة الأمامية ، ومما يدل على ذلك أيضاً مساندتهم لناصر الدين الطوسي العلامة الكبير وفقيه الإثنا عشريين ، وإذا كان تيمورلنك السني قد استطاع اجتياز هذا الوضع بلا مشاكل فذلك يرجع إلى أن الشيعية في إيران والعراق « قد اتخذت دفعة جديدة » (بدليل أن إخوان الصفا الذين أتوا بعده بقرن تقريبا - وقد عاصروا المغول في بداية ظهورهم - اعتمدوا على نفس هذه العقيدة الإثنى عشرية ليجعلوا منها المذهب الرسمي لفارس التي وحدوها) ، وقد أدى ذلك إلى زيادة الإنفصال بين هذا العالم وعالم الإسلام على الجانب الآخر من ما بين النهرين ، لأن الإنطلاقة الشيعية التي بدأت قبل فترة المغول الذين أكدوها وجعلها إخوان الصفا المذهب الرسمي ، قد أفردت لإيران مكانة على حدة ، في حين بدأت تتجه تدريجياً ناحية الغرب لتترك الأرض في مصر للسنية ، لتصبح سنية منتصرة وشبه مطلقة .

على خطى المغول : من روسيا إلى الصين .

إن غزو المغول لم يعق الطرق التي تم تخطيطها ، على الأقل منذ أيام

السامانيين ، للتوسع الإسلامي داخل آسيا ، كما لم يعق الإسلام في مقره ، وهنا أيضاً اعتمد المغول على الإسلام من أجل غايتهم السياسية لكي يسيطروا على شعوب كانت تجهله أو ترفض الدخول فيه ، وتلك كانت الحال في روسيا ، ومن المؤكد أن حدود روسيا الإسلامية المقبلة في آسيا بدأت تتحدد في تلك الفترة من بحر قزوين إلى جبال الطاي .

أما الموقف في الصين فكان يختلف ، فهنا لم يكن الإسلام دين الشعب الفاتح ، وإنما كان دينا إلى جانب البوذية والمسيحية وبعض العقائد الأخرى ، فكان يمثل جماعة من بين الجماعات التي تتقبلها الإيلخانيات وتعطيها كيانها ، وكان الإسلام في الصين منتشرا بين التجار المجتمعين في شكل رابطة ويقرضون بفائدة ، ويحكمون الموانىء والأنهار الكبرى حيث كان المرور عليها ينشط بنفس نسبة الإحتياجات الضخمة للإمبراطورية الشاسعة الموحدة المستقرة والتي كانت تحرك التجارة الكبرى البعيدة عنها .

ونرى نفس الأسباب ونفس النتائج على هضاب آسيا الوسطى ، إلا أن الإسلام الذي وصل إلى هنا من ناحية الصين كان ينتمي إلى الموظفين الإيرانيين الذين استدعاهم الخان قوبيلاي لإدارة البلاد إلا أنه لا يمكننا إنكار الدور الفعال للتجار أيضاً في هذا التوسع ، ويجب ألا نقلل من شأن هذا التأثير الذي كان قويا بالنسبة لبعض الأوساط الإسلامية المحلية التي راحت تستخدم تعبيرات تخللتها وتداخلت فيها الفارسية بشكل واضح .

وأخيرا فقد كانت هناك بعض المواقف المناضلة أو العسكرية لبعض نبلاء الإمبراطورية من حكام المقاطعات والذين كان تأثيرهم قويا في بعض الأقطار ، وذلك مثل كل من يونان وشنسي وكانسو إن هذه الجهود تظل زهيدة بالنسبة للصين الشاسعة ، إلا أن هذه الجهود الزهيدة في مثل هذا المحيط المترامي من البشر كان يعني بضعة ملايين من الأفراد .

الدولة ورئيسها .

ترى هل كانت عادات المجتمع الإسلامي أم عادات آسيا الوسطى هي السائدة . . ؟ ، بخلاف بعض الأشكال الخارجية للحكم ، فإن الإدارة المغولية



ـ شكل ٤٣ ـ مجمع أمراء « كوريلتاي » وجنكيزخان ، منمنمة فارسية من القرن الرابع عشر .

كانت تعتمد في الواقع على الإتجاهين ، لكن ربما كانت الأفضلية لصالح الإتجاه الأول ، أعني عادات المجتمع الإسلامي ، أما الإنقلاب الكبير فقد وقع في نفس نظرية السلطة ، أي إنهيار الخلافة ذاتها وليس إنهيار بعض أشكال إدارتها .

الإسلام بلا رأس . . .

لقد رأينا كم كانت الخلافة منبعا للوحدة وتأكيداً لمستقبل الإسلام رغم

ضعفها ، والآن . . . لم تعد هناك خلافة ، إلا أن المماليك سوف يمنحون هذا اللقب « للدمى العباسية » من بقايا الخلفاء الهاربين من مذابح بغداد حينما سيستضيفونهم في القاهرة ، إلا أن الإسلام لن يصدق أن لهم نفوذا بعد الآن .

من ذا الذي يمكنه معرفة حقيقة إصداء تلك الأحداث في أعماق الضمير الإسلامي من أدنى أطراف الإسلام إلى أقصاها ؟ لا شك أن الصدمة كانت فظيعة ، وإن طاقة الأمة قد تحطمت لفترة ما ، ومهما ظل لحن الخلافة وحلمها حين تبعث من جديد قويا في أذهان الفقهاء والمصلحين إلا أن جماهير المؤمنين كانت تعلم تماما أنها تعيش بلا خليفة أو بقول آخر أنها تعيش في مهب الريح .

ولم يبال المغول من هذا الحنين فقد كانوا ثابتين على أهداف سحيقة في القدم ، وحينما كانوا يختارون دينا لتبرير غاياتهم فإنهم كانوا يرجعونه إلى القوى الآلهية ، وكذلك كان موقف غازان الذي عيّن نفسه حاكما « بقوة السماء » ، إلا أن هذه التسمية لم تخدع الإسلام ولم تجعله ينسى أن هذه السلطة ـ على عكس سلطة الخليفة ـ لم تكن تستند في مبادئها إلا على نفسها .

ولقد كانت هذه الإهتمامات ثانوية في نظر المغول ، ولو كان الأمر غير ذلك لاصطدم المغول بمذهب الإسلام وقلبه الذي لم يألف بسهولة سقوط خليفته ولا بربرية الغزاة ولا تدنيسهم للديانات الأجنبية ، إن إعادة بعث هذه الأمة روحيا ظل مسألة مستحيلة بالنسبة لهؤلاء المغول الذين حطموا روحها ، كما أنهم كانوا غير مكترثين بهذا الأحياء .

الإدارة : ميراث وتجديدات .

لقد تطور المفهوم المغولي للدولة منذ كانوا قوما رحلا حتى تكوين امبراطوريتهم في بكين إلا أنهم احتفظوا ببعض السمات والمصطلحات لنظامهم العشائري القديم ، وأصبحت البلاد الخاضعة لسيطرتهم عبارة عن بوتقات تنصهر فيها أنواع مختلفة من التراث تطمس معالمها ، وقد كان للإسلام نصيبه في آسيا الوسطى والصين ، ذلك النصيب الذي أضافة إلى ميراثه الإيراني أو الإيراني التركي .

ولنكتف ببعض الأمثلة ، فمن العادات المغولية اعتبار الأرض كتراث جماعي نظريا ، فهي ملك لعشيرة الدولة الحاكمة ، ومن عاداتهم اختيار مجمع

الأمراء للزعيم (شكل ٤٣) ، وبعض الصفات أو العلامات مثل اللوحة المعدنية التي تشير إلى السلطة الرسمية ـ وهي أكثر الشارات انتشارا وأحدثها ، بل وأكثرها لفتا للنظر ، أما بعض العادات الصينية فكانت تتمثل في نظام الضرائب ، وفي محاولة فاشلة لإصدار عملة ورقية .

وكانت المحاولات أقل وضوحا في بعض المجالات الأخرى ، وربما اتقن نظام الخدمة البريدية والتجسس المغولي ، إلا أن المؤسسة نفسها كانت موجودة في إيران منذ زمن بعيد ، كما كان ختم الوثائق معروفا منذ طغراء السلاجقة وظل استخدام هذا « الشعار الكتابي » أيام العثمانيين أما نظام إعالة الجيش عن طريق مبلغ من المال المأخوذ من الموارد الحكومية فقد تغير ليحل محله نظام اقطاع الأراضي للجنود ، أو بتعبير آخر « نظام الإقطاع » .

الإقتصاد والمجتمع .

كان الإسلام مهددا لكنه انتصر في النهاية ، وكانت العادات الإدارية جديدة لكنها لم تمنع ظهور العادات القديمة ، ففي كل مرة كانت الثغرة التي يفتحها الغزو المغولي تسد ويعود العالم السابق ليطفو من جديد ويمتص الغزاة ، لكن ترى ماذا كان مصير الرجال . . ؟

الأتراك : بعد نهاية المطاف .

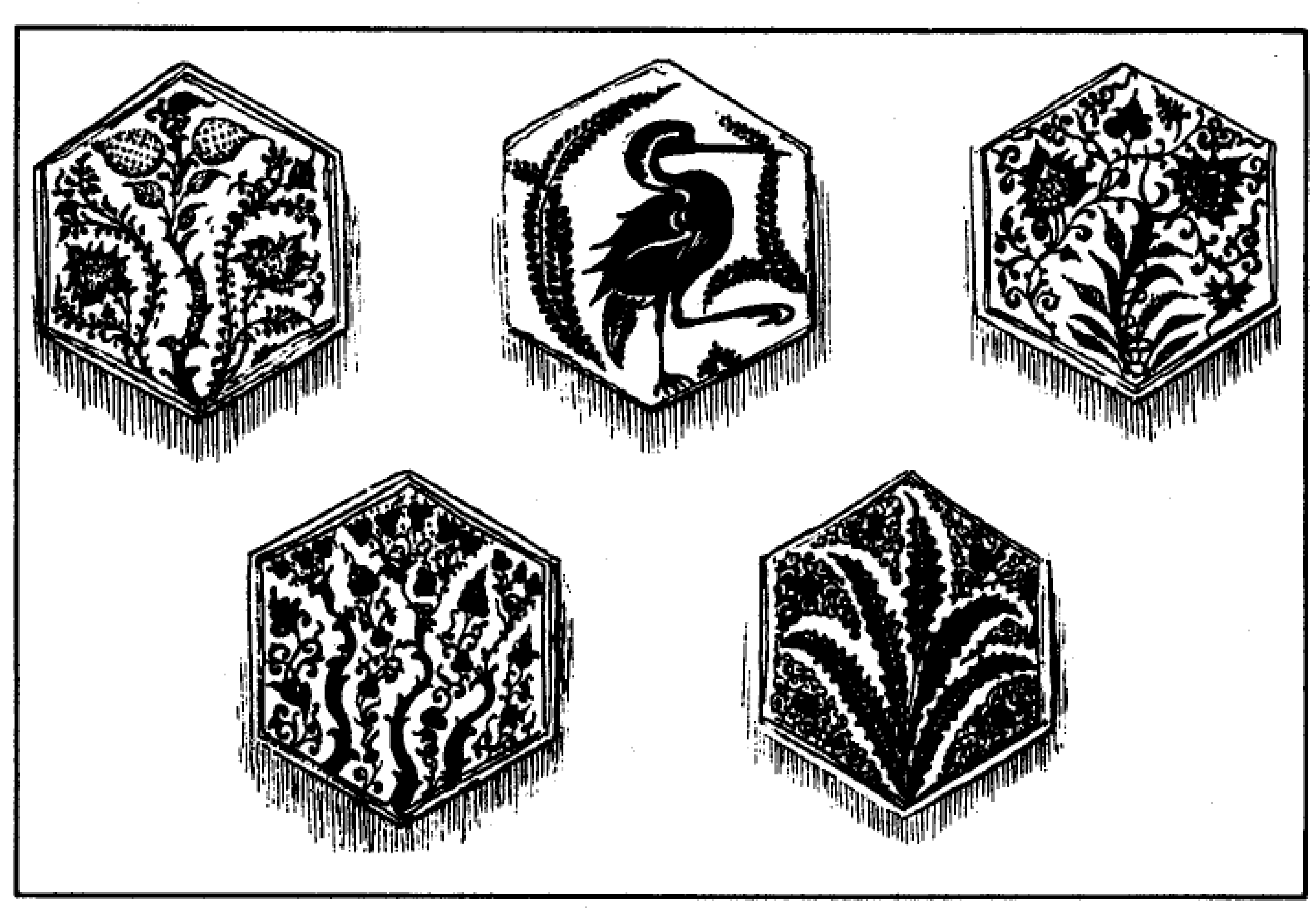
لقد انعكس الغزو على الخريطة بمساحات كبيرة بيضاء ، فقد تهدمت المدن ، ودمر نظام الري وعادت المزارع جرداء قاحلة ، عادت إلى البادية ، مثلما حدث في خوارزم ، كما اختفت جماعات بأكملها بما فيها صفوتها ، اختفت في المذابح أولا ، ثم من جراء نظام استغلال مفروض على الشعوب .

إن المرء ليندهش ثم يعجب لقوة صمودهم ، على أي حال عندما تلاشوا وامتزجوا فلم يتم ذلك وسط جماهير المغول ، إذ لم يتمكن الغزاة الجدد أبدا من تغيير تعمير بلد مثلما فعل الأتراك في الأناضول أو في أذربيجان ، وأخيرا فإن نفس هؤلاء الأتراك الذين سيستفيدون في المناطق المذكورة وفي جنوب سوريا من غزوات جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك ، بعد أن إزداد عددهم بفضل الجماعات المطرودة أو التي أحضرها المغول معهم ، فمن ناحية الأعراق يمكن القول أن فترة الأتراك هي التي استمرت أيام الإضطراب المغولي الشاسع ، ولقد استمر الأتراك

بثبات وثقة بحيث أن كلمة تتار ، وهي المرادف لكلمة مغول ، لن تعني إلا شعوبا بأكملها قد دخلت الإسلام وأصبحت تركية وذلك مثلما حدث في القرم .

حدود السلام .

ما إن استقرت امبراطورية المغول حتى أصبحت مرادفاً لتعبير التجارة الكبرى بفضل صلاتها مع جزء من الإسلام وأوروبا، ويقول ر . لوبيز في كتابه عن « مولد أوروبا » من نفس هذه السلسلة من الكتب أن الطرق الرئيسية الثلاثة كانت تمر من القرم وجنوب روسيا وتركستان ، ومن طرابزون وتبريز وخراسان وتركستان مرة أخرى ، ومن أياس ميناء مملكة أرمينيا الصغرى التابع للمغول ثم العراق والخليج الفارسي والمحيط الهندي ، وأعاد الإسلام ارتباطه بتراث الفترة العباسية التي تمثل نقطة تحول في التبادلات العالمية ، كما يجب ألا ننسى سلطنة



ـ شكل ٤٤ ـ تأثير الأسلوب الصيني المسمى « أزرق وأبيض »
ـ لوحات بلاطات من الخزف ، دمشق ، بداية القرن الخامس عشر .

دلهي في أوج عظمتها ، ولا مصر في أيام المماليك التي سنرى الآن الدور الذي لعبته .

وكانت فترة « سلام المغول » تتسم بالتبادلات (شكل ٤٤) وصراع التأثيرات والمعارف المتبادلة فقد ذهب الإيطالي ماركو بولو إلى الصين ، والمراكشي ابن بطوطة إلى الهند ، وذلك بالإضافة إلى مبعوثي البلاط المغولي الذين استقبلهم البابا وملوك فرنسا أو انجلترا ، وكلها أمثلة تعبر عن الواقع السائد آنذاك في العالم القديم .

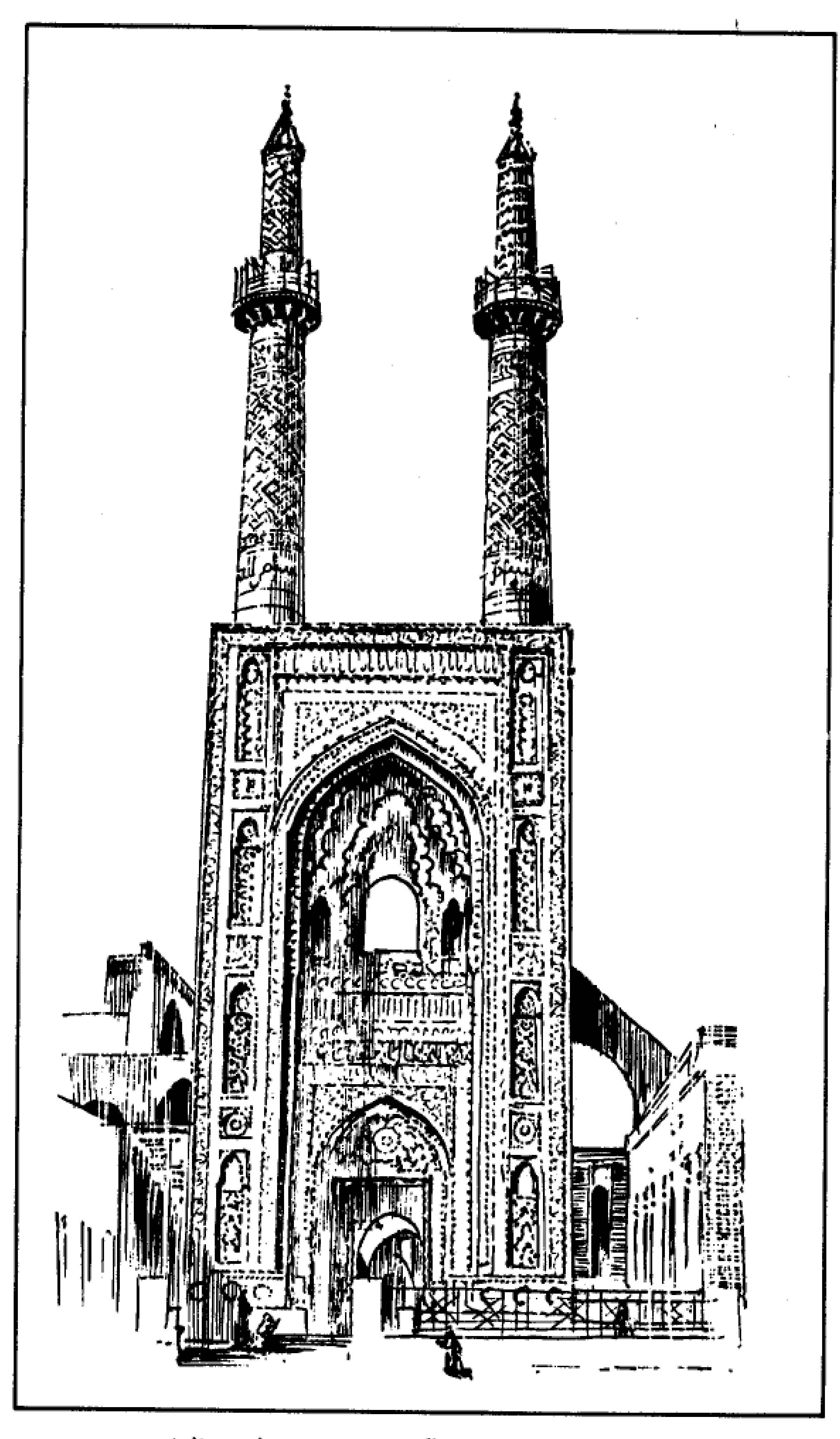
ولنتجنب المبالغة في التعبير عن مدى هذه الأحداث ، إذ أن كثافة هذه التبادلات ما زالت مجهولة ، أو لعلنا لا نعرفها إلا من خلال مبالغات الرواة المبهورين من وقعها ، كما أن الطرق في هذا المجال المغولي الشاسع الذي تنهشه الحروب لم تكن مأمونة طيلة الوقت ، أما الصين التي استعادتها أسرة مينج عام ١٣٦٨ فقد راحت تنغلق على نفسها ، وتفلت من التجارة مع الغرب ، وكما نرى فإن « فترة السلام » المغولي لم تستمر أكثر من قرن من الزمان : من أيام ماركو بولو (زار الصين من ١٢٧٥ إلى ١٢٩١) حتى منتصف القرن الرابع عشر .

الفنون والآداب : ذكريات عربية وانطلاقة إيرانية تركية .

إن الغزو المغولي لم يغير من لغات ولا من ثقافات المناطق التي سيطر عليها كما أنه لم يفرض بصماته على شعوب هذه المناطق ، بل على العكس من ذلك كثيرا ما كان يؤدي إلى إعادة صحوتها لصالح الآخرين مثلما حدث للفرس والأتراك .

لقد تحدثنا فيما سبق عن التأثير الإيراني في قلب الصين المغولية ، ولقد حدث ذلك التغيير بشكل سريع لكنه كاف بحيث يمكننا أن نقيس عليه ما كان يمكنه أن يكون عليه في المناطق الأكثر منه قربا ، ومن أهم الأسماء اللامعة في هذه الفترة نجد في التاريخ : الجواني والوصاف وخاصة رشيد الدين اليهودي الذي اعتنق الإسلام وغزان وزير الإيلخانية ، أما في الشعر فهناك النابغة الغامض حافظ (المتوفي عام ٧٩٢ / ١٣٩٠) والسعدي ، الأشهر منه والذي توفي وقد ناهز المائة من العمر عام ٦٩١ /١٢٩٢ ، إلا أن أعماله لم تجمع ولم تنتشر إلا بعد وفاته بخمسين عاما تقريبا ، ولم يتوقف مجد هذين الشاعرين عند حدود إيران وإنما وصل اشعاع مجدهما ـ على الأقل بالنسبة لذلك الوقت ـ إلى كل من الهند وتركيا .

كما نرى الوجود الفارسي ماثلا في الفنون أيضاً ، فمن مسجد يزد (شكل ٤٥) إلى الآثار المقبلة لسمرقند التيمورية ، فإن فارس تستمر في نسج آثارها على



ـ شكل ٤٥ ـ مدخل مسجد يزد الكبير ، إيران ، القرن الرابع عشر .

تراث المسجد ذي الإيوان المؤدي إلى الفناء ، والقيشاني الأزرق والزخارف الغزيرة في المقرنصات ، كما إن التراث الإيراني يعتمد أيضاً على التجديد (لوحة ٢١)

وعلى الإلتقاء بالأساليب الأخرى ، والدليل على ذلك القبة البصيلية (الملساء أو ذات التعاريق) أيام خلفاء تيمورلنك ، ترى هل كانت اكتشافا فارسيا أو اقتباسا من بعض الأفكار الأجنبية ؟ . . . أيا كان الأمر فإن ما نعرفه أكثر بخلاف الجامع هي أعمال المنمنمات بمناظرها ومجموعاتها الأدمية أو الحيوانية ، وهي تعد التقاء رائعا بين التراثين الفارسي والصيني ، وتجعل منها دقة رسومها وتكويناتها وألوانها دعامة من أهم دعائم التراث العالمي ، وكان بهزاد أحد جهابذة هذا الفن في القرن الخامس عشر ، والسادس عشر ، أي أنه كانت هناك ثوابت إيرانية ومقدمات تركية .

ولقد رأينا ذلك يرتسم في آسيا الصغرى بعيدا إلى حد ما عن حماية الإيلخانيات لكن حتى في ظل المغول ، في دولتي دغاطاي وعشيرة الذهب ، فإن الأدب التركي هو الذي استفاد من الوضع الجديد إذ ارتقى إلى مرحلة التسجيل المكتوب ، ممهدا بذلك الطريق لخلفاء تيمورلنك وانطلاقة الأدب الدغطائي الذي سيكون المماثل الشرقي لقريبة « الأدب العثمنلي » في الغرب .

وماذا عن العرب ؟ . . . سنتحدث عنهم فيما بعد في الإطار العام للفترة التركية المغولية ، أما الآن فيكفينا حدث واحد : منذ استولى هولاكو على بغداد وحتى وفاة تيمورلنك فإن كل ما تم كتابته باللغة العربية كان في منطقة غرب ما بين النهرين ، أما في الأرض المغولية وباستثناء العادات الدينية وبعض الكتب الفقهية أو كتب الشريعة فقد كان الصمت مطبقا تماما . إذ اختفت الدولة الخوارزمية مركز ازدهار اللغة العربية أيام ازدهار التركية ، ولقد دمرت وانتهت مدن بأكملها مثل همذان أو أصفهان حيث استقى الأدب العربي بعضا من أهم وأكبر مؤلفاته ، وبذلك فقدت اللغة العربية احتكارها للحضارة التي أطلقتها ، وحلت محلها وسائل تعبير جديدة باللغات التركية والفارسية .

٣ ـ مصر المماليك :

أو عصر « العبيد المتوجون » .

إن الغزو المغولي لم يمتد إلى بعد ما بين النهرين إلا بشكل غير مؤكد ، إذ اصطدم بمماليك مصر ، مؤسسي دولة قوية وغنية ، وحماة الإسلام ، وربما كانوا أيضاً حماة أوروبا من نفسها .

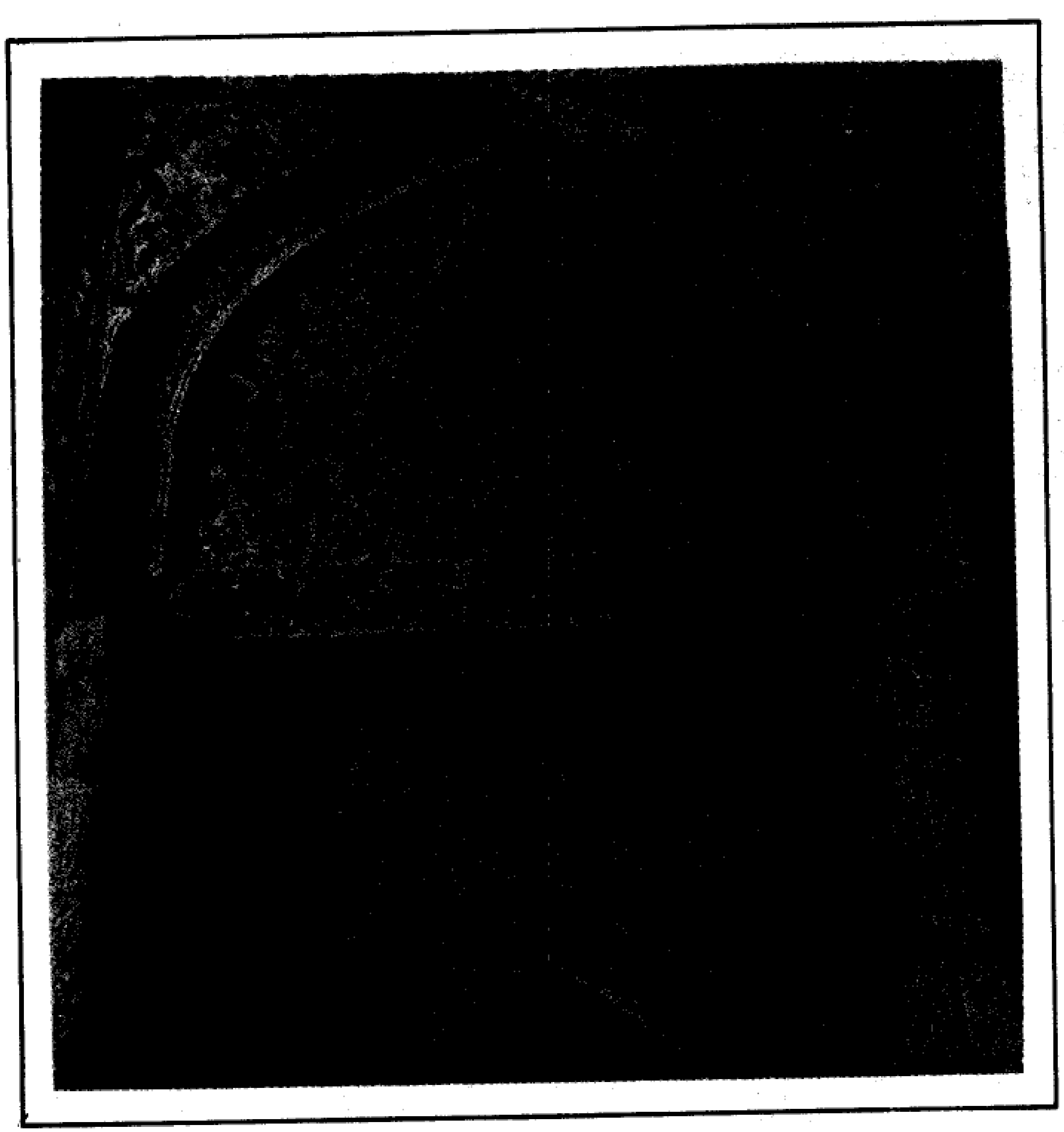
محاربون متعجرفون .

وها هو انتصار آخر في آسيا ، إن الأيوبيين رغم كونهم أكرادا لم يتمكنوا في أواخر عهدهم من الحيلولة دون ميل الأرستقراطية الحاكمة إلى التركية بشكل متزايد ، ولقد ازدادت هذه الحركة في النصف الأول من القرن الثالث عشر بالتجنيد المنتظم للعبيد من آسيا الوسطى ، إن هؤلاء الناجين من أهوال المغول ، والذين كانوا محاربين صاخبين وبارعين في الوقت نفسه ، قد أظهروا ميلا واضحا للخروج من ثكناتهم ، وأصبحوا سادة الدولة المصرية منذ منتصف القرن .

ويمكننا التمييز ـ بشكل مصطنع ـ واعتمادا على موطنهم الأصلي بين أسرتين من المماليك : فهناك المماليك البحرية القادمون من بادية كيتشاك ، والمماليك البرجية الشراكسة ، وسيكون لهم جميعا قادة عظماء ، كانوا عبيدا ثم اعتقوا ثم تم تتويجهم ، ومنهم بيبرس (٦٥٨ / ١٢٦٠ ـ ٦٧٦ / ١٢٧٧) بطل القصص ، وقلاوون (٦٧٨ / ١٢٧٩ ـ ٦٨٩ / ١٢٩٠) والناصر الأول (٦٩٨ / ١٢٩٩ ـ ٧٤١ / ١٣٤١) وبرقوق (٧٨٤ / ١٣٨٢ ـ ٨٠١ / ١٣٩٩) وقايتباي (٨٧٣ / ١٤٦٤ ـ ٩٠٢ / ١٤٩٥) ، وكما نرى فإن هذه التواريخ تجعلنا نخرج عن الحدود الزمنية لهذا الفصل ، إلا أنها تقودنا بالتحديد إلى فترة ما قبل وصول العثمانيين إلى مصر ، وليغفر لنا القارىء ذلك ، إذ أن وحدة فترة المماليك قوية ومترابطة أكثر من السلاطين العابرين بحيث ترتضي مثل هذا القطع .

ومن العلامات الثابتة لهذه الفترة الحرب المتواصلة والحرب التي لا تكل ، فحينما لا يثيرونها بأنفسهم فإن المماليك كانوا يساندونها بحماس ، فهناك ثمانية وثلاثون حملة لبيبرس وحده . . . ، ولن نذكر سوى الأعداء الهامين أولا : الحروب الصليبية وفيها اسرسان لويس عام ٦٤٧ / ١٢٤٩ ، والإستيلاء على مواقع امدادات الفرنجة وهدمها وخاصة عند الشواطىء ، وسقوط انطاكيا عام ٦٦٦ / ١٢٦٨ وطرابلس عام ٦٨٨ / ١٢٨٩ ، وعكا عام ٦٩٠ / ١٢٩١ ، ذلك السقوط الذي أعلن عن نهاية احتلال الفرنجة وانحصارهم في جزيرتي قبرص ورودس .

وبعد الحروب الصليبية أو في نفس الوقت تقريبا كانت هناك معارك المغول الذين انهزموا في عين جالوت عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، إلا أنهم سيعودون على عدة فترات لنهب سوريا التي تحولت تحت حكم القاهرة إلى معقل تحرثه الغزوات

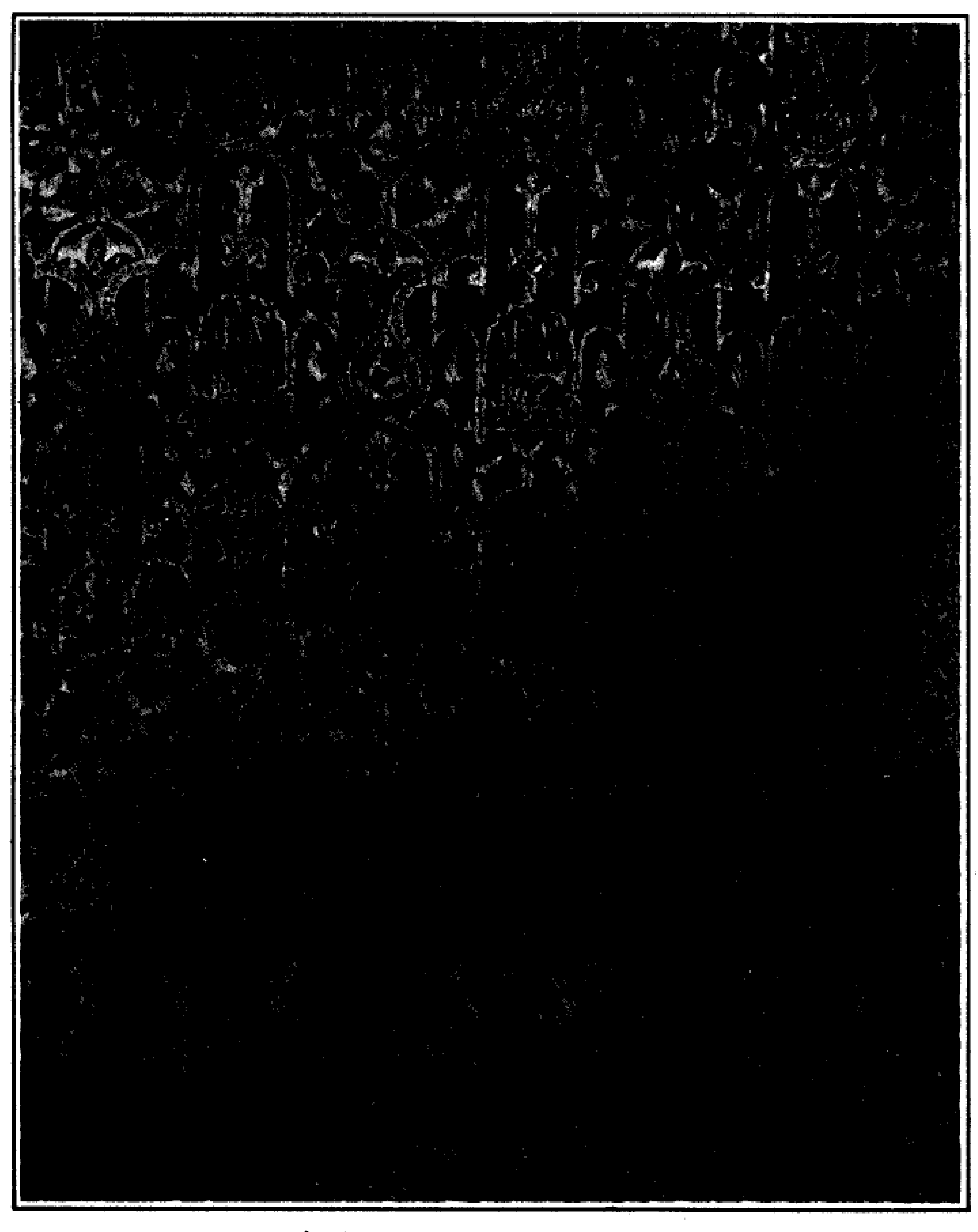


(٢١ ـ زخرفة خطية ونباتية من المصيص لمحراب مسجد أصفهان الكبير ، حوالي عام ١٣١٠) .

الهمجية المتخفية خلف واجهات المدن الضخمة ، إلا أنه معقل تزداد الحماية له شمالاً عند انقاض أرمينيا الصغرى التابعة للإيلخانيات .

ولقد تبلور الإسلام السني في سوريا حول ابن تيمية كرد فعل صريح ضد الغزاة ، كما تم إنقاذ أوروبا التي كانت تحكم بالتحالف مع المغول في سوريا أيضاً وربما رغما عنها .... ما علينا ... وعلى كل حال ينبغي ألا نبالغ في تصوير الدور الذي لعبه المماليك الذين لم يقع عليهم وحدهم ثقل الغزو الآسيوي ، ولكن لنذكر ببساطة أنهم حالوا دون وصوله إلى البحر الأبيض المتوسط ، إن كان ذلك من أهدافه ..

بقيت آسيا الصغرى حيث سيرى المماليك تصاعد قوى العثمانيين في



(٢٢ ـ الحمراء في غرناطة ، تفصيل لزخارف قاعة ابن سراج ، أواخر القرن الرابع عشر) .

مواجهتهم ، وكانت صدمة لامبراطوريتين لا نعرف بعد منطلقها ، ولقد تم الصلح بين القوتين بالمعاهدة التي وقعها كل من قايتباي وبايزيد الثاني عام ٨٩٦ /١٤٩١ ، وذلك قبل تدخل القدر والسلاح لحسم الموقف لصالح العثمانيين بربع قرن .

معارك ودبلوماسية وتجارة .

ومع ذلك فالحرب لم تهلك كل مخططات المماليك حتى أكثرهم تحركا ، إذ كانت تساندها دبلوماسية مكثفة ، وكلاهما إذ ما نظرنا للأمور برمتها ولطول فترة حكم هذه الأسرة . إن صحت هذه التسمية ـ قد تضافرا على إعاقة التطلعات الكبرى للتوسع التجاري لمصر المماليك .

وكان الإهتمام أولا بالسيطرة على سوريا ، وليبقى المغول بعيدا عنها ، فالمماليك لا يرغبون في أكثر من الحياة في سلام مع جيرانهم ، ولقد بذل قلاوون والناصر كل ما في وسعهما من أجل ذلك ، ثم بدأ الضغط قويا على بلدان البحر الأحمر والحملات إلى اليمن وحماية الأماكن المقدسة التي يرمز إليها إرسال المحمل

إلى مكة كل عام ، ثم هناك الحملات في بلدان أعالي النيل حيث ستؤدي وصاية المماليك إلى انطلاقة ملحوظة للهجرة المصرية ابتداء من القرن الرابع عشر ستؤدي إلى الإسراع بدخول النوبة واريتريا إلى الإسلام ، كما ستؤدي إلى عزل أثيوبيا معقل المسيحية القبطية .

أما ناحية البحر الأبيض المتوسط فكانت العلاقات قائمة بصورة أو بأخرى مع تونس وعدة دول غربية مسيحية مختلفة ، كما كانت هناك محاولات لمحاصرة عقبة فارس الإيلخانية والوصول مباشرة عن طريق البحر إلى مناطق القوقاز وآسيا الوسطى مما نجم عنه الإتفاقيات المبرمة مع بيزنطة ، وحملات جنوة على البحر الأسود وعشيرة الذهب التي كانت منافستها للإيلخانيات تضفي عليها مزيدا من الأهمية ويجب ألا نشك لحظة في أن هذه التحركات استمرار لتلك السياسة التي وجهت سياسات الفاطميين والأيوبيين في اليمن والنوبة بل وتذهب إلى أبعد منهما إذ تدخل مصر بشكل حاسم في المجال البحري وتوضح موقعها كملتقى طرق .

وفي الواقع أن ذلك قد بدأ يتأكد عند البحار الشرقية بعيدا عن البحر الأبيض المتوسط حيث تسود المسيحية على البلدان المحيطة به ، وقد كان نشاط المماليك أرضا يعكس افتقارهم إلى الخشب والحديد ويعكس السيطرة البحرية الساحقة للغرب .

كما كان يعكس افتقارهم إلى سياسة بحرية موحدة تحول دون قيام أية أعمال

حقيقية مستمرة لأسلحتهم فوق البحار ، ومن الخطأ أن نتصور أن نظاما مملوكيا بلا بحرية رسمية خاصة فيما يتعلق بالبحر الأحمر إلا أن الشخصية الأساسية الواضحة المعالم ـ بحكم الظروف ـ هي شخصية التاجر ، ومن الطبيعي أن نتخيل أن النظام الزراعي يتمشى مع هذا الموقف ، وكأن هذا المجتمع الذي تحكمه طبقة عسكرية قد قامت بتوزيع المهام وفقا لترتيب أهميتها : فكان الجند أرضا والبحارة بحرا .

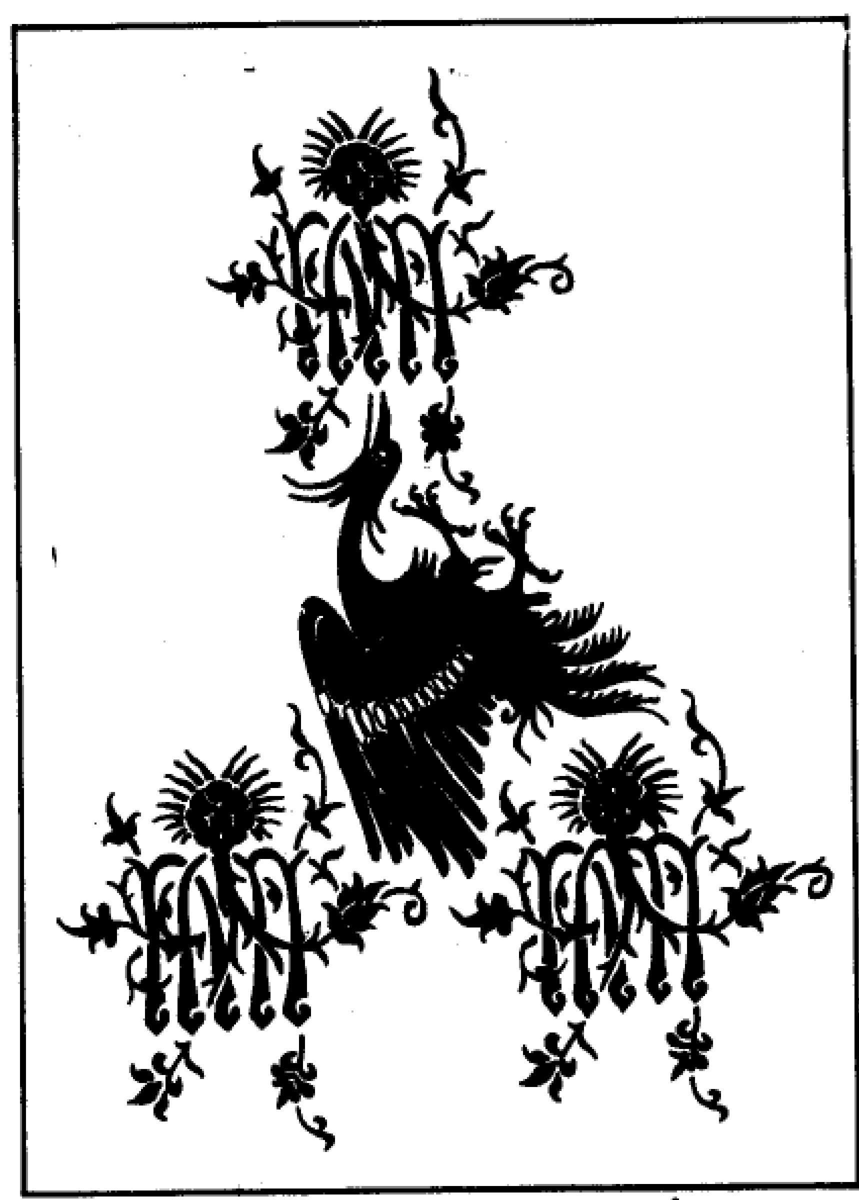
وأيا كان الأمر فقد ظل النشاط التجاري قويا لمدة طويلة ، وتدفقت البضائع إلى الأسواق وخانات القوافل قادمة من القاهرة ودمشق وحلب ، وقد استفادت مدينة حلب من إفلاس مدينة أرمينيا وحلت محلها خاصة فيما يتعلق بتجارة الحرير (شكل ٤٦) كما ازدهرت الموانىء أو أعيد إليها ازدهارها على الشطآن الأفريقية للبحر الأحمر ، فقد أقل نجم الزاب ، بينما ازدهرت سواكن في منتصف الطريق بين خليج السويس وعدن ، أما في البحر الأبيض المتوسط فبخلاف القواعد المصرية الأساسية الثلاثة وهي الإسكندرية ودمياط ورشيد فقد استفادت بيروت المعتمدة على مراكز معدنية وغابات هامة من تهدم الموانىء أثناء العمليات الحربية للمماليك ضد الصليبيين .

وبقية القصة معروفة ، فعند نهاية مصباتهم التجارية ـ شطآن البحر الأبيض المتوسط والطرق البحرية للمحيط الهندي ـ حيث احتجزوا المغول المهزومين ، وجد المماليك سادتهم : العثمانيين من جهة والبرتغاليين من جهة أخرى ، وذلك في إطار مضطرب بسبب إقامة خط بحري لم يتوقف بين أوروبا والشرق الأقصى ، ولا شك أنه يمكننا التحدث عن ثقل الحرب كتبرير لأفول نجم المماليك ، وذلك بالإضافة إلى خلفية الدمار الذي خلفه المغول والتيموريون ، وقطع الصلة مع المغرب وكانت تمثل المقر التقليدي للذهب ، ويجب ألا ننسى تدخل الغرب هنا أيضا ، ومع ذلك فمن يمكنه انكار أن نهاية مصر المماليك ترجع إلى المضمون العالمي للإكتشافات الكبرى وإلى مجيء حقبة جديدة من التاريخ العالمي .

النظام المملوكي .

لقد غيرت مصر وسوريا قادتها بمجيء المماليك ولكنها لم تغيرا من أنظمتها ، وقد كانت القاعدة دائما هي استغلال الأرستقراطية العسكرية

للجماهير، ولم تكن هذه الطبقة تفتقر إلى أساليب العنف مثل جيرانها المغول فيما بين النهرين وفي فارس ، أما فيما يتعلق ببقية الأمور فإن النظام في مصر كان يدخل في إطار العادات الحكومية للبلد ، بـاستثـنـاء بعض الاحتكارات القاصرة على الدولة ومنها التدخل في سوق للأسعار والرقابة الشديدة لنظام الاقطاع .



شكل ٤٦ تأثيرات شرقية ـ حرير مطرز بالذهب . ايطاليا النصف الثاني من القرن الرابع عشر

وهذه القبضة الحديدية أكدت للامبراطورية ترابطاً لا جدال فيه في أجمل أيامها، حتى الجيش نفسه، وتدور العجلة حتى أيام تيمورلنك ، فكانت هناك خدمة بريدية رائعة سواء بالخيل أو الحمام أو الاشارات المرئية ، ويعد هذا التنظيم أحد أمجاد النظام المملوكي ، وذلك بالاضافة إلى جمع غفير من الموظفين تم تنظيمهم بشكل تصاعدي حاسم ، وإلى جانب السلطة رأت مصر ازدهاراً واسعاً وطموحاً للأدب الموسوعي في خدمة الموظف المثالي ، ومن أهم الأسماء المتألقة في تلك الفترة النويري وابن فضل الله العمري والقلقشندي .

ويأتي السلطان على قمة هذا التكوين وعادة ما يكون انتخابه من المماليك يرجع إلى سنه أو إلى كفاءته الذاتية أو وفقاً لرغبة أنداده ، إلا أنه لا يتم اختياره أبداً بدون رغبتهم ، ويا لغرابة هذه الفئة العسكرية فهي تجدد نفسها ـ على الأقل في البداية ـ وفقاً لأسلوب منظم رسمياً ، يبدأ بشراء العبيد من بادية آسيا والقوقاز ، وكل شيء مباح لهذه القلة التي يتم تعليمها وتمرينها في ثكنات القاهرة ثم يتم توزيعها على وحدات الجيش أو الخدمات العامة ، كل شيء مباح بما في ذلك

السلطات العليا ، إذ أن كلمة « الأسرة الحاكمة » التي استخدمناها فيما سبق ليست ذات قيمة هنا : فمبدأ السلالة ليس إلا هامشياً مثل هذا النظام الذي يعتمد على متعة هذه الطبقة فحسب .

وفي حقيقة الأمر فإن كل هذه الكلمات ليست دقيقة تماماً ، فلا شك في وجود مشاعر من النفور والاحتقار من جانب هؤلاء العسكريين تجاه المدنيين الذين يستخدمونهم أو يستغلونهم بأصرار ، كما أن هذا الاحتقار غير قائم على مبدأ خاص بالنبلاء ، فهم أبعد ما يكونون عن ذلك ، إن كل ما يعني هؤلاء العبيد الذين يصلون أحياناً إلى مراتب فريدة هو المجد والكفاءة الذاتية والثراء والسلطة والعرش لمن يستطيع الوصول إليه .

يا لها من مغامرة تلك التي يتناقض بريقها وبهجتها مع جماهير شعب صماء في حياتها اليومية ، كما تتناقض مع مصر نفسها التي تزخر بالثروات في مستودعاتهم وتفيض بالإشعاع على المسرح العالمي ، إلا أنه يتحتم علينا تحديد أن نظام المماليك ـ في نهاية المطاف ـ لم يمت ميتته الطبيعية .

سنية حزمت أمرها

لقد فكر سلاطين القاهرة في استضافة العباسيين الهاربين من مذابح بغداد ، ولا شك أن هؤلاء لم يكونوا خلفاء إلا إسماً ، إذ أن كل اهتماماتهم كانت اجتماعية أساساً ، والسلطة الحقيقية لم تكن إلا في أيدي الأمراء المقيمين بعيداً مثل أمراء الهند ، إلا أن ذلك لم يمنع المماليك من مواصلة عادة السلاجقة مع احتفاظهم بواقع السلطة جاعلين من نفوذهم الممثل الشرعي للأمة الإسلامية .

ولقد عاشت السنية مزدهرة في ظلهم باستثناء بعض السحب المعكرة للصفو ، ولا بد لنا من تحديد أن المماليك قد شجعوا وساندوا السنية ، وهم كورثة حقيقيين للسلاجقة والأيوبيين ولتراثهم القديم قد استمروا في تأكيد دور « قلاع السنية » لكل من مصر وسوريا اللتين استمرتا عليه حتى يومنا هذا ، ولم يتخذوا بالطبع أية إجراءات ضد مراكز الشيعية السورية واللبنانية ، إلا أنهم كانوا يصفونها كقوى سياسية ومراكز دعوة ، كما لم يتسامحوا مع الأقليات المسيحية عندما كان الأمر يتطلب ذلك .

أما فيما يتعلق بالباقي فإن فترة المماليك عرفت ازدهار المدارس السنية الأربعة (شكل ٩٠) التي يسيطر عليها ابن تيمية (المتوفي عام ٧٢٨ /١٣٢٨) وكان فيها فقيهاً وداعية وزعيماً ومؤسساً لمذهب الحنبلية المجددة الذي يقول بضرورة العودة غير المشروطة إلى تراث النبي (السنة) الذي يجمع بين ضوابط الإيمان والعقل ، وهي فكرة قوية سيكون لها استمرارها حتى الاصلاح الذي حدث في العصر الحديث .

وأخيراً ، فقد عرفت هذه الفترة استمرار وإشعاع التصوف المنقسم إلى عدة جماعات ، وكان لكل جماعة منها طريقتها ، وأحياناً كانت السنية البحتة تنظر بارتياب إلى هذه الصوفية التي توغلت في الجماهير الشعبية وشملتها العناية عن طريق الأوقاف ، لذلك يمكن اعتبار فترة المماليك بمثابة العصر الذهبي للصوفية ، ففي مواجهة الفقيه مشرع القانون بدأت ترتسم في أذهان الجماهير شخصية الفقير الذي زهد في كل شيء ليدخل مباشرة في عالم الجنات الغزير النعم .

الحضارة المملوكية

إن عظمة وحيوية التجديدات والاستمرارية التي قامت بها كل من مصر وسوريا في هذه الفترة تحتم علينا التحدث عن حضارة مملوكية أو على الأقل عن مرحلة مملوكية في حضارة الإسلام . ويقولون عادة أن الآداب تتراكم في هذه المرحلة ، ولعل في ذلك شيئاً من الصحة ، إلا أن الطابع الضخم لهذه الأعمال وروح المعلومات الذكية التي تتسم بها تؤكد لها نوعاً من الانفراد ، حتى في إجمال إنتاج هذا الأدب العربي المعروف .

ولقد تحدثنا فيما سبق عن الموظفين ذوي المعلومات الموسوعية ، فلنتحدث عنهم مرة أخرى مع شيء من التمييز إذ أن نهمهم الواسع للمعرفة يتعدى نطاق وظيفتهم ، وذلك مثل « أبو الفدا » في الجغرافيا ، وابن منظور في اللغويات ، وقد ألف قاموساً ضخماً يعد أساسياً إلى يومنا هذا ، وابن خلكان والذهبي في التاريخ والسير ، وابن الأثير في التاريخ العالمي ، والمقريزي في التاريخ المحلي وخاصة تاريخ مصر ، وأخيراً السيوطي في أواخر العصر المملوكي (والمتوفي عام ٩١١ /١٥٠٥) ومن المعروف أنه ترك ٥٦١ مؤلفاً وفقاً لإحصائية جادة .

إلا أن الطابع المميز لهذه الفترة المملوكية هو تجاوز الأدب العلمي إلى جانب الأدب الحيوي وهكذا نرى ابن اياس ـ الذي رأى قدوم العثمانيين ـ يطور بحيوية قصة في التاريخ تقف بين المقال وعرض الأحداث ، وذلك بالإضافة إلى تسجيل كم هائل من الأدب الشعبي في كل من مصر وسوريا ، ولا شك أنه من الصعب في مثل هذا النسيج المتداخل والذي تضيف إليه كل فترة من أحداثها أن نتبين أصل أو خط سير الشخصيات المتعددة مثل عنترة وجحا « الساذج » والخليفة الحاكم وغيرهم ، إلا أنه لدينا بعض الدعائم الثابتة والأكيدة فيما يتعلق بمصر خاصة ، لمتابعة مولد أو إبداع بعض الأعمال مثل « قصص » الظاهر بيبرس أو سيف بن ذي يزن وذلك بخلاف الروايات الهامة مثل « ألف ليلة وليلة » .

كما يجب ألا ننسى أن «مسرح الظل » قد عرف ازدهاره أيام مصر المملوكية ، وكان ابن دانيال من أهم أساتذته .

ومنذا الذي يمكنه إغفال الدور الفاخر الذي قامت به الفترة المملوكية فيما يتعلق بمجال العمارة في بعض المدن مثل دمشق وحلب وخاصة القاهرة ؟ ـ إن كل سلسلة المباني العامة تؤكد تفتح فن يعتمد على الموضوعات والتكوينات المعروفة إلا أنه يعبر عنها بروح جديدة بكل تأكيد ، روح تتسم بالبحث المتواصل والرقة المتداخلة بالدقة ، فإن أبسط معدات الحياة اليومية وشرفات المنازل ومآذن المساجد الشهيرة أو الأضرحة تجمع شتى أنواع الهندسة والزخرفة التي سمحت لخيال الفنان بخلق الأسلوب المملوكي ، وربما تكمن بذور هذا الفن إذا ما قارناه بفن التيموريين ، إلا أن أصالة هذا الفن المملوكي واهتمامه الشديد بثراء الزخرفة وتماوج الخطوط يجعل منه أجمل تعبير للفن الباروكي الإسلامي (شكل ١١و ، لوحة ٢٠ ب) .

تأثير وامتداد التجارة في المحيط الهندي

لقد تحدثنا فيما مضى عن الضغط المصري على بلدان النوبة والبحر الأحمر ، إلا أن التجار قد واصلوا هذا الضغط إلى أبعد من ذلك ، مدعمين الإسلام في مستعمراته التقليدية فيما وراء البحار ممهدين بذلك الأرض لتوسعات مذهلة مقبلة في جنوب شرق آسيا بصفة خاصة ، ولم يكن العرب إلا عنصراً من هذه الإنطلاقة ، ولقد لعبت الهند دوراً أساسياً في جزر الصوند ـ لكي لا نذكر سواها .

أفريقيا الشرقية

خضعت إثيوبيا للضغط الإسلامي في الفترة التي كان الأوروبيون يتخيلون فيها أنها ستصبح مملكة أخرى من ممالك القديس يوحنا ، وبدأ هذا الضغط من بلدان البحر حتى تلك الأراضي العليا حيث كانت المسيحية تجد معقلها في أفريقيا الشرقية ، أنه تاريخ مليء بالصراعات والتبعيات تتألق فيه من ناحية الإسلام مملكة إيفات .

وفيما وراء ذلك عند شطآن المحيط الهندي تبدأ منطقة المدن التجارية الغنية بتجارة الذهب والعبيد والعاج والتوابل ، وامتدت سيطرة كلوة بثرواتها حتى خليج سفالة إلا أنها قد تركت جزيرة زنزبار بعيداً عنها ، وابتداء من أواخر القرن الخامس عشر بدأ نجم مدينة ممباسا في الصعود .

وتبدو هذه الحضارة الإسلامية المصرية وكأنها ذات وجهين ، فناحية المحيط نرى تآلفاً واضحاً متفتحاً للتأثيرات الصينية وخاصة الهندية ، إنه الإسلام الذي نعرفه ، إسلام المدن باقتصادها القائم على العملة ، وتتميز هذه المدن بالمباني الضخمة التي تفرض الإعجاب بها ، وذلك مثل مسجد كلوة الذي أثار إعجاب البرتغاليين ، كما أنها تتميز بحياة ثقافية مثلما في مقديشيو ، ويلعب فيها التبادل دوراً كبيراً يسانده انتشار اللغة السواحيلية ، « لغة السواحل » وهي خليط من اللغة العربية والفارسية ولغة البانتو .

ويتخذ الإسلام في هذه المدن أشكال حضارته الزمنية ، وهو متعلق بأقلية من التجار العرب والفرس والهنود ، أما العنصر الآخر الأسود ، فيستعيد مكانته كلها على الطرف الآخر ، أي إلى داخل القارة ، وحتى إذا أمكننا التعرض لمشكلة تأثيرات حضارة المدن التجارية على بعض أشكال مجتمعات البانتو ـ ـ وذلك بكل الحرص الذي يمليه علينا تاريخ ما زال غير معروف تماماً ـ فتبقى هناك حقيقة أنه كلما توغلنا في هذه الأراضي كلما رأينا سيطرة الحضارات التقليدية والقوى الغيبية واقتصاد المقايضة وإجمالاً فإن الإسلام في هذا الجزء من أفريقيا الشرقية قد فرض نفسه عن طريق التجارة إلا أنه يظل ظاهرة من ظواهر السواحل وهو إلى ذلك قوي قادر .

نحو إسلام في مالي وأندونيسيا

إننا نشك في أن وصول الإسلام إلى جنوب شرق آسيا يرجع إلى نفس قدم التجار المسلمين ، ومع ذلك فيبدو أن الأمر لا يتعلق هنا إلا ببعض النقاط المتناثرة على الخريطة ، إذ أن مجموعة هذه الجزر تظل مجالاً للتأثيرات الهندية التقليدية المتناوبة مع ثقافات محلية شديدة الحيوية .

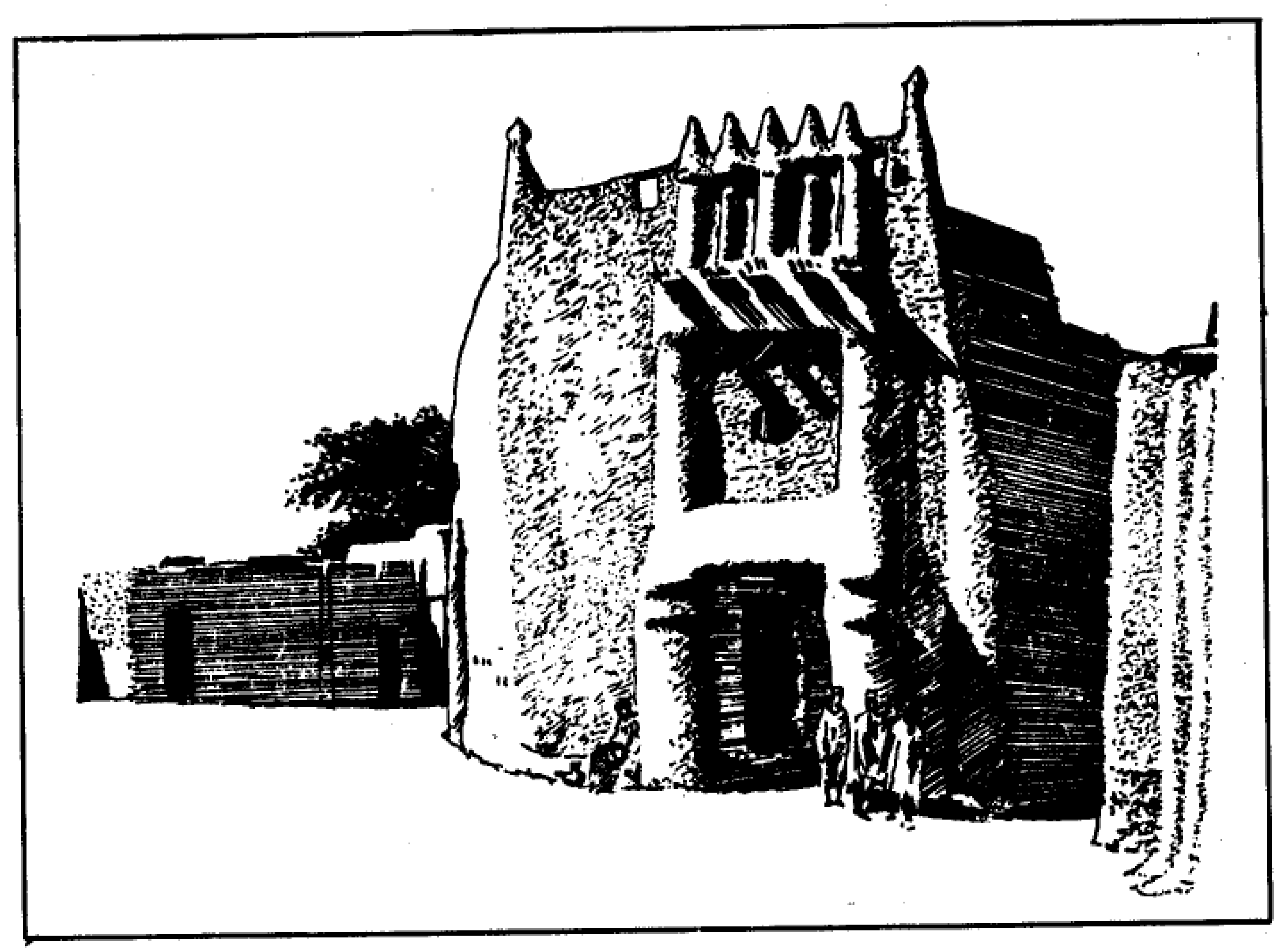
أما بالنسبة للإسلام فإن كل شيء يتغير وفقاً لايقاع التبادلات القائمة في الفترة المملوكية والانطلاقات الجديدة للهجرة الهندية ، وكانت ملموسة ابتداء من القرن الرابع عشر ، وإن كانت أضرحة تلك الفترة تشهد بوجود التراث العربي إلى جانب الهندي والماليزي ، من هنا نشأت المستعمرات القوية التي ارتسمت على الواجهة الشرقية لسومطرة وسواحل ماليزيا ، والتي تعتبر بمثابة المحاولات الأولى للدول الإسلامية ، ولسلطنة آتجي في شمال الجزيرة الكبرى وميناؤها سامودرا (المسمى باساي فيما بعد) وكان مقراً إسلامياً حيوياً وموضعاً لمراقبة المداخل الشمالية للمضايق .

٤ ـ الغرب : أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط

إن الغرب الإسلامي لم يعد في إسبانيا إلا رأس جسر ، إذ أنه انعزل سياسياً وأصبح في مواجهة ضغط مسيحي متزايد ، فإسلام هنا ـ مثله مثلما في الشرق ـ قد انحصر في الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، ورغم ارتكازه على أفريقيا حيث راحت رسالته تكتسب الموالين لها بشكل متزايد فإن هذا الإسلام سوف يبرهن على أن هذه الأراضي التي يحصرونه فيها أصبحت ملكاً له ، ولن يستطيع أي فرد انتزاعها منه ، وذلك بفضل حيوية تجارته وإشعاع فنونه وعمق جذوره الروحية .

إسبانيا مفقودة ، وشمال أفريقيا على وشك أن يولد

لنقتصر هنا على متابعة الخطوط العريضة للخريطة السياسية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فلقد نشأت أربع دول على أنقاض إمبراطورية الموحدين : في الشرق دولة الحفصيين وكانت تونس عاصمتها ، وفي الوسط دولة بربر عبد الوديد حول تلمسان ، وفي الغرب بني مرين في فاس وهم من البربر



ـ شكل ٤٧ ـ منزل قديم في جدان (مالي) .

أيضاً ، ومن الناحية الأخرى للبحر إمارة النصرية في غرناطة آخر معاقل إسبانيا الإسلامية .

هذا التحديد شبه المثالي قد عرف تاريخاً سياسياً وعسكرياً في غاية الاضطراب ، فلقد مارس النصريون سياسة التأرجح بين المسيحيين وبني مرين ، الذين كانوا متمسكين بحرب الجهاد ضد الكفرة فيما وراء المضايق ، سواء كان ذلك بموافقة النصريين أم لا ، إلا أنه كان جهداً ضائعاً ، فدولة غرناطة الممزقة بصراعاتها الطبقية راحت تنكمش بانتظام بينما أخذ آخر فصل لهذه المسرحية يرتسم ، فقد تم الاستيلاء على غرناطة عام ٨٩٧ /١٤٩٢ في عهد الملك الكاثوليكي فرديناند وإيزابيل ، وبذلك سيسدل الستار على التاريخ السياسي لاسبانيا الإسلامية .

وفي مواجهة هذا الإسلام الإسباني الآيل إلى الزوال بدأت تتشكل دولتان عند طرفي شمال أفريقيا حول المنطقة غير المستقرة في الوسط ، وهي دولة عبد الوديد المتنازع عليها من الشرق والغرب وكانت المغرب ذات السيادة البربرية تقف

في مواجهة تونس المعربة والمتفتحة على البحر وعلى التبادلات المباشرة مع العالم المسيحي .

تاريخ مشترك

إن أحداث الصراعات السياسية بين دول الغرب الإسلامي الأربعة ليست في الواقع إلا ضريبة وجودها في نفس الموقع المثمر لملتقى الطرق الأساسية والتقليدية للتجارة ، فبين العالم المسيحي سيد المبادرات البحرية وأفريقيا السوداء ممونة الذهب ، فإن كل القوى تهدف إلى السيطرة على المصبات الشمالية للصحراء مثل سجلماسة وبسكرة ، أو موانىء الأبيض المتوسط ، وذلك مثل سبتة المتنازع عليها بين النصريين وبني مرين ، ووهران المتنازع عليها بين بني مرين وبني عبد الوديد ، وبجاية المتصارع عليها بين بني عبد الوديد والحفصيين ، وفي نفس الوقت راحت هذه الدول تستعد لمواجهة أكثر حدة مع الانطلاقة المسيحية ، أن الحروب الصليبية لسان لويس عام ٦٦٨ / ١٢٧٠ أو احتلال الصقليين لجزيرة جربة عام ٦٨٣ / ١٢٨٤ ليست سوى الأشكال والأحداث الأكثر أهمية لضغط أوروبي تزيده الغزوات ضد مدن السواحل أو الاتفاقيات التجارية عاماً بعد عام ، وتقره في شمال أفريقيا .

وكانت هذه الظاهرة ترتسم ببطء ناحية الغرب ، بالقدر الذي كان فيه الإسلام يحمي موقعه كرأس جسر إسباني ، ومن الملفت للنظر من هذه الناحية أن التوسع المسيحي لا يتحدد هنافي الفترة التي تعنينا ، على شطآن البحر الأبيض المتوسط في المغرب والجزائر الغربية ، اللتين تواجهان غرناطة - وإنما يتحدد على الناحية التي تكشف عنها حروب « الاسترداد » أي في المحيط الأطلسي . إن غارات قشطالة ضد ساليه عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ وسقوط قادس عام ٦٦٠ /١٢٦٢ وانهزام البحرية المغربية في خليج جبل طارق عام ٦٩٠ /١٢٩١ وإقامة العلاقات البحرية المنتظمة بين أوروبا والبحر الأبيض المتوسط وبلدان المحيط الأطلسي وبحر الشمال ، كل هذه الأحداث مجتمعة تدخل في مضمون واحد .

ما علينا : فهنا مثلما عند شطآن المغرب عند البحر الأبيض المتوسط وغرب الجزائر ، فإن التقدمات الحاسمة هي برتغالية ، والمغامرة الكبرى للدوران حول أفريقيا ستأخذ مكانها في القرن الخامس عشر ، متفقة في ذلك مع نهاية « حرب

الاسترداد » ، أما الآن وفيما يتعلق بالإسلام في الغرب الأقصى فإن الضغط المسيحي يبدو مشتتاً ولا يتناسب مع جارته عند شطآن الجزائر الشرقية ، وتونس ، اللتين يقع عليهما هذا الضغط القادم عبر المحيط كالسياط ، أما سكان جنوة الذين راحوا يستطلعون المناطق الأفريقية للمحيط في القرن الثالث عشر والرابع عشر باحثين عن « أرض الأحلام الغامضة » في السنغال فقد ظلوا تجاراً مسالمين .

ولقد تغيرت ملامح الإسلام البحري في كل مكان تقريباً ، وتغير معها توزيع الأدوار على ذلك المسرح المسمى بالبحر الأبيض المتوسط ، فمن سادة للبحار مثلما كانوا ، وبالتحديد سادة لهذا البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، سادة يتنازعهم القراصنة المسيحيون ، تحول المسلمون بدورهم إلى قراصنة أو كما سيقال عنهم « برابرة همجيون » .

تبادلات وامتزاجات

عرف الإسلام في الغرب تحركات مكثفة للبضائع والرجال والأفكار ، سواء كانت حربية أم لا ، ففي منتصف اللوحة نرى التونسيين وخاصة المسلمين الإسبان في غرناطة وغيرها ، الذين تجمعهم الأرض « المستعادة » وكلهم يعملون على نقل المنتجات القادمة من المغرب والصحراء نحو المسيحية ، بل وما هو أكثر من ذلك ، كانوا ينقلون أساليب الزراعة وتربية المواشي (خاصة الأغنام) إلى جانب علوم الإسلام وفنونه ، وذلك هو الأثر الذي سيستمر طويلاً بعد انتهاء إسبانيا الإسلامية كواقع سياسي .

ومن ناحية أخرى كانت هناك الهجرات التقليدية التي تدعمها الأحداث لكل الذين يقلقهم عدم استقرار الإسلام الإسباني ـ سواء في الداخل أو في الخارج ـ ويقذف بهم خارج وطنهم ناحية المغرب أو الشرق ، وتعد هذه الهجرات المقدمة البعيدة لطرد المور أيام فيليب الثالث عام ١٦٠٩ ، ولقد بدأت عملية تشتيت حقيقية ابتداء من القرن الثالث عشر ، إذ كانت إسبانيا تصدر العقول أو لعلها كانت تتخلص منهم ، وذلك مثل ابن عربي وابن البيطار اللذين راحا يزينان مصر الأيوبية ، وكثيرين غيرهم ، ومن بعدهم ، أيام المماليك ، أولئك الذين اتجهوا إلى الشرق أو توقفوا في الطريق عند الحفصيين ، ولقد ولد المؤرخ الكبير ابن خلدون في تونس من إحدى هذه العائلات المهاجرة .

وهكذا راحت ضرورات التجارة أو أغراض السياسة تؤدي إلى تبادلات مستمرة في كل مكان سواء في إسبانيا المسيحية أو في الأراضي الإسلامية ، مما ستتولد عنه الحضارة المميزة عن كل الحضارات التي جمعت بين المغرب وإسبانيا في ظل الإسلام : إنها حضارة المور الإسبانية وهي من أغنى الحضارات وأطولها تاريخاً ، إذ استمرت حتى بعد زوال دعائمها السياسية ، ثم سرعان ما اتجهت إلى المغرب الذي راح يكرر معطياتها إلى يومنا هذا .

أما في إسبانيا وخاصة في إشبيلية « المستعادة » والتي جعل منها ملوك قشطالة مقرهم المفضل في القرن الرابع عشر فقد ظل الفنانون المسلمين متمكنين من وسائل تعبيرهم الفني .

وإذا كان اسم ابن خلدون يكفي لتمجيد هذه الحضارة ، فلا شك أنها ازدهرت أيضاً بفضل الفنون التي عرفت أجمل ومضاتها في ذلك العصر ، فلقد أدت السنية وخاصة السنية المالكية إلى تفتح أساليب فنية انعكست على المساجد والأضرحة والمدارس في تلمسان وصليلة وفاس ، بعد أن امتزجت بالعناصر المحلية لتضفي على أعمال الخشب والقيشاني فيضاً من الزخارف الهندسية التي تعبر عن الحوار بين المساحات الخارجية وأسرار إمكانيات العناصر المستخدمة .

ومع ذلك فإن أكمل تعبير عن هذا الفن الموري الإسباني يكمن في مملكة غرناطة التي تعد بمثابة الفنار المضيء فنياً ، وفي أهم مدنها مثل ملقا وغرناطة نفسها والحمراء (لوحة ٢٠ ولوحة ٢٢) وهذا الفن يجعل من الحديقة العنصر الأول في التكوين المعماري الذي تلتف من حوله المباني بانتظام .

وما هو أكثر من ذلك ، فقد كان يعتبر فن المنوعات بأي وسيلة ، لكنه كان رفيع الذوق ، وهو فن يعتمد على التناقضات المنتظمة التي ينغمها إلى ما لا نهاية ، سواء كان ذلك بين كتلات الأسطح أو الجدران أو بين الأروقة والنوافذ والأعمدة ، بين المساحات الملساء والنقوش الفخمة البارزة في الأسقف ، وبين مساحات الجدران ذات اللون الواحد وبذخ الوحدات النباتية على القيشاني أو الزخارف الملونة ، بين الظل والنور ، بين الشمس والمياه ، بين الحديقة المغلقة والمناظر الطبيعية في غرناطة، لكنه دائماً فن واضح المعالم يلحظه المرء من أعلى القاعات أو الشرفات أو أروقة الجدران وفراغاتها .



٦ - الحياة الإسلامية في القرون الوسطى : المدرسة رسم من بداية القرن الثالث عشر .

وتظهر قيمة هذا الفن أكثر عندما نقارن القصر الضخم الذي بناه شارل الخامس في صحن الحمراء ، بالرقة المتناهية للحمراء الإسلامي بمبانيه المقامة من

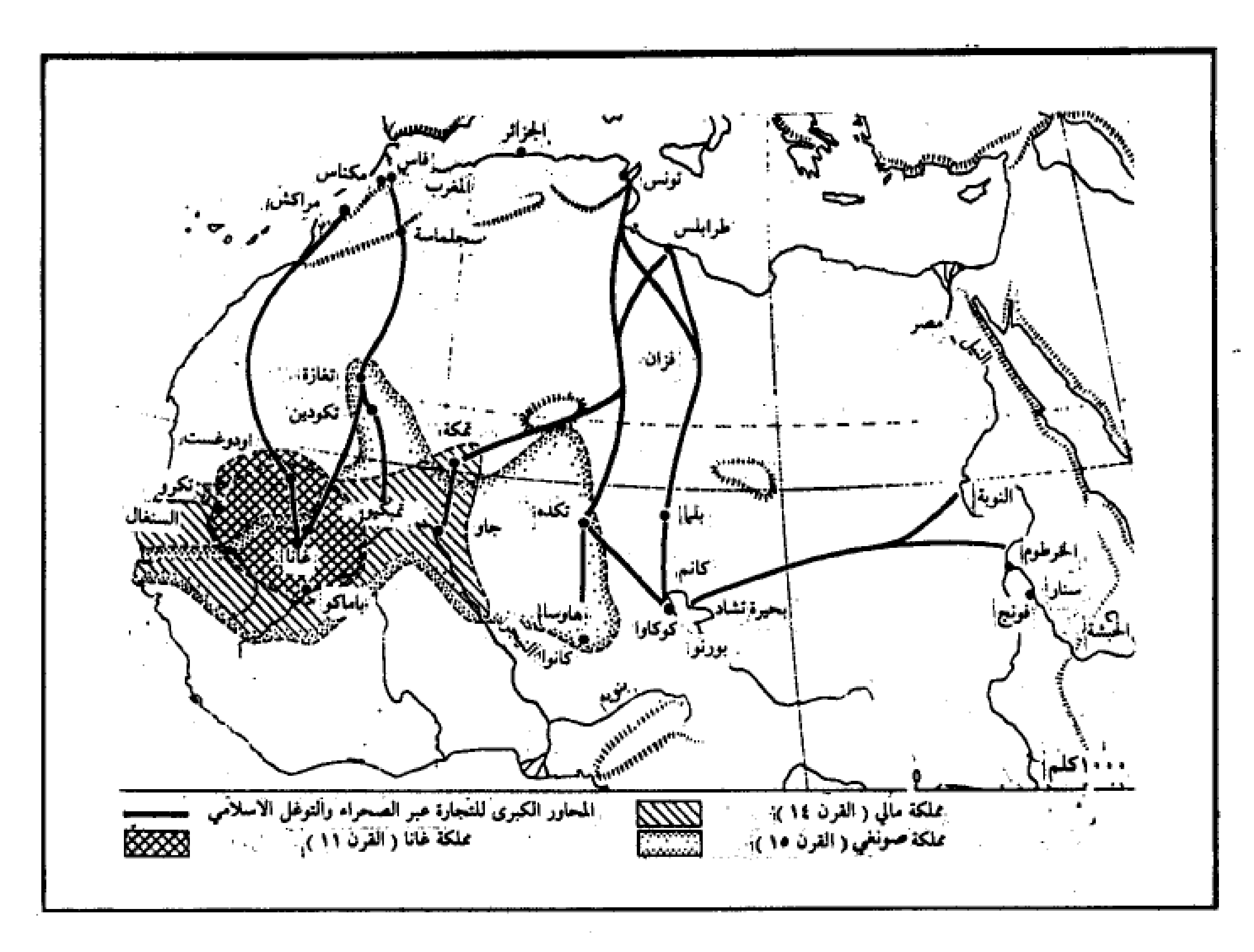
الآجر ، ومعجزة احتفاظه بكل جماله إذ يبدو هذا الفن حاراً دافئاً ، رشيقاً ورقيقاً في وقت واحد . هكذا يبدو هذا الفن الإسباني الموري كرمز لروعة الحضارة المرفهة والآيلة للزوال التي كان يجسدها ، ولقد امتد إشعاعه ـ رغماً عنه ـ عبر حدود النصريين ليصل إلى إسبانيا الكاثوليكية ، وبعد انعزاله في موقف دفاعي ـ إذ لم يعد يتأثر بأية معطيات مسيحية ـ راح هذا الفن يستلهم ميراثه ليلهم آخر أشكاله التعبيرية لكل من غرناطة والمغرب .

أما انطلاقة التجديد الشاب فكانت في مكان آخر ، في إسبانيا المنتصرة وعلى الجانب الآخر من البحر وبين الجماهير ، فهنا في شمال أفريقيا سيتوغل الفن عمقاً عند اصطدامه بالفن المسيحي فلقد رسخ في الضمائر الشعبية معتمداً على مباني الزاوية ، وهي خليط من الدير والضريح والمدرسة والفندق ، وسوف يقام طوال القرن الخامس عشر قبل أن يخضع للأشكال السياسية الجديدة في المغرب التي ستتمخض عنها الأحداث . ومرة أخرى لا بد لنا من توضيح أن الإسلام حيال أي صدمة وحينما يحاول البحث عن ذاته ، أو يحاول التعبير عن المنابع الحية ، فإنه يرجع إلى نفسه كدين راسخ ليستمد منه إلهامه .

أفريقيا السوداء : إسلام جديد على وشك الإندفاع

باستثناء وضع مالي فإننا ما زلنا نجهل تاريخ الإسلام الأفريقي (خريطة ١٨) فيما بين الأعوام ١٢٥٠ ـ ١٤٠٠ ، ومع ذلك ورغم قلة معلوماتنا فإننا نعلم أنه ينتشر .

ففي حوالي الأعوام ١٣٤٩ ـ ١٣٨٥ جاء بعض الدعاة القادمين من مالي ومعهم مخطوطات وديانة العرب في بلدان الهاوسا في كانو : أحد المراكز المقبلة للإسلام في نيجيريا ، وإلى الشرق أكثر فإن مملكة كانم ـ بورنو المنهكة من الصراعات مع جاراتها دخلت فيما يشبه الهدوء النسبي ابتداء من الربع الثاني للقرن الثالث عشر وحتى فجر القرن السادس عشر ، إلا أن هذه المملكة ظلت محتفظة بصلات مع السلاطين من مماليك القاهرة ، وإلى أقصى الغرب : أي في السنغال يبدو أن الإسلام لم يمس هذه الدولة حتى ذلك الوقت ، ولا حتى قبائل الولف التي ستدخل في الإسلام في جماعات فيما بعد .



الخريطة ١٨ - الإسلام السوداني حتى القرن الخامس عشر .

إن تاريخ مالي هو المسيطر من بعيد على هذه المرحلة ، وسوف يشتهر هذا الإسلام حتى الغرب حيث سيفسح له رابليه مكاناً في مؤلفاته ، أما البلدان العربية فستعرفه بشكل أفضل ، إذ سيتلقى بنو مرين الهدية التقليدية ، الزرافة ، المرسلة مع الوفد القادم إليهم من مالي ، كما أن ابن بطوطة قد زار هذا البلد عام ٧٥٣ - ٧٥٤ /١٣٥٢ - ١٣٥٣ ، بالإضافة إلى المعلومات القيمة التي أتى بها كل من ابن خلدون وابن فضل الله العمري .

لقد ذكرنا الدعاة في بلاد الهوسا ، إلا أن توسع دولة مالي قد عرف أشكالاً أخرى ، فلقد امتد سلطانها بعيداً إلى الشرق في الصحراء ، وإلى الغرب حتى المحيط الأطلسي ، وذلك ابتداء من أعالي النيجر حتى غانا ، التي خضعت لها كما خضع لها سكان صونغي في جاو من عام ٧٢٤ - ٧٢٦ / ١٣٢٤ - ١٣٢٥ إلى حوالى عام ١٣٣٧ حينما قامت أسرة حاكمة جديدة هي أسرة سوني بتحرير البلاد ومهدت الطريق للإشعاع الصونغي في القرن الخامس عشر .

ومجمل القول : لقد ظل الإسلام ظاهرة تتعلق بالزعماء ويرمز لها الحج

الشهير الذي قام به ملك مالي كانكو موسى (١٣١٢ - ١٣٣٧) المالكي والمتكلم باللغة العربية والذي لم يصل أي فرد إلى مستوى بذخه ، وعلى حد قول العمري فإن كمية الذهب التي اصطحبها معه قد أدت إلى انخفاض سعر الذهب لمدة عدة سنوات في سوق القاهرة ، وبشكل أعم فإن الإسلام كظاهرة سياسية لا يشكل أية اضطرابات في الهياكل الاجتماعية التقليدية وخاصة في مالي ، وإنما راح يدعمها ، ومن ناحية أخرى فإن حظوة الملك - زعيم هذه العشيرة - لم تمس المعاقل التقليدية للسحر والغيبيات ، أي أن مستقبل الإسلام وتوسعه سيتم أخيراً على مستوى الطبقات الشعبية ، وذلك بفضل التجارة ، تلك التجارة التي نقرأ متطلباتها بين سطور الأحداث السياسية ، مثلما حدث في كانم - بورنو التي تمثل نقطة تحول للعلاقات مع النيل ، ومثلما حدث في مملكة صونغي المسيطرة على مصبات الصحراء ومناجم الملح في الصحراء الوسطى .

كما أن تطور المدن يخضع لهذه التجارة أيضاً ، فمدينة جدان (شكل ٤٧) وخاصة مالي وتمبكتو وجاو سيملؤها التجار من مصر والمغرب ودعاتهم الذين كانوا ينشرون في نفس الوقت النباتات الحياتية والبقول ومختلف أنواع الحيوانات (مثل الخيول العربية والدواجن) ، كما كانوا ينشرون أشكالاً مختلفة من الثقافة إلى جانب العقيدة الإسلامية واللغة العربية والأساليب المعمارية إن مسجد جاو بسطحه المسنن ومئذنته الهرمية الشكل ليؤكد التأثيرات القادمة من الشمال (لوحة ٢٠ جـ) وخاصة من صحراء الجزائر ، وهي تأثيرات بعيدة المدى ستؤدي إلى العديد من الأنماط المختلفة لإسلام أفريقيا الذي نضج وأصبح مستعداً لتوسعات أكبر .

الفصل الثالث

العصر العثماني

ها نحن قد وصلنا إلى أحد أهم العصور الإسلامية والذي يمثل ذروة العالم التركي ، فلقد مهد له السلاجقة ومن بعدهم المغول ، وأخيرا فقد عثر الإسلام السني التركي على من يجمع شمله لمدة ستة قرون في إمبراطورية جديدة أكثر تماسكا وأكثر استقرارا ، كما ستتأكد في الوقت نفسه مصائر جديدة للإسلام وللشعب التركي ، فلقد اخترق المضايق ناحية الغرب بعيدا عن آسيا الوسطى التي عاصرت ميلاده ليصبح قوة بحرية قادرة وواحدة من أهم قطع الشطرنج الأوروبي .

لقد أساء التاريخ فهم هذا العصر لمدة طويلة وبالتحديد من خلال أوروبا ، فهناك دائما مكان لحقيقة تاريخية أكثر وضوحا بين ميزان الله و « الإنسان المريض » ، إنها الحقيقة التي يستشفها العلماء من بين مئات الألوف من الوثائق التي راح الباب العالي يكونها ببطء ، فبعيدا عن الأهوال التي أثارتها الإمبراطورية الحديثة لأوروبا المنقسمة ، وبعيدا عن الأحقاد التي ما زالت تغذيها في الشعوب والأمم الخاضعة لها ، إلى جانب ذكرى اضطرابات إمبراطورية تتهاوى ، فإن ما يراه البحث العلمي منبثقا من الظلال هو تاريخ يجلب الخير والشر معا ، معتمدا أحيانا على تقاليد بالية ، ومتفتحا أحيانا أخرى على الإكتشافات الجديدة ، بل وسباقا على عصره ، وفي كافة الأحوال فإنه يرى دولة ضخمة تتكون .

١ ـ حدود وأساليب التوسع السني الجديد :

لقد تحدثنا عن دولة ، وفي الواقع أنه لا يمكننا إدراك اتساع هذا الفتح إلا إذا تخيلنا إدارة قوية تدعم هذه الدولة ، إذ أن نجاح الإمبراطورية العثمانية لا يكمن في أسلحتها فحسب ، وإنما في سياسة القوميات أيضاً .

مراحل التطور العثماني .

لقد سبق أن أشرنا إلى فجر القوى العثمانية التي تولدت في إمارة (بيليق) في آسيا الصغرى ، فلنتتبعها بخطوات واسعة كما تفرضه علينا مسيرتها الخارقة .

آسيا الوسطى مهد العثمانيين .

إن العثمانيين المنحدرين من إحدى قبائل الغز قد استمدوا اسمهم من واحد من أوائل زعمائهم هو عثمان الذي توفي في الربع الأول من القرن الرابع عشر ، وقد عرفت الدولة العثمانية أولى انطلاقاتها على أيدي خلفاء عثمان هذا ، وكانوا من العظماء المحنكين سياسيا ، ومنهم أورخان (المتوفي عام ١٣٥٩) ومراد الأول (١٣٥٩ ـ ١٣٨٩) وبايزيد الأول (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) فقد حالفهم الحظ إلى جانب مهارتهم ليعطيهم شطآن بحر مرمرة حول عاصمتهم البروسة ، إلا أن عبقريتهم تكمن في كيفية الإستفادة من مميزات هذا الموقع ، إذ كانت أوروبا على بعد عدة فراسخ ، أي أن أرضا جديدة كانت تمتد تحت أيدي هؤلاء الغز ، لذلك استغل العثمانيون كافة الوسائل المتاحة لهم لفتح المدن ، وذلك مثل المنافسات القائمة بين الطبقات المتبقية من بيزنطة ، أو بين بيزنطة وجيرانها ، والتحالفات الجديدة أو وقف فاعليتها ، بل وحتى الهزات الأرضية : كل شيء قد أفادهم وساعدهم على إخضاع الآخرين ، وسرعان ما سيطروا على الصرب والبوسنة وبلغاريا وجزءاً من اليونان ابتداء من أواخر القرن الرابع عشر ، وفي عام ١٣٦٢ تم الإستيلاء على أدرنة التي أصبحت دعامة جديدة للإسلام فيما وراء المضايق .

وهناك مهارة أخرى : فعندما استولى الأتراك على أوروبا بدأ الأوروبيون المجندون يعاونونهم على اخضاع آسيا الصغرى ، وفي الواقع أن العثمانيين قد فتحوا القارتين بفضل دهائهم وتحايلهم ، وفي نفس أواخر ذلك القرن الرابع عشر نجحوا في السيطرة على بلاد الأناضول بأسرها ، بفضل الحروب والتحالفات والزيجات .

وبدأت أسباب نجاح العثمانيين ترتسم منذ ذلك الوقت ، فقد كانت مميزات موقعهم الجغرافي تساند شخصية زعمائهم ، وحماسهم الحربي ، وما يجب أن نراه بعد ذلك هو الأسلوب المنهجي للفتح والإدارة التي وضعت فورا في موضعها ، والعناية الفائقة المدخلة على أجهزة الجيش والحرفيات وتدخل الدعائم الدينية والسياسية والعسكرية من أجل ادماج الدولة في تجانس واحد ، وذلك بالإضافة إلى المصير الذي كان ينتظر الشعوب الخاضعة لهم ، ففي كل مكان كانت هناك واقعية لا يمكن اغفالها تؤكد حرص العثمانيين حيال بيزنطة ، فلقد آثروا الإنتظار لأسباب استراتيجية بحتة أو لأسباب دولية .

إن معركة أنقرة (٨٠٤ /١٤٠٢) التي خسروها أمام تيمورلنك أفقدتهم زعيمهم بايزيد الأول الذي تم أسره في الوقت الذي استعادت فيه قبائل تركمان الأناضول حريتها الصاخبة ، أما أوروبا التركية فلم تتحرك ، سواء كان ذلك بسبب مللها أو رضاها بمصيرها ، مما ساعد العثمانيين على إعادة نسج خيوطهم بصبر بعد اجتيازهم الأزمة .

أزمة القرن الخامس عشر وعواقبها .

لقد اهتم محمد الأول ، ثالث أبناء بايزيد ، بحل أزمة الأسرة الحاكمة بنفس الأسلوب الحاسم الذي كان يستخدمه والده ، وسرعان ما تخلص من أشقائه سواء بالسلاح أو بالإغتيال ، ثم راح يحدد معالم السياسة العثمانية الجديدة والتي سيسير ابنه مراد الثاني على نهجها .

وفي واقع الأمر فإن هذا التحديد لم يمس الهدف الأصلي في شيء ، إذ ظل كما هو : السيطرة على القارتين ، فمنذ رحيل تيمورلنك بدأ الإنتقاض على سياسته وخاصة « بلقنة » الأناضول وعودة أحياء إمارات التركمان التقليدية ، وعاد النصف الغربي لآسيا الصغرى عثمانيا بعد مرور خمسة وعشرين عاما على موقعة أنقرة ، أما في أوروبا فقد أمكن وقف الحملة الصليبية بقيادة المجريين قرب قارنا (عام ١٤٤٤) وبذلك دعم الأتراك ممتلكاتهم القائمة ، التي أضافوا إليها شبه جزيرة المورة (اليونان) كما تدخلوا في البانيا ووصلوا حتى بلغراد .

أما الجديد حقا فيكمن في روح هذه السياسة والأساليب المستخدمة فيها ،

إذ تأملوا ما تعرضوا له من فشل سابق وبدأ الأتراك في جمع تراث ماضي شعب الغز وتمجيده ، وتغنوا بالفتح لصالح الدولة ، لكن هناك فرقا كبيرا بين فتح وفتح ، فلم يكن ممكنا أن يقوم المسلمون الطيبون بإخضاع إخوانهم في الأناضول ولا معاملتهم بنفس الطريقة التي يعاملون بها الكفرة مثلما فعل بايزيد ، وأصبح الفتح الثاني للأناضول نهائيا بفضل هذا الحذر ، فقد ضمها العثمانيون في مغامرة كبرى هي مغامرة الشعب التركي بأسره وليست مغامرة إحدى أسراته .

ومن هنا قام الجانب التركي المائل إلى الغرب بتجنب الإنتقادات الموجهة لسياسة أوائل السلاطين المائلة إلى الغرب ، وقد كان العثمانيون من الذكاء السياسي بحيث أدركوا أن دولتهم لن يمكنها الإستمراد بدون المسيحيين الأوروبيين وأنه من المحتم عليهم التحالف معهم ، مما نتج عنه تلك المؤسسة التي أدت إلى الكثير من الجدل والتي كانت تقوم باختطاف الأطفال المسيحيين من المقاطعات ولعل إصداء هذه الوحشية ما زالت تتردد على جسور نهر درينا . . . لا شك أنها كانت محنة قاسية بما أنها كانت تختطف الأطفال لتجنيدهم وتغيير دينهم قهرا ، وفقا لعادة الغز ، كما يجب ألا ننسى أن العبودية كانت تدخل في المناخ العام لذلك العصر ، بما في ذلك البلدان السلافية ، وإن هؤلاء الأطفال الذين تتم تربيتهم ليخدموا في البلاط أو في الجيش كانوا يصلون إلى مراكز يحسدون عليها وأحيانا إلى مراكز فريدة ينعكس بريقها ومميزاتها على أسراتهم ، إذ كانوا يظلون على صلات بها .

وعلى أي حال فقد أدت هذه السياسة الناجحة للعثمانيين إلى تأكيد ميل أساسي وعام ، يزيد من اتجاه الدولة التي راحت تغير شعارها ، إذ أن الإدارة الجديدة ـ أيا كان أصلها ـ بدأت تفلت تدريجياً من أيدي الأرستقراطية الأناضولية القديمة ، وكان الموظفون المعينون من بين أفراد الشعب يصبحون ملكية خاصة للسلطان ، ملكية بمعنى عبيد له ، وتعد هذه البدعة خلطا غير واضح ، إذ كيف يمكن لسياسة يقال أنها إسلامية أن تعيش على مفهوم استعباد المسلمين ؟ . . لكن الحقائق أمامنا تشهد بواقع العثمانيين في أوائل حياتهم ، وأصبحت الدولة من شأن السلطان ، وفي الوقت نفسه من شأن اتباعه المنتمين إليه مباشرة ، وتحددت المعالم التي ستسمح لهذه الدولة أن تتحول إلى امبراطورية .

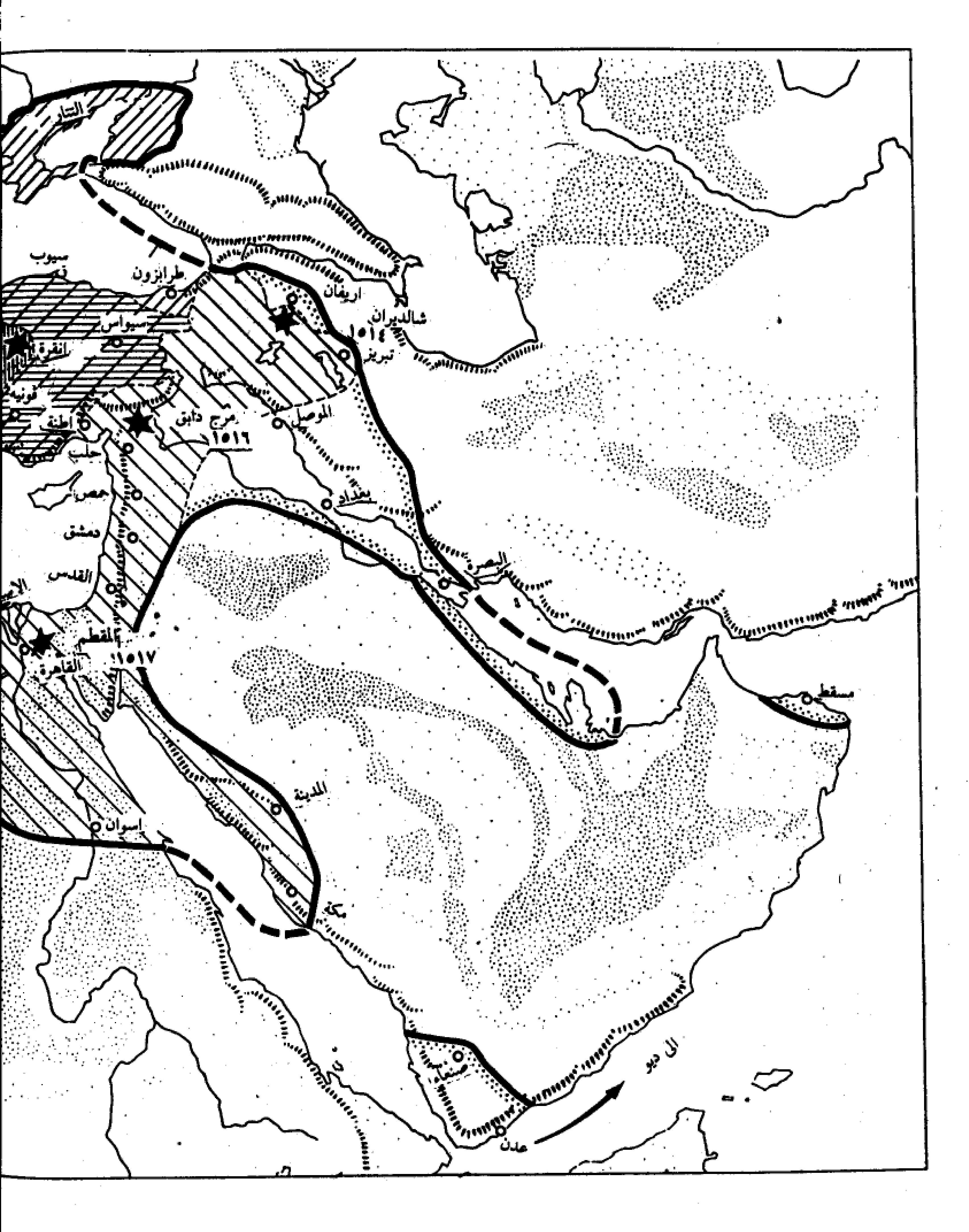
الإمبراطورية : أهداف غير خاضعة تماما في كل من أوروبا والبحر الأبيض المتوسط .

خلال قرن من الزمان تحولت الإمبراطورية إلى أكبر قوة في آسيا ، كما أصبحت المنافس لأكبر القوى المسيحية (خريطة ١٩) وذلك بفضل كل من محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١) وبايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢) وسليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) وسليمان الأول : سليمان الأعظم بالنسبة للأوروبيين أو سليمان القانوني بالنسبة للأتراك (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) .

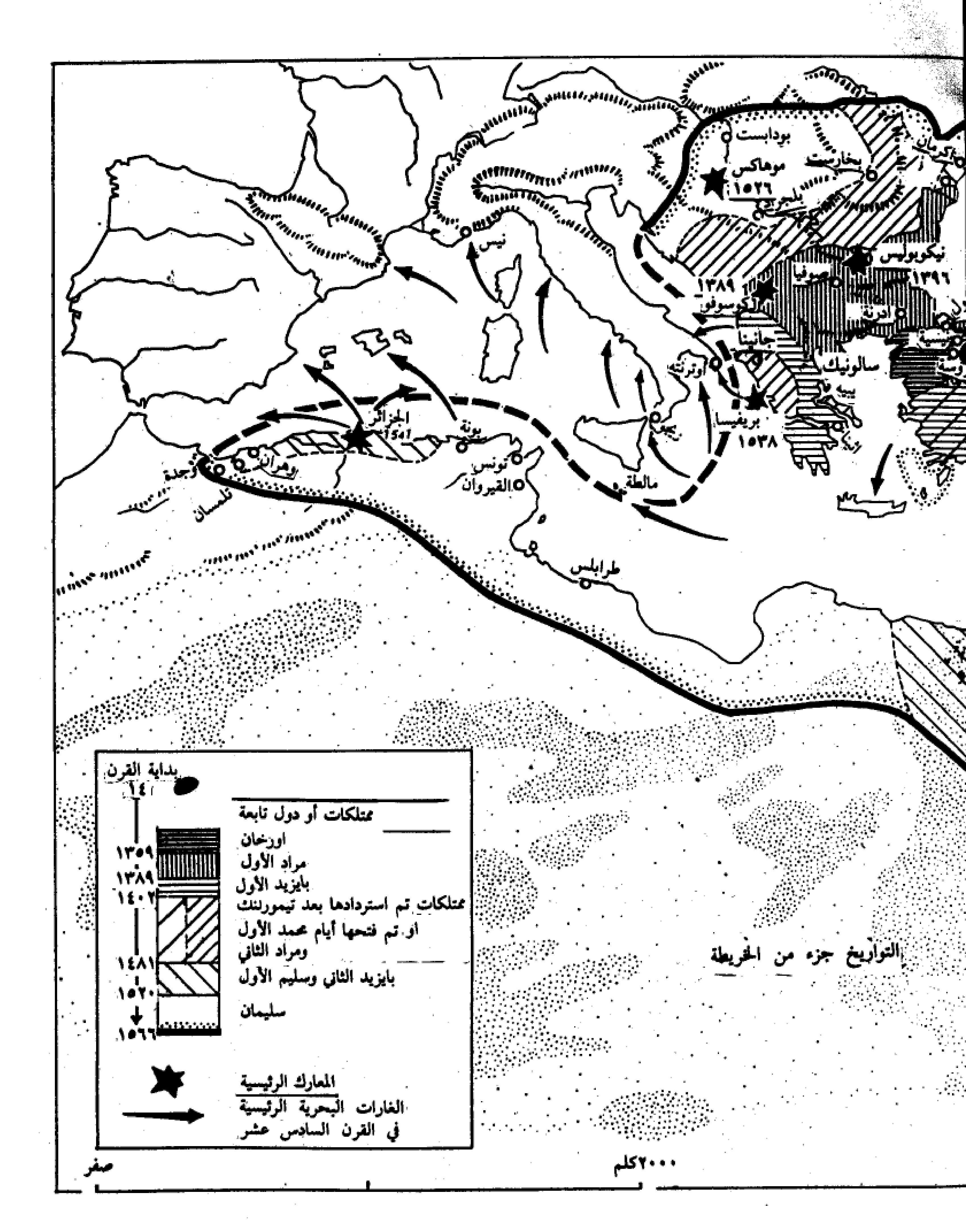
وأخيرا بدأت الإنطلاقة العثمانية تعتمل حول البحر الأبيض المتوسط ، ولا يوجد أي شيء يمكنه التعبير عن أي حنين إلى آسيا الوسطى التي نشاؤا فيها ، فبعد ضياع مختلف إمارات تركمان الأناضول الوسطى والشرقية بما في ذلك المناطق الواقعة بين أعالي ما بين النهرين وأذربيجان ناحية قبائل الغنمة البيضاء وقبائل الغنمة السوداء ، فإن العثمانيين قد اكتفوا بالإستقرار على الحدود الجبلية لشرق فارس المنهزمة في معركة تشالديران (١٥١٤) ، واستكمالا لهذه السياسة الإحتوائية فقد سيطروا على ما بين النهرين (وسقطت بغداد عام ١٥٣٤) .

أما في شمال البحر الأبيض المتوسط فقد انقضوا على أوروبا المنبسطة حيث السهول والقمح والخيول وفي عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية ، لتصبح العاصمة الجديدة للإمبراطورية ، تحت اسمها الجديد : استانبول ، وفي عام ١٤٦٧ انتهت المقاومة الألبانية بموت بطلها : اسكندر بج وعام ١٤٧٥ فرضت الحماية على إيلخانيات التتار في القرم وعام ١٥٢١ سقطت بلغراد ، وعام ١٥٢٦ معركة الموهاكس واحتلال المجر لمدة قرن ونصف ، وعام ١٥٢٩ حصار النمسا ، ولا يفوتنا أن نستكمل هذا العرض للنجاح العثماني بالتدخلات السياسية التي سمحت لهم بالتحالف مع فرانسوا الأول ضد شارل الخامس

وفي اتجاه الجنوب أدى الإنتصار في معركة مرج دابق (١٥١٦) على المماليك إلى فتح أبواب سوريا ، وبعد ذلك بعام دخل السلطان سليم القاهرة ، وطوال نصف القرن التالي وجدت الإنطلاقة التركية ناحية شمال أفريقيا معاونة فائقة من بعض القراصنة أمثال خير الدين « بربروسة » المستقر عند شطآن



الخريطة ١٩ ـ الامبراطورية



التركية تحت حكم سليمان

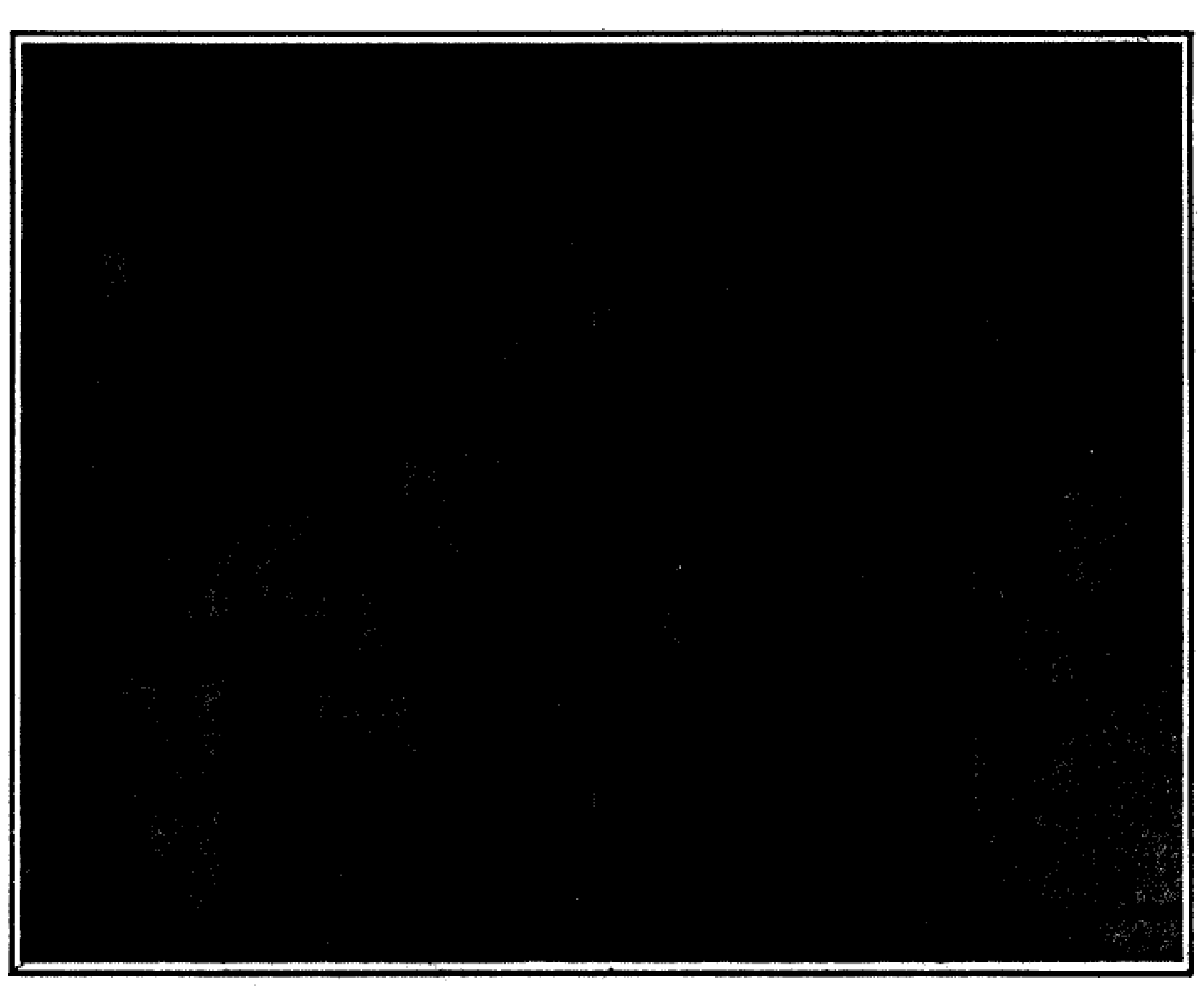


(٢٣ ـ استانبول حوالي منتصف القرن التاسع عشر .

أ ـ مدخل قاعة الإستقبال بالسراي .

ب ـ البازار الكبير (لوحة رسمها الفنان الإنجليزي توماس الوم) .





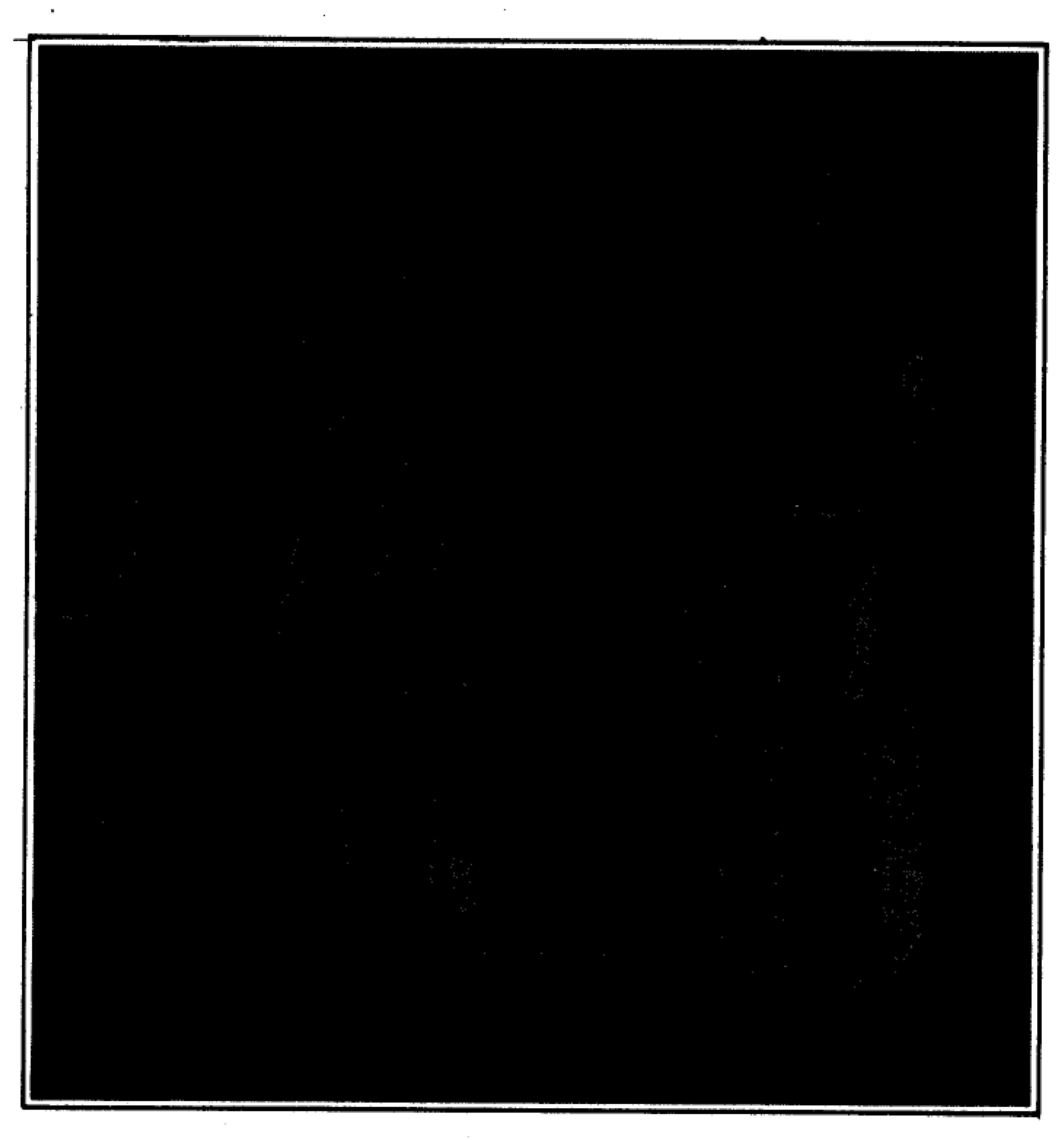
(٢٤) أ ـ مسجد السليمانية (استانبول) قام ببنائه المهندس سنان (القرن السادس عشر) .

الجزائر ، ودخل المغرب بأسره في عملية تحركات شرقية باستثناء مراكش .

وأخيرا الجزر ، ففي عام ١٤٦٢ انتزعوا جزيرة لزبوس (موللي) من سكان جنوة ، وعام ١٤٧٠ انتزعوا جزيرة أيبه (تجرونيت) من سكان البندقية ، وفي عام ١٥٢٢ انتزعوا جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا ، وهكذا أصبح بحر إيجة عبارة عن بحيرة عثمانية ، واستمر الفتح بصعوبة لكنه كان باهرا وكانت البندقية هي الخاسرة ، ففي عام ١٥٧٠ ـ ١٥٧١ سقطت جزيرة قبرص وتبعتها جزيرة كريت عام ١٦٤٥ ، وراحت البحرية التركية تضاعف من غزواتها فسقطت أوترانت لمدة عام سنة ١٤٨٠ وتم غزو مدينة نيس عام ١٥٤٣ .

حظ وسوء حظ البحرية .

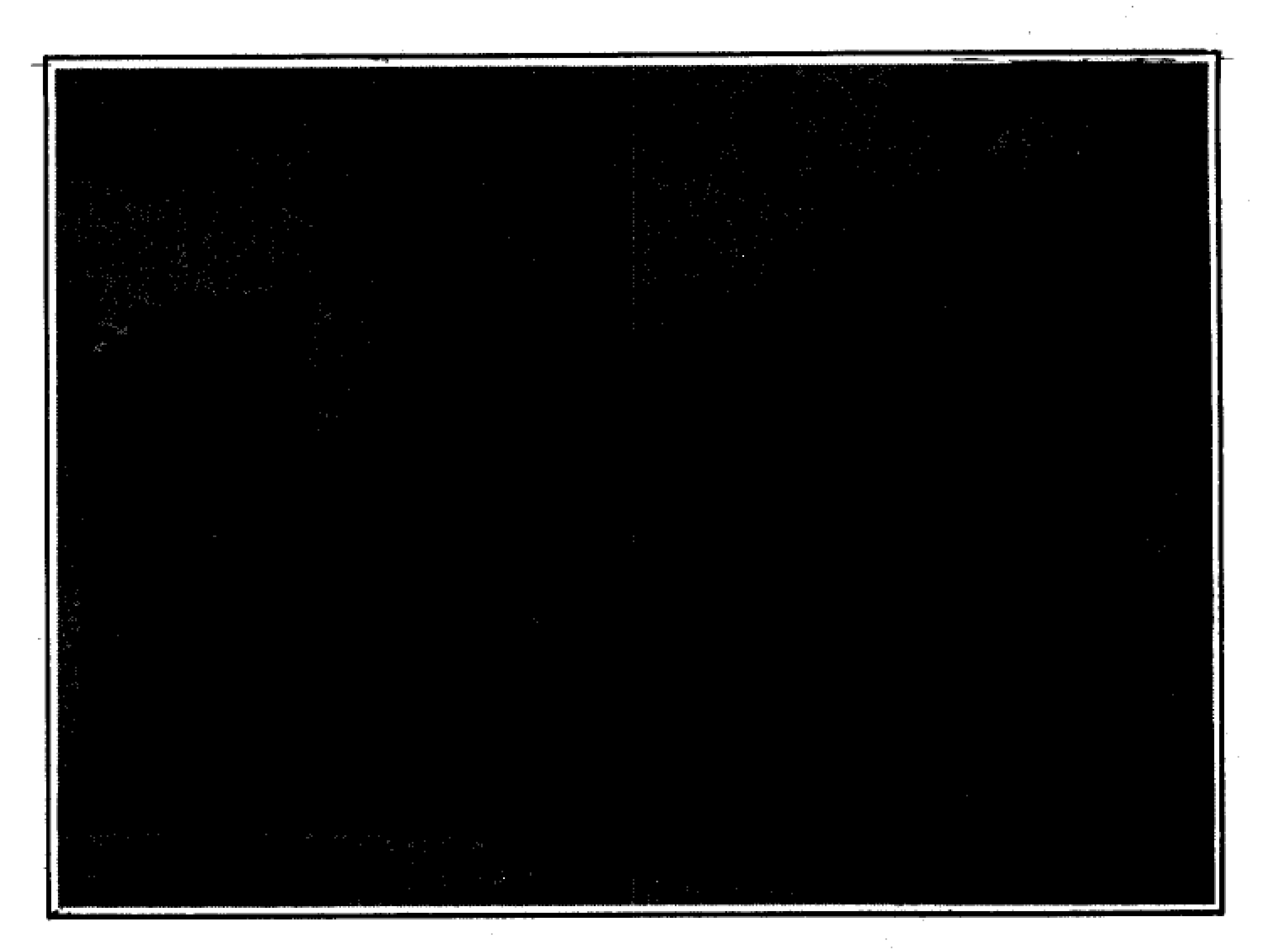
كانت مثل هذه السياسة بحاجة إلى دعامة ، وذلك ما حاوله العثمانيون بلا هوادة ، فحتى أواخر القرن الخامس عشر عرف تاريخهم البحري تحركات شديدة



ب ـ شيراز (إيران) مسجد الوكيل ـ النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

تعقبها مآس أو صحوات مذهلة ، تساندها سياسة السلاطين الواعية ، والعادات القديمة للشعوب البحرية وموارد الغابات التي لا يستهان بها فكانت أوسع الفتوحات التي عرفها تاريخ الإسلام البحري .

ومن سوء حظ البحر الأبيض المتوسط أنه كان يزخر بمن يرغبون في أن يظلوا سادته ، فهناك ليبانت وانتصار المسيحية المناضلة لعصر النهضة (عام ١٥٧١) وبعد ذلك بكثير هناك انتصار نافارين (عام ١٨٢٧) الذي احرزته الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والروسية ، وهذه ليست إلا بعضا من الأمثلة العديدة التي لا



جـ - مكناس (المغرب) باب المنصور (أواخر القرن السابع عشر ، أوائل القرن الثامن عشر) .

حصر لها لسوء حظ العثمانيين في البحار ، ترى هل تكفي تلك الأحداث لتفسير أن الإمبراطورية العثمانية لم تنجح في أن تكون لنفسها سيطرة بحرية حتى أيام خير الدين الذي رقى إلى رتبة « قبطان باشا » للبحرية التركية وقادها إلى النصر ضد الإيطالي أندريا دوريا ؟

ولتفسير مرارة هذه الأحداث لعل البعض سيشير إلى عجز الكوادر وعدم كفاءة البحارة الذين كانوا يجندون قهرا ، والتخلف الذي كان لا بد من السيطرة عليه بإجراء التعديلات الحديثة المطلوبة ، لكن هناك أسبابا أعمق ، أن البحرية العثمانية (شكل ٤٨) سواء كانت تستخدم سفن تجديف بالمجاديف أو سفنا شراعية ، فإن هذه البحرية كانت أولا أداة حربية وقلما كانت أداة تجارية .

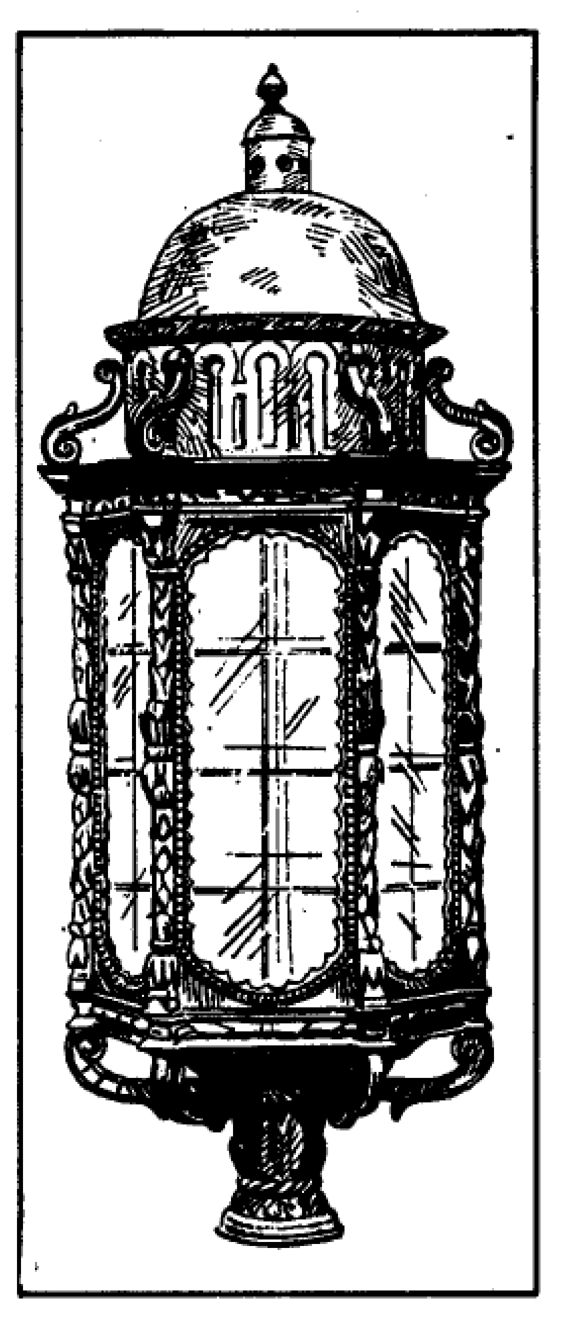
ولجأت الإمبراطورية منذ البداية إلى أسهل الحلول أمام إعداد بحرية البندقية وجنوة وفلورنسا التي لا حصر لها ، فهل كان ذلك خضوعا منها ؟ . . لقد



د ـ علي كابو ، قصر السلطان عباس الأول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) في أصفهان .

كانت الإمبراطورية تتاجر في معظم الأحيان من خلال تدخل أجنبي ، وحتى في هذه الظروف فإنها لم تزود البحر الأسود ولا بحر إيجه ولا المياه المصرية إلا ببحرية تجارية متواضعة يعد أغلبها في أيدي اتباعهم اليونانيين ، ولا شك أن أسوأ ما

عانت منه هذه الامبراطورية ـ سواء كان ذلك في البحر الأبيض المتوسط أو المحيط الهندي هو « اختناقها البحري » .



ـ شكل ٤٨ ـ فانوس سفينة تركية .

من جيش الغز إلى جيش الانكشارية .

يعد الجيش قطعة أساسية في السلطة العثمانية ومحور كل اهتماماتها ، وقد اتخذ شكله النهائي في القرن السادس عشر ، وبدأ بجمع العادات السابقة ، واهتمت الفرق التابعة للسلطة المركزية بنظام الرواتب ، سواء كانت هذه الفرق من الانكشارية أو من الفرق التخصصية ، أما في المقاطعات فإن الرجال ـ وخاصة الفرسان ـ كان يتم تعيينهم عن طريق وكلاء متخصصين بإدارة جباية الضرائب ، وهم يماثلون القائمين على الإقطاع في العهد البيزنطي ، وأخيراً فهناك غير النظاميين وهم يقومون بدور لا يستهان به على الأقل حتى القرن السادس عشر .

وتخضع هذه المؤسسة بصرامة لنظام الدين وعلم الأخلاق ، بدليل أن الإنشكارية كانوا تابعين لطائفة الدراويش البكتاشية ، وبدليل ـ أيضاً ـ سمو مكانة وظيفتي « قاضيا الجيش » وكانتا تمثلانه في مجلس الأمير ، وبهذه السيطرة الشديدة تصبح الفرقة في إجمالها باسلة وصبورة ، ولا شك أن أفضل نموذج ممثل في فرقة الإنشكارية المختارة (شكل ٤٩ , ٥٠) التي يتم امدادها بانتظام عن طريق تجنيد الأطفال المسيحيين وتعليمهم وفقا لتعاليم الإسلام والعادات التركية ، ثم يودعون الثكنات ، وهكذا يصبحون أفضل جنود للإمبراطورية ، وهم تابعون لشخص السلطان مباشرة ، ومن ناحية أخرى فهم إلى حد ما يمثلون حرس ذلك الجيش الكبير ، ولكنه حرس مكون من جنود مشاة فقط ، كما أنه حرس قد تغذي

بالحماس الديني ولا يعرف سوى صداقة الرجال فإن الانكشارية كانوا لا يمكنهم الزواج .



ـ شكل ٤٩ : انكشاري بريشة ، جنتي بلليني .

ولا شك في ضخامة هذا الجيش ، فإذا ما رجعنا إلى بعض أرقام إحصائية خاصة بالقرن السادس عشر لوجدنا أنه كان يتكون من ٢٠,٠٠٠ غير نظامي ، و٣٥,٠٠٠ متمتعين بالاقطاع (ويرتفع عددهم وفقا لاحصائية أخرى إلى ٦٠,٠٠٠ في أوروبا وحدها ، بالاضافة إلى ٨٠,٠٠٠ من الخيول) وأيام سليمان وصل عدد الانكشارية إلى ٢٠,٠٠٠، وعلى أي حال فقد كان جيشا سباقا على عصره من الناحية الفنية ، وتعد مسابك مدافعة ذات شهرة واسعة ، وتؤكد له موقعا فريدا في مواجهة جيوش آسيا أو حتى جيوش المسيحيين (شكل ٥١) ، وقد كان هناك تنظيم رائع يدير هذا الجيش ، ومنها العبقرية الحربية وإدارة تزويده بالمعدات إلى جانب الإدارة العسكرية ، ولعل حسن هذه الإدارة العسكرية بالإضافة إلى بساطة هذا الجندي التي لا مثيل لها تساعدنا على تفسير الرقم المرتفع لعدد القوات المسلحة ، فلم تعرف أوروبا الجيوش ذات المائة ألف من الرجال إلا في القرن السابع عشر أيام والنشتاين .

يا لها من « عصرية غريبة » تلك التي أبعدت من الذاكرة الجيش الأول والصاخب للغز ، والذي لم يعد يستكمل عادته في المقاطعات سوى فريق أولئك الوكلاء بإدارة جباية الضرائب ، أما الجيش الجديد فهو أولا إدارة متماسكة

الأطراف مثل كل الادارات العثمانية ، ففي ذلك القرن السادس عشر فإن قيمته لا ترجع إلى التكتيك المستخدم حيث ما زال به بقايا بعض عادات العالم التركي المغولي ، وإنما ترجع إلى الاعداد الدقيق للحياة اليومية أو الحربية لهذا التكوين الكبير، ولنكتف بذكر الافراط في الدقة المتبعة في التجنيد، وفي قواعد السير أو التوقف، ولنترك جانبا بذخ الزي الانكشاري الذي يمكن مشاهدته في متحف بلغراد ، إذ أن كل ما سيحتفظ به الغرب من هذه الآلة الحربية التركية المهولة هو الصمت الرهيب الذي تقام به معسكرات جيش قانع .



ـ شكل ٥٠ : زي انكشاري .

النظام يسود البلدان المحتلة

على الرغم من فعالية هذا الجيش فإنه لم يكن يكفي وحده للمحافظة على البلدان التي تم غزوها في فلك السلطة الجديدة ، إذ أن إخضاعها على المدى الطويل كان يرجع مباشرة إلى موقف الفاتحين فيما يتعلق بالأعمال الادارية ، ويمكن القول اختصاراً أن هذه الادارة أساساً إلى متطلبات النظام والضرائب ، وإن تأكيد سلامتها كانت كافية ليبتعد الاتراك بقدر الامكان عن الهياكل السياسية والطائفية القائمة ، وهكذا أمكن لبعض المسيحيين أن يحصلوا على مكانة في المكاتب العثمانية كما أمكن لغيرهم الحصول على إقطاعية ، إذ أن الإلتزام الوحيد عليه هو تبعيته وإخلاصه للدولة وليس للدين الإسلامي ، وأخيرا فإن الدعامة الكلاسيكية لإدارة المقاطعات العثمانية سمحت باستثناءات عديدة خاصة في أوروبا ، إذ تركت للأمراء المحليين حق إدارة مقاطعاتهم كيفما شاؤ وا

شريطة أن يظلوا خاضعين للدولة ويؤدون لها الجزية المطلوبة ، ترى هل كـانت هنـاك ابتـزازات ؟ . . من المحتمل ولا شك خاصة أثناء الغزو ، ولكن ما إن تمر الصدمة حتى يجد الشعب نفسه أمام سلطة أشد تنظيماً وأفضل إدارة مما كانت عليه بيزنطة المنهارة أو الدول اللاتينية ، وعلى ما يبدو فإن عمليات نقل الشعوب التي تمت خاصة في أوائل الغزوات في أوروبا ، فإنها نادراً ما بلبلت المناطق الخاضعة والآهلة بالسكان وعلى أي حال فلم نشهد أية اضطهادات بشكل منتظم ، بل على العكس لقد قدمت الإمبراطورية وعلى رأسها استانبول ملجأ لليهود الأوروبيين الهاربين من مذابح القياصرة ، فوصل إليها يهود بوهيميا الهاربين ثم القادمون من النمسا وبولندا وبعد عام ١٤٩٢ جاء الهاربون من إسبانيا الكاثوليكية الشديدة التعصب .



ـ شكل ٥١ ـ
مدفعي تركي راكب على أهبة الإستعداد .

ولقد قدمت الإمبراطورية لكل هؤلاء كيان الوطن ضمنا ، أي أنها قدمت لهم كفالة الأمة المنظمة والحماية اللازمة تحت سلطاتها الخاصة ، وبذلك أصبح كل يهود الإمبراطورية خاضعين للحاخام باشي المقيم في استانبول ويعتبر شخصية رسمية في الدولة ، أما الطائفة الأرثوذكسية فكان وضعها أكثر اعتبارا لأنها كانت خاضعة للبطريرك اليوناني للقسطنطينية ، أما الطائفة الأرمنية فلم تكن أقل مكانة إذ أن بطريركها كان له نفوذ على الكاثوليك والنسطوريين واليعقوبيين ، وبشكل عام ، كان له نفوذ على جميع الطوائف المسيحية غير الأرثوذكسية ، وأحيانا ، في الممارسة العملية كانت بعض الظروف المحلية تسمح لهذه الطوائف بالإحتفاظ بجنسيتهم وبتبعيتهم الطائفية .

كما تدلنا الوقائع على أن النظام كان سائدا في كل مكان تقريبا ، مما ساعد على تنشيط التجارة وأحرز اليونانيون تقدما أكثر من السلافيين وسط الأمة الأرثوذكسية ، وحصلوا لأنفسهم على مواقع ثابتة في بنيان الإمبراطورية ، وذلك مثل الأرمن واليهود في الأعمال التجارية ، أو الأقباط في الحياة الإقتصادية والإدارية في مصر ، وباستثناء عملية إعداد الأطفال إلى إنكشارية فلم يتم في أي مكان من الإمبراطورية إدخال أي شخص في الإسلام بالإكراه ، أما تحول بعض المناطق في أوروبا إلى الإسلام فقد كانت مثلما حدث على امتداد تاريخ الإسلام نتيجة لعوامل اجتماعية بحتة ، راحت تنتشر ببطء مثل بقعة الزيت من المدن إلى الريف ، وكان ذلك أحيانا كمحاولة للإنتماء إلى الطبقة الحاكمة ، أو كرد فعل انتقامي ، مثلما حدث في البوسنة ضد الإضطهادات الكاثوليكية ، أو هربا من ثقل جباية الكنيسة الأرثوذكسية ، ولم يكن بوسع أي سلاح أن يثير حركة بنفس الإتساع الذي حدث عندما دخلت البوسنة في الإسلام في القرن الرابع عشر .

واختصارا للقول فإن الإمبراطورية العثمانية تبدو في أجمل أيامها في النصف الأول من القرن السادس عشر كملجأ للسلام الديني في مواجهة أوروبا المضطهدين ، فلا الطوائف المختلفة ولا الجماعات الأقليمية ستنتزع من جذورها : بدليل النشاط والحيوية التي يمارسونها إلى يومنا هذا .

٢ ـ الدولة والسلطة :

مثلما كان النظام يسود في القاعدة فقد كان سائدا أيضاً في القمة ، إذ أن البناء الذي شرع فيه العثمانيون يدل على ذلك بروعة فائقة حتى وفاة سليمان الأعظم .

ثلاثة مسائل أساسية .

١ ـ بيزنطة أو الإسلام . . . ؟

أولا ، لنتجنب موقفا يتهم الميراث البيزنطي ويجعله السبب فيما حالف الإدارة العثمانية من حظ ، فعلى حد قول س . كاهن فيما يتعلق بنقطة المساحة « لماذا لم يستخدم العثمانيون عملية المسح البيزنطي أو المسح السلافي » ؟ بل ولماذا كان من الصعب عليهم القيام بعمل مسح شامل حيثما لم يكن موجودا ؟ .

في الواقع لقد حاولوا عدم المساس بنظام المؤسسات الأساسية إلا في أضيق نطاق ممكن ، ولم يحاولوا الإخلال بنظام تلك المؤسسات القائمة على مستوى الأرض المحلية أو القانون الخاص في مختلفة الجماعات الطائفية ، إذ أن إقامة سلطة مركزية كانت كافية لجمع تراكمات الماضي الإسلامي والبيزنطي حيث أن الماضي الإسلامي يظل هو الأغلبية العظمى ويضم إلى جانب الميراث الإسلامي البحث بعض أصداء للعادات التركية وإن كانت بشكل نادر .

٢ ـ قانون ديني أو دولة علمانية ؟

إن هذا السؤال يتداخل تلقائياً مع سؤال آخر : إلى أي مدى استلهمت الدولة العثمانية الدين الإسلامي بصفتها تمثل ما فرضه الإسلام على أراضي « الكفرة » السابقة وخاصة على عاصمتهم السابقة ؟ عاصمة الشرق المجيدة .

لقد تحدثنا فيما سبق عن منصب القضاة في الجيش ، فهؤلاء القضاة وأمثالهم من رجال الجوامع والمدارس الدينية ظلوا يعتبرون أنفسهم خاضعين لقانون أعلى من قانون الأمير في كافة الأحوال وابتداء من سليمان لاحت محاولة جديدة لوضع مفتي استانبول الكبير ، شيخ الإسلام ، الذي يمثل الضمير الديني للأمة ، في أعلى قائمة جميع رجال القضاء والفقهاء والقضاة في الإمبراطورية ، وفي الترتيب تالياً لرئيس الوزراء ، أي الشخصية الثانية في قمة الكيان الإداري للدولة .

ومع ذلك فإنه إذا كان على « شيخ الإسلام » أن يمنح الصفة القانونية لأعمال السلطة فمعنى ذلك أن مبادراتها ستفلت من أيدي السلطات الدينية .

٣ ـ أدولة إقطاعية ؟

وهكذا استطاع القانون العثماني أن يتكون ، فلم يمنعه كل ما به من إدماجات من أن يكون شديد الابتكار ، ولا شك أن الضرائب هنا أيضاً استمرت في عادتها الأزلية ، التمييز بين ضريبة العشور الإسلامية والجزية التي يدفعها الذميون ، والتردد بين الإدارة المباشرة ونظام الوسطاء والتقليد المتبع مع الدول التابعة وضرورة ما تدفعه للخزانة ، ووجود عدة نوعيات من الضرائب والرسوم إلى جانب الضرائب المباشرة ، وكلها منفذة بعناية فائقة ، يقوم بها موظفوالدفتردار على مستوى المقاطعات وفي استانبول .

أما الجديد فهو وضع الأرض ، فقد استطاعت الدولة الإستيلاء على الغالبية الشاسعة من الأراضي بانتظام ووفقاً لواقع الأحداث ، أو عن طريق الفتح ، فقد تم ذلك بموجب مفهوم مكمل لذلك المفهوم الذي يحكم العلاقات بين السلطان وأتباعه ، فبنفس الطريقة التي كانت تجعل من هؤلاء الاتباع عبيداً له ، كانت الأراضي من ممتلكاته ، وبالتالي تصبح الضريبة « ديناً خاصاً له » أي أن الرجال والأرض أو الدولة بأسرها تصبح ملكاً للأمير .

أما عادة الإقطاع التي كان يمكنها أن تغير من وضع الأشياء من حيث المبدأ وإقامة بعض الممتلكات المميزة أو المستقلة فلم تغير من شيء ، فالأرض لم تكن تورث ، كما كانت مساحاتها محسوبة بدقة متناهية مما لم يكن يسمح لصاحب الحق عليها إلا بالعناية بها وبإدارة حفنة من الرجال تحت سيطرة صارمة ، تخضع مباشرة للدولة ، وكما نرى فلم يكن هناك ما يبرر كلمة « إقطاع » المستخدمة أحياناً في النظام العثماني .

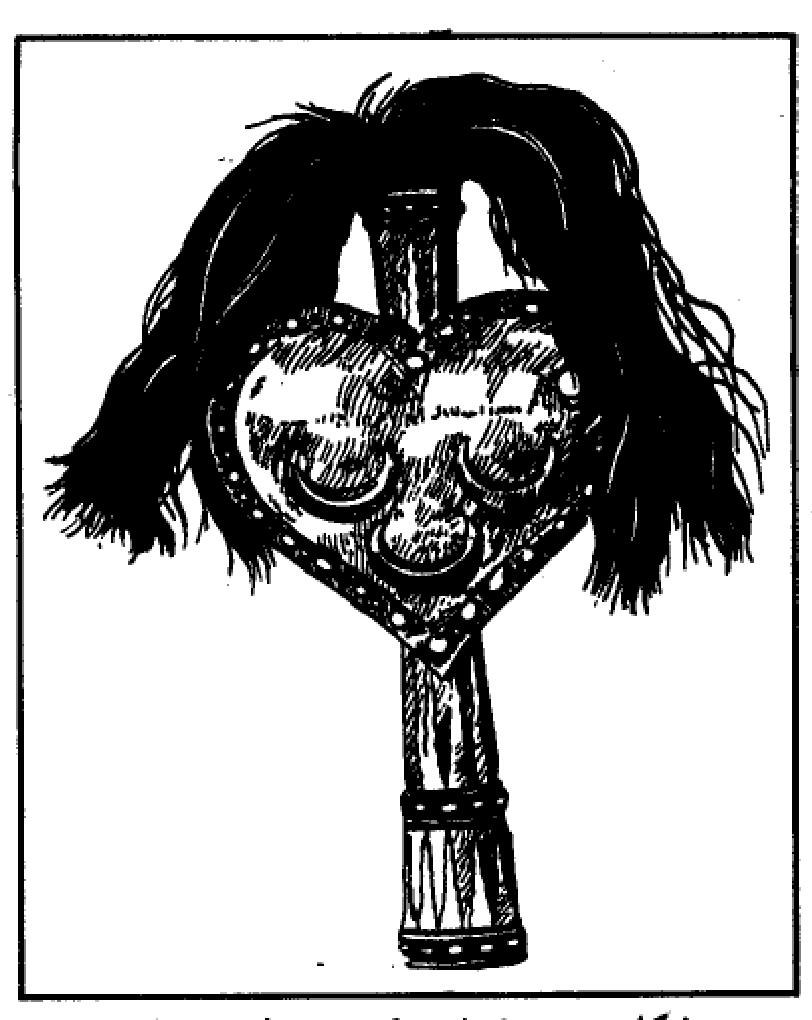
المكاتب

إن الباب العالي يعني أن تحت سلطة كبير الوزراء سرباً من الكتبة والضباط وكبار الموظفين ودقة متناهية من الوظائف والرتب والألقاب والنياشين وكان أكثرها انتشاراً هو شعار « ذيل الحصان » وهو تقليد جديد إحياء لعادة آسيوية قديمة (شكل ٥٢) ، أما شعار الهلال المعروف بارتباطه بالإسلام فإن دلالته الدينية لم تتحدد إلا ببطء شديد ولم يصبح شعاراً رسمياً للإمبراطورية إلا في أوائل القرن التاسع عشر .

ويتربع على قمة هذا الهيكل الإداري عدد من كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الخاصة بالمالية والداخلية وكذلك بعض العسكريين : أمير البحار وآغا الإنكشارية وبعض رجال القانون : قاضيا الجيش وقاضي استانبول ، وكل هؤلاء بالإضافة إلى كبير الوزراء (الصدر الأعظم) يكونون مجلس الأمير أي الديوان الذي كان يجتمع في القصر أربع مرات في الأسبوع .

أما في المقاطعات فكانت الشخصية الكبرى هي شخصية « البيلرباي » حاكم المقاطعة الشاسعة التي يطلق عليها اسم « أيالة » ابتداء من عام ١٦٠٠ ،

أما في بلدان البلقان الارثوذكسية وفي الأناضول ، وكانتا أقدم المقاطعات فقد أضيفت إليها غيرها ، وهكذا استقلت البوسنة الواسعة الاسلام عن البلقان المسيحية عام ٩٨٨ / ١٥٨٠ ، وانقسمت البلدان العربية أيضاً بعد انضمامها إلى ثلاث إيالات هي : حلب ودمشق والقاهرة ، وكل هذه المقاطعات انقسمت بدورها إلى العديد من الوحدات الادارية الأساسية ، التي يطلق عليها اسم « سنجق » وقد بلغ عددها وفق مرسوم صادر في عام ٩٢٦ / ١٥٢٠ سبعة وثمانين سنجقاً .



شكل ٥٢ ـ شعار تركي من الفضة الذهبي يعلوه ذيل حصان ، القرن السابع عشر .

السلطان وعالمه

وفوق كل هؤلاء وأعلى من الجميع يوجد السلطان فوق هذا الهيكل الإداري ، السلطان روح هذه الإمبراطورية وسيدها المطلق والأوحد ، ولنتأمل ذلك التغيير العميق للعادات السياسية لهذا الشعب ، إن وقت الصخب التركماني وتقسيم الأراضي لبعيد ، إذ أصبح الشعار « ليخفق الأمراء » بدلاً من أن تضيع المقاطعات ، ومن أجل تحقيق ذلك أصبح الأسلوب الذي يستخدمه العثمانيون حاسماً ، وبدأت عمليات اغتيال جميع الأقارب الذكور الذين يمكنهم أن يمثلوا تهديداً لسلطة الحاكم أو لوريثه المحدد مسبقاً ، وكان الإعجاب بمحمد الثاني كبيراً نظراً لعدم خبثه ، مثل أباطرة بيزنطة ، وجرأته على استصدار قانون أساسي للدولة يبيح له هذا الحق استناداً إلى إحدى آيات القرآن كما قيل عند صدور هذا « القانون نامة » .

وعالم السلطان هو السراي (لوحة ٢٣ أ) حيث يعيش محاطاً بغلمانه على بعد خطوات من الحريم الذي تعيش فيه أسرته وخدمه الخاص تحت سلطة والدته « السلطانة الأم » ، إنه عالم لا حصر له ويصعب الوصول إليه فهو بعيد عن أنظار العامة ، إذ يعيش السلطان في الأجنحة والحدائق التي تحوطها الأسوار العالية ، ولا تفتح الأبواب إلا للاحتفالات الكبرى التي تحكمها مراسم صارمة ، أما البذخ الفائق فقد كان يثير إنبهار المدعوين ، إنه عالم العظمة والكبرياء والترف الذي تكمله من الخارج أعمال المهندس الكبير سنان بالمساجد الرائعة التي راح يقيمها ـ كما سنرى ـ في مختلف أرجاء السماء العثمانية .

أما آخر الأحداث : فقد منح سليم الأول نفسه اللقب القديم « أمير المؤمنين » واعتبرته الأراضي المقدسة حامياً لها ، وذلك قبل أن يموت في القاهرة آخر ممثلي هؤلاء العباسيين الذين تلقاهم المماليك كإحدى بقايا الخلافة ، ومرة أخرى راح الإسلام ـ أو على الأقل ما كان يمثل مجمل قواه الحيوية ـ يعتبر نفسه كأمة يقودها ويجمع شملها زعيم واحد ، تعد إنجازاته الناجحة دليلاً على شرعيته الروحية وذلك نظراً لعدم انتسابه إلى علي أو قرابته له ، وكذلك عدم وجود موافقة جماعية معلن عنها بانتظام .

٣ ـ نحو الإضمحلال

ما زال المؤرخون يتساءلون كيف أمكن لهذا البنيان الشامخ ولهذا التوسع الشاسع أن يضمحل بحيث تصبح الإمبراطورية العثمانية معروفة بذلك التعبير المشهور « الرجل المريض » ومع ذلك فلنحذر تعجل الأحداث ، فحتى القرن السادس عشر كان الباب العالي يستبيح لنفسه قرع سفراء الغرب بالعصي ، وفرض الحصار على النمسا مرة أخرى ، ثم ما الذي يمكننا قوله عن الحياة الثقافية التي لم يتضح أفولها قبل أواخر القرن الثامن عشر ؟

ترى هل يقع الخطأ على العثمانيين ؟ . كلما توغلنا في البحث مبتعدين تدريجياً عن وجهات النظر التاريخية المتحيزة ، كلما مالت هذه الأبحاث إلى وضع الإنهاك التركي وسط قوى تفلت من يده في معظم الأحيان ، إذ أنها تخضع للعالم ككل وليس للإمبراطورية العثمانية وحدها . ولا شك أنه يمكننا من حيث السهولة في

عرض هذا الموضوع أن نذكر الأسباب السياسية والاقتصادية والثقافية لهذا الاضمحلال إلا أن كل هذه الأسباب تتضافر وترجع بدورها ـ إجمالاً ـ إلى التغيرات الحاسمة للتاريخ العالمي التي بدأت تتدخل ابتداء من القرن السادس عشر ، إن الإمبراطورية العثمانية لم تمت ميتتها الطبيعية إذ أن أوروبا قد دفعتها إلى ذلك بخنقها .

إنهاك الجهاز الإداري

إن الأرشيف العثماني الرائع يعكس بأمانة خط إنحناءة اضمحلاله الإداري حتى بنوعية الورق المستخدمة ، ومع ذلك فيجب ملاحظة أنه إذا ما بدأ الإنهيارمنذ القرن السابع عشر ، فإن هذا الجهاز لن ينهار كلية إلا في القرن الثامن عشر بعد نهاية المرحلة المجيدة لمراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) ووزارة كوبرولو (ابتداء من ١٦٥٦) وحصار النمسا (١٦٨٣) وفتح كريت الذي تم عام ١٦٦٨ .

ونضيف إلى ذلك أولاً ضعف السلاطين الذي أصبح وراثياً ففي أواخر القرن السادس عشر استبدلت عادة قتل الأقارب بعادة أسوء منها هي « القفص » ونعني بها قفصاً يخفى في أبعد مكان من القصر ويوضع فيه أشقاء السلطان المتوفي ويظلون سجناء فيه إلى أن يموتوا في عزلتهم البائسة ، أما عبيدهم فقد كانوا يخضعون لرقابة تحديد النسل المتبعة آنذاك عن طريق عمليات جراحية تمنع أي ذرية لهؤلاء الأشباح من الأمراء ، وفي أحيان أخرى أو وفقاً لبعض ضرورات الخلافة أو عقب إحدى ثورات القصر تجبرهم الظروف على أن يعتلوا عرشاً لم يتم إعدادهم له البتة .

فهل نندهش ونحن نرى السلطة تتسرب من أيديهم ؟ بالطبع لا . . . فقد كانت السلطانة تتولى الأمر هي وكبير الوزراء ، وعلى عكس ما اعتقده الكثيرون في أوروبا ، فإن الباب العالي هو بابها ، إنه الباب الذي راحت اجتماعات الديوان تعقد من خلفه أكثر فأكثر ابتداء من القرن السابع عشر ، أما الباب الآخر ، الباب الامبراطوري فلم يعد يأوي سوى الاجتماعات المظهرية فحسب .

وهناك عجز آخر هو السلطة المدنية التي راحت تئول إلى الحرس ، وكان هنا

يتكون من الإنكشارية ، فمنذ أيام محمد الثاني كانوا يحصلون على منحة مالية عند تولية كل سلطان جديد ، وهو تقليد له خطورته ، غير أن نقطة التحول الحقيقية بالنسبة لهم بدأت في القرن السادس عشر عندما سمح لهم بالزواج ، وعندما راحوا يعينون أبسط الأشخاص ارتجالاً بين هذه النخبة الممتازة المختارة ، وابتداء من ذلك العصر سيصبح الإنكشارية في حالة ثورة مستمرة إذ سيمتد نفوذهم إلى تولية أو إقالة السلاطين والوزراء وذلك بخلاف إرهاب السكان .

الإمبراطورية في مواجهة شعوبها وأعدائها

مهما بلغ صدق صور هذا الإضمحلال فلا يمكنها أن تفسر وحدها أسباب الانهيار العثماني ، ولا بد من توسيع الرؤية على الأقل ، ولنبتعد عن استانبول حتى يمكننا إمعان النظر عن بعد في آثار إنهيار السلطة ، فلقد استفاد أصحاب الاقطاعيات من تراخي الرقابة عليهم لاعتصارهم طبقة الفلاحين وأدّى هذا الاستغلال إلى تفاقم حالة هذه الطبقة ، كما ساعد على ذلك تلف النظام العقاري - كما سنرى فيما بعد - إلى جانب إنهيار النظام النقدي ، وهنا أيضاً فإن فترة التحول تقع في القرن السابع عشر ، تلك الفترة التي بدأت فيها هجرة الريف إلى المدينة .

إن الاستبداد التركي في أعتى أيامه قد أدى إلى آثار ضارة بالنسبة للسلام الداخلي ، ولنأخذ أحد الأمثلة المعروفة : إن تجميع كل الطائفة الأرثوذكسية تحت السلطة القضائية لبطريرك القسطنطينية والمكانة البارزة التي انتحلها اليونانيون لأنفسهم في تلك الجماعة على حساب السلافيين وبموافقة الباب العالي قد أدت إلى معارضات قوية تفسر بشكل واضح نزعة المعارضة الهللينية التي تولدت في بعض القوميات في البلقان في القرن التاسع عشر .

وهكذا استيقظت بعض القوميات القديمة سواء بفضل السلاح أو الاحتجاجات الثقافية ، وقد ساعدها ضعف السلطة وانهيارها بالإضافة إلى الأزمة العقارية والتناقضات الطائفية ، ونذكر منها كاثوليك الجبال الإلبانية ودروز لبنان والأرمن الذين تحركهم الدعاية الرومانية والتي تجد لنفسها أرضاً خصبة بين جماهير الصرب والبلغار ، كرد فعل ضد رجال الدين اليونانيين وضد السيد التركي .

وماذا عن الأعداء الخارجيين المعروفين ؟ . . حقاً إن الجيش ما زال صامداً أمام منافسيه في أوروبا لكن بصعوبة متزايدة ، وفي نفس ذلك القرن السابع عشر تعجز المدفعية العثمانية عن متابعة التقدم الذي يتم في هذا المجال بعد أن كانت متفوقة فيه ، وبدأ التكتيك العثماني يعاني مثل أسلحته فراح يقدم شجاعة فرقه الباسلة بلا جدوى لنيران أعدائه المكثفة .

ولأول مرة عام ١٦٩٩ بدأت الإمبراطورية تتنازل عن أراضيها وعن أكبر جزء من المجر بالذات بموجب معاهدة كارلوفيتس ، وبعد ذلك بعام انحصرت الإمبراطورية ، تحت نيران المدفعية الروسية وبموجب معاهدة كوشوك كاينارجي المبرمة عام ١٧٧٤ ـ إلى الشطآن الجنوبية للبحر الأسود .

هل هي مراحل بسيطة من التاريخ العسكري بتقلباته الكلاسيكية وأسمائه الكبيرة مثل جان سوبيسكي والأمير أيوجين وبطرسْ الأكبر ؟ . . .

في حقيقة الأمران ما يجب رؤ يته خلف هذه الأسماء هو حدث على المستوى الدولي ، أي نهاية ما أطلق عليه ف . برودل بحق « المصير الكبير للبدو الرحل » ففي أوروبا بدأت روسيا ترمي بكل ثقلها إلى ذلك التغيير لميزان القوى ـ ابتداء من أواخر القرن السابع عشر ، والذي بدأت معه « الحضارات » الرابحة على المدى البعيد تنبذ « الثقافات » الرحالة بعيداً عنها ، ومهما كانت مقاومتها ، بدليل بدو القرم الذين لم يبتعدوا إلا بطلقات المدافع وأكثر منهم القوزاق الذين راحوا يحاربونهم بنفس أسلحتهم : خفة الحركة والمفاجأة .

ولا يمكننا اختصار الإمبراطورية العثمانية إلى مجرد « ثقافة » أي إلى مجرد « حضارة لم تصل بعد إلى نضجها ولا إلى ذروتها ولا إلى اكتمال نموها » إلا أنه ليس من مصادفات التاريخ إذا كانت الحضارة العثمانية قد قاومت في مقرها حيث كان الأتراك لديهم الوقت الكافي لسلب الرجل البدوي القديم الفاتح ، كما كان لديهم إمكانية الاستقرار والتعبير عن أنفسهم كشعب بأسره ، ومجمل القول أن ذلك قد تم في تركيا الحالية أي الأناضول وتراقيا ، وبخلاف ذلك فيبدو أن نظامهم الإداري أو العسكري مثله مثل روح الغازي التي كانوا يرتكزون عليها بشكل أو بآخر ، قد اعتمد على النصر المتواصل وعلى ليونة الحدود .

فإذا ما حكمنا على الأتراك بناء على إجمال تاريخهم سنرى أنهم يختلفون عن

بقية الرحالة من حيث أنهم عرفوا كيف يطوعون التحرك وأن يسيطروا عليه ، فالحركة هي عماد مثل هذه المجتمعات ، ومع ذلك فقد عرفوا في نهاية المطاف ـ نفس مصير فشل الرحالة في كل مكان ، حيث كانت نفس هذه الحركة مرفوضة بالنسبة لهم ، وحيث راحت الأرض تضيق أمامهم ، ولا نعني بكلمة الأرض المكان الزمني فحسب وإنما أيضاً المكان التجاري كما سوف نرى .

بحار مزدحمة

ومضايق غير نافعة تقريباً

ترى هل كانت الدفعة العثمانية تجاه أوروبا تصبح أقوى إذا ما استطاعت الإمبراطورية أن تمتد بشكل أفضل ناحية الشرق ؟ . . لقد كانت مأساة أخرى بالنسبة للإمبراطورية لكي تمتد إلى منطقة تلك « المضايق » الحيوية التي بدأت التجارة العالمية الكبرى تتخلى عنها بعد افتتاح خط ملاحي متصل عن طريق رأس الرجاء الصالح ابتداء من الهند حتى أوروبا .

لكن لنتريث هنا أيضاً ولا ندفع بعجلة الأحداث ، إذ أن ملاحة البرتغاليين وطوافهم حول القارة الأفريقية لم يكن له ردود فعل فورية ، ولا مأساوية مباشرة ، فالبحر الأحمر والخليج الفارسي قد استمرا في تصريف كمية هائلة من البضائع حتى مضيق السويس إلى كل من ما بين النهرين والموانىء السورية ولم يتم أي تغيير حقيقي إلا في نفس ذلك القرن السابع عشر ، وذلك بأفول نجم البرتغاليين وبداية نشاط الهولنديين والإنجليز والفرنسيين ، إذ بدأت طرق البحار المفتوحة تنتزع أجزاء متزايدة من التجارة الشرقية في المناطق التي كان العثمانيون يسيطرون عليها .

ولا شك أن العثمانيين كان لديهم وضوح الرؤ ية الكافي على الأحداث رغم ضعف قوتهم ، بدليل ثباتهم البحري ونظرة مؤ رخيهم وجغرافييهم الثاقبة ، وحمايتهم للأراضي المقدسة وسيطرتهم على اليمن وصراعهم ضد البرتغاليين حول المركز التجاري الهندي الكبير في ميناء ديو ، وأخيراً مشروع حفر قناة بين الدون والفولجا ، وهي جزء أساسي في نظام يسمح بالوصول إلى آسيا براً عن طريق تبعية دولة تتار القرم نظراً لعدم إمكانية إلغاء عقبة البرتغاليين بحراً .

وقد شاء سوء الحظ أن تمتد روسيا ـ في نفس الوقت ـ ناحية الجنوب في اتجاه البحار الدافئة ، كما راح الغرب يمتد بشكل متزايد في كل مكان حيثما كان يمكنه الاتجار ، وكانت الإمبراطورية بصفتها قطعة هامة في شطرنج السياسة الغربية مسيطرة على أراض لا يمكن التخلي عنها للتجارة مع الهند ـ تعتبر هدفاً لكثير من المحاولات والسيطرة المقنعة تحت إسم التحالفات أو الاتفاقيات (ويقول عنها الإسلام : الامتيازات) .

إن « الاتفاقيات غير المتعادلة » الناجمة عن هذه الأحداث أو التي تجددها ، خاصة ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر ، لا نستشفها من التدخل الأجنبي في الشئون الداخلية للدولة فحسب ـ سواء كان ذلك بشكل مباشر أو من خلال نفس المسيحيين المقيمين ـ فهذا العامل السياسي الجديد للانفجار تصاحبه السيطرة على التجارة الخارجية والداخلية للإمبراطورية عن طريق الاتفاقيات ، أما في القرن الثامن عشر فيعتبر انقلاب التبادلات من الغرب إلى الشرق أمراً واقعاً ، وبدأ الكيان العثماني ينهار بسبب إحباطه على الأرض ، واختناقه في البحار ، ووقوعه في الشباك التي راح سفراء وممثلو وتجار الغرب ينسجونها بمعاونة شركائهم ومعاونيهم المحليين .

عملة مسكوكة على عجل

كانت الإمبراطورية العثمانية شديدة التعرض للمحاولات الحربية والتجارية لأوروبا كما كانت عرضة لأزمات الظروف الدولية ، فكانت تحيا على العملة الفضية المستخدمة للحسابات وتقدير الأرباح والعوائد ، ومع ذلك فلا ينبغي أن نتسرع بالتفكير في عملة معدنية موحدة إذ أن « السكـين » أو السلطاني كان أقل من « الدوكلبند » بشكل غير ملحوظ وكلاهما نقد ذهبي قديم ، وقد ظلت مصر شديدة الأهمية بالنسبة لدار سك العملات الذهبية فيها .

وكانت كل السياسات النقدية للسلاطين حتى نهاية حكم سليمان تعتمد على محاولة إخفاء ندرة النقد وذلك بتشجيع عمليات المقايضة وتشديد الرقابة على المناجم واستيراد المعادن سواء كانت مسكوكة أو سبائك ، أي أن كل شيء كان يتم بشكل كلاسيكي أو روتيني .

البحر الأبيض المتوسط بين أمريكا والشرق

إن العاصفة تهب الآن من أمريكا ، فلقد أخذت الإمبراطورية العثمانية على غرة بوقوع الأزمة الناجمة عن إنتاج المعدن الأبيض لمناجم العالم الجديد ابتداء من عام ١٥٥٠ ، وذلك بعد أن كانت معتادة على إخفاء غلاء الفضة وليس العكس ، فكانت تسك هذا المعدن القادم من إسبانيا في كل من جنوة وراجوزا حوالى عام ١٥٨٤ فانهارت الفضة وأصبح الذهب نادراً ، وقد كانت العملة الفضية أيام سليم الأول تساوي ١ / ٦٠ من السلطاني الذهبي ، فانهارت في أواخر القرن السادس عشر لتصل إلى ١ / ١٢٠ من قيمته ، ولنوضح ذلك قائلين أن العملة التي راحوا يستخدمون النحاس في سكها أصبحت خالية من الفضة .

وبذلك دخل الإسلام في تلك الحقبة الثالثة من تاريخ العملة العالمي والتي تأتي بعد حقبات الذهب السوداني وأول تدفق للمعادن الأمريكية ، والتي يطلق عليها ف . برودل اسم حقبة « تضخم النقد النحاسي » و« حقبة » العملة الزائفة ، سواء كان ذلك بشكل رسمي أم لا « وقد بدأت في بادىء الأمر « بشكل طفيف في أواخر القرن السادس عشر ثم أغرقت كل شيء في الأعقاد الأولى للقرن السابع عشر » .

واضطرت الإمبراطورية العثمانية ـ التي كانت تساهم في « التسميم العام للبحار » بتلك العملة المنخفضة إلى تصيد العملات الأوروبية ، إنها تلك الفترة التي بدأت فيها استانبول تشتري العملات الذهبية الإسبانية والريالات الفضية « بصناديق بأكملها » ونفس الفترة التي بدأت فيها عملات الغرب تسود الأسواق الجزائرية والقاهرية والسورية والتركية ، ونعني العملات الذهبية ، إلا أنه ابتداء من القرن الثامن عشر بدأت العملات الفضية تزدهر أيضاً بفضل التوسع في إنتاج المعدن الذهبي في البرازيل .

هذا هو الدليل على أن الإمبراطورية قد أوقعت نفسها في عجز مالي من العملات القوية يؤدي إلى اليأس ، وقد زاد من تفاقم هذا الوضع تزايد مطالب كوادر وفرق الجيش إلى جانب الثقل المتزايد للاستيراد ، فلم تكن الإمبراطورية العثمانية تطلب حاجياتها من الغرب فحسب وإنما كانت تطلبها من فارس ومن

الهند مثلها مثل الغرب نفسه ، وهكذا بدأ ميزانها المائل إلى العجز تجاه الغرب في القرن الثامن عشر يميل إلى العجز من الجانب الآخر أيضاً ، وبدأت « العملات الصعبة » التي تستمدها من تجارتها مع البحر الأبيض المتوسط يعاد صبها في سبائك تأخذ طريقها إلى الشرق .

ومرة أخرى ارتبط مصير الإمبراطورية العثمانية بشكل لا ينفصم بالتاريخ العالمي لتلك التحركات الكبرى للمعادن النفيسة التي تخرج من أوروبا إلى الشرق البعيد ، وذلك باستثناء الفارق الأساسي وهو أن الاستعانة بالمنتجات الأجنبية لم يكن يعتمد هنا لا على تدفق نقدي كاف ولا على إقتصاد في طريقة إلى التوسع .

الأرض قبل النقود

كيف يمكننا الاندهاش لصراخ الجنود والموظفين وهم يتقاضون مرتباتهم بعملات منخفضة القيمة ؟ . . خاصة إذا ما أصبحت الأرض تمثل قيمة مؤكدة أكثر من النقود ؟ . . ، ولا شك أنه يمكننا التساؤ ل ابتداء من عام ١٦٠٠ حول السيطرة المتزايدة للطبقة الارستقراطية على طبقة الفلاحين وعما إذا لم تكن مرتبطة - مثلما كان في أوربا الدانوب وأوروبا السلافية - باغتصاب الأراضي لزراعة القمح حيث أنها أصبحت ضرورة متزايدة وملحة كلما ازدادت ضغوط السكان وتزاحمهم .

وأياً كان الأمر فهناك حقيقة مؤكدة فيما يتعلق بالعالم العثماني : إذ أن هذه الظاهرة تتوافق تماماً مع وقوع الأزمة النقدية الحادة في أواخر القرن السادس عشر ، والرغبة في امتلاك الثروات الأرضية التي أدت إلى انقلاب حقيقي في الجهاز العقاري ، إن الانحلال الواقع في نظام الإقطاع الذي نراه وقد أسند إلى بعض المماليك أو حتى إلى بعض النسوة ، ينعكس في خلق مراكز نفوذ حقيقية وثابتة بحيث أمكن لشاغليها أن يعيشوا في ضيعاتهم ، وذلك دليل على أنهم يسيطرون تماماً على طبقة الفلاحين ، وهناك ظاهرة أخرى معروفة باسم « الشفتلك » أي « قطعة أرض » ممنوحة بصفة استثنائية بضمان من السلطان وهي مرتبطة بشكل أو بآخر بنظام الإقطاع ، وبدأت صفة هذه الظاهرة في القرن السابع عشر ثم انتشرت في القرن الثامن عشر كملكية ذاتية حقيقية خاصة فيما يتعلق بالأراضي البور لصالح كبار الموظفين والعسكريين والوزراء ، أي أنه ابتداء من عام ١٦٠٠

بدأت السيطرة على الأرض في كل مكان ، ورافقتها في نفس الوقت « الهجرة الكبرى » للفلاحين أي هجرة الأفواه والأديد العاطلة .

الحرف والتجارة .

وكيف يمكننا الإندهاش أيضاً إذا وجدنا أن أكثر قطاعات التجارة والصناعة ازدهارا في الإمبراطورية في القرن الثامن عشر هي نفسها التي يغذيها الغرب بالعملات القوية لأنه في حاجة إلى منتجاتها وذلك مثل الحرير والقطن والصوف ومواد الصباغة والجلود أو حتى بعض المواد الخاصة بصناعة الزجاج في البندقية ، ترى هل هي من مصادفات الزمن إن كان ممثلو التجارة العثمانية هم ممثلو القطاعات التي تتعامل مع بلدان الغرب الممولة للذهب والفضة ؟ ، وذلك مثل اليونانيين والأرمن واليهود الذين لا تحميهم أية قوى خاصة لكن الجميع يعرفونهم .

المقاطعات مرة أخرى : حالة شمال أفريقيا .

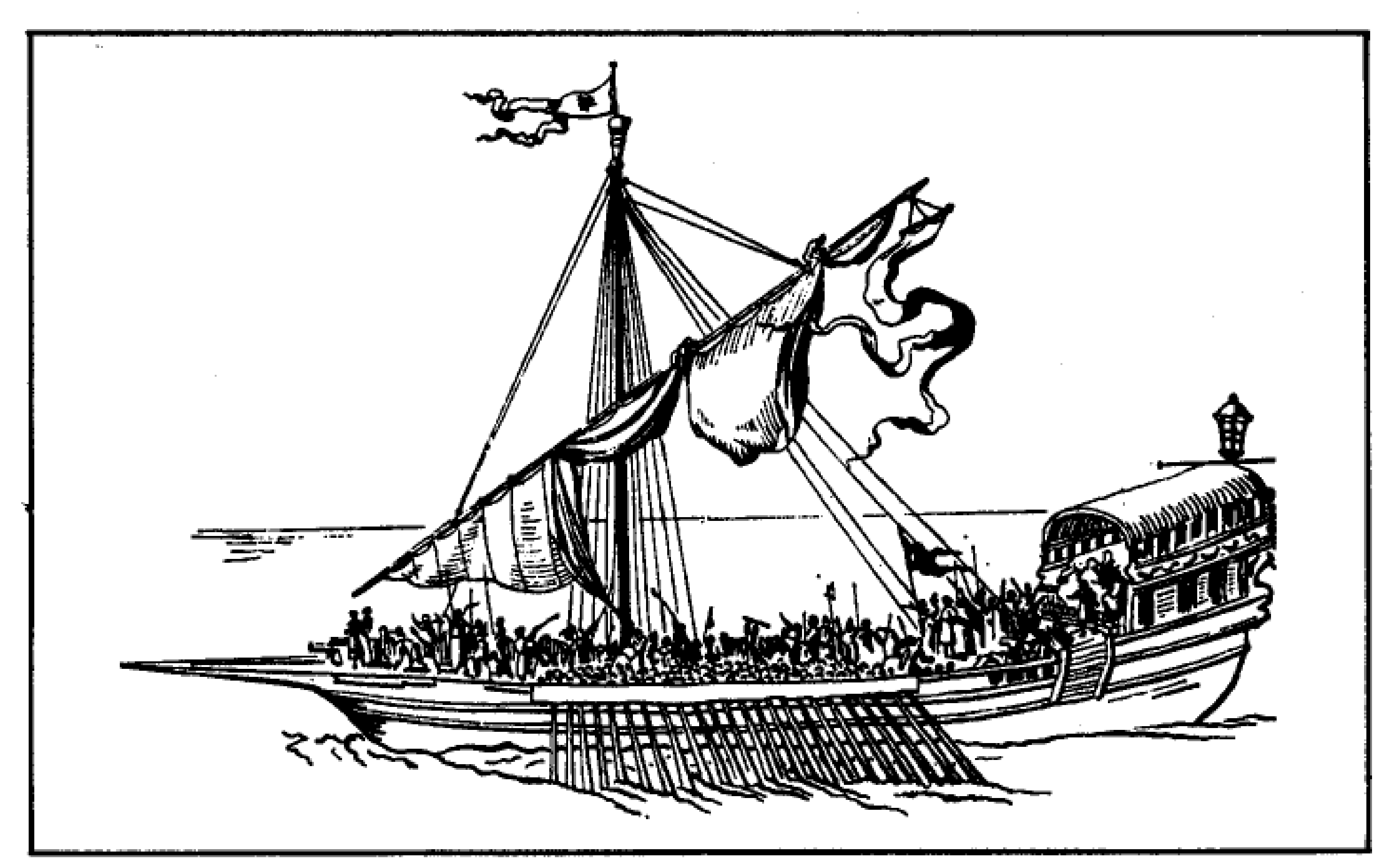
وأخيرا . . . كيف نندهش إذ أن كل الأمور متعلقة بالأزمة المالية المرتبطة بـولاء المقـاطعات ؟وذلك مثل الحالة التي تمت دراستها بالنسبة للأمراء الرومان ، ففيها بين أعوام ١٥٨٥ ـ ١٥٩١ أجبر هؤلاء الأمراء على بيع قمحهم ومواشيهم بأسعار بخسة فرضها الباب العالي مما اضطرهم إلى حمل السلاح والوقوف إلى جانب النمسويين ضد الأتراك .

لكن . . إذا ما فكرنا في آثار أخرى لهذه الأزمة ، ألا يمكننا التعرض لشمال أفريقيا غير المسيطر عليها تماما والتي تبعد حامياتها مثل طرابلس والجزائر عن نفوذ السلطان ؟ . . . فها هو بلد تجعله سياسة « السبق » يزداد تحررا من الباب العالي وإن سياسته العامة تضعه في علاقة مباشرة مع المسيحية أكثر مما مع استانبول سواء عن طريق السلاح أو التجارة ، أي أنه بلد يقوم بحماية نفسه عن طريق استرجاع الأسرى وهي خير العملات الأجنبية سواء كانت إسبانية أو غيرها .

ولعل البعض سيقول بحق أن النظام الإقتصادي للقرصنة رغم أنه من نوع خاص لكنه مثمر ، ليس نتيجة للأزمة العثمانية وإنما وسيلة للهرب من عواقبها ، إذ أن أول إنطلاقة كبرى لهذا « السبق » ترجع على الأقل إلى أعوام ١٥٦٠ ـ

١٥٧٠ ، غير أن ذلك لم يمنع الأزمة العثمانية من أن تزيد القطيعة بين الباب العالي ومدنه الغربية البعيدة الثرية في أواخر القرن ، حيث أن الثراء يعد من أهم عوامل التحرر .

إن الأحداث أمام أعيننا ، فالأزمة المالية لعام ١٦٠٠ توافق الأزمة الثانية للتوسع ، ذلك « السبق » (شكل ٥٣) الذي أدى إلى آثار بعيدة ، بعيدة جدا في



شكل ٥٣ ـ سفينة بربرية

المحيط الأطلسي فعندما انغلق العالم أمام العثمانيين انفتح أمام الجزائر : المدينة الدولية ، فهل نندهش من أن تنوع المصائر قد عاون الجزائر ، الجزائر الكبرى في القرن الثامن عشر ، و « أعطى ظهره لتركيا » وإن شمال أفريقيا ـ مرة أخرى ـ لم « يعد » يتعلق سياسيا بالشرق ؟

السنيّة التركية .

إن العرف التاريخي يعطي سبباً آخر للإنهيار العثماني هو تصعيد سنية متزايدة التزمت وقد أدى تحفظها إلى خلق عائق أمام تقدم عقلية التطور والمناقشة ، كما أدى اعتبار المذهب الحنفي كمذهب للدولة إلى سيادة الشكلية القضائية وإلى

تضييق نطاق البحث الحر ، سواء كان بحثا دينيا أو غيره وإلى نوع من رد الفعل الدفاعي أمام الإبتكارات .

ويعد مثل المطبعة من الأمثلة الشهيرة ، فسواء أتت عن طريق الصين التي تعرفها منذ القرن التاسع ، عبر العالم التركي المغولي لآسيا الوسطى وروسيا ، أو أن أوروبا هي التي اكتشفتها من جديد فإن أوروبا هي التي تلقتها عن طريق اليهود اللاجئين أو المتنقلين من البندقية عبر البلقان وليست الإمبراطورية العثمانية ، ومع ذلك فالأمر يتعلق هنا ـ مثل العديد من الظواهر التي لم تمس سوى أطراف المجتمع التركي ـ بتلك الأطراف التي هي على صلة مستمرة بالغرب .

فالمسيحيون هم الذين يقومون بالطباعة في سوريا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أما في استانبول فيقوم بذلك كل من اليهود والأرمن واليونانيين ، أما العثمانيون فكانوا يرتابون في ذلك الإختراع الشيطاني .

ترى هل كان العثمانيون أم الإسلام ؟ . . . في الواقع أن مسألة الإرتياب هذه متأصلة ، ولنتذكر المصير العابر لأوراق النقد في الإيلخانيات الفارسية ، ولنشر بكلمة إلى الحالة الغامضة والموئسة لحفنة من الوثائق المطبوعة لمصر قبل عام ١٣٥٠ ، وهي حالة شاذة ، كما نرى ، وسط عادة عدائية لهذا الإختراع ، إن العالم العثماني وخاصة السني لم يكترث بالمحاولات الأولى لطباعة القرآن التي تمت في أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر ، وقد رفض رفضاً قطعيا ـ عن طريق علمائه ـ فكرة إسناد أي نص ديني لتلك الأساليب الآلية ، ولا حصر للتحفظات حول هذا الموضوع فيما يتعلق بالموضوعات الدينية والقانونية وحتى التاريخية ، وقد ظلت المطبعة التركية التي أسسها إبراهيم متفرقة عام ١٧٢٩ ، ـ وكان أحد العبيد المجريين القدامى ـ مغامرة محدودة وخطيرة وغير مضمونة ، وبعد فترة صمت دامت ستة أعوام توقف العمل بها نهائياً عام ١٧٤٢ .

هل لا بد لنا من الإشارة ـ مع ت . ف . كارتر إلى « حاجز من الإسلام ضد المطبعة » ؟ سيقول القارىء بالطبع أنه لم يكن حاجزا أبديا ، وإن الإسلام قد انحنى لهذا الإختراع وبتفضيل واضح على الأقل فيما يتعلق بطباعة القرآن عن طريق الطباعة الحجرية (الليثوغرافية) ، وذلك لا يمنع أن التأخير في مواكبة أحد

المجالات الهامة كالطباعة قد امتد إلى اربعمائة عام من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر .

لذلك لا يمكننا أن نرى أن الإسلام ، وخاصة الإسلام السني ، لم يكن أبدا يمثل عائقا للعثمانيين طالما كان التاريخ هو السائد ، إذا أمكننا القول ، بل على العكس ، لقد بدلوا هذا الإسلام أو جعلوه يميل لصالحهم ، ولنتذكر هنا قانون قتل الأشقاء الذي كان ينفذ في ظل الكيان الإسلامي على أشخاص من ذوي الحماية .

وكانت مثل هذه العادات يتم تبريرها ارتكازا على « روح الغازي » أي على إسلام توسعي ومتأكد من قوته ، وإذا ما بدأت هذه الروح تنهار أو إذا ما بدأ الإسلام يبحث عن ترابطه في مواقف سلبية ملتفة حول مشرعية ، وذلك في اللحظة التي بدأت فيها الحدود تستقر ، وفي اللحظة التي بدأت فيها أوروبا تزيد من ضغطها ، فيجب علينا إذن أن نقول أنه لم يكن الإسلام هو الذي أعاق الإمبراطورية ، ولكن الإمبراطورية هي التي أدت بالإسلام إلى الإختناق بعد أن خنقتها أوروبا .

إن مسألة المطبعة تعد أكثر من ظاهرة دينية ، ولم تكن ظاهرة فريدة من نوعها ولكنها دليل على أن الأتراك لم يتبعوا تقدمات ذلك الغرب الذي سبق أن بهروه ، ولا شك أننا نشاهد بعض القفزات من وقت لآخر ، ففي القرن التاسع عشر بالذات سيحدث شيء رائع في ذلك الكيان الضخم الذي افتقد شبابه ، إلا أن الأزمنة ستكون قد تطورت ، إذ أنه بين فترة سليمان والقرن التاسع عشر قد تغير العالم كما تغير إيقاع التاريخ ، فإذا ما قارنا ذلك القرن بالقرون الأربعة السابقة لأمكننا القول بأن الإمبراطورية العثمانية قد أخضعت عصر النهضة لكنها لم تفق من ذلك أبدا .

٤ ـ اشعاعات إسلامية :

خارج العالم العثماني

إن الإمبراطورية العثمانية بكيانها الضخم تحجب عنا إلى حد ما معالم العالم الإسلامي فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ، إلا أن مصير الإسلام

الداخلي أو العالمي لا يعتمل هنا فحسب ، فلا بد لنا من الإشارة ولو باختصار إلى فارس الصفويين ، وهند المغول الكبير ومغرب الشرفاء ، وهي ثلاث دول أو ثلاثة عوالم لا ينفصم تاريخها عن تاريخ آسيا الوسطى ولا عن كل من المحيط الهادي والمحيط الهندي وأفريقيا السوداء .

فارس الصفويين .

إن تاريخ فارس الجديدة على الأقل في بداياته ، ليس إلا فصلا جديدا مضافا إلى مغامرة العالم التركي ، لكن هل يمكننا التحدث عن فارس الجديدة ؟ إن ما هو مؤكد في الواقع هو ثبات شعور وطني لا يتزحزح قد قهر كل السادة الذين منحهم التاريخ لمفترق الطرق هذا في العالم الشرقي ، أي أن ما نعنيه بتعبير فارس جديدة هو استقرار البلد نهائياً في المكان الذي نعرف ملامحه الأساسية حتى يومنا هذا .

شروق الصفويين .

ولكي نفهم مولد الصفويين لا بد لنا من الرجوع إلى موقف البلدان الإيرانية في القرن الخامس عشر ، ففي الشرق نرى خلفاء تيمورلنك يسيطرون من عواصمهم التي ازدادت جمالا بشكل واضح سواء سمرقند أو حيرات في إيران الشرقية ، وأفغانستان وخراسان وما وراء النهر ، ومن ناحية أخرى فإن من يقول الفترة التيمورية يقول التناقض بين الخلط السياسي والإشعاع الروحي وفي مقدمتهم الأمراء ، إذ أن ابنى شاه رخ ، خليفة تيمورلنك ، يحملان أسماء شهيرة في تاريخ الفلك وفن المنمنمات ، وهما أولوج بج ، وباي صنقر ، إذ أننا نشاهد منافسة حقيقية تركية فارسية أيام الحماية التيمورية المستنيرة فكان لتركيا شاعرها علي شير ، كما كان لفارس مؤرخوها مثل حافظي أبرو ، وميرخوند ، والشاعر الجامع ، وخاصة بهزاد (المولود حوالي عام ١٤٥٠ ـ ١٤٦٠) والذي وصل فن المنمنمات على يديه إلى القمة .

وفي الوسط توجد منطقة إيران والعراق المتحركة والمتصارع عليها بين التيمورية ، الأسرتين الحاكمتين المحليتين واتحاد تركمان الغنمة السوداء (كاراكويونلو) القادمين من أذربيجان ، ويبدو أنه قد خرج منتصرا من

المواجهة ، لكنه انتصار لم يدم طويلا : إذ أن أشقاءهم الأعداء من قبيلة الغنمة البيضاء (آك كويونلو) كانوا معتمدين على منطقة أعالي نهر دجلة ، ومن هذا التاريخ المتداخل والذي لا نعرفه جيدا ينبثق حدث محدد هو أن صراع أسرتي التركمان المتنافستين قد لعب دورا حاسما في توضيح الخريطة السياسية حوالي عام ١٥٠٠ .

وقد كانت الغنمة البيضاء محاصرة عند الجنوب بسوريا المملوكية ، وتعاني عند جانبها الغربي من الضغط العثماني فاتجهوا إلى الشرق وانتهى بهم الأمر إلى أنهم احتلوا مكانة قبيلة الغنمة السوداء في تبريز ، وجعلوها عاصمتهم ، وينبثق وجه أميرهم أوزون حسن « الطويل » (المتوفي عام ٨٨٣ /١٤٧٨) فقد كان قائدا بحريا ومشيدا عظيما وحليفا للبندقية ، ووقف لفترة ما في وجه العثمانيين وبدا حليفا للمصالح الدولية في هذه المنطقة ، وامتد حكمه من أرمينيا حتى الخليج الفارسي ، فهل بدأت فارس الجديدة تتجدد أيام حكمه ؟ .

ومما يؤسف له بالنسبة لخلفاء أوزون حسن أن الصراع القائم بين سنية الغنمة البيضاء وشيعية الغنمة السوداء قد امتد حتى قضى على هذه القبيلة الأخيرة ، وفي الواقع أن الدعوة الشيعية كانت قديمة ومتوغلة في هذه المناطق حيث كانت تعتمد على طوائف أو جماعات دينية منظمة وقريبة من الجماهير الشعبية التي كانت تجد في مذاهبهم الإصداء الأزلية للمساواة والتسامح ، كما كانت تجد أيضاً ـ تحت ستار الإسلام ـ الذكريات المتداخلة بمختلف الديانات وخاصة المسيحية ، أما قبائل الرؤ وس الحمراء (كيزيل باش) وقد أطلق عليهم هذا الإسم نظرا للطاقية الحمراء التي كانوا يرتدونها وتفرق بينهم وبين المماثلين للعثمانيين ذوي الطاقية البيضاء ، فقد امتدوا حتى الأناضول ووجدوا العديد من الأتباع لدى الأكراد وشعوب التركمان .

وهكذا ولدت دولة الصفويين ، فقد قام إسماعيل ، الذي كان يزعم أنه أحد أبناء الإمام العلوي السابع موسى ، عن طريق جده صفي الدين الذي تحمل اسمه هذه الأسرة الحاكمة (والمتوفي عام ٧٣٥ / ١٣٣٤) بجمع بضعة آلاف من المؤ يدين المتعصبين له عام ١٥٠٠ وبدأت الملحمة الحربية المذهلة ، شرقا ضد شعوب آسيا الوسطى ، وغربا ضد العثمانيين الذين سيحاولون احتلال أذربيجان

عدة مرات ، ولقدتحدثنافيما سبق عن أحد انتصاراتهم في تشالديران (١٥١٤) ، وقد استقرت فارس أيام حكم عباس الأول الكبير (٩٩٥ /١٥٨٧ - ١٠٣٨ /١٦٢٩) في نفس الحدود التي نعرفها لها اليوم تقريبا .

دولة الصفويين .

هناك العديد من ملامح سياسة الصفويين التي تذكرنا بالعالم العثماني ، على الأقل من حيث مبدأ قتل بعض الورثة الذكور للعرش ، أو تكوين حرس خاص للحاكم من سجناء جورجيا والشراكسة أو الأرمن والذين لا ينفي عنهم الدستور صفة العبودية ، وقد وصل عددهم إلى ١٨,٠٠٠ وفقا لتافرنييه .

ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نعمم المقارنة أو على الأقل لننوعها ، ذلك لأننا في فارس ، أي أننا في بلد تعد فيها الشيعية تراثا وعقيدة دينية وأسلوبا للفهم ولتحديد اصالة وطنية في إطار الإسلام ، إن دهاء الصفويين التركمان أصلا يرجع إلى أنهم عرفوا كيف يلعبون لعبة التظاهر بأنهم حماة التراث الشيعي الفارسي في مواجهة العثمانيين السنيين .

أي أننا سنحدد الخطوط العريضة للنظام الصفوي في ذلك المناخ المزدوج للدولة على الطريقة التركية والإمتثالية الإيرانية ، مما أدى إلى فرض الإمامية الإثنا عشرية عن طريق القهر كمذهب رسمي ، وانتهاء « الوحدوية الإمامية » التي رأيناها في البداية : وحدوية المتصوفين والتي تذكرنا « بالصوفي الكبير » لتؤدي إلى حكم فردي ذي أسلوب شرقي كلاسيكي خاصة ابتداء من عباس الأول ، وأخيرا الرغبة في طمس الذاتيات القبلية والأصلية أو الأقليمية لصالح إدارة، مركزية تهدف إلى أن تجعل من الدولة وسكانها وثرواتها ملكا للأمير .

ولم يتم ذلك بلا عظمة ، فلنتذكر بذخ أصفهان (لوحة ٢٤ د ، وشكل ٩٢) وازدهار فن المنمنمات (لوحة ٥) أكثر من الآداب التي كانت تشوبها مسحة من التعصب الشيعي الرسمي المناضل فقد حضر بهزاد إلى إيران الصفويين لينهي رسالته وحياته وسط مجموعة من الأتباع الذين سيكملون عمله بسخاء ، على الأقل طوال حكم عباس الأول ، وسيقومون بنشر مدرسته في كل مكان تقريبا حتى آسيا الوسطى والهند ، وبدت فارس عندئذ كقوة دولية راحت المسيحية تحلم بتحالف

معها ضد الباب العالي ، وبدأ الخبراء والتجار والرحالة الغربيون يزورون البلاد بينما استقربها أعضاء الإرساليات الدينية ، وقامت تجارة نشطة من الميناء الجديد في بندر عباس على الخليج الفارسي بربط فارس بأوروبا ، وامتلأت خزائن الشاة عن طريق الأرمن وتجارة الحرير .

القرن الثامن عشر : نهاية فارس الصفويين وموازنتها .

إن كل هذه التجارة أو معظمها تمر عبر أيدي الأجانب ، فما إن تم طرد البرتغاليين من الخليج الفارسي حتى حلت محلهم شركات الهند الإنجليزية والفرنسية والهولندية ، وهناك مثل واضح : فحتى بالنسبة للبـن العربي القريب كان لا بد أن يمر من أيدي الوسطاء الهولنديين ، إلا أن طيف روسيا الضخم والمقلق بدأ يرتسم هنا أيضاً في الشمال .

ومن البديهي أنه لا بد من عمل حساب لأسباب التفكك الداخلي ومنها : انحلال الأمراء وهم نتاج شاحب لحريم راح يزيد من سيطرته تدريجيا ـ عن طريق الخصيان والأميرة الأم ـ على الجهاز السياسي ، والصراعات بين عقلية المتصوفين الأوائل ومفهوم المملكة الجديدة الذاتية، بين مختلف فرق الجيش وبين مختلف إدارات الدولة والإدارات الخاصة بالحاكم والمتزايدة التوسع .

ومع ذلك فقد كانت أسوأ التهديدات تأتي من الخارج من المنافسين أو من الأعداء الذين تثيرهم فارس بحكم موقعها الإستراتيجي ، مثلما حدث بالنسبة للدولة العثمانية ، ولنترك جانبا الضغط الناتج عن تجار الغرب في الجنوب على هذه البحار التي يسيطرون عليها ، ولنكتف بالنظر إلى الأراضي .

وما إن تم صد الإنطلاقة العثمانية ـ بصورة أو بأخرى ـ حتى ظهر الأفغانيون ، إذ أن هؤلاء يمثلون ـ على مدى تاريخ الصفويين ـ المجال المغلق للطموحات الفارسية والهندية التي تقاسمت البلاد فيما بينها ، إلا أن اضمحلال الصفويين قد ألقى بهم ناحية الغرب وأصبحت فارس ملكا لهم لمدة ثمانية أعوام ، وسرعان ما قام الأتراك والروس بالإستيلاء على مقاطعات الشمال الغربي عام ١٧٢٤ ، تحت عين كل من فرنسا وانجلترا القلقة المتفتحة ، فمنذا الذي لا يشعر أننا قد صرنا في القرن التاسع عشر ؟

ومن حسن حظ فارس أن أحد القادة الصفويين واسمه نادر قام بإقرار الموقف على كل الحدود بما في ذلك حدود أفغانستان التي انتزعها بأكملها هذه المرة من أيدي مغول الهند ، وامتد بمسيرته حتى دلهى (عام ١٧٣٩) ، وفي هذه الأثناء قام بتنصيب نفسه ملكا .

وليس من المهم في شيء إذا كانت أسرته الحاكمة عابرة ، فدول العالم الإيراني قد أستتب لها الأمر ، وفي الشرق تحررت أفغانستان من الوصاية الفارسية فور موت نادر ، إلا أن عدم صبر قبائلها التقليدي لم يعد ينظر إلى الغرب ، وتم الإنقسام بين المجموعتين الإيرانيتين اللتين استقرتا في مواجهة بعضهما بعضا ، وظلت مجموعة الأفغان في الشرق أكثر تفتحا على العالم التركي وعلى الهند ، وفي الواقع أن الهند هي التي اجتذبتها مرة أخرى بعد موت نادر ، ومع ذلك فقد بدت هذه التحركات للقرن الثامن عشر وكأنها آخر فصل من غزوات الرحالة ، وسرعان ما سينقلب الوضع هنا أيضاً ، إذ أن أفغانستان سوف تعاني بدورها من ضغوط روسيا الاسيوية والهند الإنجليزية ، إلا أنها ستقوم بدور المصد بينهما . لكن بانحصارها هذا في مجالها « الطبيعي » ستكسب تكوين نفسها كأمة : أمة قوية بحيث لم يكن من الممكن أن تصمد الدولة بدونها حتى وإن كانت مجرد مصد .

أما الأمة الفارسية فكانت أكثر تأكيدا ، وإذا كان نادر قد أغتيل عام ١٧٤٧ فقد تم ذلك نتيجة لردود الفعل العدائية التي أثارتها سياسته القائمة على التقارب الدبلوماسي والمذهبي مع سنية الباب العالي ، بدليل أن الشيعية والإيرانية أصبحتا من ذلك الوقت تلقائيا كمرادف لا ينفصم عن بقية الإسلام الذي التف ثانية حول الصولجان العثماني ، وعلى المدى القصير يمكن الحكم على سياسة الصفويين من ثمارها إذ أن أجمل إنجازاتها كانت فارس بلا شك .

نظرة خاطفة حول آسيا الوسطى .

بدأت السلطة التيمورية تنهزم في آسيا الوسطى ابتداء من القرن الخامس عشر بسبب هجوم تركي جديد هو : هجوم الأوزبك ، إلا أن هؤلاء الغزاة الرحالة الجدد لم يمكنهم ـ مثل سابقيهم ـ الاحتفاظ بامبراطورية فريدة حول نهر جيحون ، لكن سرعان ما سادت الفوضى القبائلية والركود الإقتصادي والإنحلال

الثقافي رغم بعض الإنجازات الناجحة العابرة مثل إيلخانية خيفا في منطقة خوارزم (القرن السادس عشر ـ السابع عشر) .

وأيا كان الأمر فقد بدأ مصير آسيا الوسطى يفلت من أيدي شعوبها ، وانتهى بذلك التاريخ الكبير للرحالة ، ففي بداية القرن السادس عشر ، عندما حاول الأوزبك الوصول إلى فارس اصطدموا بحائل الصفويين ، إلا أن القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر قد ضاعفا من الأخطار إذ بدأ عملاقان يصوبان أنظارهما نحو هذه الشعوب المنعزلة المتعادية والعميقة الإسلام بشكل أو بآخر ، سواء كان اسمها التركمان أو الأوزبك ، الطاجيك أو القوزاق أو القرغيز ، وكان هذان العملاقان هما الإمبراطورية الروسية في الشمال وعلى طول حدود سيبريا التي تسيطر عليها ، وأسرة مانشو الصينية في الشرق ، وبينما كان العملاق الأول يحاول الإمتداد نحو المحيط الهادي راح العملاق الثاني يمد حمايته ليفرضها بعيدا ناحية آسيا الوسطى ، حتى تلك البلدان التي تعد بمثابة المصدات وهي منغوليا وتركستان ، كما حاول في الوقت نفسه اخضاع شعبي القرغيز والقوزاق ، أو بقول آخر لقد حاول الإقتراب من بحر قزوين بشكل خطير .

وسوف يقوم كل من القرن التاسع عشر وروسيا بفرض النظام على مثل هذه التطلعات ، وفي هذه الأثناء ، في هذا الإسلام لآسيا الوسطى ، الفوضوي المنهار والمنعزل بسبب تحول المسار التجاري بين الصين وروسيا إلى الشمال ، لم يعد هناك ما يذكرنا بالأزمنة المجيدة لطريق الحرير .

هند المغول الكبير .

ها هي آخر انطلاقة لعالم الرحالة التركي المغولي على الهند ، بعد تيمورلنك ، حيث لم تعد سلطنة دلهى إمارة من ضمن الإمارات العديدة التي تتقاسم جنوب القارة الضخم ، فقد جاء الأمير الكبير بابور من فرغانة ، وهو من أحفاد تيمورلنك عن طريق والده ومن أحفاد جنكيزخان عن طريق والدته ، جاء ليستقر في دلهى عام ١٥٢٦ ، وعندما توفي بعد ذلك بأربعة أعوام ترك خلفه عملين هامين : مذكراته الرائعة المكتوبة باللغة الدغاتية وامبراطورية واسعة ازدهرت بثراء شاسع لمدة قرنين على الأقل .

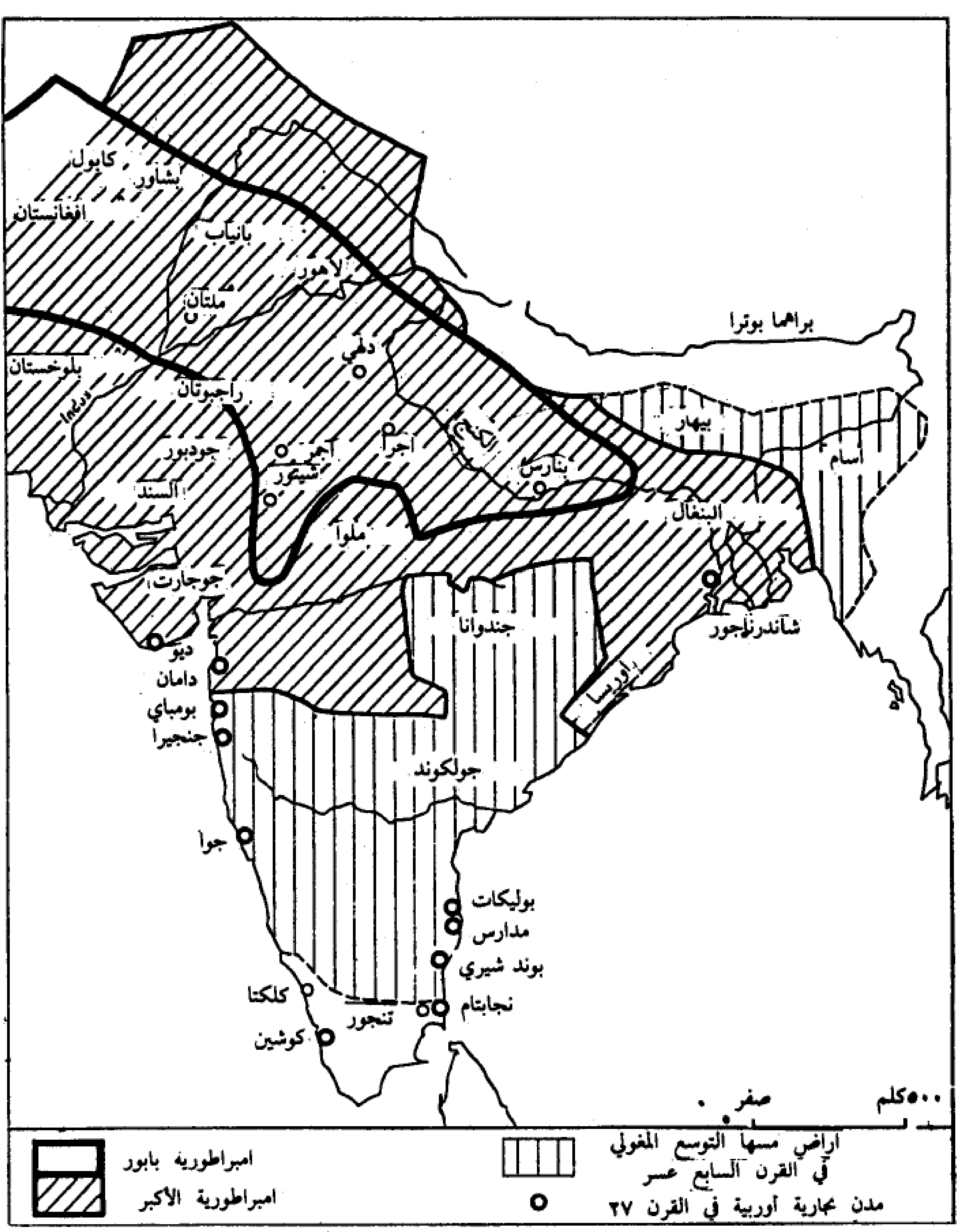
لنذكر إسمين هامين من كل هذا التاريخ الكبير : الأكبر ، الإمبراطور الفيلسوف (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وأورانزب (١٦٥٨ - ١٧٠٧) الذي عرفت السيطرة المغولية في عهده أكبر توسعاتها (خريطة ٢٠) إذ امتدت شرقا إلى آسام وجنوبا إلى كلكتا وتنجور ، وبقول آخر لم يفلت من النظام المغولي سوى طرف شبه الجزيرة وسيلان .

يا له من بنيان هائل قائم مثل سابقيه على خلفية لا تتزحزح من الهندوسية ، فمن المؤكد أن الإسلام قد اكتسب أماكن جديدة في كل مكان عن طريق السلاح والتجارة أو الهجرة ، بل لقد وصل المسلمون القادمون من بمباي ومدراس إلى سيلان ، ومع ذلك ومهما كان ثقل هذه الجماعات وقوتها مثلما في جوجارات وحوض نهر الكنج ومنطقة حيدرآباد ، فإن هذه الجماعات الإسلامية تظل ضئيلة بالنسبة للهند .

فبخلاف معاقل السند والبنغال فقد ظل الإسلام بصورة أو بأخرى مجرد ظاهرة طبقات مميزة وذلك مثل الأمراء والجنود والموظفين والتجار ، ولم يتمكن من التوغل عمقا أو جماهيريا وسط شعب هندي شديد التعلق بديانته التي تعد العزاء الأزلي لواقع من البؤس الأبدي .

وأخيرا فلم يتمكن الإسلام من الإستمرار في مثل هذا النظام المتين البنيان كالهند إلا بعمل شيء من التوفيق ، وقد أدرك الأكبر ذلك بصفته سياسيا كبيرا وفيلسوفا ، فقام بعمل مذهب هو خليط من الإسلام والبراهماتية والتصوف الإيراني تقوم فيه العقيدة الآلهية بإرجاء الخلافات المذهبية والعقائدية إلى المرتبة الثانية بصفتها أشكالا ثانوية ، إلا أن محاولة الأكبر ظلت محدودة المدى ، لكنها تثبت من ناحية أخرى إلى أي مدى كان الإسلام يحاول التوغل في المضمون المحلي عن طريق واحد من أكثر ممثليه تفتحا .

ولا شك أننا نشعر أحيانا من قبل هذا الإسلام الهندي بالحاجة إلى تركيب وتحديد والمحافظة على مكانة فريدة على حده للعقيدة الإسلامية وللثقافة الإسلامية ، وهذا شعور شديد الحيوية بدأ يتفتح منذ القرن التاسع عشر ، وترمز



خريطة ٢٠ ـ التحرك المغولي في الهند .

إليه ـ في أيامنا هذه ـ الجامعة العثمانية في حيدرآباد ، ومع ذلك فإن مسلمي الهند وهم في الغالب من السنيين ، سوف يستقرون عند مشارف الإسلام والهندوسية سواء كان ذلك بسبب الجماعات ذات التطلعات الشعبية السابقة لظهور العقيدة الإسلامية ـ مثلما حدث في العالم التركي ـ أو كانت عبادة القديسين الشديدة التوسع دعامة مشتركة لتبجيل اتباع العبادتين .

إن هذه الحدود للإسلام هي في الواقع حدود السلطة المغولية ، فالغطاء الشاسع الذي القى على الهند لم يكن في الواقع إلا معطفا ذا ثقوب ، إذ أن حكام الهند حتى وهم في أوج قوتهم لم يستردوا كل الديون المستحقة لهم نظريا ، وإن انتصار بابور المعروف باسم « الرجال البيض وبارود المدفع » لم يكن إلا انتصار التجارة .

ولم تكن التجارة الداخلية بنفس القدر من الأهمية التي كانت عليه التجارة مع الخارج ، وكان نظام التجارة يعمل من أجل المحافظة على مكانة المغول الكبير على قمة البنيان الهرمي هو وحاشيته وجيشه المكون من المشاة والمدفعية الثقيلة والخفيفة وسلاح الفرسان والأفيال التي أصبحت تخصص تدريجيا للتنقلات والإحتفالات ، أي أن هذا النظام قد اتبع نفس النظام المالي والإداري القائم على نفس مبادىء استغلال الجماهير ، وخاصة جماهير الفلاحين .

إن هذا الجمع الغفير (المكون من ٢٠٠,٠٠٠ جندي على أهبة الإستعداد للحرب فيما يخص المشاة فقط) بحاجة إلى نفقات بالغة باهظة ، وبدأت إمبراطورية المغول تصدر منسوجاتها ومنها الحرير والأقطان والأكياس ونسيج الجوت « ابتداء من القرن السابع عشر » من أجل تغطية حاجتها الضخمة إلى المعادن النفيسة ، وكانت المنطقة المركزية لهذا النظام هي منطقة جودجارات المنتجة الضخمة التي كانت تستورد الحرير الذي تصنعه إلا أن ثروتها كانت تعتمد على القطن .

وانتشرت هذه الصناعة من منطقة جودجارات إلى بلاد الكنج ، وبدأت منتجاتها من الحرير الهندي والموسلين (نسبة إلى الموصل سوق الدجلة الكبير) تغزو السوق الأوروبية ابتداء من القرن الثامن عشر ، ولا شك أن الهند تعد مركزا حيويا في حركة التجارة العالمية الكبرى بفضل صادراتها كما كانت تفتح في نفس الوقت مجال التجارة الصينية في شبه جزيرة ماليزيا والعالم الأندونيسي عن طريق تجار وبحارة جودجارات أو البنغال .

وفي مقابل ذلك كان المغول الكبير يتلقى الذهب الصيني والفضة ، ثم

الذهب الياباني وخاصة العملات الأوروبية عن طريق الشركات الغربية أو الوسطاء العثمانيين أو الإيرانيين ، ومن الواضح على حد قول برودويل أنه كانت هناك « سيطرة مالية » على المستوى الدولي لصالح الهند .

إلا أن كثرة النقود تؤذي ، خاصة إذا كانت « نقود العالم بأسره » ، إن هذه اللعبة المعقدة بسبب اكتناز الأمراء للمال وبسبب وجود عدة قطاعات ضخمة خاصة بالعملة النحاسية وعملة الغوري (نقد صدفي كان رائجا في الهند وأفريقيا السوداء) التي لم يكن من السهل اخضاعها لقانون موحد لكل الهند ، وفي هذا النطاق الشاسع بعيدا عن دلهى ، راحت عدة سلطات محلية تضاعف من سك العملات ، وكان الغرب يسهم في هذا الخواء عن طريق البرتغاليين مثلا .

وكانت الهند بالطبع عرضة للتقلبات التجارية العالمية الكبرى حيث أنها كانت مستودعا ضخما للعملات الأجنبية إلى جانب كثرة ما بها من الفوضى وثرائها بالعملات الوفيرة ، ومثلها مثل أوروبا وتركيا فسوف تنهار في القرن السابع عشر ، وعندما ستقرر انجلترا الثورة الصناعية التوسع في النسيج ، فإن هذه المنافسة ستؤدي إلى الإفلاس الفوري لصناعة الأقطان الهندية الموسعة في القرن الثامن عشر .

ترى هل كان يجب علينا اتهام الغرب مرة أخرى بسبب انحدار الهند المغولية ؟ . . . لا شك أن تجارة الهند مع الغرب لم تكن ملكا لها مثلها مثل تجارة تركيا العثمانية أو فارس الصفويين ، إذ أن الهولنديين والفرنسيين والبرتغاليين والإنجليز قد تضافروا للإنقضاض على هذه الفريسة الضخمة بإنشاء مدنهم التجارية ، وها هو زمن الإحتلال البريطاني يتحدد : ففي عام ١٧٦٥ أصبحت إدارة بلاد البنغال في أيدي « شركة الهند الشرقية » .

ولنعترف مع ذلك أن الهند المغولية قد ساعدت الغرب في انجاح مخططاته على الأقل بسبب الحروب المتواصلة وعدم مقدرتها على خلق الإستقرار لشعوبها المتعددة ، فقد قام الأفغان مثلا بإثارة القلاقل في دلهى لمدة خمسة عشر عاما أيام حكم همايون وكان ابن بابور وخليفته ، وذلك من عام ١٥٤٠ ـ ١٥٥٥ ، فهل يجب علينا أن نتهم الإسلام ؟ . . . في واقع الأمر أنه لم ينجح هنا في جمع الأمة من حوله مثلما فعل في الأناضول أو في فارس .

حقا أن مثل هذه المهمة كانت هنا مختلفة وأصعب ، لا من حيث اتساع المكان فحسب وإنما لأن الهندوسية كانت وظلت دائما في مواجهة المحتل المغولي عبارة عن دين ونظام اجتماعي وميراث ثقافي في آن واحد ، وكلها ذات جذور عميقة تمتد إلى الآف السنين في أعماق الجماهير الهندية ولها ـ إن أمكن القول ـ ملايين الأمثلة ، فهل يمكن انتزاع مثل هذه الأعماق السحيقة ببضعة عشرات أو مئات أو الآف من الرجال وخاصة بالسلاح ؟ . . . وأخيرا ، وإذا ما استثنينا بلاد السند التي احتلها الإسلام بشكل متواصل منذ فجر القرن الثامن ، والبنغال التي استطاع الإسلام فيها أن ينتهز فرصة الفراغ الجماعي الذي خلفته الأصداء المعادية للبوذية ، فإنه يمكن القول إذن إن أنسب الفرص السانحة للإسلام لكي يتوغل في قلب القارة الهندية لم يجدها إلا في أوقات السلم .

وعلى أي حال فلا ينبغي أن نحيد بوجهنا عن هذه النتائج التي كانت أكثر ضخامة مما حدث في تلك المنطقة الشاسعة الأخرى المسماة بالصين ، فالإسلام الهندي قد حدد بصورة نهائية ، في الفترة المغولية ، التقسيمات التي تسمح له بانضمام ما نسميه اليوم منطقة باكستان ـ هندوستان وهي تضم حوالي ١٤٠ مليون نسمة ، أي ربع تعداد شعب هذه المنطقة .

كما ينبغي ألا نشيح بوجهنا أيضا عن منجزات الثقافة المغولية ، إن الإسلام الذي بدأ يمد هنا حدود تراثه مع كبير ، المتصوف الأسطوري للقرن الخامس عشر والذي تتنازع انتماءه أيضاً الهندوسية وذلك عشية انتصار بابور ، إن هذا الإسلام يضيف الآن إلى مجموعة آدابه الواسعة على الأقل لغتين أساسيتين : فإلى جانب اللغة العربية المستخدمة في العلوم الدينية والشعر الفارسي الذي ازدهر في بلاط دلهي ، ها هي اللغة البنغالية التي وصلت إلى قمة نضجها مع الشاعر الكبير مير الذي نشأ في أوساط الدراويش (١٧١٣ ـ ١٨١٠) ولغة الأوردو وهي نتاج اختلاط كل من اللغات الهندية والفارسية والعربية .

ونفس المزج ، إن جاز لنا القول ، نراه في الفن ، إذ أن فارس تفسح لنفسها مكان الصدارة دون أن تستبعد كلية التأثيرات العثمانية أو حتى الأوروبية ، وخاصة دون أن تمنع الإقتباسات المحلية فقد بدأ آجر المساجد الإيرانية يتراجع عن واجهات الأبنية أمام الحجر الصافي الذي يعد زخرفة في حد ذاته مثل الرخام



لاعبو البولو والطبالون رسم في فارس في النصف الثاني للقرن السادس عشر

الأبيض في تاج محل الشهير (لوحة ١٢٥) حيث راحت الهند ـ مثلما حدث في إسبانيا ـ تنهل من تنغيم المسطحات العريضة والخضرة والمياه ، وهي المكونات التي يحلم بها كل مهندسي العالم .

وعندما نخترق مجال هذه الروائع سنرى الوحدة الزخرفية النباتية للقيشاني الفارسي الغارق في لعبة الظلال والضوء ، لكنه مزود بالأحجار الكريمة بكثرة ، وإذا ما عدنا إلى الشكل الخارجي وإذا ما نسبنا إلى إيران الرسم الهندسي ببعض المساجد والباب الرئيسي الضخم وتتابع القاعات الكبرى بقبابها مكتفين بهذه التفاصيل ، ترى هل تأثير فارس أيضاً هو الذي سنراه في ارتفاعات هذه الأكشاك وهذه القباب التي تعلو العمد (لوحة ٢٥ ب) ؟ . . . في واقع الأمر إن هذا الفن هو خليط من مختلف الإتجاهات وخاصة ذكريات آسيا الوسطى والهندسة المعمارية لجاينا أو البوذية ، وهي ذكريات جارفة وآثار مركبة إذ أنها ستؤدي إلى انتقادات بعض المسلمين المبالغين في الدقة والذين سينتقدون هذا التأثير مثل أورانزيب .

بقيت كلمة أخيرة حول المنمنمات (لوحة ٦) ، إن التراث الإيراني لبهزاد وتلاميذه ، ذلك التراث الذي تم تشجيعه رسميا قد انعكس هنا في بلد فريسك آجنتا بواقعيه لا مثيل لها ، وهكذا ولد فن للسادة وللأغنياء هو فن احتفالات وفن مناظر عاطفية ، وطبيعة عميقة مثل أراضي وأنهار الهند وفن زهور يمتد عبر الشرفات الشاسعة والليالي الباذخة ذات أوراق الأشجار المتحركة كما يجب ألا ننسى العديد من الرسوم الشخصية (لوحة ٢٥ جـ ، د) لبعض الحكام والنبلاء والدراويش ، إذ أنها تسمح لنا بالتحدث في تاريخ الفن الإسلامي عن وجوه ، عن وجوه إنسانية حقيقية ، وذلك قلما يحدث في تاريخ الإسلام .

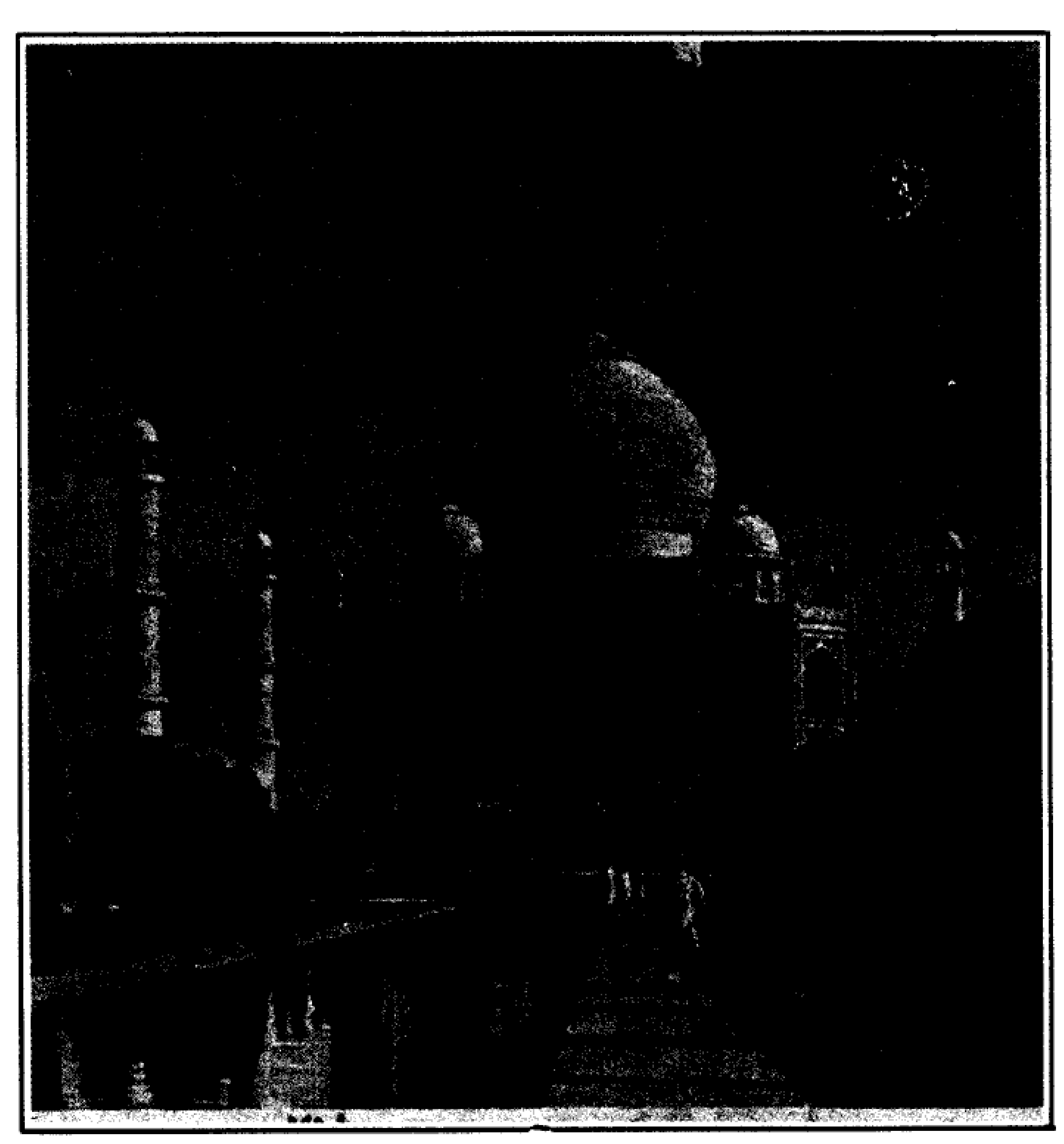
الإسلام في المحيط الهندي والبحر الأحمر .

إن الفترّة التي تبدأ مع القرن الخامس عشر تعد بالنسبة للإسلام قفزة حقيقية في المحيط الهندي وحول مشارف المحيط الهادي ، وفي مفترق الطرق هذا ستدخل شعوب جديدة إلى الإسلام لتصبح بدورها عناصر جديدة للتوسع .

وطن جديد : أندونيسيا .

إن دخول الماليزيين في الإسلام يرجع في الواقع إلى التجار الهنود كما يرجع

إليهم تكوين أقليات إسلامية في كل من سيلان وبورما ، وفيما يتعلق بالماليزيين فقد كانوا يصدرون عقيدتهم الجديدة فور قبولها إلى الفلبين (ابتداء من أواخر القرن الرابع عشر) وفي جنوب الهند الصينية (القرن الخامس عشر) ، وفي كمبوديا (حوالي ١٥٥٠) ، إلا أنهم لم يصلوا بشكل واضح إلى سيام ، أما المحاولة الكبرى ففي جاوة حيث شهد كل من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر تقدم دخول الإسلام إبتداء من الشواطىء وكانت نتيجتها انحلال ثم اختفاء الإمبراطورية الهندوسية في مجاباهيت والتي كانت تسيطر في القرن



٢٥ـ أ تاج محل من أجرا



ب- مقبرة الاكبر في سكندرة

الخامس عشر على هذه البحار والأراضي ابتداء من سنغافورة وحتى غينيا الجديدة بينما انتشرت المملكات الإسلامية .

ومن أهم الملامح الأساسية لهذا الإسلام الأندونيسي آنذاك أنه كان بالنسبة للأمراء الذين ينتمون إليه عبارة عن تعريف سياسي أكثر منه ظاهرة دينية ، وذلك سواء في منطقة مجاباهيت أو أمام الأجانب كالبرتغاليين ثم الهولنديين ، وبعد العصور الأولى من دخول الإسلام بدأ صراع التجار ثم تلاه الصراع من أجل الوصول إلى السلطة ، وفي القرن السابع عشر انتهى الصراع مع الهولنديين بانطلاقة إسلامية حاسمة .

لكن . . . هل كان الأمر متعلقا بالإسلام حقا ؟ . . يقول أحد المتخصصين



جـ - جاهنجير يتأمل صورة والده الأكبر

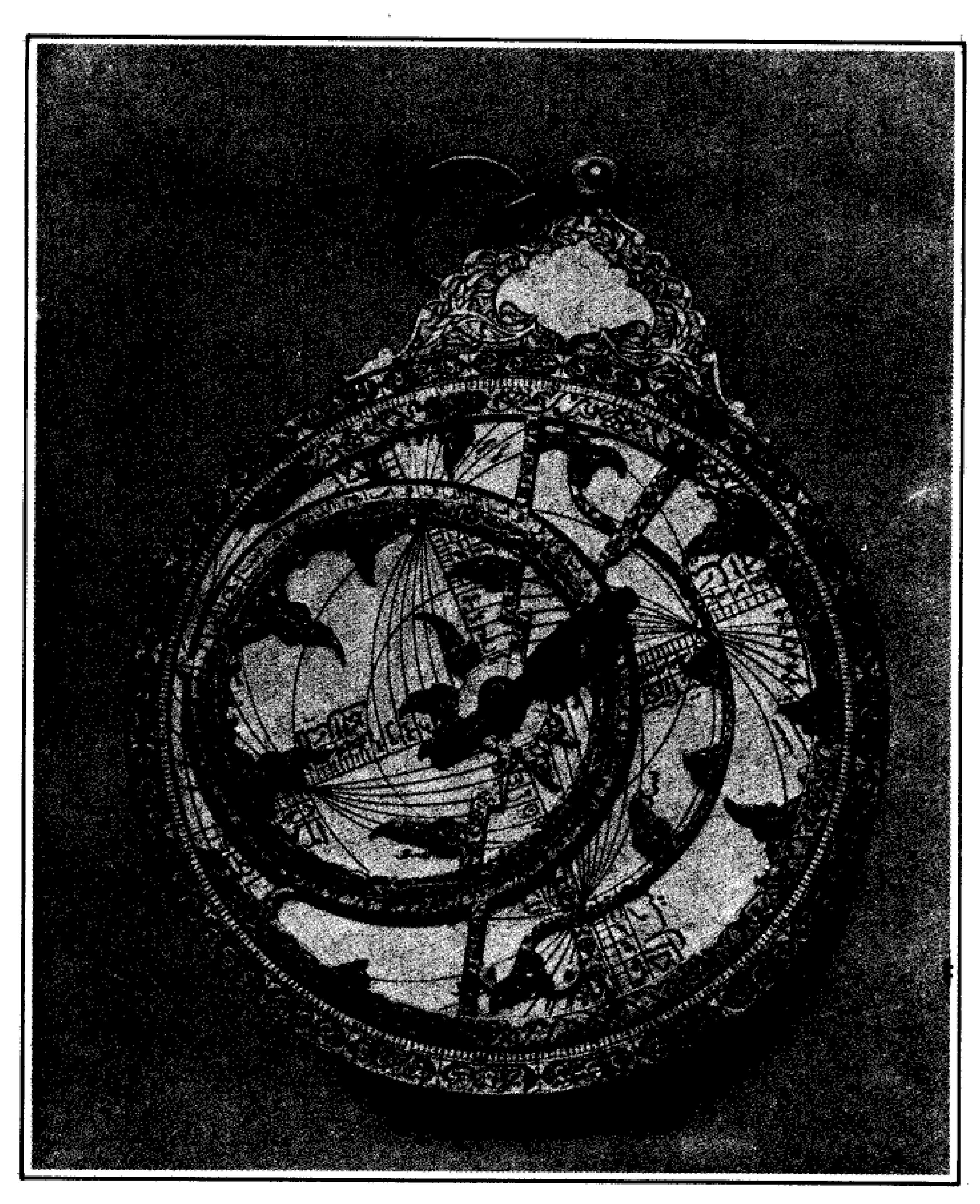
المعاصرين هو: س. برج « أنه لا يمكننا أن نتحدث فيما يتعلق بأندونيسيا عن تحول بالمعنى الذي تتضمنه هذه الكلمة من انقلابات ، إذ أنه في مقدور هذا البلد

ببساطة أن يهضم الاسلام مثلما امتص عناصر البوذية والهندوسية والحضارة الغربية على مر القرون .

وأيا كان الأمر فإن هذا الإبن المتبني حديثاً من العائلة الأندونيسية سيبدو مذهلاً فيما يتعلق بالانطلاقة الجاوية والماليزية (يعتبر القرن الخامس عشر الفترة العظمى لسلطنة ملقا) ولن تفلت من هذا المد الساحق سوى جزيرة بالي ، ووصل الإسلام إلى ملقا ابتداء من أواخر القرن الخامس عشر وتعد بمثابة الوطن الجديد للمبشرين بالدعوة الذين سيذهبون إلى جزركاي حول غينيا الجديدة . وفي نهاية القرن السادس عشر استقر الإسلام في سلبيس ، وفي القرن التالي امتد إلى بورنيو وفي الطرف الجنوبي من سومطرة حيث اعترضت الجماهير على دخوله ، أما في شمال نفس الجزيرة في سلطنة آتجة التي كانت تتبادل تمثيل السفراء مع العثمانيين فإن الإسلام سيعرف في القرن السابع عشر لحظات مجده القائم على « السبق » وتجارة العبيد .

د ـ صورة شخصية لرجل

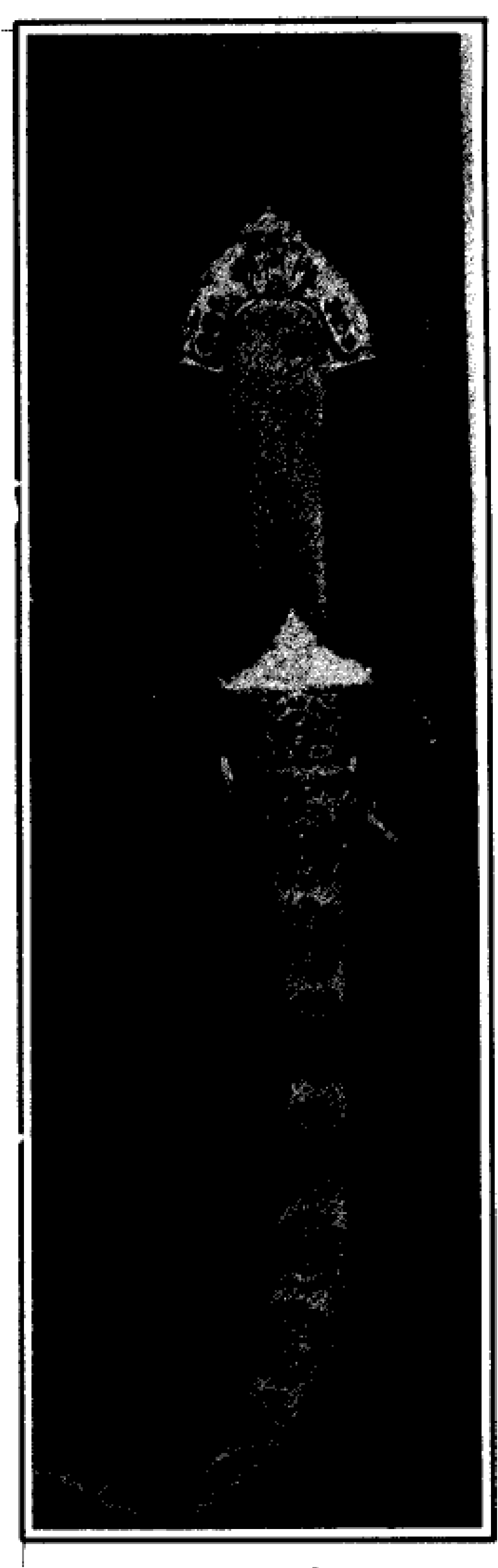
لقد تحدثنا عن تقاطع الطرق وموقعه فيما سبق ، إن مضيق ملقا يفتح الهند والشرق الأوسط على بحر الصوند ناحية الطريق الملاحي لمدينة الرأس ، فهل نندهش إذا ما اهتمت كل من الهند والصين والإسلام والغرب بهذه البحار ؟ . . . أيا كان الأمر فإن الإمبريالية الأوروبية تعد هنا سباقة للغاية ، فبعد البرتغاليين : سادة ملقا عام ١٥١١ أتى الهولنديون الذين أبعدوهم عام ١٦٤١ بعد أن استقروا في جاوة (مؤسسة بتافيا عام ١٦١٩) وسرعان ما أصبحوا سادة المضيقين وأقاموا مستعمرة ضخمة في العالم الأندونيسي رغم المنافسة الإنجليزية حول ملقا التي



إسطرلاب فارسي

سيفقدونها فيما بين عامي ١٧٩٥و١٨١٨ ، ثم سيفقدونها نهائيا ابتداء من عام ١٨٢٤ .

أما إسبانيا فستحدد هنا أقصى نقطة للتقدم الإسلامي مثلما حددته في الطرف الآخر للإسلام وفي أواخر القرن السادس عشر ستقوم « بحرب استرداد » أخرى تحصر فيها الإسلام عند مندناو ومجموعة جزر سولو .



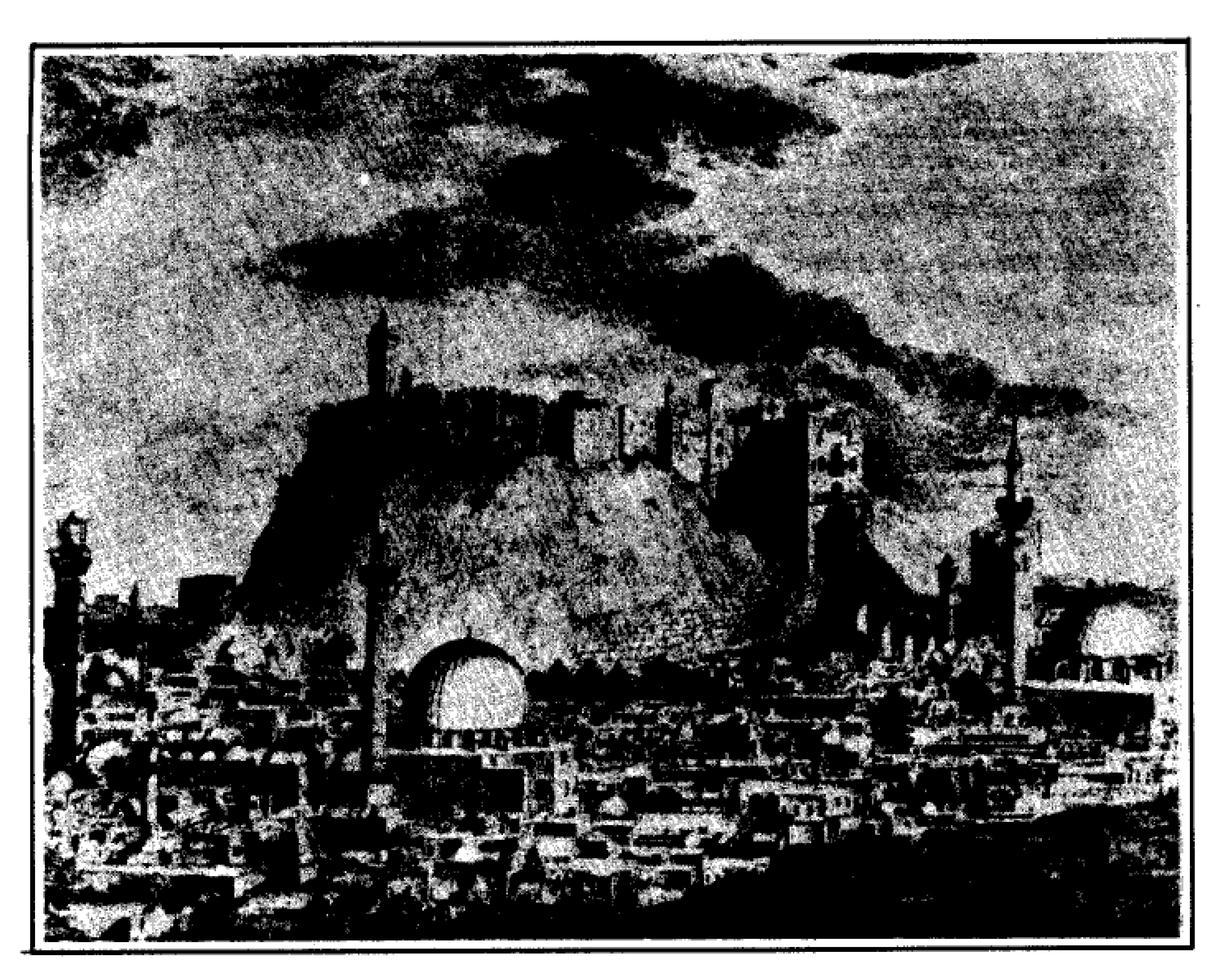
أ ـ خنجر .

وهناك حدث واحد على الأقل ينبثق من هذا التاريخ الطويل والمختلط للحروب والاخضاع وهو أن التدخل الأجنبي لم يمنع تقدم الاسلام بانتظام في الجزر الأندونيسية ، بل على العكس لقد أصبح في كل مكان تقريباً علامة للتجمع والمقاومة في مواجهة الأجانب ، فلقد صمدت سلطنات مندوناو للصدمة الاسبانية باسم حرب الجهاد ، وباسم الجهاد أيضاً طلبوا من علمائهم المسلمين إعلان أن سلطنة آتجة التي لا تتزحزح ستحارب الهولنديين من عام ١٨٧٣ إلى ١٩١٠ ، وحتى إذا ما كان هذا الإسلام الذي يقع ـ كدين ـ بعيداً عن الإسلام التقليدي فإن هذا الوضع لن يمنعه من القيام بدور سياسي ووطني يشير بشكل واضح إلى التاريخ الحديث .

من جهة أفريقيا الشرقية

فلنلق نظرة أخيرة على « إسلام الرياح الموسمية » ولكن من ناحية الغرب هذه المرة ، سوف نرى بالطبع العديد من الهنود والماليزيين الذين خاضوا الطرق البحرية منذ زمن بعيد إلى جانب الفرس والعرب ، دون أن ننسى القادمين الجدد وهم الاتراك ، إن الإسلام هنا بالتأكيد متعدد الأعراق ولا بد من تأكيد أنه يمثل ظاهرة واضحة للجزر (زنزبار والقمر) ، وشطآنها في مدغشقر وخاصة شطآن أفريقيا الشرقية ومدنها التجارية حيث كانت مدينة ممباسا تحتل الصدارة في أوائل القرن الخامس عشر .

ترى هل أدت إنطلاقة البرتغاليين في أعقاب فاسكوداجاما إلى سيطرتهم على



ب ـ حلب وقلعتها

الشطآن الأفريقية ابتداء من عام ١٥٠٠ وإلى قلب هذا الوضع ؟ . . لا شك في ذلك إذ أن الشباك الضخمة التي ألقاها البرتغاليون على مجمل هذا المحيط تقتضي قبضة من حديد من أجل السيطرة عليها . أما المدن التي قاومت الضريبة المفروضة عليها فقد عرفت تجارب مريرة وذلك مثل ممباسا التي عرفت الأفلاس عدة مرات ، ومع ذلك فقد كانت فتحات هذه الشباك واسعة واضطر البرتغاليون في كثير من الأحيان إلى فك حصارهم حتى في أعتى أيامه أمام القراصنة الهولنديين والفرنسيين وكذلك الأتراك أو العرب بدليل أن أفريقيا الإسلامية لم تنقطع تماما لا تجاريا ولا ثقافيا عن بقية الإسلام ، غير أن كل ذلك لم يدم سوى فترة محدودة ففي القرن السابع عشر عندما انهارت السيطرة البرتغالية على الأقل في شمال موزمبيق ، ستتكون قوة بحرية عربية لدى السلطان العربي لعمان وستصبح فيها زنزبار الجزء الأساسي وأخيرا فإن الوسيط البرتغالي لم يوف تقليد التراث التجاري لهذا الإسلام

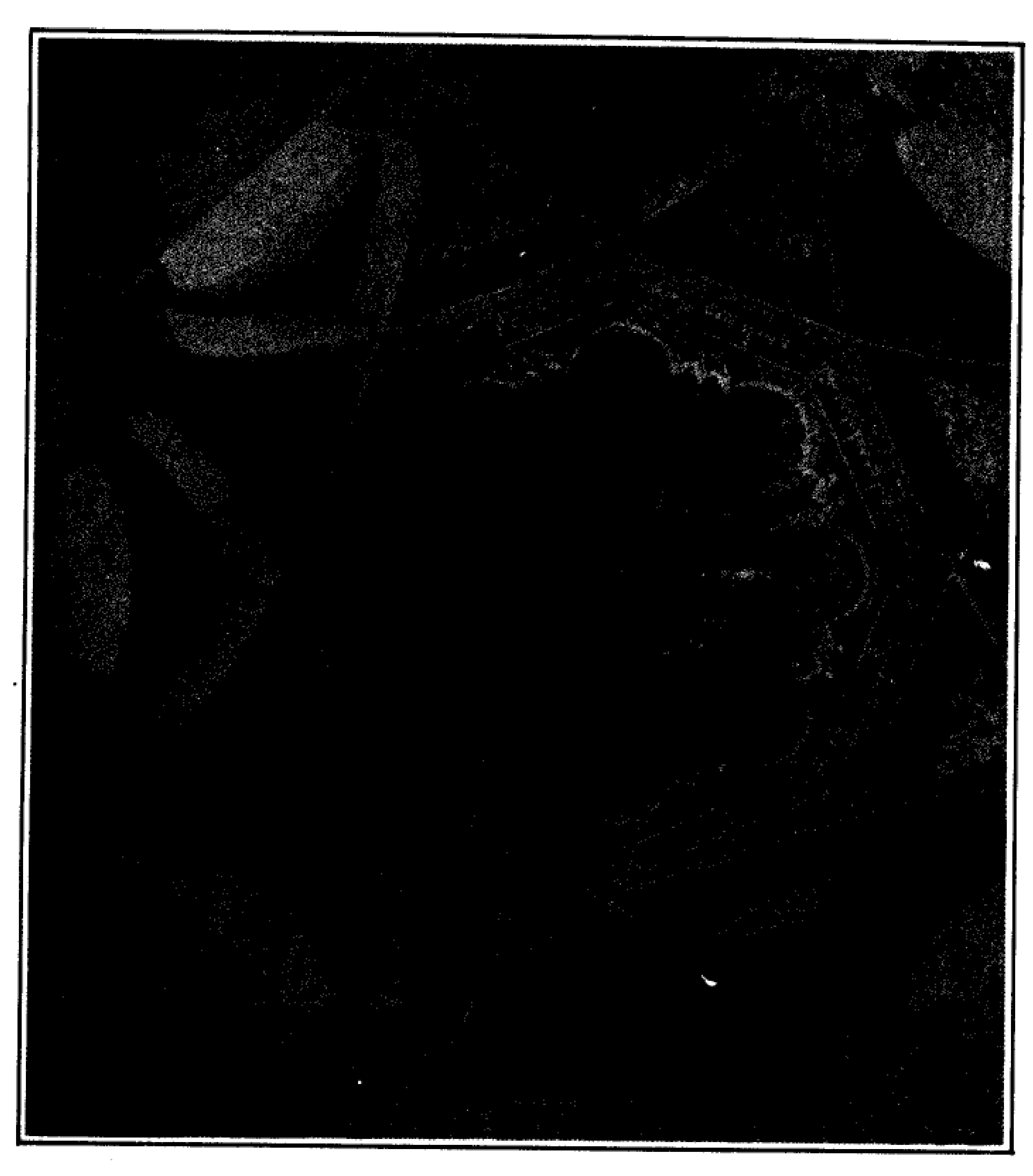


جـ- مخطوط من القرآن .

في الشاطىء الأفريقي ، كما لم يحاول القاءه إلى مناطق خلفية ولم يحاول ، أو لعله حاول ولم ينجح في السيطرة عليه تماما .

إن الإسلام سيتوغل عمقا داخل القارة الأفريقية ناحية الشمال ، فهنا ستقع ضغوط متعددة خارجية سواء من جانب العثمانيين أو من جانب البرتغاليين ، الذين سيعترضون حول مصبات البحر الأحمر ، وابتداء من عام ١٥٩٢ قام أحد الزعماء المحليين واسمه أحمد جران ليستولي على معظم أثيوبيا بمعاونه بعض الصوماليين وأهل عفار ، إلا أنه قد هزم من البرتغاليين الذين هبوا لمساعدة المسيحية الأفريقية ، وتوفي أثناء المعارك عام ١٥٤٣ ، وبذلك لم يتمكن جران الرحالة من انتزاع قلعة القبط من شمال شرق أفريقيا إلى الأبد .

لكنه استطاع أن يزيحها عن الأطراف لأن ملحمته لها عدة نتائج مختلفة الأثقال : لأنها حددت أو زادت من إسلام التخوم الأثيوبية خاصة ناحية الشرق في

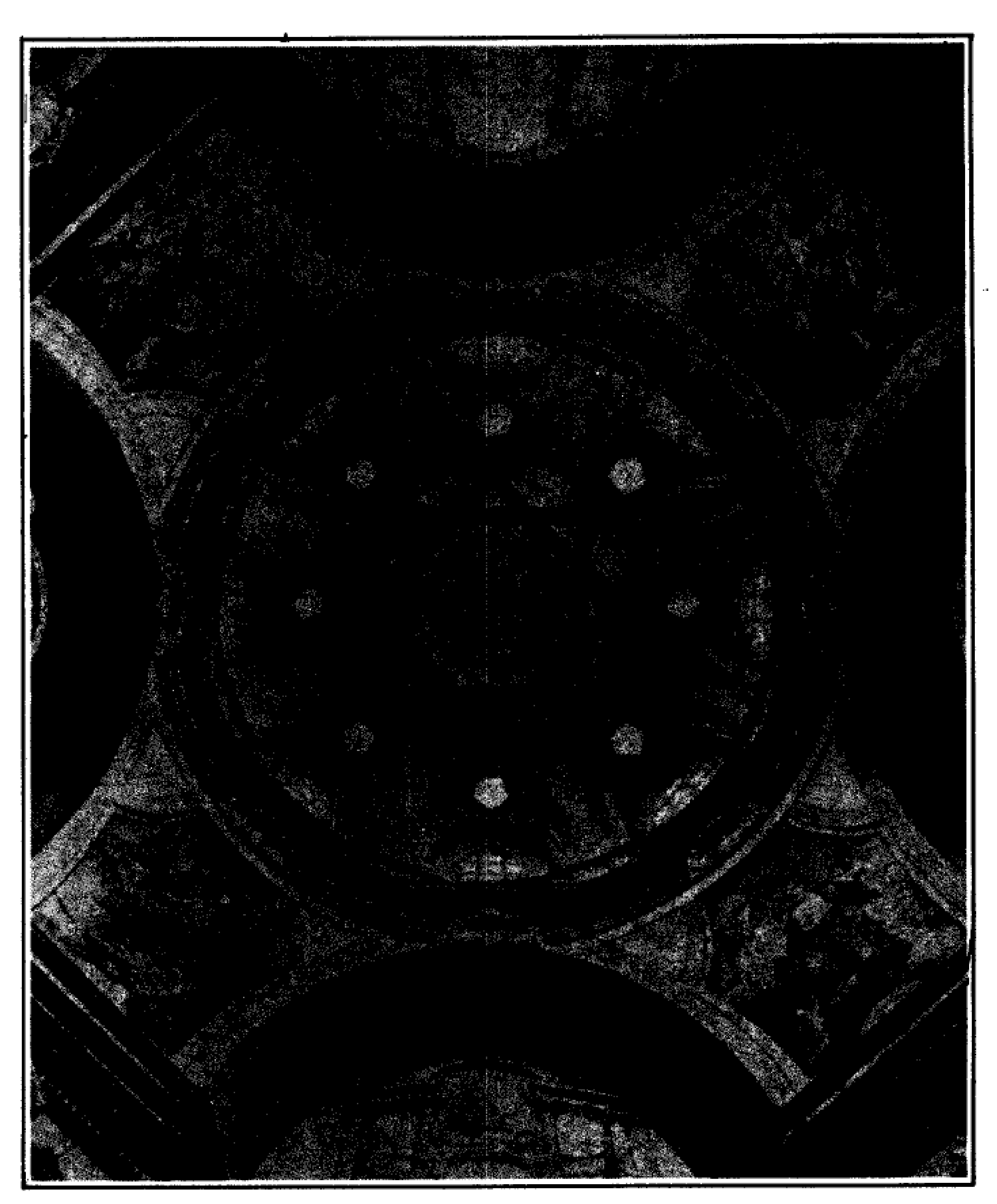


أ ـ مسجد من قرطبة ..

بلاد الـدناكل والصومال ، وأجلت ارتداد قسم من شعب جاللا عن الإسلام وكان قد هب عند الهجوم على هضبة الحبشة في نفس فترة جران ، كما أن هذه الملحمة باختصار تسبق العودات الكبرى لهجمات إسلام القرن التاسع عشر سواء كانت سلمية أو حربية .

المغرب وأفريقيا السوداء .

لقد تركنا الغرب الإسلامي البعيد في صراعه مع أول انطلاقة مسيحية ،



ب ـ كنيسة سان لوران بتورينو

وقد تأكدت مع مطلع القرن الخامس عشر الذي سيطر فيه البرتغاليون على شاطىء الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط عند سبتة .

المملكة الجديدة الشريفية .

إن هذه النجاحات الأجنبية تحدد نهاية حكام بني مرين ، ففي عام ١٤٢٠ تراجعوا أمام أسرة حاكمة أخرى قريبة منهم هم بنو وطاس زعماء حرب الجهاد ،



جـ - استرداد وتعميد : تحويل « المور » كاتدرائية غرناطة .

ويعد أول رد فعل لشعب تعصب « لمرابطيه » وهي ظاهرة إسلام مناضل وجماهيري تعد حيوية بلا جدال السمة المميزة للتاريخ المراكشي والمغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولهذه الحركة أشكالها السياسية الذاتية في المغرب الذي كان أكثر إنعزالا عن بقية الإسلام ، وابتداء من القرن السادس عشر وصل الشرفاء إلى الحكم (والشرفاء جمع شريف أي من سلالة النبي) وقد التفت حولهم الجماهير بصفتهم الحقيقية أو المفترضة من أنهم ورثة علي وفاطمة ، وبعد السعديين الذين استقروا في مراكش جاء بنو حسان في حوالي منتصف القرن السابع عشر (ويقال عنهم العلويون أيضاً) وهم أجداد الحكام الحاليين ، واتخذوا من مكناس عاصمة لهم (لوحة ٢٤ جـ) .

وعرفت مراكش أيام الشرفاء النجاح والبذخ في عهد المنصور (١٥٧٨ - ١٦١٠) بالنسبة للسعديين وأيام إسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) ومحمد الثالث (١٧٥٧ - ١٧٩٠) بالنسبة لبني حسان ، ومن أهم منجزاتهم الرقابة على الإدارة

المالية (المخزن) ، وتنظيم البلاط بشكل فاخر وفقا للنظام المتبع في إستانبول والقائم على جيش منظم ، مكون من الهاربين الأتراك والمسلمين الأندلسيين الذين جاؤ وا أفواجا في القرنين السادس عشر والسابع عشر (طرد المور أيام فيليب الثالث عام ١٦٠٩) وخاصة الحرس الأسود الذي يعد ملكية شخصية للأمير .

ترى هل يعد انعزال المغرب تجاه المسيحية وأفريقيا وعادات العالم العثماني إنعزالا نسبيا ؟ يمكننا بالطبع الإشارة إلى العلاقات الصاخبة بين البرتغاليين والإسبان الذين كان من نتائج محاولاتهم تطوير « السبق » المغربي ابتداء من بعض المعاقل التي لا تهزم مثل العرايش وسلا والرباط ، وقد أصبحت الرباط في أيدي الأندلسيين المهاجرين نوعا من الجمهورية البحرية المستقلة تماما ، إلا أن نهاية القرن الثامن عشر قد شهدت في نفس الوقت لهاث هذا « السبق » واستبعاد البرتغاليين نهائيا (سقوط مزغان كان آخر هزيمة لهم) .

وبنفس الطريقة يمكننا الإشارة إلى علاقات محمد الثالث مع البلدان الإسكندنافية وانجلترا وفرنسا وافتتاح ميناء موغادور الجديد للتجار الأجانب ، إلا أن الإسراف المالي المحلي وتحيزات الغرب وحكامه ضد المسيحية قد أدى إلى فشل هذا الإنفتاح المزعوم على العالم ، إن المغرب : هذا « الركام النحيل من التجمعات » التي تساندها سلطة الأمير عندما توجد ، والذي « يمزقه الصخب البربري والحرس الأسود الخاص ، هذا المغرب قد ظل وحيدا مغلقا في إسلام يمزج بين « الأيديولوجية العلوية » والصوفية بمالكية صلبة صافية ومزيج من ذلك المذهب الحنفي الذي كان الأتراك يجلبونه معهم من الشرق إلى المدن وخاصة تونس ، وأيا كان الأمر فقد كان إسلاما يعد التعريف الأساسي لشعب بل ولأمة بأسرها وجها لوجه أمام المشاريع الأجنبية .

فتح السودان النيجيري .

لقد عرف المغرب توسعه الوحيد الكبير آنذاك ناحية أفريقيا السوداء ، فلقد عادت كفة ميزان المرابطين إلى الرجحان بالإضافة إلى محاولة جديدة للإستحواذ على طريق الذهب والعبيد ففي عام ١٥٩٠ سيطرت بعض الفرق المغربية أو الأندلسية بواسطة مدفعيتها الخفيفة المحمولة على ظهور الإبل على مدينة تمبكتو ، إلا أن بلدان النيجر الوسطى ستظل في التحرك المسيحي حتى عام ١٧٥٠ بشكل

متراخ ، ويعد ذلك انتصارا جديدا لبارود المدفعية وبالتالي إنتصارا للمغرب حيث سيتدفق الذهب والعبيد عليها ، في حين أن تمبكتو ستأخذ عن الفاتحين مفردات لا حصر لها من لغتهم ، بخلاف العديد من العادات الخاصة بالزي أو بفن العمارة .

لكن هل يعد ذلك انتصارا للتجارة العالمية الكبرى أو انفتاحا حقيقيا للعالم المغربي ؟ إن وجود البرتغاليين في المحيط الأطلسي يقوم بتحويل جزء كبير من ذهب أفريقيا تجاه الشواطىء مضعفا بذلك الطرق الصحراوية ومدينة تمبكتو التي يعرفها الرحالة الغربيون منذ القرن الخامس عشر إذ كانت مرتبطة بأوروبا عن طريق طرابلس وتونس إلا أنها راحت تغوص في الغموض ابتداء من القرن السادس عشر إذ ستصبح لفترة طويلة « المدينة التي لا يمكن الوصول إليها أبدا » ، ترى هل كانت غلطة المغرب أو النداء البرتغالي القادم من الشواطىء ؟ . . أيا كان الأمر فيبدو هنا أيضا أنه لا يمكننا التحدث عن الإنفتاح إلا بحذر .

أما بالنسبة لمغرب الشرفاء المنطوي على نفسه وعلى أمواله المكتنزة ، فلم يكن السودان بالنسبة له رئة أو منفذا على العالم بل تحفظا متداخلا في مجال مغلق رغم أنه يزداد نزفا وإفلاسا .

تدخلات الإسلام في أفريقيا السوداء .

إن الإنتصار المغربي في التاريخ الإسلامي للبلدان الواقعة على الشريط الصحراوي لا يمثل بالطبع إلا مرحلة محددة ، فإذا ما عدنا إلى الوراء علينا أن نتذكر إشعاع إمبراطورية صونغي المنتصر على مالي في أواخر القرن الرابع عشر ، وكان حكمها قد بدأ بأسرة صوني الذي كان ممثلها الأكبر ابتداء من عام ١٤٦٤ هو علي ، وقد جرح التراث الإسلامي شخصيته لأنه حاول البحث عن أسلوب حياة وسط « بين الإسلام والتكوين الصونغي التقليدي » ، وبعد عام ١٤٩٣ جاءت أسرة جديدة إلى الحكم وكانت من أصل زنجي ومقرها مدينة جاو ، أنها أسرة آسكيا المسلمة المتشددة والتي جعلت من تمبكتو معقلا حقيقيا للإسلام في أفريقيا السوداء ، إلا أن الفتح المغربي سوف يستبعدهم رغم احتجاجات العلماء المغاربة الغاضبين من إنزال مثل هذه المعاملة بمسلمين مثلهم ، وذلك يدل على أن الإسلام الذي عبر عنه هؤلاء العلماء لم يعترف حقا بأن هذا النصر ملك له .

وبما أن النقاط الأخيرة قد وضعت حول الفترة الزمنية للشرفاء فلا بد لنا من الإعتراف بأن هذه الحروب أو غيرها قد لعبت دورا هاما في تاريخ الإسلام الأفريقي ، ونعني بغيرها تلك الحروب التي شنتها قبائل كانم بورنو التي بدأت تتوسع ثانية ابتداء من القرن السادس عشر ، وذلك بفضل البنادق التركية والإسلام الذي زود دولته وحقوقه وكوادره بجيش متجانس ، ولماذا لا نشير أيضاً إلى مملكة فونج في سنار في أعالي النيل ، وازدهارها ابتداء من القرن السادس عشر ، واختفاء آخر آثار للإمارات المسيحية من النوبة والحملات التي قادتها على جانبها الغربي ضد أثيوبيا ؟

لكن من الأفضل أن ندمج هذه الأحداث في الحركة الإجمالية لمنطقة الصحراء الجنوبية والتعبير باختصار عن محاولات الإسلام فيما بين أعوام ١٤٠٠و ١٨٠٠ ، فهنا مثلما حدث في أماكن أخرى كان الإسلام يرمي إلى عدة مجالات في آن واحد : الفتح ؟ . . نعم ، ولكن الهجرات أيضاً ، مثل هجرات القبائل العربية في مصر العليا إلى النوبة ، وهي هجرات قديمة لكنها صادفت حدثا هاما في القرن السادس عشر عندما اصطدمت بالفونج وكانوا من مربي الماشية وأصلهم من الجنوب وقد تم إسلامهم بفضل هذا اللقاء ، وتعد حركة الهجرة لشعوب البيل أكثر منها أهمية إذ سيصبحون العنصر الأساسي لفوتاجالون الغيني .

إن هذه التحركات تؤثر ضد المجتمعات القائمة ، ضد الروحية السوداء وفي الشرق ضد المسيحية النوبية التي ستختفي كما وسبق إن أشرنا وسط هذه الإضطرابات ، وراح الإسلام يقدم في كل مكان لهذه الشعوب فور استقرارها إطار التجمع المنظم المسلسل والمعتمد أحيانا على المنشآت المدنية ، وأخيرا كيف لا نتحدث عن التجارة كدعامة من أهم دعائم الإسلام ؟ . . إن تجارة العبيد وتجارة الذهب والحج كانت تتلاقى طوال اتجاهيها من الشمال إلى الجنوب (ولا ننسى أن تافيلليت المغربية وحجاجها الصحراويين والأفريقيين كانوا ينضمون إلى القافلة المغربية) ومن الغرب للشرق ناحية وادي النيل .

إذا ما حاولنا حصر مجمل الأحداث حوالي عام ١٨٠٠ فإن جبهات المعارضة تنبثق من هذه الصراعات ومن هذه التحركات سواء كانت مؤيدة للإسلام أو معارضة له ، وبقول آخر ، لقد كانت مؤيدة له في بلدان الشعوب السوداء أي

قبائل الفوتا : الفوتاتورو في السنغال ، والفوتاجالون في غينيا ، ثم السودان النيجيري وبلدان بحيرة تشاد ونيجيريا في الشمال ، أما في الشرق فكانت القبائل العربية وقبائل الفونج في السودان النيلي ، أما الشعوب المعارضة للإسلام وخارجة عنه فكانت قبائل الولوف في السنغال التي لم تدخل الإسلام جماعة إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، ومنطقة بامبره حول سجو ونيورو في الزاوية الواقعة بين أعالي السنغال وأعالي النيجر ، وقبائل موسيس القائمة في أعالي منطقة الفولتا .

ورغم قوة الإسلام وسيطرته فلم يتمكن من انتزاع العادات القديمة والمعتقدات الروحية ولا اللغات المحلية ، إلا أنه وصل إلى نوع من النضج في فجر القرن التاسع عشر لأنه قد اتخذ في أفريقيا أيضاً وبشكل نهائي تلك العلامة المميزة له والتي نتعرف عليه من خلالها من أقصى العالم القديم إلى أدنى طرف له ، إذ أنه استخدم كعامل للتفرقة والتمييز السياسي خاصة تجاه الأجنبي ، لذلك سيضيف بعض الحركات الكبرى لتاريخ أفريقيا المستعمرة .

وهكذا تنتهي نظرتنا الخاطفة على إسلام أفريقيا السوداء ، تلك النظرة « البانورامية » للتاريخ الإسلامي منذ فجر القرن العاشر حتى مشارف القرن التاسع عشر ، ترى هل أسهبنا كثيرا ؟

إن هذه القرون الثمانية التي تمثل ثلثي تاريخ الإسلام عادة ما ينظر إليها من عل ، ومن بعيد . . ، من خلال تراث مستشرق معين ، يميل إلى الحكم على الإسلام من كتاباته العربية فحسب ، فبالنسبة لهذا التراث لا يتعدى الأمر هنا كونه مرحلة انتقالية حيث يتململ فيها الإسلام بين ذكرى أمجاده العباسية ، وانتظار صحوته الجديدة في القرن التاسع عشر ، وكأن الإسلام فيما بين هذا وذاك ـ حتى الإسلام العربي ـ قد كف عن الوجود والتعبير والتفاهم . . . .

ولنحكم على هذا الموقف من خلال الموازنة التالية . . . .

الفصل الرابع

موازنة عصر انحلال ..
أم امتدادات جديدة ؟

إن الفترة الممتدة من عام ١٠٥٠ إلى عام ١٨٠٠ تعتبر فترة حاسمة بالنسبة للإسلام ، وكيف يمكننا تخيل عكس ذلك خلال كل هذه الأعوام وحول كل هذه المساحة ؟ . . إن ما قلناه في الصفحات السابقة يسمح لنا بتحديد بعض ملامح الإسلام الجديدة لذلك سيمكننا الآن الإكتفاء بجمع وتوضيح هذه الملامح المتناثرة .

وأول هذه الملامح رغم بدائيتها هي أن هذا الإسلام قد تحرك وامتد واحتل نفس المكانة تقريبا التي يحتلها اليوم على أرض الإنسان .

١ ـ عندما كان الإسلام عمره إثنى عشر قرنا :

رغم كل ما في تاريخ عامه الألف من رمزية (١٩ أكتوبر ١٥٩١) بالنسبة للإسلام ، فإن هذا التاريخ يوافق ذروة العثمانيين ، ومع ذلك فلكي ندرك بشكل أفضل الإنجازات التي تم تحقيقها في جنوب شرقي آسيا وفي أفريقيا ، يجب أن نرجىء تاريخ عمل الموازنة الأرضية إلى ما بعد ذلك بقليل ، إلى عام ١٢٠٠ الهجري الموافق ٤ نوفمبر ١٨٧٥ .

فما الذي نقرؤه على الخريطة ؟ . . . إن محور التوسع الإسلامي دائما هو تلك المنطقة المدارية الشاسعة أو جنوبها في صحارى أفريقيا وآسيا ، فعلى التخوم الشمالية سنحدد موضع المغرب ومصر ، وبلدان الهلال الخصيب والهضبة

الإيرانية ، وفي الجنوب : هنا أفريقيا السودانية وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وإلى الشرق فإن التوغل الإسلامي يواكب ـ بنفس الطريقة ـ الفرعين الصحراويين لآسيا الوسطى وبلدان السند .

وخارج هذا الإتجاه العام الغربي الشرقي فإن الإسلام إذا ما استثنينا بعض المدن التجارية لأفريقيا الشرقية ، لم يتقدم بشكل ملحوظ سوى في اتجاهين : جهة الشمال الغربي في اتجاه الأناضول وأوروبا القارية أو يتجه للمناطق المعتدلة الدافئة أو ناحية الجنوب الشرقي في أندونيسيا الإستوائية .

أي أن التاريخ لم يترك للإسلام في إجماله إلا أراضي صعبة قاحلة بل وموحشة ، أما فيما يتعلق بالبحار فإن مصيره هو ما نعرفه عنه اليوم ، إذ لا يمتلك منها كلية سوى بحرين داخليين هما الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، أما بالنسبة لتلك المساحات الأساسية التي هي البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأسود أو بحر قزوين فإنه لا يسيطر حقيقة إلا على شواطئها الجنوبية ، أما فيما يتعلق بالمحيطات سواء الأطلسي أو الهندي فأقل ما يمكننا قوله إن حركة المرور الدولية قد تفوقت عليه .

إذن لقد انحصر الإسلام في منطقة المضايق التي أشرنا إليها وفقا لرأي موريس لومبار ، لكن ترى هل توقف وكأنه شعر أن مصيره ـ على المدى الطويل ـ يتلاعب هناك ، أن تصرفه في البحر الأبيض المتوسط يعد نموذجا في هذا المضمار ، فلنتذكر مغامراته الإسبانية والصقلية والكريتية والقبرصية ، وإن كانت هذه أقل منهم نسبيا ، فسواء لم يتمكن من إخضاع الشواطىء الجنوبية للبحر أو لم يرغب في ذلك فقد تعلق بالجنوب بعيدا عن تلك الحدود التي تخترقها غزواته أو الحروب الصليبية أو أية حملات مسيحية أخرى على أراضيه في اتجاه عكسي ، وهذا التشبث بالجنوب يرجع إلى انهزامه في مناطق أخرى ، ربما كانت الحدود سهلة الإختراق ، إلا أنها ظلت حدودا لم تتغير : فهنا يشعر الإسلام وكأنه في داره كما يشهد على ذلك وبأشكال مختلفة قوة مقاومة السنية جامعة القوى الحيوية الكبرى .

٢ ـ الإسلام ورجاله :

على مستوى الحياة اليومية .

كيف يمكننا التعرض في بضعة صفحات لتفاصيل لا نهاية لها لمقومات

حضارة ما ؟ . . بالطبع لن نتمكن إلا من تحديد الخطوط العريضة ، ومع ذلك فهناك إجمالا ظاهرة مؤكدة : إن الإسلام يساهم مثل بقية الجماعات الإنسانية في « الحضارة المادية » للعالم أجمع ، وذلك هو ما أوضحه ف . بروديل في كتاب حديث من نفس هذه المجموعة اسمه « الحضارة المادية والرأسمالية من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر » .

مسلمون قدامى وجدد .

لا بد لنا من تحديد الموقف مرة أخرى عند نهاية القرن الثامن عشر وهنا لا يوجد ما يعوق الإيجاز في القوة ففي الإجمال لا يوجد تغيير يذكر بالنسبة لخريطة الأعماق المختلفة في الإسلام .

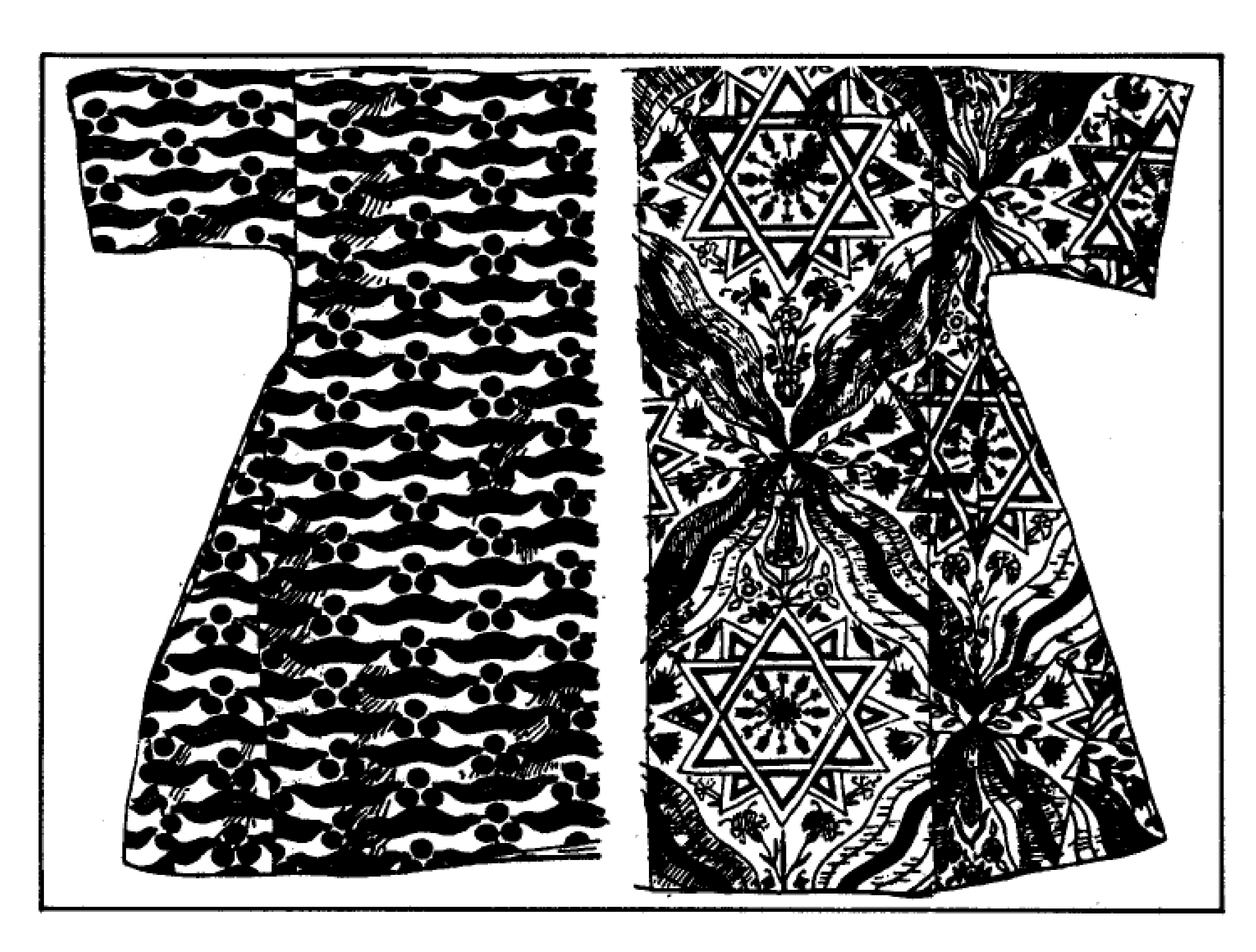
ولا شك أن هناك العديد من الأحداث منها كسب ما لا يقل عن ٣٠٠,٠٠٠ من المور طردتهم إسبانيا ، والمهاجرين الفرس والأفغان والأتراك إلى الهند ، والهنود والعرب والفرس المقيمين في المدن التجارية في أفريقيا الشرقية ، والأتراك العسكريون والإداريون المقيمون في مختلف المدن العثمانية ، ولا يوجد هنا شيء أساسي على المستوى العالمي ، غير أن أكثر ما يعنينا هنا هو الإنطلاقة العربية ناحية شمال أفريقيا ، والبلدان النوبية وهجرات قبائل البيل وخاصة استيطان الأتراك في أذربيجان والأناضول وتراقيا وفي دوبروجة ، وإن تم ذلك بكثير من الأحداث ، وما إن استقرت أحداث هذه الإنطلاقات حتى يمكننا إدراك الثوابت الأساسية للإسلام ، أي مكوناته الإجمالية : كالعرب والبربر السود والأتراك والإيرانيين والهنود والماليزيين .

وربما كان حجم من دخلوا الإسلام أكبر وأهم من حجم الهجرات ، فهنا ، حتى إذا لم يكن الإسلام أحيانا إلا في أوائله ، إلا أننا لا بد أن نقيس تقدمه ببلدان بأكملها أو بقطاعات كاملة في بعض القارات ولنذكر على سبيل المثال : الأناضول والبانيا والبوسنة وأفريقيا السوداء والهند وأندونيسيا وآسيا الوسطى .

هل من عادات جديدة ؟

ترى هل تمكن الأتراك من تغيير نمط الحياة اليومية في الإسلام علما بأنهم كانوا أكثر القادمين الجدد عددا وأكثرهم قوة ؟ . . في البداية عندما جاؤ وا من

موطنهم في آسيا الوسطى انبهرت الشعوب بأزيائهم وقد تحدث أحد المؤرخين عن دخول طغرل بيك نيسابور مشيراً إلى «ثيابه الفخمة وعمامته الخالية من الزخارف وحذائه المصنوع من الجوخ» ثم قام الإنسان التركي بعد ذلك بنشر نوع من الثياب حتى المغرب وهو زي مشتق من أزياء فارس الخالدة التي نعرفها ، وذلك مثلما حدث بالنسبة للقفطان (شكل ٤٥) الذي تقدم لنا عنه مجموعات إستانبول نماذج باذخة ، ومثل السروال سواء كان شديد الإتساع أم لا ، فقد ساعد في انتشاره استخدامه العملي بالنسبة للعسكريين . فاستخدمته مختلف الطوائف وسرعان ما أصبح له وللقفطان استخداماتها الفخرية .



ـ شكل ٥٤ ـ قفطانان لمحمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١)

وماذا عن المنزل ؟ . . إن الإسلوب التركي القائم على المزج بين الآجر والحجر يعتمد على ذلك التزاوج الكلاسيكي في الإسكان والقائم على الإهتمام بالمساحات الداخلية ، فأعاد الأسلوب التركي تشكيله مغيرا من وضع مركز المسكن ، وبذلك أصبح الفناء والممر الطويل المؤدي إلى قاعة الإستقبال الرئيسية

أشبه ما يكون بمقدمة معمارية للمنزل نفسه ، ويمكننا اتباع هذا الترتيب الجديد على خطوات الفاتحين ناحية سوريا ومصر والجزائر .

إلا أن هذه التغيرات على أي حال لا تخص سوى الأمراء والأثرياء ففي الهند مثلا يقتصر استخدام الزي المغولي الخاص بالإحتفالات على أمراء البلاط سواء كانوا مسلمين أم لا ، أما في باقي المجالات ففي مجتمع تمثل فيه طبقة الفلاحين ما بين ٨٠و ٩٥ في المائة من تعداد السكان فإن الزي والمسكن ظلاّ بلا تغيير لبساطتها ، إذ أن الأثاث عبارة عن بضعة أوان وصندوق عائلي وحصيرة ، وهو يفترش الحجرة الوحيدة المبنية من الطين أو من اللبن (الطوب النيء) ، أنه عالم شديد التقشف يجهل ما لدينا من مدفأة وأدوات للمائدة ومقاعد ، وما هو أكثر من ذلك ، أنه عالم لا يتغير لأن معظم هذه العادات (نحن فقط الذين نقول أنها تنقصه) يأتيه مثلها من أعلى ، إذ أن كل المجتمع يتمسك بقاعدة ثابتة لا تتغير وتنعكس من الرجال على النساء ومن الأثرياء على الفقراء .

نظام بيولوجي قديم .

نفس الملاحظات نجدها أيضاً فيما يتعلق بالمطبخ إذ أن رتابة وبساطة نوعية الأطعمة هي السائدة ، وذلك رغم الإستثناءات الخاصة بالبلاط وبالأثرياء المحليين ، وكأن هذه الأطعمة البسيطة تمثل نوعا من الوطنية المحلية التي تثير حنين المهاجرين ، مثل الكسكسي المغربي والفول المدمس المصري ، والبيلاف الفارسي أو التركي (البيلاف طعام من الأرز واللحم والتوابل) وتعد اللحوم من الأطباق المحدودة حتى في إستانبول التي تعد مدينة مميزة ، ولذلك يعد طبق البيلاف في فارس مرادفا لتعبيرنا اللغوي « قصر في الهواء » .

إذن ما الذي يأكلونه ؟ . . . يأكلون الأرز في الهند ـ إذا وجد ـ والقمح في أماكن أخرى سواء كخبز سيء الصنع أو مسلوقا ، ويأكلون خاصة الخضروات ومنتجات الألبان الخالية من الدسم مثل الجبن القديم المخلل والزبد الزنخ في شمال أفريقيا ودلتا مصر ، وهي أطعمة قليلة التغذية سواء بحكم تكوينها أو من حيث كمياتها ، وحيث أن هذه الأطعمة لا طعم لها أصلا لذلك يتطلب صنعها إضافة كثير من التوابل التي تزيد من طعمها وذلك إلى جانب المنبهات رغم التحذير

من أضرار استخدامها بكثرة ، ويأتي في مقدمة هذه المنبهات الشاي القادم من الصين ، والقهوة ، التي حتى وإن كانت ولدت في أثيوبيا فإنها قد فرضت نفسها كالمشروب الرئيسي في الإسلام وأعطيت إسما ساحراً منسوبة إلى المخا في جنوب الجزيرة العربية ، ثم هناك الأفيون القادم من الهند عن طريق جنوب شرق آسيا والعالم التركي ، ويأتي الطباق من أمريكا ، والقات من أفريقيا الشرقية واليمن وأخيرا هناك النبيذ المنتشر سرا ، لأنه محبوب من كافة الأمراء حتى الهند ، وذلك بالإضافة إلى الخمور وأنواع العرقي (المصنوع من البلح أو الأرز) التي تختفي وراءها القصة الغامضة للتقطير وأدواته .

ثم لا بد لنا من فتح ملف البؤس حتى باختصار شديد ، بؤس الجوع الدائم أو المتفجر في كل مكان تقريبا ، وخاصة في الهند (المجاعات الكبرى التي حدثت عام ١٤٧٢ ، ١٥٩٦ ، ١٦٣٠) ، وبؤس الأمراض المتوطنة أو الجديدة التي تحرث أرض الإسلام في شتى اتجاهاته وتقاطع طرقه التي لا تكل ولا تهدأ من نقل العدوى .

ولن نذكر هنا سوى الكوارث الكبرى ، فالطاعون يتجه من الشرق للغرب ابتداءمن معاقله في الصين والهند فيتلقاه الإسلام ليدفعه بدوره إلى أوروبا ، وذلك مثل الطاعون الأسود في القرن الرابع عشر والذي اقتلع ما لا يقل عن خمس تعداد المسيحيين وفقا لقول ج . لو جوف ، لكنه لم يكن الوباء الوحيد فقد عرفت مصر المماليك إثنى عشر وباء فيها بين ١٤١٦و١٥١٣ ، أما من الغرب للشرق فهناك الملاريا الأفريقية والأمريكية التي أصابت أندونيسيا في القرن الثامن عشر ، والزهري في أمريكا أيام كريستوفر كولومبوس الذي أصاب أوروبا حوالي عام ١٥٠٠ ثم انتشر حتى الصين عام ١٥٠٦ .

ترى هل نتحدث عن الكوليرا التي قيل أنها ولدت في الشرق الأوسط ثم انتشرت في الهند حيث أصبحت من الأمراض المتوطنة هناك قبل أن تنتقل إلى أوروبا عام ١٨٣٢ ؟ . . . وماذا عن الدرن الهندي في القرن الثامن عشر ؟ . . وداء الخيطيات والبلهارسيا وداء الليشمانيا ؟ . . . لنتوقف عند هذا القدر ولندرك فقط أن المرض آنذاك لم يكن عرضياً في الحياة اليومية وإنما كان يمثل نفس الحياة اليومية ، مثله مثل الفاقة التي كتب عنها المقريذي مؤلفاً خاصاً .

وهكذا تتحدد معالم ذلك « النظام البيولوجي القديم » في كل مكان ، والذي يقول عنه ف . بردويل أنه تقسيمة متساوية لفرص الحياة والموت : إنه بمثابة « حلقة جهنمية » لم يأت عليها إلا الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر ، والتي أعطت « للإنسان قيمته وإمكانية العمل والحياة » ومرة أخرى يتعلق الأمر هنا بالغرب ، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن هذه الحلقة الجهنمية ستمتد على الأقل بالنسبة لبعض المناطق حتى قلب القرن العشرين .

مد وجزر السكان

سكان العالم ـ سواء الإسلامي أو غيره ـ حتى أواخر القرن الثامن عشر يتقاسمون واقعاً مشتركاً يمكن تعريفه على ضوء نظرية مالتوس للسكان بقانون المقص الشهير ، أي بالتباعد المتزايد بين كم محدد من السكان وموارد الرزق المتاحة ، وظل هذا القانون سائداً إجمالاً حتى الثورة الصناعية التي قلبت معطيات المشكلة لصالح الإنسان وذلك بفضل النظام التقني الذي أدت إليه ، وذلك ابتداء من القرن الثامن عشر بالنسبة للغرب ، وبعد ذلك بكثير بالنسبة للاسلام الذي سيمد ذلك « النظام القديم » الاقتصادي والبيولوجي في شكل التخلف .

ونحن نعرف المراحل الكبرى من هذا التاريخ بالنسبة لأوروبا ، فالفترة الواقعة فيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر تحدد ـ إلى حد ما ـ نهاية فترة « الرجل النادر » وبداية التوسع ثم انطلاقته ، وقد أدى التقدم والضغط السكاني إلى سرعة استصلاح الأراضي والتوسع الحضري وارتفاع الأسعار ، ومنذ نهاية القرن الثالث عشر عادت لعبة المقص لتنفتح من جديد ، فقد استقرت أزمة انحصار طويلة المدى على العالم القديم ، وهبطت الأسعار وتوقف استصلاح الأراضي وأقفر الريف وانحنى خط زيادة السكان إلى أسفل وراح الطاعون الأسود يغرس براثنه في خلفية بشرية أقل صلابة وسيئة التغذية ، وسرعان ما تحولت انحناءة الخط الديموغرافي إلى سقوط يبعث على الدوار .

إن ما حدث في مصر يعد من أندر الأمثلة التي بدأنا نعرفها جيداً بفضل أعمال كل من ا . اشتور ، ود . س . جواتين ، إذ تؤكد هذه الأبحاث الاتجاهات التي نعرفها منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ، ويعد هذا المثل أفضل من مثل إسبانيا حيث الإحصائيات تزداد تعقيداً بسبب الهجرات

القادمة من المقاطعات التي استردتها المسيحية ، إن انخفاض أسعار الخبز والعسل والسكر وركود الأجور وهجرة ٢٠٠ قرية في فترة المماليك تدل على مصاعب اقتصادية خطيرة أو أزمات متفتحة مثلما حدث في القرن الخامس عشر ، ويمكن تفسيرها أساساً - مثلما قال ا . اشتور - بانخفاض الطلب بسبب الهبوط في تعداد السكان الذي سيزداد في مصر بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

لكن إذا ما صعدنا إلى ما قبل ذلك فهل ستظل صلاحية النموذج قائمة ؟ . . إننا هنا نتوقف عنـد الظروف الخاصة جدا بمصر المرتبطة بنيلها والتي تبحث عن توازن وقتي ، وإذا كان اقتصادها الزراعي يعتمد على الثروات الأرضية فإن هذا الاقتصاد تنقصه المرونة مما يزيد من خطورة التصدير التقليدي لبعض حبوبها الغذائية مثل القمح والأرز ، وتعد مثل هذه التجارة الخارجية لمصر بمثابة « تجارة يدفع فيها الثري نقدا دائما أما الفقير فينظر إلى إغرائها » مما تنتج عنه أزمات قصيرة المدى مثل تلك التي وقعت في منتصف القرن الحادي عشر التي شح فيها ماء النيل وارتفعت خلالها أسعار القمح والخبز مما نتج عنه أيضاً على المدى الطويل عجز أساسي في رفع تعداد السكان بما أن الموارد المتاحة ظلت ثابتة ، وذلك دون أن نتفق في الرأي مع هـ . س . جواتين الذي يضع مبدأ الانخفاض المستمر في عدد السكان منذ الفتح العربي وحتى القرن التاسع عشر ، وهكذا يمكن تفسير أن الأسعار تدل هنا مثلما في مجمل الشرق الأدنى على ثبات كبير وأن ارتفاعها عندما يحدث يختلف عما يعرفه تاريخ العرب .

ولنعد مرة أخرى إلى أوروبا ، إن فتحة المقص قد أغلقت والفارق بين الموارد والتعداد النادر قد تعادل وذلك بسبب نزف القرن الرابع عشر وجزر سنوات ١٣٥٠ - ١٤٥٠ ، وسرعان ما سيبدأ الارتفاع من جديد وبشكل حيوي بالنسبة لفترة ١٤٥٠ - ١٦٥٠ ، وبشكل كئيب بالنسبة لفترة ١٦٥٠ - ١٧٥٠ التي تتوافق مع أواخر القرن الثامن عشر .

ترى هل يمكن استخدام الجدول الأوروبي بالنسبة للإسلام وهو عبارة عن استرداد وانطلاقة وإنهاك ؟ . . لنقل إجمالاً أنه متبع ومتفق عليه فيما يتعلق بالأناضول وتركيا الأوروبية من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر ، أما

بعد ذلك فقد بدأت الأمور تتغير معلنة عن الفوارق الكبرى بين أثرياء الغرب وفقراء العالم الثالث الإسلامي ، ومثلما حدث في القرن الثامن عشر في زيادة الفجوة بين الإمبراطورية التركية وأوروبا المتجهة إلى ثورتها الصناعية فإن نفس الفارق يزداد على مستوى الشعوب ، ففي مواجهة التصاعد الغربي تظل مسألة السكان الإسلامية ـ كما سنرى فيما بعد ـ خاضعة لقوانين الجوع والمرض ولنستخدم أحد تعبيرات رجال الاقتصاد المعاصرين ، أن الديموغرافية الإسلامية لا تستطيع « انتزاع نفسها » ، إنها متوقفة بل وتنحدر هنا وهناك .

ولننظر إلى بعض هذه المعطيات : إن القرن السادس عشر العثماني قد عرف انطلاقة سكانية شديدة الحيوية بمعدل ٤٠ ٪ وفقاً لتقديرات ا . ل . باركان ، أما التحرك الذي بدأ قبل ذلك فقد مس الريف والمدن والأفراد المحميين والمسلمين (راجع الجدول أ ، ب التالي فيما يتعلق بمقاطعة ريفية أساساً هي الأناضول وألبانيا المسيحية) ومع ذلك فهذا لا يمنع أن المدن هي التي تضرب الرقم القياسي في القرن السادس عشر إذ أن الزيادة في أنقرة كانت بنسبة ٩٥,٠٤ ٪ ، وفي صوفيا ١٠١,٢٨ ٪ ، وفي بروسة ١٠٢,٣٦ ٪ ، وفي سكوبلي ١١٣,٠٦ ٪ ، وفي كولونيا ١٥٠,٦٢ ٪ ، وفي سيواس ٢٠٢,٩٨ ٪ ، وفي سراجيفو ٣١٦ ٩٩ ٪ ، (راجع الجدول جـ) .

ومع ذلك فمنذ عهد سليمان (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) بدأت الحكومة تلتفت إلى الأخطار الناجمة عن هجرة الريف ، وتشير الوثائق إلى المبالغة في الضرائب ، ولا شك أنها كانت على صواب ، لكن هذا الوضع لم يكن مثلما حدث بالنسبة لفرنسا في القرن السادس عشر علامة لتزايد السكان الذي سيصبح من مصاعب القرن السابع عشر العثماني ، علامة الأزمة الزراعية والاستغلال المتزايد للطبقة الكادحة من قبل الارستقراطية الجديدة صاحبة الاقطاعيات ، ومثلما أشرنا إلى السبب في الهجرة الكبرى إلى المدينة التي لم تعد تحل أي شيء من مشاكل تزايد سكان الريف .

موازنة بحرص

إنه من الصعب تقديم أرقام بيانية ، إذا راعينا في نفس الوقت التقدم

أ ـ عدد الوفيات في مقاطعة الأناضول في القرن السادس عشر

دائرة	مسلمون				مسيحيون		يهود		إجمالي		نسبة الزيادة
	حضريون		رحالة								
	١٥٢٠ ١٥٣٥	١٥٧٠ ١٥٨٠	١٥٢٠ ١٥٣٥	١٥٧٠ ١٥٨٠	١٥٢٠ ١٥٣٥	١٥٧٠ ١٥٨٠	١٥٢٠ ١٥٣٥	١٥٧٠ ١٥٨٠	١٥٢٠ ١٥٣٥	١٥٧٠ ١٥٨٠	
علاي	١٦٨٢٤	١٩٩٥١	٢٢٧	٤٥٥	٢٧٠	١٣٨	-	-	١٧٣٢١	٢٠٥٤٤	١٨,٦
أنقرة	١٤٨٥٢	٣١٨٦٤	٩٤٨٤	٢٣٩١١	٥٩٠	١٣٤٧	٣٣	٦١	٢٤٩٥٩	٥٧١٨٣	١٢٩,١
عيدين	٤٣٣٣٤	٤٦٤٣٨	٦٦٩٢	٣٦٩٣	٤٥١	٧٩١	-	-	٥٠٤٧٧	٥٠٩٢٢	٠,٨٨
بيجا	٦٥٢٢	٧٤٦٦	٩٩	٢٠٦٦	٢٤١	٧٠٩	-	-	٦٨٦٢	١٠٢٤١	٤٩,٢٤
بولي	٣٣٥٣٩	٥٩٧٣٢	٤٦١	٢٠٠٣	-	١٣٤	-	-	٣٤٠٠٠	٦١٨٦٩	٨١,٩٦
هاميد	٢٠٢٤٣	٣٦٠٥١	٤٩٧٨	١١٨١٤	٣٠٠	٣٣٧	-	-	٢٥٥٢١	٤٨٢٠٢	٨٨,٨٧

دائرة	مسلمون				مسيحيون		يهود		إجمالي		نسبة الزيادة
	حضريون		رحالة								
خود افندكيار	٣٨١٥٠	٦٨٥٨٠	١٦٠٠	٢٠٥٥	٤٩١٤	١٠١٦٥	١١٧	٣٠٨	٤٤٧٨١	٨١١٠٨	٨١,١٢
كاراهيسار صاحب	١٨٢٧٩	٣١٨٠٩	٢٣٨٥	١٧٢٩	٧٣	١٥٠	١٥	٤٤	٢٠٧٥٢	٣٣٧٣٢	٦٢,٥٤
كاراسي	٢٠٣٠٠	١٨٠٣٤	-	٢٤٤٥	-	٢٣٢	-	-	٢٠٣٠٠	٢٠٧١١	٢,٠٢
كاستاموني	٣٠٢٤٠	٥٢٥٨٢	١٢٤٨	١٤٥٧	٥٧٠	١٨٨٩	-	-	٣٢٠٥٨	٥٥٩٢٨	٧٤,٤٥
كليا نجرى	١٩٤٧١	٣٠٧٧٢	-	٩٧٦	٨١	٤٥٣	-	-	١٩٥٥٢	٣٢٢٠١	٦٤,٦٩
كودجاايلي	١٤٠٦١	١٥٦٠٦	-	-	٢٧	١٩٩٣	-	-	١٤٠٨٨	١٧٥٩٩	٢٤,٩٢
كيو تاهيا	٣٩٥٢٢	٥١٠٤٤	١٥١٦٤	٢٣٩٣٥	٤٠١	٣٧١	-	-	٥٥٠٨٧	٧٥٣٥٠	٣٦,٧٨
منتشا	٢٦٩٩٨	٢٠٠٦٥	١٩٢١٩	١٦٩١٢	٦٤	١٤٩	-	-	٤٦٢٨١	٣٧١٢٦	١٩,٧٨-
صروخان	٢٥١٢٢	٢٠٢٥٦	٦٦٤٠	١٥٠٧٢	٣٦٦	٣١٢	٨٨	١١٦	٣٢٢١٦	٣٥٧٥٦	١٠,٩٨
سلطان أولي	٧٤١٩	٩٦٤٢	٢٥٥	٢٠٩٥	٤٠	٨٧٥	-	-	٧٧١٤	١٢٦١٢	٦٣,٤٩
تيكة	١٣٥٢١	١٥٦٠٣	٨٨١٦	٥٦٠١	١٢٣	١٢٩	١٨	٥	٢٢٤٧٨	٢١٤٢٨	٤,٦٧-
	٣٨٨٣٩٧	٥٣٥٤٩٥	٧٧٢٦٨	١١٦٢١٩	٨٥١١	٢٠٢٦٤	٢٧١	٥٣٤	٤٧٤٤٤٧	٦٧٢٥١٢	

متوسط نسبة الزيادة : ٤١,٧٤ ٪

ب ـ ألبانيا العثمانية ، تطور تعداد السكان

مدن	١٤٣١		بداية القرن السادس عشر	
	ديار مسيحية	ديار إسلامية	ديار مسيحية	ديار إسلامية
ارجريكا سرى	١٢١	-	١٤٣	-
بلغراد	١٧٥	-	٥٦١	١١
كانينا	٢١٦	-	٥١٤	-
بريمدي	٤٢	-	٢٦٠	-
كليوسورا	١٠٠	-	٥١٤	-
آكتشاهيسار	١٢٥	-	٨٩	٦٥

الأرضي للإسلام من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن عشر ، وتنوع المواقف المحلية والاختلافات القائمة ـ على الأقل بعد القرن السادس عشر ـ بين البلدان الإسلامية والبيان الأوروبي .

لنقدم إذن بحرص لمحاولة موازنة مبدئية لنهاية القرن السادس عشر ، ويقدر أ . ل . بركان تعداد الإمبراطورية التركية من ٣٠ إلى ٣٥ مليوناً بما في ذلك ممتلكاتها في شمال أفريقيا ، فلنعتبر ذلك الرقم الحد الأقصى بما في ذلك المغرب وشبه الجزيرة العربية ، ولا بد من إضافة المجمع الإيراني الأفغاني ، ولنعتمد على النسب الحالية التي تشير إجمالاً إلى أنه يعادل تركيا الآسيوية مرة ونصفا ، ووفقاً لاستنتاجات أ . ل . بركان أيضاً فإننا نقدر تعدادها لفترة ١٥٢٠ ـ ١٥٣٥ بحوالي ٤,٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، ولكي نصل بهذا التعداد حتى نهاية القرن لا بد من إضافة نسبة الأربعين في المائة التي أشرنا إليها سالفاً ، وهكذا سنصل إلى رقم ٦,٦٠٠,٠٠٠ نسمة لمنطقة إيران ـ أفغانستان وإلى رقم ٩,٩٠٠,٠٠٠ أو ١١٠٠٠,٠٠٠ نسمة إذا ما أدخلنا في اعتبارنا رحالة آسيا الوسطى .

أما بالنسبة للهند المتعبة منذ أواخر القرن السادس عشر فإن رقم ١٠٠ مليون يعد حداً أقصى كما يشير إلى ذلك ف . بردويل ، ومن المعروف أنه حتى

جـ ـ تعداد سكان بعض مدن الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر

مدن	قبل ١٥٢٠	١٥٢٠ ـ ١٥٣٠	١٥٧١ ـ ١٥٨٠	بعد ١٥٨٠
حلب	٦٧٣٤٤ (١٥١٩)	٥٦٨٨١	٤٥٣٣١	٤٦٣٦٥
جميد	–	١٨٩٤٢ (١٥٤١)	٣١٤٤٣	–
أدرنة	–	٢٢٣٣٥	٣٠١٤٠	–
أنقره	–	١٤٨٧٢	٢٩٠٠٧	–
أتينا	–	١٢٦٣٣	١٧٦١٦	–
بروسة	–	٣٤٩٣٠	٧٠٦٨٦	–
دمشق	–	٥٧٣٢٦	–	٤٢٧٧٩ (١٥٩٥)
إسطنبول	٩٧٩٥٦ (١٤٧٨)	٤٠٠,٠٠٠ (؟)	٧٠٠,٠٠٠ (؟)	–
قونيا	–	٦١٢٧	١٥٣٥٦	–
مونستير	٢٦٤٥	٤٦٤٧	٥٩١٨	–
سراجيفو	–	٥٦٣٢	٢٣٤٨٥	–
سيواس	٣٣٩٦	٥٥٦٠	١٦٨٤٦	–
سكوبلي	٤٩٧٤	٤٦٣١	٩٨٦٧	–
صوفيا	–	٣٨٩٩	٧٨٤٨	–
توكات	١٧٣٢٨ (١٤٥٥)	٨٣٥٤	١٣٢٨٢	٢١٢١٩ (١٦٤٦)

ذلك الوقت لم يكن الإسلام قد وصل إلى حجمه الحالي الذي يمثل ربع التعداد تقريباً ، أي أنه يمكننا القول أن ١٥ مليوناً من المسلمين هو مستوى الحد الأقصى الذي نصل إليه تقريباً .

بقي إسلام أفريقيا السوداء أو الشرقية التي يمكننا أن نقدم بصددها الرقم التقريبي وهو ثلاثة ملايين أما بالنسبة لتعداد أفريقيا فلنقل مع ف . بردويل أنه أكبر عشرة أضعاف من تعداد شمال أفريقيا أو مصر إلا أن ج . س . رسل يقول عن شمال أفريقيا أن تعدادها ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ومصر ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة

أما أ . ل . بركان فيقول عنها إجمالاً ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة مما يعطينا الجدول التالي :

	شمال أفريقيا	مصر	أفريقيا	أفريقيا غير العربية
رسل	٣,٥	٢,٥	٢٥ ـ ٣٥	١٩ ـ ٢٩
بركان	(٣,٥)	٤,٥	٣٥ ـ ٤٥	٢٧ ـ ٣٧

إن رقم الثلاث ملايين المحدد بالنسبة لأفريقيا السوداء يمثل إجمالي ١ /٦ أو ١ /١٢ من مجمل أفريقيا غير العربية ، ويعد تقديراً منطقياً إلا أنه في كافة الأحوال يمثل التعداد قبل القرن التاسع عشر الذي يعد من القرون الحاسمة بالنسبة للإسلام الذي كان أقل من التعداد الحالي بنسبة الربع .

وهكذا فإن عدد المسلمين في أواخر القرن السادس عشر قد وصل إلى ٦٤ مليوناً أو ٦٧ وربما ارتفع إلى ٦٨ مليون نسمة بما في ذلك مستعمرات ماليزيا وما تقدمه في الأراضي الصينية ، ترى هل يمكننا تحديد مؤشرين أحدهما في المقدمة والثاني في المؤخرة ؟ . . ونعني بالمقدمة أنه إذا ما اتبعنا المجاميع التي توصل إليها ف . بردويل حصلنا على مجموع إجمالي قدره ٤٦ مليون نسمة فيما بين ١٣٠٠ و١٣٥٠ ، (وأكثر من ذلك قليلاً إذا ما أخذنا في الاعتبار مملكة غرناطة) ، و٣٧ مليوناً في عام ١٤٥٠ بعد الكؤس الحزينة التي تجرعها القرن الرابع عشر ، ونعني بالمؤخرة النموذج الأوروبي (بنسبة تزايد تصل إلى ١,٢ ٪) إننا سنحصل نظرياً على مجموع يصل قدره إلى ١٣٦ مليوناً في عام ١٨٠٠ .

وهنا إجمالاً نتوقف عند تحفظ يفرض نفسه : إن الرقم الذي توصلنا إليه يعني نتيجة تزايد سكاني ذي أسلوب أوروبي بالنسبة للإسلام في عام ١٦٠٠ ، إلا أنه يجب علينا ـ من حيث المنطق ـ أن نضيف نتائج تقدمات أخرى مثل فتوحات الهند ودخول العديد من المواطنين هناك في الإسلام ، وفي أفريقيا السوداء وأندونيسيا ، فماذا عن الأحوال في هذه البلدان ؟

فيما يتعلق بالهند عام ١٧٩٧ ، إذا ما افترضنا رقم إحدى الإحصائيات الفرنسية آنذاك عن توغل الإسلام لوصلنا إلى رقم ١٥٥ مليون نسمة ، وإذا ما

اتبعنا نسبة الخمس لوصلنا إلى ٣٠ مليوناً تقريباً ، أما فيما يتعلق بالقارة الأفريقية فإذا اتبعنا الرقم المبالغ فيه لبعض الإحصائيات لوصلنا إلى ١٠٠ مليون نسمة مع خصم عدد تعداد الشعب المصري وفقاً لفولني وهو ما يعادل ٢,٣٠٠,٠٠٠ وتعداد شمال أفريقيا وفقاً للنموذج الأوروبي (١٠٠ مليون لعام ١٦٠٠ ، و٢١١ لعام ١٨٠٠ ، و٢٦٦ لعام ١٨٥٠) فإن التعداد الأفريقي قد تعدى ٣,٥ مليون نسمة عام ١٦٠٠ ووصل إلى ٧ ملايين نسمة عام ١٨٠٠ وارتفع إلى ٩ ملايين عام ١٨٥٠ ، وهذا الرقم لم تصل إليه التقديرات (المترددة خاصة بالنسبة للمغرب إلا عام ١٨٨٠ ، وذلك يدل على ارتفاع أقل بوضوح من الارتفاع الذي حدث في أوروبا ، وبنفس الأسلوب مع مراعاة كافة التحفظات اللازمة فإننا نقدر تعداد شعب شمال أفريقيا عام ١٨٠٠ بستة ملايين ونصف نسمة ، أما بالنسبة لأفريقيا غير العربية فيبقى حوالي ٩١ مليون نسمة نحتسب منها ١٢ مليون مسلم (أي بنسبة تتعدى الـ ١ /٨ بقليل) .

أما المجموعة الأندونيسية فإذا ما اتبعنا نسبة التعداد الحالية حيث تمثل أندونيسيا ١ /٧ التعداد الصيني وأقل من مجموعة الهند ـ باكستان ، فإننا سنقدر تعدادها عام ١٨٠٠ بـ ٢٥ مليون نسمة وفقا للنمط الهندي لعام ١٧٩٧ (إلا أنه مشكوك فيه بسبب كوارث شبه القارة الجنوبية) ، وحوالي ٤٥ مليون نسمة وفقا للنمط الصيني (٣٠٠ مليون عام ١٧٩٠) ، ومع مراعاة التقدم الحديث للإسلام تظل هناك مناطق عديدة تخرج عن تقديراتنا إلا أننا نسبقهم بـ ١٥ مليونا أو ٢٠ مليون نسمة بما في ذلك تعداد المسلمين في الصين (وإن كان هذا الرقم غير مؤكد) .

أما فيما يتعلق بالإمبراطورية العثمانية في شمال أفريقيا والبلاد العربية وإيران وآسيا الوسطى التي تمثل كتلة الإمبراطورية فإن تطبيق مجموع التزايد الأوروبي الذي وصل إلى ٤٦ مليون نسمة بالنسبة لعام ١٦٠٠ فإنه سيصل إلى ٩٦ مليونا بالنسبة لعام ١٨٠٠ ، ولا شك أن هذا الرقم فيه الكثير من التفاؤل ، ونخرج من كل هذه الشواهد إلى أن البلدان المعنية تقبع في ركود سكاني باستثناء شمال أفريقيا ـ كما رأينا ـ الذي يبدو أنه قد قاوم أفضل من غيره .

ترى ما الذي قاومه ؟ . . . أولا : موقف زراعي يعتبر كارثة ، إن الحروب

والكوارث الطبيعية (لقد أباد الجراد محاصيل أعالي وادي نهر الدجلة عام ١٧٥٧) والعنف واغتصابات السلطة سواء كانت تركية أم لا جعلت من الريف « صحراء قاحلة بالمقارنة بالمناطق الأوروبية الأقل ازدحاما بالسكان » على حد قول وليام إيتون ، قنصل صاحبة الجلالة البريطانية الذي يعد أحد العارفين بأحوال الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم يستطرد ـ وهو ليس الوحيد الذي يقول ذلك ـ قائلا « إننا نلاحظ قلة تعداد السكان في الريف أولا ، لأن المدن مملوءة دائما بالقادمين الجدد الذين يتركون ديارهم باحثين عن وسائل العيش ، أما عندما تفتقر المدن نفسها إلى المواطنين ، دون إمكانية أن ننسب ذلك إلى سبب هبوط مستوى فرع معين من التجارة أو الحرف اليدوية أو أية أسباب أخرى مماثلة ، وإنما يكون السبب الوحيد هو قلة القادمين من الريف ، إن ذلك يعني افتقار البلد بأسره إلى الناس ، يعني أن نقص التعداد قد بلغ ذروته » ويؤكد إيتون أقواله بوصف المدن التي هلك الكثير من سكانها ، المدن ذات الأسوار الضخمة والمنازل المنهارة والأسواق المهجورة في كل مكان من الإمبراطورية ، من العراق وسوريا حتى تركيا الأوروبية ، ولم ينج من هذا الضياع إلا بعض المدن التي تعد كالجزر وسط هذا المحيط ، مثل إستانبول التي تم إنقاذها بشكل صناعي عن طريق إستيراد القمح واللحوم ، وازمير بوصفها مدينة تجارية ، والمناطق الساحلية لبحر الإدرياتيك ، وبعض المناطق البلغارية .

وكانت الفاقة منتشرة في كل مكان بالإضافة إلى الطاعون الذي كان يصيب المدن كل « عشر سنوات تقريبا » مثل حلب ، ويأتي على ١ / ١٠ أو على ١ / ٤ التعداد ، وفقا لإحصائية إيتون أيضاً ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، وقد أصاب الطاعون مدينة القاهرة عام ١٧٣٦ ثم أصاب جنوب شرق الأناضول في عام ١٧٥٧ عام الجراد ، وفي عام ١٧٧٣ أصاب بغداد . . . والنتيجة ؟ . . . إن سكان مصر أصبحوا ٢,٣٠٠,٠٠٠ مواطـن كما سبق إن قلنا وفقا لإحصائية فولني ، ولم تكن سوريا أسعد حالا فقد وصل تعدادها إلى ٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة في فترة الحروب الصليبية ، وفقا لتقديرات ج . س . رسل ، وقد استردت أنفاسها بعد وباء الطاعون الأسود فوصلت إلى مليونين عام ١٥٠٠ وفقا لتقديرات أ . ل . بركان ، أي بزيادة مقدارها ٤٠٪ بالنسبة للقرن السادس عشر ، وارتفع إلى ٢,٨٠٠,٠٠٠ عام ١٦٠٠ ، إلا أن الإنهيار الذي بدأ مع نهاية نفس ذلك

القرن يعد ملفتا للنظر ، إذ أن البلاد لم يبق بها سوى ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة حوالي عام ١٨٠٠ وفقا لتقديرات هـ . منس ، بعد الهجرات التي اتجهت إلى جبال لبنان القريبة ، والتي تعد الملجأ الخالد للأقليات وللمقهورين .

ويحق لنا أن نصل بتقديراتنا بالنسبة للعراق في القرن السادس عشر (أقل من خمسة ملايين وفقا لرسل) إذا ما اتبع نفس نسبة الإنخفاض ، فلم يزد تعداده عن ٢,٥ مليون نسمة في أواخر القرن الثامن عشر بسبب ركود عام يزيده زحف الصحراء والمستنقعات ، أما فيما يتعلق بالأناضول وتركيا الأوروبية فإن الحالة كانت من البؤس بحيث انخفض تعداد الشعوب الإسلامية من ٥ : ١ فيما بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر وفقا لتقديرات إيتون .

ولعله يبالغ بعض الشيء إذ أنه من ناحية لا يميل إلى العثمانيين ، ومن ناحية أخرى فهو يعاني مثلنا من نقص المعلومات الدقيقة ، لذلك نراه يبالغ في ردود فعل أوبئة الطاعون وفي حجم تعداد السكان القائم في أواخر القرن السادس عشر ، ومع ذلك فهناك عاملان هامان ينبثقان من ملاحظات إيتون وبعض معاصريه : لقد استقر الشرق الأوسط في أزمة سكانية عصيبة وطويلة ، وما هو أسوأ من ذلك ردود فعل هذا الركود وهذا الإنخفاض في التعداد التي تضاعفت بسبب الأوبئة التي إجتاحت المنطقة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وخاصة ابتداء من عام ١٧٧٠ ، إذ يقوم إيتون بإحصاء مئات البلدان الخربة على طريق أنقرة ـ إستانبول أو أزمير ، أو من إستانبول إلى بلغراد عن طريق أدرنة وصوفيا قائلا بالحرف الواحد « أنه من السهل إثبات أن انخفاض تعداد السكان في تركيا قد تم بسرعة مذهلة في هذه الآونة الأخيرة » « ثم يقول في خاتمته « إذا استمر الإنهيار على ما هو عليه فإن الإمبراطورية التركية سيقضي عليها خلال قرن من الزمان » .

وفي رأينا أن إيتون يخطىء هنا بالتحديد ، إذ بعد قرن بالضبط لم يكن الموقف سيئاً بالنسبة لتلك البلدان التي عرفت ذلك الليل الطويل للهبوط السكاني فيما بين عامي ١٦٠٠ , ١٨٠٠ ، إذ أن جداول ف . كوينية تشير إلى ١٢ مليونا في الأناضول و ٢,٧ مليونا في سوريا ، في نهاية القرن التاسع عشر ، وفي نفس الوقت يحدد بيديكر من ٧ إلى ٨ ملايين بالنسبة لمصر مما يدل على تزايد حيوي بل

شديد الحيوية حتى إذا لم نضع في الإعتبار الموقف السكاني لعام ١٨٠٠ ، وإن هذا التزايد قد بدأ يتضح بعد بداية القرن التاسع عشر ، ففي بغداد مثلا ترتسم زيادة واضحة ابتداء من أوائل القرن إلا أنها توقفت تماما بسبب الأوبئة والفيضانات التي وقعت عام ١٨٣١ ولم يبدأ التزايد بشكل ملحوظ إلا بعد عام ١٨٥٠ .

فلنتوقف قليلا عند عام ١٨٠٠ ولنجمع أرقامنا من وجهة النظر المتفائلة فيما يتعلق بكتلة تركيا الأوروبية والأناضول وشبه الجزيرة العربية وبلدان إيران وآسيا الوسطى ، أي من وجهة النظر القائلة بالتمسك بمعطيات عام ١٦٠٠ بلا أية تغييرات .

	١٦٠٠	١٨٠٠
شمال أفريقيا	٣,٥ مليون	٦,٥ مليون
مصر	٤,٥ مليون (١)	٢,٣ مليون
سوريا	٢,٨ مليون حوالي ٣٥ مليون	١,٥ مليون حوالي ٣٢ مليون
العراق	٥ مليون	٢,٥ مليون
الأناضول، تركيا الأوروبية وشبه الجزيرة العربية	١٩ مليون	١٩ مليون
إيران ، أفغانستان ، آسيا الوسطى	١١ مليون حوالي ٤٦ مليون	١١ مليون حوالي ٤٣ مليون

(١) وفقا لتقديرات أ ل . بركان .

وبذلك يكون إجمالي تعداد السكان بالنسبة للإسلام في أواخر القرن الثامن عشر بما في ذلك أفريقيا والهند والشرق الأدنى ١٠٥ مليون نسمة ، أي ما يوازي ١ /٨ أو ١ /٩ تعداد سكان العالم (بين ٨٣٥و٩١٥ مليون نسمة) ، ومن هذه الحسابات المملة والتقديرية ولكنها ضرورية ، ينبثق واقع أكيد هو أن تقدم الأرقام فيما بين عامي ١٦٠٠, ١٨٠٠ يشير إلى توسع الإسلام على الخريطة ، وليس أكثر من ذلك ، إذ أن دخول العديد من الناس في الإسلام واكتساب الأراضي الجديدة قد أعطته خلال قرنين من الزمان عددا من الرجال أقل مما كان يمكنه التوصل إليه

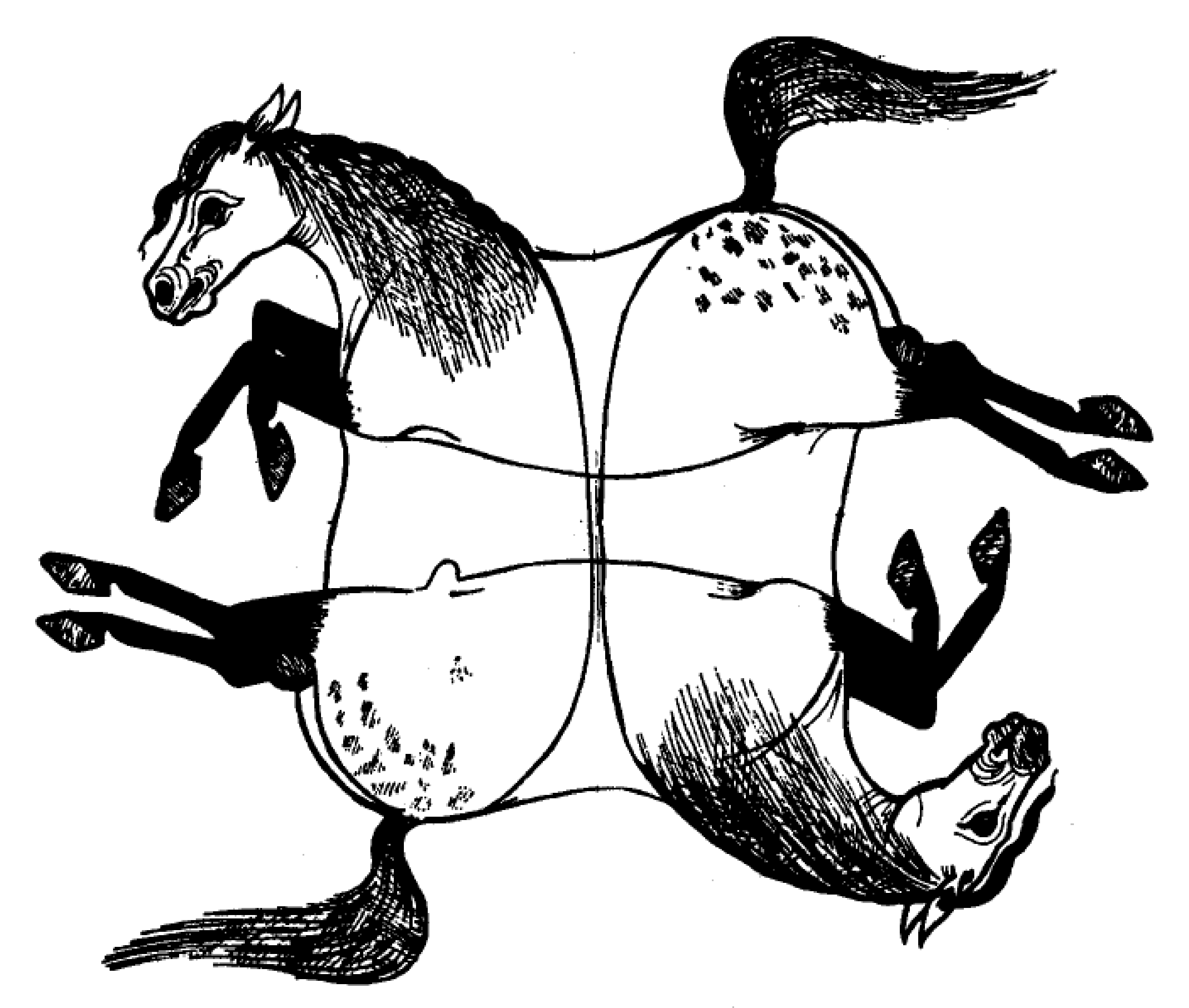
على قواعد أرضية ثابتة ، ولكن في صحة جيدة « على الطريقة الأوروبية » ، إذن هل من الغريب في مثل هذا النقص أن تظل الحاجة إلى الأيدي العاملة ملحة بمثل هذه القوة ؟

الأرض لا تتغير .

إن الغالبية العظمى لكل هؤلاء المسلمين في عام ١٨٠٠ مرتبطة بالأرض والوسائل الزراعية الخالدة « لشعوب الفأس » والساقية والمحراث البسيط ، لقد استمرت الخضروات القادمة من الشرق في التدفق على الحدائق الأوروبية عبر مدن إيطاليا في روسيون وكومتا ، حديقة أوروبا ، ولم تكن المحاصيل هي المتنقلة الوحيدة ، لنذكر الأرز الذي وصل إلى مدغشقر حوالي القرن العاشر وانتشر حتى البلقان التركية ، والبن الذي ازدهر في أواخر القرن الخامس عشر ، والذرة ، ذلك النبات الأمريكي الذي أقلمه البرتغاليون في المغرب ثم نجحت زراعته بعد ذلك في البلقان ، أما الشاي كنبات وليس كسلعة استهلاكية فقد قاوم الإنتقال وظل محصورا أساسا في الصين ولم يرتسم نجاحه في الهند وسيلان وجاوة إلا مع مطلع القرن التاسع عشر ، أما النباتات الصناعية فلنذكر الأساسي منها وهو القطن في قبرص وكريت أما فيما يتعلق بدودة القز فإن شجر التوت الأبيض وموطنه الأصلي في الصين قد غزا جنوب فرنسا في القرن السادس عشر وراح ينافس شقيقه القادم من فارس .

أما فيما يتعلق بالحيوانات فإن الجاموس قد اتبع الهجرات الغجرية في حين أن الأتراك قد أحضروا الجمل إلى البلقان دون أن ينجحوا في أقلمته ، أما خراف المارينوس فقد استقرت في إسبانيا ثم في مقاطعة روسيون الفرنسية بفضل كولبير ، وفي مقاطعة بورجوني حيث بدأ دوبنتون في إستيرادها منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وكيف ننسى الخيول (شكل ٥٥) المغربية أو العربية التي تخاطفتها اسطبلات الحكام وعلية القوم في أوروبا ؟ .

أما هذا الشرق الذي يقوم بتوزيع محاصيله ومنتجاته فقد ظل مع ذلك بلا تغيير ، متشبثا بمجمع عالم البحر الأبيض المتوسط في روتينه الأزلي ، محصورا حول نزوات مياه السماء أو الأنهار ، إن المناخ والأرض والعادات وكل شيء قد ساهم في



ـ شكل ٥٥ ـ خيول ، رسم بالحبر الشيني ، فارس ، القرن السادس عشر .

تزايد المسافة بين هذا العالم المتوقف وأوروبا ذات الحقول وذات الأراضي المستصلحة والمحاريث القوية والدورات الزراعية المتقدمة .

ومن المناظر غير المتغيرة أيضا تلك المساحات الكبرى وفراغاتها الشاسعة ، وسيظل الرحالة ـ ويعتبر الشخصية الثانية في الريف الإسلامي ـ يمر عليها مرارا ولمدة قرون ، مضاعفا من عواقب الأوبئة والضرائب والجوع ، خالقا من شمال أفريقيا وآسيا الوسطى مساحات بيضاء ، مأهولة في بعض الأحيان ، لكنها كثيرا ما تظل غير مأهولة ، ومن علامات هذا الفراغ قلة عدد الرجال على أرض تسيء تغذيتهم مما يؤدي إلى الوجود الهادىء للحيوانات البرية ، ويظل « كتاب الغابة » مفتوحا في كل مكان تقريبا .

طرق الإسلام وطرق العالم .

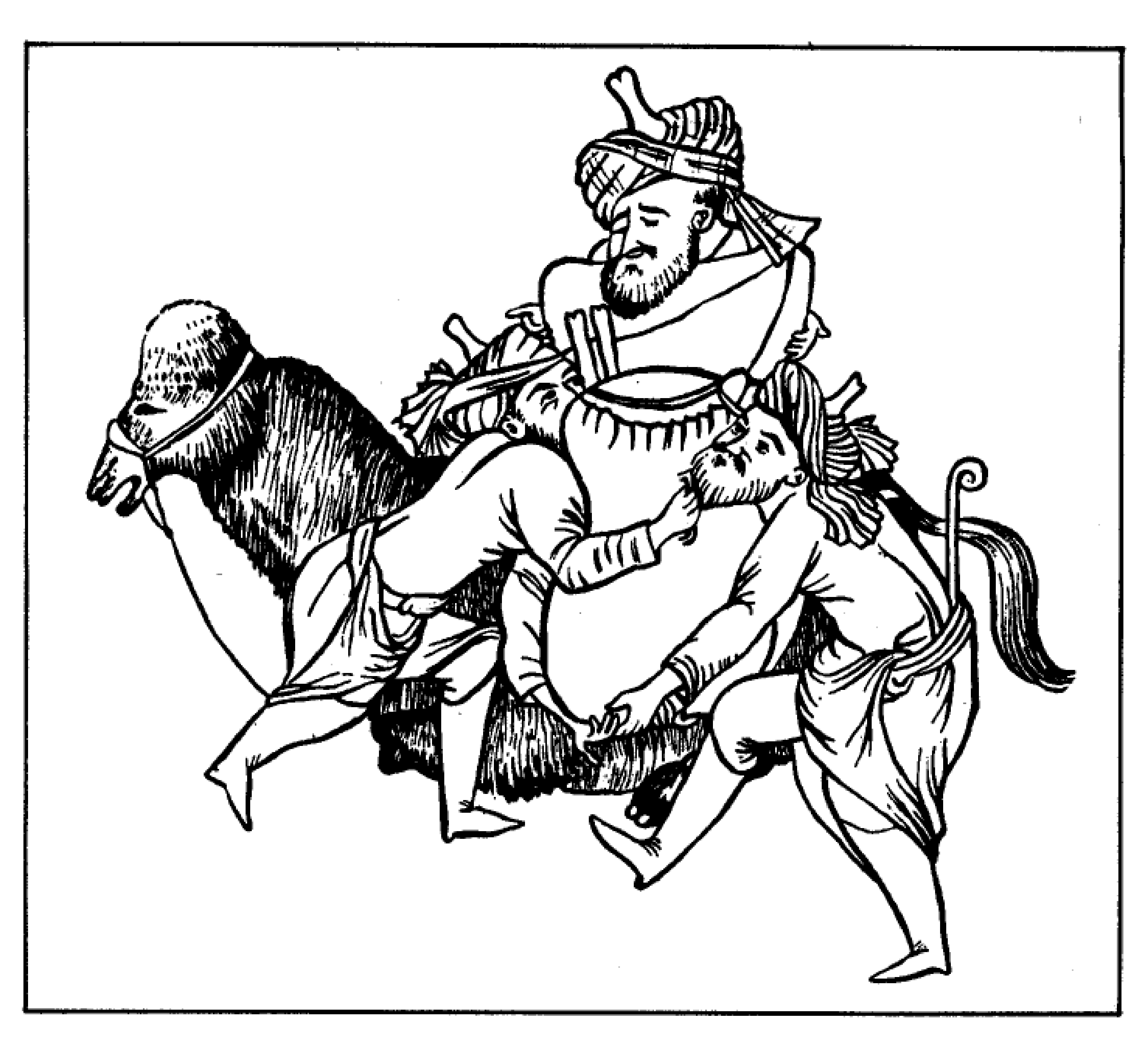
لم يعد من الممكن تركيب هذين التعبيرين لأن الإسلام حتى وإن استمر في

الإحتفاظ بمراكز أساسية على طرق العالم إلا أنه فقد احتكار استراتيجيتها التي كانت ملكا له ، فلقد ابتعد عن « المضايق » سواء جزئيا أو كلية ، وقد تم هذا التغيير على الأقل في ثلاث مناطق رئيسية : في الشمال عند مدخل سيبريا الروسية ، وفي الشرق عند مدخل الطريق البحري المباشر من الهند إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وفي الغرب عند طريق التجارة مع الشواطىء الأفريقية الذي حل محل الطرق الصحراوية القديمة .

ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نعمم التوقيت الزمني لهذه التغيرات الكبرى ولا ردود فعلها ، فعلى سبيل المثال ليست فترة الإكتشافات البحرية هي أول من أراد أبعاد الكتلة الإسلامية ، إذ أن السلام ذلك السلام المغولي القصير المدى كان قد أقام خطا مباشرا من روسيا إلى الصين بعيدا عن ملتقى الطرق التقليدية للهضبة الإيرانية ، وبالطبع لم يكن كل ذلك سوى المقدمة التي سبقت ذلك القرن السادس عشر الحاسم ، ومع ذلك فلا يجب الإعتقاد في أن فترة الملاحين الغربيين الكبرى كان لها ردود فعل بشكل عنيف أو إجمالي أو حتى فوري ، فالطرق القديمة للبحر الأحمر والخليج الفارسي والبحر الأبيض المتوسط والإلتقاءات القديمة لمصر وسوريا والعراق وفارس لم تعان من ذلك التغيير إلا بعد قرن تقريبا ، إذ استمرت في القيام بدور لا يستهان به مثلما حدث في الشمال إذ ظلت بخارى في القرنين السابع عشر والثامن عشر على علاقات منتظمة مع روسيا وسيبريا .

أما سفن الإسلام فنحن نعرفها مثلما نعرف قوافل الجمال الطويلة (شكل ٥٦) التي تسير برا وتتوقف مساء على مراحل في خان القوافل التي كانت بمثابة الإسطبلات والفنادق في آن واحد ، ومن المعلومات القديمة أيضا منتجات هذه التجارة : فمصر مثلا كانت دائما بحاجة إلى الأخشاب التي كانت تطلبها خاصة من آسيا الوسطى وأفريقيا السوداء كانت دائما بحاجة إلى الملح الصخري وأفريقيا الشرقية كانت دائما بحاجة إلى الأقمشة من الهند ، وكانت كل منها تدفع أما بالعملات الذهبية أو بالعبيد ، ومع ذلك فقد تغير الزمن ، إذ أن ثقل مدينة مثل إستانبول واحتياجات وأذواق أوروبا الجديدة أصبحت تتحكم الآن في بعض المواقع التجارية الهامة للإسلام سواء في الداخل أو في الخارج .

وهناك أيضاً تموين هذه المدن ، فبينما كانت البندقية تقوم بتحويل الأرز



ـ شكل ٥٦ ـ تحميل أحد جمال القافلة ، فارس ، منتصف القرن السابع عشر .

والقمح من مصر ـ لكي لا نذكر سواها ـ كانت إستانبول تطلب اللحوم بصوت عال من بلدان الدانوب والبلقان بالإضافة إلى القمح الذي كانت تتركه فيما مضى للاتجار مع إيطاليا ، ومع ذلك فقد كانت هذه التجارة دائما مرتجلة وغير منطقية لأنها كانت ملحة ، إلا أنها كانت دائما مربحة .

وهناك نقطة أساسية أخرى : المنبهات الخاصة بالمذاق أو بالشم ، مثل المنبهات والبهارات والتوابل التي كان الإسلام يستوردها مثلما كان يصدرها ، ومن الوقائع الهامة لهذه التجارة ازدهار الشاي والبن وانهيار الفلفل الأسود على الأقل في الغرب إبتداء من القرن السابع عشر .

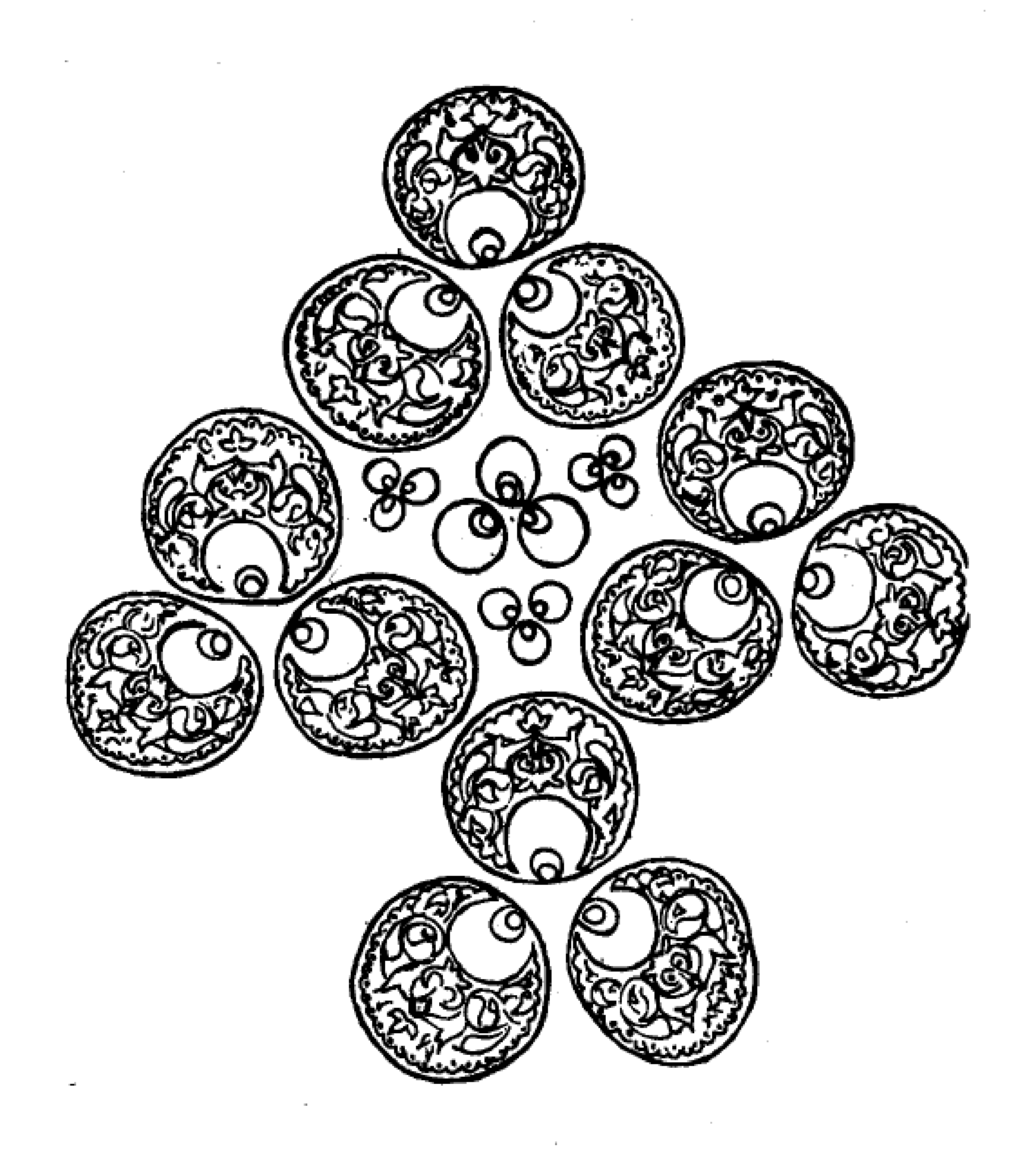
وأخيرا بند المنسوجات سواء كانت في شكلها الخام أو مصنعة ، فقد كان الصوف الذي تنتجه إيران وأرمينيا والهند الشمالية والمغرب مطلوبا في كل مكان

تقريبا في البلدان الإسلامية والهند وأوروبا . والحرير الذي كانت تنتجه أوروبا الجنوبية بكثرة لم يكن كافيا ، لذلك كان يستورد من فارس وسوريا والهند وتركيا حيث كانت مشاغل ازمير وشيو وبروسة تنتجه ، أما القطن فكان يحتل الصدارة في الحجم التجاري فكانت البندقية المستودع الكبير والموزع له تحمله من شمال سوريا سواء في شكل بالات أو مغزولاً أو منسوجا مثل تيل حلب الأزرق ، وبقيت نقطة هامة على الخريطة القطنية وهي أن الأقطان الهندية هي التي ستصدر إلى أفريقيا الشرقية وخاصة إلى أوروبا التي كانت تهيم بها وليست الأقطان المصرية ، إذ أن مصر لم تصبح منتجة للأقطان بتوسع إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحت الضغط الإنجليزي .

إذا ما حكمنا بشكل إجمالي على تجارة الإسلام في الفترة بين عامي ١٠٥٠و١٨٠٠ مستندين على الروائع العباسية فلن نتحدث بالطبع عن التقلبات ولا عن الظاهرة الأساسية التي تلت الإكتشافات الكبرى ، وإنما عن ابتعاد البحر الأبيض المتوسط والبحار الداخلية للإسلام إبتداء من عام ١٦٢٠ أمام المحيط وسفنه وموانيه . ترى هل كان إنهيارا عاما ؟ . . . على أي حال أنه لم يلغ أبدا خط سير الطرق القديمة ، ولا بد لنا من تحديد ذلك ، فسواء هجرها البعض أو حاد عنها فقد ظلت ضرورية جدا بالنسبة لحياة هذه المجموعات الأرضية الإسلامية الكبرى ، دون التحدث عن التجارة الدولية نفسها ، فقد رغب الإسلام ـ رغم مآسيه ـ أن يظهر دولة السلاجقة والأيوبيين والمماليك وخاصة تلك الإمبراطورية العثمانية التي استطاعت بمفردها الإحتفاظ ببعض التيارات الكبرى التقليدية أو أحياءها أو إعادة توزيعها وذلك مثل محور البحر الأحمر أو النيل تجاه القاهرة والإسكندرية ورشيد ، وميناء شحن البن من اليمن ، وكذلك محور مصر ـ إستانبول بحرا وبرا عبر المدن المحطات مثل إضاليا وأزمير والبروسه وخاصة حلب التي تعد نقطة تحول المواصلات الإمبراطورية إلى المجالات التركية والعربية التي تصب أيضاً على طريق القوافل الكبير المؤدي إلى فارس عبر الموصل وبغداد .

المدن وحرفها .

إن التحدث عن التجارة يعني التحدث عن تلك المدن التي ظلت تواصل دورها الإداري بصورة أو بأخرى تبعا للعصور ، وظلت تحتفظ بمكانتها في حركة



شكل ٥٧ ـ
نسيج تركي ، حرير مقصب ، القرن السادس عشر

الإنتاج والاستهلاك والمرور، وكل هذه المدن أو معظمها قد عانى من الحروب والغزوات والتقلبات السياسية والاقتصادية، بل لقد عانت بعنف احيانا وكثير منها خاصة المدن الصغرى قد اختفى وسط الاضطرابات القوية ومات بعضها بعد احتضار طويل، الا ان مدنا اخرى قد قامت محلها فالإسلام ينتج باستمرار وبلا ملل حضارة مدنية تحمل طابعه مثلما كان يفعل في الماضي.

ملامح لم تتغير تقريبا

نحن نعرف تماما هذا النوع من المدن : إنها دائما مدينة شديدة الإتساع نظرا

لإمكانياتها الغذائية المتوفرة في الريف المحيط بها ، وهي مدينة محصنة رائعة ، على الأقل حتى الفترة العثمانية ، التي شاهدت بعضها وهو يتعرض للهجوم تدريجيا عند الحدود ، وهي مدينة من نوع مدن القرون الوسطى وقد محت شكل المدينة القديمة المقامة على إنقاضها ، أو لعلها لم تعثر لها على أثر مثلما فعل الغرب خاصة في عصر النهضة ، وأخيرا فإنها مدينة دائمة عدم الرضا عن موقعها ، على الأقل عندما يكون التيار في صالحها ، مثلما حدث في دلهى الإسلامية التي تطورت إلى سبع مدن متتالية أو أكثر فيما بين عامي ١٢٠٠و١٦٥٠ .

وفي كل مكان نرى نفس منظر الأزقة والأسواق والمنازل الصماء ناحية الشارع ، والمنخفضة ، إذ لا تضطر إلى الإرتفاع إلا في فترات التوسع حينما يضيق المكان ، ويتحدث أحد الجغرافيين عن منازل القاهرة قائلا أنها « شاهقة مثل الفنارات » أما مآذن المسجد الكبير فتسيطر على كل شيء هي وذلك المبنى الذي عممته الفترة التركية والمسمى بالقلعة ، وتحتوي مدينة حلب (لوحة ٢٧ أ) على أجمل نموذج للقلعة ، لأن ذلك المقر يرمز للسلطة ويجمع من حوله الأحياء السكنية مثلما في القاهرة أيام الأيوبيين ، إلا أن هذه الأحياء ستتباعد في فترات الإضطرابات مثلما حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

أما المركز العصبي للمدينة ، مركزها الثابت الحيوي فهو المسجد وتمتد المدينة من حوله في موجات متتالية حيث يمكننا تتبع التكوين التنازلي للطوائف الحرفية مثل صانعي العطور وصانعي النسيج والصياغ وشاغلي الحديد والجلود ، وهكذا تمتد المدينة إلى أبوابها وهي تخبو مع ما يحيط بها من الفلاحين وبائعي منتجات حقولهم وجمالي القوافل .

ومع ذلك فهذا لا يعني كل تكوين المدينة : فهناك تقسيمات أخرى تقسمها إلى أحياء هذه المرة وهي أحياء تعزل الأجناس والأديان والطوائف الحرفية ، وكل حي منها غيور على نفسه ، ويقبع خائفا خلف أبواب حارته التي يغلقها كل مساء ويعيش كمدينة داخل المدينة ، لها زاويتها أو مسجدها ونافوراتها وحماماتها وخان قوافلها وسوقها .



شكل ٥٨ ـ

حرير مقصب لوحدات من زهرة الثيوليب وزهرة النسرين .

إن تنظيم الحرفيات يعتمد على نظام الأصناف بدرجاتها الكلاسيكية ، فهناك المعلم والصانع والصبي الذين يعملون في ظل السلطة المعنوية لقائد الطائفة الحرفية الذي يقوم بتقسيم الضرائب التي تفرضها الدولة على أعضاء طائفته بالتساوي كما يقوم بفض الخصومات ويسهر على الإلتزام بقانون شرف المهنة وعلى الأسعار المفروضة .

إن هذه الطوائف الحرفية التي ما زال التاريخ ينتظر بحث العديد من وثائقها

في الأرشيف التركي قد تجمد مع الزمن ، إلا أن هناك عددا منها وخاصة طائفة دابغي الجلود قد احتفظت في الفترة العثمانية بنوع من التدين المختلط بروح الذكريات القديمة لماسونية الفتيان أو كما يقولون عنها في الأناضول ماسونية الأخي ، إن هذه الطائفة قد جاءت من إيران كما هي فيما يبدو في القرن الخامس عشر ، عندما لم تعد الإمبراطورية العثمانية بحاجة إلى خدماتها ، ومنظمة الفتوة هذه قد امتدت طوال تاريخ القرون الوسطى الإسلامية واستمر امتدادها في هذه الطوائف التي ساهمت في أحيائها مثل طوائف الدراويش الزاهدين والمتصوفين والطوائف الحرفية وجيش الإنكشارية والدولة نفسها إذا ما تذكرنا الناصر العباسي .

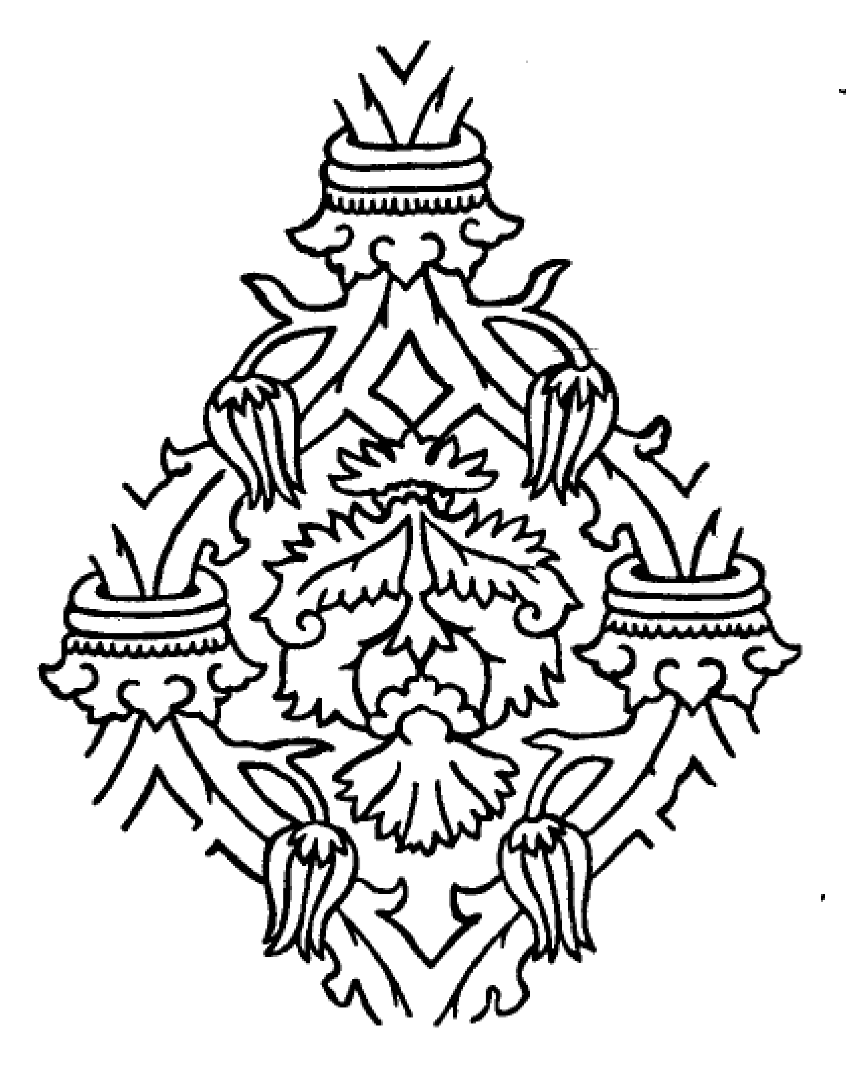
استانبول : مخيفة ورائعة

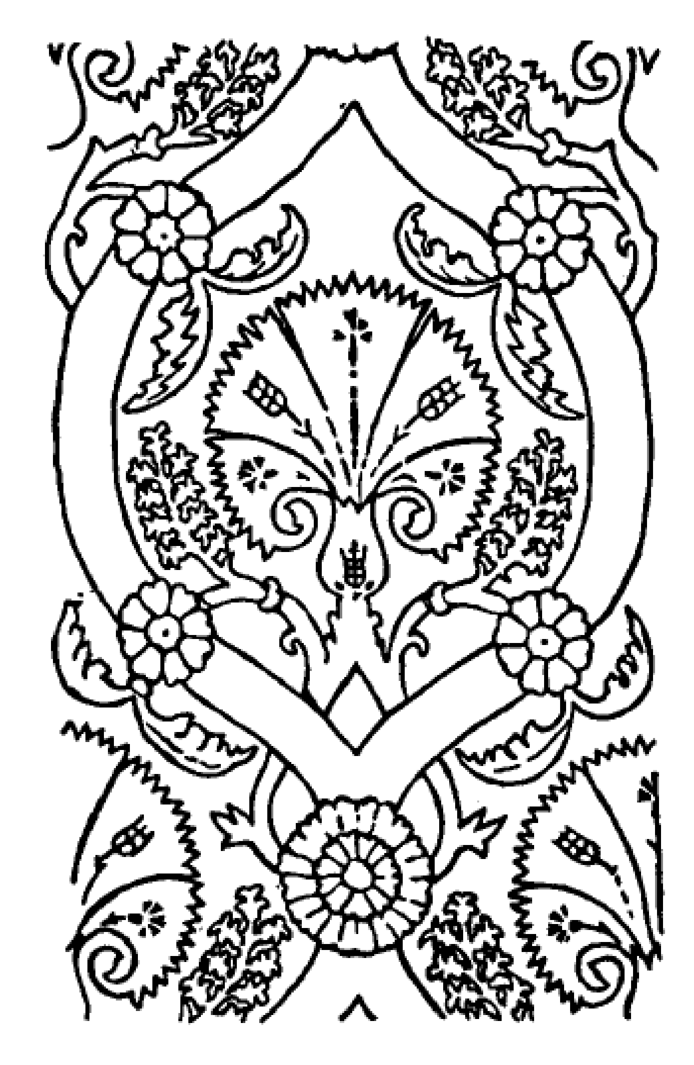
كانت مدينة القسطنطينية التي تم بيعها كفريسة غالية الثمن للعثمانيين قد تحولت الى مدينة استانبول (خريطة ٢١) بسكانها الذين يبلغ عددهم حوالي ٧٠٠,٠٠٠ مواطن تقريبا ، في القرن السابع عشر ، وهي تعد واحدة من اكبر ثلاث عواصم ، اذ لا يمكن مقارنتها الا بلندن او باريس ، انها « وحش مدني » و « مدينة ـ معدة » مثل دلهي او مكة ، وان كانت هذه تقل عنها الى حد ما ، وكان يتم تغذيتها بشكل صناعي عن طريق حقنها بالقمح والارز والخراف والطيور والخضروات والالبان .

اي عن طريق تسابق ضخم من المؤن الغذائية حيث كانت تتسابق اليه بلدان الدانوب والبحر الاسود والبلقان والاناضول حتى مصر البعيدة وذلك سواء بارادتها او رغما عنها ، وكان السمك وحده هو الذي يعد الهبة المحلية المتنوعة الحركات التي تملأ البوسفور ويطلقون عليها جنة الصيادين الواقعة بين بحر مرمره ومياه البحر الأسود الأقل ملوحة .

وتعبير « مدينة ـ معدة » يعني مدينة ـ سوق ، ففي منتصف هذا النظام تقع المدينة التجارية وسوقها الكبير او البازار ، وهو عبارة عن سوق ضخمة مغلقة لها

سقف تعلوه القباب، وهذا البازار خاص اساسا بالبضائع والمنسوجات الباذخة، ويضم واحد وستين شارعا وثمانية عشر بابا وخمسة مساجد، و٤٠٠٠ حانوت يتم فيها تبادل المنتجات التي تستوردها المدينة او تستهلكها أو تنتجها، وهناك احصائية تدل على انه كان هناك ٥٨٤ مؤسسة (الرقم اقل بكثير من الواقع) تعمل من اجل سوق استانبول او السوق العثماني او الاجنبي ،وكان نشاط هذه العاصمة يتضمن قطاعا رسميا هو قطاع مصانع الدولة، و«المؤسسات المشتركة» مثل مسابك المدافع والترسانة البحرية ومصانع السلاح والذخيرة، وقطاعا ضخما من الحرفيين المرتبطين مباشرة بشكل او بآخر بالقصر مثل السباكين والنجارين والنقاشين والمصورين والخياطين والخزافين وصناع القيشاني والزجاج، واجمالي هذا القطاع الرسمي كان يضم ١٠,٠٠٠ عامل في واحد وثلاثين مصنعا في مقابل ٢٣,٠٠٠ مشغل





شكل ٥٩ ـ ٦٠ نسيج تركي، قطيفة، من القرن السادس عشر

او حانوت و ٨٠,٠٠٠ عامل في القطاع الخاص .

كل ذلك المجال الضخم كانت استانبول تدين به لمقر السلطة ، ويا لها من سلطة . . اذ ان موقعها يتوسط ثلاث قارات وكأنها لعبة مربعات من الاجناس والاديان واللغات ، وتنعكس الامبراطورية العثمانية في عاصمتها وهي تضم ٥٨٪ من المسلمين و ٤٢٪ من الاقليات اليونانية والارمنية واليهودية والمصرية والالبانية والغجر ، ولا يجب ان ننسى الاجانب من امثال سكان البندقية في غلطة « المدينة الخائنة » التي كانت في انهيار بسبب « القادمين الجدد » كالفرنسيين والانجليز والهولنديين الذين استقرت سفاراتهم في مدينة بيرا .

ان هذه المدينة الضخمة او هذا العالم المصغر كان ملكا لزمنه مثل سان بطرسبورج ولندن ونابولي او باريس كما كانت غارقة في بذخ لا مثيل له بالنسبة لحكامها ، اما الجماهير فكان لها البؤس المضني وكانت غارقة في قاذورات ازقتها وفخامة قصورها ، غارقة في نيرانها ايضا (هناك ٢٢ حريقا كبيرا مسجلا بالنسبة للقرن السابع عشر وحده) اي ان استانبول لم تبتعد عن النموذج الخاص بمدينة « العهد البائد » المزدحمة الضخمة بلا حدود ، والمنهارة تحت وابل من سكانها وهي لا تكاد تقوم بتزويدهم بالطعام والنظافة والأمن .

الا ان هذا الماضي الذي ترك بصماته عليها سواء بتطوراته او بعدم قدراته كان يزودها ايضا بكل روائعها : بذلك الماضي الذي لا يتغير في موقعها ، وذلك الحوار القائم بين الهضاب والبحر الماثل بينها ، وفخامة البوسفور والقرن الذهبي وما يعلوها من كنائس ومساجد خالدة مثل كنيسة اياصوفيا او مسجد سنان (لوحة ١٢٤) ولا شك انه عندما حصلت بيزنطة على ابعادها واشكالها الجديدة فإن العثمانيين ظلوا اوفياء لذلك السر الاعظم الكائن في الطبيعة ، التي لم تضاه آثارها بواحدة من اكبر مدن العالم وواحدة من افضل واجمل موانيه .

٣ ـ الاسلام ومدارسه

عندما استقر الاسلام ارضا في نفس الحدود التي نعرفها عنه اليوم ، وعلى

قواعد مادية اشرنا اليها باختصار شديد بالنسبة لتلك الحقبة الطويلة من القرن الحادي عشر الى القرن الثامن عشر فقد غير ملامحه احيانا لكنه لم يغير الخطوط الاساسية له ابدا .

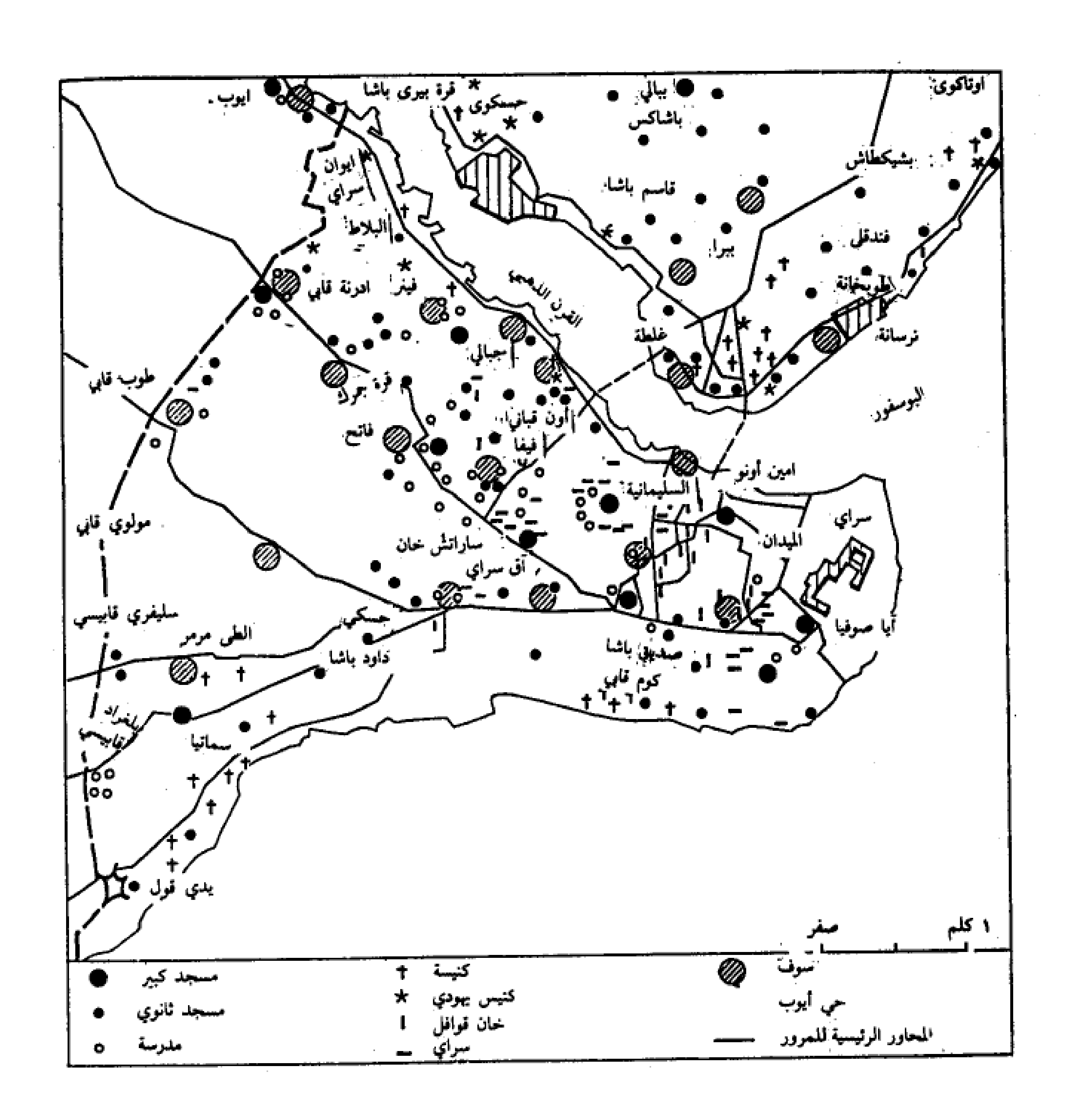
الخلافة والخريطة الدينية للاسلام

ان التكوينات السياسية التي عرفها الاسلام من القرن الحادي عشر حتى القرن الثامن عشر قد اعتمدت دائما كما رأينا على هذه المدرسة او تلك وفقا للظروف ، وقد قدم المغول الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ، ومع ذلك فقد اضطررنا الى تنويعها على الاقل فيما يتعلق بايلخانيات فارس ، وكانت نتيجة هذه الفترة الطويلة من الصراعات وفترات اعدادها هي توضيح الخريطة الدينية وتوزيع مجمل الاراضي وفقا لمختلف مذاهب العقيدة الاسلامية ، وهو توضيح ساهمت فيه الفترة العثمانية بشكل حاسم بالبت في مسألة حيوية وقديمة قدم الاسلام ، اذ نقلت الخلافة الى استانبول .

واخيرا فهو توضيح قد تم لصالح السنية التي تمثل الاغلبية العظمى ، وتعد اهم معاقلها في شمال افريقيا المالكية ، وتركيا الحنفية ، وسوريا ومصر الاكثر اعتدالا في اختيار مذاهبها ، الا ان السنية الممثلة في حركية الحنابلة ظلت على كل حال بلا منازع ، وكانت السنية سائدة ايضا في الهند وفي افريقيا السوداء تحت تأثير المذهب المالكي المغربي لكنه لم يكن خاليا من الاتصالات بالاديان السابقة ، ويبدو ان ذروة التوحيدات المحلية قد تمت في اندونيسيا ـ.

فماذا كان للخوارج حيال هذه الكتلة الضخمة ؟ . . بضع جزر في المزاب وجزيرة جربا وعمان وزنزبار ؟ اما الشيعية بمختلف اشكالها فقد ظلت اساسا قائمة في قلاعها في فارس وفي كل من العراق واليمن الزيدي وان كان بشكل اقل ، وفيما عدا ذلك لا يمكن التحدث عن الخوارج الا كأقليات ضئيلة وسط جموع المسلمين .

وباستثناء هند المغول فإن السنية المنتصرة اصبح لها منذ ذلك الوقت زعيم روحي واحد عندما قام العثمانيون بمنح انفسهم القاب الخلافة دون حتى ان



خريطة ٢١

استانبول في القرن السابع عشر

ينتظروا موت خليفة القاهرة عام ١٥٤٣ وكان آخر الخلفاء العباسيين ، وذلك بالطبع ليس وفقا لشرعية الاحداث او الاسر الحاكمة وانما بحكم الامر الواقع ، وعلى اي حال فإن هذا الموقف يؤكد واقعية سياسة العثمانيين ، وهو موقف سبق ان صادفناه وهو يرتسم بشكل خجول ايام المغول ، وبحكم انهم سادة الامبراطورية الاسلامية الجديدة وحماة اماكنها المقدسة ، فإن العثمانيين قد توصلوا

بفضل معاهدة كوجوك كاينارجي الموقعة مع روسيا عام ١٧٧٤ ، الى فرض سلطانهم الروحي على التتار في القرم بينما قد تخلوا عن اية سلطة سياسية عليهم ، ولا بد ان فكرة دمج السلطان في نوع من الرئاسة الدينية للاسلام ، وجعل السلطان حاميا للدين الاسلامي اينما كان قد نشأت من هنا في القرن التاسع عشر .

بقي شيء مؤكد وهو ان العثمانيين قد احيوا فكرة الخلافة واعادوا لها مكانتها حتى يمكنهم تبوؤ مكانة رئيسية في تأمل وفكر الاسلام الاصلاحي في عام ١٨٨٠

آلهة جديدة في سماء الاسلام

لا شك ان مثل هذا العنوان يعد كفرا والحادا بالنسبة لديانة توحيدية مثل الاسلام ، ومع ذلك فهو ينطبق تماما على عقيدة بعض الجماعات الهامشية بصورة أو بأخرى والتي تولدت او تطورت فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر ، ولا بد لنا من افساح مكانة خاصة للأكراد وخاصة اليزيدية (بنو يزيد) في فارس وفي الموصل وفي سوريا ، الناشئة عن هرطقة ميالة للأمويين ثم اصبحت - ابتداء من القرن الثاني عشر - جماعة قوية لكنها منقسمة وفقا للمناطق ، بين احترام العقيدة السنية و « نوع من التدين الوطني » حيث لم يبق ما يشير الى الاسلام تقريبا .

وكان للاسلام اطفاله الضالون من ناحية الشيعة ، مثل الحروفية في ايران بتعريفهم الرمزي للحروف والأرقام ، واهل الحق وهم فرقة من الاثنا عشريين في فارس الغربية لكنهم اثنا عشريون ضالون ، وهؤلاء النصيريون الغامضون في سوريا الذين وضعوا المرآة الصامتة « لألوهية » على فوق الكلمة الحية للنبي محمد ، وذلك بقلب مذهب القرامطة ، ان تطرف هذه الهرطقة وكثير غيرها

وتجديداتها واندماجاتها قد اسقطت الفواصل التقليدية بين التقسيمات الشيعية الكبرى وكذلك بين الاسلام والديانات الاخرى مثل المسيحية والمانوية والزرادشتية لكي لا نذكر سواها .



طيور من الهند ـ المدرسة المغولية
القرن السابع عشر

ترى هل سنقترب من الاسلام مع الدروز ؟ . . ربما كان ذلك على اراض معروفة بشكل افضل ان الدروز يكونون جماعة متماسكة وقوية ، بتنظيمها الاجتماعي واخلاقياتها الذاتية ، وكانوا يقدسون الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اختفى ذات ليلة من شهر شوال ٤١١/ فبراير ١٠٢١ وباستقرارهم في جنوب سوريا سيسهمون بشكل حاسم مع اعدائهم او حلفائهم المسيحيين المارونيين في ايقاظ الامة اللبنانية في فترة العثمانيين .

وهناك جماعة اخرى من الاسماعيليين الذين قاموا بعد موت خليفة فاطمي آخر هو المستنصر (٤٨٧/ ١٠٩٤) وهم اعوان خليفته واصغر ابنائه المستعلي وقد عاشوا في منطقة بهراس في الهند ، الا ان منافسيهم الموالين للابن الاكبر : نزار هم الذين سيشتهرون ، فقد اقاموا دولة « الحشاشين » التي استمرت حتى فترة المغول ثم اختفت ، وكان زعيمهم الكبير علاموت وممثله السوري « عجوز الجبل » الذي عرفه مؤرخونا في الحروب الصليبية ، ثم اتى الخوجة بعد ذلك من الهند مع بعض الجماعات الاخرى الهندية وخاصة الافريقية مجتمعين تحت سلطة امامهم الروحية : الاغا خان .

الشيعة الاثنا عشرية وحيوية السنة المناضلة

ان الشيعة في اغلبيتها الشاسعة قد ظلت مع ذلك وفية لسلالة الائمة الاثني عشر ، وعند تفتت المذهب الاسماعيلي ستكون جماعة الاثنا عشرين في الهند وآسيا الوسطى اقل سلطانا واقل عنفا ، من الجماعة المقيمة في لبنان (المتولي) وخاصة تلك الكتلة المتماسكة التي تمثلها فارس الصفوية والعراق حيث كان نفس الاثناعشريين يسمحون للشيعية ان تنتصر بشكل واضح على الاسلام السني ، ولنجمع اطراف هذه الشيعية ، سواء كانت متطرفة ام لا سنجد اننا ابعد ما نكون عن الوصول الى اي تعادل مع السنية ، فقد دافع عنها عدد لا يستهان به من ذوي النفوذ والسلطة بالاضافة إلى علمائها انفسهم ، وهكذا بدا المذهب « المعتدل » وكأنه عثر على جيل جديد من الشباب في تلك القرون الصعبة .

على اي حال ان الجو بينها وبين الشيعة الاثنا عشرية كان جو التنافس ، وكان لا بد من اصوات جهورية للرد على ناصر الدين الطوسي (المتوفي عام ٦٧٢/ ١٢٧٤) وقد كان علامة وفقيها بارعا هو وتلميذه الحللي ، وكانا رحى الانطلاقة الاثني عشرية ايام المغول ، اما السنية في شكلها الحنبلي ، فقد ردت عليهما حتى قبل مجيء المغول ، وذلك بفضل ابن الجوزي (٥٩٧/ ١٢٠٠) وخاصة - كما سبق ان رأينا - عن طريق ابن تيمية (٧٢٨/ ١٣٢٨)

ومع ذلك فلا يوجد ما هو اكثر خطأ من ان نتصور ان انتصار السنية في اغلب بلدان الاسلام كان يرادفه ركود ثقافي ، ففي قلب القرن الثامن عشر وفي وسط الجزيرة العربية ، في نجد ، قام ابن عبد الوهاب بتأسيس مدرسة تحمل اسمه وهي : الوهابية .

وهذه الحركة « الدينية السياسية والعربية الاسلامية في آن واحد » كانت تهدف لاعادة النقاء الاول للاسلام ، كما كانت تستهدف اقامة « دولة سنية ليس في نجد وحدها وانما في مجموع البلدان العربية بأسرها » وذلك في مواجهة الشيعية الايرانية وانهيار السلطة السنية العثمانية ، وهكذا ولد حظ الاسرة الحاكمة اليوم على معظم انحاء شبه الجزيرة العربية بفضل امير عربي انضم الى هذا المذهب هو محمد بن سعود .

الدراويش الاولياء والفلاسفة

ان الوهابية في اهتمامها الاولى بالنقاء راحت تهاجم تقديس الاولياء الذي اختلط مع اشكال شعبية من الخرافات والشعوذة ، وبذلك ظلت الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر الى القرن الثامن عشر واحدة من اهم مظاهر الاسلام في كل مكان تقريب ، سواء كان سنيا ام لا ، ان شخصية الولي والصوفي والمرابط من شمال افريقيا قد عاشتا منعزلتين في بادىء الأمر ، اي وسط عدد ضئيل جدا من التلاميذ والمريدين ، اما المنعطف الاساسي فيقع في فترة الاضطرابات التي عرفتها القرون الممتدة من القرن الثاني عشر حتى الثامن عشر ، والتي سمحت للنفوس التي هالتها اضطرابات الاسلام باللجوء الى الطرق المعترف بها والتي كان اعضاؤها يحملون اسم الدراويش او الاخوان .

وكانت اشكال هذه الجماعات متعددة منتظمة وخاصة بالذكور في معظم الاحيان وان كان الاسلام قد عرف جماعات خاصة بالنساء مثل مدارس الهندية وخاصة قالندار القادمون من فارس والمعروفون في كل من الهند وسوريا وتركيا ، وفي وسط هذه الاحداث المتداخلة الناجمة عن التكوينات الجديدة والشيعية سبق لنا أن رأينا جماعة المولوية والبكتاشية واسرة الموحدين الصفوية في بداية تكوينها ، ولنضف الى ذلك كله ووفقا لمنطق تكوينها ، الاحمدية في مصر والادارسة في العراق ، والشاذلية في المغرب والشيشتية والشطارية في كل من الهند وجاوة ، و « النعمة الله » الشيعية في فارس والنقشبندية الذين ارتبطت انطلاقتهم بالحملة السنية لتيمورلنك .

وكل هذه الجماعات (لقد احصى ل . ماسينيون اكثر من مائتي جماعة) يقابلها نفس العدد من المذاهب والطقوس المميزة ، ولنحدد ما نعنيه : إن الصوفية من اساسها تبدو كدين يعايشه المرء بالعاطفة مثل « علم القلوب » الذي يسمح بانبثاث التسامح بترديد اسم الله في اشكال من الادعية العقائدية ، ولكن هناك فرقا شاسعا بينها وبين ممارسات التدين الشبيهة بالتنويم المغناطيسي التي يلجأون اليها من خلال الموسيقى والرقص ، وهناك ايضا فرق بينها وبين العقيدة الاسلامية « المعتدلة » التي كان يمارسها اوائل الزهاد ذات التطورات الفلسفية العقائدية التي عرفها المتصوفون بعد ذلك تحت تأثيرات اجنبية خاصة هللينية ومسيحية ، مما أدى إلى خلق نوع من اللامبالاة بين الحدود الدينية ، إذ اصبح المسيح « خاتم القديسين » بما أن محمداً خاتم الانبياء كما ادى إلى نوع من اللامبالاة في الممارسات الشرعية للاسلام التي استبعدت بينما ازدهرت « الطريقة » أي الطريق المؤدي إلى التلاشي في الله وإلى الوحدة التصوفية .

ان الشيعية في اغلبيتها الساحقة بدأت تبتعد عن هذه الحركة التي تؤدي بالمؤمن الى الله في اتصال مباشر دونما حاجة الى ائمة المذهب اما السنيون ، سواء كان الامر يتعلق بالحكماء او بالحكومات او الفلاسفة فهم يفضلون الاقتناع بالصوفية على الاقل في اشكالها المعتدلة لأنها كانت تتميز بشكل مباشر او من خلال روح واشكال جماعات الفتوة ابتداء من القرن الحادي عشر وتقوم بتزويد بعض

جماعات المجتمع او الدولة نفسها ببعض الكوادر الادارية ، ولنذكر الانكشارية او الطوائف في بداية العهد العثماني مما يفسر لنا كيف حاولت الدولة في مثل هذه الظروف ووفقا للحالة ان تسيطر او توجه او تستغل هذه الحركات ، وذلك ما فعله السادة المتتالون في الهند او الايوبيون او المماليك او الصفويون او العثمانيون او الشرفاء في المغرب بصورة او بأخرى من ادنى الاسلام الى اقصاه .

اما الفلسفة فقد قالت كلمتها ايضا اذ بدأ الزهاد يعرضون معطيات التجربة الذاتية دافعين بنتائجها الى اقصى التطرف ، ولقد سبق ان اشرنا فيها يتعلق بالفترة الايوبية الى القلاقل التي اثارتها اعمال سهروردي والشاعر ابن الفارض وابن عربي ، ولقد عارض علم الكلام بزعامة افصح ممثليه فخر الدين الرازي (المتوفي عام ٦٠٦/ ١٢٠٩) هذه التطرفات كما عارض الصوفية « كمجهود للتجرد الذاتي والتطهر المعنوي »، ومع ذلك فالفضل يرجع الى الغزالي (٤٥٠/ ١٠٥٨ ـ ٥٠٥/ ١١١١) وكان من ابرز المشرعين والفقهاء والمتصوفين ،وواحداً من اكبر مفكري الاسلام ، الذي قام باعطاء التصوف مكانته الحقيقية وسط الفكر الاسلامي جنبا الى جنب مع التراث والفكر الوضعي ، والغزالي ـ مثله مثل العديد من مفكري تلك الفترة المضطربة ـ كان يهتم اولا بالمصالحة العامة للاسلام ابتداء من قواعده الثابتة غير المعترض عليها وهي : القرآن وسنة الرسول ، ولم يفلت الايمان ايضا من محاولاته ، اذ لا يمكن تطوير المعرفة « عن طريق القلب » الا بعد التأكد من معرفة كاملة وعميقة للنبوة وذلك اقل ما يمكن التوصل اليه ، وهكذا . . . وباعتماد الاتجاهين الواحد على الآخر يمكن للمرء الا ينحرف في تطرفات (التطرفات فحسب) الفلسفة اليونانية والشريعة العقائدية ومذهب الباطنية وذلك بتقوية ممارسة « القواعد القطعية » للحياة الاجتماعية او الثقافية من خلال القيم الروحية ، او بتعبير آخر لهذا الفقيه فإنه بلا عقيدة شديدة العمق يظل منفصلا عن غايته الأخيرة وهي : البحث عن الحياة الخالدة ابتداء من الارض .

ومثل بقية فلاسفة الاسلام فإن الغزالي اراد اولا ، كما رأينا ، ان يدافع عن هذا الاسلام وان يقيمه في مذهب فكري ، الا انه قد بالغ في هذا الغرض ، وعلى اي حال فإن اعماله تعد الوقفة العنيفة لأول مرحلة للفلسفة الاسلامية ، اي فلسفة الكندي والفارابي وابن سينا ، ولعل البعض سيقول ان ذلك هو الثمن

الذي كان لا بد من دفعه لانتزاع التأمل النظري للاسلام من المغريات الشيعية حتى يمكن اعادته الى « الاعتدال » وبالتالي « منحه اوراق اعتماده » امام السنية .

ومع ذلك فلسنا متأكدين اذا ما كان الغزالي قد نجح في مهمته (علما بأننا ما زلنا نجهل تماما التأثير الحقيقي لأعماله) ، وايا كان الامر فلا بد لنا من توضيح ان الميراث الافلاطوني الجديد لم يستمر من بعده بشيء من الحيوية الا عند بعض المتصوفين او الشيعة ، وان كان الامر هنا يتعلق بعادات سابقة ظلت منشقة على تعاليم الغزالي ومخلصة لما هو اقل عقلانية في ، فكر ابن سينا اما من ناحية السنية وخاصة من ناحية علم الكلام فإن الفلسفة تتخبط في التكرار باستثناء اعمال فخر الدين الرازي التي كانت اكثر ابتكارا ، لكن اعماله لم تستطع ان تمس تحفظات الاسلام التقليدية حتى وان اعتبرناه اكثر المستنيرين ، وكما وضح الغزالي فإن فخر الدين له بعض التحفظات على ابن سينا وعلى « الفلاسفة » بشكل عام ولكنه يضيف اليهم الغزالي نفسه .

ترى هل اذا كف الفكر الافلاطوني الجديد عن معايشة مغامراته الكبرى في الشرق - على الاقل في اشكاله العقلانية - فهل يرجع الخطأ الى الغزالي ؟ . . يعتقد بعض الذين يبالغون في تأثيره انه قد قص اجنحة الفلسفة العقلانية بالفعل ، ام ترى الخطأ على الشرق نفسه وعلى الصراعات المادية او المذهبية التي كان يقودها الاسلام ، ذلك الاسلام المناضل ، متحديا وغير مستعد لترك نفسه ينساق وراء محاولات صادقة « وحكيمة » مثل اعمال الغزالي ؟ . . واذا كان الامر كذلك فلن نتردد في وضع هذا الموقف في محاذاة الموقف الذي وقفه المغرب الاسلامي ، مغرب المعركة التي خاضها المذهب المالكي المتشكك ايام المرابطين والموحدين باسم الاسلام السني ، وهنا ايضايصطدمتراث طويل من التأمل بالفضيحة والعار وبإبادة الكتب حتى وإن كانت لمفكر مخلص للاسلام نشأ في ظل المذهب المالكي وترفه حسه بانتقادات الغزالي للفلسفة ، واهتم من خلال ممارسة وظيفته الرسمية كقاض بأن يتفق مع قانون الاسلام مثلما حدث لابن رشد . . .

ولقد احتل الغرب المسيحي مكان الصدارة في الفلسفة بالتحديد عندما قام بجمع تراث ابن رشد والغزالي دون التحدث عمن سبقوهما ، وبذلك افلتت الفلسفة الاسلامية الكبرى من الاسلام لتتأقلم في ارض اجنبية

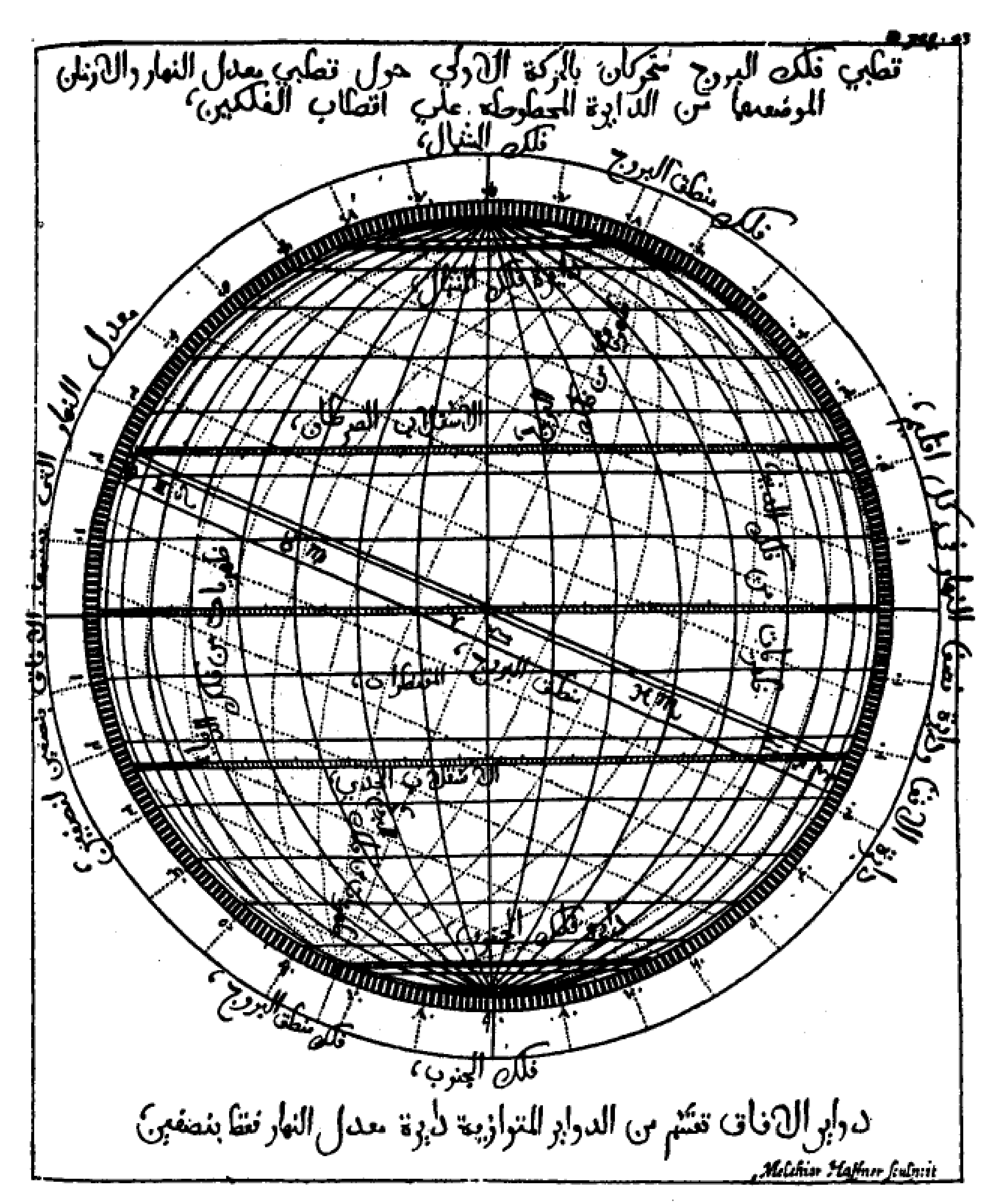
٤ ـ العلوم والآداب والفنون

ان الفترة الطويلة الممتدة فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر، الفترة المضطربة الغارقة في الدماء والعنيفة لم تكن تمثل ذلك الغروب ثم ذلك الليل المظلم الذي تصوره لنا بعض التخيلات ، لا على ذلك النحو ولا في كل البلاد بلا تمييز ، ولنتفاد ربط مصير الاسلام بهذه الدولة او تلك ، بل على العكس لنحكم عليه بشكل اجمالي في تسابق او تتابع ثقافاته المختلفة ، وعندئذ سنجد انه كان هناك دائما في ذلك العالم الشاسع ورغم الهبوط العام ، بل ان الرقابة القاسية التي مارستها السنية العثمانية على الحياة الثقافية ، حتى تلك الرقابة لم تستطع ابدا ان تقضي كلية لا على الانتاج الفكري ولا ان تعوق الانطلاقات الفنية .

عـادات وابحاث ونزعة موسوعية

ان السلطات السياسية المتعددة التي شاهدها الاسلام وهي تتعاقب فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر كانت في الواقع تمثل نفس العدد من رعاة الفنون والآداب ، الا ان اهتماماتهم خصت العلماء اولا ، ومثلما رأينا في الفترات السابقة فإن النصر كان حليفا للرياضيات وخاصة في مجال الفلك (شكل ٦١) والطب ، وفيما يتعلق بالرياضيات لنذكر اولا مدارس مصر ايام المماليك والمدارس الاسبانية والمدارس في الشرق ، فلقد نظمت اسبانيا باسم ارسطو معارضة اعمال فلك التدوير لبطليموس وذلك عن طريق اعمال ابن اياس وابن طفيل وابن رشد والعلماء الفلاسفة ، وكذلك عن طريق اعمال الزركلي وجابر بن افلح (الذي يخلط اسمه احيانا باسم جابر الكيميائي العباسي) والبتروجي والعديدين غيرهم .

لقد اثرى علم الفلك الدوائر المعلقة والكرة الارضية والاسطرلاب (لوحة ٢٦) وابراج المراقبة والمراصد بالعديد من المؤسسات الجديدة التي تمت بفضل السلاجقة وايلخانيات فارس ، انه عصر التبادلات المثمرة بين علوم الفلك الاسلامية والصينية ، ومن هذا الجهد الجماعي تبرز ثلاثة وجوه كبيرة : الفارسيان عمر الخيام (المتوفي حوالي عام ٥٢٠/ ١١٢٦) والذي كان من علماء الجبر ومن الشعراء اكثر منه عالما من علماء الفلك ، وناصر الدين الطوسي (٦٧٢/ ١٢٧٤)والذي كان ايضا كما سبق ان اشرنا المدافع عن الشيعة الاثني عشرية ،



شكل ٦١ - جداول اعتدالية طبعت في اوجسرج عام ١٩٧٦

ومن بعدهما يأتي اخر كبار علماء الفلك في الاسلام وهو الامير التيموري اولوج بيج (٨٥٣ / ١٤٤٩) مؤسس مرصد سمرقند الذي اجتذب اليه العديد من زملائه .

اما الطب فكان يحافظ في كل مكان تقريبا على تراث اكلينيكي شديد الدقة بفضل مؤسسة البيمارستان ، وقد سبق ان اشرنا الى المستشفس الشهير في دمشق ايام نور الدين ، ومع ذلك فقد كان المصري ابن النفيس (في القرن الثالث عشر) اول من اكتشف الدورة الرئوية الهائلة عن طريق التأمل والبحث وبناء على اعمال جالينوس الذي كان سابقا على الفرنسي ميشيل سرفيه ، لقد كان كشفا رائعا لكنه

ظل بلا اي استمرار ، وعلى اي حال فقد كانت الموقعة الاساسية تجري في المغرب : في اسبانيا المرابطين والموحدين التي كانت تسيطر عليها في هذا المجال اسرة ابن زهر ، ومثلما حدث بالنسبة للفلسفة فقد اتى الوقت الذي وجد فيه الطب ارضه الخصبة في المغرب الاسلامي قبل ان ينتقل بفضله دائما الى المسيحية القريبة منه ، ذلك ان هذين المجالين يتوازيان عادة عند كل من ابن طفيل وابن رشد وكذلك عند اليهودي المنفي الميموني وكانوا كلهم من المحافظين على التراث الكبير لابن سينا ، الذي يذكرنا به فخر الدين الرازي من طرف الاسلام الى اقصاه .

وفي ظل هذه العلوم الكبرى يأتي اشقاؤها الصغار ، الصغار بالنسبة لنا بالطبع مثل : علم الزراعة والنباتات في اسبانيا كما سبق ان اشرنا ، ومعها ايضا علم الخيل والطب البيطري الذي كان من العلوم المتقدمة ايام الناصرية والمماليك ، وعلم الميكانيكا والهيدروليكا مع الفلكي الخازني ، والكيمياء وعلم النجوم وعلم التعدين وعلم الفراسة وقراءة الكف وقد قام فخر الدين الرازي بتوضيحها جميعا بالرسوم .

وماذا عن العثمانيين ؟ . . . عندهم ايضا بدأت انطلاقة الحركة العلمية خاصة ابتداء من محمد الثاني بعلم الطب سواء كان اكلينيكيا او نظريا ، والرياضيات وخاصة النظام الفلكي لاولوج بيج ، ومن هنا نجمت عدة نتائج هامة منها فتح المدارس لتعليم التلاميذ النظاميين هذه العلوم ، وتأسيس مرصد على هضبة طوبخانة وعمل خرائط الكرة الارضية ودليل السواحل .

بقي ان نوضح معنى كلمة انطلاقة ، ان العلماء العثمانيين يهتمون دائما بوضع تحصيل العلم الاسلامي في خدمة العالم التركي ايا كان المجال الذي يتعرضون له ، ولم يكن الامر يتعلق باكتشاف حقيقي او بتقدم حقيقي بقدر ما كان يعني اكتشاف معرفة قائمة ، وهكذا بدأ التأخر يتراكم بانتظام على اوربا ، إذ أن اوربا عصر النهضة كانت مجهولة في بادىء الأمر ، وبعد ذلك في القرن الثامن عشر بدأ المفكر المستنير حاجي خليفة كشخصية « سابقة على عصر النهضة » رغم ارتباطه في أغلب الأحيان « بالتراث الفلسفي للشرق اي بالتعاليم المشّائية » وفي القرن الثامن عشر يبدو ان الطب الواسع في البروسة لم يهتم الا بادخال مدرسة

باراسلس في تركيا اي في أوربا القرن السادس عشر ، وذلك في مواجهة تراث جالينوس وابن سينا الذي لا يتزحزح .

وفي كل مرة اذن ، في نهاية ذلك القرن الثامن عشر لا يوجد سوى التأخر والتأخر دائما ، وهنا لا بد لنا من ادانة الثقل المتزايد ـ منذ القرن السادس عشر ـ للسنية الحنفية التي تساندها كل اجهزة الدولة : ان المفتي الاكبر قد ادان مرصد طوبخانة الذي تم هدمه في ليلة واحدة بعد حياة عابرة ولم يكن من النادر رؤ ية رؤ وس العلماء وهي تتطاير ، اما ما يزدهر في ظل مذهب غيور ومدقق فهي بالطبع العلوم العقائدية والاشكال الاقل خطورة من المعرفة العامة ، وذلك مثل نوعية الموسوعة الحافظة لعلوم الماضي والتي كان حاجي خليفة اشهر ممثليها .

ومع ذلك فالاهتمام الواضح من اجل معرفة مستقرة سواء عن طريق القانون او الاستخدام لم يكن ملكا للسنية العثمانية ولا ملكا للسنية وحدها ، ففي مجال اكثر تحديدا مثل العلوم الدينية تبلغ دهشتنا اقصاها من ان الذوق قد ظل بمثل هذه الحيوية لدى الخصم الشيعي الذي يمثل النصف الثاني من الخلاف الأزلي الذي كان يتصارع فيه الاسلام ، هل هو جمود ام انهيار ؟ ان ذلك يعني اننا نبالغ في الحكم وفقا لمفاهيمنا متناسين ان هناك حضارات تستمر في التعبير عن نفسها وتستمر في الحياة بلغاتها وبثقافاتها : ففارس الصفوية مثلا بانشغالها في مجهودها الديني والوطني لم تعرف ـ كما سبق ان اشرنا ـ اعمالا ادبية كبيرة ، الا ان الازدهار الشاسع للأدب العقائدي الذي اثاره الدفاع الديني الشيعي والاهتمام بوضع الدروس المستخلصة في متناول اكبر عدد ممكن من الناس قد لعب دورا حاسما في خلق نوع من النثر اكثر ليونة واقل رصانة حيث يمكننا ان نتعرف على اللغة الفارسية الحديثة .

ولا نقسو في حكمنا ايضا على الموسوعات والكتب الموجزة والمعاجم او المراجع التي كانت اعمالا قيمة استعان بها المستشرقون وسوف يستعينون بها لمدة طويلة ايضا ، ولقد تحدثنا فيما سبق عن بعض نماذج الفترة المملوكية ويمكننا ان ننهل بلا نهاية من مثل هذه المستودعات ، ففيما يتعلق بالهند في القرن الثامن عشر فهناك اعمال بحر العلوم المعلق على العلوم التقليدية الذي لا يكل ، كما كان يهتم بالعلوم الدينية خاصة ، ولنتقدم اكثر ناحية العامة سنجد ان قواميس الزمخشري الخوارزمي ، او

ياقوت العبد البيزنطي الذي اسلم ، او الصفدي التركي الاصل كل هذه تعد المراجع الاساسية للمعرفة اللغوية والجغرافية او للسير الذاتية ، وقد جمعت باللغة العربية من مختلف ابناء الاسلام كما يمكننا ان نذكر ايضا فيما يتعلق باللغويات والكتب الوضعية الموجزة للمصري ابن هشام والبربري ابن آجروم وخاصة الاسباني ابن مالك صاحب الالفية وهو كتاب للقواعد في ألف بيت من الشعر ، وهناك اعمال القزويني بالنسبة للجغرافيا والموسوعة الكونية ، واعمال ابن الاثير بالنسبة للتاريخ ذي التجميع العالمي العظيم .

ومع ذلك فنحن لا نتحدث هنا الا عن اعمال بحر العلوم ، كما كانت المختارات معروفة ايضا باللغة الفارسية بفضل العوفي ومثل قاموس الشاعر الاسدي والتجميع الجغرافي والكوني للقزويني (حمد الله المستوفي) وهو غير القزويني السابق وكان يعمل موظفا في الايلخانيات .

أما من ناحية تركيا فلا يمكننا ان نغفل حاجي خليفة إذ بخلاف أعماله الأساسية فقد كان متمكنا من ثلاث لغات هي العربية والفارسية والتركية وله بها قرابة العشرين مجلدا منها القاموس السيري والتجمعات والمختارات والتعليقات المختلفة ، ولم يكن الأول من نوعه فهناك احمد طاشكبرو زاد في القرن السادس عشر الذي كتب موسوعة باللغة العربية وقام ابنه محمد بترجمتها الى اللغة التركية .

قصص واشعار

ان الرقابة التي كان رجال الدين يمارسونها لم تمتد الى كل المجالات فقد افلت منها الأدب الشعبي بسهولة ، ولا ننسى أنه ربما تم آنذاك تجميع رواية « الف ليلة وليلة » في سوريا ومصر فيما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واسماء شخصياتها واسماء العديد غيرها التي اشرنا اليها في الفترة المملوكية لا تمثل سوى الجانب العربي لبنيان شاسع متعدد الجوانب لمختلف الأمم ، من شمال افريقيا الى الشرق الأدنى ومن تركيا السلجوقية او العثمانية ومن فارس الصفوية الى هند البنغال تفتح نوع من الأدب الذي تراكمت فيه القصص الواعظة من حياة النبي والصحابة والأولياء ومؤسسي الأسرات الحاكمة ، اما في تركيا فقد بدأ مسرح الظل « القراقوز » .

وكثيراً ما ينفتح الميراث الجماعي من خلال الملحمة أو التصوف مثلا على

مجال الشعر ، وقد بدأت الملحمة في ايران السلجوقية بفضل الأعمال القديرة للفردوسي والتي اكملها الأسدي ، الا أنها بدأت تحيد مع الجرجاني ناحية شعر الغزل ، وقادها النظامي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بتنميق فن البلاط الأكثر قربا من الشعر الغنائي العاطفي منه الى الملحمة ، اما الشعر المتصوف الذي سبقته القصائد العقلانية للصناعي المعاصر لأواخر الغزنوية فقد تألق في القرن الثالث عشر بصفة خاصة بفضل أعمال العطار وجلال الدين الرومي والسعدي حيث تضافرت أعمالهم مع نبرات اخلاقية تقليدية لا يمكن محاكاتها . وهذا التراث من الشعر العاطفي الشديد الحيوية أو من الشعر الصوفي سوف يستمر في ازدهاره في سلطنة دلهي في أعمال أمير خسرو التي اكملها النظامي كما ستستمر في أعمال الجامي وهو احد المترددين على البلاط التيموري في حرَّات .

كل هذه الأسماء تتألق في سماء الشعر الكبير المسمى « المثنوي » اي البيت القائم بذاته ككل من حيث المعنى والنحو والايقاع ، بما أن شطري البيت هما اللذان يتوازنان هنا في القافية وليس بيت الشعر مع البيت الذي يليه ، ومع ذلك فلم يفرغ « المثنوي » الشعر الفارسي من مجالاته ، ولا حتى عبقرية كل شاعر إذا ما اخذناه على حدة .

وهناك تراث آخر ظل وفيا للنماذج العربية هي : الشعر ذو القافية الواحدة أو القصيدة ونوع من شعر الغزل ، وقد ازدهر النوع الأول في أعمال ناصري خسرو الاسماعيلي ، اذ تدل نبراته الذاتية على تأمل ديني شاسع ، الا أن ناصري يعد شخصية على حدة ، فالقصيدة والغزل ستنهلان من تراث اكثر رومانسية وقد بدأ هذا التراث منذ فترة السامانية بأعمال الرودكي ، واستمر ايام الغزنوية في افغانستان وفي الهند بفضل أعمال الأنصري ومنوتشحري والفروخي ثم بأعمال مسعودي سعد سلمان شاعر السجن وتقع أعمال قطران بين اواخر عصر البويهيين وبداية عصر السلاجقة ، وقد تبعه الأزرقي وأمير معزى وخاصة انفرى « سيد القصيدة الفارسية » اما وطواط (رشيد الدين) فقد تغنى بأمراء الخوارزمية في حين تألق الخاقاني في مدينة باكو ، وعادة ما يتنافس مجده ومجد انفرى ، واخيرا ، في فترة المغول هناك أعمال الشهير حافظ سيد الغزل والمدح الذي ما زالت اعماله الصعبة والشديدة العصرية التي تجمع بين الواقعية والرمزية تثير النقاش .

واخيرا هناك الزهرة الثالثة لهذا الشعر الفارسي وهي الرباعيات ، ولعلها ترجع الى آسيا الوسطى التركية الا انها ازدهرت وتألقت بنجاح نادر بفضل عبقرية الفارسي أبي سعد بن أبي الخير الذي بدأ بالشعر الصوفي ومؤلفات بابا طاهر (النصف الأول من القرن الحادي عشر) وخاصة أعمال عمر الخيام المتوفي حوالي عام ٥٢٠ /١١٢٦ ، الذي تنطبق على نزعته الانسانية كل الأوصاف مثل : الواقعي ، المتشكك ، المتشائم ، أو المتصوف .

اما في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر فإن الشعر الايراني - ولم يكن مجهولا في فارس الصفوية - قد هاجر معظمه الى الهند من حيث سيعود مرة أخرى ليتألق في آسيا الوسطى ، وهناك اسم يسيطر على تلك الفترة التي عرفت انشقاق الهارموني الشكلي للشعر الكلاسيكي والبحث المنهجي عن التجريد والمجاز أو الرمز الصعب وهو الشاعر صاحب الذي توفي عام ١٠٨٠ /١٦٧٧ ، وقد كانت اشعاره معروفة على نفس المستوى سواء في فارس أو في اصفهان حيث وافته المنية .

ونحن لم نذكر هنا سوى بعض اجمل زهور حديقة الشعر الفارسي الخلابة ، ومثل هذا الثراء يطغى بالطبع على روائع الاسلام البنغالي حيث كان يزدهر ادب غنائي وفير ، اما بالنسبة للشعر فقد تألقت اسماء نور قطب غلام (اواخر القرن الرابع عشر) صاحب أشعار مختلطة نصفها بنغالي والنصف الآخر فارسي ، ثم بالنسبة للفترة المغولية كل من سلطان والأول ، اما الشعر الأوردي فقد عرف أول أمجاده الكبرى ابتداء من عام ١٧٠٠ في مركزي دلهي ولوكنوي اللذين اعطياه الشاعر الخلاق الحقيقي والي ثم حاتم وتلاميذه المعروفين بـاسم « الأعمدة الأربعة » للفترة الأوردية الكلاسيكية وهم : سودا ومظهر ودارد (وكان شديد التدين بشكل واضح) واخيرا مير وكان أعظمهم بلا شك وقد اشتهر بأنه شاعر الحنين الحزين .

بقي الأتراك : ان اسماء كل من يسوى ويونس واحمدي ونسيمى وعلى شير التي سبق أن ذكرناها بالنسبة للفترة الواقعة فيما بين القرن الثاني عشر وبداية القرن الخامس عشر ، دون أن نغفل الشعر الملحمي للأديب دانيشمند تذكرنا هنا بأوائل انطلاقات الآداب التركية في مجاليها الأساسيين في آسيا الوسطى والأناضول ، لكن

الفترة العثمانية الكبرى التي اعقبت سقوط القسطنطينية هي التي ستصل بالشعر التركي الى أوسع آفاقه ، فالشعر المثنوي والقصيدة والغزل والرباعيات ستندمج مع الذوق والأسلوب الفارسي في تنظيم شبه « قانوني » وذلك لمدة قرون .

أما فيما يتعلق ببدايات العصر الكلاسيكي مع أحمدي فلا بد من ذكر اسم الشاعر احمد داعي الذي اعتبر للأسف لفترة طويلة ومن غير وجه حق أنه شاعر ثانوي ، ثم هناك الشاعر شيخي وسليمان شلبي صاحب سيرة شهيرة للرسول ، وكلها اشكال متكاملة لأدب واسع سواء كان دنيويا أو دينيا حيث راح الشعب التركي يتغنى بتراثه ، وقد أدى سقوط القسطنطينية وازدهار الحضارة العثمانية الى الانطلاقة الاساسية للشعر الغنائي في البلاط سواء كان في المديح والغزل أو في التصوف ، ومن أبرز شعراء هذه المرحلة احمد باشا ونجاتي وباقي وبالنسبة للعراق فقد كان هناك الفظولي ، اما الإضافة الأكثر ابتكارا فقد نجمت عن أعمال الرفاني شاعر الخمريات وكان يعمل رئيسا لمطابخ سليم الأول ، والألباني مسيحي شاعر الملذات والسخرية الذاتية ، وابن محمد الثاني دجم سلطان الذي كان يسعى الى العرش لكنه نفى ومات في اوربا المسيحية ، الا أن أشعاره الرثائية كانت ميالة الى بعض الملامح الغربية .

إن هذه الحركة الشعرية ستستمر في انطلاقتها ـ مثل الآلة السياسية العثمانية ـ بلا تجديد يذكر مع ميلها المتزايد الى الأشكال الفارسية ، لكنه على الأقل قد استمر واحيانا استمر بشكل رائع في القرن الثاني عشر مع كل من قطاعي ونفعي ـ خير ممثل لهذا الشعر الفارسي الجديد ـ وثابت من البوسنة وكان أكثرهم واقعية وابتكارا ، شغوفا بالاستقامة ولاذع السخرية ، واخيرا في عهد احمد الثالث والمآدب والدعوات الأوروبية ، في ذلك العصر الذي سمي « عصر التيوليب » نظرا لولع العثمانيين بهذه الزهرة فقد ازدهر واحد من اعظم الشعراء الأتراك وهو : نديم الذي تغنى بحب الحياة .

وسط هذه الحدائق الغناء في مجال الشعر والتي تدين بالكثير الى كرم الملوك والحكام ينقصنا التحدث عن شعراء شبه الجزيرة العربية ولقد انحصر الشعر العربي في مجال التكرار والذكرى نظرا لحرمانه من التجانس السياسي ومن بلاط الأمراء خاصة اذ لم يدركوا اسراره ولم يتخطوا مصاعبه ، وإذا ما استثنينا الشعر

الصوفي لابن الفارض وابن عربي فإن الغرب وحده ، وخاصة الغرب الاسباني هو الذي استطاع ان يطور فنا مبتكرا كما سبق أن رأينا .

رحلات وتاريخ : ابن بطوطة وابن خلدون

على اي حال فإن النثر العربي لم يمت ، وقد كان مسجوعا بقلم الحريري (المتوفي عام ٥١٦/ ١١٢٢) واستمر في تراث المقامات مع الهمذاني ، هذا النثر البسيط لم يعط العلوم الدينية لهجتها فحسب وإنما أثرى مجالين كثيري العطاء : احدهما جديد هو أدب الرحلات ، والثاني اكثر انتشارا وهو التاريخ الذي وصل إلى آفاق عالمية بفضل واحد من اكبر واعظم مؤرخي كل العصور وهو ابن خلدون .

لقد ولد ادب الرحلات في إسبانيا مع الذين راحوا يدونون ذكرياتهم التي جمعوها اثناء رحلتهم إلى الحج ، ويعد كل من الاسبانيين ابو حميد الغرناطي (القرن الحادي عشر/ الثاني عشر) وخاصة ابن جبير (القرن الثاني عشر/ الثالث عشر) من اكبر السباقين في هذا المجال الذي سيزدهر بعد ذلك مع التونسي التيجاني (اول القرن الرابع عشر) ثم في القرن السادس عشر الاسباني المغربي الأصل الذي وقع في سلطة الغرب المسيحي فقام بتعميده إلا أنه تركه يعود ليموت في أرض إسلامية هي تونس وهو : ليون الأفريقي ، نسبة الى اسم القارة التي امضى بها أيام شبابه واوحت إليه بعمله الشهير المسمى « الوصف » وله ترجمة ايطالية .

ومع ذلك فقد انساق أدب الرحلات مبكرا إلى التعبير عن أمجاد العلم والدين الاسلامي في شتى البلدان التي امتد إليها سواء كانت شرقية أم لا ، وقد كتب الأدباء المغاربة وفقا لهذه الروح ، ومنهم العبدري (اواخر القرن الثالث عشر) والعياشي (القرن السابع عشر) والزياني (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) وكذلك الفلسطيني النابلسي (القرن السابع عشر/ الثامن عشر)

ولننه الحديث حول هذا الموضوع بسيد أدب الرحلات وهو ابن بطوطة ، فلا بد لنا من وضعه في مكانة أسمى من تلك التي يحتلها الفارسي ناصري خسرو الذي سبق ان عرفناه كشاعر ، أو التركي أوليا شلبي الذي وصف الامبراطورية

العثمانية في القرن السابع عشر ، ولقد ترك ابن بطوطة وطنه في المغرب عام ٧٢٥/ ١٣٢٥ ولم يعد إليه إلا بعد أربعة وعشرين عاما أمضاها في رحلات قادته الى القسطنطينية وإلى عشيرة الذهب ثم الى أعالي النيل والمدن التجارية في أفريقيا الشرقية ثم واصل خط سيره حتى الهند والموانىء الصينية ، ولم يكتف بكل هذا فلما أن عاد إلى بلده حتى انطلق في رحلة أخيرة قادته الى السودان النيجيري ، ولا شك أن حب المغامرة والمخاطر قد راقه حقا ، بل لقد أدخل حياته الخاصة أو العامة ضمن هذه الرحلات فقد تزوج أثناء إحداها لمدة عام وشغل منصب القاضي في جزائر ملديف ، وفي خضم هذه التحركات المتواصلة ولد ذلك النوع الفريد من أدب الرحلات المتنوع والحيوي والمتنقل بسرعة مثل صاحبه من أدنى العالم الاسلامي إلى أقصاه .

ومع ذلك فإن هذه الانطلاقة لأدب الرحلات قد أدت بصورة أو بأخرى إلى إفلاس علم الجغرافيا التقليدي رغم نجاحات الاسباني البكري (النصف الثاني من القرن الحادي عشر) او الادريسي في بلاط الملوك النورمنديين في صقلية ، فلقد انحصر علم الجغرافيا في وفرة التجميع سواء في شكل قاموس أو في شكل وصف عام للكون ، وكثيرا ما تم إغفال علم الجغرافيا لصالح وصف أكثر واقعية للأرض أو تناساها الكتاب لازدهار منافسها الكبير : علم التاريخ الذي اختص نفسه بمكانة شاسعة في النثر الاسلامي فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر .

ومن مختلف أشكال التاريخ العربي أو الايراني سواء كان سيرا ذاتية او حوليات أو عمل المؤرخين أو الأخبار العالمية أو المحلية ، فلقد ذكرنا بعض الأسماء على مر العصور الأيوبية والمغولية والمملوكية او التيمورية ، ولنكتف هنا بإضافة إسم الاسباني لسان الدين بن الخطيب المؤرخ الكبير للنصريين في غرناطة وقد اعقبه المقري وهناك الزياني بالنسبة للمغرب ، وسبق أن ذكرناه فيما يتعلق بأدب الرحلات وفي الهند الاسلامية هناك أعمال جزاني (القرن الثالث عشر) وعصافي الأولغخاني (القرن السادس عشر/ السابع عشر) وأخيرا بالنسبة للاسلام في أفريقيا السوداء هناك السعدي في تمبوكتو (القرن السابع عشر) ويجب ألا يفوتنا ذكر ازدهار علم التاريخ باللغة التركية : التركي الدغطائي بمذكرات بابور ،

والتركي العثماني بأعمال تورسون بيج ، والمؤرخ كمال باشا زاد أيام محمد الثاني وقد توفي عام ١٥٣٥ وكان شاعرا وفقيها ومن كتاب الموسوعات ويتميز أسلوبه بالغنائية الملحمية في كتابة التاريخ العثماني حتى فتح المجر وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر يتألق اسم عالي وهو أحد الشغوفين بالحق والعدالة ، ثم في القرن التالي يلمع اسم حاجي خليفة وحظارفن الذي كان على صلة ببعض العلماء الغربيين ، وقد استعان ببعض المصادر الأجنبية (اليونانية واللاتينية) وأخيرا الحلبي نعيمة وكان شغوفا بكتابة التاريخ بشكل موضوعي ومتعمقا بلا تصنع .

ومع ذلك فلا بد لنا من البحث بعيدا عن كل هؤلاء لنصل إلى من وضعه التراث بين أكبر مؤرخي العالم ، فلقد ولد ابن خلدون عام ٧٢٣/ ١٣٣٢ في تونس من أسرة مهاجرة من اسبانيا ، وساهم بشكل حيوي في كتابة التاريخ السياسي لشمال افريقيا واسبانيا ، وقد تعرف إلى تيمورلنك ، أي ما معناه أنه لم يكن منعزلا في قرنه ، وكان ينتمي إلى الاسلام المالكي مثله مثل الكثيرين غيره ، وتوفي في القاهرة وهو يشغل منصب قاضي القضاة ، ومن الواضح أن أعماله بشكل عام تحتل مكانة مرموقة في التاريخ الدولي .

ويدين ابن خلدون بأسمى أمجاده « للمقدمة » الشهيرة التي كتبها « باختصار امبراطوري » وهنا ايضا لم يكن أول من راح يتأمل ظاهرة المجتمع الانساني وتطوره بما في ذلك الكتاب العرب ، لكن الفضل يرجع إليه وإلى عبقريته في أنه كان أول من نظم هذا التأمل ليستخرج منه مجموعة من القوانين تتحكم - وفقا لرأيه - في ازدهار الامبراطوريات وفي موتها ، وهذا التأمل المتعالي والمتشائم في آن واحد قد استوحاه ابن خلدون من بعض قرائن مصير الاسلام المحصور في شمال افريقيا حيث كانت تتصارع قوتان اساسيتان في عهده : القوى الحضرية والقوى الرحالة ، وهذا الجهد الضخم الذي بذله ليستخلص من مثل هذه النماذج القوانين العامة لمستقبل البشرية تسمح له بالتربع على رأس كافة المدارس الفكرية بما في ذلك المدرسة الماركسية ، كما تمنحه القاب عالم الاجتماع ورجل الاقتصاد وفيلسوف التاريخ وسيد علم نفس الشعوب التي يستحقها عن جدارة ، ولا شك أن انعزاله يرجع إلى نفس هذه العبقرية وهذا التأمل ، وعلى أي حال فقد ظل وحيدا طوال القرن الذي عاش فيه ثم بدأت تعرفه الحضارة التي منحته للعالم عن طريق تركيا ثم عن طريق أوربا .

حول الجامع

لقد انقضت ثمانية قرون تقريبا من الفن الاسلامي على مساحة مذهلة . . . إن كتابا بأكمله لن يكفي مثل هذا الموضوع الشاسع والذي ما زلنا لا نعرفه تماما كما لا نعرف كل آثاره ولا مصير هذا الجزء منها أو ذاك ، ولا خط سير الأساليب المستخدمة ولا الموضوعات ، ومرة أخرى يجب علينا أن نكتفي ببعض اللمحات الخاطفة أو الجزئية أمام هذه الوفرة .

العبادة وملحقاتها

شهدت الفترة الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر ميلاد او تعميم بعض الأشكال المعمارية التي ستغير تدريجيا من الشكل العام للمدن الإسلامية ، ومنها الخانقاه والمدرسة والبيمارستان والامارة (مكان لتوزيع الحساء مجانا على الفقراء) والمقام أو القبة ، مما سيضفي على المسجد أشكالا مبتكرة إذ ستلحق به إحدى هذه الأبنية أو سيلحق هو ببعض المباني العامة مثل السوق ومحطات البريد وخان القوافل او بعض المباني العسكرية .

ويتغير شكل الجامع بوضوح وفقا للمتطلبات السياسية الدينية لعصره ، ولقد اوضح ج . سوفاجيه مثلا بالنسبة للفترة السلجوقية هو بناء قاعات ذات قباب في المساجد القائمة بالفعل تحدد مكان المحراب من جهة إلا أنها كانت تستخدم من جهة أخرى كمكان منعزل يستخدمه ممثل السلطة الذي كان يجد نفسه في هذا المكان الشريف بعيدا عن الجماهير ومحميا منها .

وقد أدت هذه الاجراءات إلى تغيير شكل المسجد الأساسي أو إلى طمس معالم المساجد العربية القديمة ذات القاعات الكبرى المزودة بالأعمدة المسقوفة ، كما ظل نموذج المسجد الايراني المزود بصحن في الوسط ومئذنة مستديرة ذات شرفات ، ظل يتصدر نمط مباني المساجد في مناطق واسعة في الشرق الإسلامي ، وهذا النموذج مرتبط أيضا بفترة السلاجقة لأن هذا المبنى ينطبق تماما والسياسة السنية لسادة الإسلام الجدد وخاصة بفكرة المدرسة ، فقد كان الصحن يحاط بأربع ايوانات متصلة به أو بخلوات الطلبة ، وقد راق هذا التنظيم لمصر الأيوبية ثم المملوكية التي رأت فيه سهولة في أن تخصص كل إيوان لمذهب من مذاهب السنة

الأربعة وأجمل نموذج لهذا التراث نجده في القاهرة في مسجد ومدرسة ومقبرة السلطان حسن (القرن الرابع عشر) - (شكل ٩٠)

وهناك نموذج آخر هو المسجد المقام كلية تحت قبة وقد انتشر في إيران التيمورية ، ومسجدها الأزرق الشهير في تبريز ، وليست هذه إلا واحدة من مائة طريقة لمعالجة هذا الوحدة المعمارية كما يمكن ربطها بأحد أجنحة الجامع مثلما في فارس المغولية في القرن الرابع عشر أو في الأناضول التركية فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، أو ربطها بالبرج ذي الجمالون مثلما حدث في آيا صلق (في النصف الثاني من القرن الرابع عشر) دون التحدث عن الاستخدام التقليدي لهذه القبة فوق المحراب أو فوق قبر صاحب المسجد أو الولي في مختلف أنواع هذا المبنى .

سنان والمسجد العثماني

لقد عرفت أناضول الأمارات التركية (القرن الثاني عشر - القرن الرابع عشر) ثلاثة أشكال مختلفة لقاعة عمد المدرسة المحاطة بالايوانات المطلة على صحن الجامع ذي القبة ، وعادة ما تكون هذه المباني محصنة ومبسطة باستثناء بعض الأجزاء المميزة خاصة البوابات الضخمة التي تحيط بها الزخارف الحجرية الوفيرة التي نرى فيها بعض اصداء من الزخارف المستوحاة من أرمينيا أو من بادية آسيا ، وهناك جانب آخر مميز لهذا الفن الأناضولي هو البوابات الضخمة التي تربط بين صحن المسجد المكشوف والعالم الدفين للايوانات والخلوات .

وقد استعان العثمانيون بهذه النماذج في البروسة وأدرنة واستانبول وقاموا بتطويرها بسخاء وتنوع بحيث توصلوا إلى خلق نمط جديد من العمارة في الأناضول وفي بيزنطة قال عنه فيما بعد المهندس لو كوربوزييه عندما عاد منبهرا من البوسفور فنصح « كل مشيدي المدن » أن « يضعوا هذا الفن في جعبتهم »

إن مبدأ المساجد في البروسة قائم على ألا يمثل هذا المبنى عالما منفصلا بشكل صناعي عن صحن المسجد او عن موارد مياهه ، وأصبحت الميضأة تمثل منتصف المبنى سواء كانت مكشوفة أو تحت قبة ، بصرف النظر عن وقوعها في قاعة العمد الكبرى أو في المسجد الصليبي الشكل حيث يكون مستوى الصحن أقل انخفاضا

بشكل طفيف عن جوانبه إذ يبدو بوضوح أن هذا المربع هو آخر تطور لصحن المدرسة ذات الايوانات في الأناضول ، أي أنه أصبح صحنا مندمجا في مبنى المسجد .

ومهما تنوعت هذه التجديدات والكثير غيرها مثل النوافذ ذات الزخارف المنحوتة المستوحاة من القرن الرابع عشر الايطالي ، أو مقصورات السلاطين أو الأدوقة ذات العمد ، فإنها لا تقارن بالعظمة التي سيطور بها العثمانيون فن القباب ، ولقد سبق لهم أن عمموا هذا الفن في البروسة فوق مختلف أنواع المباني ، إلا أن إلهامه الجديد سيتبلور في استانبول في مسجد آيا صوفيا وفي مبدعه المهندس سنان .

وتمتد حياة سنان على مدى القرن السادس عشر تقريبا ، ويرجع فضل انتاجه الوفير إلى عمره المديد إذ قام بمفرده بتصميم ١٣١ مسجدا ، و٦٢ مدرسة أو كتابا ، و١٩ ضريحا ، و٢٠ بيمارستانا أو إمارة ،و٢١ خان قوافل ، و٨ كباري ، و٧ مجرى عيون ، وخزانات مياه ، و٣٣ حماما ، و٣٣ قصرا ، وهذا المجهود الخارق قد تضافرت عدة عوامل على إتمامه هي العمر المديد والموارد الضخمة للامبراطورية وارادة السلطان والأثرياء والعدد الذي لا يحصى من العمال المنجذبين إلى مراكز العمل التركية من مختلف الأنحاء جالبين معهم خبراتهم العريقة .

وتمخضت كل هذه اللقاءات عن المسجد الكبير ذي القبة المركزية (لوحة ٢٤ وشكل ٩١) المزود بقباب أصغر أو بأنصاف قباب ودعائم وعقود ، وما يلفت النظر من الخارج هو ضخامة الكتلة وارتفاعها الشاهق الذي تؤكده المآذن الشاهقة المدببة ، أما ما يلفت النظر في الداخل فهي المساحة النموذجية المخصصة للصلاة والتي تم الحصول عليها بفضل تغيير موضع الأعمدة ودمجها في الجدران مما يسمح بحرية الرؤية وانطلاقها إلى القبة التي وصلت إلى أقصى انتصار لها في مسجد السليمية في أدرنة إذ بلغ اتساعها ٣١ مترا .

بلدان قديمة وعادات جديدة

ومع ذلك فلا ينبغي لهذه الروائع أن تحجب عنا الوفرة المعمارية التي عرفها

الإسلام في هذه الفترة الطويلة العظيمة التي ازدهرت فيها المباني الأخرى سواء حول المسجد أو بعيدا عنه . ولنستشهد ببعض النماذج ومنها المباني العسكرية الممثلة في تحصينات القاهرة التي قام بها بدر الجمالي (شكل ٣٩) وزير أواخر الفاطميين ، وفي القلاع المتناثرة والتي ما زالت صلتها بالحروب الصليبية غامضة ، أما فيما يتعلق بالأضرحة فهناك المبنى الصغير المستدير الأرمني الأسلوب في أناضول السلاجقة والمبنى الكبير المملوكي بقبته المزخرفة ومآذنه المختلفة الأحجام إلى جانب النموذج التيموري الباذخ وقبته البيلية الشكل ، وهناك نماذج الحمامات والأسبلة التي تفوق فيها العثمانيون والتي أطلق عليها العرب ذلك التعبير الجميل « سلسبيل » وهو أحد عيون الجنة في القرآن ، وفي أناضول السلاجقة ايضا يوجد خان القوافل الضخم بفنائه المركزي الكبير أو اجنحته الثلاثية أو المغلقة وشارعه المحوري ، وهناك كذلك مقصورات الحدائق الصفوية وكباري أصفهان والذي يعتبر كوبري اللوردي خان بعقوده الثلاثة والثلاثين من أشهرها ، وهناك أيضا نموذج البيت المملوكي الذي يطل برقة وحرص على الطريق العام من خلال مشربياته .

لنتوقف عند هذا الحد لنلخص القول : لقد ولد فن الإسلام طوال ثمانية قرون مثلما ولد من قبل من خلال التركات واللقاءات والتبادلات ، وتتوسط إيران هذه اللوحة الفنية الضخمة وخاصة مدينة خراسان التي امتد تأثيرها إلى انحاء العالم الإسلامي الأربعة عن طريق المدن المحطات أو التقاطعات الرئيسية حيث اختلط بثقافات أخرى مثل ثقافة الغزنوية والغورية والسلاجقة واتباعهم ، ومع ذلك فقد كان على هذا الوجود الدائم لايران ان يتلاءم مع تحفظين : يرجع التحفظ الأول إلى الانفصال الكبير الذي يعزل المغرب عن المشرق والذي أدى إلى أن يقل تأثير الأساليب الايرانية على الإسلام الغربي ـ على الأقل حتى الفترة العثمانية ـ وسيطور الإسلام في المغرب ذلك الفن المبتكر الذي يطلقون عليه اسم الاسباني ـ (الموري) المغربي ، وهو فن يتطور حول معطيات تتضمن جزءا ايرانيا إلا أن أغلبيته العظمى تظل وفية للتراث « السوري ـ العربي » للمساجد ذات الأعمدة والمآذن المربعة المزخرفة بنوافذ وشبكات من الآجر ، وعلى أي حال فإن ما سيبقى هو فن المغرب المنطوي على نفسه والذي سيستمر في المقاطعات التي ستستردها اسبانيا المسيحية ، وهو معروف باسم الفن المدجن .

ونفس الشيء نراه في الطرف الآخر من الاسلام ، إذ لم تكن فارس مجهولة من العالم الهندي إلا أنها ذابت فيه كما سبق أن أشرنا ، في أساليب جديدة تميز الهند الاسلامية المتعددة الأشكال مثل الهند نفسها ، ونفس الملاحظة نراها في مصر المماليك وإن كانت بشيء من الاختلاف ، إذ ربما ترجع أصالتها إلى الانفصال الذي ادت إليه الفترة المغولية فيما بين النهرين . وعلى أي حال ومهما كانت الأسباب هنا وهناك فلا بد من القول بأن الأبحاث التي قامت بها وما انتجته من محاكاة للأساليب القائمة كانت تمثل التحفظ الثاني الذي واجه عظمة ايران ، ومن جهة أخرى فقد أدت في كل مكان تقريبا ، ووفقا لما صادفته من تراث ، إلى أساليب مبتكرة تقوم بتمييز كل عالم من عوالم الإسلام وكل حضارة من حضاراته ونعني مكانة فارس بالطبع (لوحة ٢٤ ب ، شكل ٩٢) ، لكن هناك ايضا المغرب والهند والمنطقة السورية المصرية التي تعيش بحركة لا تهدأ ، ومصر التي ورثت عالم السلاجقة والزنج ، ثم سوريا بدورها ومصر المماليك ، وأخيرا الأسلوب العثماني الممتد إلى مجمل البلدان المجتمعة تحت حركة الباب العالي ، والدليل على مثل هذا الانتشار المساجد ذات القباب في سوريا (ومنها مسجد السليمانية الشهير في دمشق الذي شيد على تصميم سنان) ثم مساجد تونس والجزائر ، وقد احتفظت هذه المساجد الأخيرة بالأسلوب الإسلامي وظلت وفية للأسلوب التوحيدي لفنها ، وباختلاطها بأوربا القرن الثامن عشر بدأت تضفي عليها بعض زخارف العصر الباروكي مثلما حدث في اجنحة السلطانة الأم والدة سليم الثالث في قصر توب كابي ، ثم يأتي تأثير الطراز الامبراطوري « الأمبير » وكان أقل منه نجاحا .

الفنون الصغرى

مرة أخرى نحدد أننا لم نستخدم هذا التعبير إلا لعدم وجود ما هو أفضل منه ، لأن الفنون « الصغرى » أولا قد بدأت في المسجد وفي القصر الامبراطوري أو الأميري وذلك بأعمال الحجر او الآجر المعروفة باسم المقرنصات ، في مساجد فارس التي امتد تأثيرها حتى اسبانيا ، وكذلك بأعمال الجص والملاط أو الزخارف المنقوشة على الحجر مباشرة أو بالتبادل بين الحجر والآجر دون التحدث عن الأحجار الغالية مثل الرخام او الجواهر المستخدمة في الآثار الهندية .

وينتمي استخدام السيراميك (الرابي) الى زخارف البذخ الشهيرة في

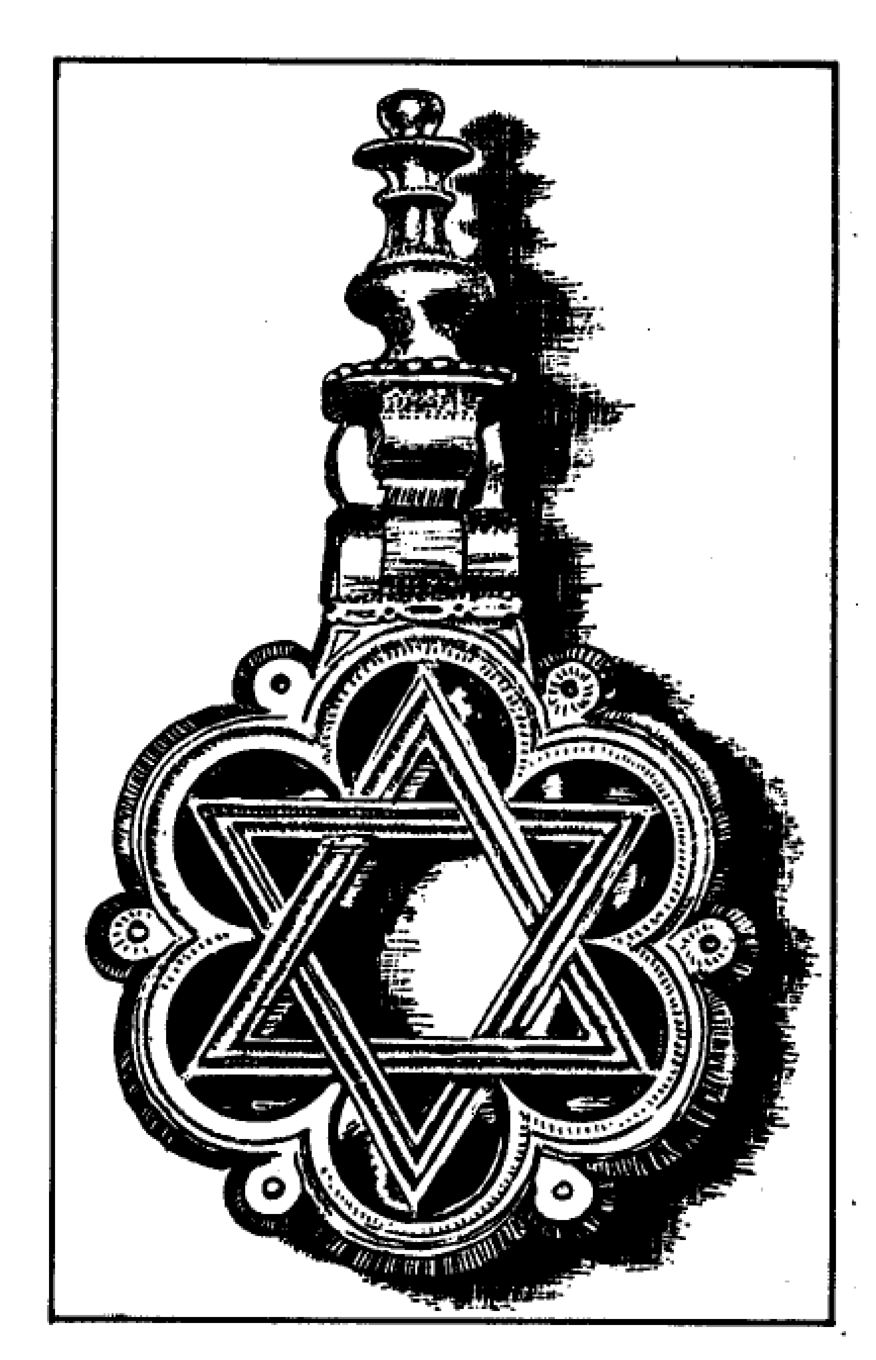
القرن الثالث عشر بألوانها ذات البريق المعدني أو الذهبي المائل إلى الخضرة ، ومنها زخارف الكاشان في فارس أيضاً والشهيرة بألوانها الزرقاء الداكنة ووحداتها الزخرفية النباتية وزخارف الاينيك بين استانبول والبروسة ، بألوانها الحمراء القرمزية ووفرة وواقعية نقوشها التي تمثل اشجار السرو والكروم والزهور وأخيراً الزخارف الأسبانية المشهورة بالحفر على الخشب والمينا ، ومن الأعمال النبيلة أيضاً الحفر على الخشب الخاص بالأبواب الضخمة وأعمال الزجاج ، وتمتلك مصر المماليك نماذج رائعة من المشكاوات المصنوعة من الزجاج المزخرف بالمينا ، في حين انتشرت اعمال الزجاج المعشق بالجص والمزخرف بوحدات خطية أو هندسية أو نباتية في الفترة العثمانية .



شكل ٦٢ - خط تركيا هيئة طائر اللقلق ، القرن الثالث عشر

وكل هذه الفنون لا تخص الزينة وحدها وإنما تخدم الحياة اليومية أيضا (لوحة ٢٧ ب ، وشكل ٦٣) أو هي في واقع الأمر تنقل أعمال الزينة إلى قلب الحياة اليومية ، فكيف يمكن أن نطلق عليها اسم الفنون الصغرى في الوقت الذي تدل فيه على احساس مرهف بالحياة ، حتى وإن لم يخص سوى الطبقات العليا ؟ . . إن الحجر والخشب والسيراميك والزجاج تمثل جزءا من الزخارف التي تحيط بهؤلاء القوم جنبا إلى جنب مع أعمال الجلود في سوريا أو اسبانيا ، وأعمال العاج والمعادن ومنها أعمال النحاس الشهيرة في الموصل وفي دمشق .

وماذا يمكننا قوله عن النسجيات (شكل ٥٧ الى ٦٠)؟ لن نقول سوى كلمة للاشارة إلى قفاطين الحرير الموشى بالذهب الموجودة في متحف استانبول



مطرقة باب من النحاس ـ المغرب ـ القرن الثامن عشر

وزخارفها الرائعة القائمة على وحدات نباتية ، لكننا سنتوقف بشكل أطول عند السجاد المعقود (لوحة ٧) والذي يبدو أن ازدهار مرتبط بالهجرات الكبرى للرحل في آسيا الوسطى ، وإن كانت نماذجه الأولى المؤكدة لا ترجع إلى أبعد من القرن الثالث عشر ولا شك في أن السلاجقة هم الذين أخذوا فكرته من تركستان العربية وقاموا بنشرها ابتداء من القرن الحادي عشر .

وأيا كان الأمر فإن مراكز تصنيع السجاد ستتضاعف مع الوقت ، فقد عرفت الأناضول في القرن الخامس عشر السجاد برسومه الهندسية، ومصر في القرن الخامس عشر أيضاً كانت تصنع السجاد المعروف باسم الدمشقي بوحدات زخرفية منقولة عن النسجيات القبطية، أما في فارس الصفويين فقد كان السجاد في تكوينه وموضوعاته مشتقاً من رسوم المنمنمات لكنه تقليد شديد الروعة ولا يقل عن الأصل المنقول عنه، وهو سجاد تبريز وكيرمان وكاشان، وهذا النوع الأخير مصنوع من الحرير المذهل في رقته، إذ سيصل إلى مليون عقدة في المتر المربع، وأخيرا فقد عرفت الفترة العثمانية التي احضرت العمال من أذربيجان التي غزتها إلى كل من استانبول والبروسة ، أسواقا جديدة تنفتح في المدن التركية للانتاج المصري ، إذ أن أشهر أنواع السجاد « التركي » كانت تصنع في القاهرة ، وكان هناك مركز آخر لصناعة السجاد في أوشاك حيث كان ينسج سجاد اسمه « أزمير »،

أما اسبانيا التي عرفت السجاد منذ القرن الثاني عشر فقد طورته في القرن الخامس عشر ووصلت به الى نموذج مبتكر ، طولي الشكل ، مزخرف بوحدات من شعارات نسب الأسر .

أما فنون الكتب فقد تأثرت بزخارف المنمنمات التي ازدهرت في فارس الصفويين وهند المغول إلا أنه يجب أن نضيف إليها تنويعاتها التركية المعروفة باسم سياح كالم (القرن الخامس عشر) وهي مبتكرة بشكل يفوق التصور وتقترب أشكال زخارفها من الموضوعات المأخوذة عن بادية آسيا وروحها .

لكن كيف يمكننا أن ننسى فن الخط العربي (شكل ٦٢) ذلك العلم المقدس بما أنه يتعامل مع أداة النبوة نفسها ؟ . . ومثلما تعد الزخارف الخطية حلية لا بد منها للمساجد فإن معالجة الخط بأشكاله المختلفة يعد فنا حقيقيا ومن أكبر الفنون ، ولقد كان له دائما فنانوه ، فبعد خطاطي الفترة العباسية الجميلة وخاصة الريحاني وابن مقلة (القرن التاسع ـ العاشر) هناك ياقوت المستعصم في العراق في القرن الثالث عشر ، ومحمد راوندي ومير علي من تبريز بالنسبة لايران ، فيما بين القرنين الثاني عشر والزابع عشر ، ثم علي رضائي عباسي بالنسبة لفترة الصفويين ، وأخيرا في تركيا العثمانية فهناك العديد من الخطاطين نذكر منهم اشهرهم وهما حمد الله (المتوفي عام ٩٣٦/ ١٥٣٠) والحافظ عثمان (١١١٠/١٦٩٨)

أما الموسيقى فقد استمرت في الاستفادة من الأبحاث النظرية التي قام بها صفي الدين (عبد المؤمن بن فاخر المتوفي عام ٦٩٢/ ١٢٩٤) وفي حقيقة الأمر فإن هذه التأملات سواء تمت تحت أسماء عربية أو فارسية أو تركية فقد كانت تنهل دائما من كبار الرياضيين الفلاسفة ومن التراث اليوناني الذي نقله الفارابي فيما بين القرن التاسع والعاشر ، والبحث أيضا يدور حول التكرار ولكنه لم يخب إذ أن الموسيقى في الاسلام مثلها في أي مكان آخر لا تعتمد على الفكر فحسب وإنما على العزف (شكل ٦٤)

ان السحر والتصوف والقصة الملحمية وأغاني الغزل استمرت في إثراء ما نطلق عليه حتى المغرب « الموسيقى الشرقية » كما أضفت عليها الحياة طابعها المميز . . . الحياة القوية التي تتحدى حتى يومنا هذا التنبؤات المتشائمة القائلة



شكل ٦٤ ـ موسيقي ، طبق من الفضة ، فارس ، القرن الحادي عشر .

بخمودها القريب خاصة في المغرب ، والتي تشدق بها بعض أصحاب النظريات الأوربيون في بداية هذا القرن ، وهذا الطابع الذي لا جدال عليه يجمع بين العرب والفرس والأتراك في موسيقى تختلف كلية عن الموسيقى الغربية ليس من ناحية النظريات ، وإنما بسبب السلالم الموسيقية المخففة وتفضيلها لألفة النغم واللحن على المصاحبة الهارمونية ، وتفضيلها الصوت الصادر من الرأس على الصوت الصادر من الصدر ، وهنا ايضا عرف الإسلام كيف يحافظ على الطابع المميز لحضارته بلا تخاذل رغم نقاط اتصاله بالحضارات الأخرى .

٥ ـ الشرق والغرب

سبق أن أشرنا إلى أن الاسلام لم ينشر عن طريق السلاح فقط ، فلقد أعطى

للغرب ـ في القرون الوسطى على الأقل ـ بعضا من روائع تراثه ، ولهذه النقطة بالذات تاريخ عريض مختلط ولم تفك كل خيوطه المتشابكة بعد ، ومن جهة أخرى فهو تاريخ لا ينتمي إلى الاسلام إلا قليلا نظرا لأن الإسلام كثيرا ما يتشكل ويتغير ، ويبدو في نماذج وصيغ جديدة ، وقد ينسى نفسه أحيانا أثناء رحلاته الطويلة ، وفي هذا الكتاب الذي يعد أولا وقبل كل شيء قصة مغامرة الاسلام من وجهة نظر مسيرته ، فلن يمكننا تحديد موضوعات وحدود هذه التغيرات إلا بشكل موجز .

وسائل الانتقال : الحرب والسلام

إن التبادلات بين الاسلام والغرب تمر اساسا عن طريق التجارة ، كما أنها تتم أحيانا من خلال ذكريات المبشرين أو الحجاج المسيحيين الذين يحضرونها معهم من رحلاتهم الطويلة أحيانا إلى بلاد الشرق ، وذلك مثل أديلار دي باث (فيما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر) فقد تجول في بلاد المشرق بين مراكزه الحيوية في مجال التبادلات وهي سالرن وصقلية ، ومن ناحية أخرى فإن السلام يكون عاصفا أحيانا مثل ذلك السلام القائم بين البندقية والمماليك ، وقد توترت العلاقات بحيث أدت الى تدخل أوربا لتنتقم لمصالحها المغبونة ولهلاك تجارها ، وذلك عن طريق غزوات مذهلة ، وتعد هذه الغزوات اساسا ذات طابع مالي إلا أنها مختفية تحت زعم ستار السياسة والدين .

ورغم كل شيء فإن التبادلات سواء كانت تجارية أم خاصة بمجالات أخرى ظلت مستمرة في طريقها وإلى جانب هذه التبادلات لم يكن لاستيطان الغربْ أيام الحملات الصليبية إلا تأثيرات طفيفة ، كما سبق أن أشرنا ، فيما عدا مجال الهندسة العسكرية ، وإن كنا وما نزال نجهل الكثير عن عدة نقاط وخاصة عمن أعطى ومن أخذ . . .

وهناك معطية أخرى منعزلة أيضا هي طواحين الهواء التي يرجع أصلها إلى أعالي هضاب إيران والتبت ، ثم قام الإسلام بنشرها حتى اسبانيا وأوربا ، ثم عادت إلى سوريا مع الغزاة المسيحيين ، ومن الحالات المنعزلة ايضا حالات العلماء الذين يعرفون العربية ويجيدون ترجمتها في بلدان الحروب الصليبية ، وذلك مثل

اديلار الذي سبق أن أشرنا إليه ، وأتيين دي بيز والمعروف أيضا باسم أتيين الأنطاكي .

ومع ذلك فلا ينبغي لنا أن نعمم الجانب السلبي أو الذي لا قيمة له بالنسبة للفتح ، إذ سيكون من نتائجه في صقلية مع النورمنديين وخاصة مع اسبانيا « الاسترداد » أجبار الشعوب الإسلامية على أن تعيش تحت السيطرة المسيحية ، وكان رجال الدين المسيحيون الغربيون يجيئون إلى هذه الشعوب الإسلامية ليأخذوا عنها العلم والمعرفة بشغف شديد ، ويحدد الاستيلاء على طليطلة نقطة تحول حاسمة لهذا التاريخ وذلك بتعزيز ترجمة الأعمال العربية إلى اللغة اللاتينية وخاصة إلى اللغة العبرية ، وهكذا ستتولد حركة نشطة وواسعة يساندها بعض الحكام مثل الفونس العاشر (النصف الثاني من القرن الثالث عشر) تهتم أساسا بالفلسفة وعلم الفلك والطب كما ستؤدي إلى تغذية يقظة الفكرالغربي إن لم تكن قد خلقته خلقا ، ومن بين هؤلاء المترجمين الذين لا يكلون لنذكر على الأقل اسم قسطنطين الأفريقي ، مؤسس مدرسة الطب في سالرن والذي توفي في جبل كاسين عام ١٠٨٧ ، واسم جيرار دي كريمونا المتوفي في طليطلة عام ١١٨٧ ، وعائلة ابن تبون اليهودية التي تمثل نقطة وصل هامة بين اسبانيا وجنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ولنترك مجال العلوم والفلسفة العربية في الوقت الذي راحت تتفتح فيه في أشكال غربية صميمة بفضل ثلاثة من المترجمين : ليونار دي بيز ، وأرنو دي فيلنوف ، وريمون لول .

المعرفة : نعم ، التفاهم : لا
على الأقل لمدة طويلة

إن الذي راح الغرب يبحث عنه من خلال هذه التراجم ابتداء من القرون الوسطى هو العلم اليوناني وليس أي معرفة بالاسلام في حد ذاته ، وذلك من خلال المعطف العربي الذي راح يسلبه بدقة واضحة في قواميس جيوم بوستيل أو اربنيوس ، وبالطبع يمكننا العثور هنا او هناك على بعض الحالات البارزة ولكنها منعزلة لمفكرين متطلعين بصدق إلى معرفة الناس الذين في مواجهتهم ، وهناك بعض الموضوعات من العقائد الغيبية الاسلامية (كالبعث والحساب) قد تطرقت

الى « الكوميديا الآلهية » إلا أنهم جميعا ـ من أي مكان كانوا ـ مقتنعون تماما بروعة الدين الذي ينتمون إليه .

وربما كانت هناك أمام الشرق والغرب فرص أوسع لكي يتعرف كل منهما على الآخر ، على مستويات أقل سموا من المستوى الديني مثل مجال التجارة وتبادل المصطلحات والنباتات أو الأساليب التقنية أي في تعبير واحد : من خلال مختلف عناصر الحياة اليومية ، مثلما حدث في إسبانيا حيث كانت تتجاور شعوب مختلفة الجنسيات ، وهنا سنشير في هذه الحالة إلى تأثير اللغة العربية على اللهجات الاسبانية وخاصة على بعض اللهجات العامية المكتوبة بالحروف العربية والتي يطلقون عليها اسم « العجمية » أي لغة البربر . وكان التأثير الذي بدا على فننا الروماني أوضح بكثير ، فقد أعطى الشرق واحدة من أهم مكوناته للفن الروماني ، وهي ليست العناصر الزخرفية النباتية فحسب والتي نراها في أعمال أميل مال وفي كل من.مدينة قطالونيا وروسيون والممثلة بوضوح في الوجود الفعلي لبعض الفنانين الأسبان المسلمين ، فلقد قام الأمويون بتعليم العمال المسيحيين « الذين كانوا يجهلون فن تقطيع الحجر وفن نحته ، كما قاموا بتعليمهم فن النحت وفن تكوين تيجان الأعمدة الضخم »

ومع ذلك فهنا أيضا قام التاريخ بحسم الموقف في موضوعات الحياة اليومية لصالح الصراع : إذ يمكننا متابعة هذا الانحلال ابتداء من خلافة قرطبة وروح التسامح التي ما زالت ممارسة في المقاطعات التي تم استردادها من قبل الأمراء المسيحيين المعاصرين لمسرحية « السيد »، حتى أغاني الشعراء المتجولين حيث تنعكس فيها ذكريات السلام والاحترام المتبادل الذي يجاور الكراهية « المعلنة » للعربي « الاسماعيلي» ولمحمد ، إلى جانب التفاخر بالحروب الصليبية (لوحة ٢٨ جـ) في الشرق أو في الغرب وتلك النهاية الحزينة الممثلة في طرد المغاربة ، وإجمال القول أنه عندما كان الأمر يتعلق بمحو أي أثر مادي للاحتلال العربي السابق كان ذلك يتم بلا أية رحمة ، حتى وإن كان يقوم بتنفيذه احد الموالين للعرب مثل فريدريك الثاني الذي كان من المعجبين بالملكية المطلقة على الطريقة الشرقية ، وحليفا للملك الأكمل الأيوبي الذي أسلم له القدس بلا أية مقاومة ، كما كان من المخلصين للثقافة العربية ، وقد جمع في صقلية ـ التي كان ملكا عليها ـ لفيفا من

العلماء الأوربيين والعرب أو اليهود كما كان على صلة بالشرق واسبانيا المترجمين ، إلى جانب شغفه بعلم تربية الصقور وعلم الفلك وعلم التنجيم والبصريات والرياضيات والميتافيزيقيا ، وكلها علوم اسلامية .

وبدأت مرحلة جديدة ابتداء من القرن الخامس عشر ، ومن الحالات الشهيرة : الفنانون الغربيون في بلاط استانبول والمصور جنتي بلليني على رأسهم ، ثم التقليد التركي للفن الأوربي للقرن الثامن عشر ، أو تلك المسيرة الطويلة لفن التصوير الايطالي والحفر الألماني حتى هند المغول الكبير وفي الاتجاه الآخر كان الاسلام العثماني أو المغربي يقوم بوحي بعض الموضوعات الفنية ، وبدأ فن التصوير يعبر عن المغامرة الثقافية للتلاقي مع الشرق (مثل لوحة « الفلاسفة الثلاثة » للفنان جورجوني) وكان الايحاء بالموضوعات الحربية أكثر انتشارا مثل « معارك المور » في الفن الاسباني والتي امتدت حتى الأمريكتين ، وكذلك الصراع ضد الأتراك ، ويعد الفنان ليبانت من أشهرهم فقد كانت موضوعاته مستوحاة من الشعائر الكاثوليكية ، وراحت تنتشر في كل مكان حتى على جدران الكنائس الألمانية في العصر الباروكي ، وخاصة كنيسة النصر في مدينة انجولتشاد ، ولم يتوقف التأثير الاسلامي عند هذا الحد بل امتد إلى الزخرفة المعمارية حيث نرى آثارا واضحة للقباب الإسلامية ذات التعاريق ومآذن الموحدين ببلاطها القيشاني المتعدد الألوان وأقواسها المركبة والمحراب المميز لقرطبة ، كل ذلك نرى اصدءه في كنائس سان لوران في تورينو (لوحة ١٢٨ ، ب) وفي سان فرانسوا دي كالي في كولومبيا أو في الكنائس الأسبانية وخاصة في تصميميات ب ـ. شاربنترا ، ومن جهة أخرى فقد اغرق الذوق الأوربي بشتى التأثيرات التركية في المسرحيات والأزياء والأسلحة الشرقية ، وأصبح الوحي الشرقي « موضة » العصر ، وامتد تأثيره حتى مآذن تلك المساجد المقامة في بولندا حيث يختلط التأثير الصيني مع الإسلامي في خيال مبدع .

ورغم كل شيء ، وسواء كانت هذه التأثيرات جدية أم عابرة فإنها لم تتعد كونها تطبيقات سريعة شكلية ، لكنه لا تبدل من ملامح المجتمع الذي يتلقاها ولا تتوغل في معرفة المجتمع الذي يوحى بها ، وينعكس هذا الاتجاه بشكل أوضح في انتقاله من أوربا إلى تركيا ، فقد كان الشغف العثماني بالفن الباروكي أو بزهور

التيوليب تعبيرا عن الأشكال الجمالية لرغبة المحاكاة ، أراد الباب العالي من خلالها أن يلحق بأوربا التقدم ، كما يحاول أن يصل إلى نفس مستواها في الثراء وفي الأساليب المستخدمة لكن دون أن يعدل جذريا من مقومات المجتمع الاسلامي .

ومع ذلك فقد ارتسمت في القرن الثامن عشر نقطة تحول كبيرة وحقيقية لكنها تعد تقريبا مبادرة من الجانب الأوربي إذ بدأت كتب كبار رحالة القرن السابع عشر من أمثال شاردان وتافرنييه تؤدي إلى تعاطف أكثر تأكيدا مع المجتمعات الإسلامية ، وقد زاد من هذا التعاطف نشر رواية « ألف ليلة وليلة » عام ١٧٠٤ ، الذي قام به الرحالة جان انطوان جالان ، وبدأت فلسفة عصر التنوير تتضافر مع هذه الحركة ، فبدأ كبار الفلاسفة بعرض حكمة الشرق وفلسفته « الطبيعية » في مواجهة « علم الأخلاق المخادع الغربي »، وإن لم تؤد أعمال كل من مونتسكيو وفولتير وليسنج إلى خلق حركة التنوير فعلى الأقل قد قدمت لها المؤشرات والموضوعات اللازمة والتي راحت في الوقت نفسه تثبت أن عصر الأحكام المسبقة والانغلاق قد انتهى .

أما حركة المستشرقين بمختلف أشكالها والتي بدأت تتفتح في أواخر القرن الثامن عشر فتعد من أهم الحركات الفكرية ، نظرا لما اتصفت به من روح المعرفة العميقة والموضوعية مثلما في أعمال فولني ، وقد ولد استاذه سلفستر دي ساسي عام ١٧٥٨، وفي العاشر من شهر جرمينال (الحصاد) من العالم الثالث للثورة تم تأسيس « مدرسة اللغات » أو مدرسة اللغات الشرقية التي حلت محل مدرسة المترجمين القديمة .

وباستثناء ذلك الحدث الذي يعلن عن العصر الحديث فلا بد لنا من أن نلاحظ ـ في هذه الفترة الطويلة الممتدة من القرن الحادي عشر حتى القرن الثامن عشر ـ إنه إذا ما كانت موازنة التبادلات إيجابية بلا شك ، فقد كان في استطاعة الغرب والإسلام أن يفيا بوعودهما ، ترى ما الذي كان سيحدث إذا ما تحقق بينهما تفاهم أعمق من ذلك ؟ . . . ترى ماذا كانت تكون النتيجة إذا ما عرفت المطبعة في العصر العثماني نفس الحظ الموفق الذي عرفته أوربا ؟ . . ترى ما الذي كان سيحدث إذا ما تغير مجرى الملاحة الإسلامية الغزيرة الخبرات والمعلومات البحرية

والتي يعمل فيها فريق من البحارة المهرة الذين قاموا بتحسين البوصلة في أواخر القرن الحادي عشر ، ذلك الفريق الذي يتزعمه البحار ابن ماجد الذي قاد خطوات فاسكو دا جاما ، نعم .. ترى ما الذي كان سيحدث ؟... ما الذي كان سيحدث إذا ما قامت هذه البحرية بتحطيم دائرة عاداتها ونظرت إلى ما هو أبعد من منطقة الرياح الموسمية وتخطت حدود الروتين النفعية في الجنوب الغربي ، أو بتعبير آخر إذا ما تعدت مدينة الموزمبيق التي تعتبر أبعد نقطة استثمار لتجارة الذهب والعبيد ؟

إن هذه الموضوعات كلها ليست إلا فرصا قد ضاعت من التاريخ ، لكن .. لنتوقف عند التاريخ نفسه ، ولنعد إلى الإسلام وحده لنصل إلى خلاصة محددة ، وذلك يبدأ بسؤال أساسي هو : هل كان هناك انحلال اسلامي فيما بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر؟... لن نجيب على هذا التساؤل إلا بحرص ، ففي الواقع إذا ما تحدثنا عن انحلال فذلك لا يقال إلا بالنسبة للتقدم الذي عرفته أوربا التي راحت تسيطر تدريجيا على مسرح التاريخ العالمي ، فقد كان القرن التاسع عشر ما زال بعيدا ، لكن إذا ما حكمنا على الإسلام في حد ذاته ، إذا ما ادركناه في مستقبله الخاص ، فلن نفكر في الانحلال بقدر ما سنفكر في تغيير الشكل بانتصار السنية على قطاعات كبيرة من ارضه ، وفي الانقسام الذي حدث بين السنية في بلدان البحر الأبيض المتوسط والشيعية الفارسية ، وفي التطورات الجديدة التي عرفها الإسلام باتصاله بقارة أفريقيا السوداء والشعوب الهندية والماليزية .

ولقد تمت معظم هذه التحركات الكبرى في أغلب الأحيان على حساب العرب ، وهنا يجب علينا ملاحظة أن اللغة كانت تنقص كل الذين كانوا يرغبون في تعميق العقيدة الإسلامية ، ومع ذلك فقد اكتسب الإسلام العديد من الموالين له سواء في افريقيا السوداء أو في الهند ، وقد تمت هذه التقدمات دون أن يتورط في مجاله التقليدي ، ولعل البعض سيقول هنا أن ذلك يرجع إلى الآداب الفارسية أو التركية أو الأوردية التي تتمشى مع انبهار بعض الآداب العربية التي تدور حول التكرار وتكرار الأمجاد الماضية ، لكن كل ذلك ليس بالنسبة للمستقبل سوى رصيد ضخم ، وإن هذا الموقف الدفاعي وهذه المحافظة الغيورة على التراث القومي

ستؤتى ثمارها ـ كما سنرى ـ مع « عصر النهضة العربي » في أواخر القرن التاسع عشر .

إن الاسلام الذي تعد اللغة العربية تعبيره المميز قد أصبح أخيرا مطابقا لها ، ولقد كان بحاجة إلى قدرات خارقة ليتمكن من مقاومة وامتصاص الصدمة المغولية واحتواء الانطلاقة المسيحية ، ولقد كان الاسلام من القوة بحيث أمكنه التغلب على الصعاب التي تعرض لها بحكم موقعه التقليدي كملتقى طرق ، فقام بتوسيع حدوده وتعويض ما يعاني منه من نقص سكاني (ديموغرافي) بالفتوحات الجديدة وذلك سيدل على أننا لا نستطيع الحكم على حضارة ما ، وعلى الأخص حضارة الاسلام ، من حيث مواردها الطبيعية فحسب متناسين الاستفادة التي تستطيع وحدها دون سواها أن تحصل عليها .

ففيما يتعلق بالاسلام عشية أحداث ومحن القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فلقد كان أكثر استعدادا مما أراده له الغرب ، وأكثر مما يريده له اليوم ، بل وأكثر مما يتخيله . . . .

الباب الرابع

الامبريالية وعصر النهضة العربي
من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين

الفصل الأول

الأوجه الأخرى للإسلام وانتفاضات في منطقة البحر الأبيض حتى عام ١٨٨٠

إن الفترة التي تبدأ بسفر بونابرت إلى مصر (مايو ١٧٩٨) تعد نقطة تحول حاسمة في تاريخ الإسلام : حاسمة بالنسبة لمعنوياته التي اهتزت من الصدمة الضخمة التي لحقت به بعد ذلك إذ لم تكن بنفس الحسم فيما يتعلق باستتبابه أرضاً ، وقد اضطر المسلمون إلى تحديد موقفهم بالنسبة للغرب الذي كشف عن نفسه بسفور وبلا قناع ، وهم يجابهونه على أراضيهم وتعد هذه الفترة فيما يتعلق بالإسلام فترة إضطرابات ومراجعة للنفس وتساؤلات حول المصير .

١ - إنتصار الامبريالية

وقد اضطر الإسلام طوال فترة الاعقاد الثمانية الأولى من القرن التاسع عشر إلى القيام بسلسلة تنازلاته الطويلة أمام طموحات القوى الأوروبية الكبرى التي تكونت صراعاتها اللانهائية من أجل مصالحها في هذه المنطقة من العالم وقد تعورف على تسميتها « بالمسألة الشرقية » وتسيطر دولتان على هذه المرحلة الصعبة من التاريخ هما تركيا « التنظيمات » ومصر ما قبل الاحتلال البريطاني إلا أن الإسلام كظاهرة إجمالية كان يخرج عن نطاق هذه التجسدات الخاصة مهما كانت مميزة إذ أن إتجاهاته الجديدة ـ العصرية بالطبع ـ كانت تهم إستمراره الجماعي مثلما كانت تهم حياة هذه الأمة أو تلك من أممه .

المسألة الشرقية الرتيبة من مؤتمر إلى مؤتمر

ما أن هدأ الصراع نسبياً ضد فرنسا الثورة وفرنسا الامبراطورية حتى عادت

المنافسة بين إنجلترا والنمسا إلى نفس حيويتها . وكانت استانبول تمثل عقبة بالنسبة للجميع ـ وذلك فيما يتعلق بالمضايق بالنسبة لسان بطرسبورج وفيما يتعلق بالانطلاقة نحو الدانوب والبلقان بالنسبة لفيينا وفيما يتعلق بالسيطرة التامة على الطريق إلى الهند بالنسبة للندن .

ولم تكن فرنسا ـ سواء في عهد نابليون أو غيره ـ مستعدة للتخلي عن القواعد الأساسية لسياستها الخارجية المتمثلة في مصر كمفتاح للتجارة مع المحيط الهندي ، وفي علاقاتها مع الباب العالي ، وفي إهتمامها بالشعوب المسيحية في الشرق .

ترى ما هي النتائج التي أدى إليها ذلك التاريخ ؟ أو بمعنى أصح تاريخ أوروبا بالنسبة لخريطة السلطة الإسلامية ؟ فمنذ معاهدي سفيتشوف واياسي (١٧٩١ ـ ١٧٩٢) تحددت الحدود التركية في أوروبا بالبلدان التالية : مونتنيجرو ، وصربيا ، وفلاكيا ، ومولدافيا ، وبسارابيا التي تم التنازل عنها لروسيا عام ١٨١٢ ، وفي عام ١٨٢١ إندلعت الثورة اليونانية التي انتهت بمؤتمر لندن (فبراير ١٨٣٠) حيث تم إعلان إستقلال اليونان ، وذلك بعد مأساة نڤارين البحرية (عام ١٨٢٧) .

وحينما وضع مؤتمر باريس (عام ١٨٥٦) حدا لحرب القرم إنتزع من الباب العالي ـ الذي كان حليفاً لانجلترا وفرنسا ضد روسيا المنهزمة ـ كلا من مولدافيا وفلاكيا اللتين ستتحدان بعد قليل في دولة جديدة هي رومانيا أما مؤتمر برلين (عام ١٨٧٨) الذي انتصر فيه التوازن الجديد لاوروبا البسماركية ، فلم تكن له عواقب أقل جسامة ، فقد اعتمد أو تنبأ بالتنازلات التالية : مقاطعة كار الأرمينية إلى روسيا ، والبوسنة إلى النمسا ، وتساليا إلى اليونان ، ودوبروجا إلى رومانيا ، وقبرص إلى إنجلترا ، كما أعلن عن إستقلال كل من مونتنيجرو والصرب .

ولم تكن هذه القيود الهائلة للسلطة الإسلامية في أوروبا تمثل كل الأحداث ، إذ أن البلدان الأجنبية ـ كما سنرى ـ كانت تعمل فيما وراء الحدود التي كانت نصوص المعاهدات تحددها بالنسبة للامبراطورية العثمانية . وسرعان ما اصبحت هذه الامبراطورية لا توجد على رقعة الشطرنج الأوروبي إلا من خلال لعبة القوى الكبرى التي كانت تحاول إجتذابها إلى صفها ، وبدأت الامبريالية

تعمل بحسم أكبر في كل مكان إبتداء من المقاطعات التي لم تكن تخضع لسلطة الباب العالي بشكل مباشر ، وسواء كان الأمر يتعلق بالوصول إلى المناطق الحيوية للمحيط الهندي أو باستثمار أفريقيا فأن أوروبا راحت تخضع الإسلام عندما تجده في طريقها أو تتخطاه أو تسيطر عليه .

الإسلام بين أوروبا والهند

منذ معركة بلاسي ـ بجوار كلكتا ـ عام ١٧٥٧ بدأ غزو انجلترا للهند يتزايد بالسرعة التي كانت تسمح بها ضخامة إتساع هذه الدولة التي تحاول السيطرة عليها . ومنذ عام ١٧٦٥ بدأت « شركة الهند الشرقية » تدير بلاد البنغال ومساحات كبيرة من الساحل الشرقي لهضبة الدكن . وبعد قرن تقريباً كانت إنجلترا تسيطر على مجمل هذه القارة وعلى سيلان ، وذلك بشكل مباشر أو تحت ستار الحماية ، وبعد غزو البنجاب عام ١٨٤٩ آخر فصول هذه المهمة المهولة .

ولم يتم إخضاع الهند بلا مصاعب ، ففي الداخل كان لا بد من السيطرة على الثورة العنيفة للجنود المواطنين ـ السيباي ـ وذلك عن طريق اللعب على تنافس الشعوب وطوائفها المختلفة ، والاحلال نظام « مكتب الهند » ومندوب الملك ممثل التاج البريطاني في كلكتا محل نظام « الشركة » أما في خارج البلاد فقد أدت ضرورة حماية المداخل المختلفة للهند بالانجليز إلى إحتلال عدن (عام ١٨٣٩) ثم إحتلال بورمانيا والتوغل تجاه التبت بغية تأكيد وجودها الفعلي على أراضي الخليج الفارسي وجنوب شبه الجزيرة العربية . كما أصبح من الضروري السيطرة على مصر بعد شق قناة السويس (عام ١٨٨٢) وذلك دون التحدث عن قبرص التي سبق لتركيا أن تنازلت عنها قبل ذلك بأربعة أعوام .

وعلى هذه البحار الحيوية بالنسبة لتجارتها ، راحت إنجلترا تواجه الوجود الهولندي المسيطر على مجموعة الجزر الأندونيسية ـ كما راحت تواجه فرنسا بصفة خاصة ـ إذ أن إستقرارها في الهند الصينية كان يدعم دورها كقوة تقليدية في المحيط الهندي ، فقد كانت تحاول أن تذكر انجلترا أن هذه الطرق كانت ملكا لها أيضاً ، مما دفعها إلى مراقبتها أو السيطرة على بعض المداخل المؤدية إليها . فلم يكن تدخل فرنسا عام ١٨٦٠ في بلاد المشرق لانقاذ المسيحيين المارونيين من مذبحة الدروز يخلو من هدف أوسع من ذلك بكثير . . . على الأقل هذا ما رأته انجلترا مما

اضطر فرنسا إلى الإنسحاب . وبعد ذلك بعامين وعلى الطرف الآخر من عدن قام نابليون الثالث بشراء منطقة أوبوك تلك النواة التي ستصبح جيبوتي فيما بعد ، وأخيراً عام ١٨٦٩ كانت الامبراطورة أوجيني تفتتح قناة السويس .

كما كان لانجلترا هدف آخر هو : الاستيلاء على الهند من ناحية الشمال الغربي أو بتعبير آخر : وقف التوسع الروسي وتحديد كل من فارس وافغانستان في نطاق الأمر الواقع .

وبعد تحالف فينكنشتاين (مايو ١٨٠٧) الذي ضم إيران إلى فرنسا ضد روسيا وانجلترا ، فكان هذا العهد الجديد ـ على الأقل افتراضا ـ والذي بدأ بمعاهدة سلام تيليست ، يسمح لكل من نابليون والقيصر بالإشتراك في مداعبة أمل واحد هو السيطرة على الهند .

وما أن اختفى نابليون حتى دفع الضغط الروسي المنصب على إيران بتراجع الحدود حتى منطقة آراس (معاهدة تركمانشاي عام ١٨٢٨) وكان ذلك كافياً لاثارة غضب لندن على فارس ، الشديدة التأثر بالضغوط القادمة من الشمال ، وعندما أعربت أسرة قادار الحاكمة ـ التي استقرت في الحكم بعد وفاة نادرشاه ـ عن طيف غزو لافغانستان الغربية سرعان ما أعادت الحرب الخاطفة الأمور إلى نصابها وذلك عن طريق إتفاقية باريس (عام ١٨٥٧) .

وذلك لأن انجلترا كانت تراقب أفغانستان أيضاً . ففيما وراء تلك الحدود كانت هناك الامبريالية الروسية التي تؤكد خطاها ، ففي حوالي عام ١٨٨٠ كان القياصرة يسيطرون بشكل نهائي تقريباً على المناطق التي تكون اليوم الجمهوريات الاسلامية للاتحاد السوفييتي وبدأت لندن تتحرك ضد الصخب الأفغاني وضد التطلعات الروسية فقد استطاع الانجليز بحسم وقف ذلك التوسع التقليدي لهذه الأراضي العليا تجاه الهند ـ ذلك التوسع الذي بدأ يتضح على عدة مراحل أيام أسرة صادوزاي الحاكمة . وتدخل الانجليز في كابول نفسها عام ١٨٣٩ وعام ١٨٤٢ ثم عام ١٨٧٨ وكان على افغانستان أن تغامر منذ ذلك الوقت فيما بين الطموحات الانجليزية والروسية إلا أنها كانت اكثر ميلا إلى انجلترا بسبب قيام « دولة ـ مصد » تم الاتفاق عليها بين القوتين الأوروبيتين في المعاهدة المبرمة يوم ٣١ أغسطس عام ١٩٠٧



معركة المعسكر « مسكرة » مستوحاة من رسم ابينال

الإسلام في مواقعه الأولى في أفريقيا المحاصرة

ومرة أخرى نلتقي بانجلترا ـ كقوة في المحيطين لهندي والاطلنطي ـ في أفريقيا ثم لاحت في الصومال وفي سوقطرة ، واشتبكت مع البوير واحتلت مصر ، وبدأت تحدد معالم معاقلها الاستعمارية القادمة عن طريق ارسالياتها (إرسالية الجامعة في أفريقيا الوسطى عام ١٨٦٤) وعن طريق الشركات التجارية (شركة النيجر التجارية عام ١٨٧٨) أما إيطاليا فقد بدأت من جانبها بشراء ميناء عصب على البحر الأحمر عام ١٨٦٩ من أحد السلاطين المحليين مما يدل على تطلعات ستتبلور فيما بعد مع اريتريا والمغامرة الاثيوبية .

ورغم كل شيء وباستثناء مصر فأن أصعب محن أفريقيا قد اتتها من جانب فرنسا ، وعلى أي حال فأن الإسلام سيثبت وجوده كواحد من الأشكال الأساسية للمقاومة ضد فرنسا وضد التوغل الغربي وقد استطاع القائد الفرنسي فيديريب أن يقضي على زعيمين مسلمين هما : الموري محمد الحبيب وخاصة الحاج عمر الذي كادت قبائل التوكولير تنقذه باحباط محاولة الفرنسيين .

ترى ما الذي يمكننا قوله عن الجزائر وتونس ؟ إن تاريخ النظام الاستعماري

من وجهة النظر الفرنسية لا يجب أن ينسينا المصاعب التي تعرض لها الغزو (شكل ٦٥) ثم أستباب النظام الجديد ومنها ملحمة عبد القادر الثوري الشهير في الجزائر والذي تم قهره عدة مرات على أيدي القادة الفرنسيين أيام الامبراطورية الثانية إلا أنه ثار مرة أخرى عام ١٨٧١ بقيادة المقراني ثم هناك ثورة بومامة في جنوب وهران عام ١٨٨١ والثورة التونسية عقب توقيع معاهدة باردو (١٢ مايو ١٨٨١) وكل هذه الأحداث تعبر ـ على المستوى الحربي ـ عن ظاهرة عميقة وثابتة هي مقاومة الجماهير لشتى أنواع الاحتلال ، مثل الاستعمار على طريقة بوجو أو الامتصاص أو الحماية ـ وهناك مثل واحد له مغزاه : ففي عصر « المملكة العربية » أيام نابليون الثالث لم يتقدم خلال السنوات الخمس سوى مائتي طلب من المسلمين لقبولهم في حماية القانون الفرنسي .

٢ ـ تركيا بين حركات الاصلاح والتراث

إن الامبراطورية العثمانية الخاضعة لضغوط الغرب في أوروبا أو في تبعياتها البعيدة في الشرق الأوسط وفي شمال أفريقيا لم تقف موقفاً سلبياً « كالرجل المريض » مثلما تبدو في الكتب المدرسية فإذا نظرنا إلى تركيا من خلال استانبول فهي تعطينا صورة مختلفة هي صورة جسم يصارع ويقاوم .

مقاطعة صاخبة

إن الحدود التي فرضتها أحرف المعاهدات على أوربا العثمانية لا تحدد نطاق التدخلات الخارجية فدون أن نتحدث عن مسألة المضايق التي حسمتها إتفاقية عام ١٨٤١ الموقعة في لندن والتي تم تجديدها في مؤتمر باريس فإن الغرب قد تدخل في قلب الامبراطورية العثمانية من خلال المشاريع التجارية الكبرى ومنها مشروعات السكك الحديدية ثم بدأ تدخل الانجليز والألمان والفرنسيين والبلجيكيين وكانت تحميهم المعاهدات المبرمة غير العادلة ومنها معاهدات ١٨٣٨ التي تحدد قيمة الضرائب على تحركات البضائع بواقع ٥٪ من قيمتها وهي متجهة من أوربا إلى تركيا وبواقع ١٢٪ وهي خارجة في الاتجاه العكسي وكان من نتيجة ذلك ـ من بين النتائج العديدة الأخرى ـ إنخفاض سعر الحرير في أكثر من منطقة في مدى أقل من نصف قرن بنسبة ٩٠٪ .

كما سمحت حماية الأقليات بتدخلات أخرى فقد اعترضت فرنسا المرتبطة بدورها المميز في حماية الأماكن المقدسة والتي أسند إليها مؤتمر برلين رسميا مهمة حماية .الشعوب المسيحية في الشرق ضد روسيا التي كانت تسهر على مصالح الأرثوذكس أما النمسا فقد راحت تفرض حمايتها على كاثوليك البلقان بموجب الاتفاقيات المبرمة ضد روسيا .

وكانت نتيجة هذه التدخلات تطور « أمم » تخضع نظريا للباب العالي إلا أنها تحظى باستقلال متفاوت تحت حماية القوى الكبرى المرتابة فكانت بلغاريا في مؤتمر برلين مثلا تواصل سياستها الذاتية بين موسكو واستانبول بقيادة أميرها المسيحي مما اضطر السلطان إلى أن يعترف بانضمام رومانيا إليها سنة ١٨٨٥ وقبل ذلك في عام ١٨٦٤ وأثناء قمة التدخل الفرنسي ، نص أحد القوانين النظامية على إعلان استقلال لبنان كمقاطعة مستقلة يحكمها حاكم مسيحي بمساعدة مجلس إدارة منتخب يمثل مختلف الطوائف وفي عام ١٨٦٨ كان الدور على كريت التي حصلت على وضع مميز هو إدارة مشتركة والاعتراف باللغة اليونانية كلغة رسمية إلى جانب اللغة التركية كما نصت الفقرة ٢٣ من إتفاقية برلين على أن يستلهم الباب العالي من نفس الأساليب لحكم مقدونيا .

فمن جهة كانت ويلات بلغاريا المعرضة للجنود الاتراك غير النظاميين أما في المعسكر الآخر : معسكر الإسلام فكانت هناك ويلات نفي الشراكسة أو التتار الذين تطردهم الانطلاقة الروسية أو الرومانية أو البلغارية من حرب إلى حرب لذلك يشهد مولد القوميات البلغارية المؤلم على مقاومة الاعراق المختلفة المستندة بقوة على لغاتها وعقائدها ، تلك الحفنات التي تركتها الامبراطورية العثمانية تعيش في سبيل عدم اقلاق نظامها وخاصة النظام الضرائبي ، ومن جهة أخرى فأن إستمرار هذه الأقليات المحلية نلاحظه أيضاً في الإسلام ، وكانت هذه الأقليات تستمر بفضل مؤامرات الارستقراطية الدخيلة على البلد أحياناً ، أو بمساندة الغرب أو تواطئه ، وقد إنفجرت مثلاً في البانيا حيث تطلب الأمر استخدام السلاح عام ١٨٢٢ في مواجهة علي « باشا جانينا » الشهير الذي استقبل بايرون وقام بدور العاهل ولعب دورا أساسيا في إدخال اتباعه إلى الاسلام ، ونفس الصخب نراه في البلدان العربية ولا يجب أن ينسينا المثل المميز في مصر مختلف

المناطق في سوريا الدائمة الثورة ، ولا قلب شبه الجزيرة العربية العجوز حيث كانت الوهابية التي يصعب إزاحتها تحيى التاريخ المضطرب للاسرة الحاكمة السعودية في نجد .

الاستبداد المستنير

ولا يجب علينا أن نتخيل العثمانيين سلبيين وسط ديارهم المعرضة للخطر فلقد واجهوا الموقف بالسلاح أولاً ، ولا شك أنه لولا الثقل الضخم للقوى الأوربية الكبرى لاستطاع العثمانيون السيطرة كلية على البطولات اليائسة للأمم البلقانية ، ولقد كانت لقوة السلاح فاعليتها في مناطق أخرى خاصة في شبه الجزيرة العربية الشرقية وعلى طريق البحر الأحمر ، ففي عام ١٨١٣ قامت مصر أيام محمد علي الذي كان يعمل لحساب الباب العالي بانتزاع الأراضي المقدسة الإسلامية من الوهابية السعودية لاعادتها إلى حماية استانبول، كما دفع شق قناة السويس بالاتراك للتوغل إلى أبعد من ذلك ابتداء من عام ١٨٧٠ بدأت جيوشهم تدعم السلطة العثمانية في اليمن .

ورغم كل ذلك فالاصلاحات الداخلية في الامبراطورية هي التي تطلبت الجهود المضنية من هؤلاء السلاطين : سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وعبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) وعبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) وكان يساندهم كبار الموظفين الذين لا مثيل لهم وكبار الوزراء مثل علي باشا أو حكام المقاطعات مثل مدحت باشا .

إن إصلاح الامبراطورية الذي بدأ بشكل مكثف إبتداء من حكم عبد المجيد وخاصة في فترة التنظيمات يتميز بشيء منهجي وعظيم يدعو إلى الاعجاب فقد مست إعادة التنظيم كل شيء ، وبدأت بالجيش أولاً ، وللحد من رجعية الانكشاريةبدأ الاصلاح باعدامهم عام ١٨٢٩ ، وتم بعد ذلك استدعاء بعض الخبراء الأجانب الأوروبيين الذين أعادوا تنظيم الجيش بناء على قانون جديد للتجنيد (عام ١٨٤٣) بغية تكوين جيش عصري يعد أقوى الجيوش بعد الجيش البروسي فقد كان مكونا من ٣٠٠,٠٠٠ جندي عامل (وكانت مدة الخدمة خمس

سنوات) و١٥٠,٠٠٠ جندي احتياطي (لمدة سبعة أعوام مع تدريبات لمدة شهر سنويا) .

كما هبت رياح جديدة على مجالي العدل والقانون بإصدار التشريعات الجديدة وإنشاء محاكم تجارية وإعلان مبدأ أنه لا يجوز محاكمة أي فرد إلا بحكم القانون وضماناته والانقاص من دور المحاكم الدينية وسحب الدعاوي الجنائية وجزءاً من الاختصاصات المدنية منها .

أما إصلاح التعليم فاعتمد على فترة التعليم الاجباري لمدة ست سنوات على أن تتولى الدولة نفقات المدرسين وإنشاء جامعة في استانبول وبعض المعاهد في المدن الرئيسية ، وفي عام ١٨٦٨ تم إفتتاح معهد إعداد موظفي الدولة المقبلين هو « ليسيه جالاتا سراي » الذي كان يتبع أساساً النظام والادارة الفرنسية .

كما شملت التنظيمات قطاعات أخرى منها إعادة تنظيم الأقليات خاصة فيما يتعلق بالأقليات الأرمنية (١٨٦٠ ـ ١٨٦٣) والاسرائيلية (١٨٦٤) وإعادة تنظيم الجهاز الاداري من القمة إلى القاعدة وإنشاء مؤسسة مجلس الدولة ومحكمة للقضاء العالي ومحكمة مختلطة (للمسيحيين والمسلمين) وإنشاء إدارات وزارية ذات أسلوب أوربي تحت سلطة رئيس الوزراء الذي كان دائماً تحت رحمة السلطان وأخيراً إنشاء ولايات إدارية تحل محل الأيالة القديمة وتتبع استانبول بشكل مباشر على الأقل فيما يتعلق بالمالية إذ أن جباية الضرائب قد الغيت منذ عام ١٨٣٨ وكانت تدفع للدولة مباشرة .

ويجب علينا الاشارة إلى تلك الروح الجديدة حتى في العادات والتقاليد ، فابتداء من محمد الثاني بدأت الحلة الأوروبية والطربوش ينتشران بدلا من الثياب التقليدية وبدأ السلاطين ووزراؤهم يتحدثون اللغات الأوروبية وتم ترميم آثار أياصوفيا وإقامة مسرح وإصدار حولية أمبراطورية وتوج بنيان هذه الاصلاحات بالميثاق المسمى (جول ـ خانة) عام ١٨٣٩ الذي أدان الابتعاد عن القانون الإسلامي التقليدي معلنا أن كل الرعايا العثمانيين أيا كانت الاعراق التي ينتمون إليها وأيا كانت دياناتهم متساوون أمام القانون ويخضعون لنفس الضريبة فلم يعد هناك رعايا ذميون أو على الأقل لم يعد هذا التعبير يدل على مجرد الانتماء إلى ديانة أخرى معترف بها غير الإسلام .

نحو قومية تركية

لم يتم إدخال أوربا عصر التنوير ولا المبادىء النابوليونية في الهيكل القديم التركي التقليدي بلا مجازفات جسيمة فكثيراً ما أوقفت ردود الفعل في الأوساط الدينية عملية الاصلاح بشكل حاسم كما بدأت المقاومة تتجلى من خلال النصوص نفسها فهناك تنظيمات تنص على أو تدعم الطابع الإسلامي للدولة التركية مثل القانون العقاري لعام ١٨٥٨ أو القانون المدني لعام ١٨٦٩ المستوحي بشكل واضح من المذهب الحنفي .

إن استعراض مواد الستة والأربعين نصاً الصادرة فيما بين ١٨٣٩و١٨٧٩ توضح نقصاً هاماً في هذه التنظيمات إذ أن السياسة الاقتصادية لم يتم التعرض لها إلا وفقاً لقوانين عام ١٨٥٦ و١٨٦٣ فيما يتعلق بالبنك العثماني ولا يمكن لهذه الواجهة أن تخدعنا فالأزمة الاقتصادية وكانت مزمنة ولها اختناقات قوية فيما بين ١٨٦١ - ١٨٦٢ وفي عام ١٨٧٦ أدت إلى تسليم إقتصاديات الدولة المفلسة إلى الخارج وتم تأسيس صندوق الدين العام العثماني عام ١٨٨١ بإدارة فرنسية انجليزية مستوليا على عائد بعض الاحتكارات مثل الملح والطباق والطوابع والدمغات والكحوليات والحرائر في مقابل رؤ وس الأموال المودعة واستكمل هذا النظام بمنح هاتين الدولتين وغيرهما مختلف التنازلات في المجالات التعدينية والمرفأية والمناجم وكانت معفاة من كافة أنواع الضرائب فيما عدا الرسوم الجمركية على المنتجات المستوردة وقد ظلت العمليات التجارية الغربية مستمرة بهدوء في الديار العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى .

ولم يصطدم التدخل الأوربي في إدارة الدولة وفي إقتصادياتها بالإسلام فحسب وإنما أرتطم بتركيا نفسها مما أدى إلى تولد حركة وطنية عام ١٨٦٧ في مضمون أيديولوجي يصعب إدراكه أحياناً لكنه متطور بلا شك ويدل على أن « تركيا الفتاة » هذه مسلمة أولاً وقبل أي شيء ومقتنعة بأن أي رخاء لا بد وأن يأخذ منبعه في العدالة والحكومة الرشيدة إلا أن واقع الأزمان يعني أن العدالة أصبحت تختلط بالحرية أو بقول آخر بتحديد نفوذ السلطان ، وإنطلاقاً من هذا المفهوم وصل واحد من أكبر الوزراء المتحررين وكان بارعاً في كافة المجالات ويعد من الحكام المستنيرين العلميين ، ليحكم أجمل مقاطعات الامبراطورية ذلك هو

مدحت باشا وقد حصلت تركيا في عهده على أول دستور لها عام ١٨٧٦ وكذلك على برلمان من مجلسين .

أي أن المطالب الأساسية « لتركيا الفتاة » كانت ذات طابع سياسي وإصلاحي أكثر منه وطنياً وذلك لا يعني أننا لم نبدأ في ملاحظة بعض البدايات الخجولة « لقومية تركية » ، إن ميثاق « جول ـ خانة » قد استخدم تعبير « وطن » إلا أن التمييز الأساسي ظل محصوراً بين الشعب الإسلامي والاقليات الأخرى ولم يبدأ تعبير كلمة « الوطن » يأخذ مكانته في الصحافة التركية وفي معناه القومي إلا مع تصاعد القوميات غير الإسلامية وتحويل الأقليات إلى أمم وفي موقف يدفع إلى رد المفاهيم المتوارثة من أوربا وتحددت معالم الوطن والقومية العثمانية المعترف بها رسميا في عام ١٨٦٩

ولم يخل هذا التعبير الأخير من بعض اللبس إذ أنه كان مستخدما بلا تمييز بين كل المواطنين في الامبراطورية سواء كانوا اتراكاً أم لا وسواء كانوا مسلمين أم لا كما يدل على أنه لا يمكننا بعد أن نتحدث عن قوميات حقيقية عصرية في قلب الإسلام ، حتى عام ١٨٧٦ لم يتعلق الأمر بمجازفة انبثاق امبراطورية باسم الأمم لا بالنسبة للاتراك ولا بالنسبة للعرب ـ كما سنرى فيما بعد ـ حتى وإن كانت قد عرفت الاصلاح في قمتها وما زالت تعني أنها في مجال تجمع تحت قيادة الإسلام التي لا تتغير ، وأمم بل وعقائد مختلفة وقد تطرق بعض الأتراك إلى أبعد من ذلك وراحوا يحلمون بإسلام عام وبإعادة تجمع لمسلمي العالم ـ على الأقل روحياً ـ تحت قيادة خلافة السلطان .

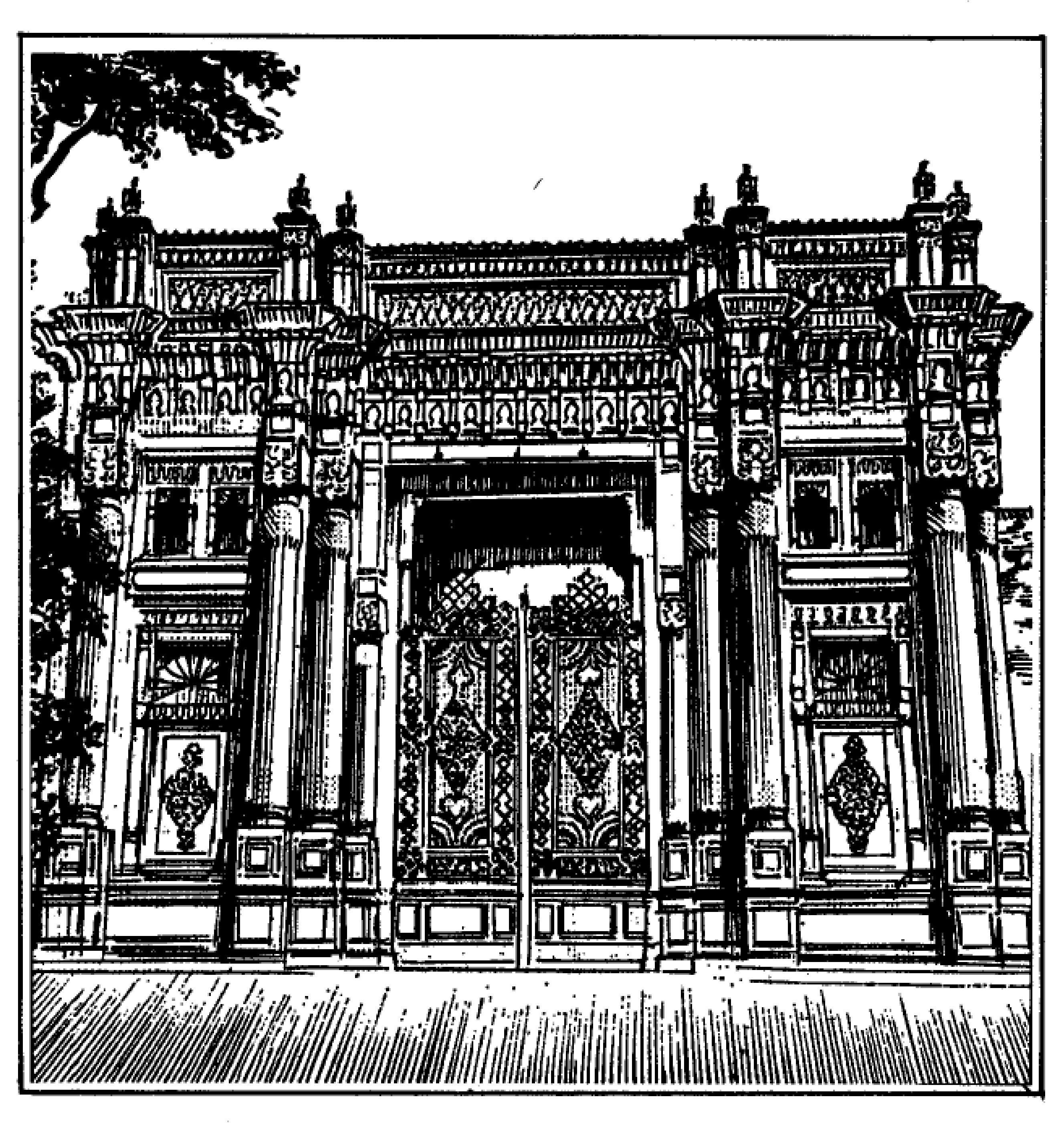
وقد عرفت هذه الفكرة إقراراً عرفياً دبلوماسيا منذ معاهدة كوشوك كاينارجي (عام ١٧٧٤) كما ستقوي السياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد الثاني الذي اعتلى العرش عام ١٨٧٦ .

وقد لعب عبد الحميد بورقة الإسلام هذه أو بالإسلام العام ضد الاحرار الذين ينـادون بالاصلاحات وضد القوميين أيا كانوا وفي عام ١٨٧٨ أوقف تطبيق الدستور وطارد مدحت باشا الذي نفاه ثم اغتاله عام ١٨٨٣ ، وهكذا راحت الأزمة التي تفتحت بدكتاتورية السلطان تغلق فترة التنظيمات عام ١٨٧٩ كما سيكون لها الأثر على تطوير القوميات التركية والعربية التي دخل بها التاريخ مرحلة جديدة .

موازنة « التنظيمات »

لم تنته التنظيمات الناقصة وغير المفهومة بالسلبيات فحسب ، فقد ادخلت هذه الاصلاحات فكرة وممارسة المركزية في العادات الادارية ومعنى ما للدولة ، وباختصار فقد تركت حصيلة لا يمكن انكارها اعتمدت عليها تركيا العثمانية منذ ذلك الوقت حتى نهايتها وحتى في أوج اسراف الشركات الأجنبية قد تم وضع نظام إقتصادي أساسي للبلاد ، وأخيراً . . لماذا لا نقول أن تركيا قد وجدت نفسها ؟

إن تلك الروح المترددة الهائمة بين أوربا والإسلام والتراث القومي (شكل ٦٦) تلك الروح الحيوية المتفتحة بفضل إنتاج أدبي غزير يسيطر عليه النثر



(شكل ٦٦ ـ اسلوب مركب من العمارة التركية
في القرن التاسع عشر بوابة قصر ضولمة باش على البوسفور

الحديث لكل من الشيناسي ، وأحمد وفيق باشا ، ونامق كمال وضياء باشا ، وأحمد مدحت ، أما في الشعر فكانت تتصدره أعمال عبد الحق حميد وكان الأدب التركي الجديد المليء بالتأثيرات الغربية وخاصة الفرنسية ـ دون أن نغفل مكانة المجالات القومية مثل القصة أو المجالات التقليدية كالتاريخ (الذي برع فيه أحمد جودت باشا وكان من المحافظين) ـ قد فتح للجمهور أبواب النقد والرواية والبحث السياسي والمسرح الذي ازدهر بمسرحية « الوطن » الشهيرة لنامق كمال ، واكتملت النهضة الثقافية عمقاً بتقدم التعليم وإنشاء المتاحف والمكتبات العامة وأخيراً بإنشاء المطبعة .

وإنطلقت الصحافة إبتداء من عام ١٨٣١ سواء كانت رسمية أم غير رسمية ، وسواء كانت بالعربية أو بالتركية أو بالفرنسية .

وهنا أيضاً فإن حركة التجديد الكبرى والحرية سوف تعاني من نفوذ عبد الحميد الثاني الذي بلغت الرقابة في عهده إلى « حد من الغباء المذهل » . . . لكن ترى هل كانت السلطة المطلقة هي المسئولة الوحيدة ؟ إن أزمة السيطرة الحميدية قد تغذت ، إن لم تكن قد تولدت بالفعل ، من القلق الشديد من الخارج ، وخاصة من الحرب التركية الروسية التي كانت بمثابة المقدمة لمعاهدة برلين المفجعة ، فبدون هذا المضمون المتواصل من التهديدات ، وبدون التدخلات السياسية والاقتصادية للخارج على أرض تركيا نفسها وردود الفعل التي كانت تثيرها ترى على أي شيء كانت ستنتهي فترة التنظيمات ؟ إن الامبراطورية العثمانية دون أن تكون ذلك الرجل المريض « على الأقل في الجزء التركي منها ـ لم تكن تبغي أكثر من أن تعيش كجسد متجدد الشباب بأي ثمن وهو يعاني من نمو جديد ، إلا أن هذا المريض ، إن كان مريضاً حقاً ، فقد كان بين الأيدي الأجنبية ويتم علاجه على أيدي أطباء لا يريدون شفاءه ولا يعملون له بصفة خاصة » .

٣ ـ مصر الحديثة

إن مصر التي تكشفت عام ١٧٩٨ لبونابرت لم تكن تختلف عن تلك التي قدمتها لنا القرون الوسطى ، فقد ظلت البلاد ضحية لفئة من العسكريين حيث استمر المماليك يلعبون فيها الدور الرئيسي وذلك تحت سلطة الباشاوات الذين

كان الباب العالي يعينهم ، إن تدخل الغرب وسط هلع مصر العثمانية كان بمثابة الرعد الذي لا تهدأ أصداؤه حول نهر النيل ولا بعيداً عنه .

وأخيراً سوف يمتص الإسلام هذه الصدمة دون أن يتمكن من إخفاء مشكلة إن الغرب يكشف له صراحة عن تأخره على الأقل من الناحية التقنية ، عن بقية العالم الذي تقدم أسرع منه بكثير .

بونابرت على صفاف النيل

لنتجنب إعادة كتابة التاريخ العسكري أو الاداري للبونابرتية في مصر ، ولنبدأ على الفور بقوائم الموازنة . ترى ما الذي تبقى من المغامرة الفرنسية بعد رحيل بونابرت واغتيال كليبر وإنهزام مينو أمام الجيوش البريطانية والتركية ؟ لقد حددت المعالم الرئيسية لمصر المستقبل وخاصة تاريخها الخارجي الخاضع لفترة طويلة للمنافسة بين لندن وباريس ، فلقد اعترف بونابرت بخليج السويس بغية إعادة فتح القناة القادمة من النيل أو حتى « أن يقطع الخليج . . . لكي يؤكد الملكية الحرة والمطلقة للجمهورية الفرنسية على البحر الأحمر » (حكومة الديركتوار في الثالث والعشرين من شهر جرمينال ، العام الرابع) . أما على المستوى الداخلي فقد هزمت الحملة الفرنسية أركان سلطة الباب العالي لصالح الطغاة العسكريين المحليين ، وأوضحت فعالية الغرب الذي سيتصف بقيمة نموذجية بقدوم محمد علي .

وهذه الفعالية التي ستكون واحدة من مهام الاصلاح الإسلامي ، لم يكن من الممكن قياسها بنجاح الأسلحة فحسب ، وإنما من خلال الأعمال السلمية فقد تألق المهندس كونتيه في شتى المجالات ومنها المناطيد واكسدة المدافع والبنادق ومضخات الحريق والشموع والمطابع واجهزة سك النقود وطواحين الهواء وحتى التلغراف بين القاهرة والاسكندرية وكافة المنتجات التي تنتجها الورش الصناعية العشرة الخاضعة لسلطة ونفوذ المهندس كونتيه .

وأخيراً وقبل كل شيء ، لقد أراد الفرنسيون معرفة مصر عن كثب فالتف الجنود حول بونابرت ليصبحوا جغرافيين ومهندسين ومساحين وعلماء آثار (لوحة ٢٩ ب) وتزايد عدد الفنانين والعلماء ومنهم مونج وفورييه وبرتوليه ودنييت

وجوفروا سانت هيلير كما إنضم إليهم كل من المستشرقين فنتير دي بارادي واميدييه جوبير ، والكثيرون منهم سينضمون إلى المعهد المصري (المجمع المصري) الذي انشيء في الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٨٩٨ ليصبحوا الدعامة الأساسية للفرق التي تم تكليفها بالتعرف على البلد وتسجيله ووصفه ، وتم إصدار أربعة مجلدات عن الآثار في مصر وثلاثة عن الفترة المعاصرة واثنين عن العلوم الطبيعية بالاضافة إلى أطلس يقع في اثني عشرة جزءاً تكون ذلك العمل الضخم الذي أطلق عليه إسم « وصف مصر » والذي تم إنجازه في عام ١٨٢٥ والذي يضم كل المعلومات الخاصة بتاريخ أو بحيلة وادي النيل حتى أدق التفاصيل الخاصة بالحياة اليومية ، كما تشهد بذلك المجموعة الرائعة الخاصة بالفنون والمهن المحلية التي يرجع فضل عملها إلى المهندس كونته .

لا شك أن هذا المجهود الضخم قد أفاد العالم الغربي ولنذكر شامبليون الذي أسس علم المصريات بحله رموز«حجر رشيد » الشهير ومن المؤكد أيضاً أن المطبعة التي كانت تحظى بعناية بونابرت الفائقة قد استخدمت أساسا لصالح المحتلين وبلغتهم وكان الأمر يتعلق من جهة فرنسا بمجهود أمين من أجل تفهم الإسلام ومصر ، إن نشر الترجمة التي قام بها فنتير دي بارادي للخطاب التاريخي للفاتح العربي عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر عن مزايا النيل ، والاحترام الذي يكنه بونابرت أو ديسكس أو دونزلو للعادات المصرية وذلك الأخير الذي يتحدث عن « العرب اصدقائنا » كل هذه الاعراض تحدد نهاية عهد كان كل همه يرجع إلى معرفة الخصم عمقاً ، بل لقد وصل الأمر ببعضهم إلى إستخدام لفظ « شريك المستقبل » .

ومنذ ذلك الوقت تخطى مذاق مكونات الإسلام حدود الاغتراب واصبح السفر إلى الشرق وسيلة لتجريد ذلك الإنسان العجوز والمواجهة مع حضارة مختلفة اكتشفت هي أيضاً كمنبع للقيم وقد يسافر كل من شاتوبريان ولامارتين أو نرفال مزودين برؤية جديدة متفتحة ومتعاطفة مع هذه الفكرة .

إلا أن مصر ـ وذلك أمر واقع ـ لم تستجب للمقدمات الفرنسية ففشل الحملة الفرنسية لا يرجع فقط إلى الانهزام العسكري في سوريا أو الانتصار الغالي الثمن الذي تم تحقيقه في مصر العليا على يدي ديسكس ، وإنما يرجع أيضاً إلى

مقاومة الجماهير المصرية للمحتل الأجنبي غير الأمين ، إنها مقاومة الفلاحين في أعالي النيل وهي أيضاً مقاومة سكان القاهرة حول معقل الأزهر آخر ملجأ للثورة في أكتوبر عام ١٧٩٨ .

ورغم بعض المتواطئين ورغم إقامة مجلس من الأعيان وتعد هذه خطوة أولى نحو الهدف المعلن عنه بصوت عال عن استقلال مصر ، أو على الأقل استقلالها عن الباب العالي ، فإن مصر لم تكف أبداً عن أن تكون عشا للمصاعب ضد القادة الفرنسيين الذين سرعان ما خاب أملهم بعد سفر بونابرت ومجيء كليبر محله ، وسرعان ما اطلقوا العنان لخيبة أملهم وحلمهم بالجلاء ، ولكي تدفعهم مصر إلى الجلاء راحت تضاعف من الثورات والاغتيالات بادئة بمقتل كليبر نفسه .

إن تأثير الثمانية وثلاثين شهرا من الاحتلال الأجنبي (من يوليو ١٧٩٨ إلى سبتمبر ١٨٠١) لا بد وأن يتم قياس مداها في حينها ، ففرنسا كما سبق أن أشرنا فيما سلف قد اعطت لمصر مشهد تقنيات الغرب والرغبة في أن تعبر عن نفسها على ضوء تاريخ فريد يساعدها اكتشافه على أن تتميز عن الغرب الوثـني ممثلا في فرنسا وخاصة عن تركيا العثمانية ، وبدأت تتألق أصداء جديدة في صياغة التاريخ العربي بقلم الجبرتي الذي راح يعاني من حيرته بين اصطدامه مع المحتل الأجنبي والميزات التي راح يكتشفها فيه ، وبين خيبة أمله في عودة نفوذ الباب العالي ، وسيجعل محمد علي جميع هذه المشاعر المختلطة والكامنة سياسته المحددة

من محمد علي إلى مصر « السان سيمونية »

إن الرجل الذي سوف يعيد مصر إلى الصفوف الأولى للقوى الإسلامية وقوى البحر الأبيض المتوسط هو أحد القادة الألبانيين في الجيش التركـي (لوحة ١٢٩) لقد كان أمياً لكنه يتمتع بذكاء حاد ، وسرعان ما عرف كيف يحرك الأمور بين مواطنيه والمماليك والاتراك ، دون التحدث عن الانجليز الذين عادوا عام ١٨٠٧ ليحتلوا الاسكندرية ، وذلك بعد عامين من انتصارهم على الفرنسيين ، جنود مينو وكرد على التحالف الجديد الذي تم توقيعه بين باريس واستانبول ، وما أن حصل محمد علي على جلائهم حتى عينه الباب العالي باشا على مصر ، ثم راح

يدعم سلطانه بنزح قوة المماليك عام ١٨١١ وذلك باغتيال حوالي خمسمائة من زعمائهم دفعة واحدة .

إصلاحات محمد علي

بدأ سيد مصر الجديد بأن راح يستكمل العمل الذي بدأه بونابرت في أكثر من مجال إلا أن التجديدات التي كانت تتم بمساهمة المسيحيين أو الأجانب الذين سيصبحون بكوات أو وزراء كانت تتم من الداخل بفضل شخص مسلم ، وإن لم يكن مصرياً بالمولد فإنه أعتبر نفسه مصريا من أجل مصالحه ومجده الذاتي وتكمن كل أهميته في أنه أدرك الميزة الفريدة للموقع الاستراتيجي لمصر وأنه تطلع إلى الوسائل السياسية الكبرى التي كان يحلم بها من أجلها ومن أجل نفسه ، ولا بد من الحكم على أعمال محمد علي بشيء من الحذر إذ أنها كثيراً ما كانت تتم بصورة عشوائية من وجهة نظر نفعية بحتة ، كانت تحاول الحصول على بعض إنجازات الغرب التقنية دون أن يجعلها تؤثر على الديانة أو القانون الخاص بمصر الإسلامية ، ومع ذلك فقد دفعت بمصر أولى البلدان العربية على طريق التطور العصري .

وأصبحت كل من السلطة المطلقة والسلطة المركزية هما الدعاماتان الرئيسيتان للسياسة الداخلية واستتب النظام بإعادة تشكيل البوليس وإنشاء أقسام إدارية جديدة وعمل مصالح وزارية جديدة ، وما أن استتب نظام الدولة حتى أصبح من السهل على محمد علي أن يستغل مصر كيفما يشاء فاستعان ببعض العادات القديمة ليعلن نفسه سيدا مطلقا لكافة الأراضي المصرية وللتجارة المصرية ، وأصبح حرا في الادارة والسيطرة والتحرك واتسعت الرقعة الزراعية بواقع الخمس وتطورت بعض التجديدات وخاصة زراعة القطن بفضل الفرنسي جوميل ، وفي الوقت نفسه حاول سيد مصر تحريرها ولو من جزء من مشترياتها المصنعة ، فأدخل عدة صناعات بمساعدة الكوادر أو العمال الأوربيين ومنها مصانع للسلاح والتقطير والغزل بصفة خاصة .

إن هذا المجهود الضخم بالنسبة لتلك الفترة والذي حقق لمصر طوال مدة هذا الحكم فائضاً في دخلها سيتعرض للخطر نظراً لنقص الأخصائيين المحليين

وإسراف الحاكم في إحتكاراته بالاضافة إلى مقاومة الفلاحين الذين بدأوا يفقدون إهتمامهم بأرض ليسوا منتفعين بها .

ومع ذلك فقد بدأت أعمال كبيرة تعد للمستقبل ، فتقدمت مشروعات الري بشكل ملحوظ ، وبدأ لينان دي بلفون في دراسة إمكانية إقامة خزان كبير عند بداية الدلتا على أن يبدأ العمل به عام ١٨٤٢ كما بدأت بعض المشاريع تتولد تباعاً وذلك مثل الترسانات البحرية وطرق السكة الحديدية والطرق المدنية ، ومن جهة أخرى بدأ كل من لينان وموجل في إعداد الملف الضخم لشق قناة السويس وفي عام ١٨٣٣ وصل أول وفد من السان سيمونيين بزعامة انفنتان لاعطاء الدفعة الحاسمة لهذا المشروع الكبير كما أصبح المشروع الصحي والتعليمي حقيقة واقعة بفضل مساعدات الارساليات الدينية الفرنسية ، وبدأ مشروع التعليم بفضل كلوت بك المفعم بالمشاريع الطموحة الشديدة الاتساع والعاجلة ، إلا أنه أدخل في الحياة الادارية المصرية وبلا رجعة مبدأ جعل التعليم أساساً لكل تقدم مادي وتقني ، كما أدى إنشاء المطبعة القومية إلى وضع العديد من الأعمال الأوربية المترجمة بين أيدي الجمهور العربي ، بالاضافة إلى الكتب التاريخية وعدد لا يستهان به من المراجع العلمية والمؤلفات التي تمثل نقطة تحول كبرى في الحياة الثقافية لمصر المجددة .

أما التصدع الحقيقي الكبير في هذا الكيان فيرجع إلى أن جزءاً هاما من هذا الجهد وعائد هذه المشاريع كان يستخدم لاشباع حاجات الجيش والبحرية اللذين أعاد تنظيمها كل من الفرنسيين دي سيف (سليمان باشا) وسيزري وكان الجيش مكونا من ١٣٠,٠٠٠ جندي في الفرق النظامية و٤١,٠٠٠ بحار وعامل في الترسانات البحرية و١١ بارجة و٣ بواخر بخارية و١٨ سفينة مختلفة الحمولة تمثل عبئاً ثقيلاً على ميزانية دولة يصل تعداد سكانها إلى حوالي ثلاثة ملايين نسمة حتى وإن كان العجز في هذا القطاع يتم جزئياً عن طريق فرص العمل المتاحة لعمال الترسانات ومصانع السلاح أو النسيج .

لكن ما الذي كان يضير السيد الجديد في كل هذا ؟ فأن ما كان يطلبه محمد علي لم يكن سوى المعدات اللازمة لسياسة دولية كبرى عن طريق المساعدة الخاصة المقدمة من فرنسا التي كان ينظر إليها على أنها حاسمة وفي نفس الوقت أقل خطراً

من انجلترا التي إنهزمت عام ١٨١٥ كما كان عليها أعباء كثيرة في الجزائر .

وحصل محمد علي على كل ما أراده من مساعدات فقد كان يرمي إلى العظمة والنفوذ بصرف النظر عما ينقص البلد عامة أو كثرة الاستعدادات المرتجلة التي تتم فيها وكان كثيراً ما يردد « لا شك أننا ما زلنا أطفالا ولكننا أطفال تنمو ولا بد لنا من إطالة ثيابنا حتى يمكننا أن نرتديها عندما نكبر .. وكان على عاتق تركيا أن تتحمل تكاليف هذا النمو . . .

نجاحات ومرارات سياسية كبرى

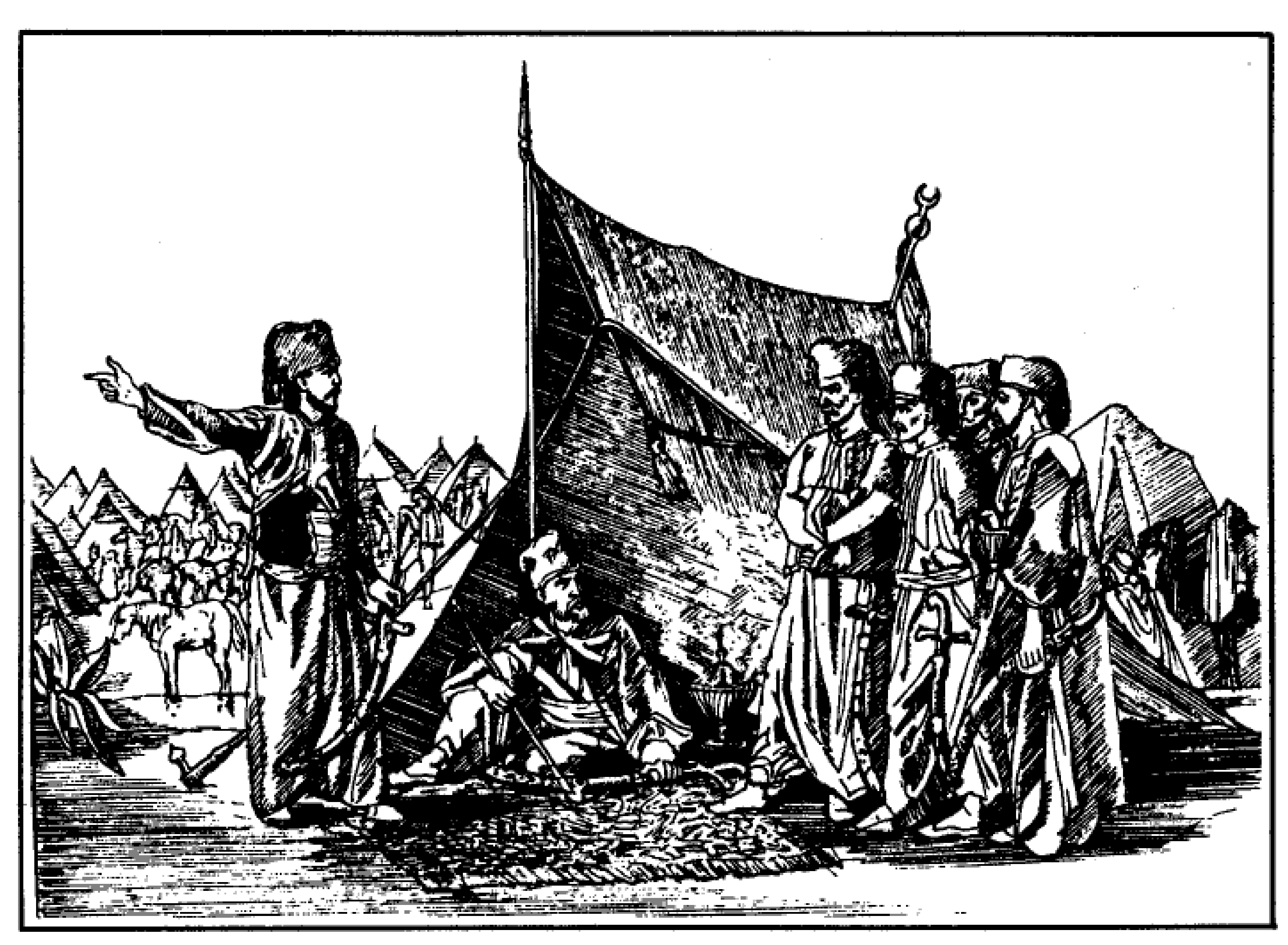
إن السياسة الخارجية لمحمد علي كانت تخدمها براعةبعض القادة إلى جانب ابنائه طوسون وإسماعيل وإبراهيم وظلت هذه السياسة وفية لتطلعات مصر الفاطميين والايوبيين والمماليك وهي الاتجاه ناحية الجنوب ، والاتجاه ناحية سوريا .

وتم التحرك الأول بموافقة الباب العالي ، وفيما بين عامي ١٨١١ و١٨١٨ راحت مصر تتدخل في شئون شبه الجزيرة العربية ضد السعوديين الوهابيين ثم عادت بعد ذلك على عدة فترات فيما بين عام ١٨٣٥ وعام ١٨٣٨ لتصل حتى اليمن ، وبعد عام ١٨٢٠ تمت المغامرة الكبرى ناحية أعالي النيل والبحر الأحمر واحتلال أرض السودان الشاسعة ونهاية مملكة فونج في سنار وتأسيس عاصمة جديدة في الخرطوم عام ١٨٣٢ والوصول إلى مشارف اريتريا ومراقبة السواحل البعيدة حتى مصوع .

وهكذا استمر حلم السيطرة على الذهب وعلى العبيد ، إلا أن مصر الحديثة راحت تحيط نفسها بالأوروبيين هنا أيضاً ، وسيعود الانجليزي وادنجتون من رحلاته بخريطة لنهر النيل وسيتعرف الفرنسي كابيو على مروة كما ستتمكن ثلاث بعثات يمولها محمد علي فيما بين ١٨٣٩ و١٨٤١ من استطلاع النيل الأبيض حتى مشارف خط الاستواء

أما في نطاق البحر الأبيض المتوسط فقد اخمدت مصر ثورة اليونان لصالح الباب العالي وحصلت بذلك على جزيرة كريت ثمنا لما قامت به من خدمات ، كما حلمت مصر باخضاع كل من طرابلس وتونس والجزائر بالتحالف مع فرنسا أيام

بولينياك ، وتمت القطيعة مع الباب العالي أثر التطلعات المصرية تجاه سوريا ، وتمت هذه اللعبة على فترتين : في أواخر عام ١٨٣١ دخل إبراهيم ابن محمد على الحرب (شكل ٦٧) ونجح في منطقة سان جان داكر - حيثما فشل بونابرت - ١٨٣٢ وبناء على التمهيدات التي تمت في كوتاهية (أبريل ١٨٣٣) تنازلت استانبول لمصر عن كل سوريا بالاضافة إلى مقاطعة اطنة



(شكل ٦٧ - ابراهيم وجنوده . حفر يرجع إلى تلك الفترة

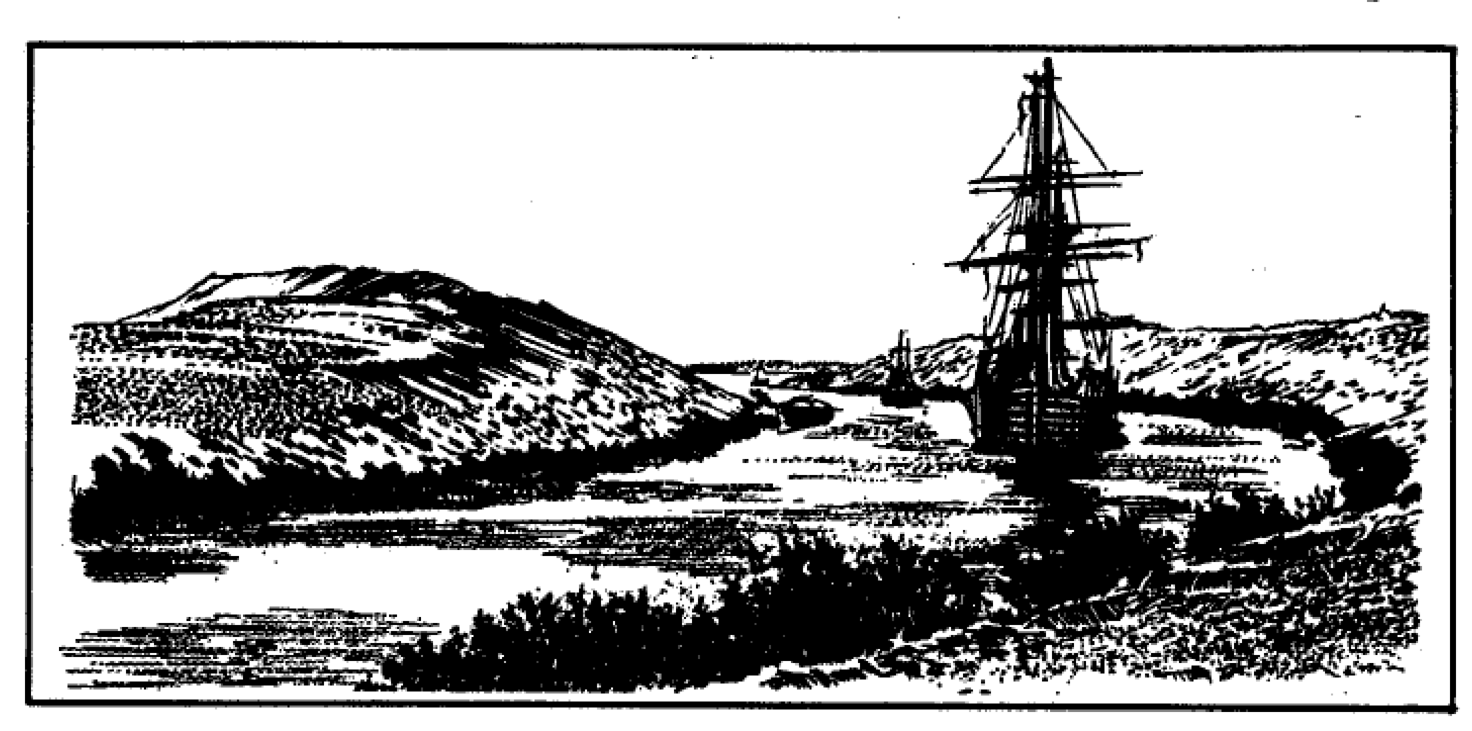
إلا أن أوربا بدأت تقلق وإنتهت روسيا بتوقيع تحالف مشترك مع السلطان في معاهده هنكار اسكله سي (يوليو ١٨٣٣) محققة بعض الامتيازات في المضايق وهلعت فرنساوانجلترا من هذا النجاح الذي حققه القيصر وتدخلتا ولكن سرعان ما بدأت الأزمة ثانية وحمل الاتراك السلاح إلا أن إبراهيم قد هزمهم في شمال سوريا عند نصيبيين (يونيو ١٨٣٩) ودفع محمد علي ثمنا غالياً في مؤامرات المصالح الأوربية واخطاء السياسة الفرنسية وكانت نتائج معاهدة لندن (١٥ يوليو ١٨٤٠) مأساوية إذ أعترف محمد علي بالسيادة المطلقة للسلطان ولم يحتفظ إلا بمصر والسودان : الأولى بصفة وراثية والثانية نظريا طوال حياته .

وتحطم الحلم الكبير إلا أنه قد ترك اثارا على الأرض وفي روح مصر ، وإذا ما استمرت الطبقة العسكرية ذات العادات واللغة التركية في الحكم والسيطرة على أجهزة السلطة فقد اضطرت إلى أن تفتح في مصر مجال الوظائف المدنية والرتب الدنيا للعرب ، أو إلى أن تتآلف معهم مثلما حدث في سوريا أيام إبراهيم ، ولا شك في أن القومية الوليدة كما لاحظها ميمو : قنصل فرنسا عام ١٨٣٤ كانت مصرية وعربية ، أي أنها كانت تعكس تناقض دولة مليئة بالاجناس مختلفة الأعراق كما كانت مبتكرة ومركبة في تكوينها وفي تاريخها لتفرض على كل من ولد هنا علامة مشتركة ، ومنذا الذي كان يمكنه أن يرتاب حيال هذه اللعبة في أن كتلة الجمهور العربي لم تكن بوتقة الأمة المصرية ؟ فلقد راح إبراهيم يحلم بصوت عال أمام جنوده وفي الكوادر العربية أو المعربة بمصر المستقبل .

حول قضية السويس

عندما واجهت مصر التحدي في البحر الأبيض المتوسط راحت تواصل توغلها في السودان الذي راح ينغمر تدريجيا تحت تدفق تجار العاج أو العبيد ، والارساليات الكاثوليكية والمستكشفين، فإذا ما كانت مشكلة منابع النيل قد حسمت عام ١٨٦٠ في الجنوب ، فقد ظل الكثير من المشاكل في الشمال بلا حل ، وكانت هذه مهمة الحكام الذين كانت مصر تقوم بتعيينهم وكانوا عادة من الأوربيين مثل صمويل بيكر غوردون وسنيتزر (أمين باشا) وقد اعربوا عن حيوية فائقة هم واعوانهم من المصريين والأوروبيين في مطاردة تجار الرقيق ثم استطلعوا واخضعوا منطقة ضخمة وقاموا بعمل حدود لها مازلنا نعرفها إلى اليوم ، بل تخطوها ناحية البحيرات وحوض نهر اوبنجي ، ثم قاموا بالتفتيش وراحوا يحكمون ويرفعون الخرائط ويؤلفون مجموعات من الكتب في علم الطبيعة ، وراح خلفاء محمد علي بمعاونتهم يدخلون مصر في مغامرة أفريقية ذات أبعاد مجهولة في ذلك الوقت ، وراح المصريون الموجودون في الصومال ناحية الشرق وإنطلاقاً من موانيء البحر الأحمر يحاولون الاستيلاء على الهضبة الاثيوبية على ثلاثة مراحل ، وإذا ما انتهت هذه المغامرة بكوارث عسكرية إلا أنه كان للضغط المصري في الشمال وفي مشارف اريتريا عواقب حاسمة في إدخال العديد من القبائل الأثيوبية في الاسلام فيما بين ١٨٤٠ و١٨٨٠ .

أما في مصر فكان الوقت وقت السويس ، فلقد انبثقت من أوراق السان سيمونيين ومنهم انفنتان وميوشيبل شيفالييه وطالابو ، بالاضافة إلى تشبث دي لسبس وإصراره على الطريق الجديد الذي افتتح عام ١٨٦٩ (شكل ٦٨) والذي راح يغير الخريطة الملاحية جاعلاً من مصر المصب الكبير إلى الهند وجاعلاً من البحر الأبيض المتوسط واحداً من أكثر البحار التي تموج بالحركة في هذا العالم القديم لكن لا ينبغي لنا أن نترك خليج السويس دون أن نذكر أن القناة كانت أيضاً عملاً مصرياً إذ جازفت مصر بمسئوليتها ضد قلق استانبول وغضب إنجلترا كما ضحت هي أيضاً بالكثير من الأموال بالاضافة إلى أن عبء العمل بالقناة طوال الأعوام الخمسة الأولى كان يقع على عاتق سواعد العمال المصريين الذين حفروها .



شكل ٦٨ ـ قناة السويس

وفي هذه الاثناء استمرت مصر أيام حكامها الذين أطلق عليهم الباب العالي لقب « الخديوي » رسميا استمرت في سيرها في ركب التقدم وذلك رغم اضطراب السنوات الأخيرة من حكم محمد علي الذي اختل عقليا ووفاة إبراهيم قبل والده بعام ، سنة ١٨٤٨ ، وفترة عباس المناهضة لاوربا (١٨٤٨ ـ ١٨٦٣) وعرفت مصر أيام محمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) وخاصة أيام إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) تطوراً هائلاً في السكك الحديدية وفي مشاريع الري والقنوات والأعمال المدنية والاضاءة والمواصلات (وقد قبلت مصر عضواً في اتحاد البريد عام ١٨٧٤) وكذلك في الأعمال المصرفية ومنها تأسيس بنك مصر (١٨٥٦) والبنك الانجلو

اجيبشيان (١٨٦٤) والبنك العثماني (١٨٦٧) وبنك الكريدي ليونيه (١٨٧٥) .

أما في الأرياف حيث تم استصلاح ١,٢٥٠,٠٠٠ فدان أيام إسماعيل فقد أزدهرت بعض المحاصيل ومنها قصب السكر الذي كان يمون أربعة عشر مصنعاً جديداً ، ومنها إنطلاقة زراعة القطن التي انتشرت بعد حرب التقسيم التي حرمت السوق الأوربية من ممونها التقليدي فيما وراء البحار ، وقد تم تصدير ٥٩٦,٠٠٠ قنطار من القطن عام ١٨٦١ و ٢,٥٠٧,٠٠٠ قنطار عام ١٨٦٥ ، أي ما يوازي ٩٠٪ من مجمل الصادرات وبدأت مخاطر الثروة والانتاج المصري ترتسم حول هذه الأرقام وحول مؤشراتها .

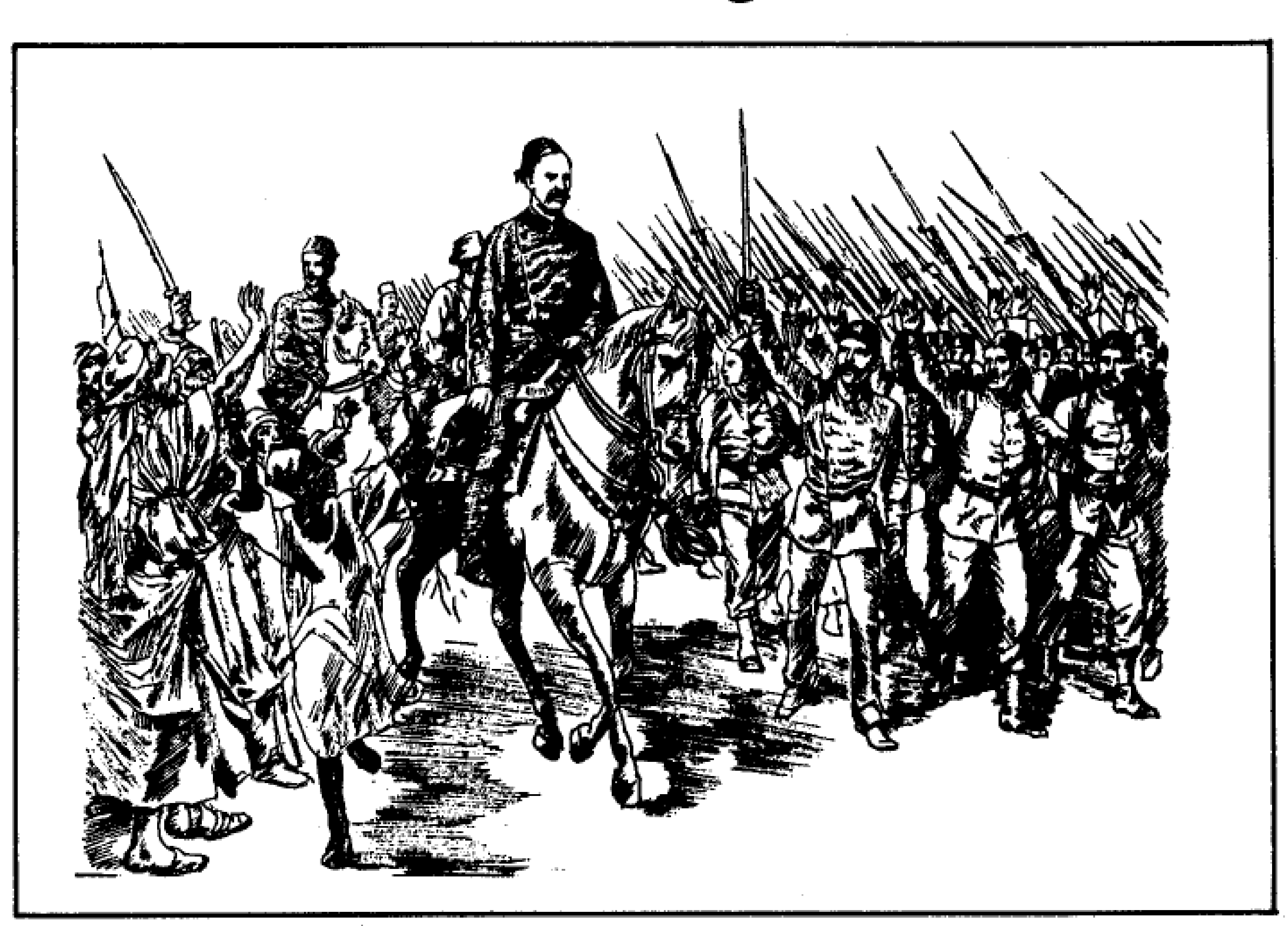
ولم تتم هذه الحركة الكبرى بلا تغيير في العادات وفي النفوس ، وقد حاولت الحكومة أن تضرب المثل بالغائها رسمياً احتكار الأراضي والتجارة وسماحها بحرية الزراعة والبيع والنقل وفي عام ١٨٦٦ أحاط إسماعيل نفسه مثل بونابرت بمجلس استشاري من الأعيان .

وفي عام ١٨٧٥ وبعد المفاوضات المتمثلة مع القوى الأوربية أقام المحاكم المختلطة التي من اختصاصها الحكم في شئون الأجانب المقيمين في مصر أو المصريين المثقفين في الخارج ، وذلك لكي يضع حداً للمميزات القنصلية الناجمة عن الامتيازات الأجنبية ، وأخيراً فلقد أعطى إسماعيل دفعة حقيقية لتعليم رعاياه إذ ارتفع عدد المدارس الابتدائية إلى ٤٠٠٠ مدرسة كما أسس معاهد عليا متخصصة ومكتبة عامة ومرصداً ومتحفا في القاهرة ، حامياً بذلك أعمال المصريات التي كان يقوم بها ماربيت آنذاك ، كما قام بتشجيع الطباعة والصحافة خالقاً بذلك نهضة أدبية مذهلة سنعود إليها فيما بعد .

وبازدياد تعدادها (بزيادة مليون نسمة أيام إسماعيل فقط أي أن تعدادها وصل إلى سبعة ملايين تقريبا عام ١٨٨٢) بدأت مصر الشديدة الحيوية ، الطموحة تؤكد ذاتها أمام الأجانب ، ففي عام ١٨٦٤ قام الخديوي إسماعيل باستعادة ٦٠,٠٠٠ هكتار سبق منحها لشركة قناة السويس وذلك بمراجعة الامتياز الممنوح لها على سبيل التعويض كما رفض لها أعمال السخرة القائمة حينذاك

مضطراً الشركة إلى اللجوء إلى الميكنة وإلى الأيدي العاملة الأوربية لسد الفراغات الناجمة عن هذه الخطوات .

وما هو أكثر من ذلك فقد حاولت مصر الخروج عن نطاقها فتدخلت في حرب القرم وفي كريت الثائرة عام ١٨٦٦ وحتى في المكسيك مع فرق نابليون الثالث ، كما ساهمت في معرض باريس عام ١٨٦٧ وقام إسماعيل دون أذن من الباب العالي بالسفر إلى أوربا واستقبال ممثلي بعض كبار الشخصيات في البلاط الأوربي وعلى رأسهم الامبراطورة أوجيني وأمبراطور النمسا ، وذلك أثناء الاحتفالات المقامة بمناسبة افتتاح قناة السويس .



(شكل ٦٩ - عرابي وفرقة في الاسكندرية عام ١٨٨٢)

الدين والانجليز وبزوغ الوطنية

هل تعد أحداث هذه الحقبة صحوة جديدة مؤكدة للسياسة الكبرى لمحمد علي ؟ في الواقع وبعد ثلاثة عشر عاماً من افتتاح القناة أصبحت مصر تحت الاحتلال الانجليزي ، ترى كيف ولماذا انتهت إلى ذلك ؟ . . هل يرجع السبب إلى الفجوات القائمة في النظام الاداري وسيطرة الخديوية الذين كان إسرافهم بحاجة إلى سيطرة ؟ ربما كانت كل هذه التفسيرات ساذجة ، ففي الواقع أن

التقديرات تثبت أن الميزانية المصرية العادية كانت متزنة حتى إذا ما قصدنا ضمنا بتعبير « العادية » تكاليف الحملات السودانية والسفريات واللجان إلى أوربا ومصاريف التمثيل بالاضافة إلى « سخائها » مما ينتج عنه ـ إن كان هناك ـ ما يمكن تسميته إسرافاً أو عدم حرص ، إنها كانت ناجمة عن التكاليف الباهظة للتجهيزات بما فيها القناة ، وإجمال القول أن إسماعيل قد أسرف في « الجرأة والطموح » لأنه توقع الكثير من العائد الفوري للأعمال الخاصة بالتحضر والتي لا بد منها ، وقد زاد من خطئه في الحساب السيطرة المتزايدة على حياة مصر الاقتصادية من جانب طبقة من المغامرين الأجانب من « أصحاب الأعمال الكبرى والقرصان المحليين والمستغلين » البارعين في السيطرة على الأسواق وفي اقتراح قروض أو تسهيلات مالية أخرى يعوضونها بفسخ العقود المبرمة لاتفه الأسباب مقابل تعويضات ضخمة يحصلون عليها ، وتلاحق الدين والقروض في هذه اللعبة حتى بلغ العجز عام ١٨٨٠ إلى مبلغ ٢٥٠٠ مليون فرنك فرنسي .

ومع ذلك فيبدو أن مؤسسة الامبريالية الضخمة الممتدة من تونس إلى استانبول والمسماة صندوق الدين والتي عرفتها مصر منذ عام ١٨٧٦ لم تهدىء من جشع الأجانب سواء كانوا من الفرنسيين أو الانجليز بصفة خاصة إذ أن انجلترا قامت عام ١٨٧٥ بشراء ١٧٦,٠٠٠ سهم من أسهم شركة قناة السويس من الحكومة المصرية وذلك لكي تعوض المكانة التي ضاعت منها بسبب عدائها لهذا المشروع ، وأصبحت مصر بعد قناة السويس مصر القطن والاقتصاد والطريق إلى السودان في أعين كل من انجلترا وفرنسا ، موضع التسابق للسيطرة عليها خاصة وأن أي فرد في أوربا لم يعد يصدق تلك الأساطير القائلة بالاستعانة العثمانية أو بتبعية مصر للباب العالي .

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأحداث تسرع وأدى الدين إلى الحكم الثنائي الفرنسي الانجليزي لمصر ، وتعيين ممثلين للقوتين كوزراء خديويين للمالية والأعمال العامة (الأشغال) ولم تؤد مقاومة إسماعيل إلى تغيير شيء في مجرى الأحداث حتى بعد أن أقاله الباب العالي ـ تحت الضغوط الأوربية ـ وقام باسناد السلطة إلى ابنه توفيق ، وبرفض فرنسا الاشتراك في حملة عسكرية مشتركة مع الانجليز ، قامت انجلترا وحدها في سبتمبر عام ١٨٨٢ بضرب المصريين في التل الكبير وإقامة احتلالها لوادي النيل .

ومع ذلك وفي هذه الاثناء فقد تغير شيء ما في أعماق مصر ، فقد تولدت مقاومة أكثر إصراراً وأكثر عمقاً ضد الخديوية المتهمين بالتساهل أو بالضعف حيال الأجانب ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر « تقوم بدورها على أيدي آخرين غير الحاكم » وهؤلاء الآخرون هم الناس القادمون من مصر ذاتها وخاصة من الضباط العرب القلقون من أي تدخل أجنبي سواء كان أوربيا أم تركيا .

وفي فبراير ١٨٨٢ أصبح العميد عرابي (شكل ٦٩) ابن فلاحي الدلتا وزيرا للحربية ، ومنذ ذلك الوقت راح يحيي الصراع ضد الجنود الشراكسة ثم ضد الخديوي مهددا أياه باسقاطه هو واسرته ، وقد نجح عرابي في الحصول على عقد إجتماع لمجلس النواب ثم للمجلس الوطني الذي جعل منه سيد السلطة الحقيقي ضد الخديوي ، كما دخل عرابي في الصراع ضد انجلترا التي راحت تضرب الاسكندرية بالقنابل لتخمد الاضطرابات ، وقد قام عرابي بإعلان الحرب ضد انجلترا وقام بالتجنيد العام وبتنظيم مقاومة ستضرب في التل الكبير .

ترى هل فشل ؟ . . لقد ادين عرابي ونفى ، وكان في استطاعته آنذاك أيام الحروب الكلاسيكية ومع صعوبة الدلتا أن يثير الصلة الساحقة للقوى على الأقل في حينها وكانت حالة عدم إستعداد الجيش المصري الذي تم تخفيض قواته بشكل واضح بعد أيام محمد علي (١٢,٠٠٠ جندي نظامي و٥٠,٠٠٠ مجند عشوائي جمعوا على عجل) وذلك بالاضافة إلى أخطاء أحكامه الذاتية إلا أنه قد أطلق تعبير « مصر للمصريين » كما لم يطلقه احد من قبله ، وأولد الأحساس باستقلال المصريين الذي راح منذ ذلك الوقت يـواجه السيـطرة الأجنبية والسلطة المحليـة المتـواطئة والوشايـة التركـية وفي قلب جماعة مميزة بماضيها وبلغتها راح عرابي يعد ـ في قلب الأمة التقليدية للمؤمنين ـ لأمة أخرى هي أمة العرب التي أعطتها الأزمنة الحديثة معنى الأمة الوطن .

٤ ـ الإسلام والعرب

من السهل أن نستنتج مما تقدم أن جزءاً كبيراً من مصائر العالم الإسلامي بدأت تتحدد معالمها على شطآن البحر الأبيض المتوسط ، فهناك في الواقع وهناك أولاً رأي الإسلام نفسه في مواجهة المشكلة المزدوجة التي آثارها تدخله المفاجيء في

العالم العصري الذي دفعه إليه الغرب فكان عليه أن يحدد نفسه إجمالا بالنسبة لاوربا ذات التقدم والتقنيات ، وفي نفس الوقت بالنسبة لأوربا الجنسيات المتعددة وأن يحدد جنسياته وكذلك العلاقة التي تربطها بنفسه .

لكن إذا كان الشرق الأدنى يلعب الدور الرئيسي في هذا الجهد وفي هذه الصراعات وهذه الاضطرابات فأن هذا الدور لم يكن قاصرا عليه فقد أمتد تأمل الإسلام للاصلاح والقومية حتى الهند .

إيران والهند الإسلاميتان

هل يمكننا التحدث عن الاصلاح في إيران ؟ . . في الواقع أن طوائف البابية التي نشأت حوالي ١٨٤٤ أو البهائية بعد ذلك بعشرين عاما تدخلان في مصاف الصوفية أو إنتظار مجيء المسيح الشيعي (المهدي المنتظر) ، ومع ذلك ودون أن نتحدث عن عودة فكرة هذا المذهب الذي يعبر هو أيضاً وبأسلوبه عن حالة أزمة الإسلام في القرن التاسع عشر ، فإن الحلول التي يتوصل إليها المذهب الثاني تؤدي على الأقل إلى حركتين تبتعدان بشدة عن عادات الإسلام التقليدي ، حتى وإن تم التعبير عنهما بأسلوب يظل إسلامياً ، فأن بعض الأفكار البهائية القوية تعد ملكاً لتلك الفترة بلا شك ، ومنها رفض الحرب المقدسة ، والمساواة بين كل الأديان ، وضرورة المزج بين العلم والايمان ، وأخيراً إدانة القومية والمناداة بسلام دولي ، ويعد رد البهائية هنا واضحاً بشكل خاص بالنسبة لعصره .

وتعد نقطة ارتطام القرن التاسع عشر أكثر وضوحاً في تلك الهند الخاضعة للسلطة الأجنبية حيث كثيرا ما لاقت المعارضة تأييد الإسلام مثلما كان الحال ولو جزئياً بالنسبة لثورة طائفة السيباي ، ففي البداية كان المشرعون المسلمون مثل أحمد خان بهادور يحلمون بأمة هندية واحدة تقوم بجمع الإسلام والهندوسية والمسيحية ، لكن سرعان ما اجبرتهم الوطنية الهندية بالمطالبة بالتجميع الأممي الإسلامي لذلك راحت العودة إلى تراث الإسلام والبدء بالالتزام بالمعطيات الصارمة للقرآن وحياة النبي تحيي كلا من الاصلاح والقومية للإسلام الهندي .

كما تم الاتفاق على أن يمر تجديد الهند بالتدريب بالانجليزية على العلوم العربية وإنطلاقاً من هذا المفهوم تم تأسيس معهد عليكرة بدافع من أحمد خان

(عام (١٨٧٥) كما أنشئت مدرسة انجليزية في سيلان (عام ١٨٧٢) كما تم بعد ذلك بقليل إنشاء مدرسة الظاهرة (عام ١٨٩٢) برئاسة عرابي المنفى الكبير ، لكن إذا كانت هناك تجديدات في الهند فقد تمت بمعنى قول « نعم » للغرب حامل التقدم التقني كما كانت تعني « لا » للتجارة المستغلة وللمادية التي يجرها هذا التقدم خلفه والتي ترفضها روح القرآن وروح التراث وهكذا يبدو الإسلامي الهندي في وضعه المزدوج خاصة من أحمد خان ، وهكذا استمر عند محمد اقبال (المتوفي عام ١٩٣٨) أبو الفكرة الباكستانية التي تبلورت نهائيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية عند محمد علي جناح ولياقت علي خان .

لكن الباكستان تعني أيضاً نجاح امـية فريدة ، أي أمة أساسها ديني تجعل من الإسلام قاعدة صفة المواطن في مواجهة كل من الهندوسية والغرب معا ، ولقد أدت إنطلاقة الوطنية الإسلامية المحلية ـ رغم إستخدام اللغة الانجليزية كلغة نفعية ـ إلى تقدم لغة الأوردو التي تألق بها الشاعر الكبير غالب ميرزا (١٧٩٧ ـ ١٨٦٩) والتي ستصبح اللغة الرسمية لباكستان كما أدت إلى تطوير الثقافة باللغة العربية خاصة في حيدر آباد حيث سيؤدي تراث شديد الحيوية بهذا المعنى إلى إنشاء جامعة السليمانية المشرفة عام ١٩١٨ .

الشرق الأدنى والنهضة الثقافية العربية

إن الاتجاهات الاصلاحية راحت تمس أيضاً العالم العربي وتمسه خاصة ابتداء من ذلك الاصلاح الإسلامي الذي يمثل بالنسبة للبعض العودة الصافية والبسيطة لقانون الإسلام وهو هدف راح الوهابيون يروجون له في شبه الجزيرة العربية كما روجه أوائل أنصار الحركة السنوسية في برقة أما في تونس فقد اتخذ الاصلاح لونا أكثر عصرية مع خير الدين ومحمد بيرم وكذلك في معهد صادقي المؤسـس ١٨٧٥ بقوانين ونظم مستوحاة من التعليم الأوربي .

مراحل الاصلاح

ومع ذلك فأن الشرق الأدنى هو الذي سيدفع حقيقة بفكرة التأمل حول إسلام مجدد وخاصة حول الدور الذي يجب على العرب أن يلعبوه في ذلك القرن التاسع عشر بما أنه لا يمكن فصل الفكرتين تماما .

وأفضل وسيلة تمكننا من الرؤ ية بوضوح هي أن نميز ولو نظريا بين المراحل الكبرى لهذه الحركة .

لنبدأ بعرض أيام محمد علي : إن الصحافة والتعليم وإرسال الطلاب في بعثات إلى فرنسا أدى إلى تفتح أول براعم للأفكار الجديدة ، ويتألق اسم رفاعة الطهطاوي في هذه الفترة فهو قائد سياسة واسعة للترجمة وصحفي وداعية للغرب الحديث .

وفي حوالي عام ١٨٤٠ فأن ما يطلقون عليه « النهضة » سيجد أرضه الخصبة في لبنان وذلك ما ندركه تماما إذ أن مرور إبراهيم بن محمد علي هو الذي فتح الأبواب على مصراعيها أمام الغرب وذلك أكثر من السياسة المتبعة من الأمير بشير الثاني المؤ يد لعلاقات متصلة مع فرنسا ومع المسيحية وتدفقت الارساليات الأجنبية من كل إتجاه وقد دفعها ميلها إلى التبشير الديني إلى تطوير نوع من التعليم باللغة العربية خاصة من جانب البروتستانتيين وترجمة العديد من الأعمال الأوربية وليس الأنجيل فحسب إلى اللغة العربية بفضل مطابعهم (١٨٤٠) وذلك بغية مضاعفة المؤسسات والمعاهد المختلفة التي سيكون من بينها الجامعة الأمريكية كما سيكون للجزويت جامعة سان جوزيف ، وكان الرد اللبناني لهذه الدعوات حاسما وخصبا ، فتم تأسيس مدرسة عليا وطنية عام ١٨٦٣ وتطوير الصحافة وإسناد أعمال الترجمة إلى العرب هذه المرة وتألقت ثلاثة أسماء كلها مسيحية لتسيطر على هذه الفترة : ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) مؤلف قاموس ودائرة معارف رائعة ، وفارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) الذي اعتنق الإسلام فيما بعد .

وبدأت نقطة تحول حوالي عام ١٨٧٦ عندما بدأت خيبة الآمال والقلق المتولد من تولية السلطان عبد الحميد ثم من سياسة الرجعية التي ألقت بالمثقفين في مصر أيام إسماعيل وكانت في قمة تطورها الثقافي ، وترجع الانطلاقة الحقيقية للصحافة المصرية باللغة العربية إلى أيام هؤلاء المحركين سواء كانوا مصريين أم سوريين أم لبنانيين ، ولقد ولدت جريدة الأهرام في الاسكندرية عام ١٨٧٦ (لوحة ٣٠ب) لكن سرعان ما اتخذت هذه الحركة الشكل السياسي أو السياسي الديني دون أن تتخلى عن المشاكل الثقافية البحتة ، وبدأت هذه الحركة تنتقل

تدريجياً إلى سيادة أكبر داعية للعصرية الاسلامية وهو السيد جمال الدين الافغاني ، الذي استقر بالقاهرة عام ١٨٧٩ واضعاً أسس مدرسة جديدة للإسلام عرفت أمجد أيامها في الاعقاد الأخيرة من ذلك القرن . ولقد حان الوقت لكي نلقي بنظرة سريعة على مجمل هذه التطورات التي عرفتها الروح الإسلامية .

التعريب والاصلاح

ترى هل كانت هذه النهضة عربية أم إسلامية ؟ . . في واقع الأمر أن إنطلاقتها الكبرى بدأت على أيدي بعض المسيحيين وفي المضمون السلمي للمجموعة السورية اللبنانية ، فلقد أدرك هؤلاء المثقفون أولاً فشل الطائفية في تحريك وطن موحد حيال أوربا ، مما نجمت عنه فكرة إعادة تجميع مختلف الطوائف الدينية في إحساس مشترك يتخطى تباعدهم بل وقد بدا للبعض أقرب ما يكون من الهدف الماسوني الذي راحت المحافل الماسونية تكشف عنه للشرق وهو إنشاء دولة علمانية حقيقية .

لكن كيف يمكن تعريف هذه الدولة المتطلع إلى مولدها ؟ لا شك من خلال ماضيها وعاداتها مما أدى إلى اللجوء إلى التعريب على أنه التراث الذي لا ينقسم للمسلمين والمسيحيين ، وإلى إحياء لغته ، العمل على نظم الشعر أو كتابة النثر باللغة العربية ، وإيقاظ التراث الأدبي الكبير من سباته مع تعليم أمجاده البعيدة تلك كانت المادة الأولى لهذا البرنامج الوطني السوري اللبناني الذي راح يبحث هنا عن رواد قدامى من أمثال جرمانوس فرحات مطران حلب الماروني (١٦٧٠ - ١٧٣٢) .

ولنا أن نتخيل الترحيب الذي استقبل به الإسلام هذه الموضوعات ، وكان هو أيضاً يعمل على تجديد نفسه بالعودة إلى روح تراثه الكلاسيكي والذي كانت اللغة العربية إحدى دعاماته الأساسية أن المسلمين (أمثال علي باشا مبارك في مصر وعائلة الألوسي في العراق) قد ساهما في هذه النهضة الأدبية وفي هذا المجهود في محاولة استكشاف الماضي العربي وإعادة نشره ، وقد إزدادت مساهمتهم بعد سنة ١٨٠٠ إلا أن الإسلام ظل هو الإسلام أي ظل ديناً ذا نداء عالمي إذ أن العالم العربي حتى وإن لم يكن يقوم بالدور الرئيسي فإنه لم يستنفد طموحات تعميم

الإسلام الثوري » لجمال الدين الأفغاني كما سنرى بالتفصيل في الفصل القادم .

وهكذا اتخذ التعريب والاصلاح حتى عام ١٨٨٠ طرقاً تندمج حينا وتفترق حيناً آخر ، فهما يشتركان في موادهما في نفس المراكز : سوريا ولبنان أو مصر ، دون أن ننسى بالنسبة لهذه الفترة وخاصة في أواخر القرن كلا من لندن وباريس كما اشتركا أيضاً في الاهتمام بعمل التجديد الثقافي بلغة عربية تزداد حيوية عن طريق الاتصال بالعالم العصري لكنها تظل وفية للحدود الأساسية للصرف والنحو كما اشتركا أيضاً ـ ولو بشيء من التفاوت ـ في الموقف تجاه الغرب : الرغبة في الاستلهام من منجزاته التقنية والسياسية والعمل على تحرير البنيان الاداري في الشرق الأدنى مثلما فعل الغرب ، إلا أنهما قد خافا أن تسيطر أوربا على الإسلام خاصة وقد تم تعريفها على أنها مرادف للمادية والنفعية البحتة ، وأخيراً لقد اشتركا في الابتعاد عن أي فكرة تدعو إلى الانفصال التام عن الباب العالي ، وقد استمر جمال الدين الأفغاني في أن يجعل منه مقر الخلافة إلا أن الموالين المصرين على الفكر العربي لم يفكروا في الانقسام رغم انتقادهم بمرارة للسلطة المطلقة للسلاطين وسيطرة الاتراك ، وربما فكروا في إدارة ذاتية وليس في التحرر أو على الأقل ليس في تلك الفترة بالذات ، كما لم يفكروا في تعميم الفكر العربي وإنما في التعبير باللغة العربية عن الوطنية سواء كانت سورية أو لبنانية أو مصرية ، وهي ترددات ومواقف وسط لخصها البستاني قائلاً « أن الامبراطورية هي وطننا .أمابلدنا فهو سوريا » .

ومع ذلك فقد ظلت هناك مشكلة تحت هوية أو تشابه التطلعات وهي : هل يمكن للأمة أن تكون في نفس الوقت ذلك الوطن العربي الذي يبحث عن نفسه ، وذلك التجميع التقليدي للمؤمنين المسلمين سواء كانوا عرباً أم لا والذي كان جمال الدين الافغاني يحلم بعودته ؟ فإذا ما استطاعت المسيحية أن تتفق مع الاتجاه الأول والذي قد ساهم في إنطلاقه بشدة ألم يكن مجبرا على أن يظل متحفظاً حيال الثانية ؟ . . لعلنا نميل إلى تصديق ذلك أكثر خاصة وأن الامتيازات الأجنبية ثم التدخلات العسكرية الأجنبية وأحياناً النشاط المكثف للارساليات الدينية التي راحت تربط الطوائف المسيحية أو بعضها إقتصاديا وثقافيا بالغرب قد دفعهم من وقت إلى آخر إلى التعرض لردود الفعل للجماهير المسلمة مثلما حدث في

الاسكندرية عام ١٨٨٢ وقبل ذلك عام ١٨٦٠ في دمشق حيث تم إنقاذ حياة أكثر من مسيحي بفضل عبد القادر المنفي الكبير.

وكان الهدف الأساسي للمثقفين السوريين واللبنانيين في نهضة الآداب العربية يرمي إلى تجنب مثل هذا النوع من الانفصال وإلى إعادة إستقرار المسيحية الشرقية فيما اعترف على تسميته مكانتها الحقيقية أي نفس ذلك الشرق ، وهو موقف يمكننا إدراكه على الأقل بالنسبة للبنان إذ أن الإسلام هنا لم يكن يحتل موقع الأغلبية وإنما كان وسط هذا العدد من الطوائف يمثل دينا ضمن كل هذه الأديان التي تكون الوطن المشترك الذي يجب إدراكه تحت اللواء العربي ، إلا أننا نتخيل أن معطيات هذه المشكلة كانت تتغير في بلد يمثل فيه المسلمون الأغلبية المطلقة كما في مصر ، وحتى إذا كانت الوطنية تحظى بمساندة لا يستهان بها من قبل الأقليات فلم يكن في وسعها إلا أن تصبح عاجلاً أو اجـلاً هدف المسلمين أولاً ، كما أننا ندرك أنهم كانوا يحتلون هنا مكانة متزايدة في إنطلاقه الآداب العربية وأن هذه الانطلاقة كانت تتفق مع تجديد التأمل حول الإسلام ، تأمل الافغاني واتباعه . إن هذا الاصلاح الإسلامي كما يحدده هـ. لاوست ، لا يوجد عنده تناقض بين أمة المؤمنين ووطن المواطنين إذ أن هذه تتواجد بشكل طبيعي في النطاق الأوسع لتلك .

ولنحاول تلخيص نوع من الاستقبالية عن فترة أعوام ١٨٨٠ فمن حيث المبدأ كما يدل على ذلك العالم اللبناني الصغير ، فأن التجديد العربي والتجديد الإسلامي لا يمكن بالضرورة تركيبهما قهرا أو بشكل مطابق ، وهما لا يتطابقان كما يمكننا أن نتوقع إلا في الوسط الإسلامي وبالقدر الذي لا يكون فيه هذا الوسط قد مس بالعلمانية مثلما حدث اليوم ، لكن لنتوقف عند عام ١٨٨٠ ترى هـل يمكننا التحدث عن إختلافات كامنة بين التعريب والإسلام ؟ في الواقع إن كانت هناك أزمة فهي تواجه مجازفة أن تتخطاها ديناميكية تاريخ يعطي ثقله المتزايد للعنصر الإسلامي ، تاريخ يجعل من الشرق الأوسط (أي من منطقة ذات أغلبية إسلامية) كلا « يعيش إجمالا » ويصر على أن يعامل إجمالا ـ وذلك بتطوير النهضة الثقافية العربية في كل مكان ، مقاربا بذلك بين العرب في هدف مشترك وبالتالي

لا يمكن للمسيحية اللبنانية أن تزعم تفريق مصيره طالما هو يصر على أن تتحدد معالمه من خلال صفته العربية .

وهكذا فلا شك في أنه إذا ما تزايد ضغط السلطة المطلقة التركية والامبريالية الغربية الأوربية لأعوام ١٨٨٠ فإنها ستزيد من اجتذاب القوى المعارضة ضدها ، للتعريب وللاسلام ، وأن أي تحليل نظري قد يؤدي إلى الانفصال إلا أن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ستسمحان لنا الآن بقياس المسيرة التي تمت .

الفصل الثاني

تصعيد الوطنيات من عام ١٨٨٠ الى مابعد الحرب العالمية الأولى

إن حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ لم تخلق حركات وطنية ولكنها أثرت كعنصر كاشف على قوى قائمة بالفعل ، وإن لم تكن واضحة تماما لنفسها وذلك مثل التضحيات التي قدمتها الشعوب الإسلامية التابعة للامبراطوريات الاستعمارية والوعود الزائفة وازدياد الاطماع الغربية صبيحة الحرب ، وأخيراً اختفاء الدولة العثمانية الكبرى ثم إنتهاء الخلافة عام ١٩٢٤ وكلها أحداث جديدة لها ثقلها وسوف تفرض تزايدا حيويا على تاريخ الوطنيات في الإسلام .

١ ـ العدو الغربي

فيما بين أعوام ١٨٨٠ ـ ١٩٢٠ ستقوم أوربا الجسورة بالانقضاض على جبهتين مفتوحتين هما البلقان وفيما وراء البحار .

حرائق بلقانية

بدأت تركيا التي تهزها القلاقل الداخلية والتي تعيش على منجزات التنظيمات ـ لكنها منجزات مجمدة ، تحدها السلطة المستبدة للسلطان عبد الحميد الثاني ـ اتنكمش في تزايد نسبي حيال الاطماع التي لا تشبع للدول الاوربية ومتناقضاتها ففي بلاد تلك البلقان التي تعتمل بها الدعايات الوطنية التي تحركها فكرة الإسلام العامة التركية والتي تساندها المحاولات من أجل تصفية القوى الكبرى بالاضافة إلى عادة قديمة لرهبة النزعة اليونانية التي تعود إلى تلك الأزمنة

التي اسند فيها الباب العالي لبطركية القسطنطينية الدور الرئيسي الذي رأيناه في هذه البلقـان : كان كل شيء يدعو إلى الحرائق ، وفي عام ١٨٩٧ إندلعت الثورة الكريتية التي أدت إلى الحرب اليونانية التركية وسرعان ما انتهت بتدخل القوى الكبرى واصبحت كريت تحت الحكم الذاتي برئاسة الأمير جورج من اليونان ، ولم يقف المقدونيون مكتوفي الأيدي فقاموا باضرابات أدت إلى معاهدة مورستج عام ١٩٠٣ التي فرضت عليهم شركة أوربية ، وفي عام ١٩٠٩ منح الباب العالي لبلغاريا استقلالها ببساطة وكانت قد اصبحت مسيطرة على مقاطعة رومليا الشرقية منذ عام ١٨٨٥ .

وكان عام ١٩١٢ مقدمة الحرب العالمية الأولى وكانت الدول البلقانية متحدة ضد تركيا وقد حصلت في إتفاقيات لندن المبدئية (٣٠ مايو ١٩١٣) على معظم منطقة الأراضي الأوربية للامبراطورية العثمانية بما فيها أدرنة ، إلا أن تقسيم الغنائم يعيد المنتصرين إلى عاداتهم القديمة وانتهت حرب بلغاريا وحلفائها الجدد بتوقيع معاهدة السلام في ١٠ أغسطس عام ١٩١٣ واستعادت تركيا منطقة ادرنة ولكن ليس ممتلكاتها القديمة ، إذ تم تقسيم مقدونيا بين كل من بلغاريا واليونان والصرب كما تم تقسيم منطقة سندباك في نوفي بازار بين الصرب ومنتنجرو ، كما اصبحت كريت يونانية هي وجزر بحر إيجة باستثناء رودس والدود يكانيز وكانتا تابعتين لايطاليا منذ ١٩١٢ ، أما البانيا فقد اعلن استقلالها تحت زعامة أمير الماني سرعان ما هرب إلا أن الحرب العالمية الأولى كانت قد اندلعت .

ولم تعدل هذه الحرب من الحدود الخاصة بتركيا الجديدة إلا إذا ما اغفلنا معاهدة سيفر (١٠ اغسطس ١٩٢٠) وذلك أمر طبيعي لنعتبر أن الحرب لم تنته هنا حقيقة إلا بمعاهدة لوزان في الرابع والعشرين من يوليو ١٩٢٣ ، وفيما بين هذين التاريخين نهضت تركيا على المستوى الخارجي بشكل ملفت ، فقد افسدت استقرار اليونان على الشطآن الشرقية لبحر إيجة ، وبتت مع اثينا ـ من خلال التنقلات المتبادلة ـ في مشكلة السكان ، وحصلت على نهاية الامتيازات الأجنبية ، وفرضت الاعتراف بدورها البارز في المضايق وحددت حدودها بتفادي خلق كردستان ذات سيادة أو تحرير ارمنيا ، أما التعديلات اللاحقة الوحيدة فهي في عام

١٩٢٦ حين تنازلت تركيا للعراق عن منطقة الموصل وفي عام ١٩٣٩ حصلت من فرنسا بصفتها قوة كبرى في سوريا على الاسكندرونة .

كما اننا نعرف تطور أحداث الأسلحة ومنها الوقوف إلى جانب قوى أوربا الوسطى ، ومعارك القوقاز ، وقناة السويس والدردنيل والعراق ، وثورة العرب عام ١٩١٦ ، إلا أن الحرب العظمى تعني أيضاً وأولاً ـ كما سنرى فيما بعد ـ تركيا في قمة التغيير والتي كان تاريخها الذي يجري بين السطور وخلف المعارك أو المعاهدات يواجه القوى المعارضة المجسدة من قبل السلطان في الطاقات الجديدة التي سيجمعها ابتداء من ١٩١٩ أبـو تركيا الحديثة : مصطفى كمال ، وعلى أي حال فإن الفصل الأخير والذي يقع بين معاهدتي سيفر ولوزان كان قائما على جبهتين .

ويعد عام ١٩٢٢ قمة حرب التحرير وقد شاهدت سقوط السلطان (في أول نوفمبر) وكارثة اليونان التي هزمت مرتين : عام ١٩٢١ في ميدان معركة تميمة اينونو وأخيراً انهزامها بحرا بعد عودة خطرة هجومية أي أن تركيا تم تحريرها بشكل مزدوج وراحت تستقر في العالم بعد معاهدة لوزان .

الامبريالية التي لا ترتوي

في هذه الاثناء قامت الامبريالية بافتراس بقايا الجسد العثماني الكبير ، ففيما بين عامي ١٩١١ ، ١٩١٢ قامت إيطاليا بوضع يدها على شطآن طرابلس وبرقة وعلى كل من رودس والدوديكانيز كما سبق أن أشرنا وبعد الحرب انتقلت سوريا تحت الانتداب الفرنسي ، والعراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني .

ولا بد لنا من إضافة المغرب المضطرب والغارق في الديون إلى هذه البلاد التي تم إخماد ثوراتها وكان المغرب المضطرب خاضعا لألاعيب مصالح الفرنسيين والألمان والاسبان والانجليز وأخيراً تم تقسيمه بين فرنسا واسبانيا بعد تنازل المانيا عام ١٩١١ ، ومنذ أعوام ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ أصبحت الصحراء وبلدان السودان النيجيري وتشاد تحت السيطرة الفرنسية أو الانجليزية أما في أفريقيا الشرقية فقد راحتا تتاقسمان اللعبة بأن تتلقى الواحدة منهما غنائم الأخرى في معاهدة فرساي ثم أتت إيطاليا خلفهما من بعيد فسوف تصبح اريتريا عام ١٨٨٢ والصومال بعدها

بسبع سنوات مركزا للتنافس الامبريالي إلا أنهما لم تعوضا أبداً كارثة عـدوة أمام الاثيوبيين (في أول مارس ١٨٩٦) .

وكانت هناك أشكال من التوغل أكثر دهاء وهكذا تم في ٣١ أغسطس عاه ١٩٠٧ الاتفاق بين الانجليز والروس حول مصير آسيا الوسطى عن طريق المعاهدة التي تنص على أن تتراجع روسيا عن افغانستان مقابل تنازل انجلترا عن التبت في حين تم تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ : واحدة للروس في الشمال والأخرى للانجليز في الجنوب ، وفي اماكن اخرى كانت مشاريع السكة الحديدية هي المقدمة لاستغلالات منظمة رسميا ويعتبر مشروعا قامت بتنفيذه الأمة الإسلامية أساسا ، إلا أنه يعني بعد ذلك أنه مؤسسة تهدف إلى خدمة المصالح الاستراتيجية والاقتصادية لتركيا ، إذ أن « شركة بغداد للسكة الحديد » تبدو على العكس من ذلك واحدة من أكثر الأشكال التي تدل على أسلوب توسعي جديد ، إذ أن ما انتزعه الألمان من امتيازات جديدة عام ١٩٠٣ لم يكن حق إنشاء الطريق مع مميزات جمركية باهظة فحسب ولكن أيضاً حق إنشاء أسواق واستغلال للمناجم على امتداد عشرين كيلو مترا على جانبي خط السكة الحديد .

إننا نقيس على ما يحدث في بلد مستقل نظريا ما يمكن أن يكون عليه ثقل المتطلبات الاقتصادية الأوربية في بلد خاضع مباشرة للسلطة الاستعمارية ويكفينا مـثلا على ذلك بالنسبة للجزائر ، فإذا كان القمح قد ظل « محصول الاستعمار المفضل » حتى عام ١٨٨١ فأن الكروم قد اتخذت الصدارة بعد ذلك وكانت في أيدي المستعمرين كلية فما أن تم التغلب على آفة الكروم حتى زاد المستعمر من زراعتها وسط الغبطة التي تلت عند منتصف القرن باقامة الادارة الذاتية الاقتصادية ففي مثل هذا البلد الذي تعد أغلبية سكانه من المسلمين فإن الكروم التي كانت تحتل ٢٣٠٠٠ هكتار عام ١٨٨٠ ارتفعت مساحتها إلى ١٢٣,٠٠٠ هكتار عام ١٨٩٦ ثم إلى ٢٥٠,٠٠٠ هكتار عام ١٩٣٠ .

أما فيما يتعلق بمصر التي كانت تعد غنيمة بالنسبة لغزالي مانشستر فقد تزايد إنتاج القطن على حساب المحاصيل الغذائية ووصلت المساحة المنزرعة قطنا إلى ٤٠٠,٠٠٠ هكتار في أواخر القرن وتضاعفت تقريبا في عام ١٩٢٩ .

بدايات الصهيونية

في الواقع لا بد لنا من تحديد بدايات الصهيونية في نفس الاطار التاريخي المكون من غرب أمبريالي وشرق يخضع للاستعمار ، وبخلاف كونه عودا بقوة السلاح وبقوة ضغط ثرواته فإن شراسة الغرب ستزداد بتلك الشوكة التي راح يغرسها علنا في صدر العالم الإسلامي فسواء أردنا أم لم نرد فإن انجلترا كقوة استعمارية كبرى بتحديدها الزمان والمكان في الأراضي التي تحتلها هي التي جعلت في فلسطين « المقر الوطني اليهودي » المقبل إذ أن إعلان وعد بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ والذي ايدته كل من فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة قد فتح الباب للعديد من المشاكل التي راحت الشعوب المحتلة ـ مرة أخرى ـ تدفع ثمنها .

ومن أصعب الأمور أن تلك الوثيقة راحت تبيح وتضاعف هجرة اليهود قبل أن تحل المشكلة الأساسية أولاً (فمن ٢٥,٠٠٠ مهاجر يهودي عام ١٨٨٠ أصبح عدد يهود فلسطين ٨٠,٠٠٠ عام ١٩١٤ ثم ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٣٩) هل هي رعونة أم مكر ؟ استبهام أو رياء ؟ على أي حال أن نص هذا الوعد لم يكن يغفل الوعود التي اعطيت للعرب عندما طلب منهم الانجليز معاونتهم في ثورتهم ضد الاتراك أيام الحرب الكبرى .

أين كانت تلك الدولة المستقلة والموحدة التي اغروهم بها ؟ ففي خريف عام ١٩١٧ كان كل شيء بالفعل مجرد فخ أو خديعة ، ففيما يتعلق باليهود الذين سمح لهم بخلق كيان وطني لم يكن من حقهم وفقا لحرفية تعبير كلمة « مقر » أن يحلموا بدولة أما بالنسبة للعرب الذين وافقوا بـلا مقاومة ـ منذ أواخر القرن ـ على قبول مستوطنين يهود فقد بدأوا يدركون أنهم يمثلون عقبة لخلق وطنهم هم .

وافتتحت الاضطرابات التي اندلعت عام ١٩٢٨ حلقة جديدة من التاريخ هو تاريخنا المعاصر للاسـف والذي لم تحل مشاكله بعد .

٢ ـ المقاومة الاسلامية

ومن جراء هذا التعدي راح الإسلام من أقصى العالم الإسلامي إلى إدناه يحرك تاريخ هذه الثورات حيث لم يشأ الغرب أن يرى فيها سوى عواقب مغامرته الاستعمارية ، وإذا امكننا أن نكتشف أيضاً في هذه الحركات مولد بعض

الوطنيات أو استتبابها ، فالإسلام أيضاً هو الذي يظل الروح المحركة للمقاومة والكلمة الآمرة الجامعة لكل هذه الطاقات والجامع الأكبر لقوى المعارضة . وهذا الإسلام الذي كان يحركه ويدعمه الكثيرون من نساكه وعلمائه كان يستفيد من العديد من التضامنات لكي يوصل أوامره سرا ، فقد كان يلجأ إلى التجار والطلبة وخاصة رواة القصص ذات المغزى والذي يعد مداح الشمال الأفريقي إلى حد ما نموذجا له ، وهكذا نرى أعوام ١٨٨٠ ـ ١٩٢٠ إذا ما نظرنا إليها على مستوى الإسلام ككل ، تمثل الاضطراب المتواصل لعالم مسيطر عليه وليس مقهـورا .

العالم الأفريقي الآسيوي .

نحن نهدف بوعي إلى إستخدام إحدى التعبيرات المميزة للعالم الثالث اليوم وهي أن هاتين القارتين كانتا تقومان بنفس المعركة منذ القرن التاسع عشر .

المجال العربي

لنبدأ أولاً بصراع الإسلام في مجاله العربي ففي المغرب التي استتب فيها الأمن بصعوبة وظلت دائمة الانطلاقة المحمومة بدأ عبد الكريم (شكل ٧٠) يترك مأواه في جبال الريف وفي ليبيا بدأت حركة السنوسية تحرك المقاومة ضد الغزاة الايطاليين ، وفي العراق شهد يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٢٠ ثورة عامة ضد انجلترا كانت حصيلتها ٨٤٥٠ قتيلا وجريحا من الثوار ، وفي سوريا أثار دخول القوات الفرنسية يوم ٢٥ يوليو من نفس العام ثورة عامة في جبل الدروز وأخيراً في شبه الجزيرة العربية سقط الشريف حسين عام ١٩٢٤ بينما كان الانجليز يحمونه كما كان يحمل لقب شريف مكة ، وذلك في مواجهة إسلام الوهابيين الصارم ، وبدأت أسرة عبد العزيز آل سعود الحاكمة تقيم أول ملك لها بإسم « ملك نجد والحجاز » .

ترى هل هو إسلام أم عروبة ؟ . . . ومرة أخرى ـ وليست الأخيرة ـ لا بد لنا من إعادة طرح السؤال ، فإذا امكننا في الواقع أن نرجع ثورات الحركات الوهابية والسنوسية إلى أسباب دينية أساساً فأن الإسلام في أماكن أخرى يبدو وكأنه يلقي ظله على تطلعات جديدة ستأخذ أبعادها الجديدة تدريجيا وذلك مثلما حدث في العراق وسوريا بل وحتى في المغرب . ترى هل تتضح هذه الظاهرة أكثر عندما

تتخذ هذه الصراعات شكلاً عقائدياً تاركة الدور الأساسي للجماعات السياسية ولزعمائها الذين نشأوا على الطريقة الأوروبيـة ؟ . . . . . إن الحركات التي راحت ترتسم آنذاك تدل على كل حال على انبثاق طبقات إجتماعية جديدة : الموظفون الاداريون في الصناعة وفي البنوك ، الموظفون وخاصة المثقفون أو أصحاب المهن الحرة والذين يكونون دعامة حزب الدستور « الذي ولد في تونس يوم ٤ يونيو عام ١٩٢٠ للشبان التونسيين في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، للشبان المغاربة الذين راحوا يلتفون حول أحمد بلافري عام ١٩٢٥ ، وحزب الوفد المصري الذي تكون عام ١٩١٨ .



شكل ٧٠ ـ عبدالكريم

ورغم كل شيء فلا يتعلق الأمر بعد ـ كظاهرة جماهيرية ـ بالوطنيات الصافية إلا ربما باستثناء سوريا والعراق فمن جهة ـ في الواقع ـ يؤثر النموذج الغربي بشكل واضح بواسطة الاستعمار بحيث أن بعض المثقفين ـ مثلما في الجزائر ـ راحوا يقدمون الليبرالية السياسية على المتطلبات الوطنية حتى وإن تم ذلك في نطاق قانون المستعمر ، ومن جهة أخرى لا يمكننا أن نتحدث عن « الوفد » ولا عن التجمعات الأخرى كأحزاب بالمعنى المفهوم العصري لهذه الكلمة ولا عن أحزاب متحررة تماما من أي تأثير ديني فقد نمت كل هذه الأحزاب في ظل الاصلاح الاسلامي لجمال الدين الأفغاني وتعد الهوية الوطنية التي تبحث عنها الأحزاب في صراعها ضد المستعمر لا تنفصل أبداً عن ذلك الدين الذي يعد من أهم الدعائم .

كما أن حركة المثقفين التي تعاني من أجل التقدم والاستقلال تظل هي نفسها لا تنفصم عن مقاومة الأوساط الدينية إذ أن الجزائريين الشبان يعتبرون أنفسهم حاملي اللواء من خلال أمتهم الإسلامية ، ولننه الحديث في هذا الموضوع بالتركيز على آخر فترة من هذا التاريخ بمثل محدد هو أن الحماية الفرنسية قد أعلنت عام ١٩٣٠ أن الظاهر البربري كان ينزع جزءاً هاما من التعداد المغربي من تشريع القضاة على أمل أن تنتزع هذه المنطقة من نفوذ الإسلام ، وبذلك راح المستعمر يحرك ضده أصدقاء أحمد بلافريج والمصلح الديني علال الفاسي .

عالم المحيط الهندي

على كل حال فأن الإسلام قد ظل في أماكن أخرى هو محك المقاومة ونطاق ودعامة الاحتجاجات الوطنية رغم أي شيء ، ففي الصومال أعلن محمد عبد الحسن الجهاد ضد الانجليز عام ١٩٠٠ وفي أندونيسيا استمرت سلطنة أطجة في مقاومة السلاح الهولندي حتى عام ١٩١٠ ، وفي الهند بدأت بوادر التجمع السياسي للأمة الإسلامية في مواجهة انجلترا والهندوسية وانتهت عام ١٩٠٦ بقيام « جامعة مسلمي الهند » التي تعد البوتقة التي انصهرت فيها فكرة قيام دولة باكستان التي ساندها محمد إقبال بشكل حاسم حوالي عام ١٩٣٠ ، وأخيراً في فارس فأن الاحتجاجات الوطنية ضد التدخل الأجنبي الروسي أو الهندي قد تضافرت مع التطلعات السياسية للمثقفين والأوساط الحرفية والتجارية وكذلك إلى رد دعاية رجال الدين « الملاّ » المعبرين عن شيعية دائمة البحث عن عدالة إجتماعية ، وابتـدأ عام ١٩٠٦ مرحلة تغيرات كبرى بفضل إعلان الدستور وأول إجتماع لمجلس الأمة وهي مرحلة ستقودها الحرب العالمية الكبرى المرادفة للقلاقل والتدخلات الأجنبية إلى نهايتها في الداخل والخارج ، ففي صبيحة الصراع راح تأكيد الاستقلال السياسي الذي اكده قبول البلد في عصبة الأمم والموافقة على إنشاء جيش وطني يتمشى مع سقوط أسرة قادجار الحاكمة والتي ترمز إلى ماض يظن أنه قد تطور ، ففي عام ١٩٢٦ تولى العرش أول ممثل للاسرة الحاكمة الحالية هو رضا شاه بهلوي ، الذي قام بتجديد القطاعات الصناعية في إيران وبدأ محاولة إقامة دولة علمانية لا دينية كرمز للعصر الحديث .

أفريقيا السودانية

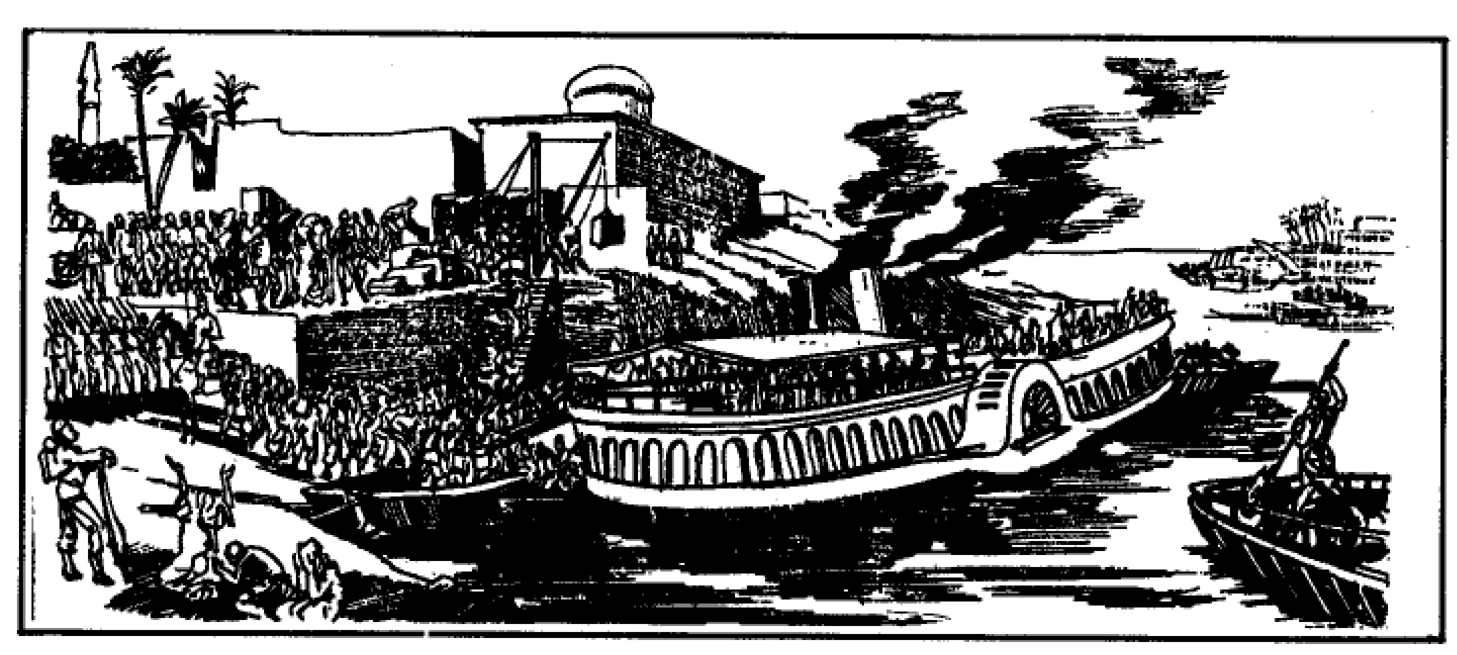
إن الإسلام الفعال ، الإسلام الثوري والموحد للجماعات سوف نراه بشكل أفضل في أفريقيا ، فسوف يقدم هياكل سياسية مبتكرة للمجتمعات القبلية القديمة التي في حالة تطور ، كما سوف يثير تاريخ الصراعات بين هذه المجتمعات أو بينها وبين المستعمر - وذلك كان بالفعل الوضع في النصف الأول من القرن التاسع عشر - الجهاد البربري الأبيض لعثمان دان فوديو (١٨٠٤ - ١٨١٠) أو لمجلس تلك الدينة « مشتقة من تلك الكلمة العربية « الدين » المكون من أربعين ناسكا والذي كون حول الزعيم سكو أمادو دعامة الامبراطورية البربرية البيضاء في مسينا ، وأن الدينة بصفتها « جماعة تيوقراطية » قد هزمتها عام ١٨٦٢ قبائل التوكولير التابعة للحاج عمر وهو ناسك آخر من أعداء فيديريب لكنه تابع أيضاً للبمباراس الروحيين وللبربر البيض والذين يعد إسلامهم « منافقاً » .

إن هذه المؤسسة الجديدة والكبرى للتجمع الإسلامي والقائمة فيما حول أنهار النيجر والسنغال وجامبيا ستستمر لفترة ما بعد موت الحاج عمر ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ عبر ابنه أحمد والذي لن يتمكن الفرنسيون من القضاء عليه إلا فيما بين ١٨٩٠ - ١٨٩٣ ، إلا أن نتائج هذه المغامرة لن تكون - رغم كل شيء - على مستوى اتساعها الأرضي . فاسلام قبائل التوكولير سيمر على المعاقل التقليدية للروحيين الخاضعين فحسب دون أن يهزمهم ، ودون أن يدخلوا الدين الجديد ، وأخيراً فإن نتائج حروب الحاج عمر ليست لها أهمية بالنسبة لتقدم دخول أفريقيا الغربية إلى الإسلام بقدر أهمية تحويل ديانة جماعة الوولوف في السنغال في أواخر القرن ، أن ما بقي - قبل أي شيء - من ملحمة البطل العجوز التابع لقبائل التوكولير هو إثبات مقدرة الإسلام - مرة أخرى - على إقامة مجتمعات جديدة وعلى إحياء المقاومة ضد المؤسسات الأجنبية .

ونفس النتائج تبدو ممكنة - مع بعض التغييرات الضرورية - بالنسبة لامبراطورية رباح في بلاد تشاد وبالنسبة لساموري موحد بلد مانديـنج بين أعالي النيجر والغابة والذي انهزم اخيرا واستولى عليه الفرنسيون عام ١٨٩٨ ، إن الإسلام الساموري إذا ما بدا أحيانا فيه شيء من الغموض فهو يظل على أية حال

مرتبطاً في نفس الوقت بالصراع ضد الزعماء الروحيين ثم ضد المستعمر وضد تنظيم إدارة وفرض ضريبة وتكوين جيش .

أما ناحية الشرق فأن السودان بأسره يخضعه منذ عام ١٨٨٢ لسيطرة أحد أتباع إحدى الجماعات المحلية هو محمد بن عبد الله الذي نصب نفسه مهديا أن مذهبه الذي يجمع بين المساواة والتوسعية يستلهم كلا من الشيعية والصوفية والوهابية ، وقد وقف نظام المهدي ضد أثيوبيا التي سيقوم بغزوها حتى عاصمتها القديمة غوندار ولكنه سيثور خاصة ضد المحتل الانجليزي والمصري (شكل ٧١)



شكل ٧١ القوات المصرية تبحر من القاهرة إلى أسوان عام ١٨٨٥

أما عبد الله خليفة محمد فقد حاول غزو مصر إلا أنه هزم عام ١٨٨٩ ، وبعد ذلك بسبع سنوات قررت انجلترا إعادة فتح السودان فقام كتشنر بسحق المهدي عبد الله في أم درمان في الثاني من سبتمبر عام ١٨٩٨ وقد توفي بعد ذلك بعام واحد في معركة أخيرة . ترى هل يعني ذلك فشل حركة المقاومة ؟ . . . في الواقع أن الحركة المهدية قد أجادت رسم معالم نوع الحكم الذاتي الإسلامي السوداني ، كما حددت الحركة المهدية ابتكارا محليا ضد تجزءات أخرى لهذا الإسلام والأكثر ميلا لفكرة الوحدة السياسية لكل وادي النيل ، وإذا ما حلمت هذه الحركة من جانبها إلى أقصى مدى لهذا النهر فقد كان ذلك كما رأينا لقلب معنى هذه الوحدة لصالح السودان ، إلا أن الأسلحة الانجليزية عام ١٨٩٨ قد نصرت مصب النهر على أعاليه ولكنها لم تمح ذكرى المهدي كما لم تعرض التأثير العربي في السودان للخطر فيما بين ١٨٨٠ - ١٩٠٠ ، إذ أن عبد الله المنبثق من القبائل العربية فيما

بين النيل وتشاد قد أقام بعض هذه القبائل في أواسط السودان .

الصياغات الجديدة للإسلام

إن حركة المهدي ـ مثل بقية الحركات الإسلامية الأخرى آنذاك ـ لا بد من تقييمها من خلال منظور بعيد المدى ، فلا شك في أن إنتفاضات الإسلام فيما بين أعوام ١٨٨٠ ـ ١٩٢٠ قد باءت كلها بالفشل إلا انه يمكن تفسير فشل تلك الانتفاضات بنقص الدعائم المادية للثورة حيال معدات الفرق الغربية مثلما حدث في أم درمان ، إذ كانت مجزرة أكثر منها معركة كما يجب علينا أن نعمل حساب نقص مزدوج في هذه اللحظة من التاريخ ، فلا فكرة تعميم الإسـلام كشعور عـام في نفس المعركة ضد نفس العدو ، ولا الفكرة القومية كانتا قد وصلتا إلى مرحلة النضج بشكل حقيقي وهما الفكرتان اللتان ستستوحي منهما البلدان الإسلامية منابع استقلالها ، إذ بكل بساطة كانت كل فكرة منهما تتابع نضجها من خلال علمائها .

ولنبدأ بالإسلام كظاهرة إجمالية على مجمل هذه الأراضي ، فقد تعرض هذا الإسلام إلى مشكلة ثلاثية هي إخلاصه ووحدته وتوسعه .

لقد ذكرنا من قبل جزءاً من الحركات حاولت تجديد الدين بالعودة إلى المنبع الأصلي مثل الوهابية في شبه الجزيرة العربية أو حتى السنوسية في ليبيا ، من جهة أخرى الطوائف البابية والبهائية وهما على هامش الإسلام التقليدي ، فلا بد لنا من وضع مولد حركة جديدة في الهند عام ١٨٨٩ على أيدي غلام أحمد الذي أعلن نفسه مهديا للمسلمين ومسيحا للمسيحيين .

إن صلب الحركة العصرية يظل مع ذلك في أيدي من يقدرون أنه من المستحيل التفكير في إصلاح الإسلام بعيدا عن مواجهته مع المعطيات القادمة من أوربا ، فهكذا ستتأكد مثلا « حركة الجديد » أي الموالين لروح جديدة في آسيا القياصرة الوسطى ، وسوف تتخطى الثورة الروسية اتباع حركة الجديد على أنهم اعداء للأوساط الدينية المحافظة .

إلا أنه لا بد من البحث عن معظم القوى العصرية في الشرق الأوسط ،

فمصر سوف تعطي لجمال الدين الأفغاني تلميذه محمد عبده الذي سيسانده في إنشاء جمعيـة إسلامية دولية في باريس ، وكلاهما تحت نفس العنوان « العروة الوثقى » ، إلا أنها كانت مغامرة عابرة تم بعدها تعيين محمد عبده في الوظيفة الكبيرة لمفتى الديار المصرية ، وكانت شخصيته تمثل موضوع نزاع إلا أنها كانت شديدة القوة ، وقد سيطر على الفكر الإسلامي حتى وفاته عام ١٩٠٥ ، وتمكن في هذه الفترة من أن يكتسب عقلية الأفغاني ويحولها بوضوح إلى الجانب الاصلاحي ، فبالنسبة لمحمد عبده لا تعتمد نهضة الإسلام حيال الغرب على السلاح بقدر إعتمادها على تأمل الذات ، فالإسلام بصفته دين تسامح ودينا عقلانيا ويتضمن في حد ذاته المعطيات اللازمة للخير والتقدم ، وأبعد من أن يكون معاديا للتجديدات التقنية الغربية فقد أوصى بها ، بل في قول آخر لقد كان سباقا إليها بما أنه في عصر حيويته المزدهرة قد أحيا فكر هذا الغرب .

أما المشكلة الثانية فقد كانت تتعلق بوحدة الإسلام أو بقول آخر بالخلافة - إن هذا الموضوع يعد بمثابة الدعامة الأساسية للمفكر السوري رشيد رضا الذي قام بتأسيس مجلة في القاهرة عام ١٨٩٨ احتلت مكانة هامة في الفكر الإسلامي المعاصر وكان اسمها « المنار » وقبل ذلك بقليل قام سوري آخر هو الكواكبي بانتقاد السلطان العثماني بمرارة شديدة وراح يحلم بخلافة جديدة ثم تصحيح مدارها كرائدة فعلية ومرشدة روحية لأمة المؤمنين معتمدة على تجمع إسلامي دولي . إلا أنه لا الكواكبي ولا رشيد رضا قد اخفيا اعتقادهما بأنه يتعين على البلدان العربية أن تقوم من خلال هذه النهضة بالدور الرئيسي كما أنهما - على العكس من ذلك - لم يفصلا هذه العروبة السياسية « للاسلام والتي كانت تمنحه كلا من اطاره وروحه ، بل أن موقفهما كان يؤكد - كما سبق أن رأينا - ما كنا نرمي إليه ونتبينه بين سطور آخر الفصل السابق وهو دور المساندة التي كانت تتبادلها القوتان الدينية والوطنية بشكل متزايد إن أن الخلافة من وجهة النظر الاصلاحية لا تنفصل عن الأمة التي تقودها ، وقد سبق لنا أن عبرنا عن ذلك بالاشارة إلى أحلام أو محاولات التجمع الإسلامي العالمي ، ففي الواقع أن الإسلام لا يغفل - مثله مثل بقية الأديان - أن له نزعة إلى الشمولية العالمية ، لا ينبغي لها أن تتم في ذلك الوقت عن طريق الجهاد المقدس ، وإنما عن طريق جهد التأمل والاشعاع والارساليات ، وقد أدت تدخلات الغرب فيما بين عامي ١٨٨٠ - ١٩٢٠ إلى

تقوية هذه الفكرة التي اتخذت أشكالا متعددة منها فكرة الشمولية الإسلامية للعلماء المشرعين وكانت أكثر ثورية لدى جمال الدين الأفغاني ، وأكثر إصلاحية وثقافية لدى محمد عبده ، بالاضافة إلى الشمولية الإسلامية لمثاليات الدعوة الإسلامية التي ظنت فيها بين ١٩٠٥ ـ ١٩٣٥ أنها عثرت في اليابان على أرض جديدة للتوسع ، إذ كانت دولة اليابان محاطة آنذاك بهالة انتصارها على روسيا ، ثم وأخيراً الشمولية الإسلامية للاتراك فقد كان كل هم عبد الحميد هو أن يبدو ـ حيال القوى الغربية ـ كحام للمسلمين أينما كانوا ، ومنها فكرة السيطرة العثمانية على الأماكن المقدسة والمساهمة في إنطلاقة مشروع السكة الحديدية في الحجاز ورعايته ، إذ أنه الطريق الجديد لأمة المؤمنين المتجهين إلى الحج ، وكلها وقائع تهدف إلى تأكيد فكرة نزعة الباب العالي للشمولية الإسلامية . وقد تولدت فكرة الشمولية الإسلامية في مضمون ردود الفعل ضد الغرب وضد وطنية الأقليات التي تحميها ، لذلك أدت بدورها في أواخر القرن إلى عداء كامن ضد المسيحيين وإلى تلك المذابح التي وقعت لمجرد أي تحرك تبديه فئة الأقليات هذه ، وذلك مثل مذبحة مقدونيا وكريت عام ١٨٩٦ التي لا تعد شيئاً بمقارنتها بالمأساة التي حلت بالأرمن ، إذ بعد أن أعادوا تجمعهم كممثلين لغزالي مانشستر في آسيا رأوا أن وطنيتهم الوليدة تتخبط ضد التحكم المطلق للسلطان عبد الحميد الثاني وضد جيرانهم الأكراد وقد حل السلطان هذا الأشكال عن طريق الاغتيال : فقد سيرت ثلاث حملات (في أغسطس ١٨٩٤ وسبتمبر ١٨٩٥ وأغسطس ١٨٩٦) عبر الامبراطورية كلها وأدت إلى قتل ٢٥٠,٠٠٠ ضحية .

إلا أنه لا بد لنا من أن نتساءل عما إذا كانت حملات العنف هذه ضرورية بالنسبة لصحوة الاسلام وحده ، إذ أن تركيا عند منعطف ذلك القرن قد تعرضت في الواقع إلى التعبيرات الوطنية لمختلف الطوائف المسيحية التي تؤويها اكثر من تعرضها للمسيحية كظاهرة دينية إجمالية . ولم يكن يخطر ببال أحد أن هذه الوطنيات الأوربية لا تأثير لها على تركيا التي حاربوها بعنف وبالتالي قد ساهموا

بشدة من خلال نوع من الصدمة العكسية في صحوتها الذاتية ، ففي الواقع أن حركة الشبان الاتراك التي راحت منذ عام ١٨٩٥ تحل محل تركيا الفتاة الأولى أيام



شكل ٧٢ ـ السلطان عبد الحميد الثاني) .

١٨٦٧ والتي كانت اكثر إهتماما بالإسلام سوف تفتتح فترة حاسمة لا بالنسبة لتركيا وحدها وإنما بالنسبة للعرب الذين سيتورطون في هذا التحول .

٣ ـ انبثاق الوطنيات

كلما تقدمت ، كلما راحت تركيا في أوائل القرن العشرين تتباعد عن الاسلام ، إن لم يكن على الأقل عن فكرة شمولية الإسلام التي كان السلاطين يهدفون إلى تحميلها مسئولية تنفيذها ، ففي هذا الانطواء الأرضى للإسلام التركي ستحاول الوطنيات الإسلامية والتركية الحصول على إمدادات جديدة لقواها .

تفضيل الأمة التركية على الخلافة

إن السلطة المطلقة لعبد الحميد الثاني (شكل ٧٢) لم تكن قد قضت على الاتجاهات التي انبثق منها دستور عام ١٨٧٦ تتويجا لسياسة التنظيمات ، ورغم تجميد الحلم الدستوري والتطوير العصري فإن هذا التجميد لم يمنعه من أن يراود العقليات الجديدة التي تكونت في الطبقات التي دفعها الاشتراك في التطوير العصري لتركيا إلى القيام بدور فعال ومتزايد في حياة البلاد ، وإن لم يتم ذلك على نطاق الطبقة البورجوازية التجارية التي ظلت بعيدة عن هذا المجال ، إلا أن طبقة الموظفين والضباط والمثقفين - خاصة وأن ثقافة هذه الفئة الأخيرة قامت على الآداب الفارسية لأواخر القرن التاسع عشر - كانوا ملتفين حول خالد ضيا أو توفيق فكرت اللذين خلقا أسلوبا جديدا سواء في الشعر أو في النثر .

وقد عانت مجموعة الشبان الأتراك من استبداد عبد الحميد والفشل المتكرر للباب العالي سواء في الخارج أو في داخل الحدود ، فقد تجمعت هذه المجموعة منذ عام ١٨٩٠ في تنظيم سري يدعى « الاتحاد والترقي » وراحوا يعملون معتمدين على القواعد العسكرية العثمانية في أوربا .

إن تمرد كل من نيازي وأنور في مدينتي مونستير وسالونيك يعد مقدمة لثورة ١٩٠٨ التي فرضت على السلطان العودة الى دستور ١٨٧٦ . ترى هل كانت بداية ديموقراطية برلمانية وتحريرا للنظام بالنسبة لكافة شعوب الامبراطورية ؟ . . .

من الشبان الأتراك إلى مصطفى كمال

وما أن مرت الفرحة الأولى حتى تبين أن النظام الجديد لم يأت لا بالتنظيم الموعود ولا بالحرية المطلوبة ، لذلك أعادت الصراعات من أجل السلطة صحوة التاريخ السياسي لما بين أعوام ١٩٠٨ - ١٩١٣ ، وفي عام ١٩٠٩ أدت محاولة الحد من السلطة المطلقة لعبد الحميد إلى وصول الفرق العسكرية من سالونيك وإلى عزل السلطان عبد الحميد الثاني ، وأصبح السلطان الجديد محمد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) أول رئيس دستوري عثماني إلا أن ضغط الشبان الأتراك لم يتوقف عند ذلك الحد ، وفي عام ١٩١٣ انتقلت تركيا إلى حكم شبه دكتاتوري ثلاثي مكون من أنور وطلعت وجمال وكان الأولان شديدي الميل إلى التأثيرات الألمانية وأدخلا

تركيا الحرب إلى جانب القوى المركزية. ترى أين ذهبت تلك الروح المناضلة التي كانت تهتم فيها مضى بإعادة مكانة تركيا وحظوتها في مواجهة الغرب والتي كانت غارقة في إصلاحاتها الداخلية وهي تتطلع إلى التحرر على الطريقة الغربية ؟ وبوصول الشبان الاتراك إلى الحكم ووقوفهم في وجه السلطة المطلقة للسلطان بدأوا يستعيدون التراث وذلك سواء في العاصمة أو في الأقـاليم ، إلا أنـه يتحتم



صورة لمحمد علي من رسم كوديه

علينا القيام ببعض التحفظات إن لم يكن على وجود ذلك الاستمرار فعلى الأقل في مجال عمله وعلى العناصر التي أصبحت تحركة من الآن ، فإذا نظرنا في مجال عمله أولا لوجدنا أن المآسي الأرمنية الجديدة لعام ١٩١٥ قائمة بالفعل في السنوات القائمة فيما بين عامي ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ ، لذلك لا بد من مراعاة أن الحروب البلقانية بحرمانها الأمبراطورية من ممتلكاتها الأوربية وبتقليلها تدريجيا من نطاق شعوبها الإسلامية في آسيا ، كانت تهدف إلى بلورة الصراع : صراع القوميات حول شعبين : التركي والعربي ، وقد وصلت هذه المواجهات إلى ذروتها بموت ٣٢ عربيا شنقا فيما بين عامي ١٩١٥ ـ ١٩١٦ بناء على أوامر جمال وكان وقتذاك يشغل منصب القائد الأعلى للجبهة السورية ثم اندلعت ثورة ١٩١٦ .

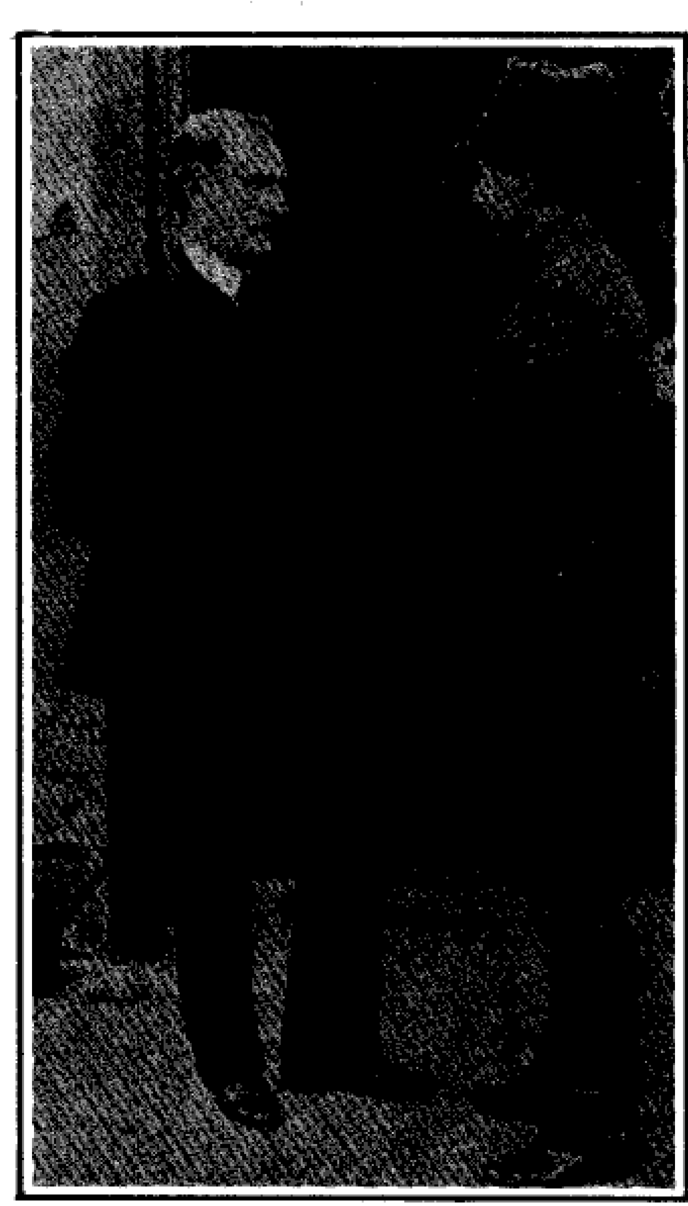
لقد أشرنا إلى صراع القوميات وذلك يرجع إلى أن أسبـاب وروح الصراع هي أيضا قد تغيرت فمن الناحية التركية ـ على اي حال ـ أو بالأحرى من ناحية الشبان الأتراك ، فإنه من السهل متابعة سير الأحداث إذ أنها في الواقع تتبع الأحداث الاقليمية للامبراطورية ، ففي البداية راح بعض الشبان الأتراك يمتدحون الأمة العثمانية كمجمع لشعوب مختلفة ، إلا أنه سرعان ما اختفى هذا



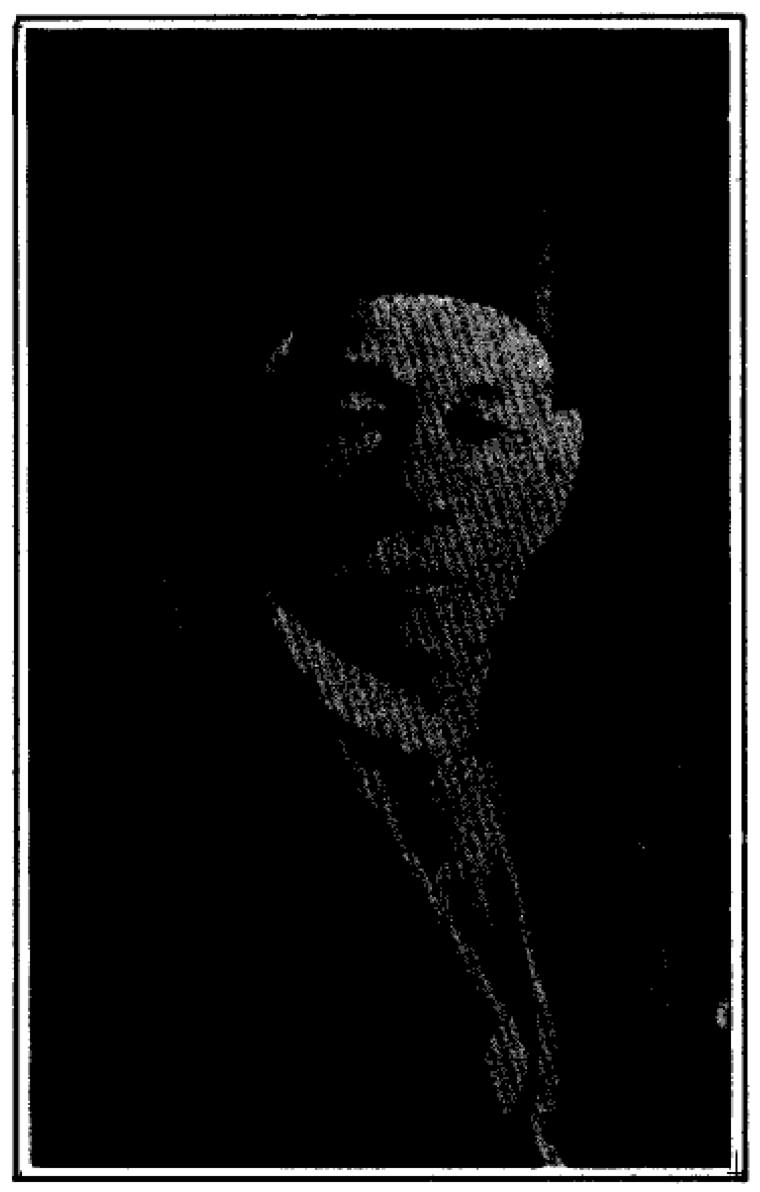
ب ـ الفرنسيون يدرسون ابو الهول رسم وينون

ج ـ بونابرت يشارك في الاحتفال بمولد النبي





مصطفى كمال
وعصمت عام ١٩٥٥



سعد زغلول (١٨٦٠
- ١٩٢٧) رئيس
حزب الوفد المصري



الصفحة الأولى من
جريدة الأهرام
اليومية العربية
عام ١٩٧٦



مظاهرة شعبية في القاهرة في سنوات ١٩٢٠

الحلم بعد أن اكتسحته الكارثة المطردة للمجال الأوربي ، فتدفق الشباب الأتراك نحو فكرة الشمولية الاسلامية أو نحو فكرة الشمولية التركية ، اي اتحاد جميع الأتراك .

ويعلمنا التاريخ أن الاسلام ، تلك الأمة التي لا يمكن إغفال مشاعرها أو ثقافتها ، لم تنجح أبدا ابتداء من القرن الثامن في أن تتفادى صدامات الأمة السياسية ، لذلك أوضحت لنا حالة الامبراطورية التركية أو على الأقل ما تبقى منها في القرن التاسع عشر ، عدم مقدرتها على تجميع العرب والأتراكحولهدف مشترك ، فقد كان على الأقل في مقدور كلمة الشمولية الإسلامية أن تكون حجة سهلة في نظر العرب لاستمرار الارتباط السياسي بالأتراك .

ألم يكن برنامج عمل حزب الشبان الأتراك عام ١٩١١ قد وضع حدا لعدم قبول أي نوع من الاستقلال الذاتي القومي ؟ على أي حال فإن هذه التحفظات المتبادلة بين أناس من نفس العقيدة تثبت أن الإسلام كان عاجزا عن امتصاص المشاعر القومية إذ أن العرب والأتراك قد أوضحا ذلك بشكل جلي عام ١٩١٦

ترى هل كانت الشمولية التركية التي دفعتها إحدى المنشورات الصادرة عن

الشبان الأتراك عام ١٩١٤ إلى الجهد الحربي ـ كان يمكن الوصول إليها أكثر من الشمولية الإسلامية التي كانت تمثل الهدف الثاني ؟ إن هجوم القوقاز قدم لنفسه هدف تحرير كل الأراضي التركية في آسيا عقب هزيمة روسيا ، إلا أننا نعلم ما الذي أصاب ذلك الحلم أيضا ، إذ أن تركيا وجدت نفسها قد انكمشت إلى منطقة الأناضول تقريبا ، وماتت فكرة الشمولية التركية منذ زمن في خضم الأحداث خاصة عندما تم اغتيال أنور المتعنت عام ١٩٢٢ في اشتباكات ضد الفرق الروسية في بلاد الطاجيك .

وهكذا وجد الشعور القومي التركي سبيله أخيرا ، وذلك ليس في نطاق دولة متعددة القوميات وليس في الشمولية التركية ولا في حلم الطورانية وإنما في تركيا وحدها ، إن تطور القومية التركية منعكسا في إجماله من خلال فكر داعيته الكبير ضيا جوك الب فيما بين ١٩٠٨ و١٩٢٤ راح يزوي تدريجيا الامبراطورية العثمانية العجوز في ظلال الماضي ، ففي الواقع عندما ولدت تركيا الحقيقية مع زعيمها مصطفى كمال فقد تركت الامبراطورية مسرح الأحداث مع آخر سلاطينها محمد السادس .

بدايات مصطفى كمال

إن مصطفى كمال (لوحة ١٣٠) الذي استقبل في البداية باسم « الغازي » أي المنتصر ثم بعد ذلك عام ١٩٣٥ باسم اتاتورك (اي أبو الأتراك) يسيطر على التاريخ الداخلي لتركيا فيما بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٤ ، أي على تركيا التي نجحت كما سبق أن رأينا في أن تستعيد أراضيها الأرمنية والكردية في الأناضول من خلال اتفاقيتي سيفر ولوزان ، وعلى تركيا التي راحت تقيم دعامتى كيانها المقبل وهما القومية والعقلانية ، وفي هذين المجالين عرفت عبقرية مصطفى كمال كيف تعمل في حدود الممكن ، إذ أن كلا من الامبراطورية والخلافة اللتين دخلتا الحرب العالمية الأولى وهما تحتضران قد ماتتا ، إلا أن تركيا : تركيا الحقيقية وتركيا وحدها هي التي كان من الممكن انقاذها وإعادة صحوتها ، فإذا ما تماسك هذا الأمل فلم يكن بمقدوره أن يقدم من أرض صلبة وأكثر ترابطاً لقضية الخلاص .

لم يدخل مصطفى كمال التاريخ حقيقة إلا في ٢٢ يونيو عام ١٩١٩ وكان آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمره ويعمل مفتشا في جيش الشمال ، ففي ذلك

اليوم أعلن من مقره في اماسيا ـ على بعد حوالي ثمانين كيلومترا من البحر الأسود ـ بيانه المعادي لسياسة استانبول ، وتلا مؤتمري أرضروم وسيواس انعقاد الجمعية العمومية الوطنية لتركيا المجتمعة في أنقرة في الثالث والعشرين من شهر أبريل ١٩٢٠، والتي أكدت كيانها كممثلة للشعب وكونت مجلسا للوزراء برئاسة مصطفى كمال الذي قام بأعبائها إلى جانب عمله في الجمعية العمومية ، وحتى عام ١٩٢٢ ظلت الطاقات الجديدة التي رفضت معاهدة سيفر التي وقعها السلطان ، مشغولة بحرب الاستقلال التي انتهت في الحادي عشر من شهر اكتوبر عام ١٩٢٢ بهدنة مودانيا ثم بمعاهدة لوزان وذلك في الرابع والعشرين من يوليو عام ١٩٢٣ ، ومنذ عام ١٩٢٢ بدأت مشكلة نظام الحكم تحل ، ففي الأول من شهر نوفمبر قام مصطفى كمال بأخذ الأصوات حول فكرة إلغاء السلطنة وما أن تم عزل محمد السادس حتى تولى عبد المجيد مهمة السلطنة كوظيفة فخرية ولكنها ما زالت قائمة ، وفي صيف عام ١٩٢٣ أدت الانتخابات إلى تحديد الأعضاء الذين قدمهم « حزب الشعب » برئاسة مصطفى كمال من أجل انعقاد الجمعية الوطنية مرة أخرى ، وفي التاسع والعشرين من شهر أكتوبر تم إعلان الجمهورية التركية وتعيين مصطفى كمال رئيسا لها (لوحة ١٣٠) وعصمت الذي لقب فيما بعد باسم اينونو (باسم معركة انتصاره على اليونانيين) كرئيس للوزراء ، وأصبحت أنقرة هي العاصمة رمزا لتركيا الجديدة التي عادت بعد مشوار امتد إلى عدة قرون إلى مهدها الأناضولي .

وتم آخر فصل في الثالث من مارس عام ١٩٢٤ بالغاء الخلافة .

ويقول هـ. لامنز أن مصطفى كمال قد أعلن بهذا الصدد « أن الحلم القديم الذي راود المسلمين في أن تكون الخلافة حكومة اسلامية تجمع كافة المسلمين لم يستطع أن يتحول إلى واقع أبدا ، بل على العكس من ذلك لقد أصبح سببا للاختلافات والفوضى والحروب بين المؤمنين ، وبفضل فهم مصلحة الجميع بشكل أحسن أصبح من الواضح حقيقة ان واجب كل المسلمين يعتمد على قيام حكومات مختلفة متميزة ، نظرا لأن الرابطة الروحية لجميع المسلمين هي ما ورد في القرآن بمعنى أن جميع المؤمنين أخوة في الإسلام »

ويعد هذا النص من النصوص الأساسية من ناحية أنه لا يمهد الأرض

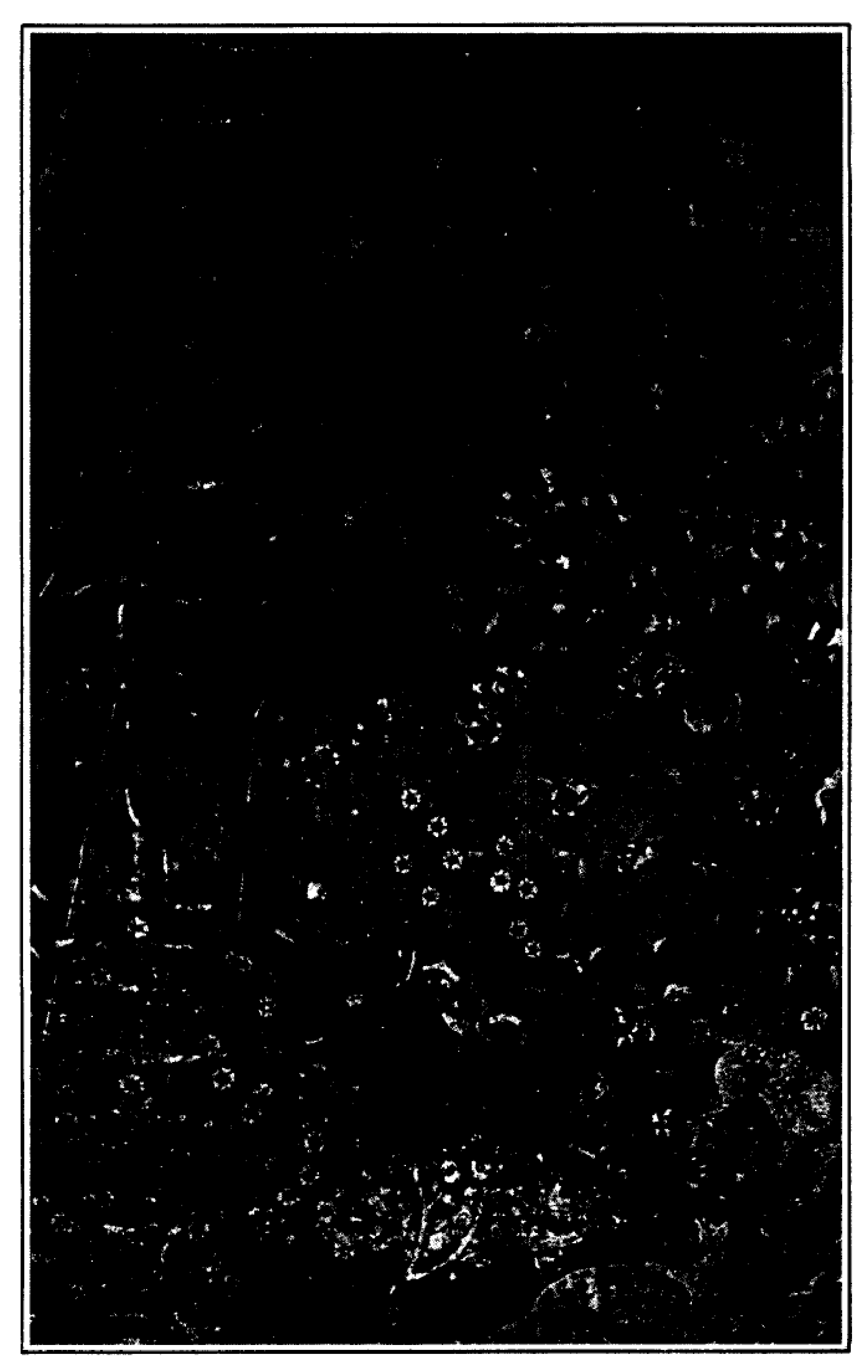
للقومية والعلمانية اللتين اعتمد عليهما مصطفى كمال لاقامة تركيا الجديدة فحسب ، وإنما يبيح أيضاً قيام قوميات الإسلام الأخرى وفي أول صف قومية العرب ، ولم يتم ذلك بلا تمزقات بالفعل لأن الخلافة كانت رغم كل شيء رمزا للإسلام الذي يعبر القرون وذلك عن طريق العظمة في أحيان كثيرة ولكن دائما عن طريق الاستمرار .

ولم يكن رشيد رضا بمقالاته وحده وإنما أيضا بمحاولات مسلمي الهند عن طريق احتجاجهم أو في الحجاز حيث حاول الملك حسين احياء لقب الخلافة خمس مرات فيما بين الخامس من مارس ١٩٢٤ وهزيمته في مواجهة السعوديين في الثالث عشر من أكتوبر التالي ، ولقد اعتقدوا جميعا ـ بشكل أو بآخر ـ أنه من الممكن إعادة حظوة تلك « الوظيفة » لكن جميع تلك الجهود ذهبت هباء فالإسلام إذا ما استمر كدعامة تقليدية للمجتمعات العربية ، لم يعد يكفي لتحديد معالم البنيان السياسي التي كانت هذه المجتمعات تستعد لاقامتها .

العرب : أمم وأمة

إن تفاصيل التأثيرات المتبادلة بين القوميات التركية والعربية في فترة التغيرات القصوى (القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) كانت لا تزال غامضة ولا تسمح لنا إطلاقا ـ في الوضع الحالي لمعلوماتنا ـ إلا بطرح التساؤلات ، وهناك مثلان : إلى أي مدى أثرت انبثاقة القوميات العربية على تطور المثقفين الأتراك ، منذ النظام العثماني حتى الشمولية الإسلامية ، وأخيرا إلى القومية الصرفة الصافية ، أو بقول آخر ترى هل هي مجرد مصادفة أن موضوع « الوطن » يعاد استخدامه بعد عدة سنوات من المأساة التي عاشها نامق كمال عام ١٨٧٢ ، لمأساة أخرى على يدي المصري عبدالله النديم ؟

لنلاحظ على أي حال ان الحركتين التركية والعربية تنموان متوازيتين تحترم كل منهما أصالتها الحاصلة بالفعل بالنسبة للعرب الذين يجب علينا أن نهتم بهم الآن ، فإن وقوع الاحتجاج القومي لا ينفصل ـ كما سبق أن أشرنا ـ عن انبثاقة الإسلام الذي يرغب فيه العصريون ، ولا شك في صحة ذلك لكن شريطة أن نلاحظ أن مثل هذا المضمون ليس من المحال تغييره ، بل على العكس من ذلك إن فكرة المصلحين تعطي للعرب ثقلا متزايدا في مهمة الاصلاح الديني . إن



جزء تفصيلي من سجادة ـ ايران (تبريز)ـ القرن السادس عشر .

الاتجاه لشديد الوضوح منذ الشمولية الإسلامية الثورية لجمال الدين الأفغاني ، وهي مثالية إسلامية قبل أي شيء ، مثل رائدها ، إذ أن هذه المثالية كانت ممزقة فيها بين افغانستان وتركيا ومصر والهند وفارس والعراق ، حتى محمد عبده وخاصة الكواكبي ورشيد رضا وهما من أصل عربي ويضيفان على العصر الذي شهد مولدهما مكانة الصدارة في حركة الاصلاح الاسلامي واصلاح الخلافة .

الثقافة من الشرق الأدنى إلى الامريكتين

لن نـوفي ابدا أهمية الحركة الثقافية حقها في تكوين الشعور القومي العربي ، فقد عبـرت النهضة البحار منذ انطلاقتها ، حتى ما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٠ اقتصرت حركة هجرة السوريين واللبنانيين على مصر وعلى أوربا الغربية ، ثم بدأت تمتد إلى افريقيا الغربية واستراليا وخاصة إلى الأمريكتين كمجال فسيح للعمل ، فقد تم إحصاء عدد ٢٦٨ من المطبوعات للمهاجرين العرب منها ٢٠٥ جريدة ، وذلك في الفترة الواقعة فيها بين عام ١٨٩٠ و ١٩٢٩ ، وعرفت الآداب نفس النشاط الحيوي بفضل جبران خليل جبران وأمين الريحاني وغيرهما ، كما تولدت اصوات جديدة تتماوج بين الاغتراب وذكرى الوطن الضائع ، تعبر عنهما أشكال أدبية مبتكرة في القصيدة النثرية أو الشعر المنثور .

ولم تكن تلك المحاولات إلا بعض الأشكال من بين العديد غيرها التي تعبر عن ذلك الفهم الشاسع للابـداع والمطالعة الذي كان يحرك العالم العربي آنذاك لكنه منقول من الخارج ، وهناك واقع له مغزاه هو أن مدينة مكة نفسها كان لها جريدتها عام ١٩٠٨ ، ولا يمكننا الدخول في متاهة هذا الازدهار ، ولنكتف على سبيل المثال بالإشارة إلى المجلات المصرية مثل « المنار » التي سبق لنا التحدث عنها و « المقتطف » التي تم تأسيسها في بيروت ولكنها انتقـلت إلى القاهرة و « الهلال » عام ١٨٩٢ حتى وإن كان هذا المثال غير عادل بالنسبة لبقية المطبوعات .

أي أن كل البلاد كانت تزخر بشغف للمعرفة ، ففي عام ١٩٠٧ حصلت مدينة القاهرة على أول جامعة لها ثم انتقلت الى تبعية الدولة عام ١٩٢٥ ، وتبعها مدينة دمشق عام ١٩٢٣ ، ولكنها كانت سباقة في مجال آخر لا يقل أهمية هو تأسيس أول أكاديمية للغة العربية ، إذ سبقت القاهرة بثلاثة عشر عاما ، وانكبت على

دراسة اللغة العربية مع احترام تكويناتها الأساسية ، وفي كل مكان راح الجيل الجديد من مثقفي النهضة ينهل في نفس الوقت من الثقافة العربية والتأثيرات الأجنبية ويقوم بعمل ضخم في الاقتباس أو الترجمة فمن « الألياذة » إلى « حياة المسيح » وإلى الرواية الواقعية الفرنسية دون أن نغفل الأدب الانجليزي وحتى الروسي (بفضل أحد « الامريكيين » هو ميخائيل نعيمة) فلربما كان الجهد عشوائيا في انطلاقته الشابة لكن بلا مثيل سابق لها إلا في القرون الأولى من العصر العباسي ، فقد قال أ. كراتشكوفسكي أنه « بدون مترجمي القرن التاسع عشر لما ولد الأدب العربي الحديث ابدا »

وبهذا الانفتاح على العالم اكتسبت الآداب العربية نوعين جديدين هما : المسرح والرواية وقد حصر المجال الأول نفسه في نطاق الاقتباس من المسرحيات الأوربية والمسرحيات الشعبية أو المدرسية ثم سينطلق بعد ذلك بجناحيه ، وهكذا ستولد مسرحية « الوطن » الشهيرة لعبد الله النديم ، وفي عام ١٩١٢ تم انشاء فرقة مسرحية في القاهرة ، ولا شك في أن هذه البدايات كانت صعبة إذ سيصطدم المسرح العربي وخاصة ابتداء من عام ١٩١٧ بالمنافسة المبكرة للسينما المصرية وذلك بالإضافة إلى المشكلة الشائكة للغة (الكلاسيكية أم العامية) والتي تعد أخيرا أنها مشكلة الجمهور نفسه ، ورغم كل شيء فقد استمرت عملية التأقلم فمنذ عام ١٩٢٤ حصل التعبير المسرحي باللغة العربية على من يقننه وهو محمد تيمور .

أما نجاح الرواية فيرتسم بشكل أوضح وخاصة في أشكال معالجته النفسية والاجتماعية والتاريخة ، وقد توصلت كل من مصر ولبنان إلى التألق في هذا المجال من خلال أعمال يعقوب صروف والمنفلوطي وفرح أنطوان وجورجي زيدان ، ومع ذلك هناك نجاحان قد تفوقا على بقية الأعمال الأدبية وهما أولا كتاب « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي وهي رواية أو كما يقول عنوانها « حديث » يعيد ذكرى أحد الباشوات في عصر محمد علي ويستعرض من خلاله مشكلة صراع الأجيال بين مصر القرن التاسع عشر ومصر القرن العشرين .

وتمثل هذه الرواية فترة انتقالية كما انها عمل أساسي في تاريخ الأدب العربي الحديث ، إذ أن هذا « الحديث » مبتكر بموضوعه كما أنه يعيد الصلة مع أشكال النثر المقفى التي كانت سائدة في القرون الوسطى ، أما الثورة الحقيقية فستتحقق

عام ١٩١٤ مع رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل وهي قصة فلاحة شابة من وادي النيل مكتوبة بأسلوب نصف واقعي ونصف ريفي مستخدما اللغة العربية المصرية الدارجة في الحوار ، وسرعان ما سيأتي مولد القصة الواقعية على أيدي محمود تيمور المولود عام ١٨٩٤ والذي برع في هذا الاتجاه الأدبي .

إن الذي كان يبحث عنه العالم العربي حينذاك من خلال هذه البدايات الخلاقة ، وكان وليدا أو حديث الميلاد ، كان البحث عن لغة تتفق والعالم الذي يعيش فيه ، بينما يظل مخلصا لكيانه الذاتي ومن خلال هذه المغامرة فإن الرواية والقصة والمسرح ـ كعمليات أدبية ـ حيث كان على النثر أن يتألق فيها ، راحت تتراجع أمام الأعداد الهائلة من النصوص المكتوبة تحت وطأة الضروريات الأكثر إلحاحا حيثما كان على النثر أن يجاهد بأي ثمن وبسرعة فائقة ليتفق مع التعبير الذي كان لزاما عليه أن يخدمه ، ومن هنا ترجع الأهمية الكبرى للصحافة بالإضافة إلى انتشار حب المعرفة وتقدم النقد الأدبي حيث تقدم إسم طه حسين أو كرد علي ، مؤسس أكاديمية دمشق أو النزعة الموسوعية المبسطة لجورجي زيدان وأخيرا بفضل الأبحاث المذهبية حيث نلتقي بالمصلحين الدينيين الذين سنضيف إليهم هنا الخطباء السياسيين مثل سعد زغلول ، والصحفيين من أمثال مصطفى كامل وسلامة موسى ، مؤسس الحزب الاشتراكي المصري (عام ١٩٢٠) وقاسم أمين ، أكبر داعية لتحرير المرأة ،

والدليل أن المعركة كانت على مستوى النثر هو أن الشعر ، الذي كان ملكا في التراث الكلاسيكي ، راح يدين منافسه بالانحطاط من حيث الكم الهائل لانتاجه ، وبتأخره من حيث تجديد الأشكال والموضوعات ، إذ كان آخر معقل له بالتحديد هو الكلاسيكية ، بالإضافة إلى أنه كان أقل ارتباطا بحاجات العصر . ولم يتفتح للتأثيرات الغربية إلا ببطء ، وإذا كان المصري شوقي « أمير الشعراء » والمتوفي عام ١٩٣٢ بدأ يهتم بالواقع المصري فإن حافظ ابراهيم « شاعر النيل » قد تفوق عليه من ناحية اهتمامه بالعالم الذي يعيش فيه وبمشاكله الاجتماعية إلا أن كل ذلك يظل ـ من حيث التجديد والابتكار ـ أقل من تجربة العراقي الزهاوي ، ففي الوقت الذي كان يحاول فيه أن يحقق التزام الشعر بالعصر الذي يعيش فيه ، كان يحاول تخليصه من تحديدات القافية التقليدية، كما كان أقل من المدرسة

اللبنانية ، مدرسة الهجرة إلى الأمريكتين أو إلى مصر (مثل خليل مطران)، ومع ذلك فإن الثورة الحقيقية والتي ستقطع حقيقة الروابط مع التراث لن تأخذ مكانها هنا إلا فيما بين الحربين .

المثقفون والأمة

وكان هؤلاء الكتاب والشعراء يساهمون - بشكل فعال - في التغييرات التي تتم في عصرهم ، ومن البديهي أنهم لم يتبعوا جميعا نفس السبيل، فبعضهم - على الأقل في الفن - ظلوا أكثر اعتدالا بل محافظين ، إلا أنهم جميعا قد اشتركوا في التاريخ السياسي وكانوا يدفعون ثمنا لذلك الموقف أحيانا بالنفي أو بالسجن ، وكان مجهودهم يرمي أساسا - وحتى من خلال اختلافهم - إلى تكوين حساسية مشتركة وفورية لتراث الآداب العربية المجدد ، وبقول آخر فلقد كانوا جميعا وفي آن واحد انعكاسا ومحركا للتغيرات التي تتم في العقليات الجماعية للشعوب العربية ، بل ربما كانوا أيضا انعكاسات ومحركين للشعب العربي .

وسندرك تلك الوطنية الوليدة بشكل أفضل من خلال تلك المظاهرات الخارجية باعتبارها كتجربة لقدومها ومقاومتها وتعريفها ليس بالنسبة لأوربا فحسب ، وإنما - وبشكل متزايد - بالنسبة لتركيا والدولة الإسلامية ومقر الخلافة ، وفي أثناء عملية النضج لهذا الشعور القومي يمكننا أن نعتبر أن هناك منعطفا حاسما قد تم في سوريا وفي العراق حوالي عام ١٩٠٥ ، ثم بعد ذلك في البلدان غير الخاضعة لسلطة السياسة العثمانية مثل مصر التي تتطلب اتجاهاتها الثرية والمتعددة بحثا بشكل معين .

عروبة ناضجة : في سوريا والعراق

لقد تولدت جمعيات مختلفة من جهود طبقة المثقفين في المدن السورية اللبنانية ، جمعيات أدبية وأحياناً سياسية إلا أن معظمها كان سريا على غرار الجمعية الماسونية مثل تلك التي تولدت في بيروت حوالي عام ١٨٨٠ بفضل حملة إعلانية تدعو إلى النضال ضد جيش الباب العالي وقد كانت قاصرة على مجموعات صغيرة في البداية ، ثم أدت الحركة إلى تحريك طموح أعداد كبيرة ، ففي عام ١٩٠٥ تأسست « جامعة الوطن العربي » في باريس برئاسة نجيب عزوري معتمدا

على ذلك الموضوع الذي كان الكواكبي يعتز به ، وهو خلافة عربية مقرها الحجاز ، إلا أن هذه الجامعة قد تخطت ذلك بتأكيدها أن العرب يمثلون « تجانساً قوميا وتاريخيا واعراقيا » وهدفها منذ ذلك الوقت الانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، « لتكون دولة مستقلة » ، ولم تجد هذه الأفكار أصداء فورية ولا جماعية ، رغم إعادة صياغتها في أحد كتب عزوري وهو « صحوة الأمة العربية » (عام ١٩٠٦) ، ثم في مجلة قام هو بنفسه بتأسيسها عام ١٩٠٧ واسمها « الاستقلال العربي » فقد كانت تلك الفترة تمثل بعض الذين ما زالوا يحلمون « بالأخوة العربية العثمانية » معتمدين على حركة الاصلاح التي نادى بها الشبان الاتراك ، ولم يجرؤ المؤتمر المنعقد في باريس (يونيو ١٩١٣) أن يتعرض لادانة تامة لسلطان الباب العالي .

وإذا ما استطعنا أن نقول عن عام ١٩٠٥ أنه كان عاما حاسما ، مثلما فعلنا سالفا ، فذلك لأنه أعطى لبعض الاتجاهات كيانا كافيا ليمكنها أن تكون على المستوى الذي يسمح لها بتقبل إنطلاقة حاسمة من التاريخ ، تلك هي إنطلاقة الثورة العربية ، وسجل شهدائه ، ونجاحاته وأحقاده ، أن المؤامرات البريطانية والأحلام المشكوك فيها للورنس العرب وثورة شريف مكة حسين عام ١٩١٦ ربما كانت ، بل هي بالفعل كانت أقل أهمية لصحوة وعي الضمير العربي ـ من خيبة الآمال التي سببتها في الأوساط الثقافية والجماهيرية ، وتغيير إتجاه الشبان الأتراك الذين كانوا يمثلون في البلدان العربية ضحايا جمال ، ومن ناحية الغرب موضوع الصهيونيـة أو اتفاق السلام .

ونفس التناقض (لكي لا نتعدى هذا التعبير) الذي سبق وعد بلفور كان يمثل فيما مضى أحد الاتفاقيات المسيطرة لمعاهدة ١٩١٦ ، وهي معاهدة سايكس بيكو المبرمة بعيدا عن أي طرف عربي ، وإن لم تكن هذه المعاهدة فكرة إقامة دولة تجمع شعوب الهلال الخصيب، من خلال تعبير شديد الابهام ، فإن هذه الاتفاقية في الواقع كانت بمثابة تقسيم حقيقي للغنائم العثمانية بين فرنسا وانجلترا وذلك بالرغم من آمال الشعوب والوقائع الجغرافية والتاريخية أو الاجتماعية الاقتصادية .

إن نظام فرض الحماية الذي نص عليه مؤتمر سان ريمو (في أبريل ١٩٢٠) قد اضطر لكي يستتب أن يقمع ثورة عربية جديدة كانت تختلف بكثير عن ثورة

١٩١٦ لأنها بدأت تفلت من أيدي الامراء لتنتقل إلى أيدي الشعوب ، وقد تم إعلان إستقلال العراق في مؤتمرين إنعقدا في دمشق في مارس ١٩٢٠ على أن يكون العاهل هو عبد الله الابن الثاني لحسين ، كما أعلن من ناحية أخرى عن استقلال سوريا ولبنان وفلسطين في شكل دولة موحدة وذات سيادة ، إلا أن فيصل ، الأخ الأصغر لعبد الله سرعان ما تم ابعاده رغم اختياره ملكا لسوريا الكبرى هذه ، وذلك بسبب المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٠ ، التي تمت رغما عنه وضده ، وهي مقاومة قد امتدت كما سبق أن أشرنا إلى العراق والتي ستعاود إندلاعها عام ١٩٢٥ في جبل الدروز وفي دمشق ، التي سيضربها الجنرال سراي بالقنابل في الثامن عشر من أكتوبر .

إلا أن الملوك سيتمكنون من العودة بشروط مختلفة (فيصل سيعود إلى العراق في شهر اغسطس ١٩٢١ ، وعبد الله إلى شرق الأردن المنفصل عن فلسطين عام ١٩٢٣) ولم تمنع عودة هذين العاهلين أطماع الغرب ولا الأحقاد التي اثارها لاخلاله بالوعود التي سبق أن أعلن عنها ، لذلك سيجمع ضده صواعق الاسلام الذي لا يتزحزح وقومية ناضجة بعد إنسحاب تركيا من المسرح السياسي .

في المغرب : منعطف ما بعد الحرب

أما في البلدان الخاضعة مباشرة لسلطة الغرب ، مثل شمال أفريقيا ، فقد تم كبح جماح تكوين أية قومية عربية عن طريق نفس شروط النظام الاستعماري ، أما المحتل هنا فكان يقوم في نفس الوقت بدور المصد والمثل ، لذلك كان على الاحتجاج المحلي أن يرد تعاليمه ضده ، فأعلنت المقاومة المحلية أنها قبل أي شيء بمثابة إصلاح سياسي يهدف إلى أن يضمن المسئوليات الادارية التي استولى عليها الأجانب للنخبة المحلية ، ومع ذلك فحتى إذا كانت هذه النخبة المحلية تشعر - تحت تأثير الغرب - أنها أقل ارتباطاً من الجماهير بمتطلبات الدين الاسلامي فلم يكن بمقدورها أن ترفض مساندة هذا الاسلام بشكل تام ، خاصة وأنه كان يمثل أمام المحتل مستودعا من القوى المناهضة الدائمة الاستعداد .

إن الرجوع إلى أي مجتمع إسلامي متداخل بهذا الشكل في الصراع السياسي ضد الغرب سيتبلور تدريجيا بعد الحرب العظمى ، عبر الاحقاد التي

يثيرها إستمرار نفس الوضع رغم التضحيات التي قدمتها شعوب شمال أفريقيا من أجل فرنسا ، وسوف ترتسم بوادر حركة الدفاع عن الإسلام بشكل واضح ابتداء من عام ١٩٢٥ مع بدايات عبد الله الفاسي في المغرب ، وحركة العلماء في الجزائر ، والتي سيعيد تكوينها عبد الحميد بن باديس عام ١٩٣١ تحت شكل « جمعية » .

ومهما اختلف الإسلام ـ في رغبته أن يستلهم دروسه من الماضي الإسلامي لاصلاحيين سياسيين تم تكوينهم على الطريقة الغربية ـ فأن ذلك لن يمنعه من القيام بدور أساسي في مدارك الوعي المحلي ، وقد سبق أن أثرنا فيها سلف أثر الوحدة التي تمت بين المغاربة ضد السياسة البربرية للحماية ، ولربما قال البعض أن هذا التيار الديني لم يجتذب كافة أنواع المقاومة ، إذ أن الاصلاح السياسي كان يكتسب صحوة جديدة فيها بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٠ بفضل جيل جديد ، ولنذكر تاريخ الدستور التونسي ـ إلى جانب حركة الشبان المغاربة بزعامة أحمد بلافريج ـ الذي يمثل عام ١٩٣٠ تأسيس جريدة « الصوت التونسي » بفضل الحبيب بورقيبة بالاضافة إلى إتحادات النخبة المسلمين القادمة في الجزائر ، وأخيراً في عام ١٩٢٦ مولد نجم الشمال الأفريقي بزعامة مصالي الحاج الذي طالب باستقلال الجزائر ، ومع ذلك ورغم العديد من الحركات التي تكونت بدونه أو على الأقل ليس بفضله فحسب ، فأن الإسلام سيقوم بدور حاسم ، فبفضله تفتح المغرب ـ بشيء من التأخير ـ على أفكار جمال الدين الأفغاني واتباعه ، وعلى تاريخ الشرق الأدنى وصراعاته ، وعلى مولد الآداب العربية ، وبفضله أيضاً فأن الإسلام والعروبة ، هاتان القوتان اللتان رأيناهما تعملان ، كانتا تستعدان للحصول هنا على مجالات أخرى ، وهناك دليلان هما : لقد تم تقديم تونس في المؤتمر العربي الإسلامي الذي قام بتنظيمه في القدس المفتي الكبير الحاج أمين الحسيني عام ١٩٣١ ، وفي عام ١٩٣٦ وتحت تأثير داعية « الأمة العربية » شكيب ارسلان ، تراجع مصالي الحاج عن فكرة الماركسية بينما كان ينادي باستقلال الجزائر ليدخل هذا الاستقلال في النطاق العام لنهضة الإسلام والعروبة ، وبهذه التواريخ فإننا ندخل في أحدث تاريخ لشمال أفريقيا ، في تاريخ تتواجد فيه ـ وبأية وسيلة ـ نداءات الأمة العربية الإسلامية ، وبشكل أكثر ابتكارا ، الأمة المغربية التي تكونت بنفس الأسلوب بالنسبة للمستعمر .

مصر : ابتكارات وتردد

اتمت مصر خطوة كبرى وجديدة تجاه تحقيق شخصيتها القومية أيام الحرب العظمى ، ففي عام ١٩١٤ وردا على طلب الخديوي عباس الثاني الذي كان يطلب من المصريين والسودانيين مساندة تركيا بثورتها ضد محتلي بلادهما ، وضعت انجلترا مصر تحت حمايتها واسقطت عباس الثاني لتولي الأمير حسين كامل الحكم بينما اضفت عليه لقب سلطان ، وما أن تم توقيع المعاهدة حتى توجه وفد من الأمة ليطلب في القاهرة استقلال وادي النيل من الخرطوم حتى البحر الأبيض المتوسط ، وتبعت الاضطرابات محاولة هذا الوفد وكان بزعامة سعد زغلول (لوجه ٣٠ جـ) رئيس حزب الوفد الذي حكم عليه بالنفي ، وهدأت الحال في مصر حوالي ١٩٢٢ ثم تم إعلان مصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، وفي العام التالي أصبح السلطان فؤ اد الأول ملكاً وسرعان ما زودت البلاد بدستور من النوع البرلماني بوزارة مسئولة أمام مجلسين .

وهكذا بدأت الأمة المصرية ترى النور من الناحية السياسية ، ولكن ترى بأي صورة كانت تتحدد في الأذهان ؟ . . إن المضمون هنا لم يكن نفس نوعية المضمون في سوريا أو العراق بالنسبة لمصر ما بعد الحرب العظمى ، إن ذكرى روابط التبعية القديمة بالباب العالي كانت تبدو بشكل واضح ، كونها رمزية إلا أنها تسمح باتخاذ بعد معين تجاه المحتل الانجليزي ، وهكذا تطور تيار وطني من خلال صوت مصطفى كامل ، يربط بين المصلحة المصرية وإستمرار تركيا كدولة قوية ، ومعلنا بوضوح تحفظاته تجاه التعريب بالصورة التي كان يتم بها في كل من سوريا والعراق ، ـ المعاديتان كما رأينا للباب العالي ـ وفي الواقع لم يكن الأمر متعلقاً بسوريا وحدها إذ أن مصر الغنية بماض يمتد إلى آلاف السنين كانت تتأرجح بين الشمولية الإسلامية التي كانت تدفعها لاتخاذ موقف لصالح الضحايا المسلمين للامبريالية من جبال الريف إلى دمشق وبين « النزعة الفرعونية » التي راح اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون عام ١٩٢٢ يدعمها وأخيراً بين ميل طبيعي تجاه أفريقيا المسماة بالسودان ، تلك التفاحة الخالدة للنزاع بين القاهرة ولندن .

ومن يمكنه التحدث هنا أيضاً عن دور إنهزام تركيا وإلغاء الخلافة وإزدهار الصهيونية وتألقها في مصر وفي بلدان أخرى ، وعن الاحتلال الأجنبي ؟ . . لقد

تضاعفت فتاوى السلطات الدينية منذ عام ١٩٢٩ لتذكر أن الإسلام هو عقيدة وليس قومية ، بدليل أن فكرة التقارب بين العرب موجودة في الجو ، بينما في الواقع فإن الصراع أو النقاش قائم يوميا على صفحات الجرائد ابتداء من عام ١٩٣٠ وهكذا فأن فكرة الأمة العربية التي كان اتباع جمال الدين الافغاني يرون فيها صورة وبداية أمة أخرى هي أمة الإسلام العالمي ، اتخذت مسارا جديدا في البلد الذي تولدت فيه لكنها كانت تنمو باسلوب يدعو إلى التفاؤ ل بشكل اكثر ، لأنه إذا اعتبرنا إن إعادة تجميع الاسلام ما زال يمثل حلما بعيدا ، فإن وحدة العرب كانت تبدو في متناول اليد إذ كانت مكونة من ماض ينهل من النهضة الأدبية ومن النضال المشترك ضد الخارج ، بل لقد كانت تتبدى في القلوب وسيتم الاعلان عنها قريبا كهدف سياسي ، وبعد بضع سنوات وفيما بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٤٠ بدأت مرحلة جديدة من تاريخ الشرق الأدنى ، فما أن اختفى حلم مملكة عربية في الهلال الخصيب حتى أخذت مصر المشعل في يدها مثلما فعلت سابقا في تاريخ الإسلام ، ذلك المشعل الذي أسلمته إليها كل من دمشق وسوريا لتصبح مصر مركزاً لحركة كبرى من أجل الوحدة العربية التي أصبحت تبدو منذ ذلك الوقت كرابطة من الدول ، وكان رد فعل الحرب العظمى في الشرق الأوسط هو مولد الجامعة العربية .

فترة إنتقال : أزمة الاستقلال القطعية

وهكذا وجدنا أنفسنا نتحدث منذ عدة صفحات متأرجحين بين فترتين حادتين ، إلا أن التاريخ كما رأينا كان هو أيضاً بهذا الشكل ، ويمكننا التحدث أيضاً في هذا الفصل عن قبول كل من مصر والعراق في مجتمع هيئة الأمم (عصبة الأمم فيما بين ١٩٣٢ و١٩٣٧ ، وعن المعاهدة البريطانية المصرية المبرمة في السادس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٣٦ ، لأن كل ذلك في قول ما ملك للماضي ، إذ كان الأمر يتعلق بالمحافظة على العراق ومصر في دور زبائن دائمين ، من خلال بعض المراضاة والاعتزاز ، في نطاق منهج منظم تديره الرأسمالية الأوربية ، والمحافظة على إستمرار حزب الوفد إذ اصبح حزباً سياسيا محصوراً بين الملك وانجلترا ، بعد أن قلت قيمته من جراء الاغراءات والحلول الوسط التي قدمتها السلطة ، بينما كان العالم القديم لم يكن يفعل اكثر من الاستمرار في الحياة



من صور العامة (الحرفيين) المصريين

في الوقت الذي كانت تتوالد فيه قوى جديدة وتنضج وهي تتطلع إلى إستقلال جديد ، إلى « استقلال حقيقي » يتم تعريفه من خلال متطلبات ثلاثة : كسر حلقة التبعية الاقتصادية للغرب بتصنيع الثروات القومية في أرضها ، وإعادة توزيع إنتاج الجهد الجماعي بشكل عادل بين كل المواطنين ، وأخيراً إعادة البحث

عن ثقافة أكثر إبتكارا تبسمح بتطبيق الاحساس الفعال لأمة اكثر إتساعا ، لمختلف الدول التي ولدت عن طريق الاستعمار : هي أمة العرب .

إن هذه الأزمة التي سنطلق عليها مع أحد الاجتماعيين المعاصرين هو أنور عبد الملك « أزمة الاستقلاليات الحتمية » لا تماثل شيئاً آخر عمقا إلا أزمة الطبقات الاجتماعية الجديدة التي وصلت إلى سن الرجولة فيما بين الحربين ، وفيما بين عامي ١٨٨٠ ـ ١٩٢٠ بدأت البورجوازية الليبرالية تأخذ جانب ازدهار الطبقات الدنيا المكونة من التجاريين والصناعات الحرفية أو الخدمات العامة دون أن نغفل الطلبة الذين كان دورهم شاسعا إذ أنهم كانوا يتوغلون إلى أعمق أعماق الريف ، إذ أن عددا منهم قد ولدوا هناك ، وبذلك كانوا ينشرون الأفكار والتطلعات الجديدة ، وكان هذا التأثير يتزايد بشكل ملفت خاصة وأنه كان يتعامل مع جماهير شعبية في تزايد متواصل منذ القرن التاسع عشر ، وذلك لصالح المدينة إذ كانوا يعتبرون « موسعي المشاكل » (شكل ٧٣) .

إن حالة مصر (أنظر الجدول ١) بالذات تمثل بوضوح الجانب الحيوي والجانب السلبي لفترة الاستعمار ، ولا شك في أن فترة ١٨٨٠ ـ ١٩٢٠ تعد مرحلة تقدم في مجال الهيدروليكا الزراعية فلقد سمح أول خزان في أسوان (عام ١٩٠٢) بإقامة نظام الري الدائم وباتساع المناطق والمساحات المزروعة (أنظر الجدول ب) .

والنتيجة : لقد استتب معدل نمو الانتاج الزراعي بنسبة ١,٦٪ سنويا وهي زيادة سريعة ، وتوازن معدل نمو تعداد السكان في الريف إلا أن خطورة تزايد نمو التعداد قد اتضحت فيما بعد ، رغم انخفاض الخط البياني الديموجرافي الناجم عن تجنيد العساكر والاحتياطي فيما بين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فإذا ما اعتبر الرقم الدال على هذه النسبة هو ١٥ بالنسبة لعام ١٩١٤ ، فأن العائد الصافي بالنسبة لسكان الريف سينخفض إلى ١٣ مع الحرب العالمية الثانية ، في حين أن الأيدي العاملة الزراعية الفائضة التي لم تكن موجودة أيام ١٩١٤ سوف ترتفع في نفس الفترة إلى نسبة ١٥٪ من تعداد الريف في إجماله .

أما الاقتصاد الحضري فقد تغيرت معالمه مع الحرب العظمى ، فلقد كافيا حتى ذلك الوقت معتمدا على الحرفيين الذين عرفوا ازدهارا لا شك فيه بفضل

السنة	التعداد الكامل للسكان		التعداد الحضري		
	بالمليون مواطن	الرقم البياني	بالمليون مواطن	٪	الرقم البياني
١٨٨٢	٧,٢	١٠٠	١,٢	١٦	١٠٠
١٨٩٧	٩,٧				
١٩٠٧	١١,٢				
١٩١٤	١٢,٦	١٧٥	٢,٣	١٨	١٩٣
١٩١٧	١٢,٧				
١٩٢٧	١٤,٠				
١٩٣٧	١٥,٢	٢١٦	٣,٣	٢٣	٢٩٢
١٩٤٧	١٩	٢٦٤	٥,٣	٢٨	٤٤٠
١٩٥٨	٢٤,٦	٣٤٢	٨,٠	٣٢	٦٦٥
١٩٦٠	٢٦,٠	٣٦٠	٨,٥	٣٣	٧١٠

جهود رأس المال (ومنها إنشاء الفروع المصرفية لبنك مصر عام ١٩٢٠) إلا أن عوامل التوتر الاقتصادي ـ رغم مجيئها بعد مشاكل الزراعة ـ ستكون مماثلة لها إن لم تكن أخطر ، فهي ما زالت متعلقة بالدور المتطرف الذي يقوم به رأس المال الأجنبي كما أنها ترجع إلى ثقل وتجمد القطاع الاداري وإلى التوسع الديموغرافي هنا أيضاً ، وإلى إنطلاقة التضخم التي سوف ترتسم مع الحرب العالمية الثانية ، وأخيراً إنشاء المدارس التي تدفع إلى المدينة عددا من المؤهلين لا يتمشى مع إمكانية امتصاص السوق لهم ، إذ أنه فى أقل من نصف قرن رأت مصر ١٩١٤ تعداد سكانها العاملين قد انخفض من ٣٢٪ إلى ٢٢٪ من مجمل سكانها ، وأصبحت البطالة في المدن تضاعف من البطالة في الريف ، وهكذا ندرك كيف أن هذه الجماهير التي تعاني والسريعة التأثر حتى من الانعكاسات البعيدة للتعليم ، كانت ترفض الوضع الحالي للأمور القائمة وتجمع في نفس رفضها المتزايد بين

ب ـ الأراضي المزروعة في مصر من ١٨١٣ ـ ١٩٦٠

السنة	المساحة المنزرعة	الرقم البياني	مساحات المحاصيل (إنتاج المساحة المنزرعة بمتوسط عدد المحاصيل السنوية)	
	الآلاف الفدادين	رقم البياني	الآلاف الفدادين	الرقم البياني
١٨١٣	٣٠٥٥	١٠٠	٣٦٦٦	١٠٠
١٨٧٧	٤٨٤٣	١٥٥	٤٧٦٢	١٣٠
١٨٩٧	٥٠٨٨	١٦٧	٦٧٦٤	١٨٥
١٩٠٧	٥٤٠٣	١٧٧	٧٦٦٢	٢٠٩
١٩١٧	٢٥٦٩	١٧٢	٧٦٨٦	٢١٠
١٩٢٧	٥٥٤٤	١٨٢	٨٦٦١	٢٣٦
١٩٤٧	٥٧٦١	١٨٩	٩١٦٧	٢٥٠
١٩٥٧	٥٧٨٥	١٨٩	١٠٣١٢	٢٨١

الأجنبي الذي بدأوا يتهمونه وبين بعض المنعمين الذين كانوا ينتهزون الفرص أو يتلاءمون معها أي أن الفترة الحديثة سواء في مصر أو في أي مكان آخر ستكون مرادفة لهذا التحرر المزدوج الذي ما زال يتم أمام اعيننا .

وماذا عن الإسلام ؟ .. من الخطأ الجسيم أن نعتبره منسيا في هذه المعركة ، ففي الواقع أن التطور تجاه الاستقلال الجديد الاقتصادي أو السياسي سوف يقوده إلى عدة اختيارات ، فالبعض سيحاول فصل الدين عن الدولة ، وسيحاول البعض إثبات أن روح المساواة في الإسلام لا تتعارض مع الخطوات الاشتراكية أو المائلة إلى الاشتراكية ، وأخيراً فأن البعض سيتجهون ناحية التقدم وهم يدينون خطوات الاشتراكية ، وذلك من خلال إعادة اكتشاف المذهب الإسلامي الصارم ، وعلى أي حال فإذا ما وضعنا الإسلام في موقف متضامن أو متعارض فأن نفس هذه المحاولة التي تسمح له بالتعبير عن رأيه بصوت عال ، على الأقل خارج العالم الشيوعي ، فأن ذلك يدل على أنه ما زال جزءاً من هذه المجتمعات التي كونها طوال مساره التاريخي الطويل حتى وأن لم يعد محركها الوحيد .

الفصل الثالث

إسلام القرن العشرين
في أعقاب الحرب العظمى

لا شك أننا لا نحتاج إلى فصل واحد للتحدث عن أحدث تاريخ للإسلام وأنما إلى العديد من الفصول (بل ولا نعرف عددها) ولا شك أيضاً أنه يمكننا الاعتراض ـ بناء على مجرد التقسيم الزمني ـ أن الأمر هنا لا يتعلق ببضعة أعقاد يمكن تبريرها ـ على هذا الأساس ـ ببضعة صفحات خاصة بعد أن استعرضنا العديد من القرون ، فالدليل هنا سيكون مشبوها ، إذ بالنسبة للاسلام كما بالنسبة للعالم اجمع ، فإن إيقاع التاريخ قد تسارع ، وهذه الاعقاد يخشى عليها ـ فيما بعد وحين ستغلق عيوننا ـ أن تثقل وحدها بما تحمله من عبء قرون عديدة ، فالمرحلة التي تبدأ مع آخر عقدين من هذا القرن ليست ملحقاً لتاريخ الإسلام ، انها تمثل بالفعل وأكثر من أية أعقاد قبلها لحم الإسلام وحياته وبأي إيقاع تجري هذه الحياة ؟

لماذا إذن هذه الصفحات المعدودة ؟ . . . . لا شك أن الناشر يستند إلى حدود صفحات هذه المجموعة من الكتب ، ثم يمكنه أن يضيف أيضاً أن هذا الجزء بالذات يحتاج إلى كتاب بأكمله ، وهذه حقيقة بالفعل ، ولكنها ليست كل الحقيقة ، فأولاً : أن القارىء ـ وهو على دراية كافية بأحداث هذه الفترة ـ يمكنه أن يحل محل الاخصائيين ، لأن هذا التاريخ هو تاريخه ، ولا يمكن لأية حضارة اليوم أن تعيش أو أن يتم التعرف عليها بمفردها ، إذ أن العالم بأسره يدور معها ، ومن جهة أخرى فأن هذا التاريخ الذي يعد مجرد مغامرة علينا أن نعيشها ،

ويشكل غير مؤكد فهل يكون الاخصائي واثقاً من نفسه إلى هذا الحد ؟ ورغم ذلك فأن إمكانيات الاعلام الخاصة بنا ، والتى هي ملك للجميع ، تسمح لكل شخص أن يكون بنفسه فكرته الذاتية عن مصير العالم ، فبأي حق نفرض عليه فكرة أخرى ؟

والآن وقد أصبح بين يديه ملف للتاريخ الذي عاشه الإسلام حتى السنوات التي تبدو لنا كالأمس القريب فأن عليه أن يحكم بنفسه ، وما علينا ببساطة إلا أن نضع بعض الخطوط البعيدة المدى في أماكنها وأن نوضح بعض الوقائع الأساسية التي قد يتولد منها الغد أو المستقبل .

١ ـ الإسلام والعالم

مثلما عرفناه على مر التاريخ ، فإننا نجد نفس هذا الإسلام الآن محصوراً بين تناقض الموقع الجغرافي الضعيف أو الصعب (لوحة ٣١ ـ أ ، ب) وبين الموقع الاستراتيجي الفريد ، بل وما زال علينا ـ في هذا القرن العشرين (خريطة ٥) ـ أن نصحح بعضا من هذه الخريطة العامة ، فمنذ تاريخه الطويل والتقليدي في منطقة الجنوب الصحراوي ظل الاسلام يواصل امتداده على الأرض وعلى البحار بل وفيها وراء المحيطات وإذا ما ظل قلبه عالقاً « بمنطقة المضايق » فأن هذه المضايق حملت معان جديدة بالنسبة للعبة الشطرنج العالمية ، فبصفتها ممرا اجباريا لبعض التيارات الكبرى لحياة العالم ، فأن صفتها كمعقل خرافي للذهب الأسود تتأكد يوما بعد يوم .

الإسلام على الخريطة

إن تعداد سكان العالم عام ١٩٧٦ قد تعدى الأربع مليارات ، لكن ما هي المكانة التي يحتلها الإسلام في مجمل هذا التعداد ؟ ـ في حوالي عام ١٩٧٠ كان تعداد المسلمين يصل تقريباً إلى ٥٢٠ مليونا ، وإذا ما راعينا الأرقام الجزئية التي تمثل هذا المجمل ، فإن التزايد الطبيعي المفترض لما بين عامي ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ في المناطق الكبرى من العالم ، يمكننا من تقدير أن عدد الذين يتبعون دين محمد اليوم يصل إلى ٦٠٠ مليون مسلم ، إذن فأن الإسلام يمثل إجمالا مالا يقل عن ٧/١ سكان العالم ، وذلك يمثل الجزء الخاص به لتاريخه على هذه الكرة الأرضية ، إلا

أن هذا الرقم الاجمالي يخفي حقائق اخرى هي : الثقل المتبادل لمختلف مناطق الإسلام بالنسبة لبعضها البعض ، فما الذي نلاحظه ؟ . . إذا ما حددنا الصورة الممثلة على الخريطة البيانية فاصلين بعض المجموعات داخل المناطق الكبرى ، فإننا نلاحظ أن جزءاً كبيراً من الإسلام مركز في المناطق التي تجمع من ثلاثين إلى خمسين مليون مواطن ، وهي البلدان العربية للشرق الأدنى ومصر والمغرب وإيران وتركياوالجمهورياتالإسلامية في الاتحاد السوفييتي ، وفي شمال نيجريا أما البلدان التي يصل تعداد سكانها إلى حوالي ستين أو سبعين مليونا فهي : باكستان وبنجلاديش والهند الإسلامية ، أما في القمة فتوجد أندونيسيا إذ يصل تعداد سكانها إلى ما فوق المائة مليون .

والإسلام كما نراه يعد في اغلبيته ظاهرة آسيوية ، ومع ذلك فلا يجب أن نعلق أهمية اكثر مما ينبغي على هذه التقسيمة الجغرافية ، ولندرس التقسيمة من الناحية الثقافية في أوسع مداها وعندئذ سنلاحظ مع مراعاة الحرص الذي تفرضه التجمعات من هذا النوع ، أن العالم الهندي يأتي على رأس هذه القائمة ، ثم تتبعه وإن كان على نفس المستوى تقريباً ، البلدان العربية وأندونيسيا ثم الأتراك (بما فيهم من في الاتحاد السوفييتي) ثم سكان أفريقيا السوداء والايرانيون .

هكذا تبدو كبرى معاقل الإسلام سواء من الناحية الجغرافية السياسية أو الثقافية .

ولنتجنب الحرص في الحكم عليها كقيم مطلقة ، فهل يمكن احتساب مسلمي الاتحاد السوفييتي مثلا (شكل ٧٤) في مجمل البلدان الإسلامية بنفس التعادل مع الأصوات في وادي النيل أو في بلاد إيران مثلاً ؟ وبقول عكسي ، هل يمكن اختصار المنطقة العربية إلى مجرد بلدان الشرق الأدنى وجنوب البحر الأبيض المتوسط إذا علمنا أن لغتهم وتعبيرهم المميز عن حضارة الإسلام وإنتشار الإيمان يمكن أن نطالعه أو أن نقرأه على الأقل في بعض الأوساط للأراضي الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ، خاصة وأنها ما زالت تكتسب مواقع جديدة أو مذهلة كما في أفريقيا مثلاً ؟ هذه هي بعض التساؤلات المتعلقة بالحاضر أو بالغد القريب .

وهناك العديد غيرها التي توحي بها لنا تقديرات العقد الأخير فمن بين



شكل ٧٤ ـ الاسلام في الاتحاد السوفييتي . اطفال من اوزبكستان

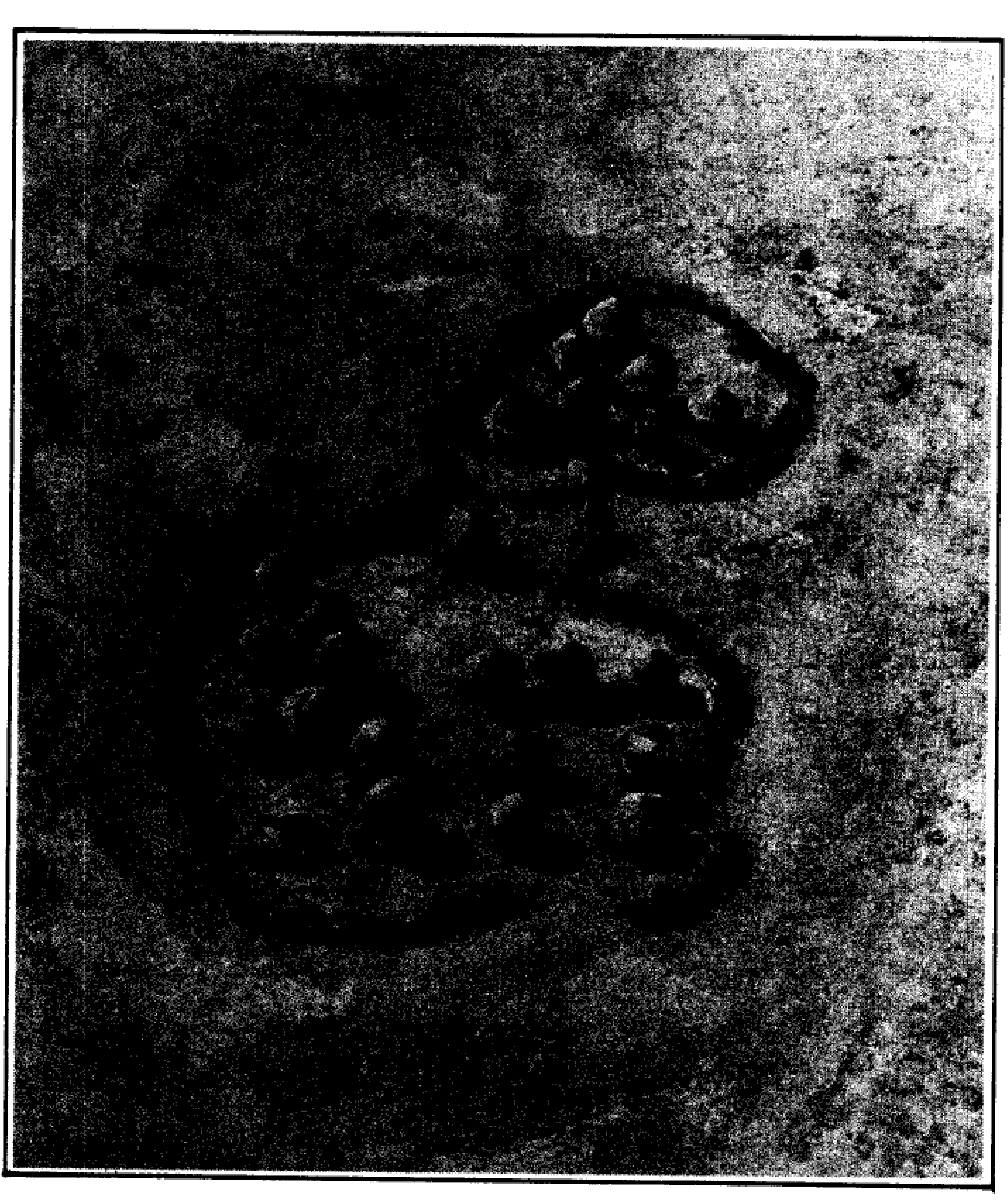
الخمسمائة وعشرين مليون مسلم عام ١٩٧٠ ، فأن حوالي ٣٧٥ مليونا تقريبا كانت خاصة بدول يسيطر عليها الدين بشكل متطرف ، إلا أن بقية الرقم وهو ١٤٥ مليونا كان يمثل أقليات سواء في بلدانها أو منتشرين حول العالم ، إذن . . بالنسبة لحجم يتراوح من ثلث إلى ربع العدد الكلي فأن الاسلام يعد في حالة مشاركة في التعايش . كما أنه ينبغي علينا أن نرى قوة الأواصر التي تربطه إلى

الإسلام الآخر ، ذلك الإسلام الذي يستمر في الهام مجتمعات بأكملها ـ سواء بشكل رسمي أم لا ـ تولدت من تاريخ كان من محركاتها الأساسية ، فالإسلام ـ على الخريطة ـ ليس مجرد تعريف محتمل لجماعات دولية منظمة فحسب ، وإنما هو رابطة تلك الجماعات في العالم حتى وإن كان مزدهرا أو متناثرا .

بلدان ورجال

إن الخريطة قد تغيرت معالمها خلال العشر سنوات الماضية ، وخاصة شرق الإسلام أولاً ، فإذا ما كانت التجربة الباكستانية تعني الاستمرار تجاه مجتمع يود أن يكون عصريا ومحترما للأيديولوجية الإسلامية في آن واحد ، فأن نفس إسم باكستان يتحدد الآن في غرب الكتلة الهندية نظراً لأن الجزء الثاني من هذه المجموعة القديمة قد أصبح دولة مستقلة بإسم بنجلاديش ، ولم يتم ذلك بلا معاناة ـ كما نعلم ـ ولا دون أن يتعرض مولد هذه الدولة الجديدة إلى امتدادات بسيطة أو قاسية على رقعة الشطرنج الدولي ، فهنا أو هناك بالنسبة للإسلام كما هو الحال بالنسبة لبلدان العالم الثالث ، فإن المشكلة تكمن في المصالحة بين ثلاثة مبادىء أو الاعتراض عليها ، وهي : احترام الخريطة الموروثة من أيام الاستعمار ، وحق الشعوب في أن تحكم نفسها ، واحترام تاريخ ما قبل الاستعمار .

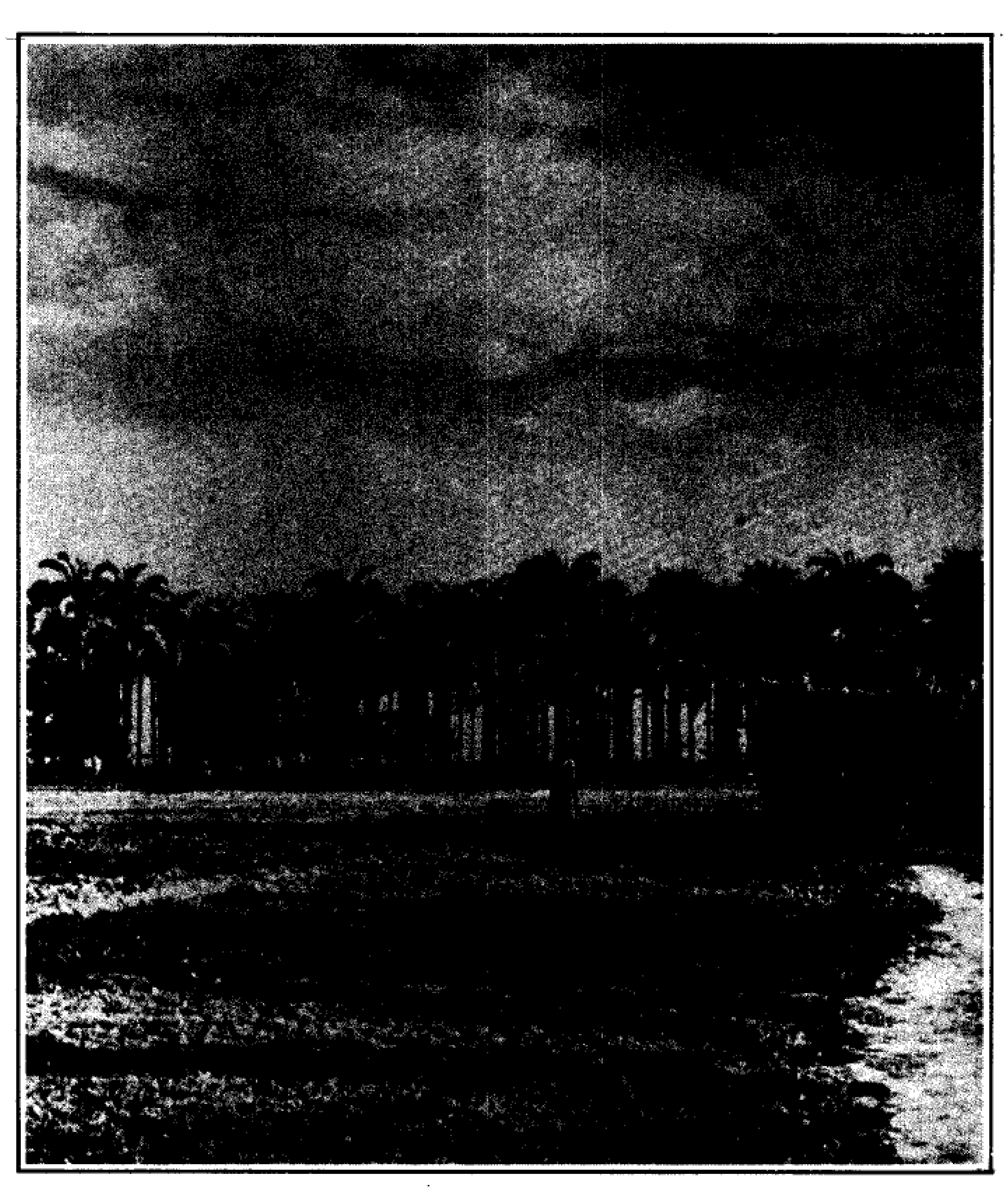
وفيما يتعلق بالصحراء الأسبانية ، فإن كلا من الجزائر والمغرب تتواجهان ، الجزائر في نطاق المبدأين الأولين ، في حين أن المغرب في صراعها مع موريتانيا تثير تحركا تقليديا ، وهناك العديد من الصراعات المختلفة الناجمة عن المنازعات والاحقاد وذلك مثل الحدود الجنوبية بين الجزائر والمغرب ومنازعات اريتريا ، ومنطقة الاسكندرونة التي انتقلت من الانتداب الفرنسي إلى الانتداب السوري ثم الانتداب التركي ، والخليج الفارسي أو العربي حيث كانت إيران تحاول ممارسة رقابتها بلا أي مشاركة ، وهناك كشمير : تفاحة الخلاف بين الهند وباكستان ، ومشكلة الباشتو بين باكستان وافغانستان ، والانفصالية الكامنة للبالوتشي والأكراد المنقسمون أساسا بين تركيا وإيران والعراق ، إذ أن العراق قد منحت حقوقا لا يستهان بها للأكراد بعد صراع طويل وفي أماكن أخرى استطاعت بعض البلدان أن تقوم عند الحدود التي تنازل لها عنها الاستعمار وذلك ما حدث بالنسبة للسواحل البحرية لشبه الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية وفي أرض جزر القمر ،



الاسلام اليوم : أ ـ قرية موريتانية منشأة في الصحراء بعيدا عن الأرض المتزرعة

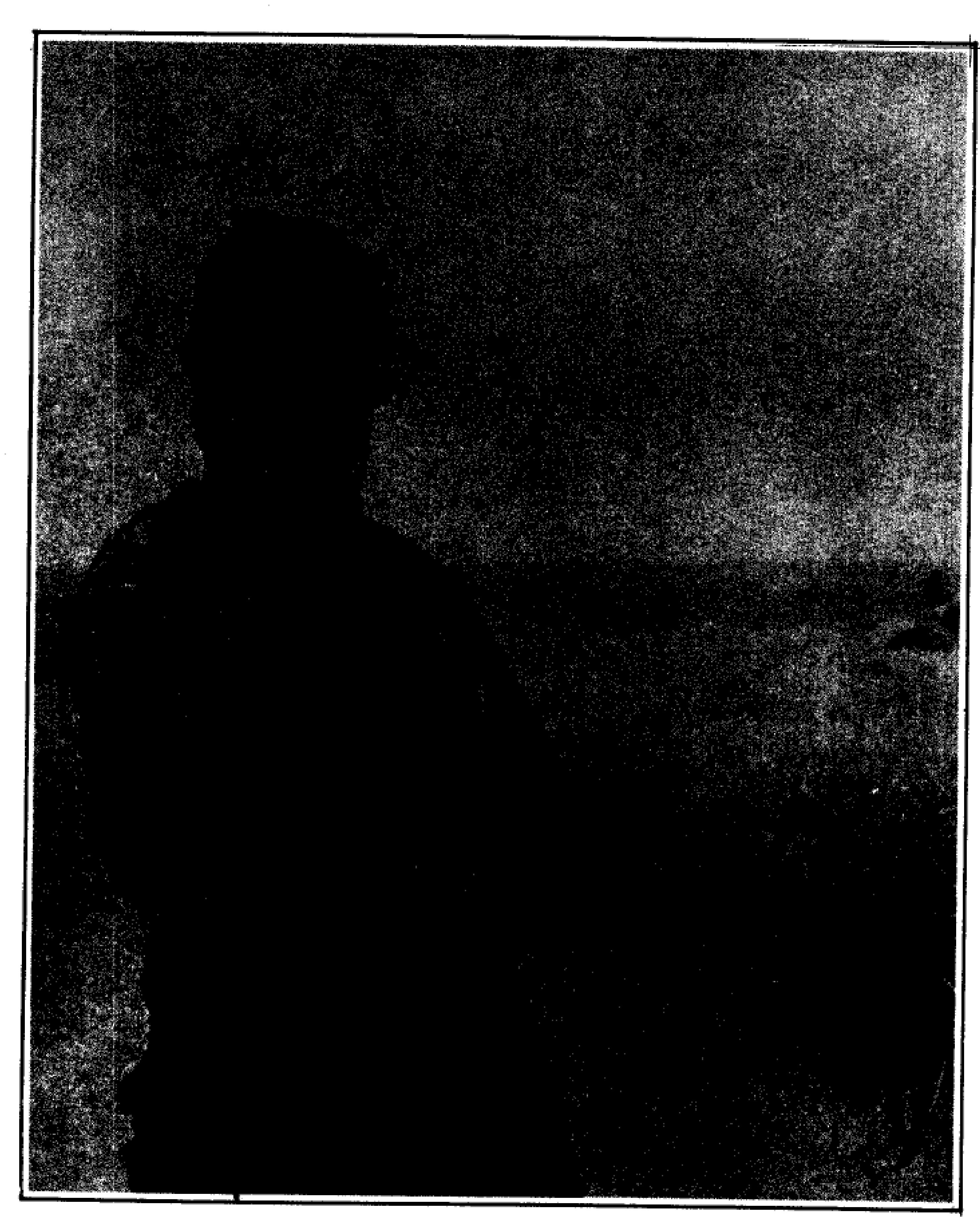
علماً بأن جزيرة مايوت (إحدى جزر القمر) ما زالت تتبع فرنسا .

أما بالنسبة للمستقبل فتبقى مشكلة المشاكل كلها وهي فلسطين ، أن حرب عام ١٩٧٣ ، وأخذ الأسرى وتحويل التيارات بالاضافة إلى العديد من العمليات المذهلة ، والعنف الفلسطيني الذي حاول أن يكون بمثابة الرد على الهجوم الذي وقع عليه والمظالم التي تعرض لها ومنها : الحرمان من الأرض ومن الوطن ، ذلك الحرمان الذي تذرعت به إسرائيل أمام عدالة الرجال ، أي أنه خلال هذه



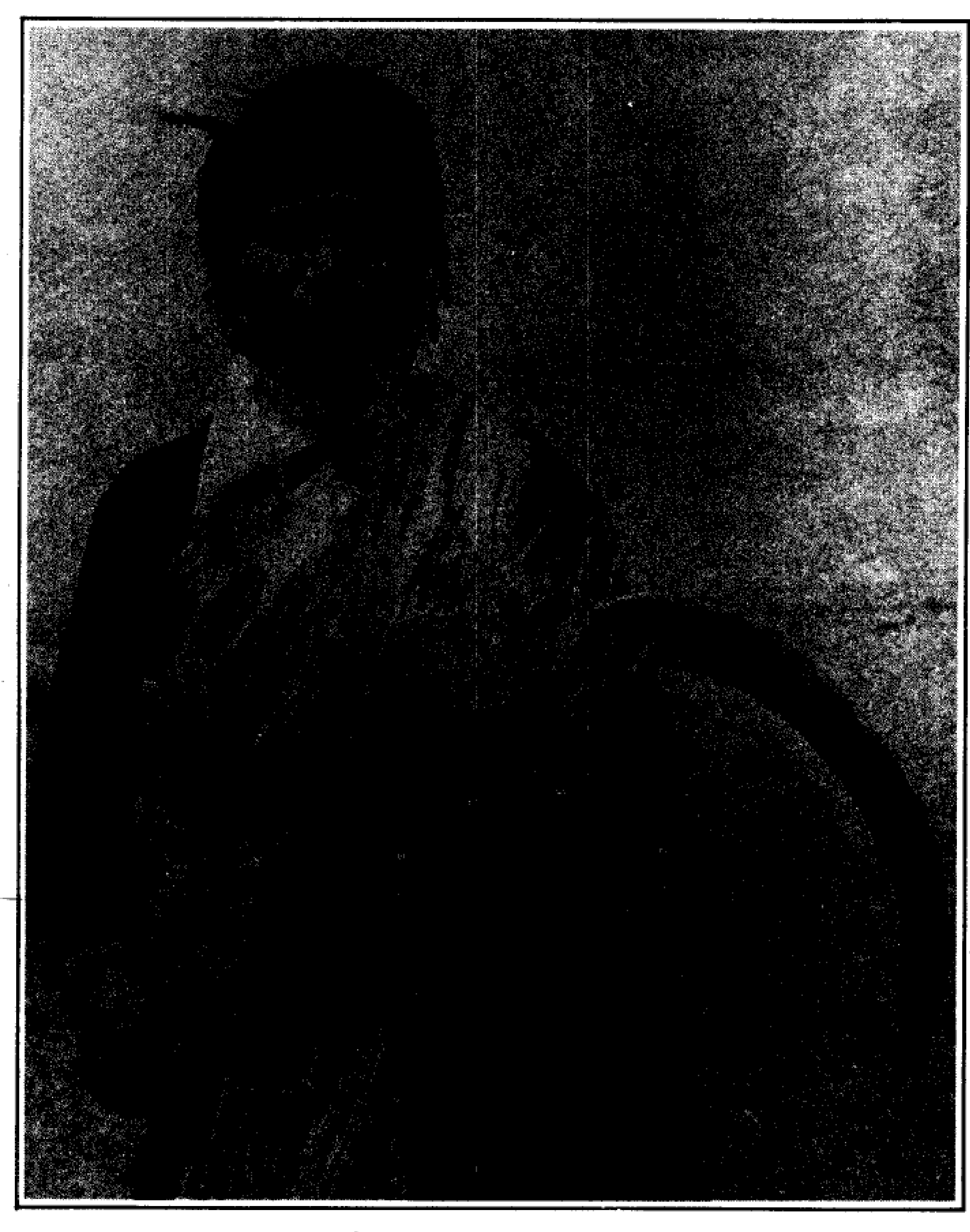
ب ـ الزراعة المختلفة في دلتا النيل

السنوات العشر فأن معالم الخريطة هنا قد تغيرت إلى حد ما ، فقد استطاعت الدبلوماسية الأمريكية التدريجية الخطوات أن ترجع من الجانب الآخر لقناة السويس ، ولكن إسرائيل ما زالت على الضفة الغربية للأردن وعلى الجولان ، ومع ذلك فإن مضمون ذلك الصراع قد عرف تغيرات شاسعة لم تفلح الخريطة هذه المرة في ترجمتها ، فالعرب قد قطعوا صلاتهم باسطورة مزدوجة ، اسطورة العجز العسكري والتقني أمام إسرائيل ، واسطورة الانعزال ، ولا شك في أن هذا



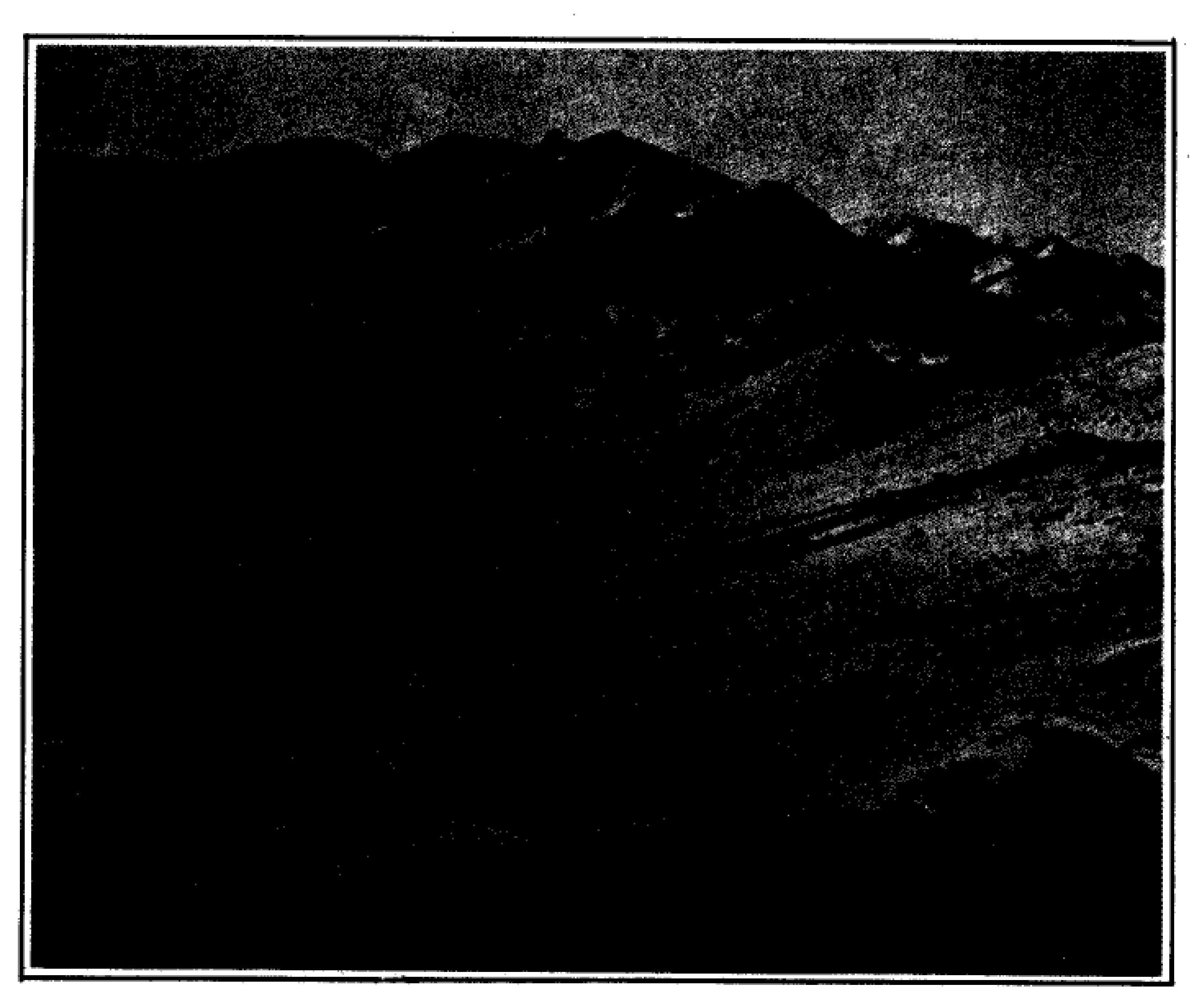
جـ ـ فلاحة عراقية

النصر المزدوج ما زال يتم دفع ثمنه عن طريق تمزقات عميقة داخل مجمع البلدان العربية كما في داخل المعسكر الفلسطيني نفسه فما زال الصراع مفتوحا بين أولئك الذين يرفضون لاسرائيل حق كيانها كدولة ، وبين أولئك الذين يناشدون بإسم الواقعية الاعتراف بها على الأقل بحكم الواقع ، إلا أن الفلسطينيين قائمون



د ـ فلاحة عراقية (لاحظ قفاز حماية الأصابع)

بالفعل ككيان قومي ، ومثل المواجهات الدموية في شرق الأردن فإن الحرب الأهلية في لبنان المسكين ـ تعد أصلاً وعمقا ـ مشكلة فلسطينية ، وبخلاف تفجرات جديدة لن تتعدى هذا النطاق أو حتى نطاق الشرق الأدنى بأسره ، فأنه يتعين علينا على المجتمع الدولي أن يحدد موقفه بالنسبة لحق لا نقاش فيه هو حق

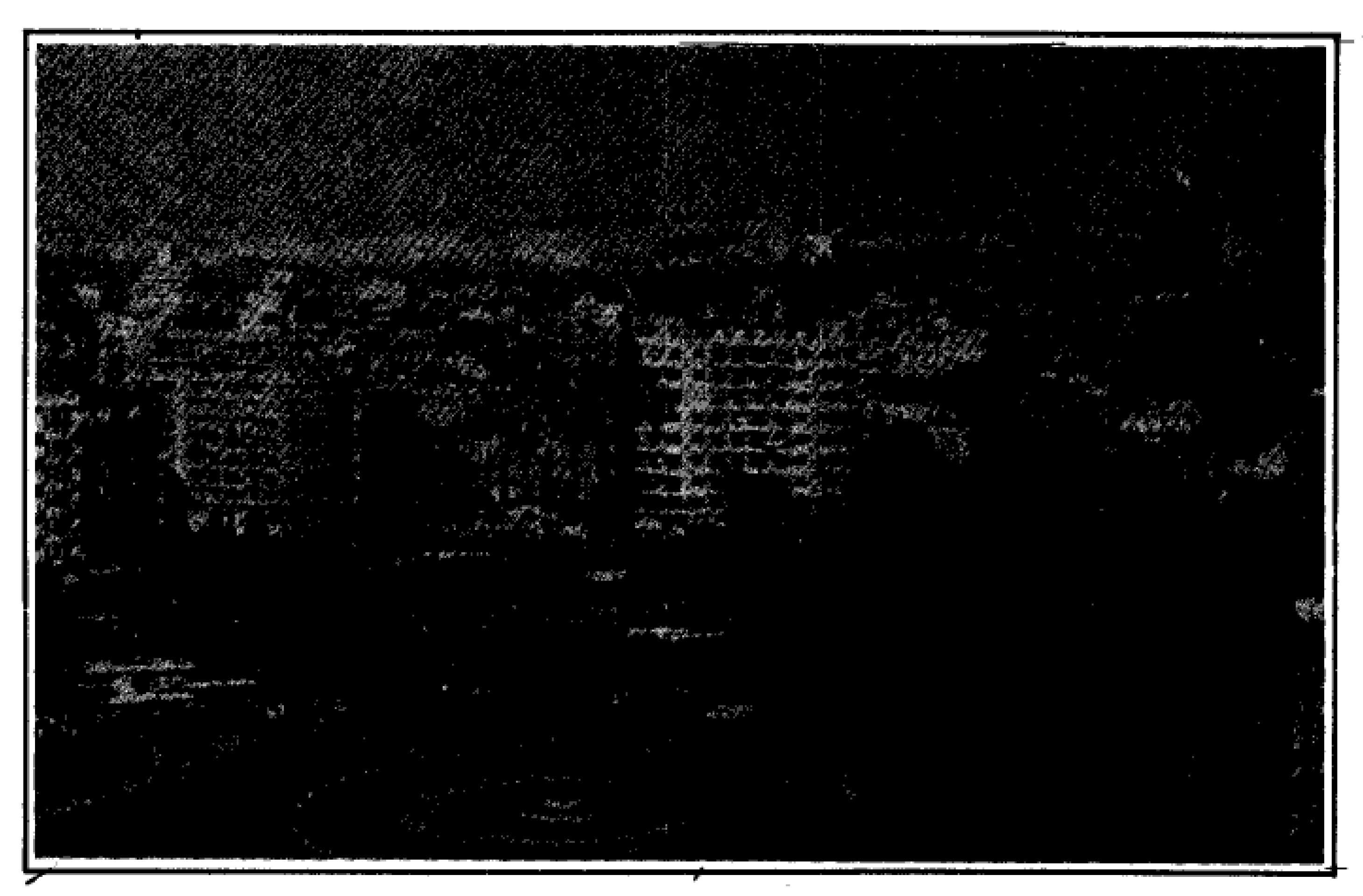


تعويض الطبيعة -البترول يطفح على سطح الأرض

شعب في أن يحكم نفسه وبالتالي حقه في أن يكون له أرضه .

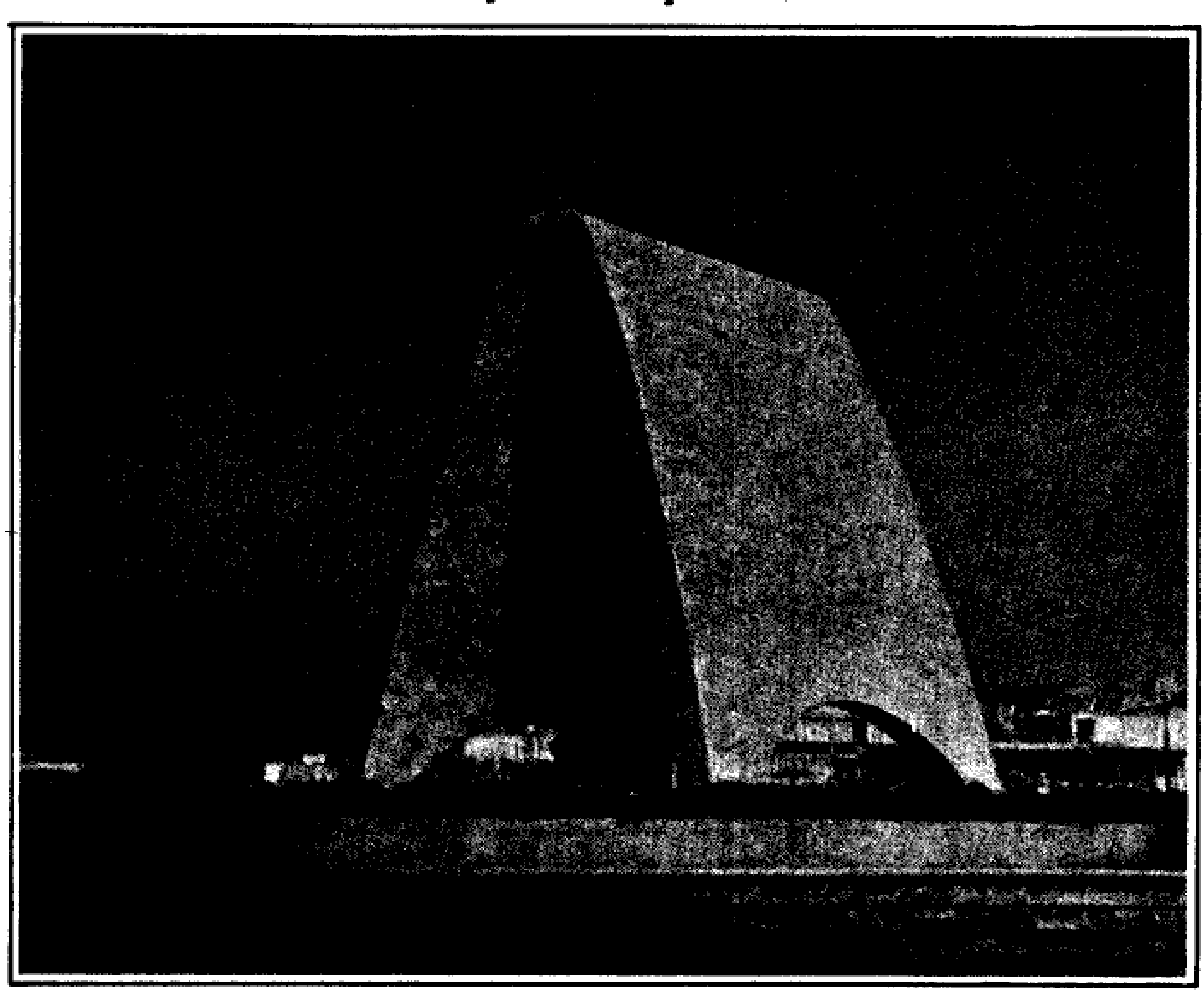
شباب وزيادة في التعداد

بقيت مشكلة تعد في أيدي المسلمين تماما وهي مشكلة تعدادهم ، فلقد اصبح من المعتاد أن نسمع أن شيئاً لن يتم إذا لم يقل التعداد السكاني إلى درجة تسمح بارتفاع درجة مستوى المعيشة ، إلا أن المقاومات ما زالت شديدة فبالاضافة إلى الرغبة الواعية ، هناك الكبرياء الذي تؤكده ذرية متعددة ، وتحدي التراث الإسلامي فيما يتعلق بالحياة ، أو بقول آخر أن عدم الاعتراف بأوسط المعطيات البدائية بأساليب منع الحمل ، حقيقة ما زالت قائمة في أبعد أركان العالم الإسلامي ، لذلك استمع مؤتمر بخارست عام ١٩٧٤ لدهشة الغرب ـ الذي ما كان عليه أن يدهش ـ إلى واحد من أكثر البلدان توغلا في التجديد ووسائله ينادي بأن أولى ثروات شعب ما تكمن في عدده ، ترى ما الذي قاله عكس ذلك القرن



ميدان التحرير بالقاهرة

نصب الجندي المجهول في بغداد



الثامن عشر عن طريق ميرابو أو جان جاك رسو ؟ وإذا ما كان الغرب يتحدث اليوم بشكل آخر فهل نحن واثقون أنه لا يفعله في مواجهة العالم الثالث ، أو كما يقولونه أحياناً في العالم الثالث حيث أن الخط الديموغرافي يتأرجح ضد الغرب ، ضد سيد العالم الأسبق الذي جرده من ممتلكاته والذي يعنيه أن يستفيد بالرجالِ أو بالتقنيات لكي لا يكون بالفعل مجردا تماما ؟ . .

تعداد الإسلام

المناطق الكبرى الإسلامية	تقديرات ١٩٧٠بالمليون	تقديرات ١٩٧٦بالمليون
المغرب (مجموعة موريتانيا وتونس)	٣٣,٢٥	٣٨,٨٩
الشرق الأوسط (من ليبيا إلى العراق بما فيها السودان)	٦٨,٥٥	٧٩,٩٦
الحزام التركي الأيراني الباكستاني (تركيا، إيران، أفغانستان، باكستان، جزر مالديف، بنجلاديش)	١٦٧	١٨٩,٨٦
ماليزيا وأندونيسيا	٩١	١٠٥,١٥
بقية آسيا (بما فيها مسلمو الاتحاد السوفييت)	٩٣,٨٦	١٠٨,٨٤
أفريقيا الغربية	٤٤,١٧	٥١,٦٧
أفريقيا الشرقية	١٤,١٦	١٦,٥٦
البلقان ، قبرص، وإسرائيل	٤,٤٧	٤,٦٣
دياسبورا		
أفريقيا	١	١,١٦
آسياالأوقيانوسية	١	١,١٦
أوربا وأمريكا	٠,٧٠	٠,٧٢
الاجمالي	٥١٩,١٦	٥٩٨,٦٠

فما الذي تقوله الأرقام ؟ في الواقع وحتى عام ١٩٦٥ يمكننا التحدث عن ديموغرافية متحمسة للعبة مزدوجة تكمن في المحافظة على تعداد مواليد شديد الارتفاع وتخفيض نسبة الوفيات بين الأعمار الصغيرة ، وهي نفسها مرتبطة بالتقدم الصحي ، أي في الاجمال بين تضافر نسبة الوفيات في أوربا عام ١٨٨٠ ونسبة مواليد لم يتم التوصل إليها في أفضل فترات القرون الوسطى « بالاضافة إلى موقف اكثر توترا إذ لم تعد ترى أمامها أوربا الأيام الماضية كمخرج من المستعمرة ، ولا حتى بعض الاستثناءات المحدودة في إمكانية الهجرة ، ففي كثير من النقاط بدأ عام ١٩٤٧ ـ على الأقل بالنسبة لمصر كنقطة تحول كبرى ـ بداية انفجار سكاني ضخم بفضل إنخفاض نسبة الوفيات نظراً لاستخدام المضادات الحيوية ، ومنذ تلك الفترة فأن الأعوام التي تلتها أصبحت ترى خط إنخفاض تعدادها في الريف بشكل متزايد ، وإذا ما احتفظنا بمجرد نسبة المدن في مستوى تعداد الريف في إجمالها فأن ذلك يرجع إلى تفاوت كبير وعدم توزيع ثروات الانتاج بشكل عادل ، فبين المدينة والريف ـ بالتحديد ـ وبين مختلف قطاعات كل منهما وبين المميزين والفقراء ، هناك من يدورون حولها أو تحت حدود البطالة ، فعندما اندلعت ثورة ١٩٥٢ كان الأمر يتعلق بالفعل بالصراع من اجل الحياة ، أو بقول آخر من أجل إعادة توزيع عادل ، بين أكبر عدد من الناس لمستوى الحياة المتوسطة القائمة ، والمحافظة على شكل بأكمله ، أو على شعب متزايد « بعيداً عن حدود الجوع الذي لا يعرف الرحمة » .

وماذا عن اليوم ؟ . . . أنهم يتحدثون عن إنخفاض ما في الانفجار السكاني ، وقد احتفظت على سبيل المثال من مؤتمر بخارست أن الاجمالي الصافي لمواليد شمال أفريقيا قد انخفض بنسبة ٠٤٦ . ٠٪ فيما بين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ وإلى ٠٤٥ , ٠٪ فيما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ، أما في جنوب شرق آسيا فارتفع من ٠٤٦ , ٠٪ فيما بين ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ ، وبنسبة ٠٤٥ , ٠٪ فيما بين ١٩٦٠ ـ ١٩٦٥ وبنسبة ٠٤٤ , ٠٪ فيما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ .

ونجد نفس المجاميع ونفس التطور بالنسبة لجنوب غرب آسيا ، وأفريقيا الغربية حالياً والتي لم تتغير نسبة تعدادها عن ٠٥٨ , ٠٪ ، والأرقام كما نراها تظل مرتفعة جدا خاصة إذا ما قارناها بتعداد أوربا : ٠١٩٧ , ٠٪ فيما بين ١٩٥٠ ـ

١٩٥٥ ، ١٩,٢ فيما بين ١٩٥٥ - ١٩٦٠ ، و١٨,٦ فيما بين ١٩٦٠ - ١٩٦٥ ، و١٧,٦ فيما بين ١٩٦٦ - ١٩٧٠ .

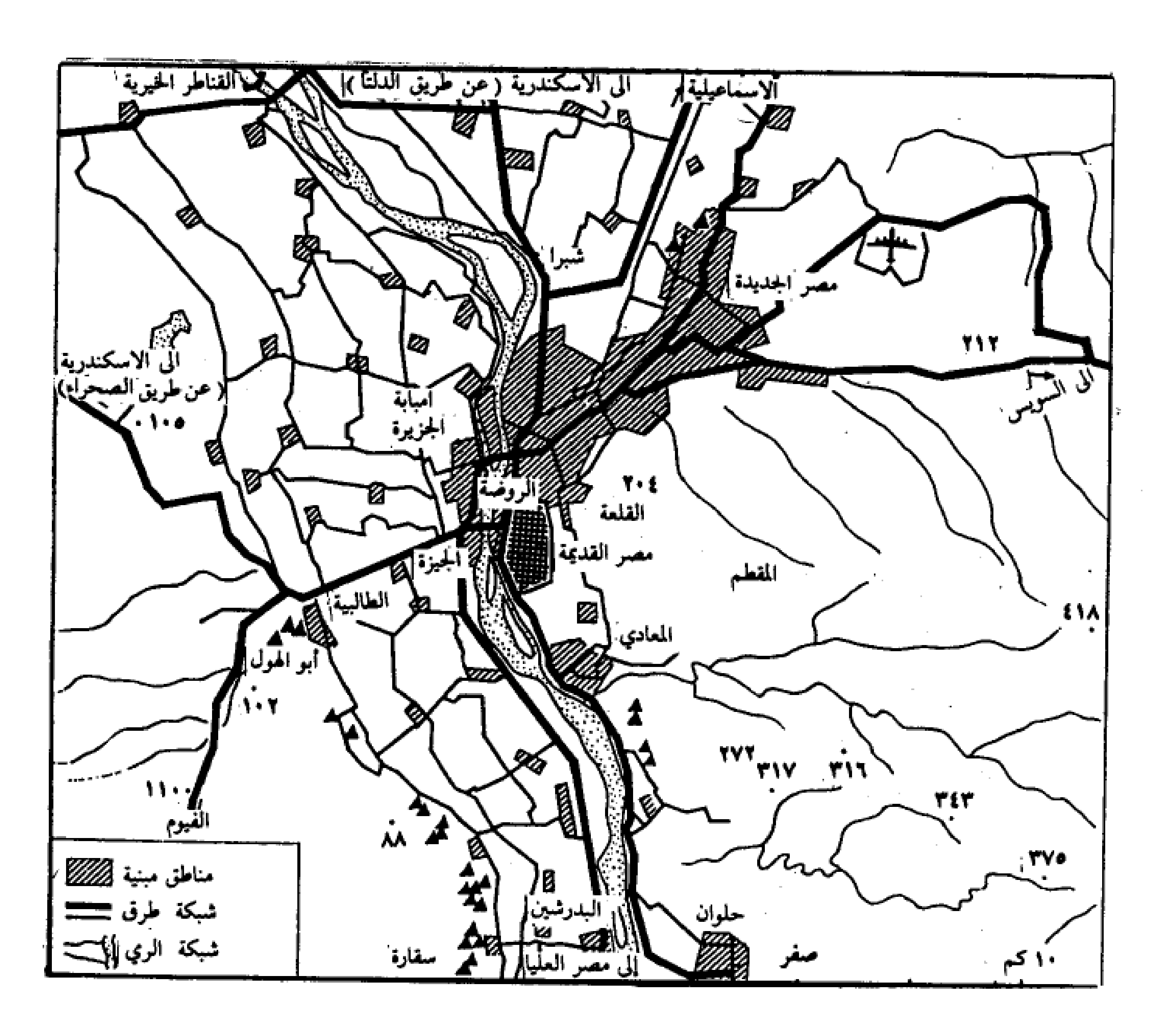
ومن أهم البلدان التي تم فيها شرح تنظيم الأسرة أكثر من غيرها هي تونس ، وهي تقدم لنا الأرقام التالية : ٤٦,٢ ,٠٠٪ فيما بين ١٩٦٠ - ١٩٦٤ ، و٤٠,٩ فيما بين ١٩٦٥ - ١٩٦٩ و٣٦,٢ عام ١٩٧٠ ، و٣٤,٨ عام ١٩٧١ .

وفي مثل هذه الظروف فأن أكثر ما يلفت النظر في الدراسة الديموغرافية للمناطق الإسلامية الكبرى هي صغر شباب تعدادها بشيء يصعب تصديقه ، ففي عام ١٩٧٠ فأن تقسيم الأعمار بالشكل التالي (من الميلاد حتى ٤ سنوات ، من ٥ إلى ١٤ ، من ١٥ ألى ٢٤ ، من ٢٥ إلى ٤٤ ، من ٤٥ إلى ٦٤ ، من ٦٥ فأكثر) كانت تعطي النسبة المئوية التالية بالنسبة للتعداد الاجمالي في جنوب غرب آسيا كان على التوالي ١٧، ٢٦,١ ، ١٨,٥ ، ٢٣,١ ، ١١,٦ ، ٣,٧ ، وبالنسبة لجنوب شرق آسيا كان : ١٧ ، ٢٦,٣ ، ١٨,١ ، ٢٤ ، ١١,٥ ، ٣ ، وبالنسبة لشمال أفريقيا كان : ١٧,٦ ، ٢٦,٨ ، ١٨,٨ ، ٢٢,٧ ، ١١ ، ٣,١ ، وبالنسبة لأفريقيا الغربية كان ١٨,٢ ، ٢٦,٥ ، ١٨,٦ ، ٢٣,٨ ، ١٠,٤ ، ٢,٥ ، أما المستقبل وربما لمستقبل العالم ومصيره فاننا نقرأ في الأرقام المقدمة لسنة ٢٠٧٥ : فإن المنطقتين الكبريين للإسلام في جنوب آسيا (شرقا وغربا) وفي أفريقيا فأن التعداد سيصل بها على التوالي لأكثر من خمسة مليارات ، وما يقرب من الثلاثة مليارات ، مقابل الفين في شرق آسيا ، و١,٥ في أمريكا اللاتينية ، ومليون في أوربا بما فيها الاتحاد السوفييتي و٣٥٠ مليونا في أمريكا الشمالية .

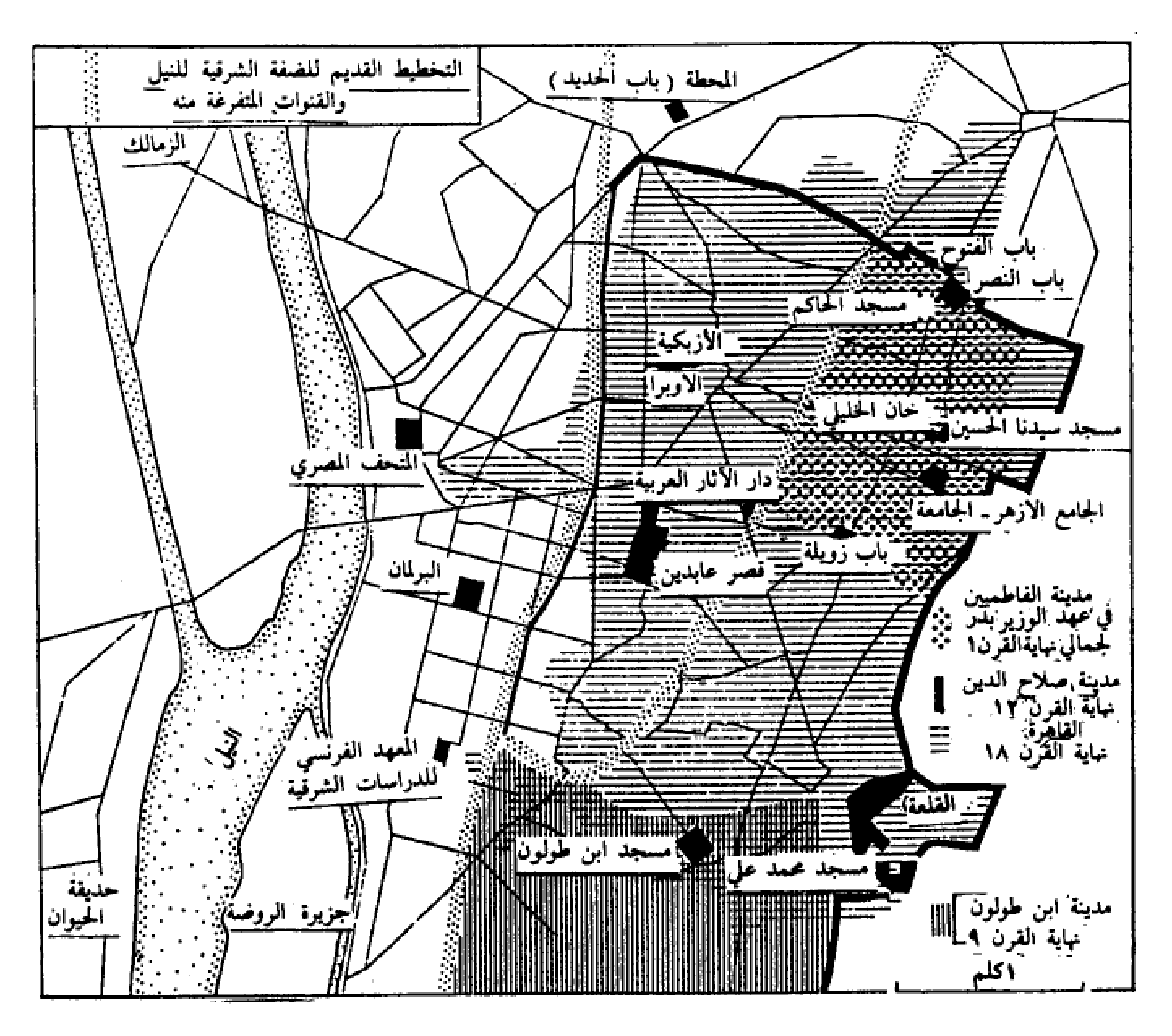
ولنحتفظ حاليا وبالنسبة لعائلات وفيرة مجاميع تعداد تصل إلى أكثر من ٢,٥٪ سنويا ، وهناك بعض المؤشرات الدالة : فمن ١٢ مليون مواطن عام ١٩٢٥ انتقلت تركيا إلى الضعف بعد ذلك بثلاثين عاما ، وإلى ٤٠ مليونا عام ١٩٧٣ ، أما مصر فمن ١٣ مليونا عام ١٩٢٠ ، وصلت إلى حوالي ٢٧ مليونا عام ١٩٦١ ، ثم إلى ٣٠ مليونا عام ١٩٦٥ ، ومنها إلى ٣٦ مليونا عام ١٩٧٣ ، أما مجموع مواطني باكستان بنجلاديش فمن ٧٥,٨ مليونا عام ١٩٦١ وصلت إلى

١١٣ مليونا عام ١٩٦٥ ثم إلى حوالي ١٤٠ مليونا عام ١٩٧٣ ، أما إيران فمن ١٥ مليونا عام ١٩٥٤ إلى ٣٤ مليونا عام ١٩٧٣ .

وتضخمت المدن في كل مكان : إذ أن أفريقيا التي كان بها مدينتان سكانها أكثر من مليون مواطن عام ١٩٥٠ أصبح بها ثمانية مدن رئيسية بعد ذلك بعشرين عاما ، أما آسيا فقد انتقلت من ٢١ مليونا إلى ٦٣ مليونا ، وهناك مثل متميز بالنسبة للإسلام هو مدينة القاهرة ، إذ كانت تضم ٥٧٠ ألف مواطن عام ١٩٠٠ ، وقد نمت بنسبة ١ : ٦ منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٩٦٠ ، ثم وصلت إلى أربعة ملايين نسمة عام ١٩٦٦ ،واليوم حيث يقدر تعدادها بحوالي تسعة ملايين فان خريطة القاهرة الكبرى (خرائط ٢٢ ، ٢٣ ، ولوحة ٣٢ب) بالاضافة إلى الاسكندرية متمثلان في ربع التعداد المصري الذي يضم أربعين مليونا .



الخريطة ٢٢ ـ القاهرة عام ١٩٦٧



الخريطة ٢٣ ـ القاهرة امس واليوم

ففي كثير من الأحيان لا يمثل التضخم السكاني بها إلا شدة تزايد تعداد الريف إذ يأتي إلى المدينة ليضاعف من صعابها ، وهكذا فالمدينة لا تفعل اكثر من أنها ترمز وتضخم كل مشاكل البلد المثقل بأعبائه مع مراعاة مواردها الحالية ، فلقد كانت أرض مصر تغص بالناس بحيث كان يمكن للاصلاح الزراعي أن يأتي بثمار حقيقية عام ١٩٥٢ ، إلا أن أية تقسيمة عادلة وجذرية للأراضي المصرية الصالحة للزراعة بين كل عائلات الفلاحين لم تكن تتم إلا بواقع ١,٦ فدانا ، أي بواقع أقل من نصف المساحة المطلوبة ليمكن استخدامها بشكل تام ، وماذا عن السد العالي ؟ . . . لقد كان بمقدوره أن يسمح باستقرار ٤٠٠,٠٠٠ عائلة ، أي ما يقرب من مليونين إلى ثلاثة ملايين في حين أن الأمر يتعلق باستقرار عشرة ملايين ، ولنلخص قولنا : أن الإسلام بالاضافة إلى أفريقيا وآسيا التي يتعلق بها ، يلعب دورا متزايدا في زيادة ديموقراطية العالم ، وهو عالم في ريعان شبابه ونحن ندرك أن

الرصيد من الرجال ، من رجال المستقبل لا يمثل في نظر الذين يمتلكونه ما يمكن الاستغناء عنهم عن طيب خاطر ولو جزئيا ، فالمشاكل إذن هي على مستوى نفس هذه الجماهير الحية وعلى مستوى متطلباتها في الغد القريب ، أي أنه لا بد من وضع تخطيطات المستقبل الكبرى لكافة التطورات على كافة المستويات بالنسبة للربع الأخير من القرن العشرين .

٢ ـ الصراع من أجل الاستقلال الاقتصادي

إن مشاكل الاسلام تعني مشاكل العالم الثالث ، فالبلدان الإسلامية ليست وحدها هي التي تصارع من أجل كسر الحصار واخضاعها الطويل للاقتصاد الرأسمالي الغربي ، فسواء كان الأمر يتعلق بملء فراغات صارخة ، أو إستعادة قطاعات بأكملها اقيمت فيما مضى لخدمة البلدان الاستعمارية البعيدة لكنها غير صالحة للاحتياجات المحلية الفورية ، أو الحصول على المواد الضرورية اللازمة لتشغيل الثروات القومية العقارية مثلا ، كالتي تركها المستعمر في مكانها عند رحيله ، فأن العالم الإسلامي يساهم في كل هذه المشاكل بحركة شاسعة تربطه ببلدان أخرى ، لكنه بمقدوره ـ على الأقل ـ أن يقدم لمختلف هذه البلدان وأحيانا في كل منها ، الحصيلة الكاملة للاجراءات التي اتخذت في مثل هذه الحالات .

الغذاء والاكتفاء الذاتي

أولاً الغذاء (لوحة ٣١جـ) والغذاء عن طريق الاكتفاء الذاتي ، فالاصلاح الزراعي سائد في كل مكان تقريبا ، سواء عن طريق الاستعانة بتحديد الملكية (٢٠٠ فدانا أي حوالي ٨٤ هكتارا في مصر عام ١٩٥٢ ، إلا أن القانون سوف يحددها عام ١٩٦١ بخمسين فدانا كحد أقصى للملكية العقارية) أو عن طريق الجمعيات التعاونية المقامة بانتظام مثلما في الجزائر ، أو عن طريق معاونتها فقط مثلما حدث في الخطة الخمسية الثالثة الباكستانية (عام ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠) وفي كل مكان أيضاً لا بد من تنويع المحاصيل وزيادة إنتاجها ، واكتساب الأراضي الجديد لصالح الانسان ، والصراع ضد تآكل الأرض وصد الرمال وردم المستنقعات ، وذلك بتطوير وسائل الري ، وقد اصبحت الخزانات رمزا للازمنة الحديثة ، من أندونيسيا إلى المغرب ، حتى وإن كانت موروثة من زمن الاستعمار ، ويتصدر كل

هذه الخزانات خزان طربلا في باكستان وسد الفرات في سوريا ، وخاصة السد الضخم المقام عند أسوان إذ يرتفع ١١٠ مترا ويمتد ٣,٦ كيلو مترا ويحتجز ١٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة وهي تعادل تقريبا زراعة ٥٠٠,٠٠٠ هكتار من الزراعات الجديدة ، أي ما يعادل اكثر من ٣٠٪ من المساحات المنزرعة حاليا ، وذلك دون أن نتحدث عن الطاقة الكهربائية وهي تعادل ١٠ مليارات من الكيلو وات سنويا .

وإلى جانب أهمية السدود والخزانات هناك تلك القطعة الأساسية في نظرة الأمل وهي الأفران العالية أو على الأقل المصنع ، سواء كان للصناعات الثقيلة أو الخفيفة أو التابعة للدولة أو للقطاع الخاص ، فلا بد في كل هذه القطاعات الممكنة وبأي ثمن التوصل إلى استتباب الأقتصاد الذاتي معتمدا على الثروات القومية التي تؤدي بدورها إلى العديد من الأنشطة الأخرى ، وبذلك تقلل من التبعية للأجنبي فيما يتعلق بالمنتجات الكاملة والتي في استطاعتها أن تقوم بدور المنافسة في الخارج ، والنتائج هنا أمامنا : فاليوم مصر لها صناعاتها للسيارات والجرارات والاطارات وعربات السكة الحديدية والثلاجات والتليفزيونات وماكينات الخياطة ، لكي لا نتحدث عن غيرها .

أما الجزائر فتقدم مثل تطور صناعاتها البتروكيماوية والمعادن (مثل مجمع عنابة) ، أما الباكستان فتقدم من ناحيتها الأرقام الكاشفة عن الجهود التي تبذلها : فمؤشر الانتاج الاقتصادي الصناعي المحدد له ١٠٠ عام ١٩٥٢ ارتفع إلى ١٢٨ بعد ذلك بعامين ثم إلى ٢١٥ عام ١٩٥٨ ، وفي نفس الوقت (فيما بين ١٩٥١ - ١٩٦٤) فأن نسبة مواد الاستهلاك في الاستيراد انخفضت من ٤٦٪ إلى ٢٣٪ في حين قفزت معدلات المعدات الخاصة في مجال المواد الأولية الخاصة لانتاجها من ٢٧٪ إلى ٦٣٪ .

إذن فمن قال بالتطور قال أيضاً بضرورة توفر الأسواق ورؤوس الأموال والكوادر ، فلعبة التجارة الحرة وعادة عن طريق الاتفاقيات والاقتصاديات الشابة أرادت أن تؤكد لنفسها التصريف اللازم وذلك لدى أثرياء الغرب بالطبع ، ولكن هذه تعد الصفة العظمى في العقدين الأخيرين - في الكتلة الشيوعية بل حتى في بلدان العالم الثالث ، إذ أن العرب مجتمعين أو المغاربة فيما بينهم يحلمون أيضاً

بسوق مشتركة ، وهي أحلام معقولة بلا شك لكن الواقع أشد صرامة بالفعل ، إذ يحتوي هذا الصراع إلى الأبد في دائرة مفرغة ، فالانسان لا يبيع أو لا يشتري حقيقة إلا حينما يصل إلى مستوى معين من المعيشة وهذا اليسر لا يصل إليه إلا عن طريق التطور ، الذي يعد في حد ذاته وسيلة القدرة على الاستثمار ، أي بقول آخر القدرة المالية ، وها نحن عدنا مرة ثانية إلى ضرورة البيع أو الاقتراض وهو دور خائن وخطير ذلك الذي يقوم به الدائن والذي يدفع على الفور إلى تزايد المجهود المطلوب من الشعوب ، التوفير إلى أقصى حد لصالح المساعدات الأجنبيه باقتطاع المبالغ الضرورية للاستثمار من الموارد المحلية ، إلا أن الهاوية تظل كبيرة لملئها ، نظراً لأن إمكانيات الادخار - مهما كانت قيمتها - لا يمكنها أن تسد احتياجات الاستثمار التي تعد ضخمة حقيقية ، وأساسية بل وخاصة فورية .

البترول بين الامكانيات النظرية والواقع

من قال « عربي » قال « بترول »: تلك هي المعادلة التي استقرت بشدة في الضمير الجماعي لغرب شديد الاستهلاك بل ومبذر للطاقة ، ولربما كان من الأفضل أن نقول : الإسلام والغرب لأنه بخلاف الشرق الأدنى والجزائر وليبيا فإن الذهب الأسود للإسلام يعني أيضا نيجيريا وإيران وأندونيسيا والأرقام واضحة (انظر الجدول الخاص بذلك) إذ أن بترول الإسلام يوازن بترول بقية الكرة الأرضية والشرق الأوسط بمفرده كان يمول حوالى ٤٠٪ من مجمل المحصول عام ١٩٧٤ ، فلا شك إذن أنه بالنسبة للعالم الإسلامي فإن البترول هو مجال عمالة واستثمارات وإنشاء صناعات أخرى وتحسين مستوى معيشة الناس ومنها : البحث عن طبقات مائية ونزع ملوحة مياه البحر أو سحب الكتل الثلجية من القطب الجنوبي ، إن أصداء هذه المنجزات أو هذه المشاريع إلى جانب إقامة المدارس والمستشفيات الجديدة والارتفاع المذهل لمستوى المعيشة ولمتوسط الدخل السنوي للفرد ، تأتينا عن طريق الطبقات كأنشودة لمجد ذلك الكنز الأسطوري المدفون في أرض شيبانزو الغريبة ، كما يبدو أن الحركة القديمة لثروات العالم بدأت تنقلب إذ أن بعض موردي المواد الخام وزبائن المنتجات المصنعة في بعض البلدان حيث كان لا بد من عمل شيء ، اصبحوا محولين للمواد الأولية - في أماكنهم - بل ويستثمرون في المؤسسات الأوربية ، ومنذا الذي يمكنه إنكار الدور الدولي للذهب

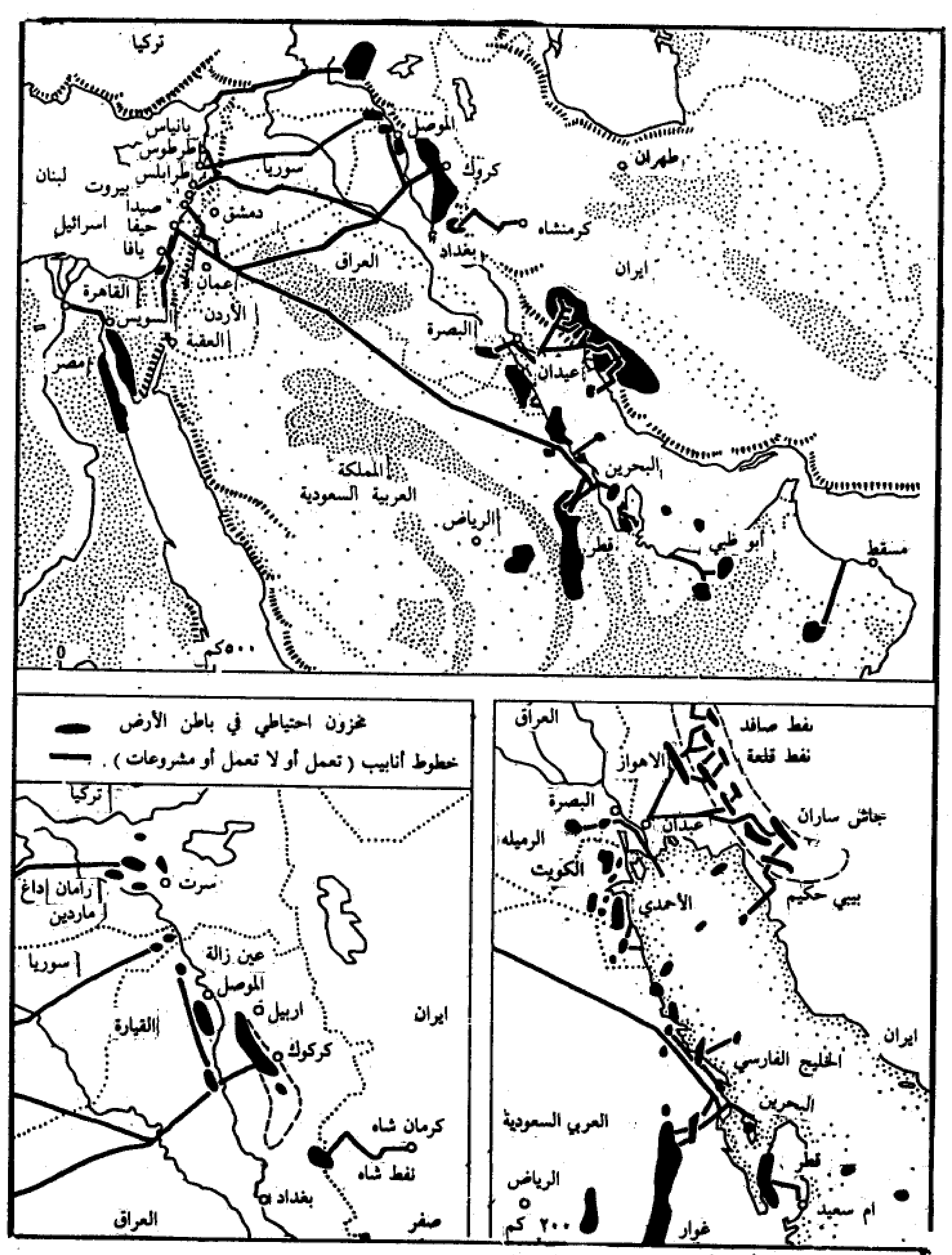
الأسود وخاصة منذ إنشاء منظمة البلدان المصدرة للبترول (اوبك) إننا نرى بوضوح في تهديدات الحذر ، والفكرة التي تعلن بانتظام عن ربط عملية امداد الغرب بالطاقة بمشكلة فلسطين ، والثقل المتزايد للعربية السعودية على نطاق لعبة الشطرنج الدولي ، والضغط على الغرب أن ينحني لرغبة قانون ذلك السوق الذي أصبح المدافع عنه منذ مدة طويلة عن طريق إعادة النظرة المنتظمة في أسعار البترول الخام .

ومع ذلك فإن البترول ليس مصدرا للتسهيلات والقوى فحسب ، فلا شك أن البلدان الإسلامية قد سيطرت على إنتاجها وانتزعته من نفوذ الشركات الدولية ، وذلك مثلما حدث لإيران أيام الدكتور مصدق ، ثم العراق وليبيا بل وحتى البلدان العربية قد وضعت مبدأ الزام الدول أمام ثرواتها القومية ، إلا أن الانتاج لا يمثل كل شيء ، كما أنه ليس أكيدا بالنسبة للمستقبل باستثناء المملكة العربية السعودية التي تعدى مخزونها أية آمال لأن منبع ثرواتها قابل لأن ينضب ، ومن ناحية أخرى فإن البلدان المستهلكة الكبرى ، تعمل جهدها لتطوير أشكال جديدة للطاقة أو البحث عن البترول في أراضيها ، مثل النرويج وبريطانيا العظمى اللتان نجحتا في ذلك بالفعل ، مما نتج عنه فكرة ضرورة المحافظة على المخزون من أجل الاحتياجات الذاتية للصناعات المحلية أو من أجل المحافظة على سعر البترول الخام في مستوى مرض ، كما أنه يتحتم على البلدان المنتجة أن تكون متضافرة وأن تجد سياستها المركزية للانتاج امتدادها في نفس عملية التوزيع ، إلا أن المؤسسات الدولية الكبرى ما زالت قوية وبدأت المنافسات ترتسم في كتلة البلدان المصدرة ، إلا أن ايران والعربية السعودية تتنافسان على سعر النفط الخام وعلى حجم استخراجه وانتاجه ، مما يعطيه الحق ـ أمام المستقبل غير الأكيد للاحتياطي أو انخفاض سعر النقل الذي يفضل النقل عن طريق الخليج بدلا من أنابيب البترول المتجهة إلى البحر الأبيض المتوسط .

وأخيرا فإن الملكيات الشهيرة لا تغير العالم بأسره كما أن العالم بأسره ليس ثريا في البترول إن التباين الواضح يساهم في ازدياد التوترات ، في بلدان الإسلام ، بين الدول المنعمة والشعوب الفقيرة في هذا الصدد ، أو اولئك الذين « يطالبون بتوزيع الثروات » كما كان يقال سالفا ، وهؤلاء يحلمون وفقا لمنطق العدالة

(جداول البترول في العالم الإسلامي وخرائط البترول في الشرق الأوسط) بترول الإسلام في العالم سنة ١٩٧٤

البلدان	الانتاج بلآف الأطنان	٪مجموع الانتاج العالمي	البلدان	الانتاج بالاف الأطنان	٪ مجموع الانتاج العالمي
الاسلام			تركيا	٣٥٠٠	
السعودية	٤١٢٠٠٠		البحرين	٣٤٠٠	
ايران	٣٠١٠٠٠		الشارقة	١٣٠٠	
الكويت	١١٢٠٠٠		امريكا الشمالية		
العراق	٩٥٠٠٠		الولايات المتحدة	٤٩٤٨٥٠	
أبو ظبي	٦٨٠٠٠		كندا	٩٧٠٠٠	٢٠,٦
الكويت منطقة محايدة	٢٨٥٠٠		جزر الأنتيل - كاريبيان		
الشرق الأدنى			فنزويلا	١٥٦٠٠٠	
قطر	٢٤٧٠٠		ترينيتي	٩٠٠٠	
عمان	١٤٢٠٠		كولومبي	٨٧٠٠	٦,٠
مصر	١٢٨٠٠		بلدان أخرى		
دبي	١٢٨٠٠		أريكا اللاتينية	٧٣٥٥٠	
سوريا	٥٨٠٠		أوربا الغربية	١٦٠١٠	٠,٠



الخريطة ٢٤ - بترول الشرق الاوسط في عام ١٩٦٧

الإسلامية ، بتوزيع عادل للعائد البترولي ، إلا أن الثروات لا تؤدي إلى معارضات البلدان ضد بعضها البعض ، وإنما تعمل أيضا داخل نطاق الحدود الدولية أو على الأقل داخل بعض منها ، فاتحين بذلك الفجوة الواسعة بين الشعب الذي يعاني وبين ثراء الطبقة الأرستقراطية المالكة لتلك الأراضي الأسطورية والتي

لا يستثمر كل عائدها في مهام الانتاج ، وإنما في بضائع استهلاكية، بل وحتى مصاريف البذخ ، ولا شك في أن المحاولات مستمرة في هذه السنوات الأخيرة لتدارك هذه المفارقات ، وذلك عن طريق تأميم وسائل الانتاج أو محاولة الاشتراكية او الليبرالية ، عن طريق رفع مستوى المعيشة وزيادة عدد متزايد من الرجال للمصالح الناجمة عن الثروات البترولية ، أما فيما بينهم فإن المساعدة الناجمة عن دولة لدولة ، فإن المملكة العربية السعودية تلعب هنا دورا من اهم الأدوار ، أما خارجا عنهم ، فهم يحاولون عدم فرض العقوبات على طريق رفع اسعار النفط الخام على البلاد التي ليس بها بترول ، بقي أن رغبة الإرتباط والاستقرار العام عن طريق اسعاد اكبر عدد ممكن لا تتفق دائما مع الأغراض الخاصة والمرتبطة هنا أو هناك بضرورة التطور السريع القائم على الموارد الطبيعية الحقيقية اليوم ، إلا أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتنبأ بمستقبلها على المدى البعيد .

التعليم

في هذا العالم الذي يزخر بالتغيرات فقد قلنا أن الشباب هو الذي يحمل الأمل الكبير بل يجب عليه عندما يصل إلى سن النضج أن لا يزيد أعباء اليوم بثقله الضخم ، بل على العكس ، يجب عليه أن يكون إحدى القوى الحيوية في التقدم العام ، لذلك فلا بد من التكوين والتعليم ، وقبل ذلك رفع نسبة التعليم ، ففي كل مكان يعد التعليم أولوية قومية ، وهناك بعض الأمثلة من بين الآلاف ، فهناك التعليم « الأساسي » الذي تحاول الجزائر تطويره بشكل منهجي بالتوسع في التعليم الديني فكان لديها ٩٠٠ طالب عام ١٩٦٣، ثم ٤٧٣٥ عام ١٩٦٦، و ٧٥٢٩ عام ١٩٦٨، و ١٢٦٥٥ عام ١٩٧١، و ٢٤٤٣٢ عام ١٩٧٤، وبشكل أعم لقد انتقلت الجزائر فيما بين عامي ١٩٦٨ - ١٩٧٤ من ١٥٥١٠٠٠ طالبا إلى ٢٦٢٢٠٠٠، وفي التعليم الثانوي انتقلت من ١٦٦٠٠٠ إلى ٤٥٥٠٠٠ أما في التعليم العالي (١٩٦٢-١٩٧٣) فانتقلت الجزائر من ٢٩٠٨ إلى ٢٠٠٤٨ طالبا كما يجب أن نضيف إليهم ١٣٠٠٠ مبعوث إلى الخارج فيما بين (١٧٣٩-١٩٦٤)

وكلمة الأعداد تعني أولا أعداد كوادر الغد ، وتخفيض التبعية للمساعدات الخارجية تدريجيا وذلك بإعداد التقنيين بصفة خاصة ، إن الجدول التالي يعطينا أرقام الجزائر فيما بين (١٩٧٠-١٩٧١) فيما يتعلق بنسبة الطلبة والطالبات والجامعات أو الكليات

الطلبة الجزائريون (١٩٧٠ -١٩٧١)

التقسيمات الكبرى	الجزائر			وهران			قسطنطينة				
	العدد الاجمالي	الطالبات	بالنسبة للاجمالي	العدد الاجمالي	الطالبات	بالنسبة للاجمالي	العدد الاجمالي	الطالبات	بالنسبة للاجمالي	المجموع	الطالبات
قانون وعلوم سياسيةواقتصادية وتجارية	٣٨٨٠	٥٤٢	١٣,٩٧	٦٤٥	٦٨	١٠,٥٤	٤٦٦	٦٧	١٤,٣٦	٤٩٩١	١٣,٥٦
علوم وتكنولوجيا	٣٢٥٥	٥٣٦	١٦,٤٦	٤٥٠	٩١	٢٠,٢٢	٢٠٤٠	٤٥	٢٢,٠٥	٣٩٠٩	١٦,١٧
طب جراحة واسنان وصيدلة	٣٧٣٦	١٠٥٦	٢٨,٢٦	٨٠٣	١٣٤	١٦,٦٨	٢٩٢	٤٣	١٥,٤١	٤٨٣١	٢٩,٧١
اداب وعلوم انسانية	٣٢٩٨	١٠٩٤	٣٤,٢٠	١٣٠٠	٢٦٢	٢٠,١٥	١٠٨٢	٢١٦	١٩,٩٦	٥٥٨٠	٣٧,٨٣
الاجمالي	١٤٠٦٩	٣٢٢٨	٢٢,٩٤	٣١٩٨	٥٥٥	١٧,٣٥	٢٠٤٤	٣٧١	١٨,١٥	١٩٣١١	٢١,٥

ونلاحظ في هذا الجدول المجهود الضخم المبذول ناحية العلوم ، وتزايد نسبة تعليم البنات بشكل لا يستهان به ، على الأقل في مدينة الجزائر نفسها ، وهي العاصمة التي تنبع منها الانطلاقة ، ونفس الجهد نستدل عليه من أرقام المبعوثين في المجال التقني ، وانقل منها الأرقام التالية بالنسبة لعام ١٩٧٢ : ١٠٢ مبعوثا يدرسون الهيدروليكا ، و٥٣٣ مبعوثا في المجالات العامة ، و٥٩٥ مبعوثا في الاتصالات اللاسلكية والبريد ، و٩٨٣ مبعوثا في الاقتصاد والتخطيط ، و١٩٣٩ مبعوثا في إدارة الشؤون الداخلية ، و ٢٥٩٣ في مجال الصحة ، و٣٦٧٠ في مجال الصناعة ، و٤٥٥٢ مبعوثا في مجال التجارة ، و٤٩٦٤ في مجال الزراعة ، و٧٦٩٩ مبعوثا في العمل والشئون الاجتماعية .

وأخيرا فإن الأعداد أيضا يعني الانفتاح على العالم ، وعلى البلدان الإسلامية أولا ، ويعد التعريب قائما في كل بلد تقريبا ، ويتبع تقدمه مدى قدم أتباعه أو طابعهم الحديث الاستقلال ، والمقصود أيضا هنا هو التعليم ، لكن مراعاة تداخل اللهجات المحلية التي كانت اللغات القومية الوحيدة الحية وسط الجماهير أيام الاستعمار ، بالإضافة إلى اللغة العربية الكلاسيكية والعصرية التي ازدادت ثراء ومرونة ، بحيث أصبحت لغة اتصال دولية ، بل واللغة العالمية أيضا والمعترف بها في المحافل الدولية ، إلا أن التعريب وتطوير تعليم اللغات القومية يتمشى في نفس الوقت وفي كل مكان ، مع انفتاح اوسع على العالم ، وهي ظاهرة أساسية في هذا النصف من القرن العشرين ، أن نرى البلدان المستعمرة قديما ، إلى جانب تطوير لغتهم القومية نظرا لأهميتها في الاتصال بالعالم الخارجي وأولا في الاتصال بين مختلف المجالات الثقافية للإسلام ، يهتمون باللغات الأخرى فلم يحدث للغة الفرنسية مثلا أن يتم تعليمها منذ الاستقلال بهذا التوسع بين شباب المغرب ، وقد يقول بعض الذين لا يرضون أبدا أنه مستوى غير مرض . . .

وربما كان في هذا القول شيء من الصدق إلا ان الضرورة كانت أشد إلحاحا بحيث أن مجهود التعليم حاليا يرمي إلى أن يكون التعليم في كل مكان على أيدي متخصصين .

ولنوجز القول دون أن نعطي للاحصائيات ولا للأحداث أهميتها المطلقة ، مستقلة عن رغبة الرجال وآمالهم ، ودون قصد المساس بشرف البلدان الاسلامية

وأبسط الحقائق فلا يمكننا إغفال الجهد المبذول لتحويل نظام التعليم المتوارث من أيام الاستعمار في تعليم الجماهير والخاصة ، في هذا النطاق الجديد لقاعدة الغد الأساسية ، فما زالت هناك نواقص هنا أو هناك فيها يتعلق بالكم وخاصة بالنسبة للصلات المتبادلة للتجديد والتراث ، ذلك أن العادات الثقافية لا يمكن ضغطها في يوم واحد ، فهل نحن في فرنسا راضون عن أرقام احصائياتنا ؟ . . ثم إن التكوين المكثف للتقنيين لا يمكن أن يتم في مجال المطلق نظرا لأنه خاضع ـ في مرحلة معينة من التطور ـ إلى إمكانيات التوظف التي يقدمها الاقتصاد القومي من جهة ، ومن جهة أخرى ، إلى المستوى والحجم الذي توصل إليه التعليم ، علما بأنه هو ذاته متجمد أو مستحوذ عليه من المهمة الضخمة الأولوية والملحة وهي ؟ : محو الأمية ، وكل ذلك يقدم المزيد من المصاعب ولا يمكننا إنكار أن البلاد الاسلامية تواجهها بعزم .

٣ـ حول الاشتراكية

في الفترة الحاسمة التي نحن بصددها فإن الدور الرئيسي يقع على عاتق الدولة بصفتها المحرك الأساسي والمراقب العام للتخطيط ، كما يدفعنا إلى قول كلمة عن الشكل الذي تتصف به الحكومة في العالم الإسلامي اليوم ، إن فكرة استعراض مختلف البلدان وأنظمتها السياسية مستبعدة من نطاق هذا الكتاب ، ومن الأفضل إذن أن نحاول تخطيط نظرة بانورامية : لنبدأ بالبلدان الإسلامية أولا ، ثم البلدان التي يتحاور فيها الإسلام مع أنظمة أخرى اجتماعية ثقافية ثم تقوم بعمل موجز لأهم الملامح الرئيسية .

إن أوضح سمة في العقدين الأخيرين هو انبثاق أو تأكيد وجهات النظر الاشتراكية أو المائلة إلى الاشتراكية ، سواء أعلن النظام السياسي عن كونه كذلك ، أو كان يتعامل داخليا مع نظام اجتماعي اقتصادي له وجهات نظر متفاوتة مستوحاة من الاهتمام بالسيطرة على وسائل الانتاج وبتوزيع أكثر عدالة بالنسبة للدخل القومي ، وسواء كان مؤكدا أو مستخدما هنا أو ملهما هناك بعض الخطوط التي تعد في الواقع ممثلة لوجهات نظره ، فإن المشروع الاشتراكي قد أصبح إلى جانب القومية واحدا من أهم اتجاهين أساسيين في العالم الاسلامي اليوم .

الاسلام في داره : ملكيات مطلقة أو شيوعية

اسلام الملوك

آن نظام الملكيات المطلقة لم يعد يبدو في يومنا هذا ـ وللعديد من المراقبين ـ إلا كظاهرة منعزلة فقد انتقلت كل من ليبيا وأفغانستان إلى معسكر الجمهوريات منذ ظهور الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، وحتى في الأماكن التي بقيت فيها الملكيات المطلقة ، فإنها لم تعد تكتفي بارتباطها الوثيق بالكيان التقليدي الذي انبثقت منه في التاريخ ، وتلك حقيقة بالنسبة للأردن والمغرب الثري بنخبة مثقفيه، والذي يقترح نظام ملكية صارمة خاضعة في نطاقها الداخلي إلى رقابة دقيقة مرتبطة بضرورة تطوير الميراث الصناعي لفترة الاستعمار وإلى فترة توسع الأنشطة الجديدة ، وتلك حقيقة أيضا بالنسبة لايران الشيعية حيث نرى تقدما اقتصاديا سريعا وإصلاحات عميقة في البنيان وخاصة في المجال الزراعي ومحو الأمية اللذين يتفقان مع رغبة القادة في المحافظة بشدة على كيان واجهة الدولة الأمبراطورية ، وتلك حقيقة أيضا بالنسبة لدولة الأمارات في الخليج وفي المملكة العربية السعودية حيث تتجاور أعنف الأنظمة الرأسمالية والمحافظة على العادات القديمة القبلية مثلا ، أو تطبيق القانون القرآني مع التقدم وليد الثروات البترولية ، ولا شك أنه يمكننا التحدث هنا عن تجاور أكثر منه اندماجا حقيقيا بين الاسلام التقليدي والروح الجديدة التي تجتاح العالم ، بقي أن نعرف أنه من خلال الجماهير والدور الدولي لبعض البلدان التي اختارت الاشتراكية فإن التدخل المتزايد عمقا والذي يتضح يوما بعد يوم قد يعطي ـ هنا أيضا ـ لاسلام الغد بعض وجوهه الجديدة .

اسلام الاشتراكيات

خطوة أخرى وندخل في مرحلة التجمعات الكبرى للأزمنة الحديثة ، هي فترة الإسلام والاشتراكية ، وكانت مصر أيام جمال عبد الناصر هي النموذج الأول ، نموذج الدولة التي عرفت كيف تقود استقلالها السياسي وتقود في نفس الوقت العمل على أن تعيش من ذاتها ، إذ أن السويس ، والسد العالي والمساكن الشعبية في القاهرة ، والأراضي التي تم الانتصار عليها وانتزاعها من الصحراء بين العاصمة والاسكندرية ، وإقامة المدن والتعمير على طول النيل ، تعد كلها بمثابة

رموز مقدمة لغد العالم الثالث ، ومن أجل الوصول إلى هذه الغايات كان لا بد من الاعتماد المتزايد على ضرورة اشتراكية مبتكرة ، لا غربية ولا ماركسية ، وإنما على العكس اشتراكية يعنيها الحفاظ على الأصالة العربية بأي ثمن ، إن هذا الهدف المزدوج للاشتراكية والعروبة سنجده في بلدان أخرى بصرف النظر عن أية محاولات للتقارب أو النزاع : سنجده في الجزائر الشعبية الشابة الطموح بزراعتها وبترولها ، والتي تمتد أرضها الشاسعة في قلب قارة أفريقيا إلى حوالي ٥٠٠ كيلومترا بعد مدار السرطان ، وكذلك في سوريا ذات النظام الزراعي القديم ، إلا أنها تحاول مسايرة مهمة التصنيع إلى جانب مراقبتها تدفق الذهب الأسود القادم من بين النهرين عن طريق أنابيب البترول القادمة من كركوك ، وكذلك أيضا في العراق حيث يوجد الكثير من الأمور التي تذكرنا بما حدث في مصر ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالتاريخ السياسي والدبلوماسي في الأعقاد الأخيرة ، أو الأنهار الكبرى والجهود التي بذلت اليوم من أجل السيطرة عليها ، وكل هذا الجهد دون المساس بأصالة شديدة للقوة ترجع إلى حجم انتاج البترول وإلى مشاكل الأقلية الكردية وإلى مجاورتها لفارس التي تشعر بوجودها من خلال الأشكال الفنية ومن العدد المرتفع للشيعة .

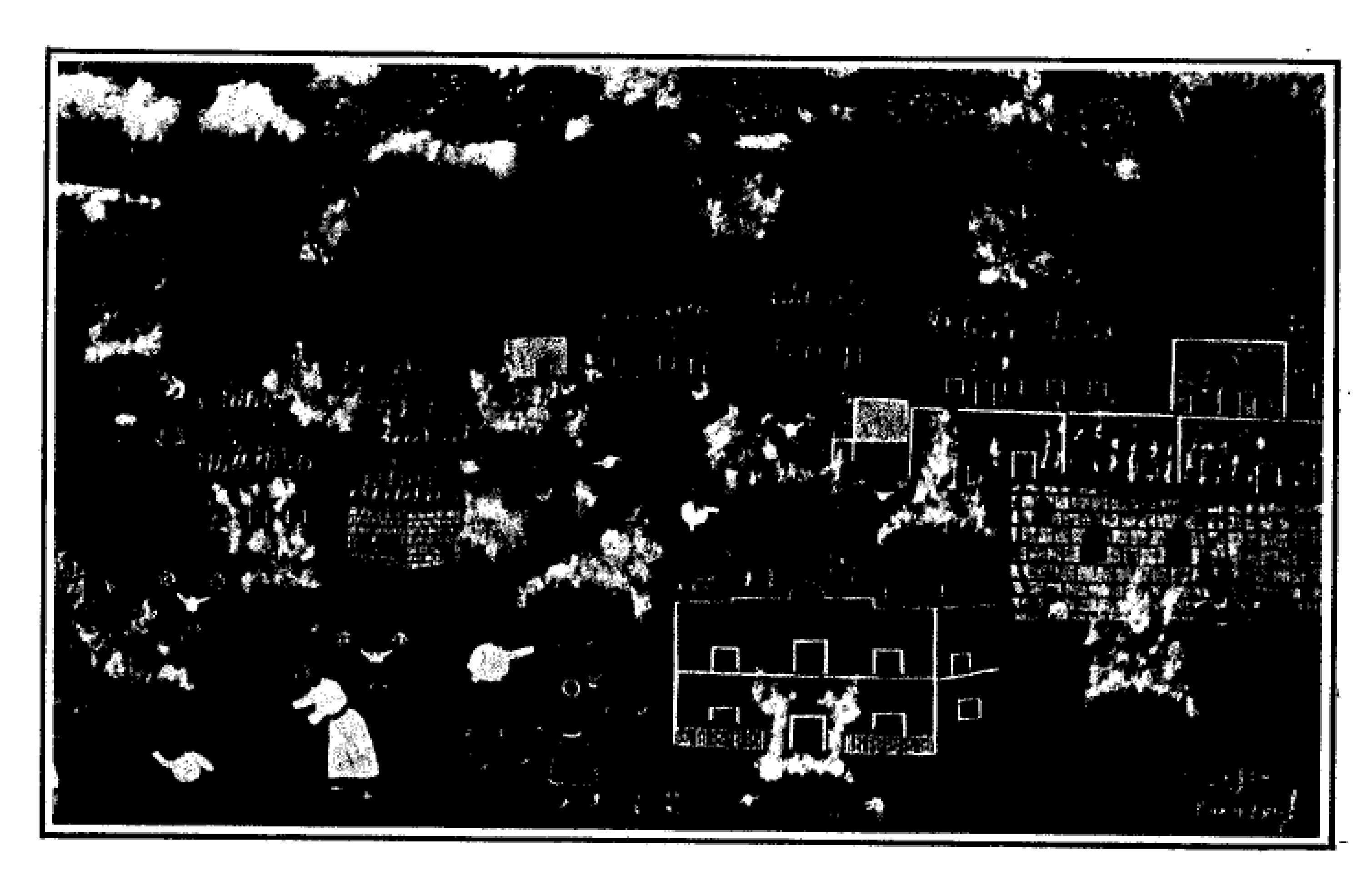
ولكي نظل في منطقة البلدان العربية فلا بد لنا من إفساح مكانة خاصة باليمن الجنوبية ، حيث يعد اختيار الاشتراكية مؤكدا بوضوح ، وبليبيا وأرضها الشاسعة التي عادت إليها القبائل الرحل بعد رحيل الايطاليين ووصلوا إلى شاطىء البحر ، بالإضافة إلى ذلك البنيان الفريد الذي جمع شمل ثلاث مقاطعات هي طرابلس وبرقة وفزان ، الغني بمستودعات البترول ، وشديد التأثر ـ عند الحدود الغربية ـ بالمؤثرات الليبرالية لتونس القريبة منها ، إلا أن أصالة ليبيا تكمن في أنها نرغب بشغف في تقدم وفي عدالة إجتماعية قائمتين على أساس تقدم وعدالة الإسلام نفسه ، وأن تقدم ذلك كواقع ليس للعالم الإسلامي فحسب وإنما للعالم بأسره .

اسلام العلمانيات

أما مع تركيا ، أي مع العاصمة العلمانية الموطدةالعزم ، فإننا نشهد انفصال قوتين متضافرتين حتى الآن : الاسلام والدولة ، وقد بدأ هذا الانفصال

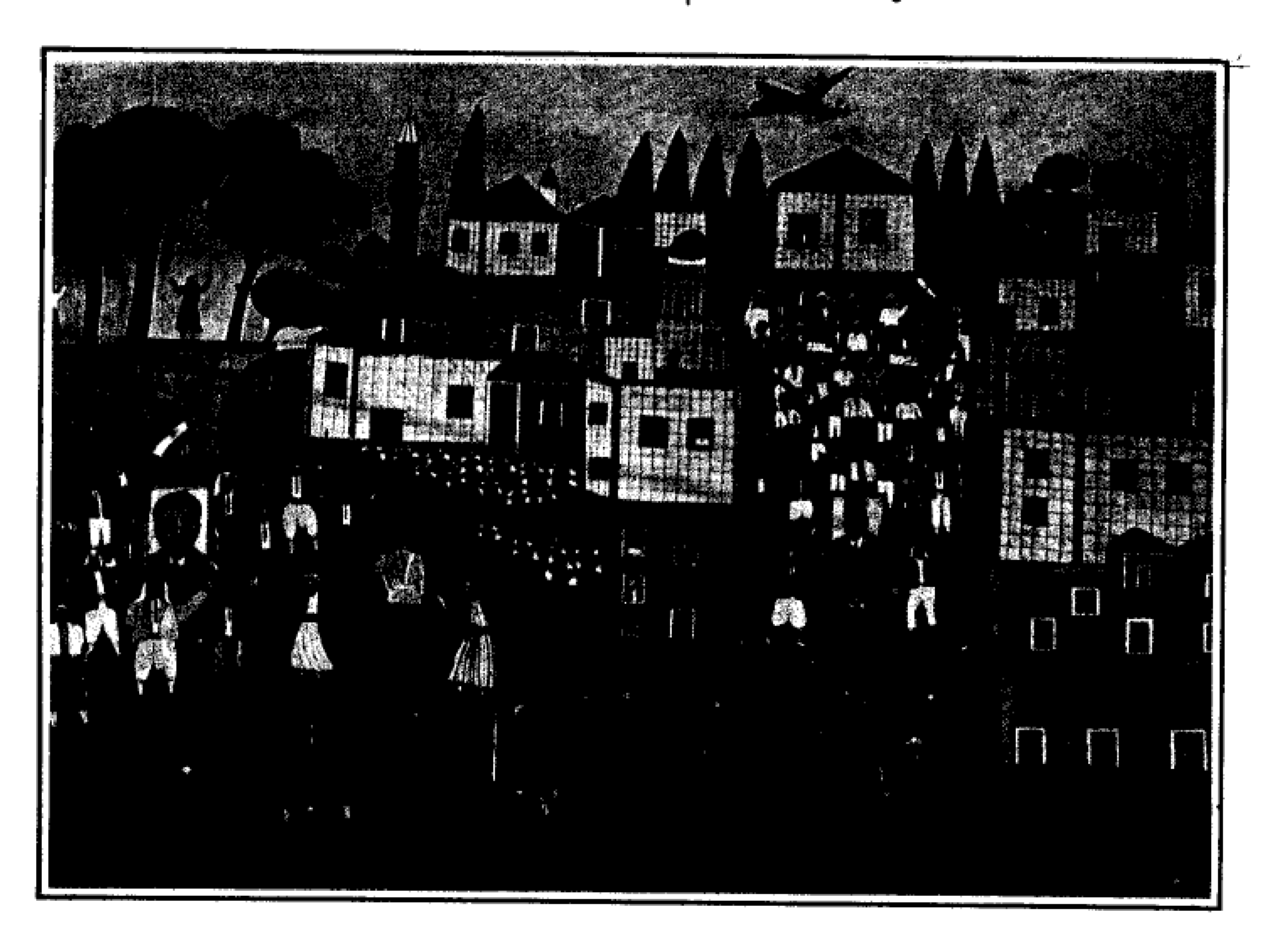
على أيدي مصطفى كمال في إطار القانون والتنظيمات المحلية ، بدءاً بإلغاء الحجاب ، والمحاكم الدينية ، إلى تبني الحروف الأبجدية اللاتينية ، والتقويم الجريجوري وأسماء الأسر والاصطلاحات المأخوذة عن أوربا ، وأصبحت العلمانية إحدى الدعائم الأساسية لتركيا الحديثة ، وما إن استقر ذلك حتى نلاحظ أن الإسلام وخاصة في الريف وفي بعض المدن مثل البروسة قد استمر في البرهنة على حيوية رائعة ، مساهما بذلك بجزء كبير من الحزب الديمقراطي لما بين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ ، التي حاول الدين أثناءها أن يعود حقيقة إلى المسرح السياسي ، كما أن سقوط مجموعة جلال بايار ـ مندريس عام ١٩٦٠ وإعلان دستور جديد بعد ذلك بعام وهو دستور يظل وفيا لعمل اتاتورك ، كل هذه الأحداث مشتركة تمثل الحيويـة العلمانية لكمال ، لكن في مواجهة إسلام لا يتزحزح بل وملتزم ، فلم يحن الوقت بالنسبة لهذه العلمانية التي سيكون عليها أن تتغلغل بدورها في كل النفوس لتقوم بصياغة دورية وبطيئة للاقتصاد .

ولكي نبرز من وضوح هذه الفكرة ، فإن النموذج التركي لا يستنفد كافة أشكال العلمانية ومواجهته للإسلام ، فمن كلمات الدساتير المختلفة إلى ممارسة الحكومة اليومية ، فإن الدول الإسلامية قد دخلت بدرجات متفاوتة في عهد جديد حتى وأن اتفق معها الإسلام فإنه لم يعد المحرك الوحيد للمجتمعات التي شكلها ، بدليل الاشتراكية التي يمكننا أن نبررها استدلاليـا هنا أو هناك مستعينين بالإسلام ، فإن الفكرة والاسم ذاته قد انطلقا من أوربا وليس من الإسلام ، وحتى إذا ما كان عليه أن يتبع ، وإلا يأمر الانطلاقات التاريخية الجديدة ، فإن الإسلام في تركيا ، بل في أكثر من تركيا ، يظل أحد التعاريف الأساسية لمجتمعات عليها أن تتطور ، كما أننا نلاحظ من ارتباطه بهذه المجتمعات أنه قد مال أحيانا إلى مقاومة تعديلات البنيان الذي يودون فرضه عليها ، فسوريا مثلا التي يحافظ دستورها على الكيان الخاص بكل الجماعات المختلفة الأديان ، دون أن يجعل من الاسلام دينا رسميا للدولة ، فإنها قبلت على الأقل أن يكون القانون الإسلامي (الشريعة الإسلامية) مصدرا أساسيا للتشريع ، ولعل القارىء سيقول عن هذا اللفظ « أساسيا » الذي يعني استبعاد حق التصرف البسيط ، فقد أراد المشرع أن يترك هامشا من الحرية لكل الذين يريدون إنشاء دولة عصرية ، ومع ذلك فإن مجموع النصوص يعني أنه إذا كان من الممكن العمل مرة أخرى في مبادرة



احتفال شعبي في لبنان اليوم

مظاهرة سياسية رسم بريشة الفنان خليل زغيب

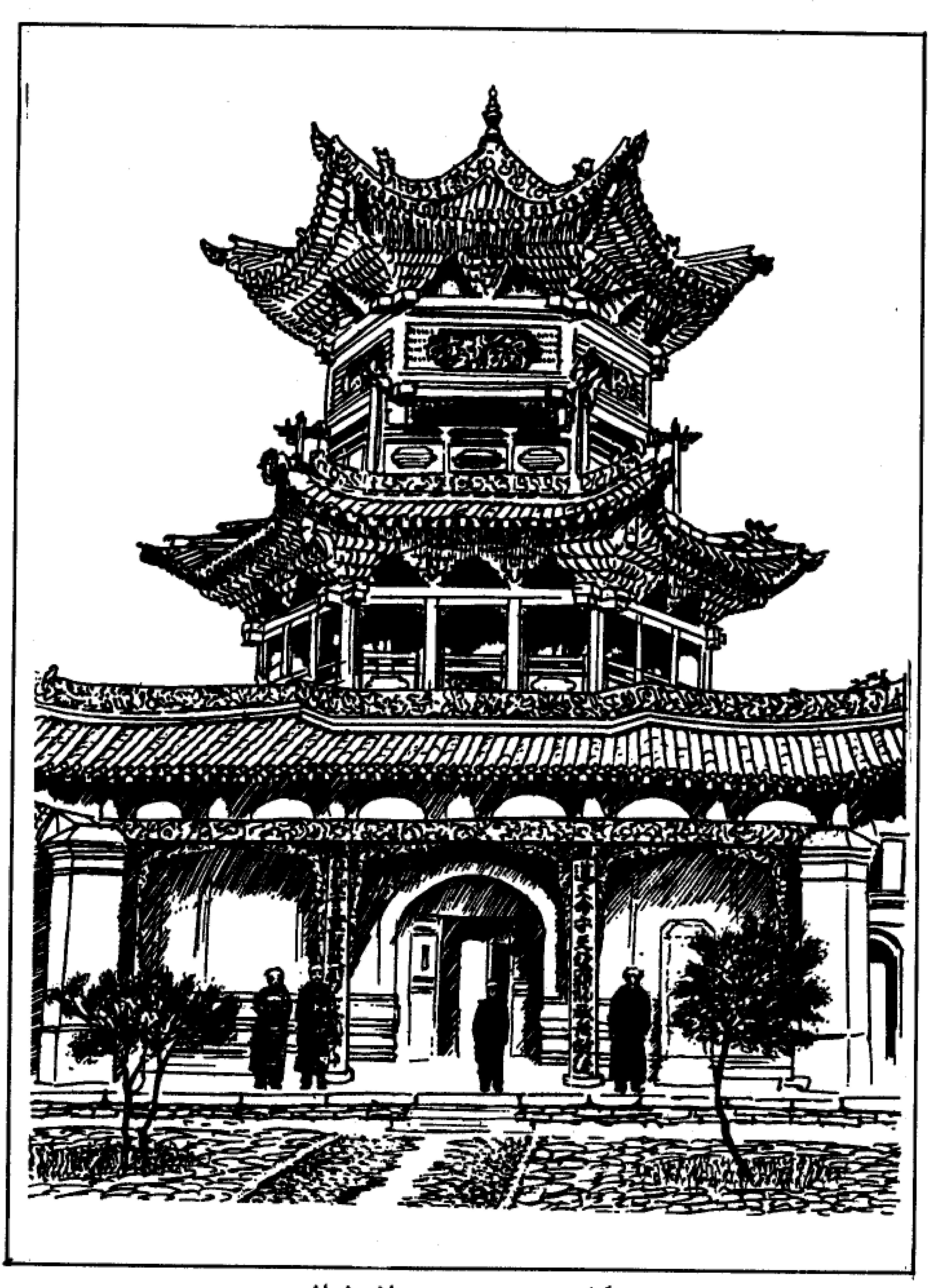


ثانية ـ غير المبادرة الإسلامية ـ فلا شك أن ذلك سيكون من الصعب أن يتم ضد الاسلام أو حتى بدونه ، أن تونس التي تعد اليوم من أكثر البلدان العربية سيرا على طريق العلمانية ، قد اختارت هذه المهمة الإصلاحية الطويلة عن طريق الاقتناع ، فعلى الإسلام أن يقول إذا ما كان مستعدا لهذا السياسة وهذا العقل الصبور والمهتم بتجنب الصدمات التي عرفتها تركيا .

الاسلام والشيوعية

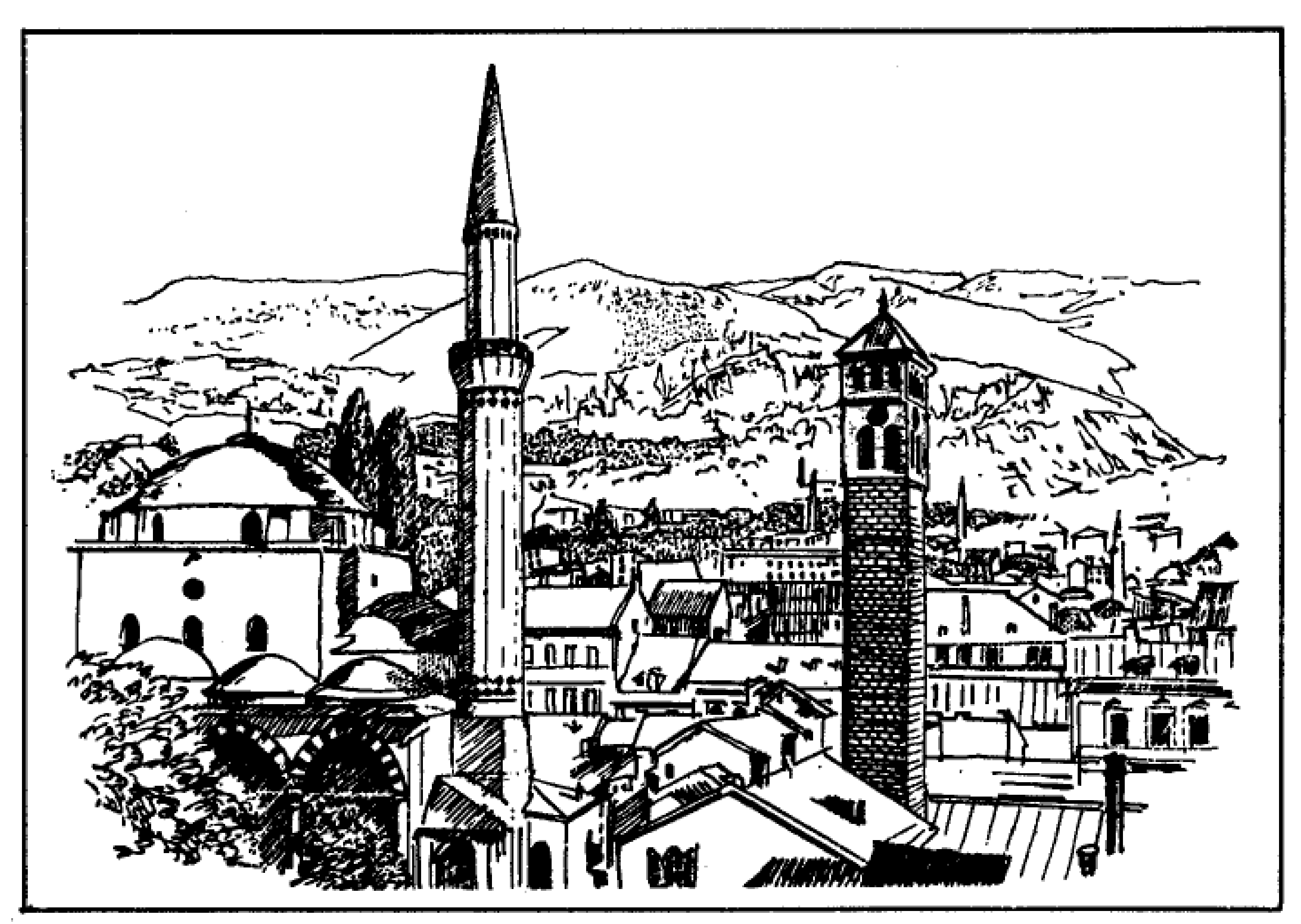
بقي أخيرا الإسلام والشيوعية ، ففي الصين مثلا يحتل مكانة واسعة في العادات المحلية ابتداء من المسجد الباغودي (شكل ٥٧) حتى استهلاك لحم الخنزير وعبادة الأجداد ، فلا يمكننا القيام بعمل أي تخطيط خاصة منذ الثورة الثقافية ، لتقدير صالح الوضع الحالي ، ويمكننا تقدير رقم المؤمنين من ٩ إلى ٤٠ أو ٥٠ مليونا ، لكن الأرجح هو أن الرقم حوالي ١٠ ملايين ، أما في أوربا فإن الإسلام في ألبانيا يمثل ٦٨٪ من التعداد ، وقد فرضت عليه عادة الزواج الواحد ورفع الحجاب ، وإذا ما بدا لنا الإسلام منذ عدة سنوات شديد الحيوية ومعتمد ـ عمقا ـ على تراث طويل من الجماعات الدينية وتقديس الأولياء فلا يعلم أحد اليوم تماما ما إذا كان الإسلام هناك قد تآلف أو لا مع السياسة الحيوية للعلمانية التي تمارس عن طريق الجماعة الحاكمة ، وفي يوغوسلافيا حيث توجد مدينتا سراجيفو (شكل ٧٦) وسكوبلي فقد كانتا حتى عام ١٩٤٨ تابعتين للإسلام إذ كان يمثل الأغلبية أي حوالي ٤٨٪ من تعداد جنوب الصرب و ٣٧٪ من منطقة البوسنة ـ هرتز يجوفين ، فقد تعرضتا لسياسة عنيفة ضد الدين ، ويبدو هنا أيضا أنها بدأت عقب الحرب ، وعلى حد قول المراقبين فإن ممارسة الشعائر الدينية قد انخفضت في المناطق الحضرية » .

أما البلد الذي يعد نموذجا فهو الاتحاد السوفييتي ومسلمو القوقاز وآسيا الوسطى والأورال الجنوبي ومنطقة الفولجا الوسطى ، بصرف النظر عن عدد الأقليات الأصغر ، فهنا قد تغيرت أمور كثيرة منذ أيام السلطان جالييف فيما بين عامي ١٩١٧ ـ ١٩٢٣ . والذي حلم بتجميع المسلمين السوفييت في دولة واحدة ، جامعا بين الاسلام والماركسية مقترحا هذا النموذج لآسيا الثورات القادمة ،



شكل ـ ٧٥ مسجد هان شياشي

إلا أن الصراعات أيام فترة ستالين وعمليات التطهير والنفي (خاصة تتار القرم الذين أدينوا لتعاونهم مع الغزاة الألمان) بالإضافة إلى العلمانية والدعاية المضادة للدين فقد تزايد التأثير والتعداد الروسي حتى جمهوريات آسيا الوسطى ، وأخيرا كل



شكل ٧٦ ـ الاسلام في اوروبا المسيحية بانوراما لمدينة سراجيفو

المنجزات التي حققها التقدم في التعليم بالإضافة إلى المجال الاجتماعي والتقني ، كل ذلك قد لعب دورا لا شك فيه ضد البنيان الإسلامي التقليدي .

فإذا ما كان الإسلام السوفييتي يضم قرابة خمسين مليونا من المؤمنين ، فإنهم (والشباب أولا) يبدون وقد ابتعدوا تدريجيا عن ممارسة الشعائر الدينية ، خاصة وأن المشاكل التي تتعلق بهذا الإسلام تعد على صلة أكيدة بالعالم الروسي . وهم يمثلون خمس التعداد تقريبا ، بخلاف بقية أمة المؤمنين في العالم ، كما أن الاتصالات التي تتم بين العالم الخارجي وبينهم ـ سواء راحوا هم لزيارته أو استقبلوه ببلادهم ـ تظل نادرة ورسمية ، فلا توجد تبادلات حقيقية مثلما يحدث في بقية بلاد الإسلام . فلم يكن مثلا في الحج إلى مكة في الستينات سوى عشرين إلى أربعين حاجا مسلما من الاتحاد السوفييتي ، مقابل من ٧٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ أندونيسي ومن ١٠,٠٠٠ إلى ٢٨,٠٠٠ إيراني ، ومن ٣٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠ نيجيري .

وبانطوائه وعزلته بهذا الشكل هل يمكن اعتبار أن الإسلام السوفييتي يحتضر

ـ على حد قول أحد الزوار الباكستانيين عام ١٩٥٢؟ ـ،في الواقع إنه مستمر كنوع من التراث والتصرفات الاجتماعية أو الأسطورية لكنه بهذا الشكل يعطي أعماقا مختلفة للشخصيات الوطنية الشديدة القوة ، بحيث تضطر الصحافة أحيانا إلى اتهامهم « بالمنحرفين »، بقي أن نلاحظ أن هذه الشخصيات المحمية جزئيا عن طريق النظام الاتحادي السوفييتي تظل « شخصيات » ذاتية أكثر منها منشقة « ومهتمة بأهداف قصيرة المدى ذات « آفاق إقليمية » في إطار الاتحاد السوفييتي نفسه ، أي أنه لا يوجد مرة أخرى ما يمكننا أن نضعه خارج هذه المطالب العادية للاسلام والتي يتم التعبير عنها بصوت عال على المستوى الدولي »

الإسلام مع غيره

إن البلدان التي استعرضناها كانت ـ عادة ـ بعضا من أهم معاقل الإسلام ، تلك التي كان لا بد من انتظار العصر الحديث لنرى أي مدى يمكن أن نراه مأخوذا به وممثلا للأغلبية ، ومسيطرا بعد أن أصبح يواجه أيديولوجيات قادمة من الخارج مثل: العلمانية والاشتراكية أو الشيوعية لكن هناك بلدان أخرى جرى العرف أيضا أن يواصل حواره مع مجتمعات وثقافات مختلفة فيها .

في لبنان

هكذا كان الحال وهكذا كان لا بد أن يكون عليه الحال النموذجي في لبنان ، منقسما إلى جزئين : النصف إسلامي والنصف الآخر مسيحي من طوائف مختلفة وكأنها لعبة مربعات لجماعات مختلفة ، لكن إذا ما أخذت كل مجموعة على حدة ، لبدت الأقلية ، إلا أنهم جميعا يجعلون صوتهم يصل إلى الحياة العامة ، فبعد الحرب العالمية الثانية قام برلمان مكون من الطوائف المختلفة بتسجيل هذا الموقف ضمن ممارسة المسؤوليات السياسية ، وكادت أولى الأزمات عام ١٩٥٨ أن تعرض الوحدة الوطنية للخطر ، فهل أدانتها الحرب الأهلية الأخيرة نهائيا ؟ . . إن لبنان المنهك يذكرنا دائما بمصيره فقد كان دائما ملجأ للرجال ولا يمكنه بل ولا يريد أن ينفصل عن الشرق الأدنى العربي في إجماله ، ولا عن أوربا التي يرتبط معها من خلال تراث طويل المدى مع الثقافة الفرنسية وثقل المسيحيين الكاثوليكيين والموارنة ، بصفة خاصة ، أما اليوم فتطرح عليه ثلاثة مسائل : أن يكون جسرا

بين أوربا والعالم العربي ، لكن دون إثارة التبعية لأوربا ـ من حيث المبدأ ـ وللعالم العربي ، فقد رأينا ذلك مع فلسطين التي كانت وما زالت في قلب المشكلة اللبنانية ، والتقدم . . ؟ له وجوده بكل تأكيد لكن ليس بالأسلوب القديم ، في نطاق اقتصاد شديد التحرر ، حيث تترك الثروات المتراكمة طبقات واسعة من الجمهور العريض خارجا عنها سواء كان إسلاميا أو مسيحيا ، وأخيرا فإن التعصب الطائفي ينتحى جانبا باسم الوطنية التي يحاول المحافظة عليها نظرا لاهتمامه بالمحافظة على الكيان اللبناني .

فإلى أولئك الذين يثيرون الصراعات الطائفية الأهلية يرد البعض الآخر بأنه لا بد من تخطيها إذا ما كان المقصود هو بناء لبنان أخوي ، ونقولها ونكررها مرة أخرى ، وفقا لنموذج تكون الدولة والدين متميزين عن بعضهما البعض مثلما في فلسطين الغد .

حدود دينية في الهند ؟

هناك مثل آخر لتلك الأنواع من الحوار ومنها : جنوب شبه القارة الهندية حيث تعد مذاهب التوحيد هي السائدة ، ترى هل سيستمر الوضع على ما هو عليه في الدول الثلاث الحالية المنشقة هي ذاتها من تقسيمة عام ١٩٤٧؟ ويمكننا أن نقدر جزافيا أن المسلمين المتبقين في هندوستان (أقل من ١٠٪ من التعداد) يمثلون تراث اللقاءات ، في حين أن المسلمين الباكستانيين أراد أن يحددوا بوضوح أن تجمعهم في دولة واحدة قائمة على مبادىء الإسلام تعني تضامنهم وعدم انقسامهم لكن ، يجب ألا ننساق في المبالغة ، إذ أن التقسيم أو التجزئة ـ سيان ـ يعد أقل بساطة ، ففي الواقع وبينما عدد لا بأس به من المسلمين في هندوستان بصفتهم يمثلون أقلية ، يتعلقون بشكل متزايد بذلك الإسلام الذي يحدد كيانهم ، فإن الإسلام في باكستان ـ على العكس من ذلك ـ يريد سيرا على خطى إقبال أن يكون عالميا ، ومرادفا للايمان والتقدم والعدالة الاجتماعية ، والتسامح وأن يكون أيضا متفتحا لهذه الاتجاهات على العالم الغربي وعلى الديانات المختلفة وهي ديانات الغرب والهند ، ثم هناك جنبا إلى جنب مع لغة الأوردو ، لغة باكستان التي تمثل همزة الوصل بين العالم الفارسي والعربي ، إذ توجد ببنجلاديش لغة طاغور ،

البنغالية ، وهي قائمة على الهندية الآرية ، وتنتمي إلى الهند الخالدة عن طريق ابجديتها وعن طريق ماض سحيق من التراث الأدبي .

لنحكم إذن على هذا الإسلام على مستوى جنوب القارة في إجمالها إذ أن ذلك أكثر حكمة وأكثر توافقا مع تراثها الكبير ، وكما يجب ألا نيأس من عدم حل المشاكل اليوم ، إذ أن الدروس التي يمكن للهند بأسرها وعلى رأسها كشمير أن تعطيها لنا في الغد القريب متعددة ، وذلك من خلال هذا الدين الذي هو دينها إلى جانب العديد من الديانات الأخرى .

في العالم الماليزي

يعتبر العالم الماليزي امتداد للهند (شكل ٧٧، ٧٨) وتقع ماليزيا في منتصف حفنة من الجزر والجبال ، ويمثل الإسلام أكثر من نصف تعدادها ، وتعد جاوة قلب الجمهورية الأندونيسية ، أي أن مجمل تعدادها يمثل حوالي ١٠٥ مليونا من المسلمين ، وذلك من تعداد يصل إلى ١٥٠ مليون نسمة ، فالإسلام هنا ـ وفقا للرقم المطلق ـ يعد في مقره في البلدان العربية ، وتعترف ماليزيا بالإسلام دينا للدولة ، إلا أن الأمر يعني ـ خاصة بالنسبة لأندونيسيا ، إسلاما غاية في الكرم ، أو بقول أفضل ، إسلاما قد استقر في الدار دون أن ينبذ سكانها السابقين من أتباع الروحية والهندوسية .

إذن هنا أيضا نجد الاختلاط والتلاقي ، ويستمر هذا التراث اليوم حيث تحاول أندونيسيا إعادة احتواء الإسلام في المبادىء الخمسة لجمهوريتها وهي : الايمان (إلا أنه منصوص على حرية العقيدة) والأمة ، والديموقراطية ، والعدالة الاجتماعية ، والحضارة .

ومن الملاحظ ـ ضمن بقية المميزات ـ كيان المرأة إذ أفلتت في كل مكان من فكرة تعدد الزوجات وارتداء الحجاب ، ويعد تعليمها الجماعي وارتقاؤها إلى مستوى المسئوليات من أفضل الدلائل على مستقبل الإسلام الأندونيسي ، فهو إسلام مميز في إجماله وواضح القوة ، فهذا البلد الإسلامي يعد من أفضل البلدان الممثلة في الحج سنويا إلى مكة ، كما أنه بلا شك من أهم دعائم العالم الثالث ، ومهد روح باندونج ، ويفسر موقعه الإنطلاقة السياسية للإسلام في الفلبين ، على



٧٨ ـ جاوا راقصة سلطان سولو

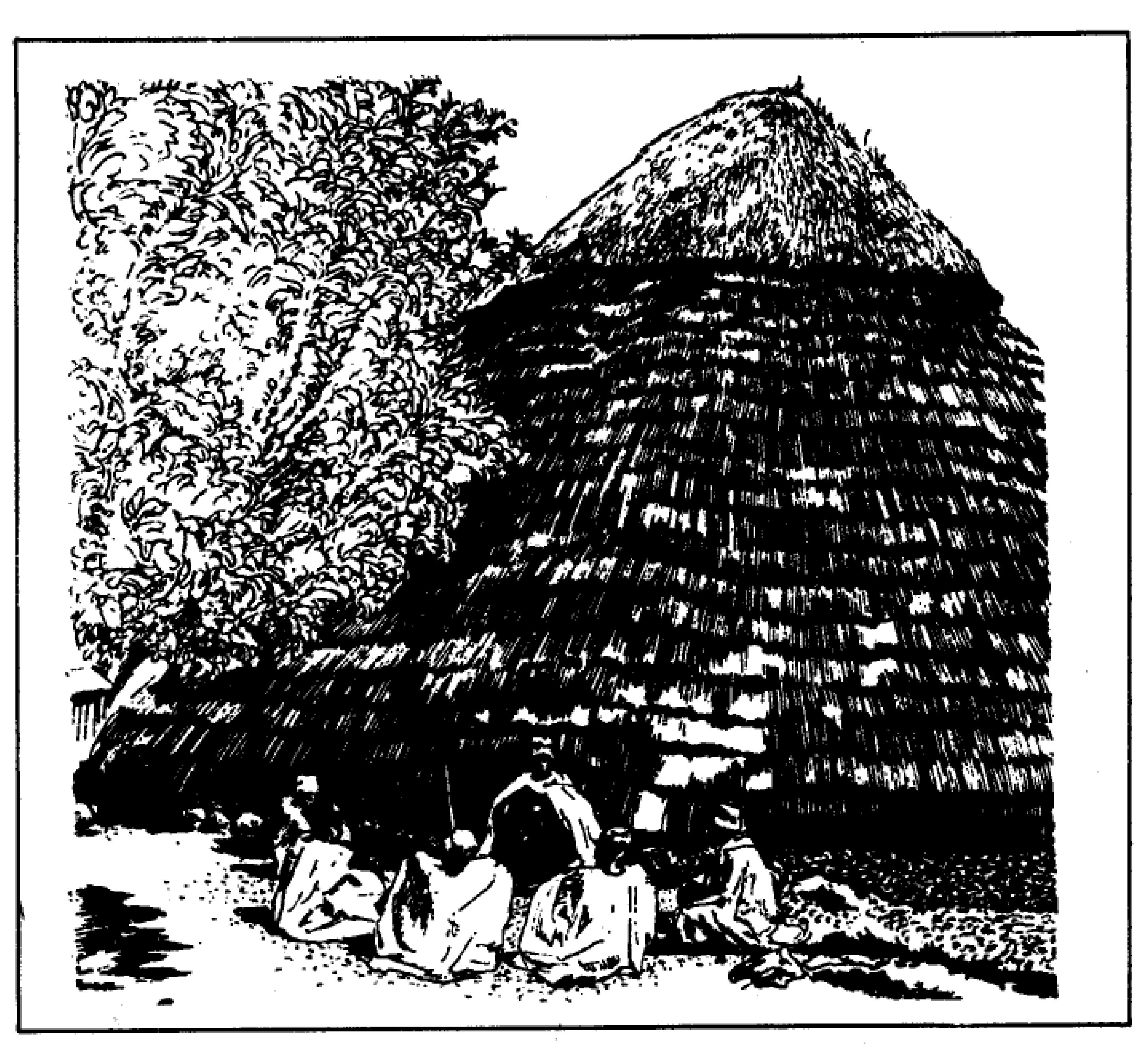
٧٧ ـ راقص مورو من الفيليبين

الأقل جزئيا ، أما المشكلة التي تظل مطروحة اليوم في أعقاب الانتفاضات الكبرى المعادية للشيوعية فتعد متعلقة بالنظام الداخلي لهذا الإسلام القومي الذي يمثل الأغلبية والذي عرف كيف يتداخل بهذه الحيوية في الحياة السياسية ، ويظل متأرجحا بين جاوة وسومطرة ، أي بين التراث والعصرية ، فهل سيتمكن من أن يحقق للجمهورية الأندونيسية الترابط الذي هي بحاجة إليه ؟

الإسلام في أفريقيا

وأخيرا وبسرعة أيضا ، هناك جنوب أفريقيا الصحراوي ، فلا شك أن هناك على الأقل حوالي ٧٠ مليونا من المسلمين ، منهم ٤٠٪ في نيجيريا وحدها ، وهي التي تعد بالفعل معقل الإسلام في أفريقيا السوداء ، أما بقية التعداد فيمكن توزيعه بنسب متفاوتة ومتقاربة بين غرب القارة وشرقها ، وسواءكان الإسلام يمثل الأغلبية أو يمارس وحده في السنغال ومالي وغينيا (شكل ٧٩) والنيجر والصومال فإنه يتواجد في حوالي نصف التعداد الكلي ـ مثلما في جامبيا ونيجيريا أو في التشاد ، أما في أماكن أخرى فهو يتواجد بشكل أقليات متفاوتة الدرجات ، إذ أنه يمثل ـ على سبيل المثال ـ ربع أو ثلث تعداد أثيوبيا وسدس تعداد تانزانيا تقريبا (إلا زنزبار فهي بأسرها مسلمة) أما السودان فهو بعيد عن هذه النسب إذ أن ربع سكانه ، أي حوالي ٤ ملايين نسمة ما زالت متعلقة في الجنوب باللغات المحلية والغيبيات والمسيحية ، وقد وصل الأمر بكل هذا الجنوب أن ثار صراحة ضد الشمال الإسلامي الذي توغلت فيه تأثيرات اللغة والثقافة القادمة من وادي النيل أو من الشواطىء المواجهة في البحر الأحمر ، إن السودان كبلد أفريقي بلا زنجية (على حد قول جاك بيرك) يعد عضوا في جامعة الدول العربية .

من الصعب على أي حال أن نتنبأ عن مستقبل هذا الاسلام الأفريقي نظرا لكل ما به من تنويعات فوفقا للبلدان والطبقات فإنه ما زال يحتفظ بالنظام التقليدي للجماعات (التيجانية والقادرية)، أو يعارضه بشدة أو يدفع به في مواجهة المتطلبات العصرية ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك مثل الموريين في السنغال الذين يسيطرون في تلك الدولة على نصف إنتاج الفول السوداني ، وعلى نفس النحو سنلاحظ أن هذا الإسلام يعد أحيانا علامة للتعريب الثقافي لا جدال فيها إذ



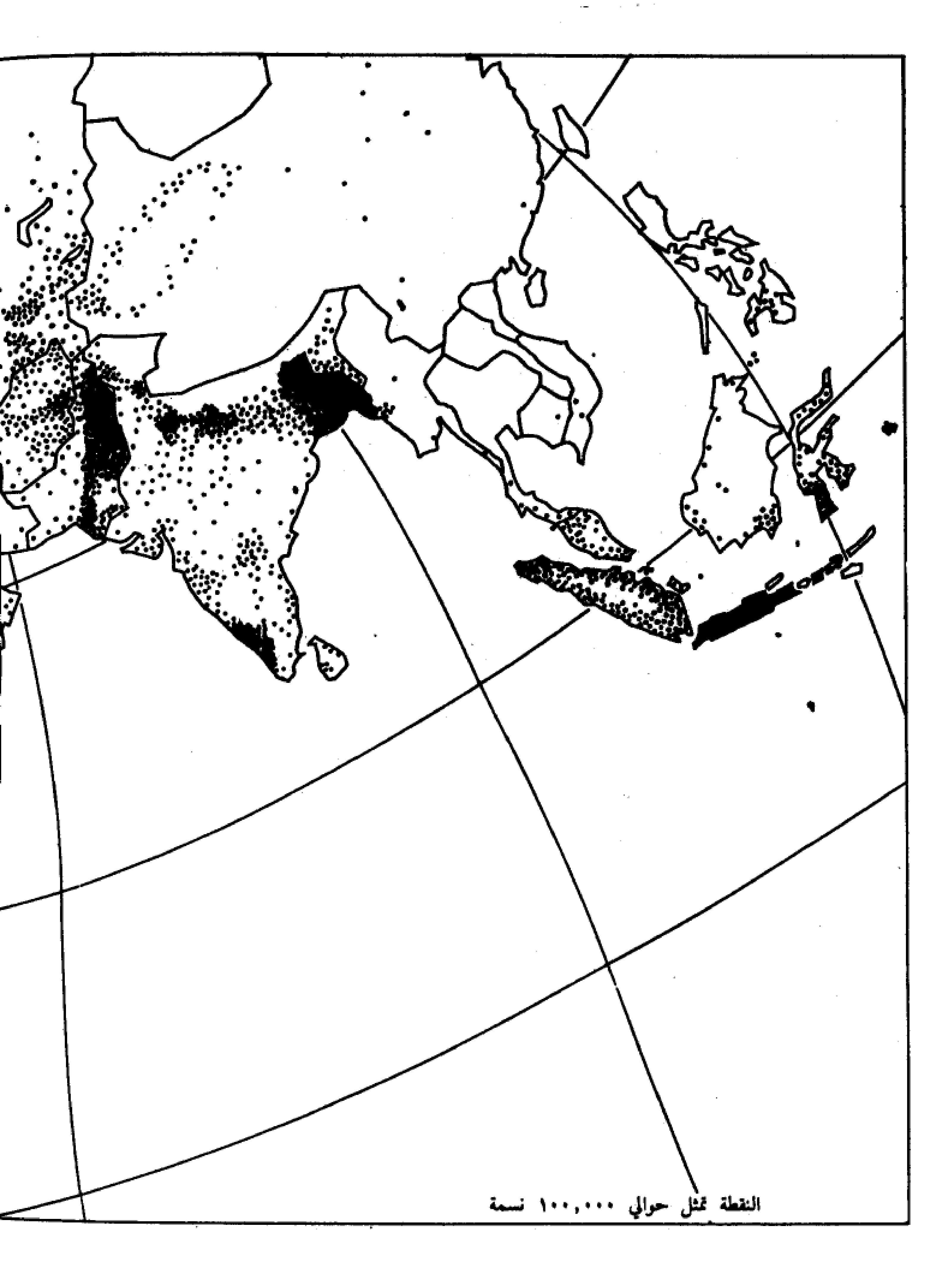
شكل ٧٩ ـ مسجد القبيلة البونو بمنطقة فوتاجالون ـ غينيا

يحاول الجمع بين الميراث البعيد والمصالح الذاتية لأفريقيا على مستوى لعبة الشطرنج الدولي .

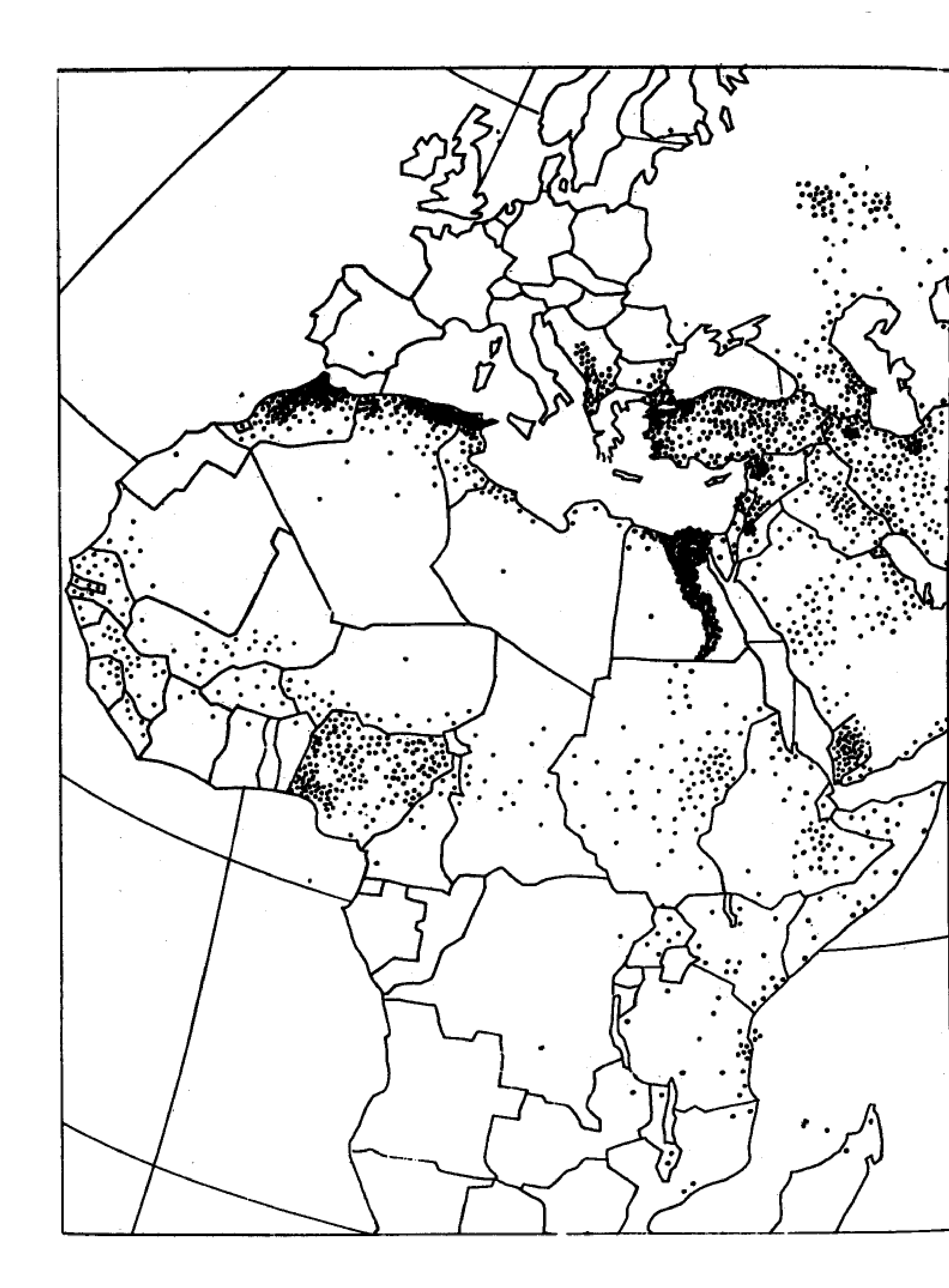
ومع ذلك فهناك واقع مؤكد هو « الإسلام الأفريقي » المتسامح والمتفتح « والذي » يترك مكانة متميزة للمرأة والأم وهو شديد الحيوية من الناحية الديموغرافية والدعوة ، فوفقا لـ ف. مونتيل ، فإن فعاليته قد تضاعفت على الأقل في ثلاثين عاما .

سمات مشتركة

فلنلخص بعض الاعتبارات الاجمالية : فهذه السمات المشتركة هي أولا سمات الإسلام بأسره ولكن أيضا وبشكل أكثر اتساعا ، سمات العالم الثالث ،



الخريطة ٢٥ ـ الاسلام



... القرن العشرين .

ففي كل مكان نحن بصدد مجتمعات تتواجه فيها قوى التغيير وقوى المحافظين ، ولربما تكون قد تمت خطوة جديدة إلى الأمام إذا ما أضفنا إلى الإسلام تحليلات أنور عبد الملك الخاصة بالبلدان العربية ، خاصة عندما خبأت منذ صبيحة الحرب العالمية الثانية التي أدت فيها الانعطافة الكبرى بين الإسلام « الأساسي » والعصري ، وعندئذ تكون قوى جديدة مكونة في آن واحد كل أولئك الذين يضعون نقطة الارتكاز في الإسلام على ضروريات التقدم والعدالة الاجتماعية ومن أولئك القادمين من العصرية الاشتراكية أو الماركسية ، وكانوا يعنون ألا ينفصلوا عن التراث القومي الذي كان الإسلام يمثل إحدى معطياته الأساسية بأي ثمن .

وهذه المرحلة الجديدة هي تلك التي يطلق عليها أنور عبد الملك « النزعة القومية » لكي يميز بينها وبين القوميات الأوربية في القرن الماضي ، وهو لا يفرق بين توخي دقة القيم التاريخية والثقافية الممثلة في الوطن ، مع تقسيم أفضل للمبادرة والمجهود والدخل العام ، وبقراءة التاريخ الجديد ـ المحدد بهذا الشكل ـ يمكننا أن نقرأ في مصر أو في الجزائر ، وفي بلدان سنأخذها مرة أخرى كنماذج لكنها ـ كما رأينا الآن ـ ألا تمثل المغامرة الكبرى للتطور ؟ . .

على أي حال فإن هذه التغيرات لم تتم دون أن تمس البنيان الاجتماعي ، إلا أن البلدان التي ارتبطت بشكل قاطع ومتزايد في هذه الوسيلة القومية ، قد تولدت فيها طبقة جديدة تحاول جمع من يخدمها بطريقة أفضل ، معتمدة بشدة على الطبقات الشعبية فمحركات الوطن الذي سيقام هم الموظفون والتقنيون والعسكريون وأخيرا المثقفون الذين يعد دورهم ضخما بالفعل ، إذ أن الجامعيين الملتزمين والطلبة ، وخاصة الطلبة هم بمثابة الخميرة الدائمة « لثورة » أصبحت هي الكلمة الحاكمة من أقصى طرف الإسلام إلى أدناه .

وهي ثورة تتطلب ، لكي تكون سريعة مستمرة وذات فعالية أن تكون الدولة المسئول الكبير عنها ، في قبضة يد صارمة ، وباستثناء بعض البلدان النادرة ، فإن لعبة البرلمانات التي حاولت كثير من الدول استخدامها صبيحة الاستقلال ، قد تنازلت في كل مكان تقريبا عن مواقعها لأنظمة ذات طابع رئاسي أو دكتاتوري ، وهي أنظمة قوية (باستثناء الضربات المضادة التي قد يثيرونها) كما

أنها أنظمة مهتمة بتركيز كل السلطة حول فرد واحد ، أو مجموعة من الأفراد ، أو حزب واحد يمكن للشعب أن يتعرف من خلاله على طموحه وآماله وغضبه ، ولقد قال سوكارنو ذلك واستشهد ف. مونتريل عام ١٩٥٧ قائلا « لقد استخدمنا نظاما خاطئا ، فذلك الأسلوب الذي نطلق عليه الديموقراطية الغربية . الديموقراطية المستوردة . . . ديموقراطية ليست على وفاق مع روح الأمة . . »

٤ - التغيرات الثقافية

إن المعنى التاريخي أو الاجتماعي للأمة ، أو إذا أردنا ، المعنى الدائم ومعناها اليوم ، الذي يعتمد فيه الترابط على الذكرى والذي ينشأ ترابطها ويتزايد كل يوم بنسبة العدالة والسعادة التي يمكنها أن توزعه على أبنائها ، تلك الأمة التي يجب إعادة اكتشافها والتي لا بد من تشييدها هي حقا المهمة الكبرى للثورة الجديدة ، ولقد استمر الإسلام على نطاقي الماضي والحاضر في القيام بدوره ، لكنه يقوم بذلك وفقا لنوعيات مختلفة ومرتبطة بدرجة قدم استيطانه .

الإسلام ثقافة ومستقبل

إن الأمم التي عرفت الإسلام منذ عهد طويل ، ولنفترض مثلا منذ القرون الوسطى مثل العرب والفرس والأتراك ، فلن يستطيع إنسان أن يعترض بشكل حاد أنه يمثل علامة من أهم علامات التاريخ ، وبصورة أو بأخرى فإن إعادة اكتشاف الماضي والتحمس له لا يمكن إلا أن تكون إعادة اكتشاف للإسلام وماضيه ، ولنكتف هنابذكر طه حسين وتوفيق الحكيم وهما أكبر اسمين في تاريخ الأدب العربي المعاصر ، فلقد أعادا صحوة مغامرة بداية الإسلام سواء عن طريق القصة أو المسرح .

وتبدأ الخلافات عندما يحاول الدين أن يقول كلمته عن الجهود المبذولة بغية التجديد الاجتماعي ، ويزداد الخلاف هنا بين كل الذين يرفضون هذا التجديد بدون العودة إلى الإسلام ، وذلك مثل العلماء في شمال أفريقيا ، أو الأخوان المسلمين في الشرق الأدنى ، منذ أسس جماعتهم حسن البنا عام ١٩٢٨ ، وبين كل الذين يستلهمون من الأفكار العصرية القادمة من جهات أخرى غير الإسلام ، وهم في الوقت نفسه يتمسكون بمحاولة المحافظة على موافقة الإسلام (وذلك هو

الحال في عدة بلدان عربية) وأخيرا بين العلمانيين والماركسيين الذين يعترفون تماما بدور الإسلام البارز في التاريخ وينكرون عليه بصورة أو بأخرى إمكانية المبادرة في المجال الاجتماعي أكثر من السلطة السياسية .

أما في الأمم التي يعد فيها الإسلام أحدث نسبيا ، مثل أفريقيا السوداء ، فإن الرؤ ية تتطلب بعض التروي ، فإن مظاهرة الإسلام ـ حتى إذا ما اعتبر ذروة التاريخ القومي ـ فإنه لا ينهك هذه الأمة أو على الأقل لا يسحقها من حيث الكم كجمهور بل إنه يتوجها مثلما حدث في فترة الصراع ضد الاستعمار ولكنه يذوب فيها ، وبنفس الصورة أو بتعريف أدق ، إذا أدى ظهور الإسلام إلى تعديل بعض من البنيان الأفريقي التقليدي ـ وفقا للتحليل الماركسي ـ فإنه يقدم بالذات وخاصة في إطار افريقيا المستعمرة ، الدعامة الجديدة التي تطالب بها المؤسسات الاجتماعية الاقتصادية في قمة تغيراتها ، بقي أن نعرف أن نجاحات الإسلام كانت إلى حد كبير مرتبطة بحكمته ومرونته واحترامه للمؤسسات الأخرى على النطاق العائلي أو الثقافي مثلا ، وهذا الدور المزدوج فيما هو « أساسي » وفي التاريخ يجب أن يعطي مقياس النجاحات الإسلامية المقبلة في هذه المجتمعات الأفريقية المتواصلة التقدم وتواصل الاهتمام بشخصيتها ، فليس من المصادفة إذا كان النزاع اليوم يتعلق بالأشكال غير المتطورة والأكثر انطواء ـ مثلما في بعض الجماعات ـ في الإسلام الأفريقي .

وربما قيل نفس الشيء بالنسبة لإسلام آخر ، هو الإسلام في المحيط الهندي ، المختلط هو أيضا بالتاريخ وبكيان ومستقبل المجتمعات المحلية منذ مدة طويلة وبشكل أساسي أكثر من عالم أفريقيا السوداء ، لكنه لا حق على العرب والفرس إن لم يكن على الأتراك ، على أي حال فإن باكستان تستحق منا وقفة متميزة ، لأن الإسلام هناك قد أخذ على عاتقه تحديا هاما هو تشكيل المجتمع العصري المتفتح والمخلص لنفسه ، فالإسلام هنا يعد الدعامة الأساسية والمستمرة لأمة في كل أحقاب تاريخها .

وسائل إعادة التثقيف

أيا كان أمر هذه الاختلافات من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه ، فإن

الأمة بالكيفية التي اتخذت بها مكانتها في التاريخ ، تلك الأمة التي يجب إعادة اكتشافها ، لا يمكن أن تفصل ماضيها عن ماضي الإسلام الذي شهد مولدها ، وأحيانا قد أدى إلى ميلادها ، ففي مـواجهة المسيحية المتعددة المذاهب ، يقدم هذا الإسلام موضوعات عقائد أبسط وأكثر مرونة ، تتفق مع الكيانات القديمة ، أما في مواجهة مسيحية متواطئة مع المغامرة الاستعمارية الغربية ، فإنه يتمثل في استرداد الحرية والعدالة والأصالة ، أما العودة إلى منابع التاريخ المميزة وإثارة الذكريات واللغات القومية ـ أو كما نقول اليوم إعادة التثقيف ـ فهي تمثل عكس قضية الاقتلاع لفترة الاستعمار والمكمل الذي لا بد منه للاستقلال السياسي والاقتصادي .

إتصالات جماهيرية

ومرة أخرى فإن بلدان الإسلام تتقاسم هذا القلق مع العالم الثالث ، إلا أن اتساع واستمرارية وجهات النظر وحظوة التاريخ الإسلامي الكبير تجعل العرب يبدون حقيقة كنماذج لهذا الجهد الضخم المعروف باسم التطوير ـ سواء فيما يتعلق بمجال الثقافة أو في داخل الإسلام

إننا نعرف وسائل إعادة التثقيف ومنها : التعليم والصحافة والكتب ووسائل السمعيات والبصريات وعلى رأسها السينما والتليفزيون ، وإن ما يجهلونه في الغرب أحيانا هو ذلك الحجم الضخم لهذا الجهد ففي باكستان مثلا تظهر ١٣٧٥ صحيفة ، وفي لبنان وحده هناك أكثر من مائة من المطبوعات اليومية أو الدورية ، كما تعد السينما المصرية ـ فيما يتعلق بعدد الأفلام ـ من أوائل الدول في العالم (عاشر دولة بالضبط بالنسبة للإنتاج ، ولكنها رابع دولة بالنسبة للتصدير) ولا يمكننا إحصاء عدد الكتب التي تطبع كل عام في مدينة مثل القاهرة وتباع بأسعار زهيدة ، وقد قدمت الهيئة العامة للكتاب وهي المسئولة عن نشر الكتب الكلاسيكية لتعميمها بالإضافة إلى نشر كنوز التراث العربي ، ٢٨٥ عنوانا تمثل ٢٦٠٦١٠٠ كتابا مطبوعا فيما بين عامي ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .

أساليب وسطى

وسط هذا النهم للمعرفة والتعبير تولدت أو بالأحرى أعيد ميلاد اللغات

القديمة ولغات اليوم ، فهي عماد الوعي القومي ، ولقد أخذت عن الماضي حقا لكن بعد أن تم تجديدها وإثراؤها وتعديلها أحيانا إثر صدامها بالحضارة العصرية ، وأعيد تشكيلها وفقا للإستخدام اليومي ، ووسط هذه المغامرة الكبرى ، ازدهرت اللغة العربية ، لا في أشكالها المحلية التي اتخذتها هنا وهناك مع التاريخ ، ولكن في شكلها « الوسطى » وفقا لما يقوله جاك بيرك : شكل وسطى بين كل الشعوب العربية أي كعامل مهول للوحدة ، وشكل وسطى أيضا « بين الآداب والحياة » بمعنى إخلاصها لمعطيات الصرف والنحو للغة العربية الكلاسيكية ، لكن وفقا لأجرومية تتفق والعالم الحالي .

إلا أن المغامرة لم تنته بعد ، فدون التحدث عن الصراعات القائمة بين المتمسكين باللغة العربية الوسطى والمتمسكين باللغة العامية المطلوبة للسينما والمسرح أو لحوار الروايات ، والصراعات القائمة بين الحريصين على صفاء اللغة والذين يصعب إقناعهم ، فهناك المشاكل المتوارثة من الاستعمار على هيئة اللغات الأجنبية التي تؤدي إلى عدم توازن المثقفين المتحدثين بلغتين أو ثلاث لغات ، ترى اهل هو عدم توازن أم ثراء ؟ . . إن أعمال كاتب ياسين أو جورج شحادة ، أو فؤاد جبريل نفاح لا تضيف إلى تراث اللغة الفرنسية التي كتبت بها فحسب ، وإنما هي ـ سواء أردنا أم لم نرد ـ تضيف إلى تراث العرب وبلدانهم سواء كانوا يعبرون عن الجزائر أو عن شاعرية لبنان إلا أن ذلك لا يعني أن مستخدمي اللغة الفرنسية لن يصطدموا دائما مع من يعتقدون أن هذا « الاقتلاع » أيا كان نجاحه في نطاق الرسالة أو الفن يظل اقتلاعا ولا يكسب التراث القومي الذي يتم التعبير عنه بلغة هي ملك له .

وهناك انقسامات أيضا في نفس نطاق اللغة الوسطى ، إذ أن العمل الضخم الذي قام به الأكاديميون (في دمشق والقاهرة وبغداد) تخطته اللغة المستقبلية ، لغة الصحافة ، أو عارضته وتجاهلته ، وفي مثل هذا العالم الذي يسير بسرعة فائقة كيف يمكن تبني أو توفيق الكلمات القادمة من الخارج وكيف يمكن فرضها أو تجانسها في كل البلدان العربية بمعنى واحد فريد لنفس الكلمة الواحدة ؟ من أين يمكن انتزاعها ؟ هل من مجرد نقلها ببساطة ؟ أو استعارتها من كلاسيكية القرون الوسطى ؟ . . أم بالرجوع إلى وسائل الصرف مثل الاشتقاق ؟ . .

ومع ذلك فهذا الموقف بصرف النظر عن هذه الصراعات وهذه الترددات ، لا يمنعنا من أن نذكر تعبير جاك بيرك « أن اللغة العربية الوسطى تعد أمينة لنموذجها المثالي المكتشف » وإلى « تكويناتها الهائلة » بعد أن استقـرت الكلاسيكيات السابقة لها والتالية عليها ، بحيث حتى في زمننا أيضا « فإن الله يسمح بوحدة جديدة » نظرا للتغيرات الضرورية ، وذلك ليس على المستوى « الغيبي » فحسب ، ولكن بتزايد المعرفة الموسوعية للعالم ولصراعات الانسان في نفس القرن »

وسائل التعبير

لعلنا ندرك أن هذا الجهد أولا جهد النثر ، وهو بالفعل الطريق إلى نثر جديد هو ما يبحث عنه العرب اليوم قبل أي مسلم آخر .

الأدب المعاصر

فيما يتعلق بالشعر فهو يتأرجح بين الاخلاص للنماذج السالفة سواء كان ذلك من خلال موضوعات جديدة للرومانسية أو القصة الواقعية الاجتماعية أو الاتجاهات الرمزية سواء السريالية التي قطعت الروابط الأخيرة ، وسواء كان الأمر يتعلق بأعمال العقاد أو بشارة الخوري والياس أبو شبكة والشابي التونسي الذي مات في الخامسة والعشرين من عمره ، أو عمر أبو ريشة أو بدر شاكر السياب والبياتي ونازك الملائكة وسعيد (أدونيس) فإن الشعر المصري والعراقي والسوري واللبناني أو في شمال أفريقيا ـ لكي لا نذكر سوى هؤلاء ـ ما زال يعبر عن عدم رضائه رغم أبعاد أعماله الشامخة أحيانا ، إلا أن هناك صوتا جديدا قد ارتفع ، هو صوت فلسطين ، من خلال أعمال محمود درويش وكوكبة من الشعراء هو صوت الأرض المفقودة المحبوبة ، صوت ثوري وأخوي يذكرنا أننا هنا على إحـدى الأراضي الأساسية لمغامرة الإنسانية ورغبتها التي لا ترتوى .

ومع ذلك فإن الحديث عن الشعر يترك المجال ـ ولو من حيث الكم ـ إلى العملية الضخمة التي يعترك فيها النثر من خلال المجالات الجديدة التي يضيفها يوما بعد يوم ، مثل النقد مع المصريين أحمد أمين وطه حسين ، والمسرح مع توفيق الحكيم ، وهو مصري آخر متفتح بانتظام لكافة الأبحاث ، بما فيها الأبحاث التي

يلهمها إليه المسرح الغربي اليوم ، مثل أعمال يونيسكو وبيكيت وآدموف ، وأخيرا هناك الرواية والقصة اللتان تعبران في كل مكان تقريبا عن العالم العربي الواقعي في يومنا هذا ، وهنا يبدو أن العراق ومصر هما المسيطرتان على المجموعة ومنهم بالنسبة للعراق عبد الملك النوري وذو النون أيوب أو فؤاد التقرلي ، وبالنسبة لمصر طه حسين والشرقاوي ، وأخيرا نجيب محفوظ وهو أكملهم وأكثرهم تنوعا وأكثرهم خصوبة في الانتاج .

يا لها من صورة خاطفة وغير عادلة ، فأين اللبنانية الشابة ليلى بعلبكي التي دوى كتابها « أنا أحيا » عام ١٩٥٨ كالرعد بين شباب ممزق وكريم يطالب بحقوقه ؟ وأين نضع المأساة الرمزية للتونسي مسعدي ؟ والقصص القصيرة للسوري عبد السلام الأوجلي ؟ والسودان والمغرب والجزائر الشابة ؟ وكيف يمكننا السكوت على ضخامة مثل هذا الانتاج في كافة المجالات وخاصة في ذلك المجال الجديد ، مجال الخطبة السياسية ، المرتجلة أو المكتوبة ، وفن الخطابة وهذه البلاغة في القدرة على التعبير والتأثير والاقناع حيث راحت اللغة العربية الفصحى تتعرف على واحد من اتجاهاتها الأساسية ، من هنا يتضح لنا معنى الأمة الجديدة ، معنى الأمة التي تعد بمثابة الربط السياسي بالماضي .

الأمبريالية و « النهضة » العربية

وفيما يتعلق ببقية المجالات فإن النثر العربي المتوغل في عصريته الذاتية ، فإنه يبحث عن الفعالية في مفاهيم أخرى ، فلقد استقلت الرواية والمسرح والبحث أو النقد ـ في إجمالها ـ عن تلك الموسيقى التي ظل النثر العربي يغرق نفسه فيها قهرا لمنافسة الشعر ، أما اليوم وقد نضج فإن النثر يبدو مهتما بالشكل والمضمون معا فهو يحمل مسؤولية التعبير عن العرب وتأملاتهم حمل مصيرهم جنبا إلى جنب مع الشعر .

وقد كنا غير عادلين أيضا بالنسبة لبقية المسلمين في كافة أرجاء العالم ، ففيما يتعلق بالشعر أو النثر التركي فهناك الشعراء أحمد هاشم (المتوفي عام ١٩٣٣) بالإضافة إلى أورهان ولي ويحيى كمال بيات وناظم حكمت المعاصرون لنا ، أما فيما يتعلق بالنثر المتمركز حول المجال الروائي والذي قد بلوره تماما كل من عمر

سفطين (المتفي عام ١٩٣٠) وحسين رحمي (المتوفي عام ١٩٤٤) ثم يعقوب قدري وخاصة محمود مقل ، كما كنا غير منصفين أيضا بالنسبة للهند الإسلامية وبالنسبة لفارس الحائرة بين كلاسيكيتها والعصرية التي توحي بها النماذج الروسية والانجليزية وخاصة الفرنسية ، وبين النزعة إلى القيم الجمالية والالتزام بالصراعات القومية والاجتماعية ، أما العاصمة طهران فهي التي احتلت مكان الصدارة بين كل المراكز الأقليمية القديمة ، وهنا أيضا كيف يمكننا الاختيار ؟ فيما يتعلق بالشعر لا بد لنا من ذكر لاهوتي الذي لجأ إلى الولايات المتحدة ، وبرفين اعتصامي أكبر شاعرة إيرانية حديثة ، وميرزا تقي خان بها ، ورشيد ناسمي ، ونيما يوشيح .

أما فيما يتعلق بالنثر فهناك أعمال محمد علي جمال زادة ، وخاصة صادق هداية المتأثرة ببلده وبأعمال كافكا والانتاج الفرنسي (لقد توفي بصورة مأساوية في باريس عام ١٩٥٨) وقد كان واقعيا وخياليا واستحواذيا وحرفيا مثلما في أشهر رواياته « البومة العمياء ».

مناقشات جديدة حول الفن

أهو تجريدي أم تشكيلي ؟ . . لقد قلنا طوال هذا الكتاب أن الفن الإسلامي كان قد تأرجح بين هذين القطبين ، وفقا لنطاقه الشاسع ووفقا للخلاف الذي كان يفصل بين ما هو مقدس وما هو عام ، وهذا التأرجح نراه اليوم ممثلا في التنافس بين احترام الزخرفة الهندسية ـ كما نراها في بعض المباني العامة في دمشق ـ وبين أصداء الزخارف الفارسية والهندية أو التركية في المنمنمات

أما اليوم بالتحديد فنرى هذا التمييز أساسا أفسح مجالا لمناقشات أخرى من أهمها ـ مرة أخرى ـ الغرب الذي تم اكتشافه منذ القرن التاسع عشر و « الأصالة » الشرقية ، وتطرح النقطة الثانية مشكلة وظيفة الفن ، هل هو مجرد بحث حر أو مساهمة في تحقيق ابتكار قومي ؟ . . ويتم تحديد عدة اتجاهات ممكنة للفن الإسلامي المعاصر وفقا لنوعية الاختيار ومقدارها .

إن سهولة نقل التقنيات الغربية ستؤدي إلى ردود فعل مختلفة منها التشكيلية لدى هذا الفنان العراقي أو اللبناني (لوحة ٨) أو المصري ، بينما نلاحظ في فن

العمارة تأثير النموذج الناجح والصارم (في أعوام ١٩٣٧) في مقبرة أتاتورك في أنقرة ، أما كافة التجارب الأكثر عصرية فنراها منعكسة في باكستان وخاصة في العاصمة الجديدة إسلام آباد ، بينما سنرى الفن كمعطية لا نهائية للبحث والتنقيب وفقا للمدرسة الغربية ، ومنها السريالية أو التجريد ينعكس في أعمال الفنان العراقي جميل حمودي ، هكذا وفي معظم الأحيان فإن الدرس المطلوب من أوربا ـ حتى في مجال التقدم المادي ـ عبارة عن « إعادة بناء الذات من خلال أساليب مستوحاة من الآخرين » وذلك مثل نحت مختار المثال العميق التأثر بالجو المصري في جوهره ، أو كما نرى في بغداد في معالجة الأسمنت المسلح وما تحمله من تأثير للأقواس الساسانية في قصورطيسفون(لوحة ٣٢) أو كما نرى أيضا في رسوم الفنان التونسي مكي واستخدامه للون بأسلوب يعكس التراث الشرقي البعيد ، وأخيرا فإننا نرى التلقائية الصافية النابعة من البيئة ـ وبعيدا عن أي تأثير أجنبي ـ تنعكس من خلال أطفال مصريين في مشغل النسجيات للفنان القبطي رمسيس ويصا واصف .

أما الموسيقى فهي تجمع بين كل هذه الاختيارات والتأرجحات ، وذلك مثل الموسيقى الغربية ، سواء تم تذوقها كما هي أو أعيد تجديدها وفقا للإيقاع الشرقي مثلما في أعمال اللبناني توفيق سكر أو المصري أبو بكر خيرت ، وعلى العكس من ذلك نرى موسيقى التقاسيم الآلية مثل منير بشير أو موسيقى المغنين التي تسيطر عليها أسماء سيد درويش (الذي شهره المسرح الشعبي كما أشتهر من بعده محمد عبد الوهاب) وفريد الأطرش وخاصة أم كلثوم التي كانت ساحرة الأغاني الممتدة طوال الليل رابطة بين أفراد الشعب بصورة لم يتمكن صوت قبل صوتها من ربطه .

ذلك هو الحال فيما يتعلق بالحاضر الشديد الحيوية ، لكن ، ماذا عن المستقبل ؟ لا شك أن الموسيقى الشرقية تؤدي بنوع من الترنيم « كلغة ثانية » لا يمكن إخمادها هي لغة القلب والأحاسيس ، بقي أن نعلم أن هناك اتجاها بين المثقفين يتهمها بالتخلف بالنسبة للآداب التي تم تجديدها ، ويعيب عليها هؤلاء تطلعاتها إلى التعبير الحقيقي ويميلون في هذا المجال كما في مجال العمارة والفنون إلى الموسيقى السيمفونية أو الجاز ، هل هو صراع مثقفين ؟ . . سيقول البعض أن

علاقة القوى ما زالت طاحنة إلا أن المشكلة المطروحة وإذا ما تولدت في الأوساط الثقافية فهي تتخطاها عن طريق الصحافة أي أن هنا أيضا مثلما في مجال اللغة فإن التغيرات ما زالت سائرة .

٥ ـ خاتمة

ها نحن قد وصلنا إلى نهاية المطاف في هذا الكتاب ، أما الإسلام فهو مستمر . . . ونرجو أن نكون قد تمكنا من استعراض مشاكله ـ ولو باختصار شديد ـ لنظهر أن الجهود المبذولة لحلها بطريقة مثلى هي نفسها المشاكل التي تحرك مجمل هذه الإنسانية المتحركة والتي نطلق عليها اسم العالم الثالث ، فمن ذا الذي يمكنه وصف ملامح إسلام الغد على وجه اليقين ؟ على أي حال فإن مستقبله يتوقف على الإجابتين اللتين يتطلبهما السؤالان الأساسيان التاليان : فأحدهما يتعلق بتعريف الإسلام كقوة تجمع ، والثاني يتعلق بإمكانية اتفاقه مع العالم الجديد الذي ألقى فيه بأطفاله .

الإسلام وأممه

لقد تحدثنا كثيرا عن الأمم في هذه الصفحات الأخيرة ، وكان ذلك يعني ـ مع مسايرة التاريخ ـ ان تعريف الشعوب التي تمثل الإسلام في القرن العشرين تمر بمضمون ينتمي إليه الإسلام بلا شك وبقوة لكنه لم يعد قادرا فيما يبدو على استيعابها وحده أو تلخيصها .

أما الحديث الجديد فهو ما وقع في كل مكان تقريبا وهو إحلال المواطن محل المؤمن ، ترى هل هي نهاية الإسلام ـ ليس كدين بالطبع ـ وإنما كتعريف ومبرر للوجود ومحرك للمجتمعات الإنسانية ؟ لقد تأسست دولة باكستان لتثبت العكس إلا أن الماركسية أو العلمانية لا تشاركان في هذا الاهتمام ، وذلك أقل ما يمكننا قوله ، أما فيما يتعلق بالعرب ، أوائل مؤمني الإسلام ، فهم لا ينكرونه بالطبع ، إلا أننا رأينا أن تاريخهم الحالي أشبه ما يكون في إجماله وكأنه قابع تحت وطأة مشاكل أممه الكثيرة أكثر منه خاضعا لمشاكل الدين ، هل هي « أمة ذات دعامتين » دعامة الدول كل على حدة ، ودعامة الأمة العربية الموحدة التي يتعين عليها أن تصبح الأمة الجديدة التي تحل محل الأمة الأخرى أو المكملة لها ، أي المكملة للأمة

القديمة : أمة الايمان الإسلامي . . لكن . . هل تسير الأمور بهذه البساطة ؟ . .

إن الإسلام الذي يعد مذهبه الصارم من المذاهب العالمية لن يمكنه الموافقة على قلب الأوضاع على حسابه ، وأن تدعي الأمم تزيينه بعد أن كان عليه أن يزينها كلها ، ومهما تذكرنا المصاعب الكامنة داخل هذا التعريف الجديد للمجتمعات الانسانية فإن فكرة تجميع العرب التي نادى بها شكيب أرسلان بكل صوته ، وتمثلت لأول مرة في تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، كل ذلك لم يمنع المواجهة بين الدول العربية : سوريا ومصر عقب تفتت الجمهورية العربية المتحدة في خريف ١٩٦١، ومصر وتونس بسبب تشغيل نفس هذه الجامعة العربية ، والجزائر والمغرب بسبب الحدود أو الصحراء ، ومصر وليبيا . . ، وسوريا والعراق . .

وتجيب الوطنيات على ذلك بأن تساير قضية القومية والقضية الدينية لا يرجع إلى اليوم أو إلى الأمس في تاريخ الإسلام ، وإن الإسلام لم يتمكن من جمع كل أتباعه بزعامة واحدة وفي أمة واحدة إلا لفترة وجيزة ، وسرعان ما اندلعت الخلافات بين العرب والآخرين ، وخاصة الفرس المتعلقون بتراثهم المحدد أكثر من الدين ، أي أن ذلك الصراع قد بدأ قبل أن تتولد فكرة أو مفهوم الأمة في فترة كان الإسلام يمكنه فيها - رغم انقساماته السياسية والأيديولوجية - أن يحتل الصدارة من خلال الخليفة ، إن لم تكن هناك سلطة واحدة فعلى الأقل كرمز وكأمل ، أما اليوم وقد اختفت الخلافة فهل يمتلك الإسلام فرصا أكثر ؟ . .

إن الرد إجمالا بالنفي يغرينا ، علما بأن الأمر يتعلق بالإسلام كظاهرة سياسية ، وأن نثير من خلال ماض قريب نوعا ما ، التوترات القائمة بين تركيا وسوريا بسبب الاسكندرونة ومعارضة جاكارتا في إنشاء ماليزيا الكبرى ، أو فيما يتعلق بالحاضر الخلافات القائمة بين وجهات النظر فيما يتعلق بإسرائيل أو بأسعار النفط .

وهكذا نرى أن المعادلة الصعبة التي حاولنا أن نقيمها بين موقف البلدان الإسلامية والعالم الثالث ليست صالحة - في إجمالها - حتى النهاية ، فمن الناحية السياسية فإن ارتباط الإسلام يتنوع وفقا لمفهوم اتباعه فيما يتعلق بموقفهم على أرض

منقسمة إلى كتلتلين ، ولا شك فيما يتعلق بجوهر الموضوع ، فإن الإسلام مرادف لعدم الانحياز الذي مثله كل من تيتو ونهرو وعبد الناصر وسوكارنو أما تركيا وإيران وباكستان ـ لكي لا نذكر سوى هذه الأمثلة ـ فقد ارتبطت بصورة أو بأخرى وتمسكت بأن يكون لها علاقات حميمة مع الغرب .

إن الإسلام في الواقع ليس إلا ما يفعله المسلمون ، هل هو ضعف منهم ؟ ذلك ليس بالتأكيد إذ أن مرونته تضمن مقاومته وترابطه ، ولا شك أن فكرة دولة إسلامية موحدة مثل اسلامستان التس تزعم باكستان أنها أول نواة لها تبدو حلما بعيدا وربما صعب التحقيق ، أما فيما يتعلق بصعوبة الإسلام في تنظيم بنيانه السياسي الجماعي من أقصى أراضيه إلى أدناها ، فهل لا بد لنا من تحديد عدم مقدرته على تجميع كل أشكاله المختلفة وأشكاله الثابتة لأتباعه ؟ في الواقع إن لهذا الإسلام مؤتمراته الدينية بالطبع والثقافية أيضا بأوسع معاني الكلمة ، أو مؤتمراته الاقتصادية بل والسياسية ، فهو دائما يلجأ إلى فكرة وساطة أحد أعضائه إذا ما وقع خلاف بين الأمم أو يلجأ إلى مجرد ذكر الوعي المشترك

إن الزمان والمكان الإسلاميان المميزان وهما شهر رمضان والحج إلى مكة يواصلان مهمة تشكيل الانتماء إلى نفس الحضارة مثلما عرضها عبد الناصر في كتابه عن « فلسفة الثورة » فلا يمكن قطع الأمة العربية عن ارتباطها بالأمة الإسلامية في التاريخ ، كما لن يمكن منع الأمة الإسلامية اليوم من أن تتعرف على نفسها في التقارب بين أبنائها ، بين هؤلاء الأبناء الذين يظلون عربا

لقد تحدثنا عن حضارة واحدة ، لكن ترى أين تقع ؟ . . لا شك أنه إذا نظرنا إلى الإسلام بشكل صارم « كأجرومية للحضارات » نظرا لتنوعه الشديد (السالف والحالي) فإن هذا الإسلام يفلت من التحليل الواحد ، فلا بد لنا إذن من الرجوع إلى الإسلام كما تتم معايشته بالفعل إذا ما أردنا أن نحضر أفضل جزء فيه وأكثر أجزائه مقاومة ، أي أن ننظر إلى الحضارة التي يعطيها اسمه : أمة من المشاعر والحياة والتي تمتزج في آن واحد فى الذكرى والأمل .

الذكرى بمعنى أنه إذا ما جردنا الإسلام من كل التنويعات التي تصبغه عند احتكاكه بالحضارات الأجنبية ، فإن هناك جوهرا يتبقى هو جوهر توافق المعتقدات والعادات والتعبيرات والأذواق ، والموضوعات الأدبية والفنية ، دون التحدث عن

الاحترام الواضح للغة العربية ، لغة الرسالة والنبوة وكل ذلك بشكل عميق سحيق ولا يمكن اقتلاعه ، والأمل بمعنى أنه هنا أيضا ، وبعيدا عن أي خلافات سياسية فإن المضمون العام لا يمكن إغفاله وهو الجهد المبذول بغية التطور حيث يتداخل الانتماء إلى الإسلام مع مطالب الكرامة والشخصية والعدالة .

الإسلام والتقدم

وهكذا نصل إلى ثاني السؤالين اللذين طرحناهما فيما سبق وهو : اتفاق الإسلام مع العصر الحديث ، فالرغبة في التقدم تعني شيئا ووسائل تحقيق هذه الرغبة تعني شيئا آخر ، وسواء أردنا ذلك أم لم نرده فإن هذا التقدم بالذات ما زال يحمل دائما ملامح تقنيات الغرب ، مما يؤدي مرة أخرى إلى مناقشة صلات الإسلام بهذه التقنيا ، وكما يلاحظ ف. بردويل فإن الميكنة وحدها ليست حضارة في حد ذاتها ، كما أنها لم تهدم كافة الهياكل القديمة الغربية التي قامت عليها لكي تحل محلها كلية ، إلا أن أوربا قبل الثورة الصناعية كانت قد امتصت صدمات أخرى كما سبق لها أن تحملت الصراع القائم بين الإيمان « والانطلاقة العلمية العقلانية والعلمانية »ـ اما الإسلام فعليه أن يعيش نفس الأحداث تقريبا دفعة واحدة ، ونلاحظ أنه يتردد أحيانا ، ولعل ذلك يرجع إلى الماركسية التي تضيف إلى الناحية التقنية مادية لا يستسيغها الأساس الروحي للإسلام .

والأمر بالنسبة للإسلام لا يعني أن يزهد في السعادة أو أن يفقد روحه ، إلا أن الطريق الأوسط الذي يحاول أن يسلكه والذي قد يؤدي إلى رفضين فهو : لا رأسمالية ولا ماركسية ، لا الغرب ولا الكتلة الشرقية ، ولا شك أن هذا الطريق صعب الممارسة وصعب التحديد ، وذلك مثل التطور الذي يحتم المساهمة الفعالة للمرأة في الجهد العام وليس تحريرها فحسب ، وكل الذين يعرفون ـ في الإسلام ـ أن أي دولة عصرية لا يمكنها الإستغناء عن الطاقة البناءة لجزء بأسره من تعدادها ، لا يكتفون بالمطالبة بإلغاء بقايا فكرة تعدد الزوجات أو رفع الحجاب فحسب ، ولكنهم يتطلعون إلى نهاية المطاف وذلك بتحرير المرأة تماما وبتعليمها ومنحها مصيرها الذاتي ، إلا أن المرأة تعني أيضا في الإسلام كما في غيره أنها المحافظة الكبرى على التراث الذي قامت بحمايته أيام الإحتلال الأجنبي ، أو على حد قول جاك بيرك « كانت الساهرة في ظلام ليل الاستعمار » مما نجم عنه أيضا هنا بعض

التردد والحلول الوسط بفكرة واحدة هي التحرر؟.. نعم ، لكن بمبالغات الغرب؟ لا . .

ولا يملك الغرب إلا أن يتمنى لكل هؤلاء المسلمين والمسلمات أن يتمكنوا من العثور على طريقهم وأن يمهدوه ويدعموه ، غير أن المصلحة والواجب يحتمان على هذا الغرب أن يعاون في تحقيق هذه المهمة ، ومصلحة الغرب هي مصلحة العالم بأسره في الرخاء والعدالة ، ومصلحة اليوم هي التعاون بلا حدود وبلا أفكار مسبقة ، التعاون القائم على الرغبة ، الرغبة الحقيقية في معرفة الطرف الآخر والرغبة التي لا تتوقف عند أعتاب مصلحة إسمها توريد الطاقة ، وإنما رغبة تتولد من الإحساس العميق بأن الإسلام لا يمكنه أن يولد إلا من خلال احترام الاختلافات القائمة .

فالإسلام طوال تاريخه ، مثلما في موضوعات نهضته الثقافية ، أراد أن يكون جسرا بين المعارف الإنسانية المختلفة ، واليوم إذ يود ألا يكون ملكا للشرق أو للغرب ، وإنما يكون لنفسه هو ، فمن ذا الذي لا يرى إنه بمجرد توافقه مع مصيره ومع مصير العالم ، سيتمكن بدوره من أن يربط من جديد تراث التبادلات القديمة ، وتبادل الآراء التي ما كان يجب عليها أن تتوقف أبدا في كافة المجالات . .

المساقط الافقية للمباني

إذا ما نظرنا إلى عدد المساقط الأفقية التي قام موريس لومبار بإعدادها أو الإشراف عليها ، لوجدنا على الفور أنه لم يكن يود أن يقل كتابة في شيء عن الكتب المتخصصة فيما يتعلق بتاريخ الفن . إلا أن ضرورات هذه المجموعة قد دفعتنا إلى اختصار هذه المساقط إلى ثلاثة عشر ، إلا أننا قد راعينا الاهتمام ببعض المراحل التي تمثل فترات أساسية في عمارة الإسلام .

وقد اهتمنا اولا وبصفة خاصة ، بفترة الخلافة الأموية حيث يجد التراث السوري البيزنطي اتجاهات جديدة بفضل الإسلام ، إذ أن المسجد الكبير لدمشق (شكل ٨٠)، الذي أقيم على أنقاض مذبح مسيحي ، استوحى بعض التقنيات المستخدمة مثل الفسيفساء وأبراج الجمالون والقبة والثلاث أجنحة المتوازية ، وتغيير اتجاه المبنى (ويرمز إليه المحراب المتجه إلى مكة)، وإعادة تشكيل برجي الزوايا وتحويلها إلى مآذن للدعوة إلى الصلاة ، وإقامة مأذنة ثالثة أطلق عليها إسم مأذنة « الخطبة »، كل هذه التعديلات تطبع على المبنى خاتم ديانة جديدة .

وهناك تجديدات أيضا في المباني المدنية وخاصة في قصور البادية السورية .

فهي بتكوينها المربع الشكل تذكرنا بالقصور الرومانية التي راحت تنتهج نمطها وتضفي عليها طابعها المميز . وذلك مثلما في قصر التوبة (شكل ٨١)، كما كان التراث العربي يغير من النظام الداخلي لهذه القصور مثلما في قصر مشطا (شكل ٨٢) الغامض الشاهق والذي لم يتم بناؤه ، حيث يقودنا نظام ثلاثي الطابع إلى استكشاف تكوينه المزود بمباني مميزة المعالم في المدخل فناء الاستقبال ، بالإضافة إلى

بعض المباني الأخرى التي تضم قاعة العرش ومحاربها الثلاثة .

ونفس التجديدات نراها في مباني الحمامات (شكل ٨٣، ٨٤). ومن الواضح أننا نجد هنا أيضا بنفس التسلسل التقليدي لقاعة الراحة (المشار إليها بحرف A في المسقط الأفقي)، والقاعة الدافئة (حرف T) ثم القاعة الساخنة (حرف C) ومعها حجرة المراجل (F) المتاخمة لها . إلا أن حجرة التبريد ـ كما عرفها الأقدمون بحمام السباحة وبوابتها الضخمة وقاعة الرياضة ، وكانت تقع بين قاعة الراحة والقاعة الدافئة ـ فقد اختفت من هذه التصميمات . ومن جهة أخرى ، فإن قاعة الراحة قد تحولت إلى ما يشبه (قاعة الاستقبال للشخصيات البارزة . مما يجعل من هذا النموذج للحمام أحد ابتكارات الفترة الأموية . أما التطور اللاحق (شكل ٨٥) فسيؤدي بالطبع إلى الأهمية المعطاة للقاعة الساخنة وملحقاتها وإلى تكوين نوع من العمارة الضخمة النابعة كلية من حضارة الإسلام .

ومن التأثيرات السياسية الأموية ، نرى أن اسبانيا قد مزجت في مسجد قرطبة (شكل ٨٦) بين الطابع السوري والعراقي والمصري إلى جانب بعض المؤثرات المحلية . وقد تم تكبير وتجميل ذلك المبنى الإسلامي الضخم على التوالي . فقد تم توسيع المبنى الأصلي ، الذي أنشأه عبد الرحمن الأول وهشام الأول في أواخر القرن الثاني/ الثامن (المشار إليه برقم واحد في المسقط الأفقي)، بحيث وصل إلى ثلاثة أضعاف بالإضافات المتتالية التي قام بها كل من عبد الرحمن الثاني (رقم ٢ في المسقط) والحاكم (رقم ٣) ثم في حوالي عام ألف إضافات عمدة القصر المنصور (رقم ٤).

وهناك امتدادات معمارية أموية أخرى في الغرب ومنها الشكل المربع وقاعة الصلاة المستطيلة الشكل التي ترتبط بالبريد المحصن (الرباط) في الصومعة (شكل ٢٤ ، ٨٧). فهنا تتضافر متطلبات الدفاع (أبراج السور وبرج المدخل المحصن وبرج المراقبة) بقاعات الصلاة (الزاوية المقامة في الدور الأول) وقاعات إيواء المحاربين في سبيل العقيدة (وهي قاعات تطل على الصحن).

أما العراق في فترة الخلفاء العباسيين فيعد مكان التقاء الأساليب بشكل جلي ، وأوضح تأثير نراه لفارس . وقد احتفظنا هنا بأحد ملامح هذاالتراث

الضخامة التي يمجد بها الحكام الساسانيون اتساع نفوذهم . فقد كان لمسجد سامراء (شكل ٨٨) ٢٥ جناحا ، عندما شيد في القرن الثالث/ التاسع ، ويقال أن هذا المسجد كان يتسع لمائة ألف مؤمن يصلون في وقت واحد .

وقد ازداد التراث الفارسي إثراء من الإنطلاقة التركية وخاصة من انطلاقة فن السلاجقة . إذ أعطت العديد من المباني الرائعة المندمجة بذكريات التأثيرات الفنية الأخرى ، وذلك مثل مدفن السلطان سنجر في مرو ، المقام عام ٥٥٢/ ١١٥٧ (شكل ٨٩) الذي يعد من أكثر هذه الآثار ابتكارا بقبته ذات القاعدة المزدوجة المزدانة بالفتحات والكوات المتتالية .

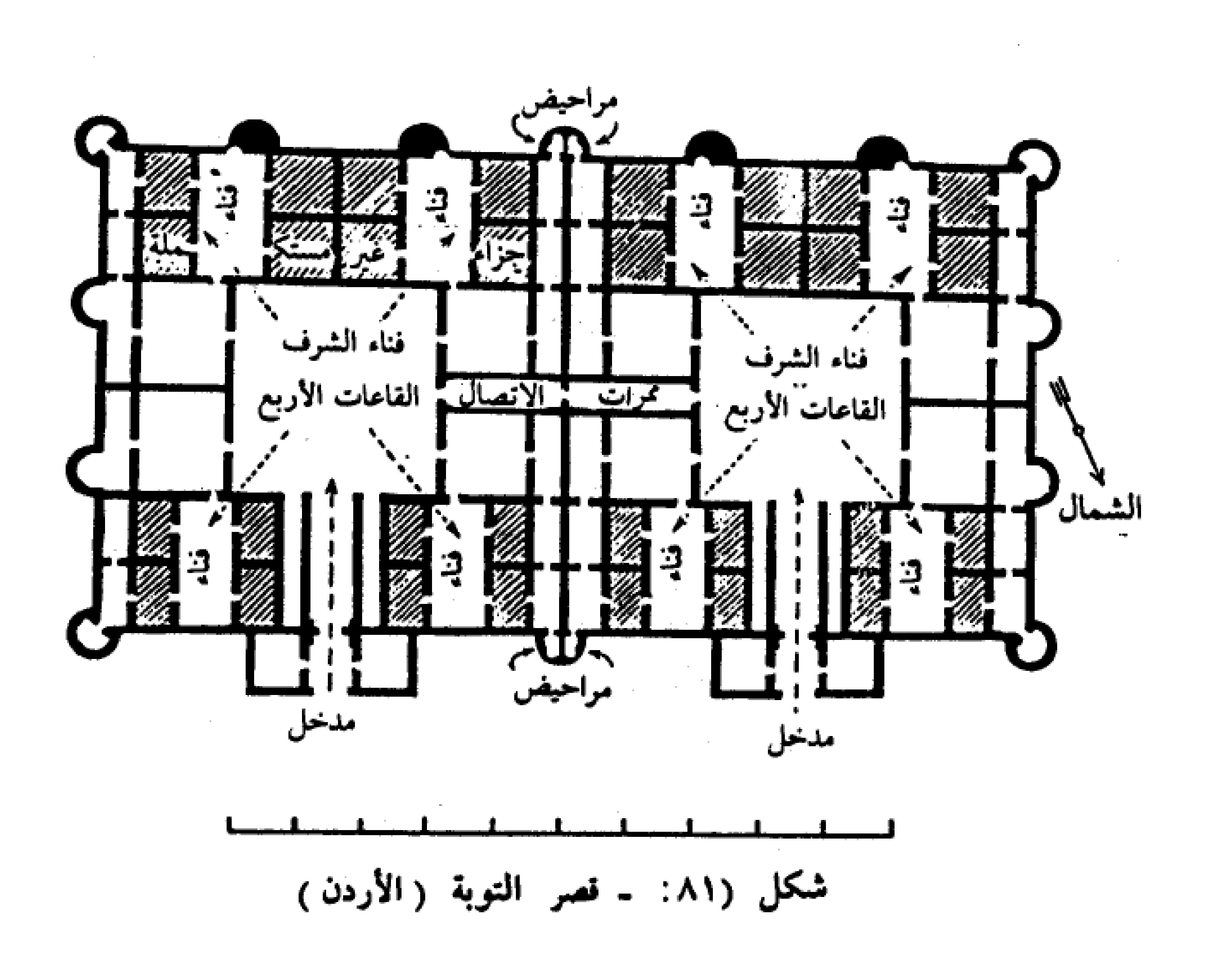
ومن أهم آثار هذا التراث الفارسي هو المسجد ذو الصحن المركزي المحاط بأربعة إيوانات كبيرة وقد انتقل هذا التراث إلى مصر عن طريق المماليك في القرن السابع/ الثالث عشر . وكان هذا التراث من العمارة ـ بمفهومه كمسجد ـ مدرسة يسمح بإيواء الأربعة مذاهب السنية الإسلامية . وهذا هو نظام مسجد السلطان حسن بالقاهرة (القرن الثامن / الرابع عشر ، شكل ٩٠)، حيث نرى التقاطع الصليبي الشكل شديد الوضوح إلى جانب تطويره ببعض المجاميع المعمارية الممتدة تجاه الجنوب الشرقي ـ حيث يوجد قبر السلطان حسن مؤسسه .

أما المبنى العثماني المميز فهو المسجد الكبير المزود بقبة رئيسية تحيط بها قباب ثانوية وأنصاف قباب ، ومآذن مرتفعة ذات شرفات مدببة الطرف وصحن تحيط به الأروقة . وقد توج المهندس سنان (في القرن السادس عشر) هذا التراث ووصل به إلى قمة التعبير في مسجد السليمانية باسطنبول (شكل ٩١)، وهو يعد من أكبر المساجد إذ يتسع قطر قبته إلى ستة وعشرين مترا .

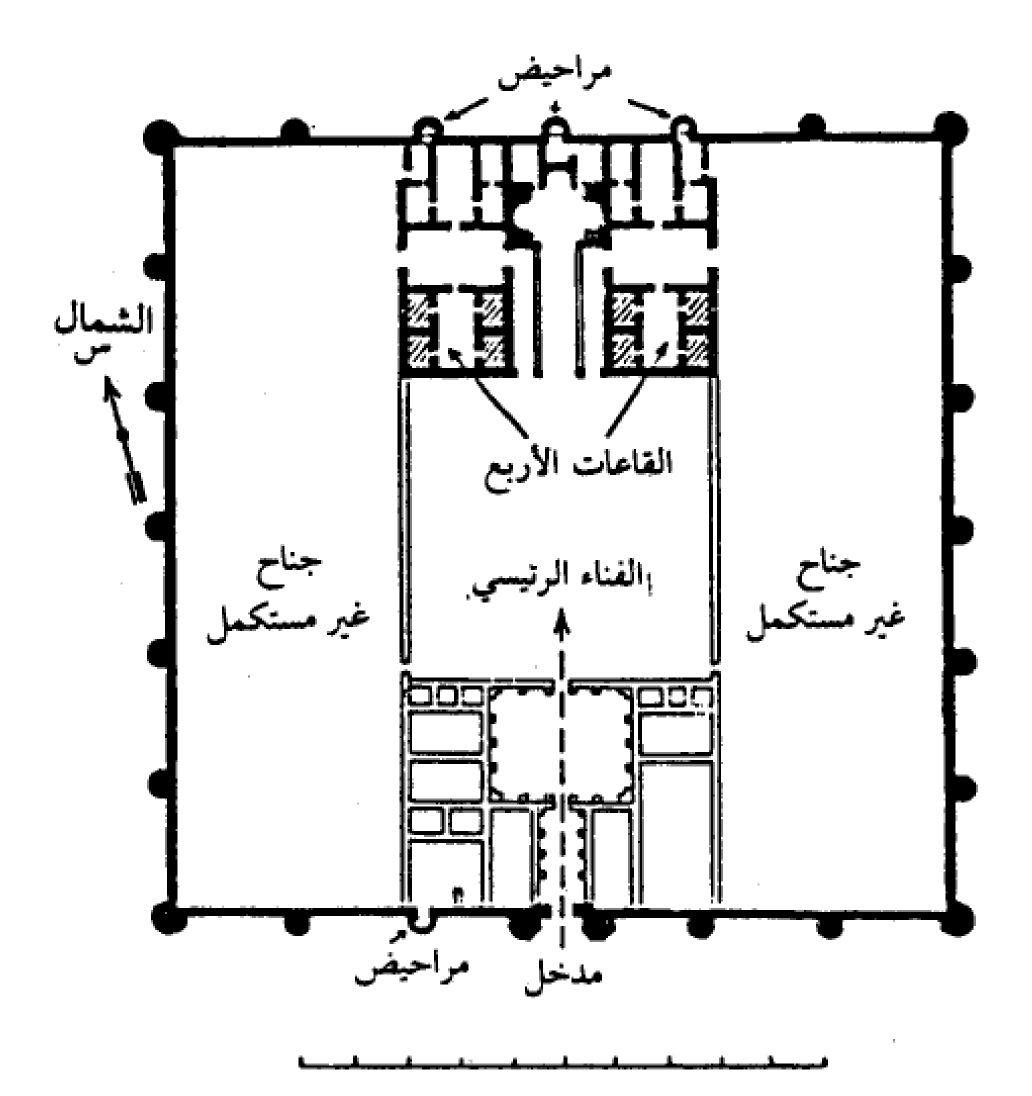
أما الصفويون في فارس ، وكانوا ينافسون العثمانيين ، فقد جعلوا من أصفهان عاصمتهم ، متحفا معماريا حقيقيا . ويعد مسجد الشاه (شكل ٩٢)، الذي أنشأه أيام عباس الأول في أواخر القرن السادس عشر ، من المباني التي تزينها الزخارف بسخاء وهي معتمدة على الفسيفساء الصيني .ومن الواضح أن اتجاه هذا المسجد يخرج عن قاعدة ارتباطه بميدان الشاه لكي يتم توجيهه ناحية القبلة في مكة . وتقوم بوابة المدخل الضخمة بإخفاء هذا الانحراف ببراعة ، أما الايوانات الأربعة المقامة حول الصحن المركزي فقد تطور تصميمها كمبان مستقلة ذات قباب .

مئذنة عيسى
محراب الصحابة
منبر
محراب
المئذنة الغربية
مرقد رأس النبي يحيى
يوحنا المعمدان
باب جيرون
باب البريد
الصحن
الشمال
باب الفراديس
مئذنة العروس

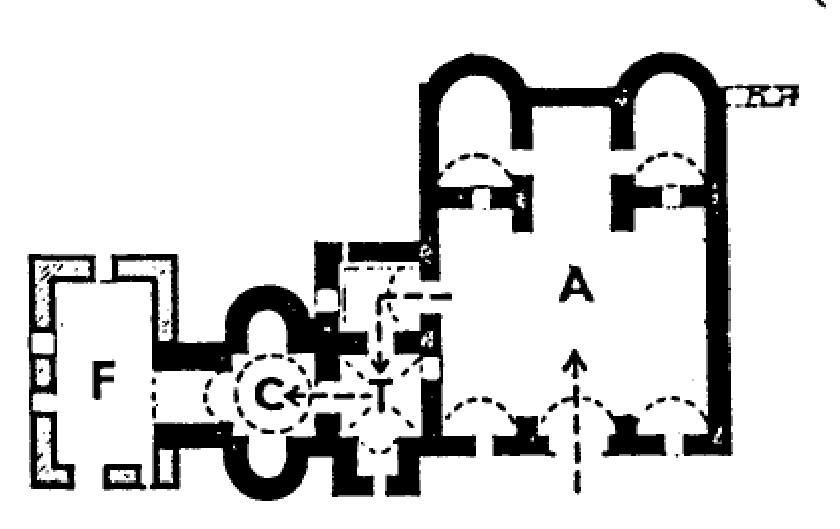
شكل (٨٠) - المسجد الكبير بدمشق



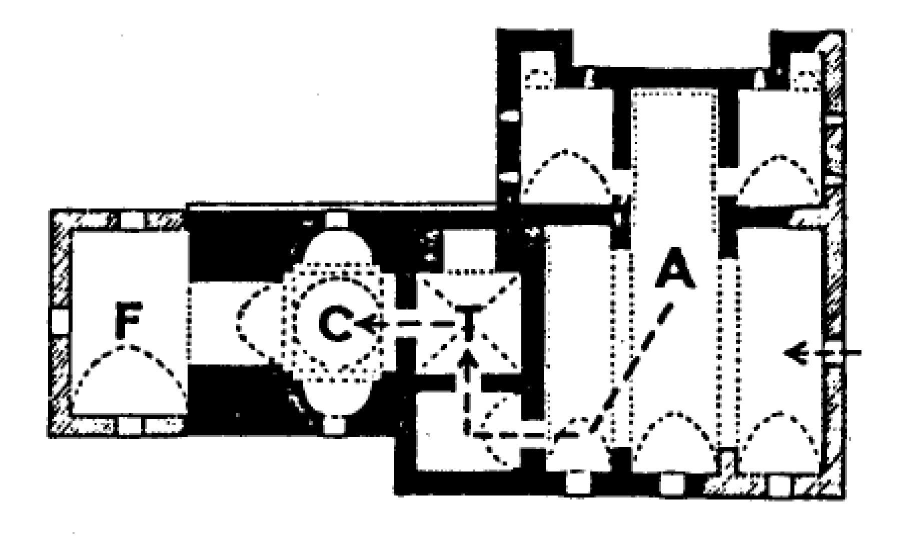
شكل (٨١: - قصر التوبة (الأردن)



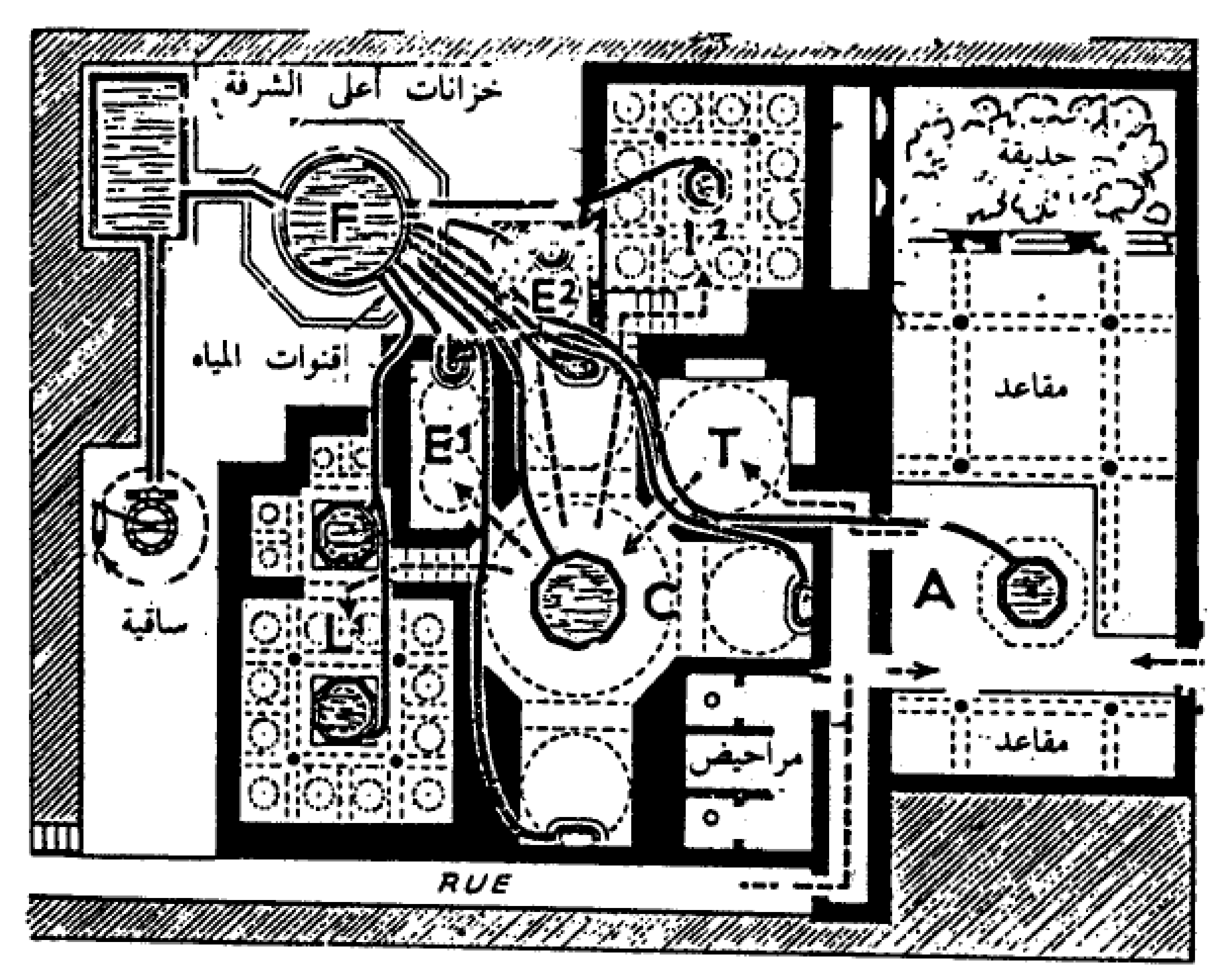
شكل (٨٢) - قصر مشطا (الاردن) .



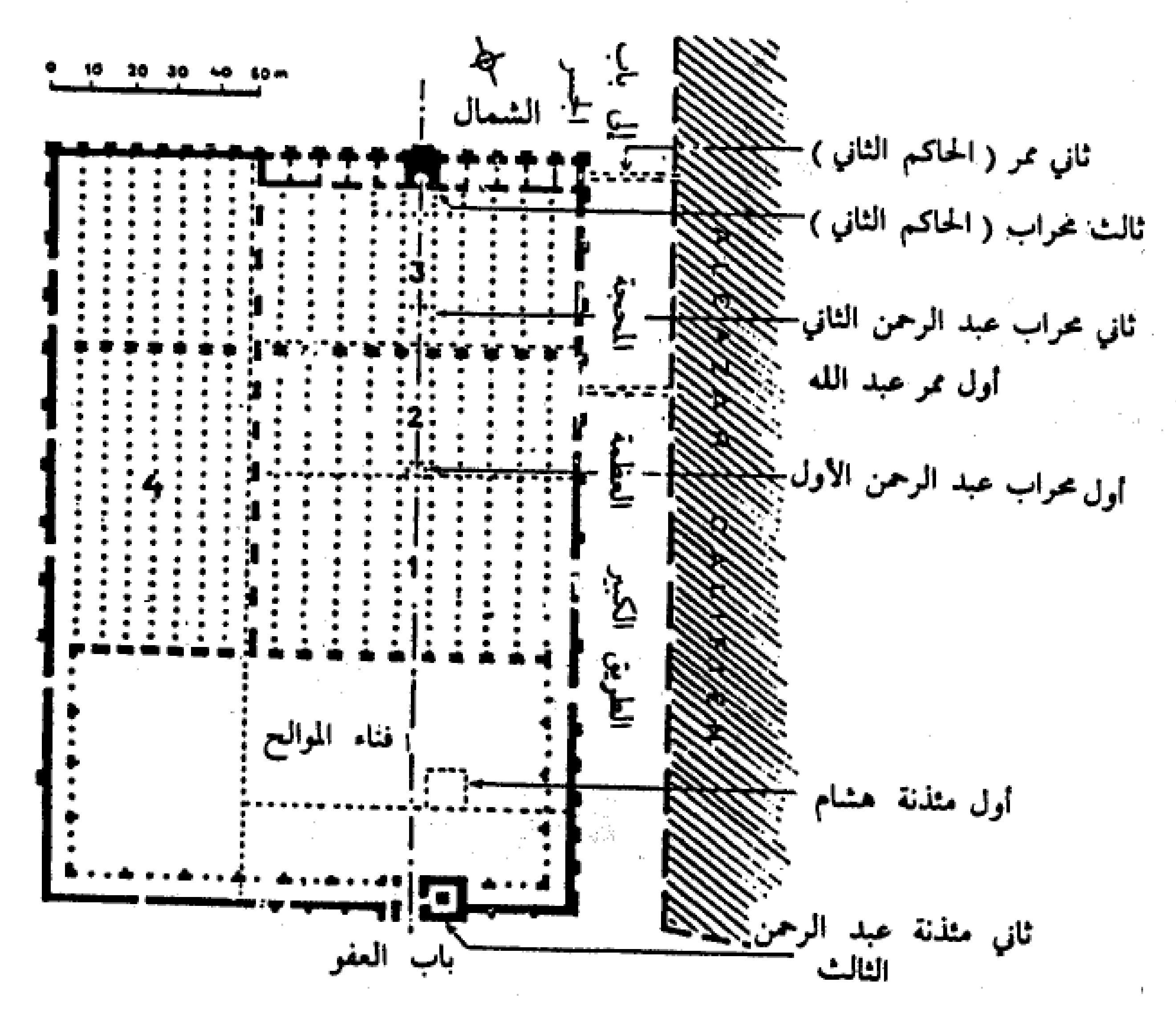
شكل (٨٣) - حمام قصير عمرة (الادرن) .



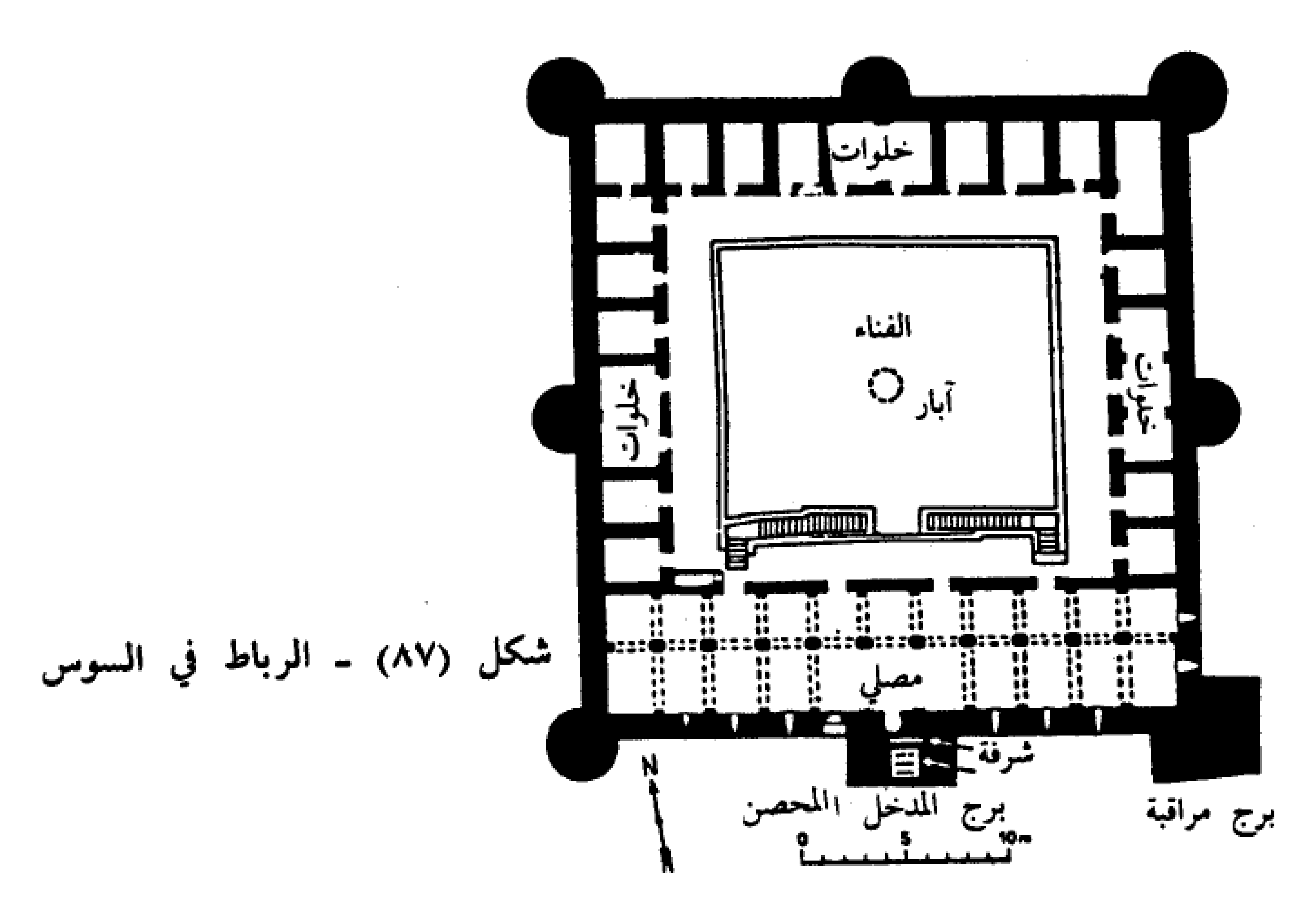
شكل (٨٤) - حمام الصراخ (الأردن)



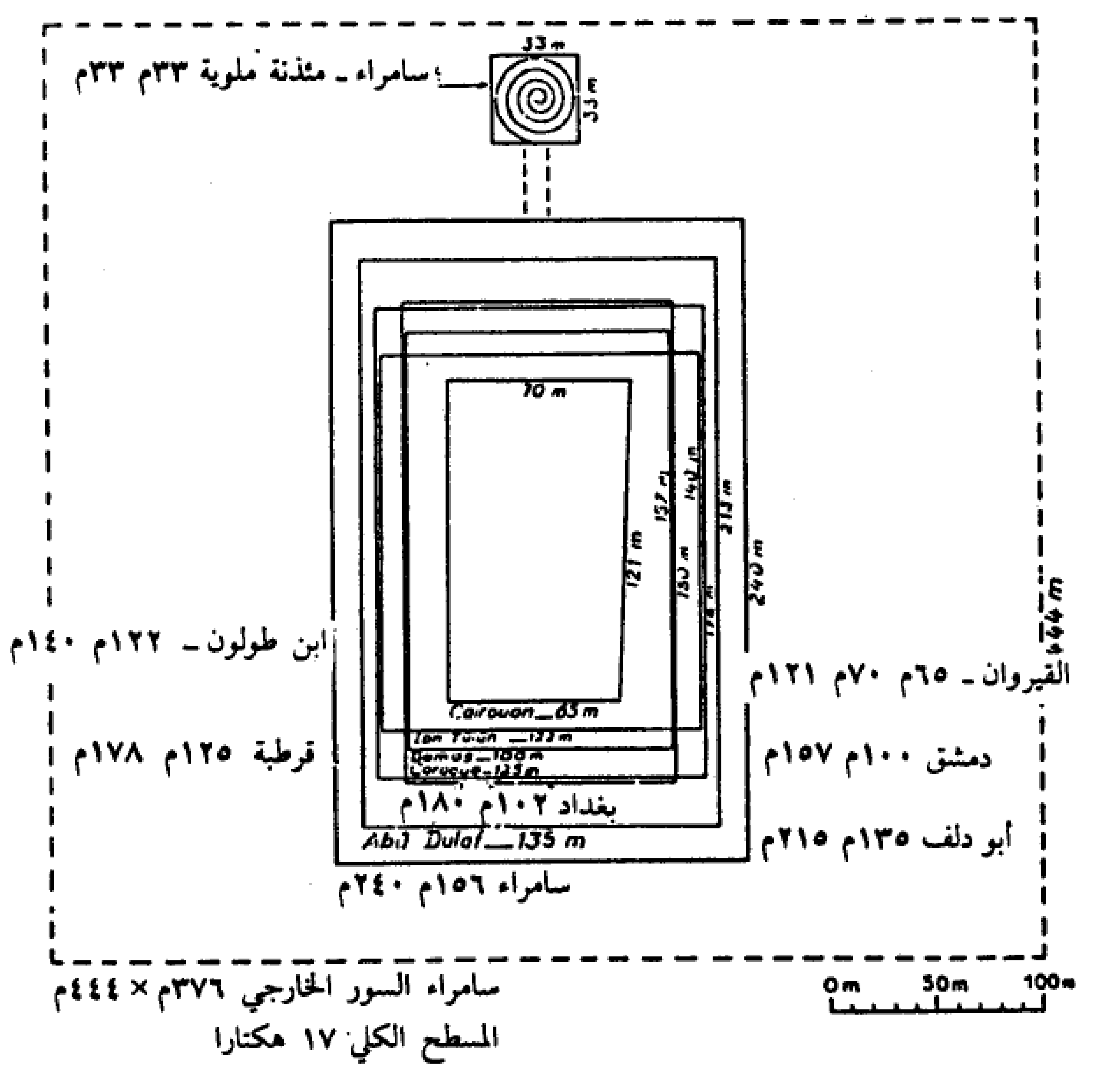
شكل (٨٥) - حمام الطنبلي - القاهرة - القرن الخامس عشر



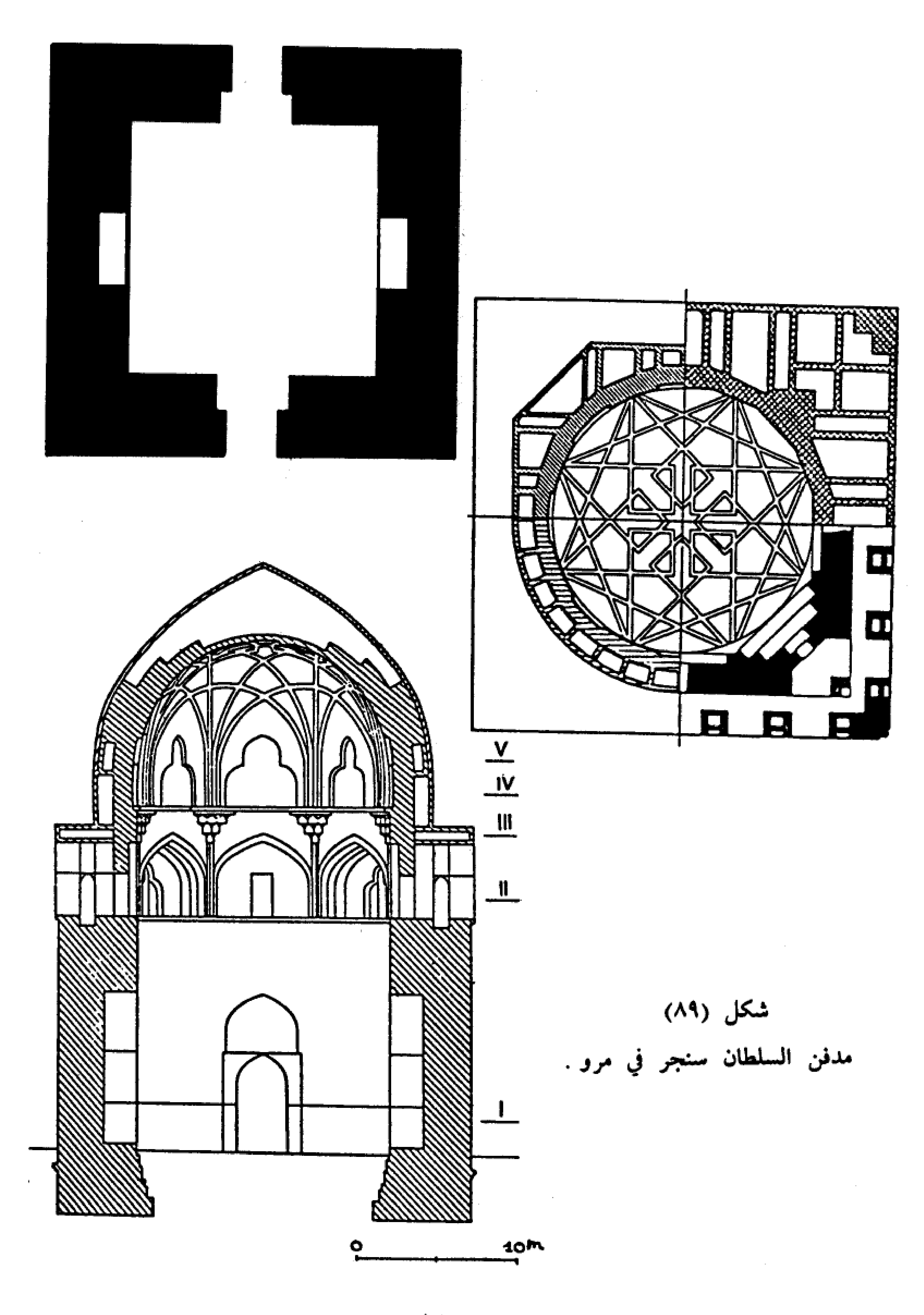
شكل (٨٦) - مسجد قرطبة الكبير



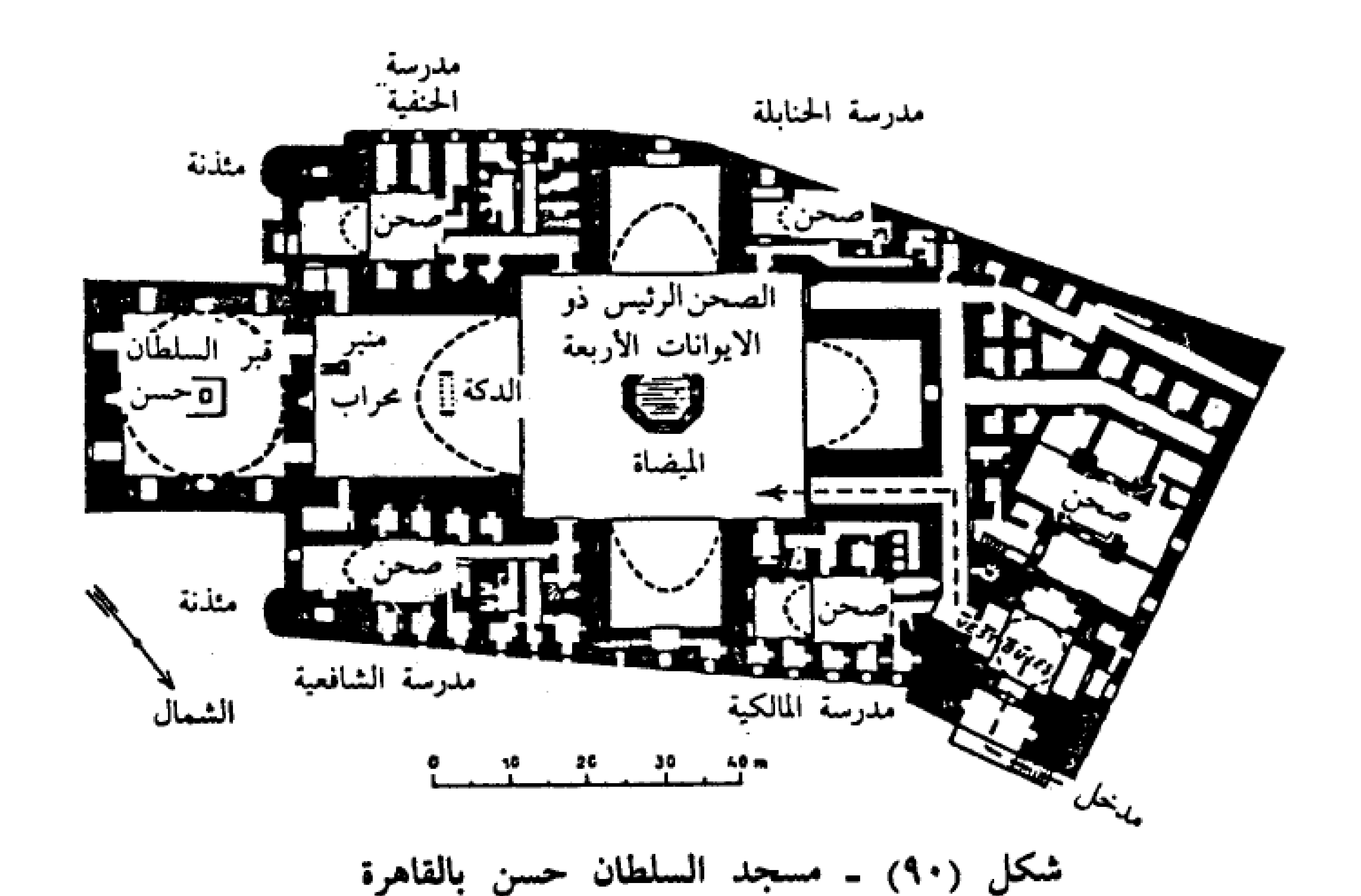
شكل (٨٧) ـ الرباط في السوس



شكل (٨٨) ـ ضخامة سامراء ـ سجل المساجد الكبرى في الاسلام .



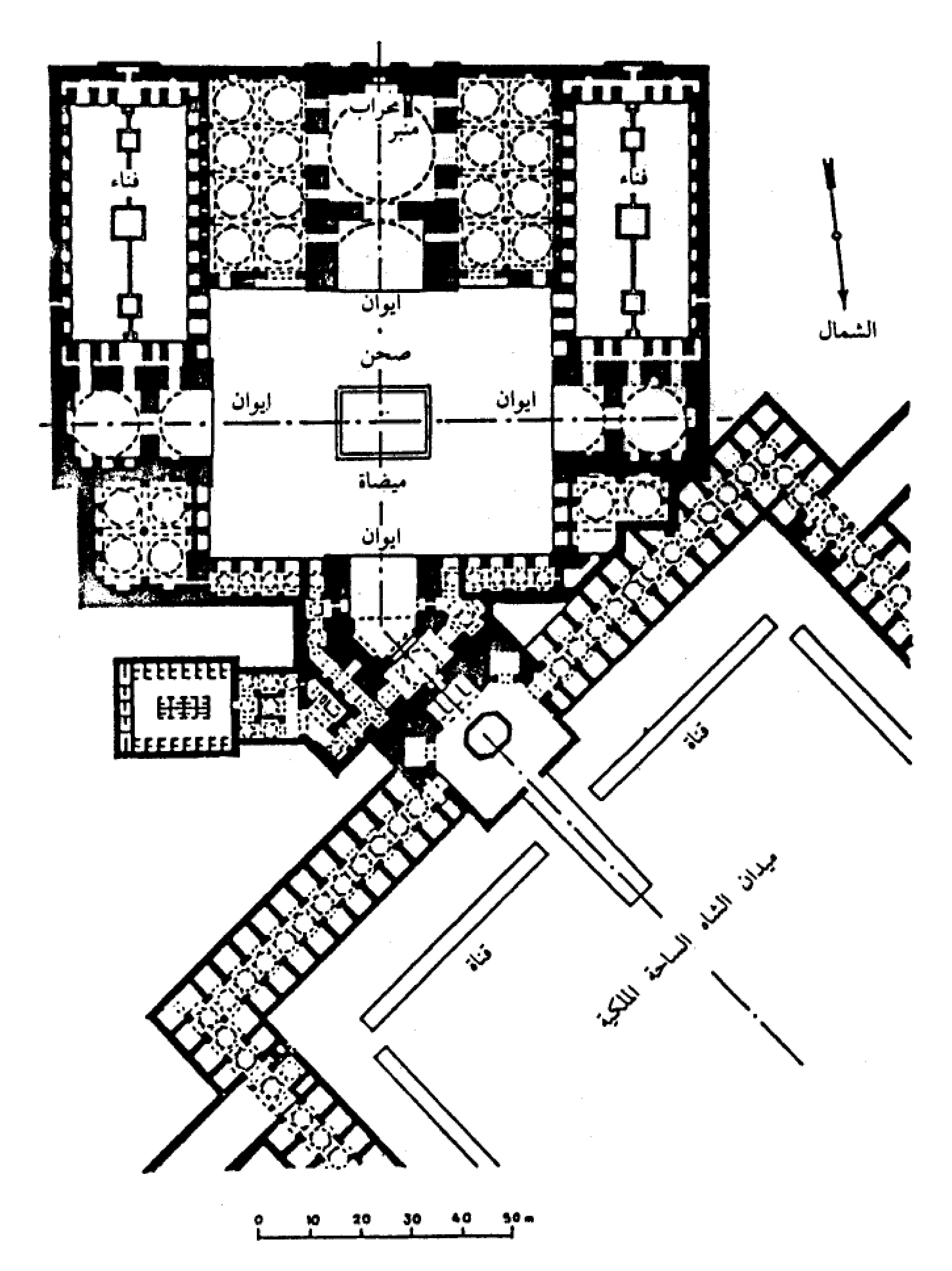
شكل (٨٩)
مدفن السلطان سنجر في مرو .



شكل (٩٠) ـ مسجد السلطان حسن بالقاهرة

صحن
ميضاة
محراب
دكة القراء
منبر
الشمال

شكل (٩١) ـ مسجد السليمانية باستانبول .



شكل (٩٢) - تصميم المسجد المسمى « مسجد الشاه » - اصفهان
نهاية القرن السادس عشر .

جدول توافق زمني

إن اهمية الأحداث التي وقعت في العالم الإسلامي خلال الأعوام الأخيرة وأصدائها الفورية على الحياة الدولية والنشاط الإقتصادي العالمي قد دفعنا إلى توسيع الفترة التاريخية لما بين عامي ١٩٦٨ - ١٩٧٦ .

التاريخ السياسي والعسكري	التاريخ الديني	التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي	خارج الإسلام
٦٢٤/٢: انتصار معركة بدر على سكان مكة . ٦٣٠/٨: انتصار محمد في مكة . ٦٣٢/١٠: وفاة محمد . خلافة ابن بكر ٦٣٤/١٢: وفاة ابن بكر . خلافة عمر ٦٣٥/١٤: سقوط دمشق ٦٣٥/١٤ - ٦٤٢/٢: تدهور الامبراطورية الساسانية . (القادسية ونهاوند) . ٦٣٦/١٥: : انتصار اليرموك على البيزنطيين	حوالي ٥٧٠: مولد محمد حوالي ٦١٠: بداية نبوة محمد ٦٢٢: العام الهجري الأول الإسلامي اول أمة إسلامية : في المدينة .	٦٣٨/١٧: انشاء البصرة والكوفة ٦٣٩/١٨ انتشار طاعون الخليل ٦٤٣/٢٢: تأسيس الفسطاط (القاهرة)	٦١٨: تولية أسرة تانج الحكم في الصين ٦٢٩: حكم داجوبير حوالي ٦٣٠: الصين تضم منغوليا إلى أراضيها . ٦٣٥: إقامة مهرجان سان دني . ٦٥٣: اعتناق اللومبارديين المسيحية .

التاريخ السياسي والعسكري	التاريخ الديني	التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي	خارج الإسلام
١٩/٦٤٠: انتصار هليوبوليس ٢٣/٦٤٤: وفاة عمر . خلافة عثمان	بعد عام ٦٥٠: تجميع نص القرآن .	٥٠/٦٧٠: تأسيس القيروان .	٦٦٩: الصين تهزم كوريا . ٦٨٠: بيان دي هرتسال ، عملة لقصر اوستارسيا .
٣٥/٦٥٦: وفاة عثمان . خلافة علي . ٣٧/٦٥٧: معركة صفين بين اتباع علي ومعاوية	٣٧/٦٥٧: الخوارج		٦٨٥: إعلان البوذية دينا رسميا لدولة اليابان .
٤٠/٦٦١: وفاة علي . الخلافة الأموية في دمشق .		٧٢/٦٩١: إتمام إنشاء قبة الصخرة بالقدس .	
٥١/٦٧٢ - ٥٦/٦٧٧: مواقع ضد القسطنطينية . ٦٠/٦٨٠: ثورة عبد الله بن الزبير في شبه جزيرة العرب .			
	٦١/٦٨٠: كربلاء : وفاة الحسين بن علي تصعيد الحركة الشيعية .	حوالي ٧٧/٦٩٦: أوائل الدنانير الذهبية الإسلامية . اللغة العربية لغة الديوان . إعادة نشر نص القرآن الذي جمعه عثمان بعد ضبطه .	

٦٨٤/٦٤ ـ ٦٨٧/٦٧ : ثورة مختار			
	٦٨٤/٦٥ ـ ٦٩٢/٧٢ : معارك الخوارج في فارس وشبه الجزيرة العربية .		
٦٩٣/٧٤ : نهاية ثورة الكاهنة . ٦٩٤/٧٥ : الحجاج حاكم العراق .			
	٦٩٦/٧٦ : معارك الخوارج في العراق .		
٧١١/٩٢ : انتصار ريوبربات ، وغزو اسبانيا . انتصار العرب في السند .			٧٠٠ ـ ٨٠٠ : ذروة مايا .
		٧٠٥/٨٦ بداية إقامة المسجد الكبير الأموي في دمشق .	
٧١٦/٩٨ ـ ٧١٧/٩٩ : حصار القسطنطينية .		حوالي ٧١٠/٩١ : انتقال قبائل الزوت وجاموسهم من الهند الى العراق .	
			٧١٢ : حكم هويانج تسونج . انبثاق الثقافة الصينية .
٧٣٢/١١٤ : معركة بواتيية .		حوالي ٧١٩/١٠١ : وفاة الشاعر عمر بن أبي ربيعة .	

التاريخ السياسي والعسكري	التاريخ الديني	التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي	خارج الإسلام
	١٢٢/٧٤٠: وفاة زيد الزيدية .		٧٢١: الحماية الصينية على آسيا الوسطى .
	١٢٧/٧٤٥: معارك الخوارج في العراق .		٧٢٢: بونيفاتشيه أول أسقف في جرمانيا ٧٢٦: بداية معركة الصور في بيزنطة .
١٢٩/٧٤٧: الثورة العباسية في خراسان .		حوالي ١١٠/٧٢٨ : وفاة الشاعرين جرير والأخطل	
١٣٠/٧٤٧: الخوارج يحاصرون مكة .		١١٤/٧٣٢: وفاة الشاعر الفرزدق .	
		١١٧/٧٣٥: وفاة الشاعر ذو الرمة .	
	١٣١/٧٤٨: وفاة واصل بن عطاء ، مؤسس المعتزلية .	حوالي ١٢٢/٧٤٠: المسلمون على الشاطىء الشرقي لأفريقيا .	
١٣٢/٧٥٠: السفاح ، أول خليفة عباسي .			
١٣٣/٧٥١: انهزام الصينيين على نهر تالاس .			

٧٥٤/١٣٦: خلافة المنصور . ٧٥٩/١٤٢: استيلاء بيان لي بريف على نربون ٧٧٦/١٦٠: اسرة رستم الحاكمة في تيارت	٧٥٧/١٤٠: معارك الخوارج في طرابلس . حوالي ٧٦٠/١٤٣: بدايات الأدب الزيدي . ٧٦٢/١٤٥: وفاة اسماعيل سابع إمام للشيعة السباعية . ٧٦٧/١٥٠: وفاة أبي حنيفة ، مؤسس أحد المذاهب الأربعة للسنية .	٧٥٧/١٤٠: وفاة ابن المقفع ، أحد مؤسسي النثر الأدبي العربي . ٧٦٢/١٤٥: إنشاء بغداد .	٧٥٠: بداية اضمحلال أسرة تانج الحاكمة ٧٥١: انتخاب بيان لي بريف ملكا على الفرنجة . سقوط رافينة في أيدي اللومبارديين . ٧٥٦: اللومبارديون يحاصرون روما . حوالي ٧٦٥: البنغال ، معقل البوذية .

التاريخ السياسي والعسكري	التاريخ الديني	التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي	خارج الإسلام
٧٧٨: رونسفوه			٧٨١: أول فترة لسلالة هيان في اليابان ، انبثاق الآداب والفنون في كيوتو .
	٧٧٨/١٦١: وفاة سفيان الثوري ، مؤسس إحدى المدارس الفقهية ومن أوائل على الصوفيين .		
٧٨٦/١٧٠: خلافة هارون الرشيد .		٧٨٥/١٦٩: بداية اعمال إنشاء المسجد الكبير بقرطبة .	
٧٨٩/١٧٢: أسرة الأدارسة بالمغرب		٧٨٩/١٧٢: إنشاء مدينة فاس حوالي ٧٩١/١٧٥: وفاة الخليل عالم اللغويات .	
	خراسان . وفاة مالك مؤسس أحد المذاهب السنية الأربعة .		
٨٠٠/١٨٤: أسرة الأغالبة في تونس	حوالي ٨٠٠/١٨٤: بداية المالكية في اسبانيا .		٧٩٦: بداية بناء كنيسة بلاتين في مدينة ايكس .
		حوالي ٨٠٠/١٨٤: التجار المسلمون في مدينة كانتون .	٨٠٠: شارلمان امبراطورا .

٨٠٣/١٨٧: سقوط وزراء البرامكة .		إنشاء مصنع للورق في بغداد .	
حوالي ٨١٠/١٩٤: أسرة الطاهرية في خراسان .		حوالي ٨٠١/١٨٥: وفاة سيبويه عالم اللغويات واستاذ مدرسة البصرة .	
٨١٣/١٩٨: خلافة المأمون .			٨٠٢: تأسيس امبراطورية خمير .
	٨١٦/٢٠١: بدايات الحركة الخرامية (بابك).	حوالي ٨٠٥/١٨٩: وفاة القيصاعي أحد أساتذة مدرسة الكوفة .	
	٨١٧/٢٠١: الخليفة المأمون يعين أحد العلويين خليفة له .		حوالي ٨٠٧: انشاء مدينة هامبورج .
	٨٢٠/١٠٤: وفاة الشافعي ، مؤسس أحد مذاهب السنية الأربعة .	٨١٠/١٩٤: وفاة الشاعر أبي نواس .	حوالي ٨٢٠: أولى غارات النورمنديين على شمال منطقة غول .
٨٢٥/٢١٠: كريت في أيدي المسلمين .			
	٨٢٧/٢١٣: اعلان المعتزلية مذهبا رسميا .	٨٣٢/٢١٧: تأسيس « بيت الحكمة » في بغداد ازدهار ترجمة	

التاريخ السياسي والعسكري	التاريخ الديني	التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي	خارج الإسلام
٨٣١/٢١٦: العرب في بالرمو .		الأعمال اليونانية . الأطلس الجديد للكرة الأرضية . الاشعاع العلمي .	
حوالي ٨٣٦/٢٢١: تصاعد حرس الطغاة التركي		٨٣٦/٢٢١: تأسيس مدينة سامراء .	
٨٤٠/٢٢٦ العرب في باري		حوالي ٨٤٠/٢٢٦ (؟) وفاة الخوارزمي عالم الرياضيات الفلكي .	حوالي ٨٤٠: الأتراك الخرغز سادة منغوليا
٢٢٩ -٢٣٠/٨٤٤ النورمانديون يكتسحون الشاطىء الأطلنطي الأسباني .			٧٤٢: قسم الولاء في ستراسبورج .
		حوالي ٨٤٣/٢٢٨: وفاة الشاعر أبو تمام .	٨٤٣: تقسيم الفردان .
٨٤٦/٢٣١: غارات إسلامية على روما			
	٨٤٧/٢٣٢: بدايات الرد السني .	٨٤٦/٢٣١: بداية الأعمال الإنشائية لمسجد سامراء الكبير .	